1282

هذا

كتاب اتحاف الملوك الالبا * بتقدم الجمعيات فى بلاد اوروبا * وهو مقدمة
لتاريخ الامبراطور شرلكان * الذى كان عصره غرة فى جبهة
الزمان * ابرزه من اللغة الفرنساوية * ونظمه
فى سلك التواريخ العربية * راجى عفو الودود *
خليفة بن محمود * تخرج بمدرسة الالسن *
التى لا يزال تعلم اللغات بها يحسن *
وهو الآن رئيس فرقة ترجمة
الكتب الادبية * التى تبرز من
حيز الفرنساوية الى العربية *
احسن الله عاقبته * وجعل
الخير خاتمته * والمسلمين
امين
تم

(فهرسه)

كتاب اتحاف الملوك الالبا بتقدم الجمعيات فى اوربا | صحيفه

صحيفه

صحيفه

٦

صحيفه

صحيفة

صحيفة

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفه

بيان الخطا والصواب من كتاب اتحاف الملوك الالبا بتقدم الجمعيات فى اوربا

خطا	صواب	صحيفه	سطر
الجنا	الجنان	٣	٤
سلك لشك	سلك الشك	٤	١٣
و يتبع هواها	ولا يتبع هواها	٦	١٩
يرجع وبالجودة	يرجع بالجودة	٧	١٨
الا اعصره بخلاف	الا اهل عصره		
هل من	بخلاف من	٩	١١
كون نهرومة	كون نهر رومة	١٠	١٧
تاريخ الاعيان	خارج الاعيان	١٢	١١
الائتلاف الذى	الائتلاف الذى	١٧	بالهامش
من الامم ذهب عن	من الامم بل ذهب ذلك عن	١٨	١٥
السابق ازيد من هذا	السابق كما هى فى هذا	١٩	٢٤
التى استولوا	التى استولت	٢١	١١
فكان يأخذ	فكانت تؤخذ	٢٢	٨
ولا يرجع	ولا ترجع	٢٢	٨
من الدراهم	من الاموال	٢٢	١٠
صارت عاقبة	خصارت عاقبة	٢٢	١٣
وتنهزم	اوتنهزم	٢٣	٨
اوبها	وبها	٢٤	١١
منتولين	مستولين	٢٥	٧
الكثيرا الحاصل	الكثير الحاصل	٢٥	١٣
وقعت فى ظلام	اوقعت فى ظلام		
الجهالة وخفيت	الجهالة الليل		

خطا	صواب	صحيفه	سطر
فيها الملل التى يلزمنا	القديمة وفى تلك		
ان نبحث عن اصول	الجهالة يلزمنا		
ترتيبها ونكشف	ان نبحث عن		
آثارها الاصلية	اصول حكومات		
ومابقى منها من	اوربا والقوانين		
الاحكام والقوانين	الموجودة		
الجارية فى اوربا التى	الآن		
هى ناتجة عنها	فيها	٢٥	٢١
لانى افيد فائدة على	لانى اذكر تفصيلا		
تقدم الدولة وعلى	تقدم الدولة		
اخلاق	واخلاق	٢٦	٣
كل ملة بخصوصها	كل ملة بخصوصها		
لان هذا مذكور	من الملل التى سأذكرها		
فى التاريخ الآتى	فى هذا التاريخ	٢٦	٣
الامم الساكنة بالشمال	الامم الشمالية	٢٦	٥
الذين خرجوا منها احياء	الذين لم يقتلوهم	٢٧	١٤
وعسكر	وعسكرى	٢٨	١٠
وكان لامرآء جميع	وكان الامرآء		
الاقاليم الذين يدفعون	اولا ينعم عليهم		
المرتب من اراضى ينعم	الملك باراضى		
بها الملك عليهم ومتى	ومتى	٢٨	٢١
ذمام	زمام	٢٩	٢٤
التى كانت فى مبدئها	التى كان		
جبرية محترمة لايمكن ان	منشاؤها الظلم		

خطا	صواب	صحيفه	سطر
بعارض فى ظلمها انسان	محترمة	٣٠	٢٠
تكن بالطبيعة فى المملكة	تكن ملايمة للحكومة		
الالترامية لكونها لم تمكث	الالترامية ولذا لم تمكث	٣٠	٢٠
من هذا الزمن	ومن هذا الزمن	٣٠	٢٤
وجميع تواريخ	ترى جميع تواريخ	٣٠	٢٤
من منع	من خلل	٣١	٢
نتائج انحلال نظام	مانشأ عنه ايضا مما اضر		
الحكم البشرى	بتقدمات العقل البشرى	٣١	٣
وديتهم الذى اتبعوه	والدين النصرانى على		
واعتادوا العمل به	حسب زعمهم	٣٢	٨
لان اعمالهم	مع ان اعمالهم	٣٢	٩
ازالته محبة القوانين	ازالته القوانين	٣٢	٢٢
والحالة التى	وهى الحالة التى	٣٣	١
وعظايم اخلاقهم	واخلاقهم	٣٣	٢
وقد	ولذا	٣٣	٣
الذوق السليم والاخلاق	الذوق والاخلاق		
المستقيمة التى هى	الذى هو	٣٣	١٥
لم يأخذ فى الزيادة	لم يأخذ الا فى الزيادة	٣٣	١٥
وترتيب بدله	وترتب بدله	٣٣	١٨
فى مقابلة الذخائر	فى مقابلة اجسام القديسين الموتى		
والعبادات الهزئية	وغير ذلك من المواد المقدسة	٣٤	٢١
كومينة	كومنينة	٣٥	٢١
تحت المملكة	تحت المملكة	٣٦	٥
حتى ان عدة من الترتيبات	لانها كانت بعيدة عن		

خطا	صواب	صحيفه	سطر
البعيدة عن اوربا المحيطة	اور باو محاطة بالملل		
بالملل الحربية اوالمقواة	الحربية المقواة	٣٦	٨
كانت دائما	فكانت دائما	٣٦	١٠
باراضى	باراض	٣٦	١٨
كان وجور	وكان جور	٣٦	٢٤
الاسلام واكتسبوا من	الاسلام بحيث ان من اطلع		
اخلاقهم الجيدة	على اخلاقهم الحميدة لابدان		
ما اكتسبوا اذلا	يكتسب منها فائدة جليلة فلم	٣٧	١٤
اختلاط العساكر	اخلاط العساكر	٣٧	٢٣
اكثرمما فاسوه	مثل ما قاسوه	٣٩	١٢
كتب من القوانين	بعض من الوثائق	٣٩	٢٣
هذه القوانين	هذه الوثائق	٤٠	٢
لكون حكومتهم	فكانوا يحكمون		
بلغت الغاية فى الظلم	فيها كيف شاؤا	٤٠	٢٤
الطبيعة	الطبيعية	٤٠	٢٥
الخامس عشر	الحادى عشر	٤١	١٩
جيعة	جمعية	٤١	٢١
حرة لا يمكن	حرة اذ بموجبها لا يمكن	٤٥	٢٤
الاستقراطى	الارستقراطى	٤٦	١٩
والاحكام	والحكام	٤٩	١٥
للتفاقم	للتفاقم	٥٢	٧
المعاداة الزمانية الوقتية	المعادات انقطاعا وقتيا	٥٣	١٣
مطلب العيون	مطلب العيوب	٥٤	بالهامش
المتهم بها	المتهم بها	٥٥	١٧

خطأ	صواب	صحيفة	سطر
ولكن كانت اجتهاداتهم الاولية ضعيفة	لان اجتهاداتهم الاولية كانت ضعيفة	٩٠	١٧
اصلا استقلال القضا عن الشرف	اصل استقلال الاشراف بالقضا	٦٢	بالهامش
بتنايج	نتائج	٦٢	٢٤
محاكة	محاكمه	٦٤	٩
يكنسب	يكتسب	٧٣	١٢
الى اوربا	فى اوربا	٧٣	٢٠
فكثيرا	فكثيرا	٩٠	٢٢
تقتضية	تقتضيه	٩٢	٢٨
لاراضى	لاراض	١٠٧	١١
اراضى	اراض	١١٩	٢١
بها الى تحصيل	بها تحصيل	١١٥	١٧
ويجعلوادار	ويجعلوادار	١٢٤	٢٣
بعض مبانى	بعض مبان	١٢٣	١٨
كانوا الخلفاء	كان الخلفاء	١٣٨	٨
اهالى اوربا	اهالى اوربا	١٦٤	٩
احدثه	احدثه	١٦٨	١٨
اضيف	اضيق	١٧١	٩
مطلب تجديد	مطلب تحديد	١٧٩	بالهامش
ويوسعها وكان ذا	ويوسعها اذا	١٧٣	٢٣
التفصاصيل	التفاصيل	١٨٠	٢٣
التابع الملتزم	التابع لملتزم	٢٠٤	٢٢
الملتمة	الملتقة	٢٠٥	٨

خطا	صواب	صحيفه	سطر
بتقلد	بتقلد	٢٠٨	١٥
بجميعه عن	بجميعه من	٢٠٨	١٥
قونتةوو بس وقونتة	قونتيةوو بس وقونتية	٢٠٨	٢٢
يترلشبه من اراضيه	يترلذا اراضيه	٢٠٩	٢١
والمقدار كثيرة	وامثلته كثيرة	٢٠٩	٢٨
كرشدراد	كوثراد	٢١١	٩
لم يكتنى	لم يكنى	٢١٥	٣
او يمكنه	او يمكنه	٢١٧	٧
والقناه	واقتناه	٢٣٣	٨
القرنساوية	القرنساوية	٢٤٦	١٨
والاعما	والاعمام	٢٥٧	٥
كان محترمة	كانت محترمة	٢٦٠	٣
الفندوق	لفندوق	٢٦٠	٢٤
الدوريين	الدوريين	٢٦١	١١
يوملى من	يوملى صدرمن	٢٦٤	٢١
سبب كان	سبب كانت	٢٦٤	٢٢
او يعاقبوا	ويعاقبوا	٢٦٤	٢٤
قابطلوا	فابطلوا	٢٦٦	١٢
بونتوس هونوروس	بونتوس هونوروس	٢٧٦	١٥
الدعاوى والى	الدعاوى الى	٢٨٥	١٨
لاوامر البا	لاوامر الباباية	٢٩٦	٩
باكستير	سيكستير	٣٠٠	٨
بغرض بعض	بغرض بعض	٣٠٤	١٣
لاتفوقمن الانها	لاتخفيق من الانهاء	٣١٢	١٣

خطا	صواب	صحيفه	سطر
تكفى	يكفى	٣١٣	٢٣
فلاعزر	فلاغرو	٣٢٨	٢٢
فتوقفت بشورة	فتوقفت مشورة	٣٢٩	٢١
المتنع من ديوان	منع ديوان	٣٤٥	١٢
مسطيلة	مستطيلة	٣٤٨	٢٣
ومطران ترنوة	ومطران ترنوة	٣٥٠	١٣
فتصاح	فتصاح	٣٦٤	٢٣
بل واجبة	بل واجبه	٣٦٦	١٠
من لايفعل	من لايفقل	٣٦٨	١
عن الجابى	عن الجانى	٣٦٨	٦
يوسيك	بوسيك	٣٧٤	٣
من تعد	من تعدى	٣٧٧	١٥
اوقع بنة	اوقع بينه	٣٧٨	١
ان يصغ	ان يصغى	٣٧٨	٧
يحضروه	يحضرونه	٣٧٨	٢١
ثانى	ثان	٣٧٩	٣
لمن تحمل	لمن تحامل	٣٨٠	١٨
من المظالم	من المظالم	٣٨٢	١٢
ودعى	ودعا	٣٨٤	٤
يشهدون عليك	يشهدون لك	٣٨٤	١٧
يعذر	يعزر	٣٨٤	٢٤

خطأ	صواب	صحيفه	سطر
الافق الشمالي	العرض الشمالي	(١) عن الخارطة	١٢
وفيه اثنا عشر	وعليه ثلاثة وخمسين		
من الطول الشرقي	دقيقة من الطول		
وعشرة وخمسين	الشرقية وتجارتها		
من الطول الغربي			
وتجارتها			

سابقة

من المعلوم ان ديار الاسلام كانت للعلم والحكم منبعا * وللتمدن والرفاهية مخبعا * فقل ان مضت برهة من غير ان تظهر مؤلفات جديدة * وتنشر في العلوم تحقيقات مفيدة * جالت عقول مؤلفيها في بحور المعاني كل الجولان * فاتت باعلا واغلا من قلائد الجمان * اذ كانت القرائح وقتئذ تشن الاغارات المتوالية على ثغور المعاني * فتستولى من منثورها على القاصى والدانى * وتفتح فيها كل يوم فتوحا جديدا * وتجعل امرآها عبيدا * لاسيما مدن مصر فكانت في زمن الخلفاء وقبل زمنهم رئيسة الميدان * وقائدة كتائب الفرسان * تخرج بها في غابر الازمان جم غفير من الفلاسفة الاعيان * الذين اشتهرت بهم بلاد اليونان * وكان يهرع اليها الناس في الحديث والقديم من سائر الاقطار والبلدان * ويقصدها الطلاب من اقصى البقاع والاوطان * ليرصدوا بها كواكب المعارف في سموات عقول تتعالى * ويقتبسوها من افلاك اذهان تتلألا * وكم كان بها جاهلية واسلاما من هيكل عن ساطع الحكمة اسفر * ومن مسجد بالعلوم العقلية والنقلية ازهر * مدرسوه علماء عظام * وادباء فخام * يروون الفصاحة عن قس عكاظ وسحبان وائل * ويسندون احاديث المعارف معنعنة الى الاوائل * فطالما كانت بحور المعارف تصب متلاطم امواجها في شفاه فضلاء لاتعد ولا تحصى * وافواه نجباء لا تستقرى ولا تستقصى * فترى رياض العلوم يانعة الازهار * دانية الثمار تجرى من تحتها الانهار * واشجارها مورقة الاغصان * مرونقة الافنان * وكان هذا باعانة الخلفاء العادلين * واغاثة كبار الملوك والسلاطين * فلما طوى الدهر على التدريج هؤلاء الاعلام فترت الهمم * وعادت العلوم بديار الاسلام كالرمم * اذ مكث حقبة وهو لا يسمح الا بحكام قليلي البضاعة * قصار الباع في الادارة والبراعة * فكانت مدة حكمهم ايام تعثير واضطراب * وتغير وانقلاب * وتدمير اجيال وطوح رقاب * ومظالم سدت كل باب * فابدت

المعارف من عندنا * لتتمتع غير ارضنا * واتخذت بلاد اوروبا وطنا *
وجعلتها لها عطنا * وتكاملت بدورها فى سمائها * وفاح شذاها فى ارجائها *
حتى صار الافرنج يفتخرون علينا بما اقتبسوه فى الحقيقة منا * ورووه
بالواسطة عنا * وظن من ظن ان ما مضى لا يعود * وان الزمان بمثل العقول
السالفة والملوك السابقين لا يجود * فبينما الظن العام هكذا اذا الايام قد اقبلت
بابتسام بعد العبوس والادبار * تكذيبا لمن ظن فيئس كما يئس من
اصحاب القبور الكفار * وحيث اسعفنا الدهر * وساعد العصر بالنصر * اتاح
البارى لبلاد الاسلام امرآ نجيبين * وسلاطين يتنافسون فى الفخر مع الملوك
الاولين * اسسوا فاتقنوا * وساسوا فاحسنوا * وان لم يسعفهم الحظ فى كل
حين * فاتاح لمصر من اجمع الناس على حسن حزمه وكياسته * وقوة عزمه
ورياسته * بجمع المحاسن فاوعى * ولاحياء التمدن بادروسعى * كيف لا وهو
الملقب عند اهل اوروبا بمعيد تمدن الاسلام * ومبيد تمكن الاوهام * اما انه
قد ازال بباسه وهمته * وسطوته وصولته * جميع العوائق التى كانت بها
الاذهان فى اسر وكبل * وكانت قيدا لتقدم العقل * فاحيى ما اماته الزمان *
وجدد ما اندثر وصار كخط زبور فى مصاحف رهبان * ادرك من مبدء امره
مقاصد غريبة * ومآرب عجيبة * حتى فتح المسالك والطرائق * والمفازات
والشواهق * لتمدن المشرق الذى كان هجر منشأه ومنبعه * وسلا مهده
ومضجعه * لكى يرجع بالثانى الى اصل غرسه * ومسقط رأسه * فجلب من
البلاد القاصية * الى مصر القاهرة * رجالا مشهورين * فى العلوم ممتازين *
وبعث الى البلاد الافرنجية * عدة ارساليات من الشبان المصريه * فاتوا
الى وطنهم بكل فن غريب * من بعيد وقريب * فالعلوم الآن عادت بعد
ان بادت * وباتت بعد ان بانت * لما انه لا بد لكل غريب ان يتشوق الى وطنه *
واهله وسكنه * فالنوم لا يهوى سوى المقل * ولا يتسلى عنها بسدل *
فقد اينعت الآن فى بلاد مصر رياض العلوم والعرفان * وغردت بلابلها على
زواهى الاغصان * حيث جدد فيها الداورى الاكرم مدارس اشرقت منها

الشموس * وترنمت فى حدائقها العنادل على ايك الطروس * تخرج منها الشاعر والناثر * والكاتب الماهر * والزراع والطبيب * والمهندس اللبيب * منهم من اتحف بالرتب السنية * ورقى بالمعارف المراقى العلية * فهو الآن خوجة بالمدارس يلقى لغيره ما حصله * ومارسه وزاوله * والفرع يقفو الاصل فان شاء الله يزيد فخار الامصار * وتكون عامرة الاقطار * حفظ الله ولى النعم وسلالته الزكية * وعشيرته الداورية * لنا منها ابراهيم * ابو رحيم * صاحب السيف والتدبير * والمجد الاثير * ابدى عزم اسكندر * فهو حرى ان يلقب بابراهيم الاكبر * ما شرع الا وظفر * وما توجه الا ونصر * وما شن الغارة حينا * الا ونودى انا فتحنا لك فتحا مبينا * ولنا منها الماهر العباس * اذا تلاطمت الناس بالناس * ولنا بسعيد السعد * اذا حل بناشئ من بعد * حسينهم حسن الخصال * وحلم حليمهم منيع المنال * وفخر محمد على * وطالع سعده جلى * والكل يتنافسون فى معالى الفضل * ومعالم العدل •

ولما كانت مدرسة الالسن تدرس بها كليات علوم عربية وافرنجية وكنت قد بذلت فيها الهمة * وكان لى فى التحصيل رغبة بجهة * حويت ما قرئ بتلك المدرسة من معقول وآداب * ومنقول مما تتزين به الباب الطلاب * وحصلت بها من عروض وميزان * ومعان وبيان * ما تتحلى به ابكار الاذهان * لحق استوجبت الثناء الجميل من خوجات تلك المدرسة الاعلام * من عرب واعجام * وقلدت بوظيفة خوجة فى اللغة الفرنساوية * بتلك المدرسة البهية * وامرت بترجمة عدة كتب فى علم الحقوق الطبيعية * وفى العلوم الجغرافية فترجمتها وترجمت كذلك تأليفا عزيزا * وان كان وجيزا * سميته تنوير المشرق * بعلم المنطق * طبع ونشر * وبالقبول ظفر * وترجم ايضا من العربية الى التركية * ثم امرت بترجمة تاريخ ايمبراطور انخفضت له الرقاب فى عصره * واستقل من بين ملوك الافرنج فى امره * وهو الايمبراطور شرلكان * شاع امره فى كل مكان * حتى ان الوقائع الكبيرة التى حصلت مدة حكمه لم تزل مؤثرة فى حالة اوروبا الى الآن

ولا شك

ولاشك ان فن الترجمة جبل صعب المرتقى * وسلوك شعابه اشد من يوم اللقا * يرى قلم البليغ فيه معزلا * وذو الرمح فى ميدانه اعزلا * ولربما ان من يروى قلمه عن معجزات البيان * وايات التبيان * يرى نفسه قليل البضاعة * عاطل البراعة * هيهات ان اخذ يستخرج من هذا الفن دره المكنون * من غيران يبوء بصفقة مغبون * وقد اعترف بذلك من العلماء الماهرين من تمرن على التاليف * وانواع التصانيف * واحاط قلمه بالدانى والقاصى * والطائع والعاصى * (راجع خطبة المؤلف سوار الذى ترجم تاريخ الايمبراطور شرلكان من اصله وهو اللغة الانكليزية الى اللغة الفرنساوية)

فلما علمت ان فن الترجمة بهذه المثابة لاسيما وتاريخ الايمبراطور شرلكان من اصعب ما انتظم فى السلوك * من تواريخ الدول والملوك * صرت احجم واقدم * ثم اتقهقر واحجم * لان من ترجموه الى اللغات المختلفة كانوا ابطالا تشهد لهم بالذكا والالمعية * والفطانة بين البرية * ومع ذلك قد استصعبوه * وبالدقة وصفوه * مع ان لغاتهم متشابهة لبعضها والحروف واحدة فاذا عثر من ترجم من الانكليزية مثلا الى الفرنساوية على كلمة لم يجد لها مقابلا فى لغته * يكتبها على اصلها فى ترجمته * وتقرؤ وتفهم من غير صعوبة ولكن غرنى الرجاء والامل * وامنت الخطا والزلل * حيث كان لى ثم بطل ارجع اليه * وصنديد تحرير فى هذا الشان اعول عليه * كيف لا وهو النجيب اللبيب * الالمعى الاريب * من هو لفك المشكلات قريب مجيب * رفاعة افندى رافع * لازال به ظهور المنافع * تمكن من حل مشكل اللغتين * فحل فوق الفرقدين * لاسيما وقد تخرجت عليه فنقلت عنه فى عرفانه وادبه * وشربت من مشربه *

ان السلاح جميع الناس تحمله * وليس كل ذوات المخلب السبع

فلم تعقنى صعوبة هذا التاريخ * المشتمل على عبارات اشد من يوم المريخ * خصوصا مقدمته التى سميتها اتحاف الملوك الالبا بتقدم الجمعيات فى بلاد اوروبا

وكان القابض بزمام المدارس وقت ان سودت ترجمة هذا الكتاب هو المرحوم مختار بيك طواه الدهر * ولم يبق الا ذكره غرة فى جبين العصر * كان يحب العلم واصحابه * والفضل وار بابه * وكان يعرف ميزة الكتب الغريبة والقريبة فبادر الى قبوله * واثنى عليه فى قوله * وقدمه الى الاعتاب الكريمة فامر بطبعه * لعموم نفعه * ووعدت بان اغترف من بحور ولى النعم العطا الجليل * والجزاء الجميل * الا انه نشبت به المنية فى اثناء ذلك * واخذ اليأس يسدد علينا كل المسالك * لكن بينما كانت اشعة الرجاء تودع النفس * وتنفصل عنه كما انفصل الآن من امس * دعى الى ادارة المدارس من هو ادرى بالرياسة * واحرى بالكياسة * كيف لا وهو حضرة ادهم بيك جامع مخدرات حميد الخصال * وتاج الفضل والكمال * فاظهر علانية الشرف * حتى قيل فاق الخلف السلف * فحقق لنا المظنون * والغائب عن العيون

وقد ترجم هذا الكتاب الى اعظم اللغات الافرنجية * كالنمساوية والفرنساوية * وكان ذلك ناشئا عن اهميته * وعلو قيمته * ولا شك ان اللغة العربية به احرى * اذ هى ام اللغات الكبرى * خصوصا وكنت ارغب الرغبة التامة فى تعريبه لانى اعلم انى لم اسبق بترجمة مثله كيف وقد جمع بين غرضين مهمين احدهما تاريخ الايمبراطور شرلكان والثانى كشف القناع عن الحوادث العظيمة والانقلابات الجسيمة التى حصلت فى قسم عظيم من اقسام الدنيا اعنى قسم اوروبا وكان فى اقطع درجات التبربر والتخشن * ثم صار فى اكمل درجات الرفاهية والتمدن * واسباب ذلك تقتبس من انوار الاتحاف فغصت فى لجج بحوره * لصيد درر نحوره * ولعل ديارنا ان اطلعت عليه * ووقفت على اسرار حقيقة ما فيه * تتعلق بالاسباب التى تمسكت بها البلدان الاخرى فاخرجتها من حيز الغفلة * وتبادر الى سلوك سبل الفلاح والتقدم لتعود كما كانت اعظم ملة * لان التواريخ انما هى موعظة للعاقل * وهدية من الجيل الماضى للقابل

هذا ومؤلف التاريخ المذكور هو روبرتسون الانكليزى شهير بين الملل *

مشهر

مشيرلذى العمل * كان اذا الف للافرنج كتابا ترغب فيه النفوس * وتتفتح به ازهار البراعة فى رياض الطروس * وتنجلى به عندهم آفاق المعارف * وتنكشف شموس العوارف * تروى انوآؤه حياض العقول * وتجلو اضوآؤه المحجوب والمجهول * فلما الف تاريخ الايمبراطور شرلكان المذكور بمقدمته واشتهر ما بين البلاد * سنة (١٧٢٩) من الميلاد * فاز بين الكتب التاريخية بالنصر * واثنى عليه عندهم علماء العصر * فكتب الشهير ولتير الى المؤلف روبرتسون وكان قد ارسل اليه نسخة من هذا التاريخ تقريظا وهو (قد وصلنى منذ اربعة ايام هديتكم النفيسة التى شرفتنى بوصولها الى * وورودها على * وكنت وقتئذ اخشى فقد بصرى بسبب نزلة شديدة حالة بى فلما وقفت على معانيها * وفهمت ما فيها * حل بى الفرح * وزال عن قلبى الترح * وانصرفت عنى الهموم * وايقنت انك والمؤلف هو م * حريان حقيقة بتأليف التاريخ وانت فصيح وبذلك جدير * خلى الاغراض وعالم نحرير * وها انا جعلت نفسى فى سلك اهالى اوروبا بالتأدية ما يجب لك من المدح والاكرام * والتبجيل والاحترام انتهى ولتير)

فانظر كيف كتب له هذا الفلسفى العظيم الذى عاب فى زمنه على المتقدمين والمتأخرين حتى ترى مؤلفاته مشحونة بالتنكيت على سائر الامم سوآء كانوا متمدنين او متبربرين وهو الذى فك بلاد اوروبا باسرها من ربقة الاستعباد وانقذها من اعماق الجهالات * واخرجها من افاق الضلالات

وقد اتحف روبرتسون ايضا بعلامات الشرف والتبجيل * من كل فريق وقبيل * حين الف هذا الكتاب حتى ان عدة من الاكدميات (جمعيات كبار بابه العلوم والفنون) اعتنت بجلبه * ورحبت به * لتتخذه من زمرة اعضائها * وتجعله فردا بين علمائها * واتى اليه وزير دولة الموسقو بمشرف من طرف اكدمية تحت هذه الدولة يشهد له بالمجد والفضل * ودقة العقل * واتى اليه هذا الوزير ايضا بعلبة مرصعة بالجواهر من طرف الايمبراطورة كاترينه ملكة الموسقو وكان امرها عجيبا فى معرفة قيمة جميع انواع الكتب

والتأليف فلما قرأت تاريخ شيراكان المذكور اضطربت ومالت * ومن العجب قالت ان هذا التاريخ خير طريق * وفى الاسفار رفيق * فلا اسام ابدا من القرآءة فيه ولا احول * لاسيما الجزء الاول (الجزء الاول هو اتحاف الملوك الالبا)

هذا ولا يخفى ان مؤلف كتابنا قد شنع على الدولة العثمانية ووصفها بالظلم والجور وعدم الانتظام كما هو مبوب له بصحيفة (١٧٥) من اتحاف الملوك الالبا وبرهن على ذلك فى آخر عقد جمان التوضيح مع انه خلى الاغراض لا يؤسس رأيه على مجرد قول العامة لاسيما وقد قال بصحيفة (٣٤٤) فى عقد جمان التوضيح حين تكلم على قوانين فرانسا (وهذا الامر انما هو بحسب ما ظهر لى ولست جازما به كما هى عادتى اذا تعرضت للكلام على قوانين الملل الاجنبية) فلا اعلم ما الداعى له الى ذم الدولة العثمانية والجزم بانها خالية كما يقول عن الانتظام * رديئة الترتيب والاحكام * مع ان هذا غير الحق حيث خالف فيه علماء ماهرون من ابناء ملته النصرانية فبنيت على قول هؤلاء العلماء وحررت بعض صحيفات ناشئة عن عين الحقيقة وضعتها فى آخر اتحاف الملوك الالبا

وحيث ان الكتاب فيه اسماء رجال او بلاد او غيرها تصعب قرآءتها مع الضبط استنسبت لاجل بيانها ان ارتب الصعب من هذه الاسماء على حروف الهجا فى معجم مخصوص جعلته خاتمة

والمأمول ممن قرأ فيه ان يضرب صفحا عما يظهر له من القصور فى ترجمتى لان اللغة العربية بمعزل عن اللغات الافرنجية فلزم لى معاناة اين * ومكابدة مشاق من حين الى حين * لاجل ان آتى بمقابل الفاظ يصعب وجود مقابل لها فى العربية يكون مطابقا لمعناها * ومؤديا لجميع مفادها وفحواها * حتى انه ربما ورد على بعض الفاظ لم اجد لها مقابلا بالكلية فبلفظها الاصلى ذكرتها * وبجملة اعتراضية فسرتها * ومع ذلك فقد حاولت مجاراة عبارات الاصل كل المحاولة * وزاولتها كل المزاولة * ولذا كانت بعض العبارات فى ترجمتى على نسق يبعده من بعض الوجوه عن قالب الفصاحة العربية

ويقرب

ويقرب من غالب اللغات الاعجمية * لان المترجم يلزمه ان يكون اسيرا
للاصل فى تركيبه * ونظمه وترتيبه * والفرع ان لم يقف اثر اصله * قل ان ينجح
فى فعله * وربما راعيت ادنى ملايمة بين التشبيهات * واوجه الاستعارات *
ولكن عدلت عن كل تشبيه فى الاصل يكون اعجميا محضا * فبدلت بعضا
وحسنت بعضا * فجاء هذا الكتاب بعون الله خاليا عما يشينه * مشتملا على
ما يزينه * راقت رياضه وحياضه * وجماله وغياضه * يتبختر بين الكتب
المترجمة فى هذا الشان كالعروس * رافلا فى ابهى ملبوس * يبارز فى ميدان
كتب التاريخ القديم والجديد * بقلب صنديد * يحتاج اليه من اراد الرشد
فى المسالك * لئلا يضل فى ليل التاريخ الحالك * وهو ايضا مهم لمن اراد معرفة
ادارة الممالك والقوانين السياسية اصولا وفروعا * يتخذه اهل الفضل فى هذا
الشان مرجوعا * جمع الكثير فى القليل بطريق عذب * لا تسأم منه نفس ولا يمجه
قلب * بل هو دواء لب كل ظامئ عزوف * ولوذعى يتشوق * جمع فوائد كبيرة *
وفرائد كثيرة * جدير بامعان النظر * وقدح الفكر * ممن اراد الاطلاع على
ظاهره * اورام رشف كؤوسه * لانه دقيق فى اصله * فربما يحتاج لموقف
عند التوقف فى حله * وبالجملة ففيه غاية الارب * لكل فاضل كامل الادب *
وعليه فى كتب التاريخ الاعتماد * فالارتياد الارتياد * لانك ان عرفت
بديع دقائقه * ووقفت على كنوز حقائقه * شهدت بما قلت * وعليه عولت *
وها هو الآن قادم على محضر مشحون بالخاص والعام * يشهد بدل
الامام الف امام * اعنى انه عرضة لان يطلع عليه القاحل والفاقع * والكاهل
واليافع * وعند الامتحان * يكرم المرء او يهان

ولنذكر لك الآن خطبة المؤلف لكى تعلم القصد منه * فلا تحول عنه * قال
اذا طالع الانسان تاريخ بلاده لا يجد به زمنا الا ويرغب فيه ولو من بعض
الوجوه لان جميع الوقائع التى تفهمه شيأ فى شان تقدم وطنه وشرائعه
وقوانينه واخلاقه تستميله كل الميل وتكون مطمح نظره جديرة بقدح فكره
بل كذلك ما هو غير مهم من تلك الوقائع يثير رغبته كما هى عادة البشر * واما ان

اخذ يطالع تاريخ الملل الاجنبية فتفتر همته وتقل رغبته خصوصا وقد كثرت كتب التاريخ في بلاد اوروبا واتسعت دائرة تأليفها بسبب البراعة والتقدم الذي حصل لكافة الناس في المعارف منذ قرنين و بسبب معرفة فن الطبع واسباب اخرى معلومة بحيث ان حياة الانسان لقصرها لا تكفي لمطالعة تلك الكتب ولا قراءتها بمجرد قراءة

و بالنظر لذلك ينبغي ان الناس المكلفين بادارة الدواوين والمصالح العامة بل ومن هم متفرغون لهذا الشان وللبحث عنه بالخصوص يقتصرون على ان يعرفوا بوجه الاجمال الوقائع البعيدة الاجنبية و يكتفون من معرفة التاريخ بمطالعة تاريخ الزمن الذي التأمت فيه ممالك اوروبا ببعضها وصارت مشروعات كل دولة تسرى في بقية الدول فتؤثر في سياساتها وادارة مصالحها و بناء على ذلك يلزم تعيين الحدود التي تبين تلك الازمان عن بعضها فاقول انه قد سبق زمن لم يكن قبله بين الممالك سوى ارتباطات هينه * ومداخلات غير بينه * حتى ان كل مملكة منها كان لها تاريخ بخصوصها ثم حصل عقب هذا الزمن ان صارت كل ملة من امم اوروبا ترغب في وقائع من بجوارها من الملل العظيمة وهذا الزمن الاخير هو الذي يلزم بيانه

ولهذا القصد الاخير شرعت في تأليف تاريخ الامبراطور شرلكان لما ان في مدة حكمه تجدد بين ممالك اوروبا مذهب سياسي متسع الدائرة بحيث انه من مدة حكمه اخذت كل دولة منزلة معلومة بين الدول لم تزل تشغلها من ذلك الوقت مع شديد ثبات وكبير حصول زيادة عما يتبادر لمن اطلع على التقلبات والتغيرات المهولة الناشئة عن الفتن الكثيرة الداخلية والحروب الكبيرة الخارجية التي حصلت في ذلك الوقت * فترى الحوادث العظيمة التي حصلت اذ ذاك لم تنقطع الى الآن مدخليتها في حالة الممالك الافرنجية حتى ان الاصول السياسية التي ترتبت عليها لم تزل مؤثرة تأثيرا عظيما في حالتنا الراهنة وترتب على تلك الحوادث ايضا اصول كالميزان المتعادل بين الممالك و بعضها ولم تزل هذه الاصول تؤثر في المصالح والاعمال السياسية التي تنعقد

الآن فى دواوين اوروبا

وعلى ذلك يمكن ان يقال ان القرن الذى حكم فيه الايمبراطور شرلكان هو اول زمن حسن به شان السياسة فى بلاد اوروبا واخذ يسلك مسلكا جديدا ولما الفت هذا الكتاب اهتممت بان جعلته مقدمة لتاريخ اوروبا مدة العصر الذى اعقب حكومة شرلكان ولما رأيت ان مؤلفى السير لم يذكروا لهذا الايمبراطور فى تآليفهم سوى افعاله وصفاته الذاتية ورأيت ان جميع المؤرخين لم يذكروا من وقائعه الا ما نشأ عنه تأثيرات وقتية فى بلاد مخصوصة تجنبت ذلك وعزمت على ان لا اذكر فى تاريخى هذا من حوادث حكومة شرلكان سوى الوقائع الكبيرة التى عم تأثيرها بين البلدان حتى انها لم تزل الى الآن مؤثرة فى حالة اوروبا

ولما كنت اعلم ان من قرأ تاريخ شرلكان لا يستفيد منه فائدة تامة الا اذا كان له المام بالحالة التى كانت عليها بلاد اوروبا قبل حكم هذا الايمبراطور جعلت له مقدمة تمهد لقارئه طريقا يسلكه فى هذا الغرض وذكرت فى تلك المقدمة مع الايضاح جميع الوقائع والحوادث التى كانت سببا فى التغيرات المتوالية التى اعترت حالة اوروبا السياسية من منذ انقراض الدولة الرومانية الى ابتدآء القرن السادس عشر وسميتها تقدم الجمعيات ببلاد اوروبا (قد راعيت هذا الوضع فسميتها اتحاف الملوك الالبا بتقدم الجمعيات فى بلاد اوروبا) وذلك لانى اودعت فيها تقدمات الجمعية الافرنجية وتحسين شأنها فيما يخص تدبير البلاد الداخلى وشرائعها واخلاقها وما يخص القوى العسكرية الملية اللازمة لتنجيز الاعمال والمشروعات الخارجية و بينت فى تلك المقدمة ايضا القوانين والاصول السياسية التى كانت بالدول الكبيرة من اوروبا فى اوائل حكم شرلكان

وقد أدى بى هذا الغرض الاخير الى مباحث جدلية عديدة تكاد ان تكون من خصوصيات الاصولى او الجدلى لا من خصوصيات المؤرخ فجعلت هذه المباحث قسما مستقلا برأسه ذيلت به المجلد الاول من تاريخ شرلكان

وسميتها البراهين والتوضيح (راعيت هذه التسمية فسميت تلك المباحث عقد جمان التوضيح * بالبرهان الصحيح) ولظن ان بعض الناس لا يعتنى بهذه المباحث ولا يلتفت اليها الا التفات ولكن لا شك انه يوجد اناس اخرون يعتنون بها كل الاعتناء بل ويعدون انها الجزؤ الاهم من كتابنا هذا

وذلك لانى اتيت فى تلك المباحث بمأخذ الوقائع التى ذكرتها فى تاريخى هذا وذكرت عبارات المؤلفين الذين وثقت بهم واعتمدت عليهم او مفاد عباراتهم وبقت الغاية ولو فى الاشياء الدنية بحيث انه اذا صح للانسان الفخر بكونه قد قرأ كتبا جسيمة * واطلع على تآليف عظيمة * اقول ان من تأمل فى المؤلفات العديدة التى نقلت عنها يتراآى له انى اتباهى وافخر بكثرتها لاسيما وهى مشتملة على كتب كبيرة ما كان يخطر ببالى ان انظر فى ورقاتها * ولا اشغل فكرتى بالتأمل فى صفحاتها * لولا ان حملنى على ذلك اثبات الوقائع التى ذكرتها فى تأليفى هذا والبحث عن تحقيق مسائله مع غاية الاهتمام * ليأتى على وفق المرام

وحيث ادتنى تلك المباحث غالبا الى ان اسلك طرقا غير الجادة قل من يطرقها من المصنفين اضطررت الى ان احيل قارئ كتابى على المؤلفين الذين تبعتهم ونسجت على منوالهم وقد ظهر لى ان هذه الطرق لازمة كل اللزوم لتأكيد الوقائع التى بنيت عليها براهينى ولارشاد المؤلفين الذين يريدون ان يقتدوا بى فى طريقى التى سلكتها فيسهل عليهم البحث عما يحتاجون اليه من غير ان يخيب سعيهم * ولا يكون سدى جهدهم .

ولا شك ان من قرأ كتابى هذا او كان فطنا ذا خبرة ودرايه يرى انى قد تركت جزأ كان من اللازم ذكره ولذلك رأيت انه يجب على بيان سبب ترك هذا الامر المهم فاقول انى لم اتعرض لذكر فتح بلاد مكسيك و بلاد پرو ولا لذكر استيطان القبائل الاسبانيولية بالاراضى القارة من امريكة و بجزائرها لانى كنت عزمت اولا على ان اطنب كثيرا فى شرح تلك الوقائع الكبيرة

فبعد امعان النظر رأيت ان استكشاف امريكة وتجاراتها ومدخليتها في سياسات اوروبا من الاشياء المهمة الجسيمة بحيث لا يصح ان اتكلم عليها بوجه موجز اذ ليس لذلك فائدة كافية فلا تتشوق اليه النفس بهذه المثابة * واذا تكلمت على هذا الامر كما ينبغي ووفيت به حق التوفية اوقعني في الاقتضاب * وجرّني الى اسهاب واطناب لا يليق ذكره بهذا المختصر فابقيت ذلك لاذكره في تاريخ مخصوص ساشرع في تأليفه ان حظي تاريخ شرلكان هذا بالقبول * وفاز ببلوغ المأمول

ولكن لا يخفى ان هذه الاشياء التي حذفتها من تاريخ شرلكان انما هي بمعزل عن الغرض الاصلي * ومع ان مواد هذا التاريخ ضيقة اظن ان من تأمل فيه وعرف موضوعه كما بينته آنفا يجده واسعا جدا بحيث يعد من اعظم المشروعات الصعبة ولطالما كانت تحدثني نفسي بان هذا امر خطب يصعب على مثلي ولكن كنت واثقا بانه يكون له نفع كبير وفضل شهير فصممت على تأليفه ولم التفت لعائق ورد على البال * وقام بقصد كل امر تزينه لي الآمال * وهو الآن داخل في محكمة العموم * يطلع عليه الامام والمأموم * والامتحان محك الانسان * وها انا لما يحكم به منتظر * وفي امري متحير * ملازم الادب والصمت * لا انفك عن ضمير السكت * فاذا حكم بشئ لا اسأل سببه * ولا اتفوه بكلمة عقبه انتهى

ونذكر هنا ديباجة الاديب اللبيب * والنجيب الاريب * سوار الفرنساوي الذي ترجم هذا التاريخ من اللغة الانكليزية الى اللغة الفرنساوية ونقلته من ترجمته الى العربية ليسوغ لي بذلك الاعتذار حيث اعتذر هذا العالم بصعوبة فن الترجمة خصوصا في مثل هذا الكتاب مع انه قد فاز بمنصب كاتب سر الاكدمية اي ديوان العلماء وهو منصب لا يرقى اليه الا كل شهير بالامتياز جدير * صار فن التأليف من ضرورياته * والتصنيف من عاداته * قال

لاشك ان زمن حكم الامبراطور شرلكان هو اعظم زمن ذكر في تواريخ اوروبا من منذ انقراض جمهورية الرومان ولذا كان لا يقوم بواجبه الامؤلف

ناجب * ذهنه فى مادة التاريخ ثاقب * فتولى امره الشهير رو برتسون الانكليزى واى انسان بذلك منه احرى * و بهذا المقصد ادرى * ولكن كان يلزم له مترجم انجب منى وابرع * وامهر واسرع *

وكثيرما دعانى رو برتسون بنفسه الى ترجمة كتابه فاغرانى بو ثوقه بى فى مثل هذا الامر المهم فلبيت دعوته ولكن تأسفت على انه لم يكن لى اقتدار على ان اوفى بمقصده بوجه يكون اهلا لمثل كتابه * وجديرا باطلاع من قرأ فيه من طلابه

ولكن اظن انى قد اتيت فى ترجمتى بمعنى الاصل من غير تغيير ولا تبديل * وحافظت على سلوك سبيل الاستقامة والانصاف وعدم التحامل كما سلكه المؤلف الذى هو فى تأليفه يمتاز بهذه الصفات اكثر من غيرها ولكن لم يمكنى ان آتى فى العبارة بالرقة والتمييق وغير ذلك مما يتباهى به الانكليز فى تاليفهم * ولا يخفى ان التأليف بلغة الفرنساوية صعب جدا لاسيما اذا الف الانسان بهذه اللغة ما كان خشن المطلب * عكر المشرب * لا يجذب القلب ثم اذا ترجم الانسان شذرة من كتب الفصاحة والآداب * او ترجم شيأ من الاشعار التى بحورها يغوص اولوا الالباب * ربما يؤثر فيه ما اودعه المصنف الاصلى من التصورات المستميلة للقلب فتصير للمترجم كانشائه و يكون مطلق التصرف فى نثره اوشعره * حرا فى عباراته لا اسير الغيره * فيعبر عنها برونقها الاصلى او برونق اخر ظريف * وتمييق بديع لطيف * بخلاف ما اذا ترجم تأليفا من المطولات * مقصورا على حكايات * لا حماس فيها * ولا مغناطيس لمعانيها * فهو مجبور على ان ينسج على منوال الاصل فى التصورات والمعانى * بل وان يرسم صورة التركيب والمبانى * الى ان قال

وكثير من المؤلفين العظام اذا ألفوا استعطفوا * واذا ترجموا اعجموا * منهم المؤلف برووت فانه كان فى تأليفه سهل التركيب بليغ القلم فصيح العبارة واذا تاملت فى بعض تراجمه تراها غير صحيحة وترى كوكب بيانه افل * ونسج براعه اختل * واذا نظر انسان الى ما اوردته فى شأن صعوبة فن الترجمة فهم

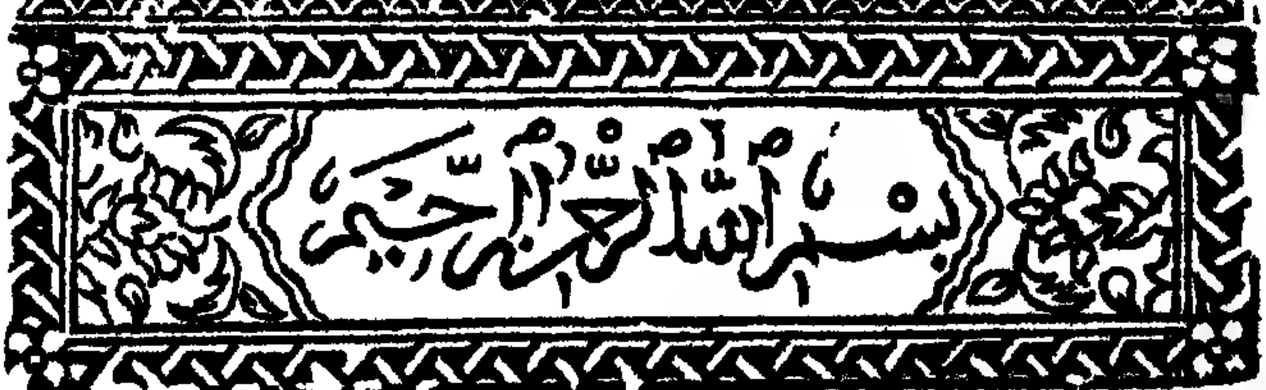
ان

ان مجرد القصد بذلك انما هو ان اخفف عن نفسى اللوم الذى يوجهه الى من قرأ فى ترجمتى وعثر فيها على ما ارتكبته المرار العديدة من السهو بل ومن الغلط والخطاء الكبير نعم ان هذا مقصود لى لكن الحق ان الغرض الاصلى من ذلك هو انى خشيت ان من قرأ فى ترجمتى ينسب الى المؤلف رو برتسون ما هو مجرد قصور وعجز منى ولا حاجة الى الاطناب فى مدح اهذا الكتاب المستطاب فان اعظم شئ يمكننى مدحه به هو انى ترجمته ولكن يجب علىّ ان لا اضرب صفحا عن تخصيص المقدمة بالمدح مع دخولها فى العموم حيث ظهر لى انها من اعظم المؤلفات النفيسة التى ظهرت فى عصرنا هذا اذ كشفت لنا القناع فى امر مجهول الحال * تغرق فى لجته عقول الرجال وفيه لا تحسن المجال * عما لا يمكن لكتاب آخر ان يفيدنا اكثر منه فاقول انه لا احد من الفلاسفة المحققين استعمل ملكته فى امر احسن من ذلك * او انفع مما هنالك

انتهى

تم





حمد المن جعل التواريخ تذكرة لما مضى من الزمان وجعلها مشتملة على سير كل امة ورسولها او رعية وسلطان ولولاها لتشتت الوقائع وغرقت الحوادث فى بحار النسيان وصارت نسيا منسيا عند كل انسان فسبحانه من اله خلق الانسان وميزه بالعرفان وجعل لسانه ترجمان الجنا وخصه بالحكمة وعلو الهمة وجعل مظهر ذلك بعض البلدان فشرف آسيا بفخار الرسالة والنبوة والكرم والفتوه ثم خص الآن اوربا بفخار علوم المعاش النافعة وفنون التربية الساطعة واخرج اهلها من حيز الخشنية الى الحضارة المدنية وجعلهم ارباب علوم وصناعات سنية وصلاة وسلاما على سيدنا محمد وعلى اله واصحابه البررة الكرام وامته المفضلين على غيرهم من امم الانام امة ترغب فى تاريخها الافاضل لكونه يستمد منه انواع الفضائل ثم الدعاء لولى النعم

الجلية الذى فاق عصره على زمن الخلفاء العباسية فاحيى ما كان مندرسا
من الاداب والفنون واظهر ما كان كامنا مستورا عن العيون لا زالت
اجنحة النعم على ابوابه مقصورة وآفات النقم باعتاب اعدائه محصورة
ولا زالت عساكره مؤيدة منصورة وحكومته مشيدة قواعد اوه مقهورة
ولا برحت دواوين مملكته زاهية زاهرة لاسيما ديوان المدارس بملاحظة
مديره مختار بيك المفخم امين (اما بعد) فيقول راجى رحمة الملك الودود عبده
خليفة محمود هذه ترجمة لطيفة لمقدمة منيفة فى ذكر تقدم الجمعية فى البلاد
الافرنجية مترجمة من الانكليزية الى الفرنساوية حازت عند الافرنج كمال
الشهرة وظفرت من كتب التاريخ بالنصرة ودخلت فى غالب اللغات فكان
ادخالها فى اللغة العربية من اعظم المهمات لاسيما وان الخديوى الاعظم
الذى يسلك مسلك حسن التربية والتمدن يرغب فى الاطلاع على مثل هذه
الوقائع ويروم تعليم اهالى مملكته واطلاعهم على هذه المنافع فلهذا اخذت
فى تعريبها لكمال تنقيحها وتهذيبها وسميتها اتحاف الملوك الالبا بتقدم الجمعيات
فى اوربا وحيث انها باللغة الفرنساوية من مستصعبات التأليف ومختصرات
التصانيف استعنت فى تذليل صعابها وكشف نقابها بمراجعة من لسان
القلم فى مدحه ووصفه قصير ومن اتى فى مدحه بابدع مقال فانما هو آت بيسير
من كثير حضرة رفاعة افندى مدير مدرسة الالسن حين التوقف والحاجة
الى ذلك وهو ايضا الذى صححها على اصلها وقابلها كل المقابلة فبهذا كانت
خير ترجمة لاسيما من امثالى حيث انه لم يكن لى فى مدرسة الالسن غير سنتين
فى اشتغالى بهاتين اللغتين فالحمد لله الذى جعل مشروعات ولى النعم ناجحة
ومقاصده راجحة والله الموفق وبه الاعانة

ديباجة

معينة على قرآءة التاريخ ملخصة من كتاب انموذج العلوم التاريخية حد
سيسيرون التاريخ بانه شاهد الازمنة نور الحقيقة مدرسة الحياة رسول
السلف الى الخلف انتهى ولا بأس بان يزاد فى التعريف استاذ الملوك والرعايا

وتعلمهم ولم ينتظم في سلك العلوم المعتبرة الا على ممر الايام بعد ان مكث مدة مديدة غير راسخ القدم فلما اتسعت الافكار واخذت الحوادث في الكثرة والانتشار واحتاجت الى التقييد والاعتبار ظهرت فيه المؤلفات العظيمة والمصنفات الجسيمة لتربط الازمان والنواحي والاماكن والآثار وتذكر ما مضى ليتم تذكار

ولا يجهل انسان ان الحوادث الاولية التي جرت في الاحقاب الخالية والاعصار الماضية لم يقف لها الى الآن احد على حقيقة مع كثرة بحث المتأخرين عنها وتشوقهم الى معرفتها ولم يظهر منها الا يسير اخذ من كلام الشعراء مما لا يفي بالمرام ولا يشفي غليل العلماء الاعلام كبعض حكايات في الاخلاق والعوائد اوفي الحروب وحماسة الشجعان مع قلة الفوائد واما الوقائع المهمة التي حصل بها تغيير عظيم على ظهر الارض واستمرت آثارها وبقاياها الى يوم العرض فانها بقيت الى الآن مجهولة الاصول والاسباب منظومة في سلك الشك والارتياب ولما كان اوميروس اول شعراء اليونان كان بالنظر لما ذكر اول مؤرخ الزمان فمن شعره عرفنا بعض شيء بالنسبة الى ارض الروم واناطولي والى الآن لم نعرف وقائع هذه الجهات حق المعرفة وربما استمرت عدة قرون على هذه الحالة حتى يسر الله سبحانه وتعالى بالوقوف على ما يدل عليها اوضح دلالة على ان ما تحدث به الشعراء من الوقائع وانشدوه في اشعارهم السواطع فانما هو محض حكايات غير صحيحة الروايات وهي في الغالب عرضة للتغيير والتبديل فاحتيج في اثباتها الى دلائل يمكن الاعتماد عليها والوثوق بها لينضم اليها وهذا بعينه هو اصل ظهور علم التاريخ

وكان المؤرخون في اول الزمان لا يتعلقون الا بغرض سهل وذلك انهم حذر الضياع كانوا يؤرخون الحادثة والمكان والزمن والاشخاص ويهملون ذكر ارتباط الوقائع بعضها ببعض والنسبة بين الامم والدول وكيفية الاختلاط الواقع بينهم وان كان هذا الاختلاط في ذلك الزمن لم يبلغ درجة كمال فكان من المؤرخين بهذه المثابة من اليونان فرقيد وهيلانيكوس ومن الروما تيت

قاتون وقبيوس بيكتورروبيزون ومن هنا يفهم ان مهد التأنس والاجتماع الانسانى هو مهد التاريخ يعنى زمن وجود النوع الانسانى بالقرب لاصل الفطرة وعدم تقدمه فى التربية والتمدن هو كذلك زمن وجود التاريخ فى مباديه وطفوليته ولكن هذا التاريخ مع عدم كماله كان سبباقويا فى التمدن ومنشأ للاعتبارات

فبذلك نشأت المعارف بعد قليل من الزمن وكثرت المخالطات والمعاشرات بين الامم وسافر العقلاء فى طرق جديدة بالنسبة اليهم وكتب المؤرخون تواريخ الحروب التى هى اول شئ وقع النسبة بين الممالك فكان اصحاب هذا التاريخ اولى باسم المؤرخين حقيقة لان من تقدمهم انما هو اقرب للتسمية به على سبيل المجاز ولم يظهر هردوط ابو التاريخ الابعد حرب اكزرسه اواكزرسيس ملك العجم فى بلاد اليونان فكان هذا المورخ لشدة تحببه وكثرة طربه يحاول معرفة اصل الامم التى يريد ذكرها فى كتابه ويزاول الوقوف على الامم المعاصرة ويبحث عنها فى كتب المتقدمين مع غاية التجلد والصبر والتعقل والتفكر فلذلك كان به افتتاح العمر الثانى للتاريخ اى زمنه الثانى على انه يمكن تسميته بالزمن الاول حيث به استحق تقييد الوقائع على هذه الكيفية اسم التاريخ ولكن لما كان لسائر الامم فى زمن جاهليتهم تاريخ كثير الاوهام احتاج الامر ان يعنون عن هذا التاريخ باول عمر اوباول زمن من الطفولية يتهيأون فيه لحالة يؤول امرها الى ان تكون بعيدة عن الحالة الاصلية

ثم ان هردوط وطوقيديد واغزنيفون هم اكابر ذلك الزمن الثانى وبهم تظهر حالته وطبيعته بالنسبة للتاريخ فبذلك ظهر فضل بلاد اليونان فى كونها كانت اول بقعة خرج منها كبار المؤرخين ارباب التاليف الفصيحة العبارة المشحونة بالحكمة والفلسفة التى اذاعها الانسان تذكر بها هذه البلاد فكان بتلك البقاع اليونانية هردوط يقص عليهم السير فى المحافل وكانوا يميلون الى سماع العبارات السلسة الالفاظ اكثر من ميلهم الى غريب المعانى فلهذا كان ذلك المورخ يضطر فى بعض الاحيان الى الاضراب عن المعانى

التاريخية وربما حكى بعض خرافات تستميلهم لكونها تجر لمدحهم وربما كسا هذه الخرافات ثوب تحسين فى العبارة يسبى عقل الفصيح حتى أن سيسرون افصح الخطباء كثيرا ماتعجب من ذلك حين وقوفه عليه فانه فى ذلك الزمن كان علم التاريخ لم يوضع ويدون ولكن كانت الحوادث قبل ان تنقل وتروى تمحص وتقابل ويبحث عن ربط بعضها ببعض وكانت القصص والسير تذكر بوجه صحيح على سبيل الاستصواب والانكار فترضى العقل وتتسع بها دائرة الادراك فامتاز هذا الزمن ببعض تقدم فى التاريخ ولاح على وجه ذلك العصر سمية انوار الثلاثة المورخين الذين نقشوا فيه طباعهم حيث كانوا زينتـه وذلك ان هردوط كان يميل فى تاريخه الى العبارات الشعرية وطوقيديد يسلك فيها طريق الجد والفلسفة واما اغزينفون فانه كان يأتى كذلك على طريق الجد والفلسفة لكن مزينة تجذب القلوب وتستميل الالباب فبهذا كان التاريخ فى كتبهم اشبه بان يكون غير مقصود قصدا اوليا بل كان تابعا للفصاحة والتمنيق فى العبارة فكان جل اغراضهم انماه واظهار فضلهم فى صناعة الانشاء فلذلك كان التاريخ مقصورا على مجرد الوقائع واشبه بمعنى يبعث الكاتب على ان يؤديه بما يقدر عليه من فصيح العبارات وقد سبق لنا ان التاريخ اخذ فى التقدم من ذلك الوقت والحق ان تقدمه كان حقيقيا لاظاهريا وذلك انك ترى فى كتب طوقيديد ان الغريب البعيد عن العقل ابدل بالاقرب للصواب المعضد بالادلة وان كان هردوط تبع هوى نفسه فى ميلها لمجرد الحكاية فان طوقيديد كان يملك نفسه ويتبع هواها بل يضبطها فى المعنى الذى يريد حكايتـه واما اغزينفون فانه كان يصنع التاريخ كانه مدرسة للفضيلة والحكمة ولايستحي من تادية الغرض المقصود منه لكونه غرضا جيـدا فلذلك كان سيسيرون يسميه امير المورخين اوملك الحكويين واما نحن معاشر المتأخرين فلانرى انه يحرى بهذا الاسم لكونه فاته اغلب مهمات التاريخ بل انما يشهد بانه اول من جعـل ذلك الفن مدرسة للملوك ومحلا للاداب وهو اول من استحق من مورخى المتقدمين

ان يحاكى فى تصنيفاته المورخ فنلون من المتأخرين

وهذا كثير بالنسبة لذلك الزمان الا انه يمكن ان يعاب على التاريخ فى ذلك العصر بانه كان منظورا فيه الى مقتضيات الاحوال اوالى حالة الاخلاق والعوائد وطبائع اهل ذلك الزمن ومثل هذا يقال ايضا فى تاريخ الرومانيين فاى فائدة للمؤرخ اذا حاد عن طريق الانصاف واهمل حكايات الوقايع والحوادث كما حصلت وجرت ومال الى غرض نفسانى من الاغراض فرأى جميع ما ظهر فى وطنه حقا سواء كان كذلك فى الواقع اولا واستصوب جميع الحروب والغارات الواقعة من اهل بلاده على غيرهم من البلاد ومدح حزبه وذم الاعداء وبخس بهم وحسن معايب جماعته وقبح محاسن من عاداهم وجعل رذيلة اهل بلاده فضيلة اذا تسبب عن هذه الرذيلة توسيع مملكتهم وهذا عيب عام لسائر المؤرخين من الاقدمين حتى كأن كتاب التاريخ انما هو ديوان مدح لبلاد مؤلفه فالمورخ يكتب تاريخه وهو مستحضر لوصف كونه من البلاد وكون هذا التاريخ لاهلها وكان ينبغى له ان يقطع النظر عن ذلك ولا يرى فى نفسه الا كونه فيلسوفا حكيما يعلم الناس ويفيدهم فلا يكون فى ارآئه مغرضا ولا متحاملا نعم ان هذا كله يستدعى وجود مورخ مجرد عن الاوهام الفاسدة والوساوس الكاسدة التى تمرن عليها الانسان من صغره فلذلك كان وجود مؤلف منصف نادرا بين المتأخرين فلا غرابة فى ذلك بالنسبة للمتقدمين ففضل التاريخ فى ذلك الزمن الثانى يرجع لجودة التعبير وبلاغة الكلام والحكم على المؤرخين بذلك لا ينكر ولا يحط بمقامهم ولا ينافى شهرتهم بالفضل لما ان لهم الفخر فى ادراكهم غرض التاريخ فى مثل ذلك العصر الذى هو اول اعصر التقدم فلو لم يجتمع فيهم جميع شروط صفات المورخ فقد حازوا احسنها وهو تقييد الغرائب وجعلها باقية على عمر الايام

ولم يعرف قدر التاريخ ولا تمملقاته الا قوى العقل ممارس الفلسفة والاداب فان ايغورو تاوفنف اللذان لم يبق من مصنفاتهما شئ بل بقى الثناء عليهما

لفضلهما قدذكرا كما فعل هردوط وطوقيديد واغزينفون اوصاف الناس والوقائع بالنظر للافراد والاشخاص ولم يقف احدمنهم على معرفة البواعث الحاملة على الفعل ولا الآثار المترتبة على ذلك وفاتهم جميعا المواعظ والاعتبارات التى تنشأ عن الحوادث وانفرد بوليب بهذه المزية فوضع الحكمة فى التاريخ ومن المستغرب انه عند الامتين العظيمتين من القدماء وهما اليونان والرومانيون لم يظهر المؤرخون الحكميون الاعقب المؤرخين من الخطباء واهل الفصاحة وذلك لانه احتيج على تداول الايام الى جعل الحوادث التاريخية عرضة للنظر فيها وامتحان اسبابها ومسبباتها وفى الحقيقة قد جرت عادة الله تعالى ان يكون التصور والتخيل قبل التفكر والتعقل وان الانسان يمكنه ان يصف الشئ ظاهرا قبل ان يقتدر على الوقوف على حقيقته فكان عصر المؤرخين الحكماء عقب عصر المؤرخين الفصحاء وكان بوليب احكم ممن تقدمه من المؤرخين فظهر له حقيقة الغرض المقصود من التاريخ وادرك اهميته وكذلك تاسيت المتأخر عن ادباء مدينة رومة فانه عرف الحقيقة احسن من سلفه وكل منهما اراد ان يسلك مسلكا جديدا فامعن النظر فى الغرض المطلوب وكان موجودا فى زمن يرغب فيه فى معرفة الاشياء والتأليف فيها اكثر من الرغبة فى صناعة تمميق العبارة والاعتناء بجعلها بليغة ولكن كان بينهما فرق ظاهر وذلك ان بوليب كان ينظر للتاريخ من جهة السياسة ومصلحة الدولة بخلاف تاسيت فانه كان يعتبره ايضا من جهة الادب وحسن السلوك والسيرة وقد برهن بوليب على ان انقراض دولة القرطاجيين وعظم دولة الرومانيين انما تسبب عن الفرق الواقع بين احكام الدولتين الجمهوريتين وقوانينهما حسنا ورداءة فبذلك اعتبر المتأخرون واتعظوا بنقل هذه الحكاية ورواياتها

فهكذا كانت اخلاق الامم تؤثر فى المؤرخين طورا شيا وطورا آخر على حسب الحال وتقلب الازمان مثلا هردوط كان يقص على الحاضرين كتابه ويريد بذلك فى الاكثر ان يفتنهم برقة عبارته ويعجبهم وقل ان يقصد تعلمهم

ووقيفهم على الاخبار بعمومه بليب فانه كان مقبولا عند الرومانيين ومعاينا الحروب الواقعة بين اهل قرطاجة واهل رومة فتيسر له لزوما ان يبحث عن اختلافات سياسات هاتين الجمهوريتين وعن الفرق بينهما واما تاسيت فانه كتب تاريخه فى عصر فشت فيه الفواحش فلذلك شنع فى كتابه على عموم الفساد وعلى ما يرذل الانسان مما كان يمدح به فى ذلك الزمان فهذا معنى تأثير اخلاق الزمن وطبائعه فى المؤرخين وما قيل فى انشاء التاريخ يقال فى انشاد الشعر فان استاش كان ينشد اشعاره ليعجب جماعته فلذلك كانت عذوبة الفاظه وزخرفتها تغطى ضعف المعانى وتستره فشتان بينه وبين ورجيل وان كانت العامة تشبهه به وذلك ان من يكتب ما يناسب القرن الذى هو فيه فلا يعجب الا عصره بخلاف هل من يقطع النظر عن الوقت ويقصد افادة اهالى القرون الآتية على تعاقبها فلا يقع لمؤلفاته هجران بل تكون متداولة على ممر الازمان

فلا زال التاريخ يأخذ فى الانتشار الى ذلك الوقت ويهتم به كل مؤرخ زيادة عمن تقدمه من المؤرخين وهو فى كتب بوليب قد ارتفع الى اقصى درجات السياسة ثم بعد ذلك ذهب رونقه مرة واحدة ثم اخذ فى الانتعاش عند الرومانيين وذلك لان حروف الهجاء التى لليونانيين لم يتم استعمالها فى مدينة رومة الا بالبطئ وكان انموذج تواريخ اليونان العظيمة مجهولا حين ابتداء فبيوس بيكتور وبيزون وقاطون فى كتابة تواريخهم التى هى فى الحقيقة مجرد دفاتر مقيدة للوقائع لا كتب تاريخ حقيقية ولم يزل التاريخ الى زمن سالسته يابس العبارة وليس له فضل فى التاليف الا الاختصار والايضاح خاليا عن عما ينتظره السامع من المناسبات ولم يكثر اكابر المؤرخين الا فى زمن التمدن والترقى فى درجات الحضارة والتربية والرفاهية فى بلاد اليونان حيث كان التاريخ مؤلفا للمدارس الفصاحة كان له بهجة عظيمة ومنفعة لتربية التلامذة وتأديبهم فلما تجدد التاريخ بمدينة رومة ظهر بها فى حالة من يبس العبارة

وخشونتها فلما فتح الرومانيون بلاد اليونان رحلت بمدينة رومة علومهم وفنونهم وظهر بها انموذج تاريخهم بحث مؤرخو الرومانيين عن ان ينسجوا على منوال الكتب العظيمة التي تداولوها فاكتسبت مؤلفاتهم التاريخية اسلوب التواريخ اليونانية غير انه بقى فيها يسير من الاختلاف الناشئ عن اختلاف العوائد والاخلاق فكان التاريخ في هذا العصر الذي هو احد عصرى التاريخ عند الرومانيين مشتملا على الفصاحة والبلاغة وكان اول من نسج على هذا المنوال المؤرخ سالسته ثم بعده بيسير ظهر المؤلف تيتليوه وبذل جهده وصرف همته في فصاحة العبارة وبلاغة المجازات والتخيلات التي سمح بها قلمه وقد عبنا على مؤرخى اليونانيين بانهم كانوا يجارون اوهام زمنهم ويسايرون بدع اعصرهم ويستحسنون جميع ما حصل من اهل بلادهم ويلومون ما عداه وهذا حرى بان يسمى حب النفس والملة ولا يليق تسميته حب الوطن وهذه الخصلة اشد من غيرها عند الرومانيين فان ميلهم الى اظهار كونهم لهم اصل وانتما سماوى جعلهم يذكرون في تواريخهم ابشع الخرافات ولم يتذكروا ان اول واجب عليهم في السير هو قول الحق فصدقوا اما يناسب هوى النفس بدليل ما في كتاب تيتليوه من الهذر كحكاية اللبوة التي ارضعت رومولوس الذي بنى هو واخوه روموس مدينة رومية وما اشبه ذلك وكحكاية كون نهر رومة المسمى نهر التبره رفعته كاهنة في ذلك الزمان حتى بلغ السفينة التي كانت تجرها بمنطقتها ومن الغرابة ان المؤرخ تاسيت كان يعتقد ذلك فهذه الاوهام التي لا تليق الا بالعوام هي مما ينتقد على المؤرخين الفضلاء في ذلك الزمان ويلام عليهم بعدم ردها والتوبيخ عليها وقد قلنا ان سبب ذلك محبة النفس والملة وللتاريخ بذلك الزمان ايضا آفة اخرى وهي محبة النفس السياسية عند الرومانيين اى محبة سياسة مملكته دون غيرها وذلك ان من اراد ان لا يكون متحاملا ولا متعسفا بل تابعا في تاريخه منهج الحق والانصاف يتحتم عليه ان يغلب اوهام العامة ولا يتمسك بها بل اذا اراد ان يتكلم على جميع الامم بما هم متصفون به اعتبر جميع الاماكن كلها اوطانا له ولم يكن بتلك المثابة

مؤرخو الرومانيين بل متى تكلموا على حروباتهم ونهبهم واختلاسهم ذكروا ان ما
اكتسبوه بوجه من هذه الاوجه انما هو كسب حلال بطريق الاستحقاق
ولما ظهر لهم من قوتهم وتدبيرهم علامات فهموا منها انهم يتملكون جميع
الدنيا ويحكمون اهل الارض جميعا فاعتقدوا وكان ذلك الاعتقاد هو نية
عوامهم ان كل اقليم تغلبوا عليه صار لهم التزاما وملكا كسائر الاملاك
والعقارات فانظر ظلم المؤرخين بالنسبة للاجنبيين ومتى كان المؤرخ حكما بين
اهل المشورة الرومانية والرعية وذكر الخصومات الواقعة بين الفريقين قل أن
يحيد عن الانصاف وذلك لانه ليس فيها ذكر الغرباء لكون آحاد الرعية ليسوا
خارجين عن الرومانيين واما بين الرومانيين والغرباء فالمعنى واحد فاليونان
والرومانيون كانوا رجالا واما من عداهم من الامم فانهم طوائف اعجام
لا يعدون بروماني ويحتاج التنبيه الى شئ آخر وهو انه غير غيرة الوطن يوجد
عند المورخين من المتقدمين والمتأخرين حب الطائفة والملة والجنس وهذا
كان سببا لكون المورخ مغرضا فاذا كان المؤرخ مثلا من طائفة الاشراف كان
مذهبه فى كتابه الميل الى طريقة تحكيم الكبار وتوليتهم لامور الدولة ففى مدينة
رومة فى المخاصمات الواقعة بين مشورة الرومانيين المسماة السنت وبين
الرعية اقروا بظلم الكبار وعدم عدل المشورة وبكونها متولعة بالامور
الدنيوية من الزينة وغيرها وبكون اهلها ارباب شح وبخل ففى هذا ميل الى
مذهب حكم الجمهورية والمشيخة ثم بعد ذلك بقليل كذبوا هذا وناقضوه بالثناء
على اهل المشورة بالاعتياد على التجلد والثبات وكرم النفس فمن هذا يشم
رايحة الميل الى حكم الشرفاء ومثل هذه الاغراض كثير سواء حصلت من
شئ نفسانى متعلق بالمورخ اوكانت طارية عليه لغرض من اغراض الدولة
الموجود فى زمانها فمن هذا يتضح ان من يتصف باول صفة من صفات المورخ
اللازمة له وهى عدم الغرض والعلة هو من لا يفهم من كتابه بلده ولا دينه
ولا طائفته ومن لا يسبق قلمه بما يدل على مذهبه وغرضه بل يظهر من كلامه
انه لا مذهب له الا مذهب الحق فيسهل بمقتضى هذه القاعدة معرفة ما يلزم

للمؤرخ الكامل ومن ذكرناه من المورخين يوجد فى كل فرد منهم بعض هذه
الصفات ويفقد منه البعض وتوفر هذه الشروط باسرها فى مورخ واحد ليس
الا انموذجا ومثالا وجوده فى الاذهان اسهل من وجوده فى خارج الاعيان
فاذا كلفت انسانا ان يجمع بين فصاحة هردوط واغزنيفون وتيتليوه
وتشبيهاتهم ومجازاتهم وقوة معانى طوقيديد وحماسة عباراته واتساع ادراك
بوليب وحكمته وفلسفته وان يضم لذلك ادب تاسيت واستقامته وحسن
سلوكه فان هذا تكليف بما لا يطاق لان الطبع البشرى وان كان يميل الى الكمال
فى مقصده فهو قاصر فى وسائله ووسائطه ومع ذلك فلا ينبغى للانسان ان
يتكل على ماذكرناه متعللا بعدم امكان النسج على هذا المنوال الذى
لا وجود له الا فى الخيال بل يشرع فى تجربة نفسه فيه كان المصور يحاول
فى تصويره امورا تخيلية لم تظهر صورتها فى تاريخ الاعيان ولبس لها
وجود الا فى مجرد الذهن وبعد عصر اغسطوس لم يتقدم التاريخ زيادة
عما اسلفنا بل بالنظر الى بعض الاشياء كان دون تقدمه عند اليونانيين فان
بوليب وحده هو الذى احدث دون مؤرخى اليونانيين فى التاريخ حماسا عظيما
عند اليونان بادخال نوع السياسة فيه وزاد تاسيت عند الرومانيين حماسا
آخر وتقدما ثانيا حيث جدد فيه تاريخا ادبيا يذكر حسن السير والاخلاق
فهو الذى لما جس قلوب البشر كشف القناع عن مداراة الملك تيبر الشنيعة
وحيلته وازال الغطاء عن جبر الملك نيرون وقساوته وبلادة اقلودس وغباوته
وهو الذى عرف الفضيلة والرذيلة ووصفهما باوصاف مطابقة لما فى الواقع
مشتملة على الحماسة وكان قلمه مناسبا للمعنى المقصود بالكلام فكان ينفر
النفس عن الرذيلة ويرغبها فى الفضيلة بعبارته المستحسنة المناسبة للمقام
الموفية بالمرام وقد ظهر لتاسيت ان التاريخ المشتمل على مجرد تحسين
العبارة وسلاستها لا يفيد فى الغرض المقصود من التاريخ شيأ فلذلك سلك
فى عبارته التوسط فى الخطابة والانشاء ولم يشم من كلامه رائحة المداهنة
والتملق بل ذكر الحقيقة خالصة من غير زخرفة لجزمه بان الصدق يصل وحده

الى صميم القلب ولا يضل فى سيره اليه ولكن يعاب على هذا المؤرخ بنكتة واحدة وهى انه فى اقتصاره على ذكر قلوب الناس فرض ان مسائل التاريخ ووقائعه معلومة تفصيلا قبل تأليفه فحققها من غير ان يفصلها فاذا قرأ الانسان تاريخه وحده من غير ان يطلع على غيره من كتب المؤرخين ربما صعب عليه فهم عبارته وغاية الامر انا نسلم ان الانسان الواحد لا يمكنه انه يتصف بالصفات اللازمة لكمال التاريخ ويحوز صفات المؤرخ ومع ذلك فلا ينكر ان تاسيت اتصف باهم الصفات واعتنى بجعل التاريخ مدرسة ادب وسلوك بذكره فى كتبه الخصال الذميمة وتشنيعه عليها ومدحه الفضيلة بما امكنه فيها من المدح

فلما ضعفت رومة نفسها كما ضعف اهل اليونان قبلها رجع التاريخ الى ما كان عليه من الخشونة ولم يكثر الفاتحون لها بكتابة التاريخ وبقى الامر على ذلك الى رجوع الناس الى الاشتغال بالعلوم فما وجدوا الا فى بلاد اليونان وفى خراب السلطنة الاخيرة كتبا تاريخية مقيدة لمجرد الازمنة واغلبها مجرد عن الفضل وانما اخذوها وحصلوها العدم وجود غيرها مما يدل على حال العصر المسمى بالعصر الاوسط وهو مدة عظيمة من الزمن ضاعت فيها العلوم التاريخية ولم ينشأ فيها الا رسوم ناقصة آل امرها الى ارشاد متأخرى المؤرخين الى معرفة بعض شئ من مجهول تلك الازمان ولما امتزج امم الشمال الهاجمة على البلاد والمستولية على العباد بآثار التمدن القديم اكتسبوا اعادة البحث عن الاشياء وتركوا عاداتهم الاصلية حيث كان يستوى عندهم معرفة اصل بقائهم على الجهل فى المدة الماضية وعدم معرفة اصل ذلك فصاروا يسألون ويبحثون عن اصلهم وعن آبائهم واجدادهم وما حصل لهم وكيف كانت احكامهم وعوائدهم وحالة معاشهم

وهذا هو اصل التاريخ الجديد الذى اتسع باتساع العلوم ومع ذلك فلم يظهر فيه من المؤرخين من يضاهى مورخى المتقدمين ولكن اذا لم يكن من المؤرخين مثل هؤلاء فان قواعد علم التاريخ قد برعت وتبحر فيها اكثر من المتقدمين

وان كنا فى اجرآء الاحكام وتطبيق القواعد دونهم فانا نحسن خيرا منهم ما ينبغى فعله وهذا يتولد عن عدة اسباب وقبل نسبة ذلك لعدم كفاية المعرفة ينبغى ان نبحث عن كون ذلك كما حصل من فقد المعرفة اللازمة حصل من عجز السياسة وعدم اسعافها ولكن قبل المبادرة بايراد هذه المشكلة ينبغى لنا ان نبحث عن سير علم التاريخ فى هذه المدة الجديدة التى رجع فيها الى مباديه وهذه هى المرة الثالثة لضعف التاريخ

فنقول ان قدماء مؤرخى الافرنج لم يعرفوا قبل هذه المدة ما حقيقة التاريخ وما لوازمه فان مؤلفاتهم كانت خالية عن النظام والترتيب لا يفهم منها غرض وانما يذكرون بعبارة خالصة مفيدة ما عاينوه من الحوادث او ما وقع قبيل عصرهم فكان ما سطروه اعلا واحسن مما نعتقده فى اوائل المؤرخين ولكن مضى زمن طويل قبل ان يظهر هذا التاريخ الذى لم يذكر الازمنة الوقائع واشهر المؤرخين من اهل هذا الزمان فروسرد لكونه هو اصل من كتب التاريخ فى ذلك الزمان وهو الذى كتب تاريخ فرانسا والانكليز وغيرهم والى الآن يستحسن صورة تأليفه الخالصة المشحونة بالفوائد ففى ذكره آداب قدماء الافرنج نبه على اشياء غريبة تدل على ان اول تاريخ الافرنج وابتدآءه قبل ابتدآء تاريخ القدماء ولكن هذا لا يكفى فى نسبة تاريخ الاعصر الماضية الى تاريخ الافرنج ومقابلتها بها وغرض المتأخرين لاشكاله اوجب صعوبة امضاء المشروعات التاريخية فلهذا استحسن الافرنج البحث عن الاشياء ومعرفتها وكان هذا جزأ من علم التاريخ فكثرت فروعه وتشعبت عنه شعب كثيرة وظهرت صعوبته فلذلك تعرض بعض المؤرخين مثل المؤرخ ميلون ومنتفيكون وبتان وغيرهم للكشف عن علم الازمان واضطروا الى المناقضة والمنازعة فى الازمنة ليحققوا ما ظهر فيها من الاوهام التى بها يجهل الانسان هذا الفن وهذا هو السبب فى كون المتأخرين من مؤرخى الافرنج حصل لهم عاقة عن حكاية نفس السير والاوصاف بالمنازعة فى الازمنة والامكنة فيضيعون الزمن فى هذه المنازعة ويتركون القصص والظاهر من

اول وهلة انه ينبغى للمؤرخ ان لا يغير مذهبه وان يبقى على حالة واحدة فى رأيه
ولكن الاحوال تختلف كما هو مشاهد مثلا عند القدماء كان التاريخ مقتصرا
على ذكر امة واحدة بالذات وان تكلم على غيرها فبالعرض ففى زمن
الرومانيين لم تكن الدنيا كلها الا مملكة واحدة ولم توجد فى ذلك الزمن
السياسة الخارجية الا قليلا وليس الامر كذلك فى زمن المتأخرين فان
الدول المختلفة فى الاحكام والولايات متحدة فى الاعتبار وملاحظة التساوى
فينبغى للمؤرخ حينئذ اختبار سياستها وذكر اوصاف اخلاقها وعوائدها
وان كان بوليب مؤرخ الرومانيين احدث التاريخ السياسى فانما كان مقصده
ذكر اختلاف عوائد كل من الرومانيين والقرطاجيين واحكامهم دون
التعرض لمن عداهم واما الآن فان عشرين امة يبحثون عن مثل هذا الشغل
لانه اذا وجد ضرر لامة من هؤلاء الامم تأثر به جميع من عداها فاذا شرع
انسان فى تأدية جميع ذلك لشفاء غليل كل امة احوج هذا الى بسط الكلام
فى التاريخ والى اتساعه اتساعا عظيما خصوصا من اراد الاستيعاب فان هذا
شئ لا ينفد ولا يفرغ كما فعل المؤرخ دونو فى الكلام على الازمنة الجديدة وما بقى
من الازمنة القديمة فهو يسير بالنسبة لما ذكره ولو الف كتابا عظيما متعلقا
بالازمنة القديمة لكونه اهلا لذلك لكان احسن لكون بعدنا عن الازمنة
القديمة يقضى ان لا نسأل فى شأنها تفاصيل كثيرة فى الوقائع التى مضت
وانقضت لاستغنائنا عنها ولا يستغنى عن ذلك فى العهد الجديد فمن هنا نتج
ان التاريخ الجديد يحتاج الى توقيع مخصوص لكل شئ مخصوص حتى يتم
شأنه وهذا يكون خيرا من جمعه على وجه ناقص وممن يستثنى ممن أرخ
فى القديم وتخلص من تلك الورطة بسوء فانه اجاد حيث امكنه الجمع بين الزمن
القديم والجديد مع عدم الاخلال بالمقصود وانفرد بالاختصار وحسن
الترتيب وبلاغة العبارة ووفى بالوقائع التاريخية والديانية فتاريخه عظيم
متعلق بالديانات فذكر علم التاريخ من منذ زمن المتقدمين وحكاية تقدمه من
ذلك الزمن الى الآن امر صعب ويحتاج للتطويل وبالجملة فكلما بعد التاريخ

من الناس والاشياء كان ذا صفة مغايرة لما تقدم فانه يترك ما كان قليل النفع ولا يذكر الا الاشياء الصحيحة المفيدة وقد قدمت فلسفة القرن الثامن عشر من الميلاد التاريخ تقدما حقيقيا بسلوكها مسلكا آخر وذلك انهم رأوا ترتيب الملل والسأمة على الكتب المطولة التى لا تتكلم الا على اشياء لا يبحث عنها المتأخرون فمثال الفلاسفة المتأخرين ولتيرفانه سلك مسلك الاختصار فى كتابه المسمى بميل الطوآئف واخلاقهم وكتاب منتسكيو المسمى سبب عظم دولة الرومانيين وانقراضها فهذان المؤلفان بينا انه ينبغى ترك التدقيق الذى يعطل تقدم التاريخ وهما اول من نسج على منوال التاريخ الفلسفى ومن هذا الوقت الذى هو عصرنا هذا تغير سلوك التعليم التاريخى تغيرا عظيما

وللتاريخ غرضان ان يحب الانسان اهل زمانه وان يعلمهم التاريخ ولا تميل الفلاسفة الا للغرض الثانى ويعجبهم ان المؤرخين فى هذا العصر يبذلون جهدهم فيه وممن امتاز منهم فى ذلك ولتير وروبرتسون ومن له ذوق سليم مثلهما انما ينظر اختلاف الاخلاق والعوآئد والآرآء والمذاهب بل وغرآئب النوع البشرى ويسألون عن اوائل اجتماعات الامم وما كانت عليه احكامهم واصولهم ولغاتهم وصنايعهم الاولية ومعايشهم واختلاف عقولهم وما هى المضار والمنافع المترتبة على اختلاف السياسات وما اصل قوة الامم وغناهم على اختلاف ذلك وما عقل مشاهير الناس وخصالهم الحميدة والذميمة التى اثرت فى اهل بلادهم وما سبب تقدم التمدن والصنايع والعلوم فهذا هو غرض العصر الذى نحن فيه وهو ما يسمى بالتاريخ الفلسفى او الادبى ومن اغراضه اختلاط الامم بعضها ببعض بالنسبة للروابط السياسية والتجارات والاحكام ومحبة الجنس لجنسه وقد ادى هذا الغرض مؤلف كتابنا هذا حيث ذكر فيه تقدم الجمعيات التى حصلت فى اوربا من منذ خراب المملكة الرومانية الى ابتداء القرن السادس عشر ورتبه على ثلاثة اقسام

القسم الاول

فى ذكر التقدم الذى حصل فى اوربا بالنسبة الى الحكومة الداخلية

والقوانين

والقوانين والآداب

اعلم انه حصل تغيران عظيمان فى الحالة السياسية واخلاق الملل الافرنجية احدهما نشأ عن تقدم المملكة الرومانية فى الشوكة والآخر صدر عن خراب هذه المملكة ايضا وذلك لان التولع بالفتوحات لما وصل بالجيش الرومانى الى خلف جبال الپه راى سائر البلاد التى دخلها مسكونة بامم خشنية متبربرة كان الرومانيون يسمونهم اعجاما لكنها كانت مستقلة بنفسها فكانت لافراطها فى الشجاعة تحامى عن ارضها القديمة بقوة عجيبة ومقاومة غريبة لكن حسن تربية الرومانيين فى التعليم العسكرى كان هو السبب فى نصرتهم على هؤلاء الامم لا كثرة شجاعتهم ومع ذلك لم تكن هؤلاء الامم مثل سكان آسيا الذين هم كالنساء فى الارتخاء وفتور الهمة بحيث انهم بمجرد غلبتهم فى واقعة واحدة سلموا انفسهم ودولتهم لاعدائهم بل كانوا يأخذون السلاح بهمة وشجاعة خالية عن التعليم العسكرى ولكن لما كانوا ارباب همة عالية حاملة لهم على حب الحرية والتولع بالاستقلال قامت تلك الهمة عندهم مقام الفنون الحربية والتدبيرات العسكرية وفى مدة هذه الحروب الطويلة التى سفكت فيها دماء الامم كان احد الجانبين يحارب لاجل الدولة والجانب الاخر لاجل الحرية وكانت ولايات اوربا العظيمة قد تهدمت على التعاقب وهلك من الاهالى قسم عظيم فى ميدان الحرب وقسم عظيم ايضا وقع اسيرا فى ايدى الرومانيين ولما لم يمكن لمن بقى منهم ان يقاوم العدو دخل تحت طاعة الدولة الرومانية

تاثيرات قوة الروم فى حالة اوربا

وبعد ان خرب الرومانيون بلاد اوربا شرعوا فى ادخال التمدن والآداب فيها فرتبوا فى الاقاليم المفتوحة عن قرب نوعا من الحكم صعبا جدا لكنه كان منتظما مستمرا على حالة واحدة يحفظ الراحة العامة ويفيد المصلحة الاهلية واعطوا الرعايا تلك الاقاليم الجديدة فنونهم وعلومهم ولغتهم واخلاقهم وهذا الاوان ما كانوا عليه من الحرية ثم ان اوربا بعد ان كابدت تلك المصايب الكبيرة وقاست شدائدها شرعت ان ترتاح وتتقوى على

الائتلاف الذى تر[تب] على فتوحات الروما[نيين]

المنافع التى ترتبت على ذلك

التدريج فنجعت مزارعها وقويت وزادت الاهالى وتكاثرت وتجدد فيها
من الخيرات ما يجبر فى بعض المواضع خلل الحرب وافساده

النتايج الرديئة التى نشأت عن الدولة الرومانية

ولكن هذه الدولة كانت بعيدة جدا عن كونها تتكفل بالراحة وسعادة الامم ونعين على تقدم العقل البشرى فى المعارف وكانت الملل المغلوبة قد تجردت عن سلاحهم واسلمته للغالبين وكانت مضبوطة ممسوكة من طرف الغالبين بعساكر مستأجرة لاجل مشاهدة جميع حركاتها وكانت الاقاليم المختلفة متروكة للحكام الذين كانوا ينهبونها بلا قصاص لجميع اموالها اخذت بالفرد المجاوزة للحد وكانت تلك الاموال المساوية توزع من غير عدل ولا انصاف وكان حمل ذلك ثقيلا جدا على الرعايا حتى ان الرجال الماهرين فى الصنائع التزموا ان يتركوا اوطانهم ويذهبوا ليبحثوا عن السعادة فى مدينة بعيدة يعتادون فيها على طاعتهم طاعة كاملة وتسليمهم امورهم تسليما كليا وارشادهم فى جميع اعمالهم لملك فاعل مختار يتصرف فيهم كيف شاء فبهذه المثابة التى على تلك الحالة التى ينتج منها فساد العقول لم يمكن لهذه الامم ان تحفظ شأنها وعظمها ومحبتها للاستقلال وما كان عليه اسلافها من محبة الحرية والحرب التى اكتسبوها عن غيرهم من الامم ذهب عن هؤلاء الخلف وانقرض بدخولهم فى الرق والخدمة ففقدوا عاداتهم القديمة واقتدارهم على تنظيم امورهم واعمالهم بانفسهم فاحكام مملكة رومة كاحكام غيرها من عظيم الممالك الاخرى اضعفت النوع البشرى وجعلته خبيثا بعد ان كان طيب الاصل شريف العنصر

اغارة الامم الخشنية

ولم يمكن لهذه الجمعية ان تعيش على مثل تلك الحالة زمنا طويلا فان الدولة الرومانية مع ما كانت عليه من المنظر الاكمل والترتيب الاجمل كان لها من العيوب ما يفضى بها الى انحلال انتظامها فكان هذا الداء يعظم ويكبر حتى تكامل فسادها بانشائهم فيها تغييرات جديدة وقوانين معيبة لو خليت ونفسها التكفلت بخراب المملكة من غير قوة اجنبية ولكن اغارة الغوطيين والوندالين والهونيين وغيرهم من الخشنيين اسرعت فى حصول هذه الواقعة

وبادرت بتدمير المملكة حتى كانه تولد فيها ملل جديدة نزلت من اقاليم مجهولة لينتقموا من الرومانيين فى نظير سوء صنيعهم مع الناس وكانت هذه الامم الخشنيـة ساكنة باقاليم مختلفة من المانيا ولم تدخل اصلا فى قبضة الرومانيين بل كانت مشتتة فى تلك الاقاليم الواسعـة التى هى فى شمال اوربا وفى الشمال الغربى من ولايات آسيا وهى الآن مسكونة بالدانيمرقية والاسوجية واللاهة والروسية والتتار الذين لم يعرف حالهم وتاريخهم قبل هذه الاغارة على المملكة الرومانية وجميع مانعرفه فى شأنهم انما جاءنا من طرف الرومانيين ومن حيث ان الرومانيين لم يتوغلوا فى داخل تلك البلاد العقيمة التى لا ينتج بها زرع لم يتركوا لنا الا تفاصيل ناقصة جدا تتعلق بحال تلك الامم القديمة التى كانت تسكنها وكانت هذه الامم متبربرة متوحشة ليس عندها شئ من الفنون والكتب ولم يكن لها زمن ولا رغبة فى البحث عـلى الوقائع الماضية وانما يمكن ان لها بعض معرفة فى كونها تتذكر بعض وقائع جديدة حديثة الوقوع واما الازمنة الخالية المتقدمة فكانت عندهم نسيا منسيا وربما غيروها بحكايات باطلة واضافوا اليها خرافات عاطلة

حالة البلاد التى خرج منها هؤلاء الامم المتبربرون

وكثرة عدد هؤلاء الامم الخشنين الذين تغلبوا بالتعـاقب على المملكة الرومانية من ابتداء القرن الرابع الى تدمير مملكة الرومانيين تدل الناس على ان البلاد التى خرجوا منها كانت ممتلئة بالسكان وذهبوا فى اسباب تلك الكثرة الى مذاهب شتى وسموا هذه البلاد منبع الجنس البشرى ولكن اذا تأملنا فى كون الاراضى المسكونة بهؤلاء الامم عجيبة الامتداد مغطاة فى اعظمها بالغابات والبطايح وفى ان اعظم القبائل المتبربرة الساكنة بها كانت معايشهم بالصيد والمرعى وفى ان هاتين الصفتين يلزم معهما مسافات كثيرة من الارض لاجل تعيش عدد قليل من السكان وفى انه لم يكن بين هذه الامم احد يعرف شيا من الفنون ولا من الصنايع التى بدونها لا يحصل التقدم ظهر لنا بالبداهة ان الاراضى التى كانوا يسكنونها لم تكن معمورة فى الزمن السابق ازيد من هذا الزمن مع انها الآن اقل عمارة وسكانا من باقى اقسام اوربا وآسيا

ولكن الاحوال التى جعلت اهالى الامم الخشنية قليلة اعانتهم عـلى الميل الى الحروب وقوت قلوبهم وذلك انهم من شدة برد اقليمهم وقحط اراضيهم اعتادوا اشغالا تزيد قوة جسمهم وروحهم وتعودوا على المعيشة التى يستمرون بها عـلى دوام العمل فاحتقروا من الاشغال ما عدا الحرب فتصدوا للحروب وانجزوا امضاء تجريداتهم العسكرية مع قوة عظيمة وغيرة واجتهاد بحيث ان الناس المرتخين بتلذذهم بالتمدن العظيم لا يمكنهم ادراك ذلك اصلا

أسباب الاغارة الاولى

والاغارة الاولى الواقعة من هؤلاء الامم فى ارض المملكة الرومانية كانت ناشئة عن محبة السلب لا انها نشأت عن ارادة صناعة ترتيب جديد فهيجهم بعض رؤساء جاسرين عـلى اخذ الاسلحة فخرجوا من غاباتهم وهجموا عـلى الاقاليم التى بحدود اراضيهم مع شدة الحدة التى لا تطاق فقتلوا جميع من رام ان يصادمهم فى الحرب وسلبوا امتعة الاهالى النفيسة وخربوا بالحرق والاسر كل بلدة صادفوها وعادوا الى غاباتهم منصورين على اعدائهم ومعهم عدة من الاسرى ثم ان نجاحهم وما جلبوه من الغنائم وتخطيطهم البلاد المزروعة احسن من بلادهم ومدحهم لها بسبب ما وجدوه بها من الاموال وغيرها مما يغوى كل ذلك حرض اطماع امم اخرى اخلاط مثلهم فذهبوا الى حدود الرومانيين وخربوها

علة اقامتهم فى البلاد التى فتحوها

ولما خربت الاقاليم المتصلة بالحدود بما وقع من كثرة الاغارات ولم يبق بها للنهب شئ اصلا بادرت الامم الخشنية بالدخول الى داخل المملكة ورأوا ان فى رجوعهم على اعقابهم صعوبة وخطرا عظيما فاستحسنوا الاستيطان بتلك الاراضى التى استولوا عليها وانقطعت بعد ذلك هذه الاغارات القصيرة التى ارهبت المملكة وغيرت رونقها ولكن ربما كان يخشى عـلى المملكة مصيبة اخوف جدا من تلك الاغارات فان كثيرا من الجموع المتسلين ذهبوا باولادهم ونسائهم وعبيدهم ومواشيهم ودخلوا كالمهاجرين ليفتشوا عن مساكن جديدة وذلك لعدم تعلق هؤلاء الامم الذين لا مدن لهم اصلا بل ولا محل معين بالاراضى التى ولدوا بها بل كان دأبهم الميـل الى التنقل من

محل الى آخر وقد تبعهم فى ذلك ايضا طوائف اخرى واخذوا محالهم فكانت البلاد التى يتركونها بسكنها على التعاقب عالم آخر خشنى يأتى من البلاد البعيدة جدا وكانت كل امة تبحث عن الاقاليم الشديدة الخصوبة جدا فكانوا كالسيل يتزايدون دائما ويجذبون جميع ما يجدونه على طريقهم ومن الاغارة الاولى حصل ان الامم الخشنية المختلفة الاسماء والاجناس فى اقل من قرنين قد اغاروا على بلاد رومانى وخربوها وكذلك خربوا بلاد المجار وفرانسا واسبانيا وافريقة وايطاليا بل ورومة نفسها حتى ان المبانى العالية العظيمة التى استغرق الرومانيون فى بنائها وتشييدها زمنا طويلا ولم تتم الا بعد تداول قرون عديدة تهدمت فى ادنى زمن وصار عاليها سافلها

ثم ان مساعدة عدة اسباب مختلفة هيئت من بعيد هذا الانقلاب العظيم وسهلت نجاح الملل التى استولوا على المملكة الرومانية وبيان ذلك ان الجمهورية الرومانية كانت قد فتحت اقطار الدنيا بما احدثته من حكمة قواعدها السياسية وقوة تنظيماتها العسكرية وفى زمن دولة الايمبراطرة اهمل كل ايمبراطور ما كانت عليه الجمهورية من القوانين القديمة لاستحقاره اياه ثم اخذت تنظيماتهم العسكرية فى الضعف على التدريج حتى كادت الجيوش الرومانية فى القرن الرابع والخامس ان تكون مخالفة بالكلية لجنود الجمهورية العظيمة التى انتصرت كل النصر فى جميع ما دخلت فيه ولذلك ذهب هؤلاء الرجال الاحرار الذين لمجرد حب الفخر او الوطن كان يلزمهم قبل كل شئ حمل السلاح فى ايديهم وصاروا مستعوضين بالامم الخشنية الذين دخلوا فى العسكرية كرها عنهم بقليل من الجامكية ولكونهم كانوا يخدمون لمجرد الجامكية كانوا ضعافا ومتكبرين عن كونهم يضعون انفسهم لتعب الخدم العسكرية بل شكوا من ثقل اسلحتهم الحامية عنهم حتى افضى بهم ذلك الى تركها لكونهم لم يمكنهم حملها والعساكر المشاة الذين كانوا سابقا قوة الجيش الرومانى صاروا مستحقرين حتى كانت عساكر الازمنة المتأخرة مثل النساء فى الارتخاء لا يعرفون تنظيما ولا تعليما فكان لا يمكنهم السفر الى

الاسباب التى بها ضعفت المملكة الرومانية

الحرب الا اذا اعطوهم خيلا ولكن هذا الجيش الذى كان مستحقرا عندهم
هو الذى كان مستامنا وحده على محافظة المملكة من الاعداء وغيرة الظلم
منعت عن الاهالى حمل الاسلحة فكانت الرعايا المظلومة محرومة من الوسائط
فلم يكن عندها قدرة على دفع العدو ولا ميل الى الحماية عن انفسها ممن كانت
تخافه لان حالتها لا يمكن اصلا ان تصير اسوأ مما هى عليه وكان كلما ضعف
التعليم العسكرى ينقص على التدريج ايراد المملكة وعظم ميلهم للاسراف
فى الزينة المشرقية ومفاخرها حتى اشتد ذلك فى الديوان الامبراطورى
فكان يأخذ الاموال العظيمة ويذهب بها لشراء نفائس الهند ولا يرجع
اصلا وكذلك الاعانات العظيمة التى كانت تدفعها الدولة للملل المتبربرة
كان يضيع فيها مقدار من الدراهم اعظم من ذلك وكذلك الاقاليم التى بالحدود
خربت بالاغارات المتواترة التى كانت تقع من هؤلاء الامم الخشنين
وصارت عن قريب عاجزة عن كونها تدفع الخراج المعتاد واما اموال الدنيا التى
كانت مجموعة من منذ ازمان طويلة فى تخت الدولة الرومانية صارت عاقبة
امرها ان ذهبت هباء منثورا فكما انها جاءت بكثرة انتقلت عنها الى غيرها
وفتحت لها ابواب اخرى فصارت كالبحر الذى تحول ماؤه الى الخلجان وصار
نازحا ففقدت المملكة حينئذ القوة والشجاعة اللازمة لها لاجل الحماية عن
نفسها ولم تفقد شيأ من اتساع ارضها وعن قريب تعطلت جميع وسائطها
وصارت دولتها العظيمة مضمحلة على التدريج حتى اشرفت على الدمار
والامبراطرة الذين كانوا يحكمون باحكام مطلقة التصرف تلبسوا بالزخارف
المشرقية وتشبثوا بفتور الهمة وتكسر الاخلاق وصاروا لا يخرجون من
قصورهم وجهلوا الحروب واهملوا الاشتغال وصاروا تحت طاعة النساء بل
واغراض الطواشية والوزراء ارباب الجبن والخيانة وكان يروعهم اقل قليل
من الخطر ومن الاحوال التى تحتاج لكبير مشقة ومعاناة فى المشاور
والاعمال وكانوا لا يظهرون فى كل شئ الا التردد الكامل الذى يدل على
الخوف والحماقة

الاحوال التى اعانت الامم المتبربرة على الفوز والنجاح

واما حالة الملل الخشنية فانها كانت مغايرة لحالة الملل الرومانية من كل وجه فكان الميل الى الحرب فيها محفوظا بجميع قوته وكانت رؤساؤهم ارباب شجاعة وجسارة عظيمة جدا وكانوا يجهلون الامور التى كان بها خمول الرومانيين وبطبيعة قوانينهم العسكرية كان يمكنهم بالسهولة ان يجندوا جيوشا عديدة للحرب تكفيهم من غير ان يحتاجوا لكبير نفقة وكثرة مصاريف بخلاف الجيوش الرومانية التى كانت تحفظ حدود المملكة فانها لدناءتها وفتور همتها كانت تخشى من اغارة الاعدآء عليها فتهرب حين اقدامهم عليها وتنهزم فى اول مصادمة فكان يضطر كل ايمبراطور الى ان يستأجر الجموع الكثيرة من الامم الخشنية ليقاوموا الطوائف التى كانت تأتى لتحريك الاغارات الجديدة ولكن هذه الطريقة الخطرة عوضا عن كونها تؤخر زوال المملكة بادرت بزوالها وذلك لان الجيوش المستأجرة بادرت بتوجيه السلاح الى الدولة الرومانية التى كانوا مستخدمين فيها واحسنوا حمل السلاح اكثر مما كانوا سابقا لانهم لما خدموا فى الجيوش الرومانية تعلموا تنظيمات الحرب وفنونها التى كانت باقية الاثر دائما عند الرومانيين فازدادت بتلك المعرفة قوتهم الطبيعية وصاروا لشدة شجاعتهم لا يمكن لاحد ادخالهم تحت حكمه

وهذه الاسباب المختلفة بانضمامها الى عدة اسباب اخر اعانت على اسراع تقدم الملل التى خربت المملكة الرومانية وفتوحاتهم هذه وقع فيها فناء كثير لانهم خربوا سائر المواضع بالهدم ودمروا الاهالى بسفك دمائهم حتى صارت كالامواج وذلك لان الامم المتمدنة التى كانت تاخذ الاسلحة بالتوالى انما كانت مهيجة فقط باسباب السياسات او الاحتراس اما الان يحتموا من خطر كان يروعهم اوليصر فوا عن انفسهم بعض وقائع مترقبة فكانوا يقدمون على الحرب بلا همة وحماس وكانت المحاربة الصادرة منهم مجردة عن الارهاب والازعاج بخلاف الخشنيين فانهم لم يعرفوا هذه الرقة بل كانوا يشرعون فى الحرب مع الشدة والعنفوان وكانت عاقبة امره عندهم

الافتراس بالاعدآء وكانوا يجتهدون فى ان يحلوا باعدائهم من المصائب والنكبات كل ماقدروا عليه وكان لايسكن غضبهم الشديد الابذبح هؤلاء الامم وتخريب منازلهم كان الوحشيين القاطنين بامريقة يسلكون فى حروبهم مثل هذه الطريقة الى الآن وبهذه الحروب الوحشية كانت الامم التى تسكن شمال اوربا وشمال آسيا تأتى من بلادها للهجوم على المملكة الرومانية

التخريب الصادر من الامم الخشنية فى بلاد اوربا

فكانوا كلما يتوجهون الى محل تخوض اقدامهم فى الدماء التى سفكوها لانهم كانوا يذبحون كل من صادفوه فى طريقهم ويهدمون كل بلدة رأوها ولا يحترمون احدا اصلا سوآء كان من ذوى المقام كالقسيسين والشيوخ اولا كالنساء وكل مافاتهم نهبه فى الاغارة الاولى اخذوه فى الاغارة الثانية حتى اكتسبوا مكسبا عظيما وصارت الاقاليم التى كانت خصبة معمورة جدا خربة خالية عن الانيس والجليس اوبها بعض خرابات من المدن اوالقرى المهدومة يأوى اليها عدد قليل من الامم الفقيرة التى نجت بالصدفة او لكون سيف الاعدآء لم يشبع من الذبح وفرهؤلاء تركهم لعودة اخرى والفاتحون الاول الذين توطنوا فى البلاد التى هدموها نفاهم وطردهم منها الفاتحون المستجدون الذين جاؤا من الاقطار البعيدة جدا عن الدول المتمدنة والمتصفون بشدة الطمع والتوحش وصارت اوربا حينئذ غنيمة للمصائب المتجددة الى ان فرغت بلاد الشمال من هذه الامم الكثيرة الخارجة من بلادهم كالنمل حتى صارت لايأتى منها احد لخلوها وعدم استيطانها والقحط والطاعون اللذان هما دائما من حزب الحرب نشأ منهما اتلاف جسيم وافساد عظيم فتعبت بذلك اوربا تعبا شديدا واشتد الهول على جميع الاهالى واذا اردنا ذكر الازمنة التى حصل فيها اشد التعب للجنس البشرى فانه يلزم ان نذكر مامضى من موت الملك تيودوس الى ظهور المملكة اللمبردية فى ايطاليا لان المؤلفين الموجودين فى هذه الاعصر وان خططوا هذه الوقائع الناشئة عن الخراب وسفك دماء الناس لم يمكنهم ان يعبروا عنها بعبارات لائقة بها لكونها مهولة ولم يفصحوا غاية الافصاح عنها وانما سموا روساء

هؤلاء

هؤلاء الامم الخشنية باسم بلاء الله او مدمر الامم تشبيها لافاعيلهم بالزلازل والحريق والطوفان والمصائب المخوفة جدا التي يتصورها العقل ويفرضها الوهم

ولكن لاشئ يفيدنا علم هذه الفتوحات المخربة التي وقعت من الامم الخشنيين اكثر من الاطلاع على التغيرات العمومية التي حصلت في اوربا حين شرعت الامم في الاستراحة في القرن السادس وذلك لان السكسونيين كانوا اذ ذاك مستولين على الاقاليم الخصبة الجنوبية من انكلتيرة وكانت الافرنك قد استولت على الغلية واستولت الهونس على المجار والغوثة على اسبانيا وكذلك فرق من الغوثة واللومبردية استولوا على ايطاليا وعلى الاقاليم المتصلة بالحدود ايضا ولم يوجد على الارض من احكام الرومانيين وسياستهم وفنونهم وآدابهم الا ما ندر جددوا بهذه البلاد صورا وقوانين جديدة لحكومة المملكة واخترعوا اخلاقا وملابس ولغة جديدة وكذلك ابتدعوا للناس وللبلاد اسماء غير اسمائها السابقة والتغيير الكثير الحاصل بالسرعة ولو كان في شئ واحد من هذه الاشياء المختلفة لم يمكن اجراؤه من غير اهلاك قدماء هذه البلاد ولا يمكن للفاتح الاعظم المهاب ان يتصدى لذلك من غير هذه الواسطة فحينئذ التغير العمومي الذي حصل باستيطان امم الشمال في دولة اوربا بتمامها هو برهان قاطع على التلف الحاصل في البلاد فهو اعظم دلالة من شهادة المؤرخين الموجودين في ذلك العصر الذين ذكروا اهوال الحرب المصاحب للفتوحات التي وقعت من هذه الامم الخشنية والخراب الذي صدر منهم من آخر نصف كرة الارض الى آخر النصف الآخر

التغيرات العمومية التي حصلت في اوربا عن فتوحات هذه الامم الخشنية

وهذه التغيرات العمومية وقعت في ظلام الجهالة وخفيت فيها الملل التي يلزمنا ان نبحث عن اصول ترتيبها ونكشف آثارها الاصلية وما بقي منها من الاحكام والقوانين الجارية الآن في اوربا التي هي ناتجة عنها من فتوحات هؤلاء الامم اراد المؤرخون بالدول المختلفة من اوربا ان يبحثوا عن اصل تنظيمات بلادهم وعوائدهم وانها ناشئة لهم من اهالي بلادهم القدما

استنتاج حكومات اوربا من هذا الاختلال العمومي

ولكن الظاهر انهم فى بحثهم هذا لم يصرفوا همتهم وجميع اجتهادهم مما تحتاجه ضرورة هذه المادة ولا اتصدى لان افيد فائدة على تقدم الدولة وعلى اخلاق كل ملة بخصوصها الان هذا مذكور فى التاريخ الاتى ولكن لاجل فهم حال دولة اوربا من ابتداء القرن السادس عشر يلزم ان نمهد ذلك بذكر ازمنة قبل ذلك وتبيين احوال الامم الساكنة بالشمال فى زمن استيطانهم الاول فى البلاد التى تغلبوا عليها ومن الضرورى ان الانسان يتبع التمدن الذى وقع من الملل الخشنية فى قليل من الزمن ويلاحظ الاصول والوقائع العمومية التى كانت سببا فى التقدم والبراعة الصادرة من هذه الملل فى الحكومة والاخلاق الى ابتداء الزمن الذى حكم فيه قرلوس الخامس المسمى شرلكان

الاصول التى اسس عليها الامم استيطانهم فى اوربا

ولما صار بعض الامم المحكومين بالظلم والجور فاتحين للبلاد كانت فتوحاتهم لم تنفع الا لتوسيع دولة الظلم والجور ولكن الجيوش المجتمعة من الامم الحرة ارادت ان تفتح البلاد لنفعها لا لرؤسائها فهى التى دمرت الدولة الرومانية ومكثت فى اقاليمها المختلفة ولم تكن الحرية قاصرة على الملل المختلفة التى خرجت من شمال اوربا الذى هو دائما ماوى الحرية بل كان مثلهم فيها ايضا الهونس واللان الذين كانوا قاطنين فى بعض الاقاليم التى كانت عند الناس من البلاد المستعبدة بالطبع فانهم كانوا يتمتعون بدرجة من الاستقلال والحرية التى يظهر منها قلة الامتزاج بحالة الاجتماع والتأنس وبالطاعة اللازمة لحفظ هذا الاجتماع فكانت هذه الامم تتبع الرئيس الذى كان يوصلهم لفتوحات المحال الجديدة ولم يكن ذهابه بهم للفتوح قهرا عنهم بل بالاختيار فليسوا كالعساكر الذين يجبرون على السير بل هم كالمتطوعين بذلك الذين وهبوا انفسهم لمصاحبته لكونهم ارادوا ذلك فكانوا يعتبرون فتوحاتهم كملك مشترك شائع بينهم كل واحد منهم له فيه نصيب بحيث ان كل واحد منهم اعان على الاستيلاء عليها وبذل جهده فيها ويعسر علينا ان نبين بيانا صحيحا على اى وجه وباى طريقة وزعوا على انفسهم الاراضى التى كانوا تغلبوا عليها الا انا لا نعرف فى ذلك اثرا من آثار ملل اوربا منسوبا الى ذلك التاريخ البعيد

واما

واماما فى بعض التواريخ المجموعة فانه لايجدى نفعا لجهل مؤلفيها بحقيقة قصد التاريخ وعدم معرفتهم بمادته

ترتيب الحكومة الالتزامية على التدريج عند هؤلاء الامم

ولكن وجد عندهم تقسيم جديد لتلك الاراضى له اصول اخرى واخلاق جديدة فنشأ منه عن قريب نوع من الحكومة مجهول الى ذلك الزمن يسمى الان باسم المذهب السيادى اى طريقة الحكومة الالتزامية ومع ان الملل الخشنية الذين جددوا هذه الحكومة سكنوا فى ازمنة مختلفة البلاد التى قصدوها وخرجوا من الاقاليم المتباينة المختلفة اللغات والرؤساء فان السياسات الالتزامية دخلت مع قليل من الاختلاف فى جميع اوربا وهذه المطابقة العجيبة حملت بعض المؤلفين على اعتقاد ان جميع هذه الملل ليست فى الاصل الا ملة واحدة كثيرة الاختلافات الظاهرية ومن الصواب اننا نبحث عن سبب هذه المطابقة والاتفاق ولو فى حالتهم بعد التمدن وفى اخلاقهم الاصلية وعن احوالهم حين استيلائهم على البلاد التى صاروا اساداتها وملتزميها فنقول

كون الحماية الاهلية هى المقصد الاصلى من الحكومة الالتزامية

كان الفاتحون لاوربا مشتغلين بحماية ما فتحوه ولم يكن خوفهم عليها من خصوص الاهالى القدماء الذين خرجوا منها احياء فقط بل كانوا يحامون عنها ايضا من الاغارات المخوفة التى ربما كانت تصدر من الطوائف الهمل التى كانت تهجم على البلاد وتنهب العباد فكان اعظم اهتمامهم فى البحث عن وسائط كونهم يحامون عن انفسهم والظاهر ان هذا هو القصد فى ترتيبهم الاول الداخلى وعوضا عما كانوا عليه من الجمعيات التى كانت خالية عن تضييق الحرية حين كانوا فى غاباتهم وبراريهم علموا ضرورة انه لابد ان يجتمعوا بطريقة ضيقة الترتيب شديدة القوانين وان يسقط الانسان منهم بعض حقوقه الخاصة به ليتمتع بالامن العظيم فكل من اخذ قسما من تقسيمات تلك الاراضى المفتتحة لزمه جبرا مجاهدة الاعداء فكانت الخدمة العسكرية شرطا به يأخذ الانسان استحقاقه من الارض ولما لم يكن على هذه الاملاك شئ آخر غير ذلك الشرط وهو الحرب كانت المجاهدة عند هؤلاء الطوائف من قبيل المناصب الجالبة للمنافع والمشرفة لصاحبها وكان الملك الذى هو امير الجيش يقود الملل

الحرب ويسخر على رياسة تلك القبيلة النازلة فيلزم ان يكون سهمه من الارض اعظم الاسهم ومن ثم كانت له كفاءة يجازى بها من ينفعه وينعم عليه ويجلب اليه احزابا واحبابا بارضه ولهذا القصد كان يفرق ارضه فكل من كان يأخذ قسما يلزمه ان يدخل فى العسكرية ويحامى عنه ولذا كان يتبعه فى المعركة عدة رجال كل على حسب اتساع نصيبه من الارض وكان كبار الامرآء يقلدون الملك فى ذلك فيقسمون حصصهم من الارض على اتباعهم بالشرط المتقدم فكانت حينئذ المملكة السيادية الالتزامية اشد شبها بحكومة عسكرية من شبهها بحكومة مدنية فكان الجيش المنصور يحط بالبلاد التى تغلب عليها وكل عرضى مطيع لاميره كان داخلا تحت طاعة التعليم الجهادى والضبط والربط وكان لفظ رجل وعسكر مترادفين على معنى واحد وكان كل صاحب ارض متقلدا بالسلاح مستمرا تحت طاعة رئيسه وكان يلزمه ان ينزل الحرب لمقاتلة الاعدآء العموميه

كون الحكومة الالتزامية مخلة بترتيب الجمعيه الداخلية

وهذا المذهب السيادى الالتزامى وان كان صالحا لكونه يحامى عن الجمعيات ويذب عنها من تعرض لها من الدول الغريبة الا انه مع ذلك كان مخلا بما يلزم للترتيب العمومى والراحة الداخلية وكانت هذه الحكومة وان بلغت فى كمال الشكل ما بلغت فهى مشتملة على اصول الخلل والفساد الذى حصل فى جميع اجزآء المذهب السياسى حتى نشأ عنه الخراب المحزن وكان ارتباط الاجتماع الداخلى ضعيفا جدا وكانت منابع الخلل فى انتظام الاحكام لاتعد ولاتحصى وكانت اقسام القوا بين الملكية والجمهورية غير متوازنة بقوة متوسطة معادلة بل كانت متنافرة الاحكام فاذا دخل حكم من احداهما على حكم من الاخرى حصل النزاع والمناقضة وكان لامرآء جميع الاقاليم الذين يدفعون المرتب من اراضى ينعم بها الملك عليهم ومتى اراد انتزاعها منهم فعل فنالوا بشوكتهم ان هذه الاراضى تكون لهم التزاما مدة حياتهم وصاروا اقرب للعصيان فى تصييرها استوارثة لذراريهم ولما حملهم الطمع الفاحش الخارج عن حد العقل على التغلب على القاب الشرف لقبولها

انقسام

انقسم وصارت تلك العلامة التميزية الشخصية التى اعطتها الا هالى لابائهم فى نظير ماوقع منهم من عظائم الامور متوارثة بين الاهل والعشيرة تنتقل كالالتزام منهم الى اعقابهم

ثم ان هؤلاء الامرآء العظام بعدان امنوا بذلك على املاكهم واراضيهم ومناصبهم المتوارثة ادت بهم الاحكام الالتزامية والقوانين السيادية التى تميل دائما الى الاستقلال بنفسها وان كانت مؤسسة على الطاعة الى ان صاروا يبحثون عن المزايا السلطانية الجديدة فشرعوا فى مشروعات خطرة توصلوا بها الى ان نالوا قوة ان يحكموا بالاحكام السلطانية فى اراضيهم من غير معارض فى المعاملات والجنايات وان يرخص لهم ضرب المعاملة وان تكون لهم مزية عقد الصلح واشهار الحرب مع اعدائهم فضاع معظم الطاعة السياسية ولم يبق الا صورة الطاعة الالتزامية ومن اشراف الناس من اكتسب قوة شديدة وانفة واحتقر ان يصير من جملة الرعايا ورام ان يكون مستقلا بنفسه ونقض العهود التى تربطه بتاج المملكة كغيره من الاعيان فصارت المملكة المعتبرة بقوتها واتساعها منقسمة الى عدة امارات بقدر ما كان عندهم من الملتزمين الاقوياء وتفرعت اسباب الاختلال والغيرة من كل جهة حتى اوقدت نيران الحروب وولايات اوربا التى حصلت بها هذه الاختلافات التى سفك فيها كثير من الدماء وصارت فى الخراب وفى الحرب الدائم كان بها كثير من الحصون والقلاع المشيدة البناء لاجل الاحتماء والمحافظة من هجوم الاعدآء الداخلية لا لمنع الاغارات الغريبة الاجنبية وتسلطن اختلال الحكم فى سائر الاماكن وقامت قلة الترتيب مقام الراحة والامن هذا حال اعيان الناس واما رعاعهم الذين هم القسم الاكبر والانفع للمملكة فانهم صاروا مستعبدين او ارقاء وتجرد الملك عن معظم خصايصه فصار لاقوة له على اجرآء ولا عمل القوانين النافعة وتنفيذها فكان لا يقدر على الذب عن البريئين ولا على معاقبة المذنبين ولما لم يكن للاشراف ذمام يمنعهم عن ارتكاب الاشياء الرديئة أعدم بعضهم بعضا بدوام الحروب وظلموا رعاياهم واساؤا الادب على ملكهم ولكون هذه المصائب

بلغت الغاية تفوت على عمر الايام حيث طال عليها الزمن فصارت صورة هذه الحكومة التى كانت فى مبدئها جبرية محترمة لا يمكن ان يعارض فى ظلمها انسان

*

ضعف المملكة الالتزامية فى الاعمال الخارجية

فهذا ما وقع فى اوربا من القرن السابع الى الحادى عشر بالنسبة الى تدبير المملكة الداخلى فسائر الاعمال التى صنعتها الممالك المختلفة خارج المملكة فى ذلك الوقت كانت بالضرورة ضعيفة جدا فكيف يتصور ان المملكة الممزقة بالفتن والفشل والمحرومة من منفعة عمومية ومصلحة مشتركة يتأتى لها ان تجمع قوتها مع كونها محرومة ايضا من رئيس محترم يرشدها لصلاحها وسلوكها وان تتحرك بالقوة وتعمل الاعمال الشديدة فان الحروب التى وقعت فى اوربا فى هذا الزمن لم تكن مهمة ولا حاسمة للنزاع بالوقائع العجيبة بل كانت فى الحقيقة اشد شبها باغارات ارباب الصيال والنهب لا بالاعمال الصادرة عن الجنود المنتظمة وكان كل ملتزم متصدر امام اتباعه يستعمل بعض مشروعات حربية مخصوصة اما لتحصيل ما طمع فيه لنفسه او للانتقام من عدوه فمكثت حينئذ المملكة المفرقة فى البطالة واذا عملت ما تقدر عليه مما فى جهدها اطلع الناس على عجزها وتظرواقلة جهدها ثم وقع من كرلوس مانوس المسمى شرلمانيه أنه جمع لوفور عقله هذه الجمعيات المشتتة فى جمعية واحدة وصاروا على قلب رجل واحد كانهم عضو واحد واعاد فى المملكة النشاط والقوة التى ميزت مدة مملكته على غيرها وصيرت تلك الوقائع اهلا لتعجب اهل القرون المستنيرة بالمعارف والعلوم ولكن هذه الحالة التى نشأت من القوة والاتحاد لم تكن بالطبيعة فى المملكة الالتزامية لكونها لم تمكث الا مدة قليلة وعند موت هذا الامير صار مذهبه الواسع المؤسس على الجرآءة الذى كان رتبه متروكا لكونه لم يعضد بالحماسة والحمية التى كانت فى اتباعه قوية ثم اضمحلت وتفرقت مملكته الى عدة ممالك حتى صارت عرضة للمصائب والفتن واختلال الحكم ولا زالت تتزايد من هذا الزمن الى القرن الحادى عشر وجميع تواريخ الملل الافرنجية ممتلئة بحكايات الوقائع العظيمة والحروب الدآئمة لكنها قليلة الجدوى

كون الآثار التى تزيدت عن هذه الجمعية اضرت بالعلوم والفنون

باسبابها ومسبباتها ونتايجها

ويمكن ان يضاف الى هذه الافاعيل المشومة التى تجب من منع الحكم الالتزامى نتايج انحلال نظام الحكم البشرى وذلك لان جميع الامم مادامت لم تتمتع بمملكة منتظمة يأمن فيها الانسان على نفسه فانه لا يمكن لها ان تشتغل بالعلوم والفنون وتظهر ذوقها وتحسن اخلاقها لان زمن الفتن والظلم والنهب الذى ذكرته آنفا لا يمكن ان يكون معينا على تتميم العلوم والتأنس والتعيش والاجتماع البشرى ولم يمض قرن من مدة سكنى هذه الامم الخشنية فى البلاد المفتوحة الاورسوم المعارف والآداب التى انشأها الرومانيون فى اوربا دارسة منسية لاذكر لها عندهم فاهملوا وفقدوا علوم الفصاحة التى هى آلة للزينة غير منفكة عنها وكذلك هجر واعدة فنون تكون سببا فى انتظام المعيشة وصلاحها وكانوا فى هذه الازمنة المشومة لا يعرفون اسماء علوم الادب ولا اسماء الفلسفة واذا كانوا يشتغلون ببعض هذه الآداب فانما كانوا يستعملونها فى الاشياء الحقيرة لافيما شأنها ان تستعمل فيه وكانت اعيانهم المتقلدون بالوظائف المهمة اميين لا يعرفون القرآءة ولا الكتابة وكذلك كان كثير من القسيسين لا يفهمون الخطب التى كانوا ملزومين بتلاوتها عن ظهر القلب دائما بل كان بعضهم لا يحسن القرآءة وكانت روايات الوقائع الماضية منسية عندهم ضائعة لا وجود لها الا فى التواريخ المملوءة من الوقايع والحوادث الباطلة والحكايات العاطلة وصارت القوانين التى الفتها الملل التى نزلت باقاليم اوربا المختلفة متروكة لا يعمل بها ولا يعتمد عليها واستعوضوا عنها عادات فاسدة مخالفة للعادات القديمة ولما تجردت هذه الامم عن الحرية والحمية والغيرة وتعذرت عندهم ممارسة العلوم وقعوا فى ظلمات الجهل ومكثت اوربا مدة اربعمائة سنة لا يظهر منها احد من المصنفين يكون متأهلا لان ينتفع بقرآءة كتابه وحريا بان يشتهر بفصاحة العبارات وغرابة المعانى فلم يخترعوا فى مدة هذا التاريخ اختراعا يكون نافعا مفيدا للجمعية تتشرف به تلك الاعصر

مدخلية الحكومة الالتزامية فى الامور الدينية

وقصد المحون النصرانى المعينة قوانينه وترتيباته فى الكتب المقدسة بالتدقيق

الذى لا يقبل التغيير والتبديل والتقلب فى هذه القرون المجهولة الحال الى
بدع خشنية ولما دخلت الملل الخشنية فى الدين النصرانى لم تغير مشربها
فى العبادة وانما غيرت معبودها فكانت تبحث عما يرضى الاله الحق
سبحانه وتعالى بوسائل قليلة الاختلاف عما كانت تستعمله سابقا لتسكين
غضب آلهتها الباطلة التى كانت تعبدها وعوضا عن كونها تعمل بعمل
اهل الخير والفضيلة الذى يكون به الانسان محبوبا عند خالقه المكمل للنفوس
كانت تظن انها وفت جميع التكاليف حيث دققت فى حفظ البدع
والاحتفالات الفاسدة ودينهم الذى اتبعوه واعتادوا العمل به لم يكن كبير شئ
لان اعمالهم الدينية التى كانوا يظنون انها تجلب لهم رضا الاله الحق سبحانه
وتعالى كانت لا تصدر الا عن الخشنيين الذين تخيلوا مثل هذه الامور
واحدثوها وتلك الامور الفاسدة والعقائد الكاسدة تعد من النقائص فى حق
الذات العلية ومن العيوب فى من يعمل بها من البشر ثم ان الملك كرلوس
مانوس فى فرانسا والفريدوس الاكبر فى انكلتيره بحثا عن تشتيت ظلام هذا
الجهل وتوصلا الى ان يدخلا بين الرعايا بعضا من المعارف ولكن منع من تلك
القوة والترتيب موانع عظيمة بسبب اهل ذلك العصر وموت هذين الاميرين كان
سببا فى انغماس هذه الملل فى بحار الجهالة اكثر مما كانت عليه

مدخلية الحكومة الالتزامية فى احوال الناس وفضائلهم

ثم ان سكان اوربا كانوا يجهلون فى هذه الاعصار المشومة ما كانت تحسن
به الاعصار المتمدنة من الفنون بل كان لا وجود عندهم للفضيلة المميزة للامم
الخشنية وكانت قوة النفس واحساس سقامها والشجاعة فى المشروعات
والتجلد لتنفيذ الامر واقتحام الاخطار واستحقار الموت كل هذه الفضائل كانت
مختصة بطبيعة الامم التى لم تصل الى درجة التمدن ولكن هى نتايج المساواة
والاستقلال الذى ازالته محبة القوانين الالتزامية فى سائر الاماكن كما ان محبة
الاستيلاء والحكم افسدت ارباب الشرف وثقل الاستبعاد سمت منه الامم
والاحساسات الشريفة التى كان يستدعيها التساوى محيت بالكلية ولم يبق
مانع يمنع القساوة الوحشية والافتراس وكذلك لم يوجد للشهوات النفسانية

الصعبة

الصعبة جدا زمام يمنع فساد حالة الجمعية البشرية والحالة التى قصد فيها الناس استقلالهم وعظيم اخلاقهم الاصلية قبل ان يصلوا الى درجة التمدن التى فيها احساس العدل والشرف وقد اختص تاريخ الازمنة التى نتكلم عليها بعدة اعمال كثيرة يتعجب منها القارى ويعدها من الامور الشنيعة لا توجد فى غيره من تواريخ اوربا واذا كشفنا فى تاريخ غرغوار التورسانى وفى تاريخ المؤلفين الذين فى عصره وجدنا فيهما شيأ كثيرا من اوصاف الجبر ونكث العهد والانتقامات المهيجة للنفس مما لا يصدق به العقل

شروع الحكومة والاخلاق فى الكمال من القرن الحادى عشر

ولكن يوجد على قول مؤرخ فصيح مطلع على التواريخ يسمى هومة ان الانسان اذا وصل الى حضيض الانحطاط او الى اوج الارتفاع فانه يرجع الى الضد ولما اعترى الحكومة عيوب فى صورتها او تدبيرها نشأ عنها فى الجمعية الخلل الذى لا يطاق ولا يصح ابقاؤه فبحثت المصلحة العمومية عن بعض علاجات تزيل بها هذا الضرر وكان يمكن للناس ان تهمل زمنا طويلا بعض المضار والظلم او تتحمل ذلك لكن متى بلغ الظلم الى درجة عالية فانه لا يمكن للجمعية الا ابطاله او تهلك وظلم الحكومة السيادية بانضمامه الى فساد الذوق السليم والاخلاق المستقيمة التى هى نتيجة هذه الحكومة لم يأخذ فى الزيادة مدة سنين كثيرة والظاهر انه وصل فى آخر القرن الحادى عشر الى اقصى درجة فى الزيادة وعند ذلك اخذ سير الحكومة واخلاقها فى التنازل ويمكننا ان نصعد الى ذكر اسباب الوقايع التى نتج منها ازالة خلل الترتيب والخشونة وترتب بدله الادب وانتظام القوانين

وليس من اللازم فى البحث عن الوقايع واسبابها ان نتبع مع الصحة ترتيب الازمان التى تخص التواريخ بل الاهم والاحسن ان ننبه على ارتباطها وتعلقاتها ببعضها وكيف ان الواقعة نشأت عنها واقعة اخرى بمدخليتها القوية وقد تبعنا الى الآن تقدم الجهالات المتزايدة المتتابعة التى سترت اوربا زمنا طويلا وهذا اوان ذكر شعاعات ضياء العلوم والتقدمات التدريجية التى وصلنا بها الى هذه الدرجة من العلوم التى نحن عليها الآن

من القدس ما وقع لهم من الشدائد وما اقتحموا من الاخطار وبالغوا فى الجور
والظلم الذى وقع لهم من معاملة الاتراك الرديئة

انتهاز فرصة المجاهدة الصليبية

وبينما عقول الناس كانت حينئذ مستعدة لحماية الدين واذا براهب ذى حمية
دينية خطر له ان يجمع سائر قوات النصارى ويحزبها على المسلمين ليطردوهم
قهرا من ارض القدس فكانت غيرته وحميته سببا فى انجاز تلك الشروعات
الغريبة وهذا الراهب هو المسمى بطرس ارميطه وهو من دعاة دين النصرانية
المجاهدين فسافر وصورة المصلوب فى يده وصار ينتقل من اقليم الى آخر حتى
هيج الملوك والرعايا على الشروع فى الحرب المقدس واضرم بوعظه فى جميع
العقول نيران الحمية النصرانية ممن كان يحبه وقضى مجمع مدينة بليزنسه الذى
كان يحضره اكثر من ثلاثين الف شخص ان مقصد هذا الراهب كان الهاما الهيا
ووحيا ربانيا ولما عرضوا ذلك على مجمع قسيسى اكليرمونت الذى يزيد عدده
على الاول بكثير صاح جميع الناس قائلين هذا قضاء الله فانتشرت هذه الحمية
الغضبية بين سائر الناس على اختلاف مراتبهم ولم يختص الاشراف والسادات
الموجودون فى هذا العصر بالسير للجهاد مع رعاياهم لكونهم فتنوا وحدهم
بجسارة هذه التجريدة المخيلة بل كان فيها ايضا عدة اشخاص من ارباب
الخمول وعدم الميل الى الخصام ومن القسيسين على اختلاف مراتبهم بل ومن
النساء والصبيان ايضا فتصدى كلهم لهذا الحرب لكونهم كانوا يزعمونه شريفا
كالعبادة وكلام مؤلفى هذا العصر يقتضى ان عدد من حمل الصليب فى هذه
الغزوة كان ستة ملايين من المحاربين وكان هذا الصليب علامة يميزبها
كل من تقدم لهذا الحرب المقدس فلذلك سمى بحرب اهل الصليب وقالت
الاميرة المسماة كومينه يظهر ان اوربا انتزعت من مواطنها لتنزل بثقلها
على اسيا ولم تذهب نشوة هذه الحمية الدينية بعد زمن يسير بل اشتهر انها
استمرت زمنا طويلا حتى سئم منها وصارت ذميمة فكثت اوربا بتراى منها
ان ليس لها غرض آخر الا فتح ارض القدس ومحافظتها ولم تزل تبعث
على التعاقب جيوشا عديدة

نجاح المجاهدين

ولم يمكن بوجه من الوجوه مقاومة قوة الجيش الاول الذى حرضت شجاعته هيجان الغيرة الدينية فاخذ النصارى من الاسلام قسما من اناطولى والشام وبلاد فلسطين وصارت راية الصليب منصوبة على جبل صيهون وتغلبت فرقة من هؤلاء الاخلاط الذين اخذوا السلاح لحرب الاسلام على مدينة القسطنطينية التى كانت تحت المملكة النصرانية فى المشرق وصارت فى مدة نصف قرن دار اقامة القونته افلندره وذراريه وهذه الشدة الغير المعهودة التى نشأت عن المصادمة الاولى الواقعة من النصارى صيرت فتوحاتهم الاولى سهلة لاتعب فيها ولكن صعب عليهم جدا فيما بعد حفظ تلك الفتوحات حتى ان عدة من الترتيبات البعيدة عن اوربا المحيطة بالملل الحربية والمقواة بالحمية الدينية التى لم تلحقها شجاعة المجاهدين كانت دائما عرضة للخراب وقبل انتهاء القرن الثالث عشر سنة ١٢٩١ خرج النصارى مطرودين مما كان تحت ايديهم من ممالك اسيا بعد ان كانوا قد صرفوا فى فتوحاتها اموالا كثيرة وهلك بسببها من الرجال عدة ملايين فحينئذ هذا المشروع الذى لم تجتمع الملل الافرنجية لغيره كاجتماعها له حتى استولوا عليه مع الشجاعة والتجلد هو الآن معدود من الجنون البشرى الظاهر

تأثير هذه المجاهدة فى تحسين الاخلاق فى اوروبا

وهذه الغزوات وان كانت من باب الحمق والغفلة الا انها نشأ عنها نتايج سعيدة لم تكن ممكنة عندهم بل كانت لاتنتظر ولا تتوقع وذلك ان ارباب الصليب مروا فى سيرهم بجهة بلاد القدس باراضى نضرة من حسن زراعتها اكثر من اراضيهم وبدول متمدنة اكثر من تمدن دولهم وكانوا يجتمعون فى مبدء امرهم فى ايطاليا وكانت مدينة البندقية وجنوه وبيزه ومدن اخرى شرعت تجتهد فى التجارة واشتغلت بالتأدب وسلوك طريق الغنائم بعد ذلك ذهب اهل الصليب بحرا الى ولاية دلماسيا وساروا منها برا الى مدينة القسطنطينية وكانت الدولة المشرقية الرومانية بتمامها خالية عن الميل الى الحرب والجهاد مدة احقاب طويلة كان وجور الحكام الخطر جدا قد محق من تلك الدول جميع الفضائل العمومية ولكن مدينة القسطنطينية التى هى دار مملكة تلك الدولة

والتى لم تخر بها الملل الخشنية كغيرها كانت اعظم مدن اوربا فكانت مختصة بكونها بقى فيها بعض اشياء من التمدن وحسن التربية القديمة ولم تتغير كغيرها بهجوم الخشنيين عليها وكانت قوة مملكة المشرق البحرية عظيمة جدا وكانت مزينة بالمعامل العظيمة التى لم تزل باقية الى ذلك الوقت وكانت مدينة القسطنطينية وحدها مخزن بضائع بلاد اوربا الآتية من بلاد الهند ومع ان العرب والعثمانية استولوا من هذه المملكة على عدة اقاليم من اقاليمها الغنية وحصروها فى حدود ضيقة جدا كانت منابع الغنا بمدينة القسطنطينية سببا فى سيل اهلها للزينة والعلوم والاشياء الفاخرة ولهذا كانت تفوق اوربا بتمامها وقد وجد اهل الصليب الحربيون فى آسيا آثار العلوم والفنون التى اعان الخلفاء على تحصيلها فى الديار الاسلامية ومع ان مؤرخى اهل الصليب بذلوا جهدهم فيما عدا حالة الجمعيات المشرقية واخلاقها وكان اغلبهم لاميل له ولارغبة عنده فى كونه يرصد ما يراه ويكتبه فقد وصفوا لنا اوصافا عجيبة فى مروءة الملك صلاح الدين وكرمه وكذلك مروءة وكرم غيره من امراء الاسلام واكتسبوا من اخلاقهم الحميدة ما اكتسبوا اذ لا يمكن لاهل الصليب ان يجوبوا اشل هذه البلاد المشتملة على القوانين والعوايد المختلفة من غير ان يكتسبوا من علومها ومعارفها شيأ جديدا فلهذا اتسعت اطماعهم وضعفت اوهامهم وتصورت اذهانهم تصورات اخرى نافعة وادركوا بتكاثر الفرص عندهم ان ما كانوا عليه من الاخلاق خشنى بالنسبة لاخلاق المشرقيين السياسية وكانت هذه التأثيرات قوية جدا حتى انها لم تمح من حافظتهم حين رجوعهم الى اوطانهم ومسقط رؤوسهم وكان من منذ قرنين بين اهل المشرق والمغرب تجارة دائمة وكانت الجيوش تجدد عندهم دائما وتتردد من اوربا الى آسيا واما اختلاط العساكر المتجمعة من الجهات المختلفة فكانت ترجع الى محالها مستصحبة للعادات التى اكتسبتها فى مدة طويلة من الاراضى الغربية ولهذا شوهد بعد زمن قليل من ابتداء محاربة اهل الصليب ظهور

تحسينات كثيرة فى دواوين الامرآء وزينات جليلة فى المحافل العامة والجامع المدنية وترفهات جليلة فى الاعياد والمواسم ومجامع المسرات حتى صارت حكاية الحوادث محبوبة لديهم وانتشرت دائرتها فى جميع بلاد اوروبا شيأ فشيأ فالفضل فى تمدن الافرنج لهذه الغزوات التى هى من اعجوبات الحماقة والبدع لا نهاية فى السبب فى دخول اوائل انوار المعارف التى اذهبت على التدريج ظلام الجهل والخشونة ولكن لم تظهر آثار المحاربات النافعة ونتايجها الا مع التراخى والمهلة فان تأثيرها فى حالة ملكية الاراضى وتمكنهم من التصرف فيها صار اقوى واعظم مما كان ولما عزم الامرآء من اهل الصليب على التوجه الى بلاد القدس رأوا انهم محتاجون لمصاريف كثيرة فى هذه الغزوة الكبيرة لتظهر فيها رياستهم على اتباعهم وعلو مقامهم عنهم ولكن لما لم يسوغ لهم اصطلاح مذهبهم الالتزامى ان يجعلوا على رعاياهم غرامات كثيرة لم يعتادوا على دفعها لم يجدوا سبيلا لما احتاجوه من تلك المصاريف الا بيع اراضيهم ولما كانت عقولهم مملوءة بالتصورات الوهمية التى كانوا ينتظرون حصولها بعد الفتوحات التى عزموا على عملها فى آسيا برغبة عظيمة صيرت غيرها من شهواتهم غير مرغوب فيه ولا مهتم به تركوا عقاراتهم وباعوها عن طيب نفس بثمن بخس ليذهبوا بصفة المهاجرين للبحث عن الاستيطان فى البلاد المجهولة هذا ولم يتفق لاحد من عظماء ملوك اوروبا انه دخل فى المحاربة الاولى بل ارادوا كلهم ان ينتهزوا الفرصة فى ان يجمعوا بقليل من المصاريف اراضى جديدة ويضموها الى وسايا هم الخصوصية وكان ايضا اذا مات فى هذا الحرب المقدس احد من الامرآء العظام ولم يترك وارثا آلت التزاماته ملكا لهم فزادت بذلك املاكهم وقويت شوكتهم وكذلك حكومتهم السلطانية وانجبر ما كان فيها من الضعف بسبب كثرة الملتزمين وحصل لهم ايضا بسبب غيبة جماعة من اتباعهم ارباب الشوكة المعتادين على الزام ملوكهم ان يحكموا بينهم بقوانين رتبوها لهم فرصة أن يوسعوا تصرفهم ومزاياهم ازيد مما كانوا عليه ولنذكر زيادة على ما سبق انه كان عندهم ان كل

تأثير حرابة اهل الصليب فى الامن على الاملاك

من اخذ الصليب يكون تحت حماية الكنيسة التى كانت تلعن كل من اراد ان يضر من تحت حمايتها فى هذه الغزوة المقدسة اويسيء الادب عليهم وان المشاجرات والشرور الخصوصية التى لم تزل الى ذلك الزمن مبعدة حسن الترتيب والصلح من جميع الدول الالتزامية علقت دفعة واحدة بل بطلت بالكلية

وادارة العدل شرعت تأخذلها صورة مستحسنة امكن واتم جدا مما كانت هى عليها واخذوا فى سلوك طريق ترتيب المذهب المنتظم فى ادارة وسياسة ممالك اوربا العظام

تاثير حرابة اهل الصليب فى التجارة

والآثار التى نشأت عن المحاربات فى حالة تجارة اوربا لم تكن اقل قوة مما ذكر آنفا فان العساكر الاول الذين جعلوا انفسهم تحت حكم بيرق الصليب وكانوا مع بطرس لرميت وغودفرواد وبوليون وصلوا الى قسطنطينية من طريق المانيا وبلاد المجر وقاسوا من طول السفر اكثر مما قاسوه من توحش اهالى هذه البلاد وافتراسهم ولما علمت الجيوش التى ترتبت بعدهم ذلك وكانت مزهرة بتجريبات الاول احترسوا من كونهم يمشون فى الطريق التى مشت فيها تلك الجيوش وارادوا ان يسافروا فى البحر فرارا من ان يقعوا فى هذا الخطر فقدم لهم اهالى مدينة البنادقة وجنوبرة وبيزة مراكب النقل ليسافروا فيها واخذوا فى نظير ذلك منهم مقادير عظيمة ومع عظمها الاموقع لها بالنسبة لما اخذته اهالى تلك المدن مكسبا من غزوة الصليب وذلك ان اهل الصليب اتفقوا معهم على ان يتزودوا من عندهم ويأخذوا ذخائر الحرب منهم مدة سير الجيوش فى البر فكانت السفن تسير قريبا من شاطئ البحر لتعطى للجيوش جميع ما يلزم لها فكان هذا النوع من التجارة خاصا بها دون غيرها ونشأ مما اكتسبه سابقا عساكر المحاربين من النجاح منافع عظيمة جدا للمدن التجارية ويوجد الى الآن كتب من القوانين التى اعطيت بها البنادقة واهل بيزة والجنوبرة الخصائص التجارية فى المحال الافرنجية المتخذة للتجارة والاقامة فى آسيا فكانت جميع بضائعهم سالمة من سائر المكوس وكانوا قد اعطوا لارباب التجارة املاكا

من الضواحى والرساتيق التى بحواشى بعض المدن البحرية واعطوهم فى بعض الامر كثيرا من البيوت والحارات العظيمة وكان لهم ايضا بموجب هذه القوانين خصوصية كونهم يجرون الاحكام على مقتضى القوانين وعينوا قضاة لفصل الخصومات الواقعة من ارباب التجارة الذين تحت حمايتهم ومن الذين كانوا مستوطنين فى داخل البلاد التى اعطوها لهم ولما تغلب المحاربون من اهل الصليب على مدينة القسطنطينية اجلسوا واحدا منهم على كرسى المملكة المشرقية فاغتنمت دولة ايطاليا فرصة هذه الانقلابات وذلك لان البنادقة الذين كانوا فى هذه الحروب وكان لهم فيها معاونات بحثوا بمجرد تمامها عن استجلاب منافعها لانفسهم فاستولوا على قسم من اقسام مورة فى بلاد اليونان وعلى بعض جزائر خصبة جدا من جزائر بحر الروم وكانت عدة فروع مهمة جدا من التجارة مخصوصة الى ذلك الزمن بالقسطنطينية فنقلوها الى البنادقة وجنويزه وبيزه فكانت الوقايع المختلفة المسببة عن الحروب الدينية فتحت باب عدة منابع جديدة من الغناء والكنوز التجارية بمجرد دخولها فى مدن ايطاليا ذات التجارة وانضمامها الى القانون الاتى ذكره اعانت على ترتيب استقلالهم وحريتهم على قاعدة متينة جدا

اعانة ترتيب التجارات على تقدم الحكومة

وفى هذا الزمن بعينه صارت المدن جمعيات بوليتيقية واستفادت كونها حكومة بلدية وهذا التغير هو أقوى الاسباب التى ادخلت اصول انتظام المملكة والسياسات والفنون فى اوربا

وكانت الحكومة السيادية الالتزامية قد استطالت الى الظلم فكان جور اشرافهم لايطاق لتجاوزه الحد حتى انهم اكرهوا الرعايا على الخدمة والاستعباد الحقيقى وكذا من بقى من الناس الذين كانوا يسمونهم باسم الاحرار لم يكونوا الطف حالة من هؤلاء الرعايا بل كانوا امثالهم فى الرقية ولم يكن هذا الظلم خاصا بسكان الخلاء والارياف بل كان عاما لمن كان من الاهالى فلاحا للاشراف حتى صارت المدن والقرى مجبورة على شراء حمايتها لكون حكومتهم بلغت الغاية فى الظلم وذلك لان الاهالى كانوا ممنوعين من حقوقهم الطبيعة اللازمة

للنوع البشرى فكان لايمكنهم ان يتصرفوا فى منافع صنايعهم لا بالوصية ولا بغيرها مدة حياتهم ولا ان يعينوا اوصيا الصغار اولادهم ولا يتزوجوا الا بعد شرا الاذن من ملتزمهم وكانوا ايضا اذا شرعوا فى فصل خصومة لا يمكنهم اتمامها على وجه الصلح لان ذلك كان يمنع الملتزم الذى كانت محكمته مرجعا لبت الحكم ان يكتسب ما يعود عليه من محصول الدعوى وكان الملتزم يكلف اتباعه بانواع الخدم الشاقة من غير حلم ولا شفقة بل كان غالبا يعاملهم بالذل والقساوة وكان الميل الى البراعة فى الصنايع مضيقا فى بعض المدن بقوانين فاسدة وفى بعض آخر بتكليف ما لا يطاق وبالجملة فقوانينهم المؤسسة على التشديد والظلم المجاوز للحد التى لا تناسب الا الحكومة العسكرية كانت سببا فى منع تقدم الصنايع عندهم على اختلافها

اول ترتب الحرية فى مدن ايطاليا

ولكن لما شرعت مدن ايطاليا فى الالتفات الى التجارة وفهمت بعض صناعات نافعة بحيث يمكنها ان تستخرج منها فائدة لنفسها خطر ببالها ان تخرج من تحت ذل الملتزمين الذين كانوا يذونها وان ترتب لنفسها حكومة مؤسسة على الحرية والمساواة وامن الناس على املاكهم ومقوية للفنون والصنايع عندهم * وسلاطين المانيا الاسيما الذين كانوا من عيلة فرنكونيا وسوابة وكانت اوطانهم بعيدة عن ايطاليا لم يكن حكمهم فى هذه البلاد قويا متسعا بل كان قليلا ضعيفا وكانت عداوتهم الدائمة مع البابات او مع اتباعهم تحملهم على شغل الزمن بالقتال بحيث لا يمكنهم ان يلتفتوا الى داخل ايطاليا وهذه الاحوال قوت فى اول القرن الخامس عشر عدة من مدن ايطاليا على كونها تطلب لنفسها مزايا جديدة وتجتمع مع بعضها بروابط ضيقة كالمعاهدة والمحالفة بحيث تكون جمعية سياسية تحكم نفسها بموجب قوانين مرتبة باتفاق عمومى من الاهالى فقد اكتسبت عدة مدن حقوقا بالغصب اما بمساعدة الفرصة والاتفاق او بالتجاسر ومدن اخرى اشترتها من السلاطين الذين فرحوا بكونهم باعوها باغلى ثمن حيث انهم كانوا غير قادرين على حمايتها والامتناع من اعطائها ومن المدن ما اخذها من بعض الامرا مجانا بانعامهم

وسماحتهم * وزيادة الغنا العظيمة التى نشأت فى ايطاليا من حرابة اهل الصليب مع اهل المشرق حثت جميع الناس على انواع من الفتن والعصيان واحدثت شهوات عمومية موجبة لمحبة الحرية والاستقلال حتى انه قبل آخر الغزوة الصليبية الاخيرة اشترت جميع المدن العظيمة الايطالية من السلاطين كثيرا من الخصايص والمزايا

ادخال الحرية فى فرانسا وغيرها من باقى ممالك اوربا

وهذه الحادثة الجديدة بمجرد وقوعها فى ايطاليا شرعت فى الدخول فى فرانسا واجتهد لويز لوغرس اى السمين فى احداث قوة جديدة لتعادل قوة الملتزمين التابعين له الذين كانوا غالبا يلزمونه بما يستحسنونه من القوانين فبدا له قبل غيره ان ينعم بخصايص وحقوق جديدة على المدن التى فى التزاماته الجفلكية وبهذه المزايا المسماة بقانونامة الجمعية البلدية اعتق الاهالى وابطل جميع علامات الاسترقاق وجعلهم جمعيات وصيرهم محكومين بمجلس وقضاة وحكام انتخبوهم بانفسهم وجعل لهولاء القضاة حقا فى ان يديروا اراضيهم ادارة شرعية وسياسية وان يعينوا الفرد والغرامات وان يجلبوا عساكر المدينة ويعلموهم وبمجرد طلب السلطان لهم يسيرونهم للسفر تحت اوامر الضباط المعينين بديوان المدينة هذا ما رتبه لويز فى التزاماته واقتدى به فى ذلك الملتزمون فانعموا باعطاء مزايا مشابهة لها فى التزاماتهم ولما نفدت اموالهم العظيمة التى صرفوها فى حرب بلاد القدس بادروا بسلوك طريق جديدة ليحصل لهم شئ من الاموال فباعوا قوانين نامة الحرية ومع كون حكومة الجمعية المرتبة مخالفة لاصولهم السياسية ومضادة لقدرتهم كانت ضرورتهم الحالية حاملة لهم على عدم الاكتراث بما يترتب على ذلك فيما بعد من الاخطار البعيدة وفيما دون قرنين بطل الرق فى اغلب قرى فرانسا التى كانت محرومة الى ذلك الوقت من الحرية والحكومة الشرعية والخصايص فصاروا بذلك جمعيات مستقلة واحرارا وفى ذلك الزمن ايضا شرعت مدن المانيا العظيمة فى كونها تنسج على منوالها وتستقل بنفسها وترتب حريتها التى هى اساس لما هم عليه من الحرية الآن فانتشرت هذه الطريقة حالا فى اوربا ودخلت

في جميع بلاد النمسا واسبانيا والانكليز وايقوسيا وسائر الدول التي كانت حكومتها التزامية

ظهور نتايج سعيدة لهذه الترتيبات الجديدة في حالة عوام الاهالي

وعما قليل ظهرت عندهم ثمرات ناجحة من هذه الترتيبات الجديدة التي كانت واسطة قوية نافعة في تحسين الحكومة والاخلاق فمن ذلك ان الاهالي خرجوا من ذل الاسترقاق ودفع الغرامات الظلمية الثقيلة التي كانوا ملزومين بها سابقا لدناتهم وصارت المدن بما اكتسبته من حق الجمعيات المدنية منقسمة الى عدة جمهوريات صغيرة محكومة بالقوانين المعروفة لجميع الاهالي والمسوية بينهم فكانوا يرون الحرية كانها جزء مهم من القانون بحيث كان من قوانينهم ان المستعبد الهارب من بلاده الداخل في حماهم اذا مضت عليه سنة ولم يبحث عنه ساداته ينادى عليه بانه رجل حر ويدخل في عدد اعضاء الجمعية المدنية

نتايجها السعيدة في حالة خواصهم

ولما نالت فرقة من امة حريتها من تجديد الجمعيات المدنية المتكفلة بالتسوية والحرية اكتسبت الفرقة الاخرى بذلك ايضا طمأنينتها وامانها وذلك ان حكومات اوربا مكثت عدة قرون وهي خشنية بحيث كان كل انسان مجبورا على حفظ حقيقته بدخوله تحت حماية امير قادر له قصر يكون في زمن الخوف حمى وملجأ عموميا تهرع الناس للاحتماء فيه فلما تجددت هذه الجمعيات المدنية امنت المدن ووجدت نفسها حيث احاطت بها الاسوار وانتظام سكانها باشتغالهم دائما بالتعليمات العسكرية مجتمعة لمصلحة عمومية فكانت مجبورة بما التزمته من العهود الوثيقة على حماية نفسها وذب بعضها عن بعض ولذلك كان للعوام حمى يامن به الخائف ويرتاح فؤاده وفقدت الخواص عن قريب سلاطتهم بمجرد بطلان اختصاصهم بكونهم ارباب الحماية التي كانت الامم تلتجيء اليهم للاستغاثة من شدة الظلم وصارت حماية هذه الجمعية البلدية مقصورة على القوانين المدنية

نتايجها السعيدة في قوة السلطنة وشوكتها

ولما اعطيت المزايا والخصايص للمدن فما انقصته من قوة الخواص زادته في شوكة السلطنة ولما كانت الحكومات الالتزامية خالية عن الجيوش

المشاة المنتظمة كان ملوكها عاجزين عن المحاربة الا بالعساكر التى تعطيها لهم اتباعهم الذين كانوا امرا على جفالك ملوكهم وكانوا دآئما يرغبون فى استقلال انفسهم وفى الخروج عن الطاعة ولم يكن ايضا للملوك فيما سلف اسباب اخرى تساعدهم على مصاريف المصالح العامة الا ما كان يعطيه لهم هؤلاء الاتباع مع التقتير والنفور رغالبا فلما رخص لارباب الجمعية الجديدة ان يحملوا السلاح لحماية انفسهم كان ذلك دوآء للدآء الاول بحيث كان يمكن للملك ان يجد جنودا مستقلة غير منسوبة لاحد من الامرآء الملتزمين وكذلك لما رأت اهالى المدن ان الملوك الذين منوا عليهم بالحرية والذب عن خصوصياتهم حيث ابعدوا عنهم ظلم الملتزمين ازدادت محبتهم فيهم فكانوا دآئما يعينونهم بالاموال حتى نشأ عن ذلك قوة الدولة وشوكتها فكان هذا دوآء للدآء الثانى

تزايد الصنايع وغيرها

وقد نشأ عن التمتع بالحرية تغيرات سعيدة فى مراتب الجمعيات المدنية ورفعتها بحيث انهم فى اقرب زمن خرجوا مما كانوا عليه من الاحوال القديمة كالبلادة والبطالة حيث كانوا سابقا مربوطين بالظلم والاسترقاق وقويت رغبتهم فى الصنايع واهتموا بشأن التجارة واخذوا فى اظهار رونقها وتكاثرت الاهالى على التدريج وبالجملة فهذه المدن التى مكثت مدة طويلة محلا للفقر والظلم ظهر بها الغنا والاستقلال وجرت ثروتهم الى التجمل والرفاهية اللذين يتبعهما الزينة عادة ومع ان هذه الزينة كانت غير مألوفة للذوق نتج منها كثير من الآداب والظرف فى اخلاقهم واحوالهم ونشأ عن تلك التغيرات تغيرات اخرى فى الحكومة وذلك ان الضبط والربط اخذا فى التكامل كلما ازداد عمران المدن بالاهالى وكثرت بينهم المعاشرات والمخالطات فاستشعروا بضرورة ترتيب قوانين جديدة وفهموا ان من المهم لاجل طمانينة الجمعية البلدية العمل بها مع التدقيق والمواظبة وان من خالفها يعاقب بالسرعة اشد العقوبة فنشأ هذان القوانين وتهذيب الاخلاق وجعل الناس درجات قد تولدت فى المدن ثم انتشرت فى سائر اقسام الجمعيات الاخرى

اكتساب سكان المدن القوة السياسية لكونهم ارباب القوانين

وحين نال اهل المدن الحرية الشخصية وان تقام عندهم احكام قانونية خصوصية اكتسبوا ايضا الحرية الداخلية والقوة السياسية وكان من قواعد المذهب الالتزامى ان الرجل الحر لا يدخل تحت طاعة القوانين الجديدة ولا يدفع الغرامات الابعد رضاه بها فكان كل بارون يحضر تابعيه فى مجلسه ليتفق معهم على عمل ما يستحسنونه من القواعد ويرونه نافعا لجمعيتهم وكانوا يمدون بارونهم فى هذا الوقت بامدادات على قدر اموالهم وحاجاتهم

وكان الامراء بموجب قانون من قوانين الحكومة مرخصين فى ان يدخلوا فى مجلس الملة العالى ويشتركوا مع الملتزم فى عمل القوانين وتعيين الغرامات وكان الملتزم الذى هو سيد الامراء وصاحب الالتزام له سابقا الحق فى كونه له الملك الحقيقى فى الاراضى التى اعطى منفعتها زمنا معينا لاتباعه فلما صارت الالتزامات فيما بعد وراثية كانت تلك العادة ايضا جارية باقية فكان البارون منظورا كانه وصى على من كان مقيما بارض التزامه وكانت المشورة العمومية لكل ملة على اى اسم تسمت به على اختلاف الملل مركبة سابقا من خصوص الملتزمين والقسيسين اصحاب الرتب وكانوا فى الدرجة بعد الملك وكانت المدن التى فى التزام الملك او فى التزام احد من الرعايا محتاجة لحماية الملتزم التى اخذت منه ولم تكن موصوفة بوصف شرعى او سياسى يرخص لها الدخول فى مجالس ترتيب القوانين وتنظيم الاحكام ولا ان يكون لها نفوذ كلمة لكن بمجرد ما خلصت من الاسترقاق وصارت جمعيات سياسية انقسمت اقساما شرعية مستقلة ومنفصلة عن القانون الالتزامى القديم وتمتعت بالحقوق المنسوبة الى الاحرار واعظم هذه الحقوق هو كونها يرخص لها ان تقول رأيها فى عمل القانون الجديد وفى اعطاء المعاونات والاموال للدولة وكان من اللازم المهم ان مثل هذه الخصوصية تبحث عنها المدن المتعودة على صورة حكومة داخلية حرة لا يمكن بدون رأيها ترتيب جديد ولا اخذ معاملة من الرعايا على سبيل الفردة لاعانة الدولة وما اكتسبوه من الاموال والشوكة

والاعتبار حين استقلوا بحريتهم زادهم ثباتا وقوة فى بلوغ اغراضهم وقد انصفهم الدهر وساعدتهم المقادير على الفوز بالمقصود وبلوغ المرام

سنة ١٢٦٥ وكانت جزيرة انكلتيرة اول مملكة جامن قراها وكلا رعايا الامم الذين دخلوا فى المشورة العمومية الاهلية فاراد الامراء الملتزمون الذين خرجوا على الملك هنرى الثالث ان يستميلوا قلوب الرعايا اليهم زيادة مما كانوا عليه ليكونوا من حزبهم وان يجددوا موانع قوية يمنعون بها تقدم الشوكة الملوكية فطلبوا من هؤلاء الوكلاء ان يحضروا فى المشورة العمومية المسماة عندهم مشورة المذاكرة واما فى فرانسا فان فيليب لو بيل (اى فيليبش الظريف) الذى قد ضم الى فطنته العظيمة جسارة قوية وجعل وكلا المدن كآلات ينتفع بها فى توسيع المزايا الملوكية وفى معادلة قوة الاشراف الظالمين وتسهيل ترتيب الغرامات الجديدة أدخل لاجل هذا المقصد فى الديوان المسمى مشورة العموم الاهلية وكلاء المدن التى كانت قد ترتبت جمعيات مدنية حرة واما فى المانيا فان اموال المدن السلطانية (الايمبراطورية) والتزاماتها جعلت وكلاء المدن مساوين لعظماء ارباب ديوان الجرمانيين فلما احسوا بقوتهم وعظم اهميتهم طلبوا ان يكون لهم فى المشورة محل مخصوص ليكونوا فيه حزبا على حدتهم يعطون رأيهم فى المشورة وقد نالوا ما طلبوه

سنة ١٢٩٣ نتايج سعيدة فى الحكومة نشأت عن هذه الحادثة

وعلى اى حالة كان عليها دخول وكلاء المدن فى مجالس ترتيب القوانين فقد ترتب على كونهم من اربابها كثير من المنافع فى الدولة وتخفيف الظلم الاستقراطى اى الناشئ عن حكومة الاعيان بانضمامه الى حرية الاهالى ومن جملة ذلك ان الملة التى لم يكن لها الى ذلك العهد وكلاء استفادت محامين ارباب نشاط وقوة تكفلوا بالتيقظ لحفظ حقوقها وخصوصياتها وكذلك تجديد الشوكة المتوسطة التى هى القوانين بين الملك والاشراف حتى صار كل منهما يلتجىء اليها عند الحاجة وهذه الشوكة قد ابطلت على حين غفلة ظلم الملك ومنعت طمع الاشراف ولما عظم اعتبار وكلاء المدن ونفذت كلمتهم وقويت تأثيراتهم فى الحكومة شرعت القوانين تسلك مسلكا آخر غير الاول والتفت

اربابها العارفون باصولها الحسنة الى مقاصد اخرى وذلك ان المساواة وحسن الترتيب والنفع العمومى وابطال الظلم كل هذه صارت مقاصد عمومية ومطمحا لانظار جميع الناس فلذلك دخلت فى اقرب زمن فى قوانين الملة الافرنجية واحكامها وآدابها وهذه الشوكة الجديدة التى دخلت فى مجالس ارباب القوانين كانت سببا فى معظم الاجتهادات التى حصلت فى شأن الحرية فى دول اوربا المختلفة وصار كلما اكتسبت الحكومات البلدية شيأ من نفوذ الكلمة والاعتبار ضعفت حكومة الاشراف القديمة وقويت خصوصيات الرعايا على التدريج على حسب نقصان حكومة الاشراف

اكتساب الرعايا الحرية بالاعتاق

ولما اعلنت كتب القوانين المدنية بحرية سكان المدن شرع جماعة من الرعايا سكان الارياف المشتغلين بالزراعات فى ان ينالوا الحرية بواسطة الاعتاق وذلك ان رعاع الرعايا مدة بقاء المملكة الالتزامية على قوتها كانوا فى ذل الاسترقاق كما سبق انهم كانوا ارقاء تابعين لملك ارض الزراعة التى كانوا يزرعونها فكان للمالك ان يتصرف فيهم مع الارض بالبيع لمالك آخر وكانت قواعد المذهب الالتزامى تابى اعتاق مثل هؤلاء الناس وكان من قوانينهم العامة انه لا يؤذن للملتزم المباشر ان ينقص قيمة الالتزام اذا اضر ذلك بصاحب الالتزام الذى انعم عليه به وان الاعتاقات الصادرة من ملتزمهم المباشر لهم لا تعتبر لمخالفتها للقوانين فاذا كانت صيغة الاعتاق لم يصدر عليها اقرار من صاحب الالتزام الحقيقى الذى اقطع الارض لملتزمهم فان المستعبد لا يثبت له حق شرعى فى الحرية فتعين حينئذ ان كل من اراد الاعتاق من المستعبدين يأخذ اقرارا من الملتزمين على سبيل الترقى من الادنى الى اعلا منه وهكذا حتى يصل الى صاحب الالتزام الحقيقى الذى هو الملك فهذه الكيفية الطويلة المشكلة كانت سببا فى تقليل اجراء الاعتاق فكان الارقاء المستخدمون اومن حيث ذاتهم اذا تمتعوا بالحرية يكون ذلك بانعام ساداتهم عليهم لكون ساداتهم مطلق التصرف فيهم بخلاف المستعبدين الفلاحين فانهم كانوا تابعين لاراضى الالتزام فكانوا اسوأ حالا من السابقين ولا يتمتعون

بالحرية الا بالمشقة السابقة

اسباب الاعتاق وتقدماته

والحرية والاستقلال اللذان اكتسبهما قسم من الرعايا بترتيبات الجمعيات البلدية الهما القسم الآخر رغبة قوية جدا فى ان ينال مثل هذه المزايا والخصوصيات ولما استعظم الملتزمون المنافع العظيمة التى استخرجوها لانفسهم مما تخلوا عنه اول مرة رخصوا الاتباعهم فى خصوصيات جديدة فلذلك كثر عندهم الاعتاق وصار معتادا فاشتغل ملوك فرانسا بتصيير الاعتاق امرا عاما فالضرورة الجأتهم لذلك ولكونهم ارادوا اضعاف قوة الاشراف وصدر عن الملك لويز العاشر واخيه فيليبش اوامر نصها ان الانسان حر من اصل فطرته ومن حيث ان المملكة تسمى مملكة الافرنك (اى الاحرار) فينبغى ان يتحقق فيها مدلول هذا الاسم فلذلك امرنا ان ينعم بالاعتاق على جميع من فى الولايات على شروط متضمنة للعدل والانصاف انتهى فنفذت تلك الاوامر السلطانية حالا فى حكومة الملك الخاصة به ثم ان ذلك حث اغلب الاشراف على ان ينسجوا على منوال الملك خصوصا مع ما ينشأ عن الاعتاق من الاموال الجسيمة فبادروا باعتاق مستعبديهم وصار اغلب اقاليم فرانسا خاليا من الاسترقاق

سنة ١٣١٥

والحكومة الجمهورية التى كانت قد ترتبت فى مدن ايطاليا العظيمة نشرت فيها اصول حكومة مخالفة جدا الاصول المذهب الالتزامى ولما تقوت هذه الاصول باسباب المساواة التى تقدمت بكثرة التجارة اعانت على ادخال عادة الاعتاق عند قدماء المستعبدين المسمين يرديو ومعناه الاسارى وفى بعض اقاليم المانيا اعتقوا الاشخاص الذين كانوا فى هذا النوع من الاستعباد وفى بعض آخر صارت احوالهم مبنية على السهولة عما كانت عليه سابقا وازدادت الرغبة فى الحرية فى بلاد الانكليز وصار اسم الاسترقاق الشخصى نسيا منسيا من نفسه من غير ان يصدر فى شأنه نهى شرعى

نتايج الاعتاقات فى تحسين الجمعية

فمثل هذا التغيير العظيم الذى حصل فى صفة معظم الرعايا نشأ عنه فى اقرب زمن نتايج مهمة جدا حتى صار الزارع مستعدا للاشتغال فى الارض لنفسه

آمنا على ثمرات شغله وصار مالكا للاراضى التى كان سابقا مجبورا على زراعتها لمنفعة غيره وصار فى آخر الامر لفظ سيد ولفظ عبد اللذان هما افظع الالقاب البشرية وابغضها الى الناس متروكين رأسا وبطل استعمالهما بالكلية وفتحت الاعتاقات طريقا جديدة لاكتساب المعتقين واتساع معايشهم ورغبتهم فى الاموال وارتفاع مراتبهم عما كانوا عليه وقويت نشاطهم وذكاء قريحتهم فهذه الطائفة العديدة من الناس التى لم يكن لها سابقا وجود سياسى بل كان وجودها بالنسبة لارباب الدول والاحكام كالعدم لكونها كانت كاية عن آلات صناعة صارت بنوالها الحرية منتظمة فى سلك الاهالى معينة للجمعية بانفسها واموالها

اعانة تدبير فصل الخصومات على تحسين الجمعية

والوسايط المختلفة التى سلكوها لادخال الانتظام والمساواة والقوة فى تدبير فصل الخصومات ساعدتهم على تحسين الجمعية المتمدنة وتكميلها ويعسر علينا ان نعين مع الصحة طريقة ادارة الاقضية عند الملل الخشنية المختلفة التى انتشرت فى الدولة الرومانية واذا كنا نحكم بموجب ظاهر صورة الحكومة الجارية عندهم وبما يفهم من طبيعة الجمعية فان هذا يؤدينا الى ان نعتقد ان قوة القضاة والاحكام كانت محدودة جدا وانهم ليسوا ارباب تصرف مطلق فلذا كان الاحاد يتمتعون بالحرية والاستقلال الواسع جدا وما يوجد الآن من الحكايات والآثار عن هذه الازمنة البعيدة المجهولة الحال يدل على ما قلناه ويمكن ان ينتج من ذلك ان ما يظن فى اقضيتهم وفى الكيفية التى كانوا يستعملونها فى جميع بلاد اوربا لا يختلف الا قليلا عما يوجد الآن عند المتوحشين الذين لم يزالوا الى الآن على الحالة الطبيعية وذلك لان فهم حفظ انتظام الجمعية وراحتها باجراء القوانين المعروفة ابتداء تماما والبحث من طرف الدولة عن قصاص الذنوب التى تضر بصالح آحاد الجمعية وامنهم واعتبار عقاب المذنبين كانه عبرة عمومية تزجر غيرهم كل ذلك لا يمكن ان يصدر الا عن اصول حكومة منتظمة لا عن مثل حكومة هؤلاء الخشنيين الاوائل لا يفهمون ذلك حتى يعملوا على مقتضاه فكانوا لا يعتبرون القضاة والحكام

امنيا على سيف العدل بل كان هــذا السيف فى ايدى آحاد النـاس حيث
كانوا يقلدون الاحكام لى انسـان وكان حب الانتقـام ومجرد الاقتصـاص
هو السبب فى البحث عن الذنوب والمعاقبة عليها والمظلوم وحـده هو الذى
له الحق فى ان يتتبع مظلمته ويسعى فى معـاقبة من تعدى عليه او يسامحه فهذه
الطريقة الخشنية التى تـكاد ان تبـاين كل اصول جمعيـات المتمدنين صـارت
سببا فى اختلال التنظيم واضلال الترتيب * وكثرة الظلم بانضمـامها الى الجهل
العميق اعانت على تلك الطريقة وعلى تضييق تدبير الحكومة الشرعية
وجعلت العمل بها على حسب الاهوآء وتنوع الآرآء فكثت ارباب القوانين
والاحكام مــدة قرون يبحثون عن دوآء لهــذه المصـائب العظيمة بترتيبهم
للاقضية والاحكام دونا ثابتـا منتظما فاسسوا الاجل توفية هــذا الامر
قوانين ترجــع الى ثلاث وسايط اصلية بحيث لوجمع توضيحهـا ونفعها لكان
ذلك احد المباحث النافعة جدا فى تاريخ الجمعية السياسية بين امم اوربا

الواسطــة الاولى اول عمل مهم اعان عــلى ترتيب المسـاواة فى تدبير القضـايا
والاحكام هو ابطـال الحقوق الخشنية التى كانت تزعم الآحـاد استحقـاقهـا
وهى محاربة بعضهم بعضا لانفسهم لا للدولة وبقوتهم لا بقوة الدولة وذلك لان
من الطبيعى للانسان ان يدفع المضـار عن نفسه ويبحث عن اخــذ حقه ممن
ظلمه كما ان من طبيعته ايضا الاعتراف بما للناس عليه من المعروف وما دامت
الجمعية باقية على حالة جهالتها الفطرية الاولية فاول صفة نفسانيــة للانسان
يرى انه لم من حقه الذاتى له لا يضيعه كما لا يضيـع الحق الاخر بكفران النعمة
فلم يظن المتوحشون ان حقهم فقط هو انتقام المضار التى تصيبهم من اعدائهم
بل ظنوا ذلك اعتقادا ان ينتقموا من العدو لا هاليهم واحبابهم وجماعاتهم
واصحابهم الذين ربطتهم بهم العرض والنسب ارتباطا اكيدا وليس للانسان
منهم فى اصول الجمعية السياسية الا تصورات جاهلية خشنية مظلمة ولكنه
كان يتأثر تأثرا عظيما بحماسيات الالفة الاهليـة وبالواجبات التى تتولد من
الاختلاطات القرابية وعلاقات النسب فكان اقل خسارة او عيب يصيب عائلة

ترك اجرآء الحروب المخصوصة وابطالها

ما عند الناس من الاوهام الاولية فى شان القضايا والاحكام والقصاص

الانسان اوقبيلته ينضرم فى قلبه نيران الغضب ويحمله على تتبع فاعل ذلك بغاية الاذية والاضرار ويعد من الجبن تفويض الانتقام لغيره وان من العار عليه ان يترك جبر هذا الخلل او اخذ ثاره لآخرين

وجميع الملل غير المتمدنة لاسيما قدماء الجرمانيين وغيرهم من الخشنيين الذين خربوا الدولة الرومانية كان عندهم اجتهاد فى البحث عن الذنوب وعقوباتها وكان عندهم اصول وعوائد موافقة لما ذكرناه وماداموا محافظين على سذاجة اخلاقهم الفطرية ومنقسمين الى قبائل صغيرة فان عيوب مذهبهم الناقص المتعلق بالجنايات لاتكاد تحس على ان تسمية هذا مذهبا فيها تساهل ولما انتقلت هذه الامم بنفسها الى الاقاليم المتسعة التى كانت فتحتها واستوطنتها وصارت حكومات عظيمة لها ملوك وازدادت عندهم اسباب الطمع الجديدة التى اعانت على تقوية النزاع بينهم وانتشاره وتواتره لزمها ان ترتب قوانين جديدة للقصاص وتترك ما كانت عليه الى ذلك الوقت من العمل على مقتضى احكامها الشخصية بانقيادها للقوانين العمومية العادلة

ولكن الرؤساء النافرون المتكبرون المعتادون على الانتقام بانفسهم ممن اساءهم لم يريدوا ان يتنازلوا عن الحق الذى كانوا محافظين عليه كانه مزية خاصة بطائفتهم وعلامة على استقلالهم ولما لم تكن قوانينهم معضدة الا بالامراء الخالين عن الشوكة والحكام والقضاة المجردين من القوة لم تكن كثيرة الاحترام وذلك لان جملة الامم الخشنية لايمكن ان يكون تدبير القضايا والاحكام منتظما عندهم انتظاما كليا بحيث يستوى فيه جميع الاحاد وينقادون لما يقضى به الحكام من غير نظر فيه فكان اذا خطر ببال بارون ان بعض الناس اساء الادب فى حقه اوتعدى عليه فى امواله تسلح وذهب مع اتباعه لينتقم من عدوه بنفسه وكذلك خصمه كان يتسلح مثله ليدافع عن نفسه ولا يتفكر احد من الفريقين ان يرفع الامر للقوانين التى لم تمكنها حمايتهم لعدم قوتها ولا يريد احد منهما ان يحكم فى خصومته النفسانية التى يريد تنجيزها بالسرعة احكام المحاكم الشرعية البطيئة بل كان يسارع الى فصل الخصومة

كون هذه الاوهام المتقدمة ادتهم لاعتيادهم الحروب الشخصية

بالسيف ويدخل فى تلك المشاجرة اهل كل من الخصمين واتباعهما ولا يمكنهم التخلص عن الاهانة حتى ان كل من امتنع منهم من الدخول مع الفريق الذى ينسب اليه فقد فضح نفسه وعرضها الا لام العقوبات الجارية عندهم

فصارت حينئذ ممالك اوربا المختلفة غنيمة عدة قرون للحروب الداخلية التى اضطرمت نارها بالعداوة بين الآحاد واستمرت مع القوة الطبيعية عند اناس كانت اخلاقهم وحشية وشهواتهم شديدة وكان التزام كل بارون جزأ من الارض مستقلا بنفسه مفترقا عن التزام جيرانه فكان ذلك دآئما سببا للتفاقم بين الملتزمين المختلفين والشرور المضرة تشعبت فى سائر الجهات حتى توصل الناس الى ان يعينوا اشكل هذه الحروب المخصوصة وقوانينها بطريقة صحيحة وهذه القوانين صارت قسما من مذهب القضايا والاحكام حتى كانها مؤسسة على بعض الحقوق الطبيعية للانسان او على القانون الاصلى للجمعية المتمدنة

النتايج الشنيعة الصادرة عن هذه العادة

والمصائب التى كانت تجذب هذه المعاداة الدآئمة صيرت الضرر عموميا متسعا جدا بحيث انهم صاروا مجبورين فى الاخر على كونهم يبحثون له عن علاج يبطله وحاول الامرآء بوسايط مختلفة كونهم ينزعون من ايدى الاشراف ما كانوا يدعونه لانفسهم من المزايا الشنيعة ولم يكن هناك ملك من ملوكهم الا كان متولعا بابطال العادة التى صيرت حكمه كالعدم فقد نهى شرلمانيا الذى هو كرلوس الاكبر بقانون صريح عن هذه الحروب الخصوصية قائلا انها بدعة شيطانية يختل بها انتظام الجمعية وراحتها ولكن لم ينقطع بذلك عرقها لان الحكومة الواحدة وان بلغت فى القوة ما بلغت لا يمكن ان تبطل عادة متمكنة قديمة وخلفا شرلمانيا الضعفا المتعاقبون عوضا عن كونهم يجرون هذا النهى ويقررونه لم يعالجوا هذا الدآء الابدوآء هين حيث امروا بانه لا يباح لاحد الحرب الا بعد ان يراسل اهالى خصمه واتباعه ويدعوهم للقتال وبانه اذا وقع ذنب صغير وكان سببا فى حرب خصوصى فان المظلوم المتعدى عليه يجبر على ان يمكث اربعين يوما بلا هجوم على اتباع المتعدى الظالم

استعمال وسايط مختلفة لاجل ابطالها

وامروا كل الرعايا ان يعلقوا مشاجراتهم الشخصية ويبطلوا عاداتهم الداخلية حين يصير الملك مجبورا على حرب اعداء الملة ثم اتفق القسيسون مع الحاكم السياسى على ان يبطلوا بواسطة قوتهم كل عادة مضادة لاحكام دين النصرانية وانعقدت عدة مجالس قسيسية وحكمت بالنهى عن الحروب الخصوصية ودعوا باللعنة على كل من يتجاسر على تعكير صلح الجمعية ويستمر على العمل بالقوانين الخشنية فصار الاهالى مجبورين على الاستعانة بالدين لاجل اجتناب توحش الاخلاق وخشونتها وادعى جماعة ان الله تعالى الهمهم بالالهامات والمنامات استقباح التواع بالانتقام الذى يثير الناس على بعضها وامروا الناس عن الله تعالى ان يغمدوا سيوفهم ويبطلوا الحروب والانتقام من بعضهم ويحترموا الروابط الدينية والملكية التى جمعتهم على النصرانية وجعلتهم اعضاء الجمعية ولكن اجتماع القوة السياسية مع القوة القسيسية وان كان متقويا بجميع ما يمكنه وضعه فى عقول تلك القرون المتوحشة الساذجة لم ينتج منه الانقطاع المعاداة الزمانية الوقتية بحصول المهادنة ومنع الحرب مدة ايام او اشهر محترمة معدة للاعمال الصالحة العظيمة واستمر الاشراف على حفظ مزاياهم الخطرة وامتنعوا عن طاعة بعض القوانين المرتبة لابطال تلك المزايا او تضييقها وابطال اشياء اخر وطلبوا التمكين مما حرموا منه وبالجملة فتجادلوا وتشاجروا على ان يفيدوا ما كانوا يزعمونه حقا لهم من عمل الحرب الخصوصى لانهم كانوا يرون فيه اعظم تشريف لطائفتهم وقد وجد فى القرن الرابع عشر عدة من اشراف اقاليم فرانسا المختلفة طلبوا عاداتهم القديمة من انهم يخلصون حقهم بالسيف ممن تشاجر معهم وامتنعوا من الانقياد لحكم المحاكم الشرعية ولم يكن تأثير تسلطن القوانين فى جعل عادة الحرب الخصوصى هباء منثورا مساويا لتأثير الحكومة السلطانية ومزايا المعارف والعقل التدريجية التى افادت اصولا صحيحة للحكومة والانتظام والامن العام

مطلب
اعانة ابطال القتال الشرعى على كمال تدبير الاحكام الشرعية

الواسطة الثانية هى ان شكل فصل الدعاوى بالقتال الشرعى لفصل

الخصومات كان عادة اخرى فاسدة من عوايد الجاهلية فتركهما ساعد على التدريج فى ادخال انتظام الضبط والربط فى الجمعية بحيث يؤمن به على انتظام الترتيب العام والراحة الخصوصية دفعة واحدة وقبل ذلك كان حق الحرب الخصوصى بين الخصمين يفصله السلاح فكان النزاع بين شخصين منزلا منزلة النزاع بين ملتين وكان فصل الدعاوى بالقتال الشرعى الذى انتشر فيما بعد فى جميع بلاد اوربا قد ابطل العدل فى المحاكم ولم يرتب قانون للاحكام الشرعية الا القوة والصدفة ومن المعلوم ان العقود والعهود عند الملل المتمدنة تعمل بالكتابة وتقديم هذه الكتابة بعد اقامة الدعوى يكفى فى اثبات الحق وتجديد ماوقع الاتفاق عليه بين المتعاقدين مع الضبط واما عند الامم الجهلة الخشنية الذين يندر عندهم معرفة القرآءة والكتابة وان اتصف عندهم شخص بذلك كان جديرا بوصف عالم فكان لا يكتب الا المشارطات التى تقع بين الامرآء والملوك وكذلك المزايا والقوانين التى كانوا يعطونها لرعاياهم والوثائق الخصوصية النافعة وكان اغلب مصالح المعيشة العامة لا تحصل الا بالاتفاقات اللسانية وكان يصعب فى كثير من الدعاوى المدنية ان يجد الانسان براهين كافية فى قمع الخصمين بل ربما كان الكذب والغش متقويين بالامل فى عدم القصاص وكانت الحيرة كبيرة جدا فى الجنايات التى القصد منها تحقيق الدعوى او ابطال التهمة ولم يكن يوجد بين هؤلاء الامم الخشنيين المام بحقيقة البراهين الشرعية ولا بما يترتب عليها فكيف يمكنهم على وجه الضبط تعيين البينة المقبولة التى يلزم القاضى ان يبحث عنها وكيف يمكنهم ان يميزوا بين الوقائع التى لابد فيها من الوقوف على الحقيقة واليقين والوقائع التى يكتفى فى اثباتها مقتضيات الاحوال وكيف يمكنهم المقابلة بين عدة شهادات متناقضة والوقوف على درجاتها والاخذ بالاقوى منها فان مثل هذه الابحاث والتدقيقات ادق واصعب من ان تدركها عقول ارباب هذه الاعصر ذات الجهالة والخشونة فلاجل ابطال هذه الموانع ادخلوا فى المحاكم طريقة فى اقامة الدعوى اسهل من الاولى لاجل المصالح المدنية الداخلية

مطلب العيون فى اقامة الدعاوى الشرعية

والجنايات وفى جميع الصور التى لم يقم المدعى عليها برهانا واضحا يتخلص المتهم منها بحضوره فى المحكمة وتحليفه على ما اتهم به فمتى حلف على نفى ما اتهم به عن نفسه فانه يبرأ ويخلى سبيله وهذه العادة الفاسدة لم تكن صالحة الا لاخفاء الحق ودرء العقوبات وبهذا كان لليمين سلطنة بحيث لا يمكن لاحد معارضة الحانث فلما جربوا الاحوال الخطرة التى تنجت بالضرورة من مثل هذه العادة وارادوا ان يزيلوها امرت القوانين لاجل الاحتراس منها ان الايمان تكون جهرا على رؤس الاشهاد بكيفية مخصوصة تمنع الانسان من التجارى على الحلف وان كانت هذه الكيفية من قبيل البدع والاوهام وكانت اعانة ذلك على دفع هذا الخطر ضعيفة وذلك لانهم تمرنوا على هذه الكيفية التى كانت فى مبدء الامر تخشاها عقولهم فتناقصت بالتدريج وتهاونوا بها فكان كل من لا يخشى الكذب لا يمكنه ان يمكث زمنا طويلا محجوزا باليمين عن مرامه فلاحظ ذلك عاجلا ارباب الشرائع والقوانين فبحثوا عن طريقة جديدة ليصيروا فصل الخصومة باليمين قويا صحيحا فرتبوا ان يحضر المتهم ومعه عدة رجال احرار من جيرانه او اقاربه لاجل تأكيد زيادة صدق اليمين ويحلفون انهم يعلمون صدق ما قاله المظلوم وكان هؤلاء الشهداء يسمون المزكين المنقذين للمتهم من الذنب وكان يختلف عددهم كثرة وقلة على حسب عظم الدعوى او طبيعة الجناية المتهم بها حتى انه فى بعض الصور كان لا يكفى فى ارباب التزكية اقل من ثلثمائة لاجل تزكية المتهم وتبرئته ولكن لم يتوصل ارباب القوانين بهذه الطريقة الى بلوغ مقصدهم وذلك انه تحكم فى اوربا مدة قرون اصل قوى وهو شرف العرض وكان متقوما من كون الانسان لا يرخص له ان يترك ابدا الرئيس الذى يكون مرتبطا به او من يكون بينه وبينه قرابة الا مع المسبة والعار وهتك العرض فكان كل من تجاسر حينئذ على مخالفة القوانين يجد من ينضم اليه ويتعصب معه لاجل حمايته والذب عنه ويسلك معه انفع الطرق له فلم تفد عادة التزكية السابقة فى منع الحنث والكذب والغش الا مجرد الامن الظاهرى فقط وكانت

المحاكم الشرعية كلما استمرت على الحكم بتلك العادة والوثوق بكلام المزكين في كل واقعة من وقائع النزاع التي تدعو الى ايمان المزكين المحامين يظهر ان حكم القضاة بها خال عن الانصاف فينشأ عنه نفور عموم الناس وعدم قبولهم له بهذه الصورة

مطلب بيان كون هذه المظالم نشأ عنها ان الله تعالى الهمهم طريقة اخرى وانه هو الذي يقضي في الدعاوى

وكان قدماء الافرنج يتأثرون من تلك المضار ويجهلون دواءها ولا يعلمون طريق تجديد قوانين احسن منها في القضاء والاحكام ثم انهم ظنوا انهم الهموا طريقة مطردة قوية في تمييز الحق من الباطل والاحتراس من الكذب وهي انهم جعلوا الله سبحانه وتعالى قاضيا في خصوماتهم وفوضوا الامر في قضاء جناياتهم اليه لحكمته وعدله ففي بعض صور كان المتهم لاجل البرهنة على صدقه وبرآته يصنع على رؤس الاشهاد امتحانات خطرة مهولة جدا ككونه يغمس ذراعه في ماء شديد الحرارة او يحمل بيده مكشوفة قطعة حديد محماة بالنار او يمشي غير منتعل على قضبان الحديد الملتهب بالنار وفي بعض آخر كان يستدعي خصمه لحرابة غريبة وكانت جميع هذه الامور

مطلب حرب فصل الخصومات

المختلفة جارية عندهم باحتفالات دينية وكان امناء الدين هم رؤساء تلك الاحتفالات وكانوا يتضرعون الى الله تعالى في حماية البريء وفضيحة المذنب وكان المتهمون الذين يرضون بتلك الامور السابقة من غير ان يصيبهم منها مكروه او يخرجون من المعركة منصورين سالمين منها تثبت عندهم برآتهم ويسمى ذلك حكم الله تعالى وقضاءه

مطلب كون ادخال هذه العوايد في القضايا الشرعية اعان في القرون المتوسطة على الاوهام الفاسدة

ولا يوجد في جميع القوانين الشنيعة المتولدة من ضعف العقل البشري اشنع من القانون الذي يحمل الانسان على تفويض قضاء مهماته وامواله وعرضه إلى مثل تلك الامور مما يقع بالصدفة والاتفاق والقوة والحيلة والشعبذيات فهل هنالك احق ممن يسلك تلك المسالك ولكن كان عندهم مقتضيات احوال تدل على ان هؤلاء الامم الجهلة في اوربا كان لهم شبهة في كونهم يعتقدون ان هذه الطريقة الغير البينة كانها الهام من الله تعالى واظهار لارادته وذلك ان البشر لما لم يكن في طاقتهم ان يعرفوا كيفية اقتدار

الله تعالى على تدبير العالم باسره باحكام معينة دائمة عمومية حملهم ذلك
على اعتقادهم فى سائر الاحوال التى يرون فيها منافعهم وشهواتهم النفسانية
عظيمة فى اعينهم انه يجب على الله تعالى ان ينتقم بنفسه على وجه واضح
حرى للبرئ من المسيئ ويلزم لاجل ازالة هذا الخطأ الفاحش عن اوهام
العامة كثير من المعارف والاطلاع على اسرار الكائنات لان جميع الاوهام
والتصورات التى تحكمت فى اوربا مدة قرون الجهالة قوت هذا الخطأ
الفاحش واكدته بدلا عن كونها تمحوه وتبطله وفى مدة عدة قرون كان الدين
عبارة عن اعتقاد سير كثير من القديسين الذين كانت اسماؤهم تدون
فى الزيجات الرومانية فكان بها يكبر حجم الكتب وتصير ضخمة وقدامر الباباات
وجمعيات الفناصل بان جميع الخرافات المشتملة على خوارق العادات لهؤلاء
القديسين تنظم فى سلك المعتبرات الصحيحة الاجماعية فكانت تلك الخرافات
هى المقصود الاعظم من تعليم الكهنة للامم وقبلت الامم منهم ذلك مع
الاستحسان وعدم النظر فيه بل ركنوا اليه بمحض التقليد من غير برهان
فاعتاد الناس على اعتقاد ان القوانين الطبيعية يمكن تعليقها او خرمها
ولو لاغراض واهية وجعلوا الامور الجزئية الطبيعية خارقة للعادة لمقصد
الهى ولم يجعلوها من قبيل انتظام ناموس العالم الطبيعى وان اجراءها صادر
عن قوانين عمومية لا يختل نظامها فصارت الاوهام تتولد عن بعضها
ولا يستغرب ممن يعتقد ان الله سبحانه وتعالى خرق العادة فى امور غير مهمة
كرامة لاصفيائه ان يعتقد انه تعالى لا يمتنع من ان يخرقها فى امور
مهمة جدا

مطلب تقوية التوابع بالعسكرية ترتيب فصل الدعوى بالقتال

والتولع بالعسكرية الذى مكث فى اوربا مدة القرون التى تكلمنا عليها
ساعد ايضا مع الاراء الباطلة على ترتيب شكل فصل الدعاوى بالقتال
فكان الشريف منهم مستعدا دائما ليثبت بحد سيفه ما ينطق فه وهذا
هو اعظم الدرجات لحفظ العرض وكان الاشراف المتمازون يظهرون
عظمهم وفخرهم فى حماية حقوقهم بقوة اسلحتهم وفى انتقامهم

باقسامهم ممن تعدى عليهم فى خصايصهم واملاكهم وتعلقاتهم وكانت الاقضية والاحكام بهذا القتال الشرعى تناسب هذه الاصول وتلايم طريقة الشرف واحوالهم وكان كل انسان مكلفا لحماية شرفه ونفسه وان يبرهن بشجاعته على صحة ما ادعاه فبهذا يامن على عرضه فى المستقبل وبالجملة فهذه الطريقة العجيبة فى فصل الدعاوى انتظمت عندهم فى سلك الامور النافعة فى السياسات المهمة المبنية على قانون الحكمة وذلك انه من حين اجرآئها فى المحاكم صارت الاقضية بالماء والنار والامتحانات الاخرى المبنية على الاوهام الفاسدة فى حيز النسيان اولم يعملوا بها الا فى المشاجرات التى تقع بين رعاع الناس وصار فصل الخصومات بالقتال مرخصا فى اوربا ومرغوبا فيه فى جميع بلادها على حد سوا ولم يقتصروا على هذه الطريقة فى مادة الوقائع المشتبهة التى وقع فيها النزاع بل كانوا يحكمون بها ايضا فى مسائل الاحكام الشرعية والعلوم الرياضية فكانت معتبرة عندهم كانها واسطة فى كشف الحقيقة والوقوف عليها وكانوا يرونها اشرف وارجح من البحث عن الحقائق واقامة البراهين العقلية ولم تكن تلك الطريقة ايضا مقصورة على الخصمين اللذين هيجت عقولهما حرارة المنازعة بينهما على ان يتداعيا للقتال ليبرهن كل بالسيف على برآءته بل كذلك الشهود الذين لم تكن لهم مصلحة فى الدعوى واتماد عوا الاجل الاخبار بالحق بموجب القوانين التى كان حقها ان تحامى عنهم كانوا معرضين كارباب الدعوى لخطر كون المشهود عليه يطلبهم فى الميدان وملزومين بان يحاموا بواسطة اسلحتهم عن تصحيح شهادتهم ولكن الذى كان يجعل هذه الطريقة فاسدة غير ملائمة للعقل هو ان وظيفة القاضى والحاكم الذى ينفذها لم تمنع عنه الدخول فيها كغيره وذلك لان القاضى كان اذا شرع فى ابدآء رأيه ربما قطع عليه احد الخصمين كلامه وشنع عليه فى الخطاب واتهمه باخذ الرشوة واساء الادب عليه ودعاه ليثبت رأيه فى ميدان الحرب فلا يمكنه ان يمتنع من ذلك من غير ان يدنس عرضه بعدم ظهوره فى الميدان مع خصمه

عموم هذه الطريقة

فلما انتشرت طريقة القتال الشرعى على التدريج كغيرها من طرق الظلم صارت بالسرعة عادة عند جميع الناس اكابر واصاغر وكادت ان تكون فى سائر احوال المخاصمة ولما كان لا يمكن للقسيسين والنساء والاولاد الصغار والشيوخ وذوى العاهات ان يتجاسروا على اخذ الاسلحة ليحاموا بانفسهم عن حقوقهم الخاصة بهم اما لعجزهم عن ذلك اولحيائهم منه اولكون تلك الطريقة من باب الظلم صاروا مجبورين على ان يعطوا لهم عن شجعان محامين يبارزون فى الميدان بدلا عنهم امالداعى المحبة اولكونه يعود على البدل من ذلك منفعة ومصلحة وكان من المألوف لهم طبيعة ان يحتفلوا الاجرآء تلك الطريقة حيث كانوا يعتقدون انها قضاء الهى اجراه الله تعالى على حد السيف وتنتهى به المشاجرات فى الامور المهمة العظيمة وكان تنظيم القوانين المتعلقة بتلك الطريقة بموجب اوامر الامرآء وكانت وقائع تلك الطريقة يشرحها فقهاؤهم ويتحرون فيها الصدق ويوضحونها اتم توضيح ومع ذلك ربما اشتمل هذا الشرح والتوضيح على بعض اوهام فاسدة وترهات كاسدة وكانت معرفة هذه القوانين والاحتفالات والوقوف على حقيقتها هى العلم الفريد الذى كان يتمدح به الاشراف الذين يحسنون القتال اوالذين يرغبون فى تعلمه واكتسابه

النتايج الاصلية لهذه الطريقة

وهذه الطريقة الخشنية ابطلت بالكلية فى اقرب زمن غيرها من القضاء فى سائر الدعاوى المدنية والجنايات وصارت القوة قائمة مقام العدل فى سائر محاكم القضاة وانقطع عرقه بالكلية وصار التمييز والمعارف وكمال الاستقامة والصلاح اوصافا ليست الزم للقاضى من قوة البدن ومهارة تدبير الاسلحة واحكام القتال بها وصار استعمال الشجاعة والجرآة والشطارة وقوة البدن فى فصل الدعاوى اشد اجرآء من ظهور الحق ووضوح البراهين فصار من المستحيل عند كل انسان ان لا يتعلم المعارف العسكرية التى هى من اعلى المنافع واجل المهمات

ولما كان كل من القوة والحيلة لازما جدا فى المقاتلة التى كانوا مجبورين فيها على

اثبات حقوقهم الخاصة بهم كلزومهما فى الحروب التى يدافعون بها عن الوطن كان تحصيل هاتين الصفتين او تكميلهما هو اعظم طرق التربية واهم اعمالهم المعاشية فبذلك صارت المحاكم التى كان من حقها ان تعوّد الامم على الطاعة واحترام احكام القوانين مساعدة على زيادة خشونة الاخلاق وعلمتهم ان يروا ان القوة هى الحاكم المتصرف فى اظهار البرئ من المتهم والظالم من المظلوم

وسايط المختلفة التى بدوها لابطال هذه الطريقة

ومع ان هذه الطريقة الطريقة فى فصل الدعاوى كانت جارية معمولا بها فان نتايجها المضرة كانت بينة عند جميع الناس حتى عند الامم الخشنين وعند المحاربين الذين اتخذوها عادة لهم فمن مبدء هذه الطريقة قام القسيسون على ابطالها معلنين بانها مخالفة لدين النصارى وغير موافقة لانتظام الملك والشرع ولكن الاصول والشهوات التى كانت منشأ هذه الطريقة كانت متسلطنة على اهل ذلك العصر متمكنة من قلوبهم بحيث ان تشديد القسيسين الذى لو كان فى امور اخرى لافزع هؤلاء الامم وارهبهم لم ينتج منه شئ من التأثير وذلك لان هذا الضرر كان داعضا لامتمكنا جدا بحيث لا ينفعه علاج بل استمر على الزيادة بالتدريج فاضطرت قوة التشريع والترتيب الى ابطال تلك الطريقة وقطع عرقها ولكن الملوك الذين كانت قدرتهم ضيقة محدودة شرعوا فى ابطالها او تقليلها بالحيلة ولكن كانت اجتهاداتهم الاولية ضعيفة جدا فاول قانون عمل فى اوربا لابطال تلك الطريقة رتبه هنرى الاول ملك الانكليز ونهى فيه عن العمل بها فى الدعاوى المدنية التى يكون النزاع فيها على قدر معلوم عينه الملك المذكور واباح العمل بها فيما زاد على ذلك وتابعه على ذلك لويز السابع ملك فرانسا حيث رتب قانونا نظير ذلك فى الاحكام واما سانت لويز الذى كان له فى الشرائع معارف اعلا جدا من سائر معارف عصره فانه بحث عن وسايط ترتيب قوانينها كمل واعظم مما عندهما وان يستبدل تلك الطريقة بطريقة شرعية بالبراهين ولكن ما رتبه فى هذا المقصد لم يجر العمل به الا فى التزاماته فقط لان عظماء اتباعه فى تلك المملكة كانوا يتمتعون بحكومة مستقلة

وكانوا يميلون بالطبع الى طريقة المقاتلة القديمة فلم يمكن هذا الملك ان ينشر ما
احدثه فى جميع المملكة ولكن بعض البارونات قبل ترتيبه بالطوع والاختيار
وشنع ارباب المحاكم على هذه الطريقه الخشنية وشرعوا فى ذمها واللوم على من
عمل بها ولكن لما كان الاشراف يرون انهم من غير هذه الطريقة لا يكون لهم
شرف ولا عرض لاخذتهم شدة الحمية فلم يرضوا بابطالها حيث انها مزية من
خصايص طائفتهم ولما لم يمكن لخلفاء سنت لويز ان يدخلوهم تحت حكمهم لقوة
شوكتهم لم يقتصروا على التساهل فى تلك المادة بل اباحوا بالكلية ما كان ابطله
الملك سنت لويز ولما بلاد اوربا الاخرى فكان اشرافها فى القوة والذب عن
تلك الطريقة كالاخرين بل قهروا ملوكهم على ان يتخلوا لهم عنها ويتركوها
لهم ولكن جميع الامرا الذين اظهروا الثبات والمعارف لم يقطعوا نظرهم اصلا
عن هذا المقصد السياسي بل ما زالت تصدر اوامرهم لابطال تلك الطريقة
غير ان ما قدمناه من ان هولاء الاشراف كانوا يزعمون ان لهم الحق فى الحروب
الخصوصية هو بعمومه شامل لتلك الطريقة فمجرد نشر القوانين واظهار
الاحكام لا يكفى فى ابطال عادة فاسدة ولو كانت بديهية الفساد لا سيما اذا كانت
مالوفة للناس من مدة طويلة ومتقوية بموافقتها لاخلاق القرن الذى ظهرت
فيه بل يلزم لابطال مثل هذه العادة ان تتغير آرا الناس وينشأ فى الدول قوة
جديدة قابلة لمقاومة قوة تلك العادة والانتصار عليها وقد حصل فى اوربا تغيير
مشابه لذلك حين شرعت المعارف تدخل فى عقول الناس بالتدريج وشرعت
الجمعية فى استكمال لها وهوانه بمجرد ما اتسعت حكومة الامرا حوحقوقهم
تكونت عندهم شوكة جديدة يمكنها ان تقاوم قوة جميع العادات التى كانت
سببا فى استقلال الاشراف فصار كل من هاتين القوتين المتضادتين يصادم
الاخر واستمرا على ذلك عدة قرون وفى بعض الاحيان كان يظهر للقوانين
والاصول الجديدة تقدم على غيرها ولكن العوايد القديمة اخذت بعد ذلك
فى القوة فلذلك كانت طريقة المقاتلة الشرعية وان اخذت فى التناقص على
التدريج وصارت قليلة الاستعمال فى اغلب البلاد يوجد منها بقايا الى القرن

السادس عشر حسب ما ذكر فى تواريخ فرانسا والانكليز فلما اضمحلت تلك البقايا صارت اشكال تدبير الاقضية والاحكام منتظمة وصار فصل الدعاوى جاريا فى قوانين معينة مشهورة صارت مطالعتها اعظم مقاصد القضاة واهمها ولما بطلت بالكلية تلك الطريقة التى كانت سببا اصليا فى خشونة الاخلاق شوهد ان اهالى اوروبا يسارعون الى التمدن والآداب التى تميزوا بها الآن

وهناك عملية اخرى مثل السابقة فى الاهمية ساعدت فى تنظيم تدبير الاقضية والاحكام واستقامتها وقوتها اكثر من الاولى وتلك العملية هى ان الدعاوى التى فصلت بمحاكم الملتزمين يرخص فى اقامتها ثانيا بمحاكم الملوك واعجب شئ فى مشروعات الاشراف التى تجاسروا بها فى حكوماتهم الالتزامية على خرم قوانين الملوك هو كونهم يزعمون ان لهم الحق فى فصل الدعاوى فى محاكمهم وانه ينتهى لهم الحكم فى سائر الدعاوى المدنية والجنايات وعند الملل الاخرى شوهد ان الرعايا يتنازعون مع امرائهم ويبحثون عن تقوية شوكتهم وتوسيع خصايصهم ولكن لم يوجد فى تاريخ الدعاوى والمشاجرات حتى مثل هذا زعمه الاشراف ونالوه فلابد وان عقولهم واخلاقهم كان بها بعض غرائب عجيبة الهمتهم هذا التصور وحملتهم على هذا الزعم وادعاء تلك المزايا وعند الامم الخشنيين الذين فتحوا اقاليم الدولة الرومانية المختلفة ورتبوا فيها دولا جديدة كان الميل الى الانتقام شهوة شديدة جدا بحيث لا يمنعهم عنها مانع ولم تؤثر فى ابطالها حكومة القوانين الا على وجه ضعيف وكان قد بقى من عوائدهم القديمة ان كل مظلوم يعتقد ان له الحق فى كونه يجد فى طلب عدوه حتى يعاقبه بنفسه وينتقم منه اشد الانتقام او يأخذ منه شيأ عوضا عما عمله فيه من الاساءة ولكن مادامت هذه الامم الخشنية مستمرة على ان تقضى لنفسها بنفسها فى دعاويها الخاصة بها فلابد من دوام البغضاء بينها مع شدة الحقد فكان جبرهم وحقدهم غير متناه ولا محدود بحد فنتج من ذلك نتائج غير موافقة لراحة الجمعية وحسن ترتيبها فصاروا مجبورين آخرا على ان يبحثوا

مطلب
فى كون اقامة الدعاوى فى محاكم الملوك بعد فصلها فى محاكم الملتزمين اعانت على تدبير الاقضية والاحكام

مطلب
اصل استقلال القضا عن الشرف

لذلك عن دوآء فادخلوا اولا بعض وسايط فى المجادلات والخصامهم وتلك الوسايط بواسطة ارشاد صاحب الحق الى الصلح او التضرع له جبرت المظلوم على ان يقبل العوض من الظالم وان يترك كل ما كان عاوما عليه من الاضرار ولكن هؤلاء الاقوام الذين توسطوا فى هذا الشان لما لم يكن لهم مدخل فى الحكومة الشرعية ولا علو مرتبة لم ينالوا فيما توسطوا فيه الا انقياد الخصمين لهم بالطوع والاختيار فلزم بعد ذلك بقليل تنصيب قضاة وتمكين قوتهم لاجل اجرآء احكامهم ولزم لهؤلاء الامم الحربيين ان يجعلوا هذا المنصب المهم لرؤسائهم الملتزمين لكونهم اعتادوا حكمهم وانقادوا لطاعتهم واعتقدوا شجاعتهم واستقامتهم بحيث يكون حينئذ كل رئيس حاكما فى زمن الحرب وقاضيا فى زمن الصلح ويكون كل بارون مرشدا اتباعه فى الحرب وقاضيا بينهم بالعدل فى قصره ووطنه وايضا لما كان هؤلاء الملتزمون متصفين بالكبر تعين تنصيبهم حيث كانوا يستنكفون ان يدخلوا تحت حكومة اخرى ويخضعوا لقانون آخر ولكن لم يمكن لاحد منهم فى زمن الفتن ان يجرى وظيفة القاضى من غير ان يعرض نفسه لكثير من الحيرة بل ولعظيم الخطر فكان الانسان حينئذ لا يتجارى على هذه الوظيفة الا اذا كانت له قوة على حماية احد الخصمين من صيال خصمه وتعاليه عليه وعلى جبر الآخر على الانقياد لما تعينه القضاة من الجزآء على حسب ذنبه فكان هذا سببا فى كون القضاة يفرضون على من يقع منه الاذى للمظلوم مبلغين عظيمين من الدراهم احدهما للقاضى والاخر للمظلوم فكان محصول القاضى لابد من دفعه كالمبلغ المعد للمظلوم صلحا

مطلب تقدمات هذه المزية وعواقبها الرديئة

فنشأ عن اجتماع عدة اسباب طبيعية ملايمة لاخلاق الملل المنقادة للحكومة الالتزامية ولحال سياستها ان محاكم الملتزمين الخصوصية على اراضيهم قد ترتبت فى كل مملكة ولم يكتفوا بترتيبها على هذا الوجه بل بحثوا الاجل مصلحتهم الخصوصية وطمعهم عن حفظ ترتيب هذه المحاكم واتباعها واختصاص السادات بحق الحكم على اتباعهم ليس لمجرد ان عدمه يخل

بمقاسمهم هشرفهم بل لكونه ايضا كان سببا قويا فى جلب فرع كبير من محصولاتهم السنوية ولولا هذا الفرع الذى جلبوه لما امكنهم غالبا حفظ مناصبهم فلا عجب فى كونهم يبذلون جهدهم د آئما مع القوة والثبات فى المحاماة عن هذه المزية المربحة

وقد نشأ عن ذلك الترتيب ان كل مملكة من اوروبا صارت منقسمة الى عدة حكومات التزامية متميزة عن بعضها بقدر من كان فيها من البارونات ارباب الشوكة والقوة وكان اتباعهم سوآء كان الزمن صلحا او حربا لا يكادون يعرفون حكما آخر غير حكم ساداتهم اصحاب التزاماتهم فكان اتباع كل سيد لا يقبلون امرا الا منه ولا يتداعون الا فى محاكمه وكانت الارتباطات التى ربطت هذه الجمعيات المخصوصة ببعضها تتقوى وتتأكد يوما فيوما بخلاف ارتباطات الاجتماع العمومى فانها ضعفت فى تلك الحكومات بل بطلت وقد بذل الاشراف جهدهم فى ترتيب قوانين تساعد على تقوية مزاياهم وثباتها وحفظها من البطلان والفساد ولا جهل قطع عرق تعلق محاكم الملتزمين بالمحاكم الملوكية وابطال كونها تحت حكمها ولو فى الظاهر جبروا الملوك على ان يمنعوا لجميع قضاتهم من الدخول فى اراضى الملتزمين ومن اجرآء شئ من احكامهم بها فكان اذا اراد بعض القضاة الملوكية ان يجرى احكامه على احد من اتباع الملتزمين احتقارا او تعديا فلبن هؤلاء الاتباع لا يجدون لذلك حيلة الا كونهم يتركون الممانعة عن مزاياهم ويشكون لملتزمهم فكان هذا الملتزم يطلب حق اتباعه ويجبر خلل العيب الذى لحقهم ومن ثم كانت حكومة هؤلاء القضاة لا تتجاوز الحدود الضيقة للالتزامات الملوكية خصوصا عن انتظام الضبط والربط فى سائر المحاكم المتمادة لقانون كلى تعمل به فى اجرآء احكامها وشوهد ان فى كل حكومة التزامية محاكم كثيرة كانت احكامها مبنية على عوايد مستحسنة عندهم وباشكال مختلفة فكانت مصادمة المحاكم الملوكية والالتزامية لبعضها تؤخر فى اغلب الاوقات اجرآء القوانين والعمل بها فتقل هذه الاحكام المتنوعة المبنية على اغراض الحكام وتعوى

مطلب
الوسايط التي صنعت لاجل تحديد قوانين الاشراف

انفسهم لم يمكن معهما سلوك طريق الحق والانصاف
فاحس جميع الملوك بعظم المصائب المنجذبة الى قوانينهم وكانوا يرون انه يصعب جدا البحث عن دوآتيها اوابطالها الان الاشراف كانوا ارباب قوة عظيمة بحيث لا يمكن لاحد ان يتجاسر باظهار المعارضة في تجريدهم من الحقوق والاملاك التي حازوها بالتعدي فكانت الملوك لا يتوصلون الى استرجاع ما فقدوه منهم الا بطرق بطيئة وهذه الطرق المختلفة التي كانوا يستعملونها لاجل هذا الاسترجاع ينبغي لنا ان نذكرها الا انها اظهرت تقدم القوانين في دول اوربا المختلفة فنقول قد بذل الملوك جهدهم اولا في منع قضاة البارونات حيث لم يأذنوا لهم الا في اقامة الدعاوى غير المهمة وان يفوضوا امر المصالح المهمة لقضاة الدولة وكانوا يسمونها دعاوى ملوكية وهذا الترتيب الجديد لم ينفذ الا على اصاغر البارونات واما اكابرهم فانهم لشدة بطشهم لم يكترثوا به بل زعموا ان قضاءهم غير محدود بشيء وجبروا الملوك على ان يرتبوا لهم قوانين يعلنون فيها بانهم مرخصون في القضاء في الدعاوى المهمة
ولكن ترتيب الملوك اختصاصهم بالحكم في المصالح المهمة قد اثمر بعض اعمال نافعة حصلت بالفعل واخرى انفع منها صارت قريبة الحصول وذلك ان هذا الترتيب حمل الناس على الالتفات الى ان هناك محاكم اخرى غير محاكم البارونات فاعتادوا على سماع رفعة شان الملوك وسيادتهم على الملتزمين ولما كان الاجماع قد حصل لهم من ظلم شديد من الملتزمين حملهم ذلك على ان يتخذوا الملوك مناصرين لهم فاستعدوا باجمعهم الطلب تحقيق دعاويهم مع امرائهم التي اقيمت في محاكم البارونات بمحاكم الملوك ولكن مادامت طريقة القتال الشرعي باقية على قوتها الاصلية ومعمولا بها عندهم لم يمكن للدعوى التي فصلت بها ان تتحول الى محكمة اخرى فكانوا يفوضون امر الدعاوى المفصولة بهذه الطريقة الى الله تعالى وهو يظهر اثر ارادته الازلية فيما يترتب على هذا القتال وكانوا يعدون من الكفر الشك في عدل هذا الحكم الالهي ولكن عندما اخذت هذه الطريقة المستهجنة في التناقص عند الناس وقل التمسك بها

رغب الملوك اتباع البارونات فى العمل بالقوانين الملوكية عند شكواهم من قضاتهم ومع ذلك فطريقة طلب التحقيق لم تترتب الا بالبطئ والتدريج والمهملة فالدعاوى الاول التى طلبت للحكم فيها بمحاكم الملوك كان سبب طلبها لذلك اما امتناع محاكم البارونات من الحكم فيها اواهمالهم اياها وحيث كان طلب هذه الدعاوى للمحاكم الملوكية جاريا على مقتضى اصول المتبوعية والتابعية المنصوصة فى المذهب الالتزامى لم يمكن للاشراف ان يعارضوا فى الاذعان للعمل بهذه العادة عندهم الا قليلا ولكن لما اعقب طلب هذه الدعاوى الذى كان سببه الامتناع اوالاهمال دعاوى اخرى كان السبب فى طلبها ادعاء ظلم الحكم الاول الصادر عن البارونات فهم الاشراف ان هذه العادة الحادثة ان صارت عامة عند جميع الناس لم يبق لهم من القوة الا صورتها وان الاقضية الشرعية بتمامها تكون مقصورة على المحاكم التى لها الحق فى طلب التحقيق فما تنتشر عاجلا الحزن بين البارونات واستدعوا للملوك فى رفع هذه الحادثة قائلين انها من باب التغلب على حقوقهم وكان الملوك فى عدة ممالك من اوربا يتعاطون دائما اسباب تحصيل مقاصدهم نعم كانوا فى بعض الاحوال يضطرون الى تعليق اجراء تلك المقاصد حتى يظهر انهم تركوها رأسا اذا وجدوا عصبة ذات شوكة قوية عليهم بحيث لا تمكنهم مقاومتها ومع ذلك كانوا اذا وجدوا فرصة بضعف تلك الشوكة رجعوا الى البحث عن اسباب اجرائها مع بذل الهمة فيها ولما لم يكن للاقضية الملوكية فى مبدء الامر دار معينة لاقامة الدعاوى ولا زمن معين لاجتماع جمعياتهم واجراء العدل فى الاحكام عين الامراء للدعاوى على اختلافها محاكم مخصوصة فى امكنة معينة وازمنة كذلك من السنة لاجل اجراء احكامهم وانتخبوا قضاة اعظم وافقه وانجب من قضاة محاكم البارونات واعلوا مناصبهم ورفعوا مجالسهم وجعلوا لها رونقا اعظم من رونق مناصب البارونات وبحثوا عن الاسباب التى يتحصل منها فى اقضيتهم زيادة الانتظام عن اقضية البارونات وكثرة الضبط فى الاحكام فنشأ عن ذلك كله لمحاكم المملكة كثير من الامن

والطمانينة والاحترام العام فعند ذلك ترك الامم محاكم البارونات وقوانينهم التي كانت على مقتضى اغراضهم وبادروا برفع دعاويهم وخصوماتهم الى القضاة ارباب القريحة الذكية الذين كانوا في قبول الرشوة اقل من قضاة البارونات وانتخبهم الملك ليحكموا باسمه نيابة عنه فصار الملوك حينئذ رؤساء الامارة دفعة واحدة وصار لهم الحق في الحكم بالعدل على رعاياهم بل في بعض الممالك ترك البارونات قوانينهم ومحاكمهم لكونها صارت محتقرة وفي بعض آخر صارت احكامهم على اراضيهم معطلة بالقوانين التي رتبها الامراء لشدة ظلم تلك الاحكام واجحافها بل صدرت اوامر بتركها بالكلية فلما صار تدبير الاقضية والاحكام ناشئا عن اصل واحد لا يصدر عن غيره انتشر اجلالا في سائر البلاد مع الانتظام والاتحاد

وطريقة الاحكام الشرعية المنتظمة التي صارت محترمة في المحاكم القسيسية ساعدت مساعدة عجيبة في تقدم مزايا علم الاقضية والاحكام واذا نظرنا الى تلك الاحكام الشرعية من جهة السياسة سواء كانت آلة يتوصل بها القسيسون الى التغلب على ما ليس من حقوقهم بحيث يجعلون لهم دخلا في الشوكة والاحكام التي لا تعنيهم ولا تعلق لها بوظائفهم كانها لا تلايم سياسة الحكومة الملوكية او كانت كالسبب الاصلي لطمع البابات الذي اضعف المملكة عدة قرون وكاد ان يغير على حرية جميع اوربا وجدنا انه ينبغي اعتبارها كانها من اكبر التعصبات المهولة التي كانت تقع لمنع سعادة الامم المتمدنة واما اذا لم نعتبرها الا كقانون من القوانين المتعلقة بحقوق الاشخاص واملاكهم ولم نلتفت الا لما ينشأ عنها من الثمرات والمزايا فانه يكون لها حكم آخر وفق مما تقدم وفي ازمنة الجهل والتقليد كان القسيسون محترمين احتراما ناشئا عن اوهام ذلك العصر الفاسدة ولما شرع الامم الخشنيون الذين اغاروا على المملكة الرومانية كانهم جراد منتشر في ان تمسكوا بدين النصرانية وجدوا شوكة القسيسين قوية وان لهم تصرفا مطلقا فحملهم ذلك على ان يظهروا لهؤلاء المرشدين المستجدين التعظيم والطاعة والانقياد

مطلب
تقدم النظم القسيسي

الذي كانوا قد اعتادوه لقسيسي دينهم القديم واعتقدوا انهم منزهون عن النقائص ومقدسون كما ان وظائفهم كذلك وراوا ان من العكر ادخالهم تحت احكامهم البشرية واما القسيسون فانهم لم يهملوا في اغتنام المنافع التي كان يمكنهم تحصيلها من غباوة هؤلاء الامم فجددوا محاكم ليذبوا بها ما يتنغص عليهم في انفسهم او وظائفهم واموالهم حتى انهم شرعوا في استقلالهم عن حكم القضاة المتمدنين فكادوا يستقلون عنهم بالكلية ومما قليل جعلوا بحيلهم وتحجباتهم هذه المزية عامة لكل من ينتمي اليهم ووسعوا احكامهم الى وقائع وصور كثيرة وصار اغلب الدعاوي من وظائف المحاكم القسيسية تجري عليها احكامها

مطلب كون صورة الفقه القسيسي اكمل من الفقه السياسي المدني

ولاجل الحكم على هؤلاء العوام بقبول هذا الجور والتغلب على تلك الحقوق بلا مخالفة ولاسآمة كان من الضروري ان الانسان يقمعهم بفتاوى قسيسية كاملة في تدبير الاقضية والاحكام ولم يكن هذا الامر صعبا في زمن كان يمكن فيه للقسيسين ان يتغلبوا على كل شيء بلا معارض ومانع وكان الشيء اليسير من المعارف الذي كان يستعمل لارشاد الامم في تلك الازمنة المظلمة الخالية من المعارف خاصا بالقسيسين فكانوا هم الحاملين للمعارف والمستأمنين عليها او كانوا وحدهم هم الذين اعتادوا على قرآتها وتعقلها والتفكر فيها فيستخرجون منها البراهين والاشياء المبهمة وكان عندهم بقايا الفقه والآداب القديمة التي كانت محفوظة بالروايات او مرسومة في الكتب التي سلمت من اتلاف الامم الخشنية وبموجب قواعد هذا المذهب القديم رتبوا دستور قوانين موافقة الاصول للعدل الطبيعية ولما كانوا مسترشدين بالقوانين الثابتة المعروفة عينوا اشكال محاكمهم ووضعوا في احكامها الاتفاق والاتحاد وكان عندهم القوة اللازمة لردع من تعرض لهتك حرمتها فكان حكم القسس باخراج المسلمين من دائرة الدين وغضبهم عليها اشد عقابا من عقاب حكام السياسة الذين كان يمكنهم اجراؤها في احكامهم

فليس من العجيب ان الاحكام القسيسية صارت هي المقبولة المحترمة عند

الاهالى وان التماس المعافاة من الاحكام السياسية صار مطلوبا مرغوبا فيه كانه مزية اعطيت لهم على وجه التفضل والانعام وليس عجيبا ايضا ان صارت اصول القانون القسيسى المنتظم فى اعين الامم الجاهلية الخشنية اعدل من الاحكام المتقدمة المختلة التى كانت تجرى عليها اقامة الدعاوى فى المحاكم المدنية وذلك ان تلك الاحكام المدنية كانت تبيح فى المخاصمات الواقعة بين البارونات ان تتم بالعنفوان والقوة بخلاف القانون القسيسى المنتظم فان جميع المشاجرات كانت منقادة فيه لقوانين معينة واحكام شرعية وكانت الاحكام المدنية ايضا حين اباحت طريقة القتال فى فصل الدعاوى كانها جعلت كلا من القوة والصدفة حكما عدلا يفصل الحق من الباطل والعدل من الجور واما الاحكام القسيسية فكانت تحكم فى مادة المشاجرات باصول العدل والتثبت بالشهود ومن مضار المحاكم السياسية انه كان اذا وقع فيها خطأ فى حكم بارون له الحكم الالتزامى وظهر الحق لا يمكن نقضه ولا يجوز رفع الدعوى الى محكمة عليا بخلاف القانون القسيسى فانه جعل المحاكم مختلفة الدرجة بحيث يمكن للدعوى الواحدة ان ترفع بالتدريج من محكمة الى اعلا منها على حسب طلب احد المتداعيين حتى تصل الى المحكمة العليا التى جعلت لها الكنيسة التصرف المطلق فى ذلك واوجبت رجوعه اليها فحينئذ كان مدرك هذه الاحكام القسيسية كاصولها مهيأ العقول لاستحسان التغيرات الثلاثة التى نشأت عن تلك الاحكام فى المذهب الالتزامى الذى ذكرته آنفا وليس فضل المذهب القسيسى مقصورا على هذه التغيرات النافعة للجمعية فان عدة من القوانين التى هى الآن كحصن حصين يامن به الانسان على نفسه واملاكه مناقضة ومخالفة لاصول الاحكام السياسية المدنية التى مكثت فى اوربا عدة قرون حيث ان تلك القوانين منتخبة من قوانين المحاكم القسيسية ومقتبسة من وقائعها فلما تمسك الاهالى باحكام محاكم القسيسين المبنية على الحكمة والعدل حملهم ذلك على معرفة انه يلزمهم نبذ قوانين البارونات الجهادية واشتغالهم بمحوها وازالتها

وهذا السبب آخر ساعد في منحة الناس بعض معارف مهمة اوسع دائرة من غيرها تتعلق بالاقضية الشرعية واحكام الدولة وهو الاطلاع على الحقوق الرومانية وذلك ان من جملة المصائب التي جاءت عقب انتشار الامم الخشنيين وتخريبهم للبلاد حادثة مهولة وهي ابطال الحقوق الرومانية واندثارها وكان المقصود الاعظم من تلك الحقوق ادخال اهل الدنيا باسرهم تحت حكم الامة الرومانية وكانت قوانين هذه الامة المدنية منابذة بالكلية لاخلاق امم الشمال الحربيين وعقائدهم لما ان تلك القوانين كانت مؤسسة على قواعد اجنبية لا تليق بالامم الخشنية وانما هي ملايمة لحالة تمدنية لا تخطر ببال مثل هؤلاء الطوائف الخشنية فلذلك صار الفقه الروماني في جميع الاماكن التي نزلت بها الامم الخشنية نسيا منسيا ومكث على ذلك عدة قرون وهو محجوب بالقوانين الخشنية العجيبة التي لا معنى لها وكانت لا تستحق ما اطلقه عليها اهل اوربا من اسم قوانين وفي نحو منتصف القرن الثاني عشر عثر اتفاقا في ايطاليا على كتاب من كتب قوانين جوستنيانوس فتقدمت حالة الجمعية السياسية حينئذ بعض تقدمات عظيمة جدا والتجاريب التي حصلت في القرون العديدة وسعت عقول الناس في شأن هذه التقدمات فصاروا يتعجبون جدا حيث اطلعوا على هذا المذهب القانوني الذي عجزت اسلافهم عن ترتيب مثله ومع انه لم يكن عندهم من المعارف ما يكفي في كسبهم من العلوم القديمة الميل الى الفلسفة الحقيقية والعلوم النظرية ولم يكن لهم طاقة على ادراك حلاوة تأليف الآداب وبلاغتها ومعرفة معانيها كانت لهم معارف كافية في ان يحكموا بفضل هذا المذهب القانوني الذي كان محتويا على جميع الاحكام اللازمة لوقائع الناس على اختلاف احوالهم واعمارهم مع العدل والاصابة والتدقيق واما اولو المعرفة بالعلوم الادبية فانهم بذلوا همتهم مع الغيرة والاجتهاد في مطالعة هذا العلم الجديد وبعد ظهور هذا الكتاب القانوني بسنوات قلائل ترتب في اغلب ممالك اوربا مدرسون للقانون التمدني وامروا بقراءته في المحافل العامة

مطلب
كون ممارسة الحقوق الرومانية اعانت على نشر بعض معارف اصح مما كانا ولا تتعلق بالاقضية الشرعية واحكام الدولة

مطلب
الحالات التي اوقعت القانون الروماني في زوايا الاهمال

مطلب
الاسباب التي اعانت على معرفة هذا المذهب

مطلب
ما نتج من مطالعة الحقوق الرومانية من الامور السعيدة المهمة.

فيكل من مطالعة هذا الحق الكامل والعمل به لم يأل جهدا أن نشأ عنه للناس بعض اعمال مهمة سعيدة عظيمة جدا وذلك انهم كانوا محتاجين لمعرفة قوانين راسخة عمومية يستوى فيها جميع الناس ليستخرجوا منها جميع المنافع ويبادروا الى تعيين الاصول والاشكال التى يلزم المحاكم ان تطبق طرقها واحكامها عليها فبحثوا عن تحصيل هذا المقصد المهم جدا فى سعادة الامم وجدوا فى طلبه مع كثير من الغيرة والهمة فبذلك صار القانون الالتزامى قبل آخر القرن الثانى عشر مذهبا منتظما وصار كتاب دستور القوانين متسعا ذا شكل حسن الترتيب تسهل مراجعته وصارت العادات الفاسدة التى لاثبات لها الموجودة فى الاقاليم المختلفة والممالك المتنوعة يبحث عن تحصيلها وتنظيمها تنظيما غريبا مع الصحة الكاملة التى لم تصدر الا عن معرفة الفقه الرومانى وقد تلقى بعض بلاد اوربا الحقوق الرومانية بالقبول ليستعملوها بدلا عن الشرائع المدنية لجميع الاحوال التى لم يقض فيها بهذه الشرائع كان يحكم فيها على موجب اصول تلك الحقوق الرومانية وكان بعض الامم يمزجون الفقه الرومانى والاصول السياسية بقوانين البلاد وكان كل منهما ساعدا ايضا القوانين البلاد على تكميل تشريع الشرائع وترتيب القوانين والاحكام وان كانت اعانتهما بوجه ضعيف

وهذه التحسينات المختلفة فى المذهب الفقهى وفى تدبير الاقضية والاحكام انتجت فى الاخلاق تغييرات مهمة جدا وانتشرت وعظمت ونتج منها البراعة فى الصنايع والحرف وصارت الامم مجبورة على ان تمارس معارف عمومية مختلفة وتجتهد فى بعض اشغال مخصوصة ليكون لها طاقة على الوصول لدرجة التوفية بالوظائف المختلفة التى كانت تقتضيها احتياجات الجمعية المتعددة واما الامم الخشنية فلم يكن عندهم الاصنعة واحدة شريفة وهى فن العسكرية فمنتهى ادراك العقل البشرى عندهم اكتساب القوة والنشاط الذى تحتاج اليه التعليمات العسكرية ولما كانت الاشغال زمن الصلح خفيفة قليلة كان لا يلزم الانسان لاجل تحصيلها ان يتتبع المطالعات فى الكتب

الادبية هكذا كانت حالة اوربا مدة قرون فكان الرجل العظيم المقدم من حين ولادته للعسكرية ويرغب فيها دون غيرها من سائر الصنايع لا يتعلم من العلوم الا علم الحرب فكانت رياضاته وحركاته على طبق الحركات العسكرية حتى ان طبيعة القاضى الذى كان ينسب للاشراف دون غيرهم لم تكن ترغب فى معارف تفوق عن المعارف التى يمكن ان يكتسبها العساكر من غير ممارسة الكتب الادبية * والذى كان البارونات يرونه لازما ضروريا فى اجراء الاحكام على مقتضى العدل والانصاف انما هو كناية عن جمعهم عدة عوايد من الآثار القديمة التى وصلت اليهم بالرواية والتواتر وصارت متداولة محترمة معمولا بها على تداول الايام وعن كونهم يعينون بموجب رسوم معينة مخصوصة ما يلزم للمحاربة وما يترتب عليها وهل ذلك موافق للقوانين العسكرية اولا

مطلب النتايج التى نشأت للجمعية من هذا التغيير

ولكن لما عينوا صور اقامة الدعاوى الشرعية والفوا ودونوا القوانين التى يحكم على مقتضاها صارت الاحكام الشرعية من ذلك الوقت علما لا يمكن تحصيله الا بالممارسة والتعليم والتجربة والخدمة فى المحاكم ومواطن اقامة الدعاوى الشرعية ولم يكن عند الاشراف الذين كانوا لا يتولعون الا بالحرب ولا يعرفون من الكتابة الا ما قل وقت يشرعون فيه فى الاشتغال بتعلم هذا الفقه فكانوا لا يرغبون فيه لكونه كان ثقيلا عليهم ومنابذا للحرب الذى كان اهم بغيتهم لانهم كانوا يرونه لائقا بمقامهم فتركوا بالتدريج الوظائف التى كانت لهم فى المحاكم حيث كان جهلهم بالاحكام يعرضهم الى الاحتقار فى هذه المحاكم فصاروا يسأمون من سماع الدعاوى المشكلة التى لا يمكنهم فهم تفاصيلها فلزمهم حينئذ ان يعتمدوا على اناس تمرنوا على دراسة علوم المبادى ومعرفة القوانين فيما يتعلق بالفتوى وبث الاحكام الشرعية اللازمة للحكم فى المشاجرات كما يعتمد عليهم ايضا فى اجراء الاحكام والبحث عن كيفية اقامة الدعاوى وتحقيقها فتلك هذه الطائفة التى لزم الناس جميعا السعى اليها وانما الاستفتائها واخذ آرائها فى سائر الاشياء المهمة وكانت آراؤها يتم بها

بجميع الخصال من شجاعته وشهامته وحسن سياسته بحيث في اقرب زمن
كان النجاح والاحترام وثمرة التكلفة في الاهالي خلاف ما كان عليه الاهالي
التشريفات التي كانت في ذلك الوقت مقصورة على ارباب العسكرية في نظير
معارفهم او نحو مهم وتقلدهم المناصب العظيمة وما يتعلق بها من ثمرة الكلمة
والاحترام فنشأ بين عامة الاهالي صنعة شريفة اخرى غير صناعة الحرب
وملوك وظيفة التعيش المدنية مطمح نظر الناس وكانوا يسلكون المسالك
اللازمة للتوفيق بها فنشأ عن ذلك طريقة جديدة في مسابقة الاهالي الى تلك
الوظيفة ومنافستهم فيها وصلتهم الى الغنا والشرف وصارت فنون الصنائع
والخصال الجيدة المترتبة عليه معمولا بها واخذت حقها من الجزاء
والمكافأة

وبمجرد ما ترتبت على التدريج في اوربا هذه التغييرات المهمة الناشئة عن حالة
الجمعية وتدبير الاقضية والاحكام شرع الشرف يكتسب صفات عقلية
وخصالا كريمة وكان ذلك مما نشأ عن الامارة المسماة شوالري التي كان ترتيبها
عندهم لا معنى له وكانه ناشئ عن الاعراض والشهوات النفسانية بالجنون غير
انه كان نتيجة طبيعية اقتضتها احوال الجمعية في ذلك الوقت وهو الذي حسن
اخلاق اهالي اوربا بخلاف الحكومة الالتزامية فانها كانت دائما معدة للحرب
والنهب والظلم ومما يوجب اختلال النظام حيث كان الناس المستخلصون
الذين لا اسلحة عندهم دائما عرضة لاذية الاشقياء والاعتداء والسبب الحامل
للبيكزادات على حمل الاسلحة لحماية المظلومين في بلادهم هو التكلف
الحامل لغيرهم على ان يتصدوا للذب عن الحريم المظلوم في اوربا فهذا الشيء
بمفرده هو الذي كان ينفذها بحيث هؤلاء البيكزادات الخاطرين بانفسهم
على النصرة والنشاط حين تشكلت استيلاء المسلمين على ارض القدس
تماما نهاية جمع الجيوش لحرب الصليب ثم ان قطع عرق ايذاء الاخوان
والعافية للضعاف المساكين وتخليص الاسرى والحماية للنساء والانتقام
من الجرائم واللئام والقاصرين فسار بعض الا يحكمهم على الاهالي تخلصهم عن انفسهم

مطلب
التصورات العقلية
والاخلاق الكريمة التي
نشأت عن التوالع
بالامارة

وكذلك سبر خلل العيوب وازالة التعدى كل ذلك كان اعلا سلبل البيكزادات على استعمال القوة والشجاعة والخصال الحيدة وكانت المروءة والشجاعة والعدل والشرف من خصوصيات الامارة وحيث كان الدين فى ذلك الزمن له دخل فى جميع الاشياء من القوانين والصفات النفسية كان يمد هذه الصفات المذكورة ايضا بنوع من الحمية حتى وصلت الى هذا الافراط العجيب الذى يتعجب منه الآن وصار الاهالى يستعدون للدخول فى مرتبة الامارة الشو والرية باعمال وغربات شاقة جدا فكان كل من اراد الارتقاء الى هذه المرتبة دخل فيها بابهة واحتفال عظيم مع مراعاة الديانة فكان لا يوجد احد من البيكزادات الا و يستدعى التشريف لنفسه بالدخول فى زمرة اربابه الامارة لانها كانت درجة ممتازة تكاد ان تفوق درجة السلطنة وكان الملوك يفتخرون بتقليدهم بيلترادها باكان

مطلب الاعمال السعيدة التى نشأت عن هذا الترتيب

وهذا الترتيب العجيب الذى كان مجمعا للشجاعة والفتوة والديانة التى امتزجت ببعضها وصارت كالشئ الواحد كانت ملايمته للرغبة فى شرف الحرب والمهارة عجيبة جدا وصار عن قريب له تأثير غريب فى الاخلاق ولما تحلى ارباب هذه الامارة بالمروءة والشجاعة صارت المحاربة قليلة الجبر والقساوة وقد تهذبت الاخلاق وحسنت حين كان الرفق معتبرا كانه اعظم صفات هؤلاء الامرآء واخذ كل من الحمية والنظم فى التعصب والاحتياط عندما رتبوا قانونا لمعاقبة مرتكبهما او لتهديد من اراد القدوم على مساومتها الاحترام الصحيح للصدق والاستقامة الصحيحة فى الوفاء بالوعد كلاهما اعظم الصفات المميزة للبيكزادات لان هذه الامارة كانت عندهم معتبرة كانها مدرسة لاكتساب الشرف فلهذا المعنى كان ينبغى لمن اراد الدخول فيها ان يكون على اعلا درجة من الاستقامة واجتناب ما لا يليق

ثم ان كلا من استحسان صفات هذه الامارة وحبها والرغبة فيها بانضمامه الى اعتبار اربابها ومن يليهم وحواشيهم فى جميع اقسام اوربا كان فى بعض

الاحيان

الاحيان يورث ارباب الحمية غيرة عسكرية تحملهم على مشروعات ذميمة لايأذن بها العقل ومع ذلك فكان بسلطه على ان يطبع فى قلوبهم عناصر الكرم وشرف النفس وهذه العناصر كانت تتقوى بما يوجب الشفقة ويلين القلب ولما الاعمال الخارقة للعادة المبنية على الجبر والقساوة الصادرة من الامة الرحالة النزالة التى كانت تجوب الدنيا للبحث عن الوقائع فانها كانت معلومة مشهورة ومستحقة بملازمها به بعض الناس والاستهزاء بها غير ان هذا البعض لم يمعن النظر فيما ترتب عليها من النتائج السياسية النافعة ويمكن ان هذا الترتيب العجيب وان كان فى الظاهر قليل النفع لمصلحة الجنس البشرى له الفضل فى معظم تحسينات الرفاهية وتشريف العرض والمروءة التى تحمل الانسان على لين الجانب ولو فى حال قسوته على اكبر اعدائه وهى التى ميزت الاخلاق الجديدة من الاخلاق القديمة وفى مدة القرن الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر كان للصفات الحميدة التى طبعتها الامارة فى قلوب الناس مدخل بين فى اخلاقهم وسلوكهم ولتمكنها من قلوبهم اتم تمكن مكثت آثار تلك الامارة بعد اضمحلالها ونزولها عن درجة الاعتبار فيما بينهم واستمرت لانه سيأتى فى التاريخ الذى انا شارع فى تأليفه بعض وقائع مهمة تضاهى مشروعات الامارة العنفوانية اكثر من المقاصد السياسية بمعنى انها اجريت بمحض القوة والشجاعة دون السياسية والتدبير وبعض الوقائع التى ذكرناها فيه علامات واضحة تدل على انها من الامور الناشئة عن محض الامارة وكان فرنسيس الاول يرغب كثيرا فى الافتخار بان يكون من زمرة امراء الشو والرية فلذلك كان يميل الى اظهار الجسارة التامة والشجاعة الوافرة فى الحرب وعظم الشان والرفق فى الصلح فكانت شهرته بتلك الصفات الحميدة تسبيا على الاقرانه الذى كان فاتر الهمة ساكن القلب على ان يغير حلمه الغريزى وخلقه الطبيعى رغبة فى مساواة فرنسيس فى شئ من انواع البطش ولين الجانب

مطلب
تأثير تقدمات العقل
التأثير التام في الاخلاق

وتقدمات العقل وممارسة العلوم كلاهما اثرا تاثيرا في تغيير اخلاق الرومانيين با لاكمل عندهم ما هم ممتازون به الآن عن غيرهم من الادب والذوق والتمدن ثم الرومانيون بعد انقراض دولتهم فقدوا في الحقيقة تفضيل كونهم ينسجون على منوال اسلافهم في تحصيل انواع من الكمال والظرف يبقى عليها من يأتي بعدهم من الامم والاجيال ولكن ما زال باقيا عندهم محبة الآداب وممارسة الفنون مع غاية الاجتهاد وكمال الاشتغال واما الامم الخشنيون فكانوا بعيدين عن ادراك محاسن هذه الكمالات والرفاهية اما لجهلهم بها ولا استحقارهم اياها لقصور عقولهم ان تصل الى مزاولة تصور الاشياء الممدوحة الحسية والمعنوية ومعرفة مقدارها فلم يكن عندهم الاحتياج والرغبة اللذان هما السبب في شغل الفكرة وحركة العقل ولما كانوا لا يعرفون فضل الفنون ولا منفعتها اجتهدوا في ابطال شعائرها بقدر ما اجتهد خلفهم في اظهارها وحفظها وما حصل من المصائب العظيمة الناشئة عن استيطان الامم الخشنيين في المملكة الرومانية والتقلبات العديدة المهولة التي وقعت في الممالك التي جددوها وعيوب صورة حكومتهم التي كانوا رتبوها كل ذلك كان سببا في منع تولد الذوق وممارسة العلوم واوجب اشتغالهم بالحروب وعدم راحتهم واوقف اوروبا في اودية الجهالات كما تقدم ذكره آنفا ولكن الوقائع والقوانين المختلفة التي ذكرنا تاريخها انتجت بالتعاقب في الجمعية تغيرات دائمة وتقلبات مستمرة فبمجرد ان حصلت لهم الراحة الناشئة عن التقلب الذي كان سببا في استقلال بعض ملل اوروبا واكتسابها الحرية وبمجرد ما عرف اهل جمعية اوروبا قيمة المنافع الناشئة عن التجارة والانتظام العام وامن كل انسان على نفسه شرعت عقولهم في ايقاظ قواهم الخاملة وقدح زناد افكارهم التي كانت نارها خبوة وسلكت مسلكا جديدا اخذ للتمام جهدهم في اشغال عظيمة وتفتيشات مهمة لم تسبق لهم بها معرفة بل ولا خطرت ببالهم قبل ذلك اصلا ففي اواخر القرن الحادي عشر خرجت عقولهم من لجج الغفلة الغزيرة التي مكثت منغمسة سابحة فيها زمنا طويلا

وشرعوا

وتفرغوا بكليتهم الى اشياء جديدة

مطلب في ان الجد والاجتهاد الذى حصل اولا فى العلوم الادبية كان على خطأ وفى بيان سبب ذلك

ولكن تفرغ اهالى اوربا اولا للعلوم الادبية والفلسفة كان بطريق مدينة جدا غير مستقيمة وكان سلوك الامم فى ذلك كسلوك الآحاد فردا فردا وذلك انهم فى مبدء الامر تمكنت منهم القوى التخيلية قبل ان تمرن قواهم العقلية وتتدرب على قواعد العلوم النظرية فكانوا يشتغلون بالشعر قبل الفلسفة وكان استشعارهم شديدا وتأثرهم قويا بحيث كانوا يحسنون وصف الاشياء وتخطيطها على وجه بليغ بديع وان لم يكن عندهم من العلوم العقلية التى هى علم الميزان الا شئ يسير فكانوا ينسجون على منوال اوميروس وهزيودوس (شاعران) قبل ان يتشبثوا بحكمة تاليس وسقراط (من الفلاسفة) ولكن لسوء حظ الآداب لم يسلكوا المسالك التى تقتضيها الطبيعة بل صرفوا همتهم بالكلية والجزئية الى ما فوق الطبيعيات حتى توغلوا فيها وفى العلوم النظرية الصعبة المسائل فبمجرد استيطانهم فى البلاد التى فتحوها انتقلوا لدين النصرانية ولكن لم يتلقوه كما هو ولم يسلكوا على منهاج قواعده بحيث يبقونها على اصلها واجمالها وذلك ان عدة من الواثقين بانفسهم مزجوا هذا الدين السهل الكثير الفائدة بتدقيقات فلسفية تبين فى زعمهم باطن الدين ورموزه السرية وتحل مشكلات خارجة عن طوق العقل البشرى فصارت هذه التدقيقات الفلسفية جزأ من دين النصرانية بل صارت كانها الجزء الاهم فبمجرد ما تشوفت النفوس للترقى الى درجة التفكر والتعقل كان اول اطلاعهم على هذه الاشياء فاشتغلوا بها وصارت مطمح نظرهم * واول ثمرة نتجت عن تدقيق العقول حين اخذها فى التقوية ثانيا فى اوربا هى علم الالهيات التى كانت تقرأ فى المدارس وكانت مشحونة بالاطناب فى المناقشات وبذكر الفروق بين امور دقيقة لا طاقة للعقول البشرية على الجولان فيها

وما كانت هذه الحالة وحدها سببا فى اضلال عقول هؤلاء الناس وسلوكهم سبيل الغى حين اخذوا ثانيا فى عمارتهم وتمرنهم على هذه الامور التى كانت

قد تركوها سامدة اعقاب بل ثم اسباب أخر وذلك ان اغلب من اعانوا على احياء العلوم الادبية فى القرن الثانى عشر والثالث عشر واهتموا باعادة معالمها كانوا قد اكتسبوا المعارف والاصول الفلسفية امامن اليونان الذين كانوا بمملكة الروم بالقسطنطينية واما من عرب اسبانيا وافريقية ومن المعلوم ان علوم هاتين الامتين (اليونان والعرب) كانت قد فسدت بسبب افراطهم فى التدقيق فان اليونان كانوا قد جعلوا علم الالهيات مذهبا مشتملا على قواعد نظارية تحتاج لغاية الفكر والتدقيق وعلى مباحث خلافية لا يقف الانسان لها على حد ولا حقيقة واما العرب فقد افسدوا علوم الفلسفة بالتدقيقات الفاسدة التى احاطوها بها ولا يخفى ان هذه العلوم التى كان الغرض الاهتداء بها لا ينشأ عنها سوى الحيد عن الحق والسداد والميل عن سبيل الرشاد فبذلك ضلت عقول اول من اشتغلوا بالفلسفة وصارت غريقة فى بحور المعانى المستصعبة والمباحث المشكلة من غير ان تعلم لها حدا تقف عليه * وعوضا عن كونهم يدعون فكرتهم على قدر طاقتها الطبيعية ويشغلونها بالامور الاختراعية الابتداعية التى تهذب ذوقهم وتوسع عقولهم وبها تعظم دائرة اذهانهم كالاشتغال بالفنون المستظرفة التى هى زينة الحياة وسلوة الهموم تركوا انفسهم ضلت بالاعتماد على آراء من كان قبلهم وبالاقتداء بهم فاتعبوا قوة قرائحهم وفطنتهم فى تدقيقات فلسفية هوسية لا تجدى الا التعب

ومع كون هذه الامور النظارية غير نافعة فى شئ ولا مصيبة كانت لكونها جديدة تحث العقول على الاجتهاد وتزيدها رغبة بسبب جرأتها وغزارتها ومع ان هذه الامور كانت لا تستميل قلبا ولا تلذ عقلا كان يرغب فيها كثيرا وكانت الناس على غاية الاعتناء بمزاولتها فلم يتفق اصلا فى الاعصر المنورة بمصابيح العلوم ان الفلسفة الصحيحة المقبولة قد اعتنى بممارستها ومزاولتها مع الغيرة والنشاط اكثر من هذا وذلك انه فتح حينئذ فى جميع امهات الكنائس واغلب الديور الكبيرة مكاتب على نسق المكاتب التى كان انشأها الملك

كرلوس

كرلوس مانوس وجددت ايضا مدارس عظيمة ومجالس لكليات العلوم فتخرج
منها جمعيات علماء رخص لها فى انه لا يجرى عليها من الاحكام الاما شرعته
بنفسها ورخص لها ايضا ان تحكم اربابها بافتاء مخصوص بهم متسع جدا
وانعم على المدرسين والطلبة بحقوق ومزايا مهمة * ولاجل اتحاف كل على
حسب ما يليق به ومكافئته اخترعوا القابا تليق بطائفة ارباب العلوم
والفنون والمعارف والحرف لتكون مميزة لاربابها على حسب مراتبهم ولم تكن
درجات التقدم فى المعارف جالبة للترقى فى درجات الشرف وعلو الشان
فى خصوص المدارس بل كان شرفهم فى غيرها من سائر المحال الخارجية
ايضا فكان العلم فى حد ذاته معتبرا فى الجمعيات وبين الناس وكان سلما
لعلو الدرجات والغنى فبانضمام هذه المزايا والنظر اليها صار يذهب الى
مجامع العلم والمدارس عدد لا يحصى ومقدار لا يستقصى من الطلبة لان
جميع الناس كانوا يسعون مع المبادرة الى الدخول فى هذا السبيل الجديد
الذى كان يوصل الى الفخر وحوز مراتب العلا والامتياز

مطلب وقائع احوال عاقت ثمرة تقدم هذه المعارف

ومع هذا النشاط العظيم والاجتهاد الكامل الصادر عن بوادر العقول
البشرية فى حالة عنفوانها فى مبدء امرها لم ينتج عن ذلك كله التقدمات المهمة
التى كانت تؤمل منها وذلك انه طرأت حالة اخرى شنيعة اوقفت ثمرات هذا
السعى والاجتهاد وهى ان جميع لغات اوربا كانت مدة هذا القرن الذى
نتكلم عليه خشنية مجردة عن الفصاحة والبلاغة خالية من اللطف
والظرافة وما كان احد تصدى الى وقتئذ لتكميلها ولا تحسينها فاعتد
القسيسون للشرائع والاصول الدينية كلها اللغة اللاطينية وقد قضت
العادة التى يوازى حكمها الاحكام الشرعية بان الآداب تكتب وتدرس
بهذه اللغة فترتب على ذلك ان جميع العلوم التى كانت تقرؤ فى القرن الثانى عشر
والثالث عشر صار تعليمها وتعلمها بهذه اللغة وجميع ما الف من الكتب
فى هذه العلوم كان بها ايضا لظنهم ان الامور الشريفة ان رقمت او قرئت باللغة
الدارجة على السنة العامة حصل لها اهانة فبتلك الاوهام الفاسدة كانت

دائرة المعارف والعلوم ضيقة جدا وكان لا يسوغ لاحد ان ينتظم فى سلك طائفة الاحبار والحكماء الا اذا كان صاحب معارف جيدة وكانت ابواب العلم والحكمة تغلق عن عوام الناس فاضطرت الى ان تمكث محرومة من الانوار مغموسة فى ظلمات الجهالة كما كانت

مطلب — تأثير المعارف فى الاخلاق

ومع ان هذه الاعاقة قد اضعفت تأثير المعارف وضيقت دائرتها حتى لم يمكن نشرها واذاعتها بين الناس فلا شك ان تقدمات المعارف والعلوم يجب عدها من جملة الاسباب الاصلية التى نشأ عنها تغيير الاخلاق عند اهالى اوربا وذلك ان الرغبة التى كانت للناس فى البحث عن كل شئ كما ذكرنا وان كانت جارية على اصول فاسدة الا انها حثت الناس على الاشتغال بالحرف والصنايع وتنبهت بها العقول الى النشاط والتمرن فتيقظ الناس الى ان بذلوا قواهم فى اشياء وجدوها نافعة مرغوبة وتعوّدوا بذلك على اشغال صالحة لان تلطف اخلاقهم وتحسنها وتكسبهم الذوق وحب الفضائل التى تمتاز بها الملل البارعة فى مطالعة العلوم وممارستها مع النجاح

مطلب — تأثير التجارة فى الاخلاق والحكومة

ومما اعان على هذا الشان ايضا التجارات التى كانت فى ذلك الوقت آخذة فى اسباب التقدم والازدياد وذلك انها ساعدت فى تهذيب اخلاق اوربا وادخلت بها احكاما عظيمة خالصة وسياسة منتظمة واصولا سهلة مشتملة على الرأفة بخلق الله تعالى وفى مبدء امر الجمعية كان احتياج الناس قليلا وكذلك كانت مرغوباتهم يسيرة حتى انهم كانوا يكتفون بالمحصولات الطبيعية الخارجة من اقطارهم واقاليمهم و بما كان فى طاقتهم عمله من محصول صنايعهم وحرفهم الخشنية وكانوا يقنعون بذلك بحيث لا يفضل منهم شئ فيعطوه لسواهم ولا ينقص لهم شئ فيضطروا لسؤال الغير فيه فكانت كل بلدة صغيرة تقتنات بما هولها من الاملاك والاراضى ولكونها مكتفية بذلك كانت لا تعرف ما حولها من البلاد او كانت تعرفها ولكن بينها وبينها مشاجرة ومنازعة فلا يحصل التئام ومعاشرة بالكلية وذلك ان الائتلاف والمخالطة بين امم مختلفة يستلزم اولا كونهم متقدمين فى شأن

التمدن والاخلاق و بلوغهم فيه درجة كمال و يستلزم ايضا انشاء قوانين بها يثبت النظام العام و يأمن كل انسان على نفسه ولذلك كان اول شئ حصل من الامم المتبربرين عند استيطانهم بالمملكة الرومانية هو ايقاع الفشل بين اممها التى كان الف بينها الرومانيون حتى تفرقوا ومن وقتئذ صارت اوروبا منقسمة الى عدة دول مختلفة مكثت عدة من القرون متباعدة عن بعضها حتى كادت المخالطة بينها تفقد بالكلية وكانت جميع البحار مشحونة بارباب الصيال حتى كان يخشى من الملاحة وكان اذا وصل احد من ارباب الملاحة الى مينة فى بلدة غريبة لايجد فيها امنا ولا اطمئنانا ولا يغاث اذا استغاث حيث كان الناس كالوحوش الكاسرة و بالجملة فكان لايمكن المخالطة بين سكان الاقسام المتباعدة عن بعضها ولو فى مملكة واحدة الا مع الصعوبة وكانت الاسفار الطويلة وان لم تكن عظيمة الطول من المشروعات الخطرة اذ يخشى فيها من تعرض ارباب الصيال الذين يقطعون الطرق ومن ظلم الاشراف الذين كانت تخشى سطوتهم اكثر من اللصوص لما كانوا يرتكبونه من سيء الفعال فلما كانت هذه الموانع حاصلة فى جميع بلاد اوروبا اضطر سكان كل اقليم ان لايخرجوا من اقليمهم الى غيره فبذلك مكث اغلبهم يجهل البلاد البعيدة عنه فلا يعرف وضعها ولا اسماءها ولا امزاج قطرها ولا محصولاتها

ولكن ظهرت فيما بعد عدة اسباب اوجبت عندهم الرغبة فى التجارة فتولع الناس بها وتجددت بعض مخالطات واخذ وعطاء بين الملل المختلفة وذلك ان الرغبة فى الفنون ونفيس محصولات بلاد المشرق كانت لم تزل باقية الاثر فى قلوب الايطاليين بسبب العلاقات والمعاشرات التى كانت بينهم و بين مدينة القسطنطينية وغيرها من سائر مدن مملكة اليونان فانتقل منهم معارف هذه الفنون والمحصولات الى امم اخرى مجاورة لبلادهم (ايطاليا) ولكن لم تكن التجارة حينئذ الا ضيقة هينة حتى ان العلاقات التى كانت بين الدول المختلفة كانت قليلة جدا وانما ازدادت بسبب حروب اهل الصليب

مطلب
اسباب رجوع التجارة واحيائها

مع الاسلام فانها جلبت الى آسيا جيوشا عديدة خارجة كلها من ممالك اوربا فنمت واتسعت حينئذ المخالطة واسبابها بين المشرق والمغرب ومكثت بهذه الكيفية عدة قرون والغرض من هذه الجيوش والغزوات وان لم يكن الا مجرد فتح البلاد دون التجارة لم يحصل على وفق المأمول بل صارت عاقبة هذا المقصد سيئة كانه فى اصله كان من حيز الهوس وخارجا عن حد العقل وطريق الصواب الا انه ترتب عليه ثمرة اخرى لم تكن مقصودة منه وهو انه عاد على التجارة بالنفع فحصل لها التقدم التام وفى مدة حمية هذه الحروب التى كان جميع الناس متولعين بها اكتسبت كارمد آئن ايطاليا وغيرها من سائر بلاد اوربا الحرية مع مزايا جعلتها بلادا مستقلة محترمة فتجددت فى كل مملكة طوائف من الاهالى استعدت للتجارة وتوصلت بذلك الى سبل الشرف والثروة

مطلب استكشاف البوصله وهى بيت الابرة

وبعد مجاهدة اهل الصليب بقليل كشفت عندهم البوصلة اى بيت الابرة التى صارت بها الملاحة آمنة نامية وسهلت المخالطة بين الملل المتباعدة فكانها قربت الناس بعضهم من بعض

مطلب تقدم التجارة عند الايطاليين

ورتب اهل ايطاليا فى هذا العصر التجارة المنتظمة بين دولهم والمشرق بواسطة مينات مصر وصار يجلب الى هذه الدول جميع المحصولات الهندية النفيسة وتجدد ايضا فى ارض ايطاليا معامل للصنايع مختلفة الانواع فتقدمت وبرعت وعظمت صنايعها باعانة الاهالى واهتمامهم بها حتى انهم اخترعوا فروعا جديدة من الصنايع ونقلوا من المشرق الى بلادهم عدة من المواليد الطبيعية المتولدة فى الاقطار التى هى اعلا حرارة من بلادهم بطبعوها فيها ولم يزل الى الآن يخرج فيها محصولات هذه المواليد المنقولة التى يتجرون فيها تجارة كبيرة كثيرة الربح والفائدة وطالما غنم الايطاليون من ربح ما كانوا يجلبونه من اسيا من البضائع او مما هو نتيجة صنعة ايديهم فانهم كانوا يبيعونها لغيرهم من امم اوربا بمكسب عظيم حيث كان هؤلاء الامم حينئذ آخذين فى اسباب التمدن والرفاهية بعد أن كان ذلك مجهولا

او محتقرا عند اسلافهم

وفى القرن الثانى عشر والثالث عشر كادت تجارات اوربا ان تكون فى ايدى الايطاليين وكانوا معروفين حينئذ باسم اللنبردية اكثر من اسم الايطاليين فرتبت فى جميع الممالك قبانيات لنبردية اى جمعيات تجار وصارت كلها تحت حماية نفس الممالك المقيمة فيها على اختلافها وكان لها مزايا عظيمة وحقوق جسيمة وكانت كلها معافاة من الاحكام القديمة الخشنية التى كانت تجرى على الغرباء وصار تجار اللنبردية فى اقرب زمن هم اهل القوافل والصنايع والصيارف فى جميع البر

مطلب تجارة المدائن الانسياتيقية اى المتعاهدة للتجارة

وبينما كان الايطاليون بجنوب اوربا يوسعون دائرة التجارة مع غاية النشاط والنجاح ويتكاملون دائما فيها اذ اشتغلت بها كذلك عقول امم الشمال فى اثناء القرن الثالث عشر وصاروا فى جهد عظيم فى هذا الشان وفى شأن الحرف والصنايع وكانت حينئذ البلاد المجاورة لبحر بلطق مسكونة بامم وحشيين يقطعون سبل هذا البحر فلما اخذت مدينتا همبورغ ولوبيك فى معاملة هؤلاء الامم وفى التجارة معهم لزمهما ان يتعاهدا لدفع صيال هؤلاء اللصوص النهابين فحصل لهاتين المدينتين ثمرة جزيلة بمعاهدتهما من هذه التجارة فبادر غيرهما الى مباشرة التجارة والدخول فى تلك المعاهدة فاجتمع عاجلا تحت لوائها ثمانون مدينة من اعظم مدائن الايالات المتسعة الممتدة على بحر بلطق الى كولونيا التى على نهر الرين ومنها تكونت المعاهدة الانسياتيقية (معاهدة المدائن مع بعضها بقصد التجارة) الشهيرة التى صارت مهابة فيما بعد حتى ان اعظم الملوك كانوا يخشون كثيرا عن ايصال ضررها اليهم ويخشون بأسها ويخافون عداوتها ويحافظون على كونهم معها على المحبة

وقد رتب ارباب هذه المعاهدة القوية الشوكة اول صورة للتجارة وهى التى كانت معروفة فى القرون الوسطى وقد استمروا على سلوكها عاملين فيها بالقوانين المرتبة فى مشوراتهم العمومية وصاروا يرسلون لباقى البلاد وكلا

بعض ذخائر ومهمات بحرية وانخبوا عدة مدائن اعظمها مدينة ابروجة
من بلاد الفلمنك ليجعلوا فيها مخازن لبضائعهم التى كانت التجارة فيها دائمة
منتظمة وكان اللنبرديون يأتون بالحبوب الهندية الى تلك المدن وكذلك
بمنصولات ورش ايطاليا و يستعوضون عنها البضائع الجسيمة النافعة
التى كانت تأتى من الشمال ومايعتاضه التجار المتعاهدون من الذخائر
و يحملونه الى مينات بحر بلطق او ينقلونه فى الانهر الكبيرة ليدخلوا
فى بلاد المانيا

مطلب
تقدم التجارة بمملكة البلاد الواطية

و بهذه المخالطة والمعاملة المنتظمة التى كانت بين اهالى شمال اوزوبا
واهالى جنوبها علموا انهم محتاجون لبعضهم لا محالة وانه لا استغناء لامة
عن الاخرى ولما شاهد اهالى البلاد الواطية رواج التجارة ونفاقها وزهوها
اخذتهم الغيرة واشتغلوا مع الجهد والاعتناء التام بتكميل فروع فبريقتى
الصوف والقطن العظيمتين اللتين اشتهرت بهما البلاد الواطية منذ عصر
الملك كرلوس مانوس وتوسيع دائرتهما ايضا وحيث ان مدينة ابروجة كانت
حينئذ مركزا للتجارات والمخالطات بين التجار اللنبردية وتجار المدن
المتعاهدة للتجارة اخذ الفلمنكيون فى التجارة مع كل من هاتين القبيلتين
بمدينة ابروجة فاتسعت عندهم التجارة وتقدمت الغاية حتى صار الاخذ
والعطا من جملة عوائدهم الذائعة بينهم وصار بها اقليم الفلمنك وما اتصل به
من الاقاليم المجاورة له اغنى بلاد اوربا واعمرها واحسنها زراعة

مطلب
تقدم التجارة فى انكلترة

ولما رأى ايدوارد الثالث ملك الانكليز حالة تلك الاقاليم اليانعة بثمار التجارة
تعجب كل العجب ثم ادرك سبب ذلك ووقف على حقيقته فاخذ من وقتئذ
فى تحصيل الوسايط التى تتقوى بها الصنايع بين رعاياه بعد ان كانوا يجهلون
ان بلادهم بسبب وضعها اقرب لذلك من غيرها كما كانوا لا يعرفون منبع
الغنى الذى لا بد ان يعم جزيرتهم ذات يوم فكانوا بذلك يهملون التجارة بالكلية
ولا يبحثون اصلا عن تقليد الورش التى رتبت بالبلاد الاجنبية مع ان موادها
وآلاتها كانت خارجة من عندهم فدعا الملك ايدوارد عدة شغالين وصنايعية

من

من اقليم الفلنك للاستيطان بمملكته وانشأ قوانين مستحسنة صالحة لتقوية التجارة وضبطها فتجدد فى انكلترة بهمته ورش الصوف وتفرغت عقول الرعايا الانكليزية الكثيرة المهارة والنشاط الى ممارسة هذه الفنون التى ارتقوا بها الى اعلى درجة بين الملل ذات التجارات والصنايع

مطلب
مانشأ عن تقدمات التجارة من الفوائد الجليلة النفع

ثم ان هذه التقدمات التجارية والمخالطات التى تجددت اذذاك بين الامم وان كانت ضعيفة قليلة بالنسبة لعظم التقدمات التى حصلت منذ قرنين الا انها كانت عظيمة غريبة بالنسبة لحالة اوروبا قبل القرن الثانى عشر ولا يخفى انه لابد ان ينشأ عن هذا الاصلاح نتائج مهمة جدا فبهذا وبالتجارة كان مبدء اضمحلال الاوهام والاعتقادات الفاسدة التى كانت سببا قويا فى انفصال الملل عن بعضها وفى وقوع العداوة والبغضاء بينها وحسنت اخلاق الناس ولطفت وتقربوا من بعضهم حتى صار بينهم الالتئام التام واقوى ميثاق يكون بين الانام وهو معاونة بعضهم بعضا عند لزوم ذلك وقضاء الحاجات لبعضهم وبذلك استعدوا للصلح وتحصيل الاطمئنان لما انه ترتب فى كل مملكة طائفة من اهاليها وهى طائفة التجارة راغبة من نفسها فى حفظ الامن والاطمئنان العمومى لكونه يعود عليها بالنفع وكان كلما ازداد الميل الى التجارة فى مملكة انعشت حكومتها واعتمدت على ذلك وعقدت مع الحكومات الاخر المعاهدات اواشهرت الحروب وعقدت المشارطات ومما يدل على ذلك ماهو موجود فى تواريخ ممالك ايطاليا والعصب المتعاهدة للتجارة وفى اخبار مملكة البلاد الواطية مدة هذا العصر الذى نتكلم عليه وكانت التجارة متى دخلت عند امة من امم اوربا على اختلافها حملتها على الالتفات مع غاية الجد الى الاشياء التى يهتم بها الامم المتمدنة وعلى التخلق بالاخلاق المختلفة التى اقتبستها من اربابها

انتهى القسم الاول

القسم الثانى فى تقدم الجمعية باعمال القوة الملية اللازمة للمصالح الخارجية

مطلب
في ان حالة الجمعية كانت قد اكتسبت درجة كمال عظيمة

قد نبهنا فيما سبق على الحوادث والترتيبات والتنظيمات التي اعانت بقوة مدخليتها على تحسين اخلاق جميع ملل اوربا على التدريج وعلى انشاء حكوماتهم المنتظمة وبقي علينا ان نقول انك لو اطلعت على حالة الجمعية واخلاق الناس في ابتداء القرن الخامس عشر ثم رجعت تنظر ايضا الى حالة اهالي اوربا فيما قبل ذلك حين خرب الامم الخشنيون مملكة الرومانيين واستوطنوا بالبلاد التي فتحوها لتعجبت من التقدمات العظيمة التي حصلها الناس في شأن السياسة والانتظام والتأنس وحسن الاخلاق

مطلب
في ان حالة الجمعية كانت مختلة فيما يخص تدبير القوى الملية

ومع ذلك فكانت الحكومة في ذلك القرن المتقدم بعيدة عن ان تصل الى درجة الكمال والتمكن التي بها يسوغ للممالك المتسعة ان تجري وتجمع جميع ما عندها من الوسايط والوسائل وان تواظب مع الثبات والاستمرار على جميع ما تبتدأ فيه من المشروعات المهمة حتى تتمها مع النجاح نعم يسهل على اهل القبائل الصغيرة ان يتعاهدوا ويتعاونوا بما يقدرون عليه وذلك لانهم لم يحملهم على ما يشرعون فيه الا الاحوال الحالة الراهنة مما يرونه نصب اعينهم من غير ان يشغلوا فكرتهم بشيء في التبصر في العواقب والمستقبل ولا يجول فكرهم في المآل ولا يخطر ببالهم ما يتعب انظار الامم المتمدنة فعند القبيلة انه اذا سب عدو اجنبي فردا منها تلتهب نيران الغيظ في قلوب جميع اهلها فتهيج نفوسهم وتقوم عليه القبيلة باسرها واذا انتصرت ملة على اخرى مخاصمة لها تنشأ الغيرة عند الامم المنافسة لها فالعداوة تنتقل الى جميع نفوس الملة وجميع اعضاء جمعيتهم يتحزبون مع الغيرة والرغبة ويكونون على قلب رجل واحد ويبادرون الى ميدان الحرب اما لقصد انتقامهم او لمجرد الامتياز والشهرة هذا حال القبائل والملل الصغيرة واما في البلاد العظيمة الاتساع كما كانت ممالك اوربا في ابتداء القرن الخامس عشر فان اعضاء كل مملكة متباعدون الغاية عن بعضهم بحيث لا يحصل بينهم التردد والمخالطة بكثرة فلا يمكنهم الشروع في امر مهم حتى يتفقوا عليه جميعا اتفاقا عموميا ويتجهزوا له باستعدادات عظيمة ومواد جسيمة ولذلك لا يمكن ان يحملهم

على ذلك ويستميل انفسهم و يرغبها الا وجودا حد شيئين اما حكم مطلق التصرف فاعل مختار او تأثير حكومة قوية ذات قانون وانتظام وقد شوهد فى ممالك المشرق المتسعة ماهو من قبيل الصورة الاولى يعنى الحكومة المطلقة التصرف وذلك ان اوامر الحاكم فيها محترمة مسموعة ولو فى اقصى اقاليم دولته واذا طلب حزبا من رعاياه اياما كان سار الى ان يدخل تحت ظل راياته اينما كانت واما الصورة الثانية اى حكومة القوانين والانتظام فكممالك بلاد اوربا على ماهى عليه الآن فتجد الملك حيث يسلك مسلك التخفيف والتلطيف و يتوصل الى مقصوده باجرآء سائر الاحكام والقوانين الملوكية مع حسن التدبير والانتظام يمكنه ان يجمع جميع قوى مملكته بالسهولة ويستعملها فى المشروعات العظيمة التى تستلزم الهمة والمواظبة

مطلب
تضييق قدرة الملوك تضييقا بليغا

ولكن فى ابتدآء القرن الخامس عشر كان قانون الحكومة فى جميع ممالك اوربا بعيدا جدا عن رسوم هاتين الصورتين السابقتين وذلك لان بعض الملوك وان كانوا قد وسعوا حدود مزاياهم فى ذلك الزمن ببعض اختلاسات ساعدهم عليها الوقت واعانهم على اقتطاعها من مزايا الاشراف وحقوقهم لكنهم لم يزل حكمهم وتصرفهم محددا مضيقا جدا وذلك ان القوانين وتدبير الممالك الداخلية وان كانت قد بلغت درجة كمال بسبب الوقائع والحوادث والتشريعات التى سبق ذكرها الا انها كانت الى ذلك الوقت فى حالة ظاهرة من الضعف والنقص فكنت تجد فى كل محل طوائف الاشراف عديدة كثيرة ذات باس ومهابة مع ما كان يستعمل من الوسايط العديدة فى اضعافهم واضمحلالهم فكانوا يلاحظون جميع حركات الملوك مع شدة الغيرة والاحتراس منهم فكان هذا يمنع الملوك من الطمع والعلو وكانت الاشراف تتدارك ابطال مقاصدهم التى كانوا يرومون بها اتساع حكوماتهم وتعطيلها وتسعى فى خيبتها او عدم نجازها

مطلب
قلة ايراداتهم جدا

وكانت ايرادات الملوك المعتادة قليلة بحيث لا تكفى لمصاريف مشروع

منهم فكانوا يضطرون الى ان يستعينوا برعاياهم فيما يحتاجون اليه من
الامدادات الجسمية وكان الرعايا يعطونهم ذلك فى الغالب مع اشمئزاز نفوسهم
ولا يعطونهم ابدا ما يكفيهم
وبسبب قلة الايرادات كما ذكرناه كان لا يمكن للملوك ان يجهزوا للسفر للقتال
الا جيوشا غير صالحة لخدامة طويلة متعبة ولم يكن لهم عساكر صفوف
منتظمة متمرنة على الطاعة العسكرية والضبط والربط خبيرة بالفنون
الحربية بل انما كانت جيوشهم مركبة من العساكر التى كان
يرسلها اليهم اتباعهم على حسب شروط الامدادات العسكرية من انه
لا يجب على هؤلاء العساكر ان يمكثوا فى الغزوات الا مدة قصيرة ولا يمكن
جبرهم على ان يسافروا بعيدا عن مراكزهم المعتادة ولما كان تعلقهم بساداتهم
اكثر من تعلقهم بالملك غالبا كانوا يميلون الى ان يعارضوه ويناقضوه
فى مقاصده فضلا عن ان يساعدوه عليها او يعينوه على اجرآتها ولو فرض
انهم فى غاية من الانقياد والطاعة لاحكام الملك تجدهم لعدم تعلمهم العسكرية
كالجمادات غير صالحين لان يوفوا بالغرض ويقعوا فى محذور مهم وسبب
ذلك ان القوى العسكرية التى تليق لفتوح البلاد وللمدافعة والذب عن
الحصون والقلاع هى العساكر المشاة لا غير حتى ان ما حصل للرومانيين من
النجاح والنصرة مدة الجمهورية كان صادرا فى الاغلب عن صفوف عساكر
المشاة وثباتهم وحسن ترتيبهم فلما نسى هؤلاء الامم فى زمن الملوك القياصرة
الاصول التى كانت وصلت سلفهم الى ان حكموا وتغلبوا على جميع البلاد
غيروا بالكلية ما رآتهم ومذاهبهم العسكرية وصارت العساكر الخيالة مطمح
نظرهم واصل قواهم حيث كانوا لا يثقون الا بها فلذلك لم يمكنهم ان يقاوموا
مصادمة الامم الخشنيين الذين كانوا يقاتلون دآئما على ارجلهم تقريبا من
غير صف ولا انتظام ولكن لم يتعظ هؤلاء الخشنيون بما جرى للرومانيين من
عجزهم بعدا همالهم المشاة بل تركوا بعد استيطانهم بالبلاد التى فتحوها
عوايد آبائهم وجدودهم فى العسكرية ايضا وابدلوا عساكرهم المشاة بجيوش

خيالة كالرومانيين ومن المعلوم ان سبب ابطال المشاة عند الرومانيين وتجديد الخيالة بدلا عنهم انما هو ارتخاء العساكر وفتور همتهم حيث لم يكن لهم طاقة على تحمل مشاق الخدمة العسكرية واما سلفهم فكانوا اشد ثباتا واعظم سلوكا وسيرة فكانوا يتحملون المشاق من غير تكلف والظاهر ان احداث الخيالة عند الامم التى اسست ممالك جديدة فكانت اوروبا متوزعة عليها انما كان منشاؤه كبر الاشراف وتعاظمهم وذلك ان طوائف الاشراف لما استنكفوا عن ان يختلطوا مدة الحرب مع من دونهم مقاما ارادوا ان يكونوا ممتازين عن الغير مدة الحرب كما هم ممتازون مدة الصلح ومما قوى الرغبة ايضا فى انشاء الفرسان تجديد طائفة امارة الشوفالرية وحضور مواسم العاب التورنواس التى كان يحضر فيها الامير متسلحا من الرأس الى القدم راكبا على فرس مزينة بالخرسرج فيتنافسون بالشجاعة والقوة والمهارة

فصار كل الناس فيما بعد يرغبون فى ذلك بحيث ان جيوش اوروبا فى القرن الثالث عشر والرابع عشر كادت كلها ان تكون فرسانا فكان لا يرضى احد من الاشراف ان يظهر فى الميدان من غير فرس معتقدا ان قتاله ماشيا مما يخل بمقامه ويخس بشأنه حتى ان الفرسان كانت تختص دون غيرها باسم عساكر الصف وكان عليها الاعتماد فى الوقائع والمعول فى الظفر والخيبة بخلاف عساكر المشاة فلم تكن معتبرة فى شئ وانما كانت مجتمعة من رعاع الناس واخلاطهم رديئة الاسلحة لا تعليم عندها ولا تربية

فبجميع هذه الاحوال المانعة لم يمكن لدول اوروبا المختلفة ان ترتب امور العسكرية ولا ان تتقوى فى الفنون الحربية فقد عاقت زمنا طويلا ملوك اوروبا عن ان تستيقظ وتحترس من سلوك من بجوارهم من الملوك وان تكون على حذر من مقاصدهم وان يبحثوا عن انشاء قانون به يكون الامن العام وما كان يمكنهم ان يجمعوا امرهم ويتفقوا مع بعضهم على ترتيب ميزان عدل بين الممالك بحيث لا يمكن به ان يحدث لاحد زيادة درجة ارتفاع وعلو

شوكة يترتب عليها الايذاء والاضرار بحرية غيرها واستقلالها فالظاهر ان ملل اوربا مكثت عدة قرون غير متحدة تكاد ان تكون بمعزل عن بعضها وندر أن كان بينها مخالطة بسبب مصلحة مشتركة فكل مملكة لا يهمها شأن غيرها من الممالك ولم يكن بين الملوك معاملة متسعة مستمرة بها يمكنهم ان يعرفوا مقاصد بعضهم ولم يكن يوجد فى كل مملكة رسل ولا اجنبية مقيمون فى دار المملكة حتى يمكنهم ان يلاحظوا خفية جميع حركات الديوان وافعاله ويخبروا بها ملوكهم فى اسرع وقت وما كانت ملة من هذه الملل ترضى ان تشهر الحرب لرجاء نفع مغيب بعيد الحصول اوللاحتراس من خطر مشكوك اوممكن الحصول فلا تهتم بمثل ذلك مالم تكن عرضة لاخطار عظيمة اولشئ يزرى بمقامها ولا يمكن دفعه بالتى هى احسن فاذا لم يمكنها ذلك ظنت من مصلحتها الدخول فى المشاجرة الحاصلة اوالبحث عن ان تجلب لنفسها بالخصوص ما تأمن به

ولكن من اراد ان يكتب تاريخ احدى الدول العظيمة ببلاد اوربا مدة هذين القرنين الاخيرين وهما الخامس عشر والسادس عشر يضطر ان يكتب تاريخ اوربا بتمامها وذلك لانه من ذلك الوقت صارت كل الدول متحدة على نسق ونظام واحد وملتئمة ببعضها غاية الالتئام بحيث صار لكل دولة منها رتبة معلومة وحركات كل واحدة تؤثر فى غيرها من سائر الدول ولها فيها مدخلية كافية وتملق ويعمل بمقتضاها اذا لزم واما قبل القرن الخامس عشر فكانت مصالح الممالك لا تعلق لها ببعضها الا فى ما ندر وكانت اموركل مملكة مخصوصة بها لا تتعداها الا اذا كثرت المشاجرات بسبب قرب الدول ومجاورتها لبعضها اواذا قويت الفتن والحروب بسبب غيرة وحمية ملية فكثيرا ما كان يحصل فى اى مملكة بعض حوادث مهمة وتقلبات عظيمة وكانت الممالك الاخرى تتفرج عليها تفرج الخلق عن الاعراض من غير توسط ولا ميل لاحد الحزبين ولا تخشى ابدا من ان يمسها شئ منها يعود عليها بالضرر

مطلب
قلة الاتحاد والالتئام التى كانت فى الدول المختلفة بين بعضها

ثم ان المشاجرات المودية للحروب المهولة التى حصلت بين مملكتى فرانسا وانكلترة كان يترآى ان الغرض منها محاولة انضمام هاتين المملكتين وجعلهما تحت حكم ملك واحد ولاشك ان فى مثل ذلك مضرة لباقى ممالك اوروبا ومع ذلك فلم تهتم هذه الممالك بشئ مما يبطل هذا المشروع الخطر عليها ولم تقترح طريق احتراس نافعة ناشئة عن حسن سياسة تلك الممالك وبديع تدبيرها نعم ان دوق برغونيا ودوق بريطانيا قد تداخلا فى هذه المشاجرات ولكن لم يتعرضا لذلك الا لاضطرارهما اليه لان اوضاع بلادهما كانت لاتسوغ لهما ان يكونا خاليين عن الاغراض فكانا يهتمان فى اغلب تداخلهما بفعل مافيه مصلحتهما وحظ انفسهما بالخصوص دون مافيه مجانبة الخطر الذى كان يخشى منه على راحة اوروبا بتمامها وامن جميع بلادها واما غيرهما من سائر حكام اوروبا فكانوا لايشغلون بالهم بشئ من ذلك وكان يستوى عندهم ظفر احد الفريقين المحاربين وانهزام الآخر او كانوا يتوسطون فى ذلك على وجه هين لايجدى نفعا

مطلب حوادث اسبانيا

ومع ان اقسام اسبانيا حين كانت منقسمة الى عدة ممالك منفصلة مستقلة عن بعضها قد حصل فيها تقلبات وتمكيرات مستمرة عدة قرون وظهر فيما بعد بتغير الاحوال وتواليها تدبير انضمام جميع هذه الممالك الى بعضها وصيرورتها مملكة واحدة كبيرة لم يلتفت ملوك اوروبا الاخرون الى هذا التغيير المهم ادنى التفات فبينما هم كذلك اذ صار مجموع هذه الممالك مملكة عظيمة وتقوت بالتدريج حتى صارت فى اقرب وقت مهابة عند جميع الممالك التى بجوارها

مطلب حوادث المانيا

وفى اثناء التقلبات الشديدة التى حصلت فى الايمبراطورية الالمانية بسبب ماحصل من المنازعات بين الرومانيين واشراف المانيا لتولع الاولين بان يكون لهم نفوذ كلمة كما ان انفس اشراف المانيا كانت آبية مائلة للطمع لم يمكن للبابات مع قوتهم ودسائسهم ولا للايمبراطور اياكان ولو الح فى التوسل والرجاء ان يستميلوا احدا من الملوك الآخرين ارباب الشوكة الذين كانوا

متمكنين حينئذ ببلاد اوربا الى الدخول فى تلك المشاجرات التى كانت بين الرومانيين واشراف المانيا ولا الى التوسط فيها ولو مع وجود الفرصة ومساعدة الزمن بل ولو كان ذلك يعود عليهم بالمنفعة

مطلب في بيان ان هذا الاهمال الحاصل من جهة الملوك كان ناشئا من كيفية الحكومة وحالتها التى كانت عليها

ولا ينبغى ان تنسب اهمال هؤلاء الملوك مع وجود الفرص العديدة النافعة لعدم معارفهم وقصور اذهانهم وعقولهم عن ادراك عواقب الحوادث ونتائجها السياسية لان كل زمن ايا كان فيه اناس لهم قابلية وقوة مدركة بها يميزون الاحكام و يجرونها مع الفطنة وذكاء القريحة ولاشك ان ملوك اوربا فى ذلك العصر لم يكونوا عميا ولا مغفلين حتى يجهلوا ما فيه نفعهم وصلاحهم او يهملوا فيما فيه الامن العام او يعجزوا عن معرفة الوسايط التى بها يمكنهم حفظ خصوص منافعهم والامن العام ولا ينبغى ان تنسب ذلك ايضا الى اهمال هؤلاء الملوك لسلامة بلادهم سلوك طريق الاحتراس الذى به يمكن لارباب السياسة من المتاخرين ان يتداركوا خطرا مغيبا وان يعارضوا الدول ذات الشوكة القوية ان تتعدى على الدول الضعيفة حتى صارت كل دولة كخفير حامى عن جميع حقوق من بجواره وعن استقلاله بحيث لا تستولى دولة على اخرى وانما ينبغى ان ينسب ذلك الى عدم كمال القوانين الداخلية ومجاوزة الحدود فى الاحكام المدنية التى كانت فى الدول وقتئذ فان هذا الخلل الداخلى كان هو السبب فى عجز الملوك عن تحصيل الوسايط التى كان يمكنهم بها ان ينفذوا اغراضهم على حسب ما كانت تقتضيه اراؤهم واحوال المصالح فى ذلك الوقت

مطلب الوقائع التى حصلت فى القرن الخامس عشر وبها ازداد اجتهاد الملوك وسعيهم وعظمت مشروعاتهم

ولكن قد حصل فى اثناء القرن الخامس عشر عدة حوادث متعاقبة بها امكن للملوك ان يتصرفوا تصرفا اوسع مما كانوا عليه فى احكام دولهم وترتيب قواها العسكرية على نسق جديد وصار لهم اقتدار على ان ياخذوا فى مشروعات كبيرة مهمة وبهذه الحوادث نشأ بين الممالك مخالطات متواترة ومداولات اكيدة فى شأن مصالحها بين بعضها حتى اعتادت هذه الممالك بالتدريج على ان لا تفعل شيئا الا بمشورة بعضها واداها ذلك الى ان ترتبت

مذهبا بوليتيقيا اى سياسيا به تثبت ميزان تعديل بين الدول به يدوم الامن العام وحفظ الممالك من المتغلبين

ففى ايام الملك كرلوس الخامس (شرلكان) خطر بالبال تجديد الاصول والقواعد التى تنبنى عليها هذه القوانين البوليتيقية فجرى العمل من ذلك الوقت على الحكمة التى عضدت تلك القوانين البوليتيقية وتلقيت بحسن القبول وبذلك يرى ان البحث عن الاسباب والمسببات التى اعانت فى تجديد هذه القوانين السياسية التى هى اعظم ما عاد نفعه على الناس من الاحكام ليس مقدمة لتاريخ كرلوس الخامس فقط بل لابد منه ايضا لمعرفة تاريخ بلاد اوربا

مطلب
كون اول حادثة فى ذلك هى طرد الانكليز من الاراضى القارة

واول حادثة ترتب عليها بعض تغييرات عظيمة فى شان مصالح اوربا هى الحادثة التى بها انضمت الى مملكة فرانسا الاملاك المتسعة التى كانت لمملكة انكلترة بالاراضى القارة وذلك ان الانكليز ماداموا حاكمين على عدة من اخصب اقاليم فرانسا واغناها ومدخلين تحت راياتهم وفى عساكرهم مقدارا كبيرا من شجعان سكان هذه المملكة كانوا يعدون انفسهم اقرانا للفرنساوية لانهم اتباع لصاحب الارض التى اقتطعوها فكان لا يمكن لملوك فرانسا ان يتجاسروا على الاخذ فى مشروع مهم او صعب لما انهم كانوا دائما معوقين عن مقاصدهم وما عزموا عليه ومعطلين فى جميع افعالهم بالانكليز الذين كانوا اقوياء الشوكة كثيرى الغيرة مستعدين دائما لمعارضتهم ومخالفتهم بل ربما نازعوهم فى حقوقهم ومزاياهم وفى المنصب الملوكى ولما كان يسهل عليهم الدخول والجولان فى فرانسا كان يمكنهم ان يجردوا عليها جميع الجيوش التى كان حقها ان تحامى عنها فكان هذا هو السبب فى الفتور والتراخى الواقع فى المشاور الفرنساوية وضعف احكامها وعدم انجازها بشئ حتى ان فرانسا بتمزيقها هذا وخوفها من هؤلاء الاعداء الخطرين اولى الشوكة لم يمكنها ان تلحق درجتها الاصلية التى لها بين ممالك اوربا ولكن من حسن حظها بل ومن حسن حظ انكلترة عجل الله تعالى بموت الملك هنرى الخامس ملك انكلترة

تخلصت فرانسا مما حل بها من المصائب وزال عنها أن ترى كرسى ملكها مشغولا بملك غريب * وبضعف من تولى بعده وهو هنرى السادس لصغر سنه وطول مدة قصوره و بالفتن التى حصلت فى ديوان انكلترة وما نشأ عنها من الفشل وعدم الالتئام ساغ للفرنساوية ان يسترجعوا ما كانوا فقدوه حتى ان اشراف فرانسا زادت همتهم الطبيعية وسلكوا مسلك الحمية ظنا منهم ان تعجيل موت هنرى الخامس انما كان من الله تعالى شفقة عليهم حين تساعدهم الاقدار فصاروا ينزلون الى الحروب يقودهم اليها رؤساء بارعون اولو تجارب عظيمة وصار ملك الفرنساوية المتولى فى ذلك الوقت وهو كرلوس السابع يدبر مصالح المشورة مع الحكمة والذكاء التام حتى انه انتهز بهذه الفرصة أن اخذ من الانكليز فتوحاتهم الجديدة وجردهم ايضا لنشاطه عن ممالكهم القديمة وصارت اراضيهم فى اقرب وقت محصورة فى حدود ضيقة واقتصروا على بوغاز كالس وما حوله من الاراضى الصغيرة

فلما زادت وعظمت شوكة فرنسا بانضمام هذه الاقاليم اليها اخذ ملوكها فى العزم على مقاصد كبيرة فى شأن تحسين قوانين السياسة الداخلية او المشروعات الخارجية وصاروا فى اقرب وقت مهابين عند مجاوريهم ممن كانوا يلاحظون اتم الملاحظة جميع حركات هؤلاء الملوك حيث كان ذلك مما يخص امنهم وطمانينتهم ومن وقتئذ صار لمملكة فرنسا مدخلية عظيمة وشوكة جديدة بين ممالك اوربا بسبب تمكن وضعها الطبيعى وانضمام جميع اراضيها ولاسيما بكثرة اهاليها وشجاعتهم و بالجملة فصارت اول مملكة اضرمت نيران الغيرة وارعبت ما حولها من دول اوربا

ولا يخفى ان اخذ هذه الاقاليم من الانكليز وانضمامها الى فرنسا لم يكن بمفرده السبب فى نمو الشوكة الفرنساوية بل اعقب هذه الحادثة حادثة اخرى اعانت كثيرا فى تقوية مصالح هذه المملكة وتسهيل مشروعاتها وان كانت هذه الحادثة اقل اهتماما وظهورا من الاولى وذلك انه فى مدة هذه الحروب المهولة التى مكثت زمنا طويلا بين فرنسا وانكلترة ظهرت جميع العيوب والامور

المحلة التي كان ادخلها المذهب الالتزامي في القوانين والترتيبات العسكرية وكانت تلك الحروب المستمرة زمنا طويلا لا تستطاع الامع غاية المشقة حيث انه كان لا يرخص للعساكر ان يمكثوا في الحرب الامدة قليلة بحكم العادة الجارية وما كان يمكن جبرهم على ان يمكثوا ازيد من ذلك لا سيما وكان اكثرهم خيالة ثقال الاسلحة تكاد ان لا تكون صالحة لحماية شيء من المدن والحصون التي كانوا يريدون الممانعة عنها ولا للهجوم على شيء مما كانوا يريدون الاغارة عليه فلاجل تحصيل جيوش خصوصية مستعدة لذلك استمرارية لما ان طول الحروب يستلزم ذلك اضطر ملوك فرانسا الى ان يرتبوا عساكر كثيرة بالجامكية ياخذونهم من اهالى بلادهم او يجلبونهم من اهالى البلاد الاجنبية وحيث ان الحكومة الالتزامية لا يعطى فيها الملك جميع ما يكفي لمثل هذه المصاريف الجسيمة كان يسرح هذه العساكر المجمكة في آخر كل سفرة حربية او عند قرب عقد الصلح ولما كانت تلك العساكر غير متمرنة على مراعاة شيء من قوانين الضبط والربط كانت في الغالب تؤذى البلاد المجمكة لممانعتها وحمايتها فتهلك بها الحرث والنسل وتفعل بها من الاتلاف ما يمكن للاعداء ان يفعلوه بها

مطلب انشاء عساكر البيادة اى المشاة

ولا يخفى انه لو كان هنالك فرقة خصوصية استمرارية معدة للحرب ومتعودة على التعليمات والحركات العسكرية والضبط والربط لكان ذلك يجبر خلل القوانين الالتزامية وكان بهم يمكن للملوك ان يجروا مشروعاتهم التي كانوا عاجزين عنها وقتئذ ولكن كان احداث هذا الامر مخالفا لما تقتضيه حالة الالتزام والحكومة الالتزامية ومناقضا لمزايا الاشراف وحقوقهم حتى انه مضت عدة قرون من غير ان يوجد من بين ملوك اوروباملك جسور ذو شوكة واقتدار على ان يشرع في احداث هذا الامر ولكن حيث كان الملك كرلوس السابع حينئذ شهرة عظيمة بما حصل له من النجاح في حروب الانكليز ونصرة رعاياه الفرنساوية اجرى ما لم يتجاسر اسلافه على الشروع فيه لا سيما وقد اعانه على ذلك آثار الخوف والرعب الذي قد كان طبع في قلوب رعاياه

من ايام حكومة اعدائهم الانكليز فاحتج بانه يلزم فى كل وقت الاحتراس من الانكليز و يلزم لذلك المحافظة على ابقاء عساكر متجهزة كافية لحماية المملكة من اغارة تقع فجأة من هؤلاء الاعداء فسرح جميع العساكر السالفة ولم يبق منها سوى فرقة قدر تسعة آلاف من الخيالة وستة عشر الفا من المشاة سنة ١٤٤٥ وعين جهة تدفع فيها ماهياتهم ووزعهم بين ثغور مملكته وحصونها على حسب مااختاره واقتضاه رأيه وجعل عليهم ضباطا لاجل حكمهم وتربيتهم فى العسكرية فصار اعظم الاشراف واكثرهم امتيازا يبادر الى الدخول فى هذه الخدامة وفيها تعودوا على اتباع ملكهم والانقياد له وعلى اجراء اوامره وتبهم مرغوبا به وصاروا يعتبرونه كانه قاسم الاستحقاق بينهم يعرف ما يستحق كل منهم وانه ولى نعمتهم واما العساكر الغير المنتظمة التى كان يجمعها الملتزمون من اتباعهم و يامرونهم باتباع اعلامهم والخدامة تحت راياتهم فلم تكن تضاهى هذه العساكر الجديدة المنتظمة التى كانت دائما متمرنة مستعدة للحروب بل فقدت جميع بهجتها ولم يبق لها شهرة وانتهى الحال الى ان قوة الجيوش لا يعتبر فيها الا مقدار العساكر المنتظمة التى توجد فيها حتى انه لم يمض قرن الا وصار الاشراف واتباعهم فى العسكرية وان كانوا يجمعون بحسب الاصول القديمة و يقدمون الى الحرب لا يعتبرون الا جوعا مضرة لا ينشأ عنهم الا مزاحمة العساكر المنتظمة التى يحاربون معها وحل نظامها وترتيبها وصار ينظر اليهم بعين الاحتقار جميع العساكر الجديدة المتعودة على تحمل مشاق التعليمات العسكرية الصعبة والمداومة على معاناة متاعبها

مطلب مانع عن تجديد هؤلاء العساكر

و بترتيب هؤلاء العساكر المشاة الذين هم اول جيش منتظم نشأ فى اوروبا احدث الملك كرلوس السابع المتقدم تغييرا مهما عظيما فى مصالح الامم على اختلافها وفى احوالها البوليتيقية اى سياساتها وجرد الاشراف عن مزاياهم وحقوقهم التى كانت ثابتة لهم من كونهم يقودون الجيوش دون غيرهم وعما كانوا اكتسبوه بسبب ذلك من عظم الشوكة ونفوذ الكلمة واصمى

بسياسه حكومة الاشراف او الحكومة الالتزامية واردى شوكتهم بعزمه وحزمه

ولايخفى ان ترتيب مثل هذه الجيوش حينئذ قد اكسب فرانسا صولة عظيمة وبأسا شديدا عند من بجوارها من الممالك حيث لم يكن وقتئذ فى كل مملكة من ممالك اوروبا ماعداها سوى بلك اوارطة تستأجرسنة فصار لها هيبة عظيمة فى المهاجمة او المدافعة حتى افضى ذلك الى ان الممالك الاخرى رأت انه يلزمها ولابد لاجل حفظها والمحاماة عن نفسها ان تتخذ المملكة الفرنساوية قدوة فى ترتيب العساكر وتنسج على منوالها فصارت تلك الممالك تأخذ عساكر بمحكمة انتهى امرها بالتدريج الى ان كانت تستأمن دون غيرها ومكث الملوك والوزرآء حقبة من الزمن يحاولون زيادة مقادير هذه العساكر المستأجرة واضعاف بل ابطال جميع الوسائط الملية الاهلية التى يكون بها براح الملة ومحاماتها عن نفسها

مطلب
شروع ملوك فرانسا فى توسيع مزاياهم وحقوقهم

ولما كان ملوك فرانسا هم اول من ابتكروا هذه القوى العسكرية فى التزاماتهم ليستعينوا بها على الاعمال الخارجية كانوا ايضا اول من ذلل الحكومة الارستقراطية اى الالتزامية وادخل كبار اتباع المملكة تحت الطاعة بعد ان مكثوا زمنا طويلا وهم يضيقون بقوتهم المجاوزة للحد فى الحقوق الملوكية ويحصرونها فى حدود ضيقة لما انهم كانوا مضعفين بذلك جميع قوى ملوك اوروبا ومعطلين مشروعاتهم

وقد طرأت عدة عوارض هدمت بالتدريج اساس الشوكة الارستقراطية فى بلاد فرانسا وذلك ان الاشراف قد خسروا كثيرا حيث ذهبت اموالهم واملاكهم فى الحروب الطويلة التى حصلت بين مملكة الفرنساوية ومملكة الانكليز وحيث كان هؤلاء الاشراف يحامون عن بلادهم مع غيرة تامة وحمية متزايدة ترتب على ذلك فقر عدة عيلات عظيمة منهم ولما كان الحرب ينتقل كذلك على التعاقب فى اغلب اقاليم المملكة ادى ذلك ايضا الى ان صارت اراضى العيلات الاخرى وبلادهم عرضة لنهب الاعدآء

او سلب العساكر التى كان يستأجرها الملوك ولم يمكنهم فى بعض الاحيان
ان يصرفوا لهم ماهياتهم المرتبة وزيادة على ذلك تخربت بقيام الفلاحين
الذين كانوا يخرجون حينئذ عن طاعة الاشراف وكذلك اضطر الملوك
اذ ذاك ان يسلكوا المسلك الردئ فى تغيير معيار النقود ونقص قيمتها دفعة
واحدة لعدم انتظام مصالحهم ولكون المصلحة اقتضت ذلك فبهذا نقص
ايراد الملتزمين الذى كان يرد لهم من الجرائم والغرامات السنوية وغيرها
من الحقوق الالتزامية ونقص جدا فائض كل التزام عن محصولاته السابقة
وفى مدة هذه الحروب التى كان فيها كرام الاشراف يتنافسون فى القدوم
على اقتحام الاخطار لتحصيل الرفعة والفخار انقرضت منهم عدة عيلات
عظيمة وضمت التزاماتهم الى الدولة غيران بعضها وقع ميراثا للنساء فقسم
بينهن و بعضها صغر بما اقتطع منه للوقف على الكنائس او تمزق بين الورثة
يقتسمونه على حسب فروضهم

مطلب
تقدم الشوكة الملوكية وتقويتها مدة الملك كرلوس السابع

ثم ان الملك كرلوس السابع فرح بهذه الامارات الظاهرة التى تدل على
اضمحلال شوكة هؤلاء الاشراف الذين كان يريد تدميرهم لما ان ذلك كان
على وفق مراده فاغتنم فرصة فترة الصلح بينه و بين آل انكليز حيث اجتهد
فى توسيع المزايا الملوكية مع ضعف الخصايص الارستقراطية ولكن حيث
ان الاشراف كانوا قد نفعوه عن قرب بحيث لم يتقادم عهد ما فعلوه من
الخدمة العظيمة فى حماية المملكة لم يمكنه ان يعاملهم الا مع غاية الاحتراس
والاحتياط ومع ذلك فبما اكتسبه من الصولة بانتصاره على الانكليز
وضعف شوكة الاشراف وزوال قوتهم شرع فى مبدء الامر بغير الاحكام
والقوانين من غير ان يعارضه احد منهم فى ذلك فكانه رتب العساكر
المنتظمة التى تكلمنا عليها سابقا كان ايضا اول ملك من ملوك فرانسا استقل
برأيه من غير ان يستعين بمشورة المملكة وصدر امره باحداث امدادات سنة ١٤٤٠
على رعاياه وكان فيه اقتدار كاف فى كونه رتب دائما عدة مرتبات وقتية
كانت قبل ذلك تطلب عند الحاجة اليها ولا تقبض الا نادرا وبهذه الوسايط

المديدة زادت شوكة كرلوس زيادة كبيرة فالسمت دائرتهن ايامه جسدا وخرجت الحقوق الملوكية عن حدودها القديمة التي كانت محصورة فيها وبعد ان كان اقل تصرفا وشوكة من جميع الملوك الذين حكموا قبله على فرانسا صار في آخر سني حكمه صاحب صولة وتصرف عظيم لم تتمتع بمثله احد من اسلافه في عدة اعصر خلت قبله

مطلب
مدة لويز الحادى عشر

وحيث ان آمال كرلوس المذكور كانت متعلقة بمحق الاشراف وتذليلهم تأسى به بعد موته ابنه لويز الحادى عشر في تتبع هذا المقصد بقلب جسور اكثر من ابيه وفاق اباه كذلك في النجاح وذلك ان لويز هذا كان ظالما جبارا بالطمع فبعد جلوسه على كرسى المملكة يسير اخذ في مقدمات تدل على ان مقصوده الظفر بالرعية كى يصير مطلق التصرف ولما كان مخادعا جبارا لا شفقة عنده خليا من اصول العدل والحياء صار لا يبالى بانواع الغصب والتعدى ولم يمنعه عنها شرف ولا فخار وان كان ذلك يمنع عادة ارباب الطمع وكان يعرف من اين يؤكل الكتف ومن اين يستمد نفعه ولم يكن له باعث على غرضه الحقيقى الاشئ واحد فكان له اقتدار على ان يتتبعه مع الغيرة والقوة التامة ويتعلق به تعلقا كليا بحيث لا يمكن ان يشغل عنه بشئ آخر ولا يعاق عنه ولو بالاخطار والاهوال

مطلب
ما دبره في خفض الاشراف

فكانت احكام ادارته وسياسته مبنية على مدارك عويصة تضر بمزايا الاشراف فلأ هذا الملك جميع العمالات والاقاليم بعمال مستعبدين كان في الغالب ينتخبهم من رعاع الناس ويقلدهم بالمناصب المهمة ويأتمنهم ويثق بهم ويجعلهم دون غيرهم امناء سره فكان يشاورهم في سائر مقاصده ومشروعاته ويأتمنهم على اجرائها واما الاشراف الذين كانت عادتهم صحبة الملوك ومجالستهم ومنادمتهم وان يكونوا وزراءهم فقد اذلهم وكسر انوفهم بحيث ان من لم يرض منهم ان يكون في طرف ديوان الملك الذى لم يكن لهم فيه شئ من شوكتهم القديمة ولو شوكة صورية يجبر على ان يلزم قصره فيمكث فيه نسيا منسيا لا يرد على فكر احد

ولم يكتف هذا الملك ما صنعه مع الاشراف من المذلة وابطال نفوذ الكلمة بمنعهم عن رياسة المصالح بل ضم الى الاحتقار الاساءة فبعد ان جردهم عن مزاياهم وحقوقهم الذاتية اخذ فى خفض طائفتهم بتمامها فجعلهم كبقية الرعايا سواء بسواء فكان كل من له اقتدار على ان يتجاسر من اكابر المتقربين على معارضة الملك فى مقاصده او كان من سوء حظه فى نفس الملك منه شئ يشدد عليه بتشديد لم يكن سبق للاشراف مثله فكانت تقام دعاو يهم بمحاكم لم يكن لها حق الحكم على الاشراف فيحكم عليهم فيها بالعقاب والعذاب الشديد من غير التفات الى حسبهم ونسبهم ولا حالهم ومبدء اصلهم ومن حكم عليه بالقتل قتل قتلا شنيعا فلما تكرر عند الرعايا رؤية كبار الاشراف مسجونين فى الدواميس (وهى حبوس تحت الارض مظلمة) او موضوعين فى اقفاص من حديد لينظرهم الخاص والعام ورؤية دمائهم فى ايدى الجلادين سقط اعتبارهم عندهم وصاروا لا يعتبرون ولا يهابون الا شوكة الملك وسطوته التى اذلت من الاهالى كل عزيز عنيد ومحقت شوكة كل جبار عنيد

مطلب ايقاع الفشل بين الاشراف

ولما خاف هذا الملك ان شدة احكامه عليهم وكونهم على قلب رجل واحد لمصلحة حفظ انفسهم ينشأ عنه تعصبهم وان يكونوا حزبا قويا يعارضه تحيل فى ان ينشر بينهم اسباب الفشل والفتن فاشتغل باضرام نيران العداوة القديمة والمنافسة التى هى من طبائع اى حكومة اقطاعية والتى كانت اوقدتها الغيرة واستمرت بين اعظم عيلات المملكة ولاجل نجاحه فى هذا المقصد استعمل جميع انواع الدسائس والحيل والمخادعة والتدليس التى اقتضتها سياسته الخبيثة المبنية على التدليس والخيانة فحصل له فى ذلك غاية النجاح والظفر حتى انه فى الشدائد التى كان يلزم فيها للاشراف الثبات واتفاق الكلمة لم يظهر منهم فيها سوى الضعف والفشل الا فى مبدء حكومة هذا الملك فانهم اظهروا القوة والعزم

مطلب زيادة عدد العساكر المنتظمة

وفى مدة اشتغاله بتجريد الاشراف عن مزاياهم لا زال يزيد شوكته ومزاياه

الملوكية فهم بترتيب فرقة عسكرية كافية لكي يأمن بها من قيام رعاياه المتألمة منه فى الباطن ولاجل تجهيز هذا المقصد اهب العساكر التى كان قد جمعها ابوه وجعلها مستعدة تحت الطلب واضاف اليها ستة آلاف من عساكر السويسة وجعلهم من ماله فصاروا بمهارتهم اعظم عساكر اوروبا المشاة سطوة وشجاعة واحسنهم تعلما وتربية وضبطا وربطا فحملته غيرته الطبيعية التى هى من شأن الظلمة الطاغين على ان يأتمن هؤلاء العساكر الاجانب المستأجرين الذين اعدهم آلة تقوية الظلم وجعلهم انصارا واعوانا لشوكته الجديدة حتى انه فى اواخر سنى حكمه جعل منهم عدة عظيمة فى معسكر واحد تنتظر اوامره

مطلب
زيادة ايراداته الملوكية

ولما رأى انه يلزم له اموال كثيرة ومبالغ جسيمة لمصاريف هذه العساكر الزائدة ومصاريف المشروعات التى كان يحدثها بذكاء فطنته وعدم طمانينته اهتم بابقاء الحق الذى جعله ابوه لنفسه من ان له ان يستقل بجميع مرتبات وفردبا وامره من غير احتياج الى رأى ارباب مشورة العموم بل اهتم بتوسيعه والزيادة فيه عما كان عليه اولا فكان ذلك منشأ كافيا لما يحدث فى المملكة من المصاريف

مطلب
حذقه ونباهته التى بها عرف ان يسوس مشورة العموم وهى مشورة وكلاء المملكة

وكانت حقوقه ومزاياه وان بلغت مابلغت مالا تكفى دائما فى تجهيز مقاصده ومطالبيه ولكن كان يستدخل ذلك بالتحيل والتدبير فكان اول ملك فى اوربا عرف ان يحكم الجمعيات العظيمة التى اقتضت طريقة الحكومة الالتزامية ان يفوض لها فى ايراد المملكة ومصرفها وهو ايضا اول من علم ملوك اوربا السر المشؤم فى التعدى على الحرية العمومية بالابتداء بافساد منبعها المستمدة منه فاستعمل الشوكة والحيلة ليكون اصحاب ارباب تلك الجمعيات على رأيه ثم افسد بعضهم بالاكرام وبعضهم بالتهديد والتخويف * ومما احدثه من التغييرات الجديدة فى كيفية المذاكرات فى المشاورة وصار له الكلمة العليا على الجمعية بحيث ان ارباب الجمعية الذين كانوا قبله يذبون عن حقوق الامة واملاكها صاروا من وقتئذ اعوانا يستعين بهم على اجراء مقاصده الخبيثة

وحيث لم يكن اذذاك فى البلاد من يقدر على معارضة هذا الملك فى ظلمه وجوره استمر على جباية الخراج الذى كان قدرتبه ابوه ولم يقتصر عليه بل زاد فيه حتى بلغ مبلغا تعجب منه سائر اهل عصره

مطلب فى توسيع حدود المملكة الفرنساوية

ولم يكتف لويز المذكور ايضا بزيادة شوكة الملك ومنويانه بل وسع التزاماته الملكية باراض اكتسبها بطرق مختلفة فاشترى اقليم روسيلون وآل اليه اقليم پروونسة بوصية الامير كرلوس دنجو وبعد موت كرلوس لوتمرير (اى المجازف) تغلب قهرا على اقليمى برغونيا وارتواس اللذين كانا لهذا الملك ففى مدة حكومة ذلك الملك رجع الى فرانسا جميع اقسامها القديمة وبسياسته الجافية العويصة كسر انف الكبار الملتزمين بل جدد حكومة تكاد ان تكون مطلقة جورية تقرب فى الظلم من حكم اهل المشرق

مطلب اكتساب الحكومة الفرنساوية النشاط والتصدى للمشروعات

ومع ان حكومة هذا الملك اضرت بحرية الرعايا فالقوة التى اكتسبها والوسائل التى دبرها والاستبداد بالرأى المطلق الذى سعى فى تحصيله لنفسه لاجل تدبير مقاصده او تنجيزها كل ذلك اعان على تقوية ادارته وسعيه واجتهاده فمن ذلك انه عقد مع جميع دول اوربا مشارطات وكان يلاحظ سائر حركات ما بجواره من الممالك ويتداخل فى جميع مهمات امورها السياسية اما بصفة كونه اصليا فيها او معينا وكانت عزماته سريعة الانجاز واعماله قوية شديدة وكان دائما متأهبا الان يجمع عند الحاجة جميع قوى مملكته وان يسيرها ويوجهها اينما شاء وكانت شوكة سلفه من الملوك دائما مغلولة ومضيقة بغيرة الاشراف واما من وقت حكمه فتمكن ملوك فرانسا من بلادهم ووسعوا نفوذ كلمتهم فى البلاد الاجنبية وصاروا يعزمون كل العزم ويأخذون فى مشروعات كبيرة فى شأن الفتوح والتغلب على البلاد واجروا حروبهم مع قوة عجيبة لم يحصل مثلها فى بلاد اوروبا منذ ازمنة مستطيلة

مطلب فى الوسايط التى اجريت

وكان منوال هذا الملك مغريا غيره بحيث ان كلا من ملوك اوربا اقتدى به فى ذلك فبمجرد استوآء هنرى السابع على كرسى مملكة انكلترة اخذ فى خفض

في انكلترة لاجل تقوية شوكة الملك وتوسيع دائرة مزاياه

شوكة الاشراف لاجل تقوية شوكته وتوسيع دائرة مزاياه وحقوقه
ولكن كانت عوائقه اكثر من عوائق كرلوس السابع ولم يسلك سبيل النشاط
في مشروعاته كما فعل لويز الحادي عشر وذلك ان كرلوس كان حصل له الظفر
التام والنصرة على الانكليز وانتزع عدة من اقاليمهم فبذلك حصل له الشرف
عند رعاياه وصاروا يأتمنونه ائتمانا كليا بحيث امكنه ان يتجاسر على
تغيير في القوانين القديمة من غير ان يصل اليه ضرر في ذلك ولما كان لويز عاقلا
جسورا ازال جميع الموانع التي كانت تحول بينه و بين مقصوده بخلاف
هنري المذكور فان حق استيلائه على المملكة كان متنازعا فيه وكان رعاع
الاهالي مستعدين دائما للخروج والقيام عليه ولما عرف بالحروب الطويلة
المدنية التي كان فيها للاشراف مظهر بتوليتهم الملوك وعزلهم اياهم ان وسائل
الحكومة الملوكية قد تلاشت ودائرة مزاياها قد ضاقت بحيث لم يمكنه
في سلوكه الا الاحتراس التام والتخفيف اشتغل خفية بهدم اساس هذه
الشوكة المخوفة حيث لم يمكنه ان يبارزها بذلك من اول وهلة فصار
يدبر مقاصده مع الاحتراس و يتوانى في اجرائها ولكن كانت هذه المقاصد
كلها حسنة ملائمة للعقل وكان يترتب عليها ثمرات عظيمة فرتب قوانين
ترخص للبارونات بيع املاكهم ولو اوصوا بها لغيرهم ورتب ايضا قوانين
منع بها الاشراف ان يستأجروا من اموالهم عساكر كثيرة لخدمتهم يتقوون
بها او يخرجون عن طاعة الملك واعان الاهالي والزراعة والتجارة وصارت
رعاياه تتمتع مدة حكومته التي طالت بالمنافع التي تنشأ عادة من الفنون
الصلحية والامن وعوّدهم على حكم وتدبير منتظم بحيث كانت القوانين
والاحكام فيه مجراة مع الثبات والابرام وبهذه الوسائل العديدة المتنوعة
احدث بطريق خفي في قوانين الحكومة الانكليزية جميع ما هو مساعد
من التغييرات لتوسيع مزايا الملك وتأكيد حقوقه تمامات الا وقد ترك
لمن بعده شوكة عظيمة بحيث عدّ بها من اكثر ملوك اوروبا تصرفا وصار له اقتدار
على ان يأخذ في المشروعات العظيمة و يجريها

مطلب
تقوية الشوكة الملوكية فى اسبانيا

ومثل هذه التقدمات للشوكة الملوكية حصل فى اسبانيا فا كتسب ملكها شوكة عظيمة وكان ذلك من عدة اوجه انضمام مملكتى اراغون وقسطيلة الى بعضهما بزواج الملك فرديننـد بالملكة ايزابيلة والفتوح الفاخر لاقليم غرناطة مدة حكمهما فان بهذا الفتوح انقرضت دولة الاسلام التى كانت خطرة على هذه البلاد وقيادة الجيوش العظيمة التى كانت محفوظة حينئذ على الدوام ومتجهزة لتكميل هذه الغزوة وما كان من الحزم والثبات فى تدبير الملك وزوجته وادارتهما والحيلة التى عرفا بها ان لا يضيعا فرصة مّا فى اضعاف الاشراف وتوسيع مزاياهما وحقوقهما فكل ذلك رفعهما فى الشوكة والصولة الى درجة لم ينلها احد من اسلافهما نعم هنالك عدة اسباب سيأتى ذكرها فى غير هذا المحل اعانت على بقاء الحكومة الالتزامية وحفظها فى مملكة اسبانيا وتأخرها فيها اكثر من مكثها فى فرانسا وانكلترة فانه فى زمن بقائها فى مملكة اسبانيا كان ملوك هاتين المملكتين اوسع تصرفا من ملك اسبانيا ولكن جبر فرديننـد وايزابيلة بعقلهما وتدبيرهما ما كانا فاقديه من الشوكة والقدرة المطلقة وتحيلا كل التحيل فى كونهما يثبتان لانفسهما جميع حقوقهما الملوكية حتى بلغ منهما ذلك ان صار فرديننـد اهلا لان يتم مع النجاح العجيب جميع الغزوات العظيمة التى شرع فيها مع البلاد الاجنبية

مطلب
عدة حوادث امكن بها للملوك ان يجروا شوكتهم الجديدة التى كانوا اكتسبوها

وبينما كان الملوك يشتغلون بتوسيع دائرة المزايا والحقوق الملوكية وبتجهيز الوسائط التى بها يمكنهم جمع قوى ممالكهم وادارتها كيف شاؤا اذ حصلت عدة حوادث اعانتهم على اجراء شوكتهم الجديدة التى كانوا اكتسبوها حينئذ فعما قليل تصدوا للمشروعات عظيمة ووقعت بينهم المشارطات والمصالحات بحيث ان اغراض اعظم ملل اوروبا ومصالحهم صارت بالتدريج مرتبطة بعضها بروابط مشتركة وحدث بينهم على التدريج مذهب سياسى عظيم حرض باقى الملل الاوروبية بعد قليل من الزمن على الانتباه والتيقظ

مطلب
زواج وارثة عائلة برغونيا الملوكية

فكانت اول حادثة شهيرة بعد خليتها فى تغير حالة اوروبا هى زواج بنت كرلوس لوتمور التى انحصرت فيها وراثة عائلة برغونيا الملوكية وكان ابوها كرلوس المذكور قد عرض قبل موته زواجها على عدة من الامراء وكان الحامل له على عرضها عليهم تكليفهم باعانتهم اياه فى مقاصده ومشروعاته التى كانت تسولها له نفسه الطماعة وخوفه من عدم تنجيز مقاصده

فكان هذا الزواج مأربا سياسيا لكثير من الامراء حيث عرفوا ان فيه غبطة عظيمة وهى اكتساب التزامات هذه العائلة واملاكها المتسعة التى هى اغنى الاراضى الجيدة الزراعة التى كانت وقتئذ أمام جبال ألبه فلما اختطفته المنية

خمسة فى شهر كانون الثانى سنة ١٤٧٧

فى غير ابانه آلت هذه الاشياء الجسيمة لبنته المسماة مارية ذى برغونيا فرغب فى هذه الاميرة جميع امراء اوروبا وصار كل منهم يبدى غرضه فى زواجها ويود ان تختاره بعلا

مطلب
ملحظ لويز الحادى عشر فى زواجها

وكان متصلا بمملكة فرانسا عدة من اقاليم هذه الاميرة لانها كانت فى الاصل من تلك المملكة وفصلت عنها والظاهر ان هذا كان حاملا للويز الحادى عشر على الرغبة فى مصاهرتها وكان لا يشك فى ان جميع ما يعرضه فى شأن ذلك مما يكون لا تقالا بد من قبوله احسن قبول حيث ان هذه الاميرة كانت من اتباع مملكته وانها من نسل ملوك فرانسا ولم يكن عنده ما يناسب لهذا المعنى الا شيأن احدهما ان يزوجها للدوفين اى ولى العهد بعده والثانى تزويجها لقونتة أنغوليه وهو امير من نخد المملكة الفرنساوية فزواجها بالاول كان ينشأ عنه اضافة املاك هذه الاميرة الى مملكة فرانسا وتصير بذلك فرانسا اقوى ممالك اوروبا ولكن كان هنا فرق كبير بين سن كل من مارية وولى العهد حيث كان سنها عشرين سنة وعمره ثمانية اعوام وايضا قد اعلن الفلمنكيون بانهم صمموا على ان لا يختاروا ملكا ذا شوكة قوية تضر بحريتهم لا سيما وكانوا يخشون ان يقعوا تحت حكومة لويز الرديئة وطغيانه وكانت هذه العوائق شديدة بحيث لم يتفكر احد فى غلبتها والظهور عليها بخلاف زواجها بالثانى فكان أسهل من ذلك بكثير بل كان يتراءى من مارية الميل الى التزوج به

ولوحصل هذا الزواج لترتب عليه منع وقوع مخلفات عائلة برغونيا فى ايدى دولة من اخصام الدولة الفرنساوية ولترك قوستة أنغوليمه طوعا اوكرها للويز فى نظير سعيه فى زواجهما املاكا ولكن حيث كان لويز متعودا منذ زمن طويل على سلوك طريق التعسف فى سياسته المبنية على المخادعة لم يمكنه ان يميل لما هو مبنى على السهولة والحكمة فكان يميل كثيرا الى المكر والخداع بحيث لم يتخذ ذلك وسيلة لمجرد تنفيذ اغراضه بل كان يجعله المقصود بالذات فى جميع افعاله ومشروعاته فبضميمة هذا الاصل الى مذهبه فى كونه لا يرضى ان احدا من رعاياه يعظم ويعلو شانه بل ربما كان يكره عائلة برغونيا ويريد ظلمها واضعافها اهمل هذه الفرصة التى كان يمكن لادنى منه فى النباهة والنشاط ان ينتهزها ويجنى ثمارها فضل عن منهج الحق فى ذلك وسلك سبيلا اوفق بطبعه وعقله

مطلب

فيما عزم عليه لويز الحادى عشر من الامور العجيبة فى هذا الشان

فعزم لويز حينئذ على ان يتغلب بالجبر والقوة على اقاليم مارية التى آلت اليها من التزامات فرانسا الملوكية بل وعزم ايضا على ان يجول بالفتوح فى التزامات هذه الاميرة ولا يقتصر على اخذ ما كان لمملكة فرانسا سابقا وكان فى اثناء ذلك يسلك معها طرق الخداع ويلح عليها كثيرا فى زواجها بالدوفين مع انه غير ممكن ثم اظهر فى مدة ابرازه هذا المقصد واجرائه التحيل التام والتدبير العجيب فاكتسب بهذا الشهرة بمناقب الزور والكذب والخيانة والخداع مما يتعجب منه فى تاريخ مثل هذا الملك فبمجرد موت ابيها كرلوس سريعا كره وشن الغارة على البلاد الواطية وقصت له عدة من مدن الثغور بدفعه الرشا لحافظيها او باتفاقه مع اهاليها خفية ثم تشارط مع مارية مشارطة سرية مهمة فاظهرها لرعاياها ليبغضهم فيها وكان بينه وبين وزيريها مكاتبات سرية فيما لا ينبغى افشاؤه فأطلع ارباب مشورة فلندرة على مكاتبتهما فغضبوا جدا من خيانة هذين الوزيرين وامروا باقامة دعواهما حالا واذاقوهما اشد العذاب من غير ان يلتفتوا الى تضرع الاميرة ولم يرثوا لبكائها حيث كانت تعلم جميع ما وقع منهما واقرته فضربت

اعناقهما

اعناقهما بحضرتهما

وبينما كان لويز يسلك هذا المسلك الذى لايليق بمثله من عظماء الملوك وتغلب به على برغونيا وارتوازة وللبدن الموضوعة على شاطئ نهر السوم اذتشاورت اقاليم فلندرة مع الايمبراطور فردريق الثالث وعقدوا نكاح اميرتهم ماوية على مكسيليان ابن هذا الايمبراطور وهو ارشيدوق اوستريا فمجد هذا الامير وحسبه والمنصب الايمبراطورى الذى سيؤول اليه جعل هذا الزواج مشرفا لها ومع ذلك فبعد اراضيه الوراثية وعدم كثرة ايراداته جعل شوكته فى بلادها واهية جدا حتى كان لايخشى بأسه الفلمنكيون فى شئ

فبهذا الامر العجيب وحيلة لويز العظيمة صارت عائلة النمسا مالكة لوراثة عائلة برغونيا فكان انتقال هذه الوراثة اساسا للشوكة العظيمة التى انتهى اليها الملك شرلكان (كرلوس الخامس) فبهذا وجد نفسه مالكا لاراضى غنية اهلته للنجاح فى المشروعات الخطرة وهى حروبه مع فرانسا فظفر بمقصوده وحصل له فيها غاية النجاح فعلم من ذلك ان لويز كما كان اول ملك عرف ان يجمع قوى مملكة فرانسا وعساكرها الداخلية ويصيرها مهابة عند سائر ممالك اوربا كان ايضا اول من اعلى دولة صارت خصما لفرانسا حتى مكثت مدة قرنين وهى تبطل اغراض خلفائه وتعارضهم وتمنعهم التقدم

وهناك حادثة اخرى مهمة كان لها مدخلية وتأثير فى حالة اوربا مدة القرن الخامس عشر وهى غزوة كرلوس الثامن فى بلاد ايطاليا فقد نشأ عنها تقلبات عظيمة مأثورة محفوظة كالتى تكلمنا عليها آنفا وترتب عليها ايضا فى الاحكام الملكية والقوانين العسكرية تغييرات بينة جدا اكثر من الاولى حيث حملت اوربا على ان تتصدى لمشروعات اخطر مما كان يعمل قبل ذلك وربطت مصالح عدة دول مختلفة على وجه آكد مما كان سابقا وكان كرلوس المذكور ضعيف الرأى والهمة الا انه كان رضيا ولعل سهولة ادارته ولطف سياسته كانا سببا فى اعادة الملة الفرنساوية لانتعاشها كما كانت وقوة ادراكها بعد

مطلب
زواج مكسيليان بماريه وارثة برغونيا سنة ١٤٧٧

مطلب
تأثير هذه الحادثة فى حالة اوربا

مطلب
فى كون غزوة كرلوس الثامن فى بلاد ايطاليا هى السبب الثانى فى التغييرات التى حصلت فى بلاد اوربا

اضعاف ابيه لها بالظلم المنفر حتى كادت تتلاشى واخذ الاشراف ثانيا فى التولع بالخدمة العسكرية ورجعت لهم حميتهم الجبلية وبينما كان هذا الملك الصغير قلقا مستعجلا فى كونه يشهر حكومته ببعض وقائع ساطعة فكان متحيرا ومفكرا الى اى جهة يوجه عساكره اذا كثر التضرع والالحاح عليه لويز مغورس الايطاليانى المتشبث بالامور البوليتيقية فى صرف همته الى امر مخصوص استقر عليه امر الملك بعد اضطرابه لما ان لويز المذكور كان من ذوى الاعتبار فى المعارف والتدبير وان كان مفتضحا بمعايبه وذلك انه كان قد عزم على ان يعزل قريبه دوق ميلان من الحكومة ويتغلب على بلاده ولكن كان يخشى تحزب امراء ايطاليا عليه واعانتهم لدوق ميلان المذكور لما ان اغلبهم كان بينه وبينه لحمة النسب او المعاهدة فرأى انه لابد له من ناصر قوى الشوكة يعتمد عليه ويلتجئ اليه فالتمس ذلك من كرلوس الثامن ملك فرانسا ولكن لم يطلعه على مقصوده الحقيقى وانما اظهر له انه يريد توجه هذا الملك الى ايطاليا بعساكر عديدة ليتغلب على كرسى مملكة نابلى حيث ان له فيه حقا يطلبه بكونه وارث عائلة انجو الملوكية وذلك لان حقوق هذه العائلة فى مملكة نابلى كانت قد انتقلت من كرلوس دى انجو الذى هو قونتة مينة وپرونسة الى الملك لويز السادس ولكن لما تملك لويز المذكور من غير مهلة ولا تراخ جميع البلاد التى كانت تحت تصرف كرلوس حقيقة لا بمجرد كونه له الحق فيها لم يلتفت الى ان يفتخر بان يتخذ له لقبا ولو صوريا على بلاد اخرى يحكمها ملك آخر من غير ان يطلبها منه احد فابى ان يتعرض لذلك خشية ان يخاطر بنفسه فى مهالك السياسة الايطاليانية بخلاف ابنه فانه لما كان دونه فى الحزم واجسر منه دخل مع العزم الشديد فى هذا المشروع ※ ومن غير ان يلتفت الى ما عرضه له ارباب المشورة المجربون تجهز ليثبت فى هذا المقصد ويجزم مع الهمة التامة

مطلب

وسايطه التى تجهز بها لاجل هذا المشروع

ولاشك ان كرلوس هذا كان عنده شوكة كافية فى مثل هذه الغزوة ونجاحه فيها فانه ورث عن ابيه سطوة عظيمة وشوكة قوية بها كان حاكما متصرفا على

مملكة

مملكة فرانسا يعمل كيف يشاء لاسيما وقد كان وسع اراضي مملكته بما دبره من زواجه بوارثة بريطانيا الذي به صار سا كما على هذا الاقليم الابريطاني الذي هو آخر اقليم من الالتزامات الكبيرة بقي الى ذلك الوقت غير منضم الى مملكة فرانسا فجمع كرلوس عاجلا جميع العساكر اللازمة لتنجيز هذا المقصد وكان من مبدء شروعه في الامور الحربية مولعا باشهار نفسه ببعض فتوحات تولعا اشد بدا بلغ به انه ضيع منفعة محققة بامر موهوم وذلك انه ارجع اقليم روسيلون لفرديننذ ملك اسبانيا وتخلى لمكسيمليان ارشيدوق اوستريا عن جزء من املاكه التي في اقليم ارتوازة وكان ذلك لمجرد ان لا يحصل منهما تعكير لفرانسا مدة غيبة عساكرها في ايطاليا

مطلب تجهيزاته

وكان تجهيز جيوش اوربا في ذلك الوقت اي في القرن الخامس عشر مغايرا بالكلية لما بيناه في تاريخ شرلكان وذلك ان العساكر التي جهزها كرلوس لتنجيز هذه الغزوة العظيمة كانت غاية ما بلغت عشرين الفا ولكن ما رتبه في نقل المدافع والامدادات والذخائر على اختلاف انواعها كان كثيرا جدا بحيث يمكن مقابلته بالتجهيزات العظيمة التي تستدعيها حروب هذه الاعصر الاخيرة

مطلب نجاحه

فلما دخل عساكر الفرنساوية في بلاد ايطاليا لم يجدوا قوة تكون اهلا لمقاومتهم وذلك ان دول هذه البلاد المختلفة قبل هذه الغارة بزمن طويل كانت في راحة عظيمة ولم يغر عليها عدو غريب ابدا وكان لها في شأن المصالح الحربية والادارة الداخلية ترتيب مخصوص بها ولاجل التوفيق ما بين اغراض الملوك الذين كانت ايطاليا منقسمة بينهم وتعديل شوكتهم كثرت بينهم المشارطات المتتابعة التي لا تنتهي وكانوا يدبرونها مع دقة البوليتيقية المبنية على المحاولة والمبالغة في التحيل والمكر واذا سلكوا مسالك الحرابة كانت مشاجراتهم تتم بحروب هزلية وبنصرات مباحة لم يكن في مقابلاتها سفك دم احد

فحين بدا للايطاليين الخطر الذي هددهم تهطوا الى سلوك طريق التدليس

الذى كانوا متعودين عليه فاستعملوا جميع وسايط الدسائس لاجل ابعاد
هذا الخطر المهول ولكن لم يحصل لهم بهذه الوسيلة النجاح الذى
كانوا يأملونه وحيث لم يكن لهم من القوى العسكرية الاعساكر مستأجرة
ذات جبن ورخاوة ولم تكن متعودة الاعلى الحروب الهزلية داخلهم الرعب
والخوف بمجرد منظر هذا الحرب الجد وظهر لهم انه لايمكنهم مقاومة
شجاعة الفرنساوية وتجلدهم ففتحت ابواب فلورنسة ورومة وبيزة
لعساكر كرلوس بالسهولة من غير توقف * وقرب هذه الغارة المهولة
من بلاد نابلى ارعب ملك نابلى رعبا شديدا افضى به الى الموت ان صح
ما ذكره بعض المؤرخين وخلع من بعده المملكة بمذلة الرعب وهرب الثالث
من بلاده عند قرب الاعداء من الحدود وسار كرلوس بعساكره من سفح
جبال ألبه الى نابلى مع غاية السرعة فلم يجد فيهما من الموانع الا النادر
فسلكها كما يسلك بلاده وأخذ مع الراحة والسهولة مملكة نابلى ومن وقتئذ
صار يفزع منه ويهابه ملوك ايطاليا الآخرون وصار يرتب عليهم ماشاء
من الشرائع والقوانين

مطلب
ثمرة هذه الغزوة وبيان
منشأ مذهب التعادل
فى الشوكة والقوة

فبذلك انتهت هذه الغزوة الشهيرة التى ينبغى ان نعتبر كأنها ثمرة الشوكة
والقوة الجديدة التى اكتسبها ملوك اوروبا واخذوا فى اجرائها وقد كانت
نتائج هذه الغزوة عظيمة بقدر ما كان نجاحها عجيبا وذلك ان الايطاليين
لما لم يمكنهم حجز هذا السواد العظيم الذى نزل بهم كسيل العرم تركوه
فى مبدء الامر يجول فى اراضيهم كما يشاء فلم يلبثوا برهة من الزمان
الا واستشعروا انه لا يوجد فى ايطاليا دولة ايا ما كانت فيها اهلية لان تعد
قوى كافية لمقاومة قوى كرلوس الذى كان له اراضى واسعة وامارة امة حربية
ذات شجاعة وحماسة ولكن خطر لهم ان دول ايطاليا يمكنها بالتعاهد
مع بعضها ان تفعل ما لا تفعله اى دولة على حدتها بل لا يمكن ان تشرع فيه
فبادروا لى هذه المعاهدة التى لم يبق لهم سواها فى الخلوص من ربقة
أسر الفرنساوية او تخفيفه عنهم فبينما كان كرلوس المذكور ملك فرانسا

لعدم حزمه يضيع وقته بمدينة نابلى فى الاعياد واشهار نصراته بما لا طائل تحته او يشغل فكره بتخيل فتوح بلاد المشرق ويخرف بذلك اذ تحزبت عليه عصبة قوية من اغلب دول ايطاليا ومعضدة بالايمبراطور مكسيمليان وفرديننده ملك اراغون ونسيت هذه الدول المختلفة ما بينها من العداوة الخصوصية اوعلقتها الى وقت آخر لتجتمع بتمامها على عدو تشترك كلها فى عداوته لانه كان خطرا على كل دولة منها فكان هذا الاتحاد مخرجا لكرلوس من الدعة الخطرة فرأى انه لا امان له الا برجوعه الى مملكة فرانسا فجمعت تلك الدول المتعاهدة جيشها وكان مقداره ثلاثين الفا ليقطعوا طريقه ويصدوه عن الخروج ولكن لما كانت شجاعة الفرنساوية وجراءتهم تجبر قلة عددهم فتكوا بجيش الايطاليين وانتصروا عليهم نصرة فتحوا بها لملكهم طريقا آمنة توصله الى مملكته فبهذا فقد كرلوس جميع فتوحاته سريعا كما كان اكتسبها كذلك ورجعت طريقة حكومة ايطاليا الى ما كانت عليه قبل هذه الغزوة

مطلب فى ان مذهب التعادل صار فى مبدء الامر زمام الممالك فى ايطاليا ثم انتقل منها الى ممالك اوربا

والظاهر ان ما نتج عن هذه المعاهدة السريعة النجاح القاطع للنزاع ايقظ ملوك ايطاليا من سنة الغفلة واصلح حال سياستهم وارشدهم الى سلوك ما فيه مصلحتهم بعد ان كانت اغارة الفرنساوية احزنتهم وبددت شملهم وقد نشر هؤلاء الملوك المتعاهدون من وقتئذ على مصالح اوربا اصول فن التعاهد السياسى الذى لم يستعمل قبل ذلك الا لتدبير مصالح دول صغيرة فى نفس بلادهم لمجرد اغراض خصوصية فهم اول من ابتدع فى منع اى ملك كان ان يرتفع فى الشوكة الى درجة عالية لا تلايم الحرية العمومية وافادوا ملوك عصرهم اهمية هذا الاصل العظيم المبتدع فى السياسة الذى هو كناية عن حفظ توزيع القوة بين اعضاء جسم واحد مؤلف من دول اوربا حفظا تاما مؤسسا على الانصاف ففى مدة الحروب التى كانت مملكة ايطاليا ميدانها وفى اثناء المشاحنات التى كادت ان تكون دائمة وكانت ناشئة عن ضعف رأى لويز الثانى عشر وطمع فرديننده ملك اراغون ومكثت فى هذه البلاد من آخر

القرن الخامس عشر الى حكومة الملك شرلكان التفت ارباب السياسة الايطالية التفاتا كليا وبذلوا جهدهم فى حفظ تعادل الشوكة بين الفريقين المتجاورين وهذا القانون التعادلى لم يكن مقصورا على دول ايطاليا بل ادركت نفعه دول اخرى لمصلحة حفظ انفسها وبادرت اليه فعما قليل صار العمل به عاما ومن مبدء ذلك الوقت يمكننا ان نلاحظ ونتتبع ما حصل من تقدمات المخالطة التى ربطت ملل اوربا بعضها ببعض ربطا اكيدا لانه من ذلك الوقت عرفت اهمية تدبير تلك المعاهدات التى بها يتبصر فى العواقب حيث انه يلزم من الصلح يدرء بها الاخطار البعيدة الممكنة الحصول ومدة الحروب تدفع الفتوحات السريعة الموجبة للتخريب والدمار

مطلب
فى كون حروب ايطاليا جعلت ترتيب العساكر المنتظمة عموميا

وليس ذلك بمجرده نتيجة هذه الحروب التى اوقعها كبار ملوك اوربا فى ايطاليا بل نتج عنها امر آخر وهو تعميم التغيير فى تنظيم العساكر الذى بادر اليه الفرنساوية قبل غيرهم فقد احوجت تلك الحروب جميع الملوك الذين برزوا فى ايطاليا التى هى ميدان حرب جديد اهم الى ان يرتبوا عساكر ممالكهم على نسق عساكر فرانسا وذلك انه لما كان من الممكن ان ميدان الحرب يكون بعيدا عن الممالك التى تريد الاغارة عليه وكانت منفعة العساكر التى كان يتعهد بها الملتزمون للملك لاتفى بمطلوبه وليس لها عظيم جدوى رأى الملوك انهم محتاجون ضرورة الى استخدام عساكر منتظمة متعلمة لاتخرج عن العسكرية بحال بل تكون محكمة على طرف الميرى فسار كرلوس الثامن الى ايطاليا بفرقة خيالة كلها من البلكات العسكرية التى كان قيدها فى العسكرية كرلوس السابع وابقاها بعده لويز الحادى عشر وبفرقة من المشاة غالبها من عساكر الغسكونيين مسلحة ومعلمة على منوال العساكر السويسيين واضاف الى ذلك لويز الثانى عشر فرقة من العساكر النمساوية امتازت فى حروب ايطاليا وتعرف بالارط السود ولم يعتمد احد من هؤلاء الملوك على العساكر الالتزامية ولم يطلبها مع انه كان يمكنه جمعها وقيادتها على منوال العادة القديمة

وكذلك

وكذلك مكسيليان اومكسيميليانوس وفرد يند قد استعملا مثل هذه العساكر المنتظمة عند شروعهما في حرب ايطاليا ولم يعتمدا في شان تنجيز مقاصدهما الاعلى العساكر المحكمة

مطلب
كون اهالى اوربا عرفوا افضل العساكر المشاة في الحرب

وقد حصل عقب هذه الحادثة المتعلقة بترتيب العسكرية حادثة اخرى نشأت عن استخدام السويسيين في حروب ايطاليا وذلك ان عساكرهم وتعليماتهم العسكرية كانت مغايرة بالكلية لما جرت به العادة عند غيرهم من سائر ممالك اوربا ومنشأ ذلك انه في مدة الحروب الطويلة التي سفكت فيها دماء كثيرة وكان القصد منها الذب عن حريتهم ارسلت اليهم عائلة اوستريسيا الملوكية عساكر تضاهي عساكر غيرها من الممالك الكبيرة القوية الشوكة وكان اغلبها من الخيالة الكثيرة الاسلحة فلما رأى السويسيون انهم لفقرهم وقلة ملتزميهم وجدب اراضيهم وعقمها في ذلك الوقت لا يمكنهم ان يرتبوا جيوشا من الخيالة صالحة لمصادمة خيالة اعدائهم ولا ان يقوموا بمصاريفها تفرغوا بكليتهم الى ترتيب العساكر المشاة وجعلوا اعتمادهم عليها ولاجل ان يكون لتلك العساكر قوة على مصادمة فرسان اعدائهم اعطوا لكل عسكري منهم من اسلحة الوقاية والذب عن النفس درعا وخودة ومن اسلحة الاغارة رمحا طويلا ومزراقا وسيفا ثقيلا ثم جعلوهم ارطا عظيمة وصفوفا منضمة الى بعضها كانهم بنيان مرصوص بحيث كان اعداؤهم كلما توجهوا اليهم من اي جهة كانت لا يجدون امامهم الا جبالا رواسخ

فلم يمكن لهؤلاء الخيالة بوجه ما ان يزلزلوا اقدام المشاة السويسيين ولا ان يوقعوا الخلل في صفوفهم بل افسد المشاة عليهم جميع ما ابدوه للتغلب على بلاد السويسة وهزموا ايضا عساكر برغونيا الخيالة الذين لم يكونوا اقل عددا ولا قوة من خيالة فرانسا ولا دعى مشاة السويسيين اول مرة الى حروب ايطاليا بادوا جميع من تجاسر على مصادمتهم فبمثل هذه البراهين المفيدة الواضحة والوقائع التي دلت على وفور شجاعتهم عادت لهم شهرتهم القديمة ورسخ في الاذهان على التدريج ما كان قد تنوسي منذ زمن طويل من

ان الفضل للسويسيين فى الفنون الحربية لكن لما ثبت لهم الفخار والشهرة بمثل هذا النجاح وقع فى نفوسهم انهم بلغوا فى الشجاعة الدرجة القصوى وانه لا يستغنى عنهم فى اى مشروع كان فطغوا وبغوا وعتوا واعتوّا كبيرا فعند ذلك اشمأزت منهم نفوس الملوك الذين كانوا يستأجرونهم لدفع الملمات واشتغلوا بتحصيل وسايط تغنيهم عن هؤلاء الغرباء المستاجرين فبذل كل ملك جهده فى استكمال عساكره المشاة الملية (اى الذين من ملته واهل مملكته)

مطلب ترتيب العساكر المشاة الملية ببلاد المانيا

فشرع ملوك المانيا فى تحصيل هذا الغرض وسهل عليهم بسبب صلاحية رجالهم لان يكونوا من اقوياء العساكر لما فيهم من الشجاعة والتجلد أن غيروا على وجه السرعة فى عساكرهم تغييرا صاروا به كفوا للسويسيين فى الشجاعة والضبط والربط والمهارة العسكرية

مطلب ترتيب مثل ذلك فى فرانسا

واما ملوك فرانسا فلزم لهم فى تحصيل ذلك أن يمكثوا زمنا طويلا و يبذلوا جهدهم اكثر من ملوك المانيا حتى استمالوا عقول ملاهم الصعبة الى مثل هذه التعليمات واعتنوا اعتناء تاما بترتيب قوانين توجب احترام العساكر فترتب على ذلك انه منذ حكومة لويز الثانى عشر تنازل الاشراف عن دعاويهم القديمة وسمحت نفوسهم بالدخول فى الخدمة العسكرية

مطلب ترتيب ذلك فى اسبانيا

واما اهل اسبانيا فكانت حالتهم لا تأذن لهم ان يستعملوا غير عساكرهم الملية فى جنوب ايطاليا الذى كان ميدانا لغزواتهم العظيمة فى هذه المملكة ولم يقتصروا على اكتساب التعليمات العسكرية السويسية بل كملوها بامور اخرى حيث نظموا فى ذلك عساكرهم عساكر جديدة متسلحة بنوع ثقيل من اسلحة النار (يقال له الزنبلك ويضرب بواسطة الفتيل) فبذلك ترتب عندهم عساكر مشاة صار لها شهرة عظيمة وهيبة فى جميع اقطار اوربا حتى ان الافرنج مكثوا يخشون بأسها ويتهيبون منها مدة مائة وخمسين سنة

مطلب ترتيب ذلك فى ايطاليا

واما دول ايطاليا فتناقصت من عندها الشجاعة شيأ فشيأ واخذت تنسج على منوال من كان بجوارها من الممالك القوية الشوكة حتى حضروا اقواهم

العسكرية فى العساكر المشاة

ومن ذلك الوقت صارت ملل اوربا على اختلافها تظهر فى الحروب مع عساكر قوية مستعدة اكثر مما كانت لاى خدمة من الخدم العسكرية فى اى مكان كان وصار لها اقتدار على فتح البلاد وحفظها بعد فتحها

مطلب
فى ان حروب ايطاليا كانت سببا فى ازدياد الايرادات العمومية فى دول اوربا

ثم ان حروب ايطاليا التى وصلت امم اوربا الى تلك التغييرات التى قدمتهم فى الفنون الحربية كانت اول شئ افهمهم انه لابد للمشروعات العظيمة والحروب الطويلة من مصاريف جسيمة وعودهم على تحمل اثقال الجرائم والغرامات اللازمة لتلك المشروعات وذلك انه فى مدة ما كانت حكومة الاشراف والملتزمين باقية على شوكتها وكانت العساكر كناية عن اتباع هؤلاء الملتزمين يطلبهم الملك منهم عند الحاجة للهجوم على مملكة بجوارهم فيمكثون فى الحرب مدة قصيرة ليوفوا بما يجب عليهم من الحقوق لملكهم فى شأن الخدمة العسكرية كانت مصاريف الحرب قليلة حيث انه كان يكفى للملك فى تجهيزاته مشروعاته اقل امداد يعطى له فلما صارت ايطاليا ميدانا عموميا لعساكر ملل اوربا الذين كانوا يظهرون فيه بمظاهر الابهة والفخار ويتنافسون فى القوة العسكرية والفنون الحربية عظم امر الحروب وثقلت احمالها فلزم لذلك تجديد غرامات كثيرة فى كل مملكة من ممالك اوربا ليتيسر بها فى تحصيل المواد والادوات اللازمة للاغارات فى البلاد البعيدة وتكفى فى جامكيات العساكر المستمرة فى العسكرية ومؤنهم اللازمة لهم فى البلاد الاجنبية ومحاصراتهم لمدا ئن اعدائهم وممانعتهم عن مدائنهم

ولكن عظمت اطماع الملوك وصاروا يأخذون فى مشروعات بعيدة جدا بحيث كان يتعذر عليهم فى مبدء الامر ان يجعلوا على الناس جرائم وغرامات تقوم بالمصاريف التى كانت تستدعيها هذه المشروعات العجيبة فمن ذلك ان الملك كرلوس الثامن لما عزم على الاغارة على مملكة نابلى كانت المصاريف اللازمة لهذا المشروع تزيد بكثير على الغرامات العظيمة التى كانت تؤخذ

وقتئذ من مملكة فرانسا حتى انه قبل ان يصل الى ضواحى ايطاليا انفد ما كان معه من الاموال والذخائر الواسعة التى كان جمعها من مملكته حين كان له حقوق واسعة ومزايا كبيرة ولما كان لا يمكنه حينئذ ان يجعل على رعاياه غرامات جديدة لما ان الغرامات التى كانت مضروبة عليهم كانت متجاوزة الحد لم يجد وسيلة فى تنجيز عزيمته الا كونه يقترض من اهالى جنويزة المبالغ التى كانت لازمة له فى استمراره على السير الى بلاد ايطاليا ولكن لم يمكنه اقتراض ذلك منهم الا بربح جسيم وهو اثنان واربعون فى كل مائة وكان معاصروه من الملوك بهذه المثابة ايضا فكانت ايراداتهم لا تفى بمصاريفهم فمن ذلك الوقت اخذت الغرامات والجرائم فى الازدياد حتى وصلت محصولاتها زمن الملك شرلكان فى كل مملكة من ممالك اوربا الى مبالغ جسيمة جدا حتى بالنسبة الى حالة آخر القرن الخامس عشر وكان ذلك طريقا لافراط ملوك الاعصار المتأخرة فى الظلم فيها حتى وصلت الى الدرجة التى عليها الآن

مطلب
عصبة كبريه

ومما ينبغى التنبيه عليه من الحوادث السياسية التى حصلت قبل حكومة الملك شرلكان وكان لها دخل فى تغيير حالة اوربا عصبة كبريه وهى آخر الحوادث المذكورة وكان مقصد جميع الملوك الذين كان لهم دخل فى هذه العصبة اذلال جمهورية البنادقة وتقسيم اراضيها والتزاماتها

مطلب
منشاء هذه العصبة

وكان منشأ تلك العصبة هو ان قانون البنادقة كان موضوعا على قواعد متينة بحيث لم يعتره كبير تغيير منذ عدة قرون وكانت جمهورية البنادقة تدير مصالحها فى تلك المدة على حسب قواعد سياسية مشحونة بالحكمة والثبات واستمرت محافظة عليها ومواظبة على العمل بها من غير تغيير ولا تبديل ففاقت بذلك غيرها من سائر دول اوربا فوقانا كبيرا لما ان هذه الدول كانت تتغير آراؤها واعمالها واشكال حكوماتها وكذلك من كان منوطا فيها بالادارة والتدبير فبواسطة استمرار تلك الجمهورية على هذا المنوال امكنها توسيع اراضيها وصارت فى اسرع وقت اعظم شوكة فى ايطاليا وصارت اغنى

دولة فى اوربا واعظمها ثروة بسبب اتساع تجارتها ومحصولات فبريقاتها النافعة المرغوب فيها ورواج أنفس البضائع المشرقية عندها حيث لم يكن يشركها احد فيها

فلما عظمت شوكة البنادقيين وقع الخوف والغيرة فى قلوب مجاوريهم وصار اعظم ملوك الافرنج يحسدهم على ثروتهم وغناهم حيث كان يشق عليه ان يرى آحاد هذه الجمهورية تضاهيه فى عظم المبانى ونفاسة الامتعة والملابس وظرافة المائدة وعظم رونقها فشرع البابا جاليوس الثانى فى تحزيب عصبة على اهل البنادقة وهو وان كان فى المعارف كاسلافه من البابات الا انه كان يزيد عليهم فى الطمع والشره فدبر فى نفسه ما يكون ملايما لطباع الملوك فى استمالتهم اليه فاوقع الخوف فى قلوب البعض والشح فى انفس الآخرين حتى توسل بذلك الى أن حزب على تلك الجمهورية عصبة تعدّ من اخوف التعصبات التى حصلت فى اوربا واعانه على ذلك ايضا مقتضيات احوال اخرى لا حاجة لنا بها فى كتابنا هذا

مطلب سرعة نجاح المتعصبين

وكان ايمبراطور المانيا وملك فرانسا وملك اراغون والبابا جاليوس الثانى هم رؤساء تلك العصبة التى اقرها اغلب ملوك ايطاليا وكان اول ملك منهم يأمل أن يكون له نصيب فى سلب تلك الجمهورية التى استصوب تخريبها جميع الملوك وكان يمكن لاهل البنادقة أن يمنعوا هذه الاغارة المهولة عن انفسهم بالكلية او يضعفوا شدة هولها الا انهم كانوا من الجسارة فى دعوى عريضة لم يوجد نظيرها فى تاريخهم فلم يزاولوا شيأ بعد تلك الاغارة عنهم بل ظهرت شجاعة الفرنساوية على جميع ما اعدوه من الاحتراسات لامن جمهوريتهم وانقرض فى واقعة جيار ادادة الجيش الذى كان يعول عليه فى حماية الجمهورية وتغلب جاليوس الثانى على جميع المدن التى كانت للبنادقة فى الحكومة القسيسية واعاد فرديننداى مملكة نابلى جميع المدن التى على سواحل كلابرو كان قد تغلب عليها البنادقة وقدم مكسيمليان مع جيشه الى البنادقة من جهة واغار عليها الفرنساوية من جهة اخرى

فلما رأى اهل البنادقة انهم محصورون بين هؤلاء الاعداء الكثيرين ولم يجدوا لهم حليفا يأخذ بناصرهم نزلوا عن دعوى الجسارة والعنفوان الى اليأس والقنوط وتركوا سائر البلاد التى كانت لهم فى الارض القارة وانحصروا فى داخل اسوار تخت مملكتهم حيث لم يجدوا ملجأ غيره وأيسوا مما عداه من الحصون والمدن

مطلب وقوع الفشل بينهم

ثم ان سرعة نجاح هؤلاء المتعصبين عادت عليهم بالضرر وذلك ان ارباب هذه العصبة كانوا على قلب رجل واحد قبل وقوع فريستهم فى ايديهم وعند الاغتيال عادوا الى ما كانوا عليه من الغيرة والعداوة والبغضاء فلما رأى البنادقيون علامات الفشل بين اعدائهم تنورت قلوبهم باشعة الامل والرجاء فاحيوا فى مشاورهم ميت الحكمة والثبات اللذين كانا من شأنهما وسلكوا بهما مسلكا جبر من بعض الوجوه الخلل الذى لحقهم لفتور همتهم وعدم احتياطهم فاستردوا من اعدائهم بعض البلاد التى كانوا فقدوها وسكنوا اغيظ البابا جاليوس الثانى وملك أراغون ببعض عطايا جليلة النفع ارضت انفسهما وبالجملة فلم يزالوا فى المداهنة حتى توصلوا الى حل تلك العصبة التى كادت تخرب جمهوريتهم وتبيدها

مطلب حوادث اخرى نشأت عن سياسة المتعصبين وطمعهم

ولما نجح جاليوس فى هذه العصبة التى دبر امرها بنفسه داخله الكبر والتعاظم ظانا انه لا يشرع فى مشروع الا ويتم فعزم على ان يطرد من ايطاليا جميع الملوك الاجنبية فاستعمل جميع وسائطه السياسية لاجل تنجيز هذا الغرض الذى هو جدير بان يصدر عن مثل تلك القريحة الواسعة الجسورة فلغار اولا على الفرنساوية لانهم كانوا مبغوضين من عدة وجوه عند الايطاليين اكثر من غيرهم من الدول الاجنبية التى كان لها بلاد فى مملكة ايطاليا ولعظم مهارة هذا البابا وتحيلاته عرف أن يستميل قلوب اغلب الملوك الذين كانوا فى عصبة كمبريه الى أن يديروا اسلحتهم نحو لويز الثانى عشر الذى كان معهم فى تلك العصبة واستمال ايضا الملك هنرى الثامن وكان قريب عهد بالولاية على مملكة الانكليز الى اعانته على تنفيذ غرضه فاغار الملك المذكور

على

على مملكة فرانسا ولكن صار لويز يدافع عن نفسه مع التوتو والشجاعة هذه العصبة المهولة الغيابية ووقعت المحاربة بينه و بينهم عدة مرات في ايطاليا و ضواحى اسبانيا و اقليم بيكارديا و كانت النصرة والخذلان مترددين بين صفوف الفريقين ثم ضعفت قوته بكثرة اعدآئه واتساع ابواب الحرب التى كانت مفتوحة عليه و عجز عن مقاومة هذه العصبة التى كانت قواها وعساكرها تزيد على ما عنده باضعاف وكان رؤساؤها ارباب نشاط و تجلد على مكابدة المشاق فاضطر أن يعقد معهم عقدة مشارطات صلحية و يكف عن قتالهم فترك لهم جميع ما كان اكتسبه في ايطاليا ماعدا قلعة ميلان و بعض مدن قليلة العظم من يوقية ميلان.

مطلب كون هذه الحوادث ترتب عليها ازدياد المخالطات بين ملل اوربا

ثم ان ما وقع في ذلك الزمن الذى هو زمن فتن و تقلبات من المداولات والمعاهدات التى حصلت بين ملوك لم يكن بينهم قبل ذلك كبير اختلاط وارتباط كان سببا في ازدياد الارتباط بين ملل اوربا واتساع دآئرة المخالطة التى ذكرت انها من جملة ما نشأ عن حوادث القرن الخامس عشر وايضا لما عظمت مقاصد الملوك ومشروعاتهم وكانت الاراضى التى يتصدون للاغارة عليها بعيدة وكانت حروبهم طويلة شديدة التعاند اضطروا الى ان يبذلوا وسعهم في سلوك مسالك لم تكن في القرون الماضية قبلهم

مطلب كون الحوادث السابقة فتحت طريقا لحوادث القرن السادس عشر

وليست هذه الوقائع العظيمة والحوادث الجسيمة التى امتاز بها الزمن الذى هو موضوع تاريخنا هذا ناشئة عن خصوص طمع شرلكان وفرنسيس الاول ومهارتهما ومعاداتهما بل لها اسباب اخرى وهى ان ممالك اوربا كانت اذ ذاك قد اكتسبت تقدما عظيما في العلوم والادارة الداخلية و اكتسب ملوكها شوكة بحيث صار فيهم قدرة على ان يجمعوا من ممالكهم جميع العساكر التى يحتاجون اليها للحروب في الاقطار الاجنبية فبذلك اتسعت دآئرة مشروعاتهم الحربية وعظمت مساعيهم ومجهوداتهم اكثر مما كانت عليه وكان اول ما جربوا فيه شوكتهم الجديدة التى اكتسبوها هى حروب ايطاليا التى نشأ عنها أن صار كل منهم يدعى لنفسه خلاف ما يدعيه الآخر واثارت

بين الملل المختلفة نيران الشقاق والفشل فكانت منشأ لمشاجرات وحروب عديدة ترتب عليها تقلبات عجيبة فى جميع بلاد اوربا فمن ثم دلت جميع الامارات فى اوائل القرن السادس عشر على ان هذا القرن تكثر به الحوادث العظيمة وتنتشر فيه اعلام الوقائع الجسيمة انتهى القسم الثانى

(القسم الثالث)

فى الكلام على القوانين السياسية التى كانت فى دول اوربا الكبيرة فى ابتداء القرن السادس عشر

مطلب
فى ان قوانين ملل اوربا كانت متباينة تباينا كليا

قد سبق لك ذكر الوقائع الاصلية العظيمة التى بدخليتها وتأثيرها فى جميع دول اوربا اعانت على تكميل حكوماتها الداخلية وتحسينها وتوسيع دائرة اعمالها ومشروعاتها وازدياد عساكرها الملية ولم يبق علينا من الفوائد التى يتوصل بها قارئ كتابنا هذا الى مطالعة تاريخ شرلكان الا بيان القوانين واشكال الحكومات المدنية التى كانت عند من كان له شوكة قوية وتأثير كبير مدة هذا القرن من ملل اوربا ولنذكرها لك فى هذا القسم مفصلة كل ملة مع ما يخصها من القوانين والحكومة المدنية

واعلم ان القوانين والوقائع التى سبق ذكرها وان كان يظهر منها انها توجب الاتحاد فى اخلاق اهل اوربا لانها كانت تخرجهم من حيز الخشونة والتبربر الى التمدن والتأنس بطرق متحدة تقريبا الا انه طرأت عوارض اخرى ترتب عليها تباين كلى بين قوانينهم السياسية واختلاف فى اشكال حكوماتهم المدنية بان صار لكل دولة حكومة خصوصية لا تشبه حكومة غيرها من الدول ونشأ عن هذا الاختلاف فى الحكومات تغاير عظيم فى اخلاقهم ومقاصدهم

مطلب
بيان لزوم معرفة الحالة السياسية لكل ملة منذ حكومة شرلكان

ولا يخفى ان معرفة الحوادث الاخيرة ليست دون معرفة الحوادث السابقة فى اللزوم نعم وان كان ما ذكرته لك من الحوادث والاسباب التى عم تأثيرها فى احوال اوربا يعينك على ادراك منشأ المشابهة العظيمة التى ترى بين السياسات الداخلية والمشروعات العسكرية عند امم اوربا لكن اذا لم يكن

عندك

عندك معرفة صحيحة بصور الحكومات المدنية وكيفية ترتيبها اشكل عليك جزء كبير من تاريخ هؤلاء الامم فلا تعرف له وجها ولا سببا واما المؤرخون الذين تصدوا للتاريخ كل ملة بخصوصها فانما تعرضوا فى كتبهم لما كان مرغوبا بالاهل بلادهم ولهم فيه فائدة معتقدين ان اهل بلادهم يعرفون حق المعرفة اخلاق وطنهم وقوانينه الداخلية فبذلك لم يتعرضوا لتفصيل ذلك تفصيلا شافيا يكفى فى افادة الاجانب جميع الاسباب والمناسبات بين الوقائع التى ذكروها بخلاف ما اذا كان التاريخ يشتمل على حوادث كثيرة متنوعة فى بلاد مختلفة ولا يتعرض للبحث عن اصول قوانين تلك البلاد وحالتها السياسية فان ذلك يعد عيبا ونقصا بينا لما ان تلك الاصول تكسب من اطلع عليها ما يكون له به اقتدار على ان يعرف معرفة صحيحة سلوك الملل واحوالهم

ومع ذلك فلا يليق بهذا المختصر ان نفصل فيه جميع القوانين والحكومات الخاصة بكل امة لان شرح ذلك يطول بل نقتصر على ذكر الامور الكبيرة التى تمتاز بها كل حكومة عن الاخرى فان ذلك هو غاية ما يناسب موضوع هذا الكتاب ونهاية ما يلزم فى توضيح ما نحن شارعون فى سرده من الوقائع فنقول

مطلب حالة السياسة فى ايطاليا

كانت سياسة ايطاليا فى مبدء القرن السادس عشر مباينة بالكلية لسياسة غيرها من ممالك اوروبا وذلك انه حين كانت اوروبا منقسمة الى ممالك متسعة كانت ايطاليا منقسمة وحدها الى عدة ايالات صغيرة كل واحدة منها لها حكام تخصها وقوانين مستقلة عن قوانين الاخرى ولم يكن فى ايطاليا حينئذ الا مملكة واحدة وهى مملكة نابلى وكانت حكومة البلبات مغايرة لما عداها ولا تشبه فى شئ غيرها من الحكومات قديمة كانت او جديدة وكانت حكومة كل من البنادقة وفلورنسة حكومة جمهورية واما ميلان فكانت محكومة بامراء يلقبون بلقب الدوق

وكان اعظم حكام ايطاليا فى المنصب والمقام هو البابا ولم يكن الاقل فيهم بالنظر الى اتساع الاراضى وكان لاساقفة الكنيسة الكبرى او الاصلية

شوكة مساوية لشوكة البابا وربما كان لهم نوع امتياز فى المقام بسبب شرف الكنيسة التى هى تحت رياستهم وان لم يكن لهم خصايص ومزايا حقيقية الا بما يكتسبونه بفضل معارفهم اوزيادة تقوى يقتدى بها * وحيث ان مدينة رومة كانت دهرا طويلا وهى كرسى الامبراطورية الرومانية وتخت الدنيا بتمامها كان لاساقفتها امتياز وشرف على غيرهم لحظوا من الاحترام والتعظيم بالحظ الاوفر ولكنهم مكثوا عدة قرون من غير ان يكون لهم مزية اخرى او يدعوا لانفسهم مزية غير مزية الشرف التى توصلوا بها شيأ فشيأ الى أن صار لهم فى عقول الناس تأثير قوى بحيث صارت جميع اوربا منقادة لهم وتقبل احكامهم وتأخذها قضية مسلمة فادعوا ان احكامهم وافتاآتهم تكون على كافة الناس لانهم رؤساء الدين وانهم معصومون من الخطاء فى الاحكام لانهم خلفاء مارى بطرس مع ان هذه الدعوى محض هوس ومخالفة لاصول دين النصرانية غير انهم لما كان عصرهم عصر جهالة واهله قد طمست بصائرهم فيذعنون لكل مايسمعونه شيدوا على هذا الاساس مبانى دعواهم ووسعوا دائرتها جدا حتى صار امرها عجيبا فكان مايستقر عليه رأيهم فى المذاكرات القسيسية كأنه تنزيل من حكيم حميد ولم تكن شوكتهم مقصورة على مثل هذه الامور من احكام وافتاآت وغير ذلك بل كانوا يعزلون الملوك ويرخصون للرعايا فيما يجب عليهم لملوكهم من الطاعة ويعطلون مصالح الممالك بحيث لم يكن فى اوربا مملكة الا واضطربت وتعكرت من اطماعهم ولا كرسى الاوارتج من افعالهم ولا ملك الا وتزلزلت اقدامه من شوكتهم

مطلب
اصل شوكة البابا وازديادها

ولم يبق للبابات فى تصيير كلتهم نافذة بالكلية وتخريبهم للحكومات المدنية ليشيدوا حكومتهم على آثارها واطلالها الا ان يحصلوا شوكة دنيوية تكفى فى تعضيد احكامهم الدينية ولكن من سعادة البشر كانت اراضى البابات ضيقة جدا حين كانت احكامهم وافتاآتهم واسعة جدا حتى كان يظهر منها انها بلغت اعلى الدرجات فكانوا يرون من بعيد

مطلب
كون اراضى البابات لم تكن كافية لتأييد افتاآتهم الدينية

احبارا

احبارا مهابين او لى شوكة قوية بحسب الظاهر فقط واما بالنظر لكونهم ملوكا فلم يكونوا الا امرآء ضعافا لا شوكة لهم فى الواقع ثم قد اشتغلوا فى مبدء امرهم باستعمال وسائط توصلهم الى توسيع اراضيهم كالوسائط التى استعملوها الى توسيع احكامهم وافتاآتهم فتحيلوا على الامبراطور قسطنطين حتى أمدهم بعطية من عنده وكذلك كرلوس مانوس اوابوه بيان منحهم بعطية اخرى جعلوها وسيلة للتغلب على بعض مدن قريبة من مدينة رومة فلم يستفيدوا من هذه الوسيلة الا دعائية الكاذبة الاشيأ قليلا بخلاف مامنحهم به النورمنديون الذين فتحوا مملكة نابلى وكان لهم فى القسيسين اعتقاد حسن وما أسدته اليهم القونتيسة ماتلدة بجهلها فانه كان كبيرا واتسعت به اراضيهم اتساعا عظيما

مطلب
ضعف شوكة البابات حتى فى اراضيهم وممالكهم

ولكن لما اشتغلوا بتوسيع اراضيهم تفرغوا لذلك بالكلية ولم يلتفتوا لتوسيع شوكتهم بحيث يكون اتساعها واتساع اراضيهم على حد سوآء فترتب على ذلك ان عساكر كل ايالة من ايطاليا صاروا تحت طاعة ملكهم وفى مدة التقلبات والفتن التى حصلت فى القرون السابقة تغلب اقوياء الاشراف ورؤساء العصب الاهلية على حكومة عدة مدن من المدن الاصلية وحصنوها ورتبوا فيها عساكر مستأجرة من اموالهم وبعد ذلك بحثوا عن استقلالهم بانفسهم فبذلك صارت البلاد التى اكتسبتها الكنيسة مشحونة بحكام طاغين لم يبقوا للبابات من الحكم عليها الا الصورة والخيال

مطلب
ابطال شوكتهم رأسا بسبب اطماع اشراف الرومانيين

ولما اضمحلت شوكة البابات فى اغلب المدآئن التى كانت تحت حكم الكنيسة بتغلب هؤلاء الحكام عليها بحيث لم يبق لهم من الشوكة الا ماندر صار بارونات الرومانيين يعطلون حكم البابات فى نفس مدينة رومة وكان قد ظهر فى القرن الثانى عشر رأى جديد شاع عند كافة الناس وتمكن من عقولهم وهو انه حيث كانت وظائف القسيسين لا تتعلق الا بمحض الديانة ولا دخل لها فيما عدا ذلك فلا ينبغى ان يكون لهم شئ من الاملاك والالتزامات وليس لهم حق فى الافتاء والحكم بل يكونون على منهاج اسلافهم الذين هم اهل الكنيسة

الكبرى فلا ينتظرون فى معاشاتهم الا ما يأتى لهم من الاوقاف والصدقات التى يتبرع بها الاهالى فبادروا الى قبول هذا الرأى وتعضيده والعمل به جميع من كان يعلم طمع القسيسين وبخلهم واجتهادهم على وجه مذموم فى تحصيل الثروة وتقوية الشوكة وذلك ان بارونات الرومانيين الذين تلقوا ألم ظلم القسيسين وزهقت نفوسهم من شدة جورهم سارعوا الى العمل بمقتضى ذلك الرأى وشرعوا فى تخليص رقابهم من ربقة الاسر لما وجدوه من صعوبة الاسترقاق وثقله عليهم فبحثوا عن احياء ميت حريتهم القديمة بكونهم رتبوا مشورة السنت وخصوها بالكلمة النافذة وكانت قوة الاجراء والتنفيذ تارة تناط بواحد من اكابر اربابها وتارة باثنين منهم وتارة بحاكم لقبوه بلقب بتريس (وهو عند اهل رومة لقب لذى الفضل والشرف والواضع له قسطنطين) (سنة ١١٤١)

فعند ذلك بذل البابات وسعهم فى تعطيل ما لحق حكومتهم وشوكتهم من التغلب والتعدى عليها حتى ان واحدا منهم لما رأى ان مجهوداته لم تجد نفعا ولا طائل تحتها لحقه من الغم ما افضى به الى الهلاك وتجاسر آخر على الهجوم على ارباب مشورة السنت مع جماعة متسلحة فجرح فى المعركة جرحا كان سببا فى حتفه فبذلك انحطت درجة البابات واضمحلت شوكتهم ومكثوا مدة مستطيلة واحكامهم محصورة فى حدود ضيقة جدا فى جميع الاماكن حتى فى مدينة رومة التى هى دار اقامتهم وضاق بهم الامر حتى لو ارادوا أن يجروا حكما فى قضية واهية من غير اطلاع مشورة السنت اصعب عليهم ذلك

مطلب
ابطال شوكتهم ايضا بفتن الاهالى من (سنة ١٣٠٨) الى (سنة ١٣٧٧)

ولم يكن ابطال شوكة البابات ناتجا عن خصوص تعدى اشراف الرومانيين عليهم بل نتج ايضا عما اسلكه الاهالى من الفتن والدسائس وذلك انه فى القرن الرابع عشر اضطر البابات الى أن يهاجروا من مدينة رومة ويجعلوا دار اقامتهم مدينة اوينون فمكثوا بها سبعين سنة وكان اهل رومة يرون انفسهم انهم من نسل اناس فتحوا جميع الاقطار وشرعوا فيها القوانين والاحكام فاستنكفوا

ان يدخلوا

أن يدخلوا تحت طلعة اناس سلم اليهم البابات زمام حكومة تختهم وكانوا
قد تصدوا عدة مرات لمناقضة اوامر البابا الذى كان يحكم وقتئذ وكانوا
يستعدون لاشهار السلاح بمجرد ما يظهر لهم انه سيحصل حادثة لاتكون على
وفق مرادهم او امر يعود عليهم بادنى ضرر لاجل الذب عن حقوقهم وحمايتها
ثم ظهر فى اثناء القرن الرابع عشر رجل يقال له نقولة ويانزى وكان مجهول
النسب صاحب فتن ودسائس جامعا بين الطمع والفصاحة والجسارة أثار
الفتنة بين اهل رومة فطردوا منها جميع الاشراف وجعلوا حكومتها جمهورية
وانتخبوه رئيسا عليها وجعلوا له الكلمة العليا لكن طيشه ورداءة سلوكه
اسرعا فى ابطال هذه الحكومة الجديدة واعادة الحكم الاول وكان كلما وقعت
فتنة عادت بالضعف على احكام البابات وافتآتهم وشوكتهم وبالجملة فكان
طيش الاهالى وفتنهم وميل الاشراف الى الاستقلال سببا فى حصر شوكة
البابات وتضييق حكومتهم فلما ظهر اغرغوار السابع ومن بعده من البابات
ارباب الطمع نجزوا ما عجز عنه سلفهم من المشروعات العظيمة التى جعلتهم
مخوفين عند سائر الملوك والايمبراطرة ولم يكن ذلك ناشئا عن قوة عسكرية
فيهم ولا عن اتساع شوكتهم وانما نشأ عن خوف ملوك اهل اوربا من قدحهم
فى اديانهم وعن دسائسهم ومخادعاتهم وتحيلاتهم فى تقويم أناس يكونون
اخصاما واعداء لاى ملك ارادوا اذلاله او اهلاكه

مطلب
صيرورة البابات ملوكا ارباب شوكة قوية باعانة اسكندر السادس وجاليوس الثانى لهم

وقد اخذ البابات فى مشروعات عديدة ليذلوا بها من تعدى على المدن
القسيسية ويقمعوا اهل رومة ويزجروهم عن الفتن والدسائس لكن مكثت
هذه المشروعات مدة مستطيلة لم تجد شيأ حتى ظهر اسكندر السادس فاذل
بسياسته الخداعية المذمومة طائفة الاشراف وأهلك اغلبهم وجعل البابات
مستقلين بالاحكام فى دواهم ثم جاء بعده جاليوس الثانى فاضاف بكثرة طمعه
الى التزامات البابا التى بايطاليا التزامات اخرى كبيرة فبمثل ذلك صار
البابات على التدريج ملوكا دنيويين اولى شوكة قوية حتى انهم فى عصر
شراكان كان لهم من الاراضى والالتزامات اكثر مما يملكونه فى عصرنا هذا

مطلب
خلل حكومة البابات

وكانت بلادهم فى الزراعة وكثرة الاهالى احسن مما هى عليه الآن وكان لهم غرامات وجرائم على جميع اقسام اوربا فكانوا يفوقون بها على ما جاورهم من الممالك فى الثروة والغنى وكانت تحمل فى وسعهم التصدى الى مشروعات عظيمة وتسهل عليهم تجهيزها فى اسرع وقت

ومع ذلك فكانت حكومة البابات فى الواقع صالحة لاجرآء الفتاوى والاحكام الدينية اكثر من صلاحيتها لاجرآء المصالح الملوكية وحفظ الشوكة الدنيوية فكانت قوانين حكومتهم فيما يخص المصالح القسيسية او الدينية ثابتة مستمرة لا تتغير فكان كل من تولى من البابات يجرى على سنن من قبله لان التربية والعوائد القسيسية كانت متسلطنة فيهم بحيث كانت طبيعة كل انسان منهم تذهب الى ما يوافق طبيعة الوظيفة القسيسية وكان كل شخص منهم يوثر مصلحة طائفة القسيسين على مصلحته الخصوصية فهذه الوظيفة وان كانت تتغير الايدى القابضة على زمامها لم يكن يعتريها تغيير ولا تبديل فى كيفية جريانها فكانت الادارة القسيسية دآئما على نهج واحد بخلاف غيرها من الحكومات فانها كانت حينئذ مضطربة لا تستقر على حالة واحدة فى قوانينها وتدبيراتها وكان هذا الثبات وعدم التغيير هو منشأ نجاحها فى مشروعاتها العظيمة التى لا تصل اليها اطماع غيرهم من الناس

ولكنهم لم يسلكوا هذا المسلك المستقيم فى حكوماتهم الدنيوية بل كانت كغيرها من الحكومات الاخرى فى تغير المقاصد والمشروعات على حسب اغراض متوليها ومصالحه الخصوصية ولما كان من القوانين الجارية ان لا يقلد البابا بمنصبه الا اذا طعن فى السن طعنا بينا كان ولاة هذا المنصب يتغيرون عاجلا ولا يمكثون الامدة قصيرة فمن ثم كان وفر خزائنهم واهيا لا يضاهى غيره فى الحكومات الأخر وذلك ان كل من تولى من البابات كان يشتغل فى مدة حكومته القصيرة بمصلحة نفسه فكان لا يعلق آماله الا بما فيه منفعة نفسه وعائلته غير ملتفت لمصلحة العامة وفى الغالب كان من يتولى

بعده

بعدهم لا يشتغل الا بنقض ما رتبه سلفه
ولما كان القسيسون ناشئين فى الصلح ومتعوّدين من صغرهم على هذه السياسة التى امكن بها لديوان رومة أن يوسع دائرة حكومته الدينية ويحافظ عليها كان البابات يسلكون مسلك تلك السياسة ايضا فى مصالحهم الدنيوية فكانوا مستعدين لأن يسلكوا فى جميع افعالهم طرق التحيل والخداع اكثر من استعدادهم لان يسلكوا فيها مسلك القوة العسكرية فديوان البابات هو اوّل من جعل الخداع والتحيل واسطة فى تسليك المصالح واصلا يعتمد عليه فى ذلك حتى انه فى القرن السادس عشر صارت رومة تعتبر كانها اعظم مدرسة يتعلم فيها هذا الفن
وحيث كانت الوظيفة القسيسية لا تأذن للبابات أن يكونوا قائدين للجيوش ولا ان يحكموا بانفسهم العساكر التى فى اراضيهم لم يمكنهم حمل رعاياهم على حمل الاسلحة فكانوا لا يستعملون فى جميع حروبهم سواء كانت لمحض التغلب او للمدافعة عن انفسهم الا عساكر مستأجرة
ومن المعلوم ان الملوك الذين لا يعقبون ذرية ترث شوكتهم وممالكهم لا يهتمون بشأن المصالح العامة كغيرهم ممن له ذرية تخلفه فى ملكه ولما كانت مدة البابات قصيرة كما سبق ولم يكن لهم ذرية تخلفهم كانوا ينتهزون فرصة هذه المدة لمجرد مصلحة انفسهم و لا يعلقون آمالهم الا بتحصيل الاموال وجمعها ولا يلتفتون الى تنظيم دولهم وتحسينها ثم قد احدثوا بعض مبانى للزينة والمباهاة كى يبقى بعدهم آثار تدل على علوّ شأنهم وعظم منصبهم وربما كانت مقتضيات الاحوال تلزمهم باحداث امور نافعة لكن ذلك لم يكن الا لتسكين غضب اهل رومة وقطع السنتهم وما كان يخطر ببالهم أن يتصدوا الى مصلحة عامة يبقى نفعها لمن بعدهم فكانت مملكة مارى بطرس (اى مملكة البابات) اقبح ممالك اورباً ادارة واردأهم حكما ولو كان فى البابات انسان عفيف كريم النفس لامكنه فى مدة حكمه مداواة داء مملكتهم الذى نشأ من الادارة القسيسية وجبر ما لحقها من الخلل الذى اضرّ بها لكن بقى هذا الداء من غير

دوآموصار يأخذ فى الازدياد من قرن الى آخر حتى ادى الى انقراض دولتهم بعد تقدمها وازديادها

مطلب الفوائد التى اكتسبها البابات من جمعهم بين الشوكتين الدينية والدنيوية

وكان فى حكومة ديوان رومة امر غريب جدير بالتنبيه عليه وهو انه لما كانت الرياسة الدينية والرياسة الدنيوية مجتمعتين فى رئيس واحد كانت تعين احداهما الاخرى فى جميع المشروعات وكان بينهما من الاتحاد والارتباط ما لا يمكن معه انفصالهما فى الخارج بل ولا فى الذهن فكان اذا اضطر ملك ايا كان الى معارضة البابا فى مشروعاته الدنيوية من حيث كونه ملكا دنيويا منعه من القدوم على ذلك ما هو قائم بنفسه من اعتقاد وجوب احترامه حيث انه رئيس الكنيسة وخليفة عيسى (عليه السلام) واذا اتفق انه قدم على المعارضة والمشاجرة كان ذلك مع اشمئزاز نفسه ونفورها خشية ان تفضى به المعارضة الى التوغل فى الاساءة والايذآء وكان اذا ظهر له من البابا ادنى ميل الى الصلح بادر اليه واجتهد فى حصوله بل فى الغالب يكون هو الطالب له من اول الامر ولو كانت شروطه صعبة جدا فكان علم البابات ارباب الطمع بهذه المنفعة هو الحامل لهم على التصدى الى مشروعات خارجة بحسب الظاهر عن حد العقل فمن ثم كانوا يعتقدون ان ما لا تكفى شوكتهم الدنيوية فى تحجيزه من هذه المشروعات يمكنهم تحصيله مع السهولة والشرف باحترام الناس لمنصبهم الدينى ولكن لما كثر فيما بعد اختلاطهم وتداخلهم فى مشاجرات الملوك وفى حروب اوربا سوآء كان ذلك لانفسهم اولاعانة غيرهم اخذ ذلك الاحترام فى التناقص حتى اضمحل بالكلية وسقطوا من اعين الناس كما ستقف عليه فى عدة وقائع نذكرها فى تاريخنا هذا

مطلب فى بيان قوانين جمهورية البنادقة ومنشائها وتقدمها

وكانت جمهورية البنادقة بعد البابا اقوى ممالك ايطاليا ارتباطا بسائر اوربا ولا يخفى ان انعقاد هذه الجمهورية كان فى مدة اغارة الهونيين فى القرن الخامس وأن تخت مملكتها كان موضوعا وضعا غريبا حيث جعلوه فى الجزائر الصغيرة التى فى جون البنادقة وان صورة قوانين ادارتها كانت اغرب من ذلك واذا لم نعتبر فى حكومة البنادقة الا ما يتعلق بمصالح الاشراف

وخصايصهم فنقول ان القوانين المشروعة فى هذا الشأن هى اعظم ماشرع
من القوانين وان وظائف الشورى والتشريع واجرآء الاحكام كانت موزعة
على وجه حسن بحيث تعد من ملح السياسة واما بالنسبة الى ما يتعلق
بالرعايا المنقادين لقوانين تلك الحكومة فلايشاهد فيها الا حكومة
ارستوقراطية مشتملة على التعسف والغرضيات حيث تجعل الحكومة
بتمامها فى قبضة عدد يسير من اعضاء الجمهورية لاذلال بقية الناس
وظلمهم

مطلب
عيوب حكومة هذه الجمهورية لاسيما بالنسبة الى ترتيباتها العسكرية

ولا يخفى ان مثل هذه الحكومة لاتخلو عن الغيرة والحسد فان اشراف البنادقة
كانوا لاياتمنون رعاياهم فلم يأذنوالهم فى حمل الاسلحة وانما كانوا يحثونهم
على تعلم فنون التجارة والصنايع وكانوا يستخدمونهم فى الورش وفن الملاحة
ولابد خلوتهم فى العساكر التى كانوا يستأجرونها فكانت عساكر الجمهورية
كلها مستأجرة من الاجانب وكانت رياسة تلك العساكر لاتعطى للاشراف
خوفا من أن يصيرلهم فى العسكرية شوكة تضر بحرية العامة اوخشية انهم
اذا تعودوا على الرياسة وتمكن حبها من قلوبهم يشق عليهم عند انقضاء
الحرب أن ينخرطوا فى سلك الآحاد وينقادوا للاحكام وانما كانت الجمهورية
تقلدها العسكرى اجنبى وكان هذا ملايما لاطماع الرؤساء الايطاليانيين
الذين كانت تجارتهم فى الحروب والغزوات حيث كانوا يجمعون العساكر
ويؤآجرونها للممالك المختلفة مدة القرن الخامس عشر والسادس عشر
ولكن حيث كان الحامل للجمهورية على ارتكاب مثل ذلك انما هو الارتياب
واساءة الظن حملهم ذلك ايضا على عدم ائتمان تلك العساكر الاجنبية فعينت
مشورة السنت اثنين من الاشراف ليكونا مع العساكر فى وقت الحرب وكانا
يسميان عندهم باسم پرووديتور وهما شبيهان برسولى الحرب اللذين رتبهما
الفلمنكيون فى الاعصر الاخيرة وكانت وظيفتهما ملاحظة حركات رئيس
الجيش وملازمته فى سائر افعاله
ومن المعلوم ان الجمهورية التى تسوس نفسها بمثل هذه القوانين مدنية كانت

اوعسكرية لاتصلح لفتح البلاد فكانت لاتنجح هذه الجمهورية فى مشروعاتها الحربية مادامت رعيتها ممنوعة من حمل السلاح واشرافها محرومة من رياسة العساكر وكان ينبغى لها أن تتعظ من هذا الامر وتعلم ان الغرض الاصلى من الحكومة انما هو حفظ الدولة والامن العام غيران الجمهوريات وكذلك الملوك هم دائما عرضة لتسلطن الطمع فيهم وتمكنه منهم فان جمهورية البنادقة نسيت عيوب حكومتها وقوانينها ولم تلتفت الى مداواتها وعلقت امالها بالفتوحات ولكن النكبة التى حلت بها فى الحرب عقب عصبة كبريه دلتها على انه لاتسلك امة ايا ما كانت مسلكا يخالف كيفية حكومتها وادارتها الا ويحل بها النكال والوبال

مطلب عظم قوانينها البحرية الملاحية

وقد استبان من ذلك ان شوكة جمهورية البنادقة لم تكن ناشئة من قوة العسكرية وانما نشأت من تجارتها ومهارتها البحرية وذلك ان هذين الامرين كانا خاليين من الغيرة والحسد وليس فيهما مايعود بالضرر على الحرية فكان الاشراف متفرغين بكليتهم الى التجارة والخدمة فى السفن الحربية حتى دخلوا فى زمرة التجار والقبطانات وزادوا ثروة وطنهم بمهارتهم فى التجارة والصنايع ووسعوا اراضى حكومتهم بقوتهم البحرية

مطلب اتساع تجارتها

وصارت تجارات جمهورية البنادقة كنزا لايفنى حتى ان جميع ملل اوربا كانت تحتاج اليها وتأخذ منها بضائع البلاد المشرقية ومحصولات ما احدثته من الورش او اتقنته منها على وجه لم يوجد له نظير فى سائر ممالك اوربا وقد اكسبت هذه التجارة البارعة تلك الجمهورية اعانات جسيمة سترت عيوب قوانينها التى تقدم ذكرها وجعلت فى وسعها أن تقوم بمصاريف جيوش عديدة تكافى جيوش اعدائها بل ولا تكترث بجيوش اعظم ممالك اوربا حتى انها فى مدة الحرب الذى وقع بينها وبين الملوك الذين كانوا فى عصبة كبريه جمعت من الاموال مبالغ جسيمة جدا خارقة للعادة بحيث لو وجدت فى عصرنا هذا لتعجب منها غاية العجب ففى مدة ما كان ملك فرانسا يقضى ما عليه من فائض ما كان قد اضطر الى اقتراضه بالربح فى كل مائة اربعون وفى مدة ما كان الايمبراطور مكسيمليان

الشهير

الشهير لا اموال عنده و يبحث عمن يقرضه شيأ فلا يجد وبعدت هذه الجمهورية من يقرضها جميع ما تحتاجه بفائض يسير وهو خمسة على كل مائة
واما قوانين فلورنسة فكانت مباينة بالكلية لقوانين البنادقة لما انه تسلطن فيها عدم الضبط والفتن التى تنشأ عادة عن الحكومة الدمقراطية اى جمهورية الاهالى بخلاف البنادقيين فكانت جمهورية يتهم أرستوقراطية اى منوطة احكامها بالاشراف فهى صعبة لا ينشأ عنها ذلك ولكن كانت فلورنسة تجارية لا حربية لما ان قوانينها كانت مساعدة للتجارة وكان اهلها يميلون اليها بالطبع حتى ان كوزم دومدسيس الاول لما بلغ فى الثروة درجة عالية بما اكتسبته عائلته بالتجارة وكان كريم النفس سخى اليد ذا خصال حميدة صار له شأن عظيم عند اهل بلاده وتأثير كبير عند ارباب مشوراتهم فبذلك آل امره الى أن تقلد رياسة جمهورية فلورنسة من غير ان يحدث ادنى تغيير بل ابقى الدواوين وفروعها تحت ادارة من كان عليها من الحكام الممتازين بقدم عائلاتهم وشهرتها وكان ذلك على حسب الاصول الجارية عندهم فلم تتغير صورة الحكومة الجمهورية ولم يخرجه ذلك عن كونه من آحاد الاهالى
ثم انتقل الى ذريته من بعده جزء عظيم من شوكته وكانت حالة فلورنسة السياسية فى معظم القرن الخامس عشر غريبة جدا فكانت صورة حكومتها فى الظاهر باقية على حالها لم تتغير ومازال الاهالى مولعين بها و يميلون اليها كل الميل حتى انه فى بعض الاحيان ظهرت منهم حمية عظيمة فى الذب عن مزاياها ولكنهم اذنوا لتلك العائلة المخصوصة أن تتولى ادارة مصالحهم وأن تجرى الاحكام على وجه بحيث تكاد أن تكون مطلقة التصرف حتى كانها تقلدت بالشوكة الملوكية
ثم ان غيرة عائلة مدسيس وولع اهل فلورنسة بالتجارة سهلا على الجمهورية أن تجعل قواها العسكرية موازية للقوى العسكرية فى سائر دول ايطاليا وكان اغلب عساكر هذه الجمهورية التى تستعملها فى حروبها وغزواتها

من العساكر المستأجرة التي كان يأتي بها اليهم الرؤساء الايطاليانيون الذين تقدم ذكرهم بل كانت هذه الجمهورية تأخذ من هؤلاء الرؤساء على طرفيها

مطلب في قوانين مملكة نابلي

وكانت الحكومة الالتزامية في مملكة نابلي التي اضيف اليها حكم جزيرة سيسليا كغيرها من حكومات ممالك اوربا في العيوب والاختلال ثم زادت عيوبها وكثر اختلالها كثرة بالغة لانطاق بما حصل لهذه المملكة من الفتن الشديدة والتقلبات العديدة ولما كانت وراثة هذه المملكة مضطربة لاتثبت على حال واحد كان كرسيها في الغالب مشغولا بملوك اجنبيين وزال ما كان في قلوب اشرافها لعائلات ملوكهم من الارتباط والاحترام اللذين حصلت بهما المدافعة في كثير من الممالك الالتزامية عن الحقوق والمزايا الملوكية وحمايتها من تعسفات البارونات وزيادة على ذلك كان من يدعى ان له حقا في تاج المملكة ويطمع في حيازته يراعى اغراض من يجنح اليه من البارونات الذين يرى ان اعانتهم له امر ضروري لابدله منه فيزيد في خصايصهم ومزاياهم بهبات وافرة واقطاعات واسعة ويعينهم على مظالمهم الجائرة حتى ان الملك المتولى لايمكنه أن يزيد شوكته او ينقص شوكة الاشراف الامع الخطر والمجازفة لوجود من ينازعه في منصبه ويدعى استحقاق التاج الملوكي

فبمثل تلك الاسباب صارت مملكة نابلي اكثر ممالك اوربا فتنا وتقلبات وصار ملوكها اقل الملوك شوكة ثم ان الملك فرديننداالاول الذي كان تولى الحكم (سنة ١٤٦٨) اخذ في اسباب خفض الاشراف واذلالهم على التدريج ثم جاء ولده من بعده فظن انه يمكنه اذلالهم من اول وهلة مرة واحدة فاهلك اقوى البارونات شوكة واعلاهم كلمة معتقدا ان ذلك يسهل عليه تنفيذ غرضه ويجاسر على ارتكاب هذا الفعل السيء الذميم الذى تكلم عليه المؤرخون ولم يترتب عليه ما كان يأمله من اذلالهم بل كان سببا في اضطرام نار غضب الاشراف وشدة غيظهم وتقوية شوكتهم وعظم هولهم حتى ينبغي ان يكون

ذلك اقوى اسباب سرعة وسهولة فتح الملك كرلوس الثامن لمملكة نابلى .

مطلب ما وقع من المشاجرات فى شأن وراثة تاج هذه المملكة (سنة ١٢٥٤)

وقد وقع فى القرن الثالث عشر مشاجرات كبيرة وحروب كثيرة فى شأن وراثة تاج حكومتى نابلى وسيسليا ترتب عليها خراب هاتين المملكتين مدة طويلة وذلك انه لما مات الايمبراطور افردريق الثانى وكان له ولد من الزنا يقال له مانفروه ذبح هذا الولد اخاه الايمبراطور كونرادين وجلس محله على سرير مملكة نابلى وكان البابات يكرهون عائلة سوابه الملوكية كراهة شديدة فلم يكفهم عدم اعترافهم لهذا الولد بالملك بل اجتهدوا فى البحث عن أن يجدوا له خصما ذا شوكة قوية يخلعه من الملك وانضبط رأيهم لاجل هذا الغرض على كرلوس قونتة أنجو اخى سنت لويز ملك فرانسا وقلدوه حكومة نابلى وسيسليا لكونهما من التزامات الكنيسة فحصل لكرلوس النجاح فى مشروعته التى عزم عليها وذلك ان مانفروه قتل فى واقعة كانت بينهما وجلس كرلوس على سرير المملكة ولكنه بعد ذلك بيسير دنس هذا الفخر الذى اكتسبه حيث افضى به الظلم الى ان امر الجلاد بقتل الامير كونرادين وكان آخر عائلة سوابه ووارث تاج الملك وقد احرص هذا الامير الشاب عند موته على حفظ مقامه وعلو شأنه بحيث لم يظهر منه ادنى تذلل فكان بذلك يستحق ان لا يعامل هذه المعاملة السيئة وذلك انه اوصى وهو تحت المخرطة بوراثة الملك لبطرس امير اراغون الذى صار فيما بعد ملك اراغون وكان متزوجا ببنت مانفروه ثم نزع الكفوف التى كان يلبسها فى يديه وألقاها بين الاهالى وترجى منهم أن يسلموها لبطرس المذكور لتكون امارة شاهدة له بان هذا الامير وهبه حقه فى التاج فحمله الطمع وحب الانتقام فى تعظيم الاساءة التى لحقت للنصب الملوكى وهى قتل الامير كونرادين على أن يشهر السلاح ليستولى على المملكة ومن ذلك الوقت اضطرمت نيران الحروب والمشاجرات بين عائلتى اراغون وأنجو فى شأن تاج نابلى ومكثتا على ذلك نحو قرنين وفى اثناء تلك المشاجرات والفتن المشحونة بالخطايا والآثام التى لم يذكر مثلها المؤرخون فى شأن مملكة اخرى كان كرمنوه تلقى

(سنة ١٤٣٤)

دآئرا ما بين امراء هاتين العائلتين المتعاديتين ثم استقر الكرسى
بعد انقضاء حروب عديدة طويلة سفكت فيها دماء كثيرة لعائلة اراغون
ثم انتقل الى فرع زنا من فروع تلك العائلة

مطلب ادعاء كل من ملوك فرانسا واسبانيا المملكة نابلى (سنة ١٤٩٤)

ولكن مازالت ذرية ملوك عائلة أنجو باقية لم تنقرض وتطلب حقها في مملكة نابلى ثم بعد فونتة مينة وبرونسه الذى هو وارث تلك العائلة انتقل الادعاء وطلب الحق في تلك المملكة للويز الحادى عشر ومن بعده من ملوك فرانسا فجاب كرلوس الثامن جبال ألبه كما اسلفناه قائدا جيشا جرارا عازما على اثبات حقه في المملكة المذكورة وكان هذا الجيش اكثر قوة وعددا من الجيوش التى استعملها غيره من الملوك الذين ورث عنهم هذا الحق ومن المعلوم ان نجاحه في تلك الغزوة كان على وجه السرعة وكذلك قصر مدة استيلائه على المملكة وذلك ان افردريق وهو وارث فرع الزناء من ملوك اراغون عاد عاجلا الى الكرسى الذى طرده منه كرلوس الثامن فصرب كل من لويز الثانى عشر ملك فرانسا وفرديننند وكان من عائلة أراغون لاسبانيا متبايئة على افردريق لكون كل منهما يرى هذا الملك انما استولى على مملكة نابلى بمحض التعدى والغصب واتفقا على اقتسام المملكة بينهما فلما رأى لفردريق انه لا طاقة له على مقاومة هذين الملكين المتحزبين عليه لكونهما اقوى منه تخلى لهما عن مملكة نابلى فبعد أن كان لويز وفردیننند متفقين ومرتبطين ببعضهما لاجل فتح تلك المملكة وقع بينهما الفشل والشقاق عند اقتسامها واستحالت معاهدتهما عداوة وترتبت على هذا الشقاق الحرب بينهما وقد أظهر في ذلك الحرب رجل يقال له

(سنة ١٥٠١)

غونصلود وكوردو ومعارفه العسكرية التى قل أن يوجد مثلها وبها استحق لقبه الجنرال الاعظم بجرد الفرنساوية عن سائر ما كان لهم في مملكة نابلى وجعل فردیننند ملكا عليها من غير منازع ولكن كان نجاح الجنرال المذكور مبنيا عن بعض الوجوه على المخادعة والحيلة التى لا تصدر الا من كل جبان وتضييع حسن السيرة ما دامت متذكرة ومرسومة في الاذهان ثم بعد موت

فرد يندد ورثه ابنه شرلكان فى مملكة نابلى وممالك اسبانيا وحقه فى مملكة نابلى علانه لم يكن خاليا بالكلية عما يوجب المنازعة والمعارضة الا انه لا اقل من مساواته لحق الفرنساوية فيها

مطلب حالة سياسة دوقية ميلان

ثم ان دوقية ميلان لم يكن فى قوانينها وترتيباتها السياسية شئ جدير بالذكر هنا غير انه لما كانت وراثة هذا الاقليم المخصب هى السبب فى اغلب الحروب التى حصلت فى بلاد ايطاليا مدة حكومة شرلكان وجب الوقوف على اصل هذه المشاجرات واختبار ادعاء المدعين لحكومة هذا الاقليم فنقول

مطلب المشاجرات التى حصلت فى شأن وراثة دوقية ميلان

انه فى مدة المشاجرات الطويلة التى سفكت فيها دماء كثيرة فى ايطاليا وكان منشاؤها حزبى غوويلفيس وجيبلينس الشهيرين اكتسبت عائلة ويسكونتى نفوذ الكلمة عند اهل ميلان وذلك ان هذه العائلة لما كانت مرتبطة بالحزب الايمبراطورى وهو حزب جيبلينس كافأها الايمبراطور على نصحها فى خدمته بمنصب النيابة عنه فى بلاد ايطاليا وجعل ذلك مستمرا فيها ولم عليها ايمبراطور آخر حيث جعلها دوقات مدينة ميلان واقطع (سنة ١٣٥٤) لها اراضيها التزاما متوارثا ولما كان يوحنا ملك فرانسا فاقد الجاه ما حل بحكومته من النكبات العديدة الى البحث عن وسايط يحصل بها من الاموال ما كان محتاجا اليه رضى بتزويج احدى بناته ليوحنا غلياس من عائلة (سنة ١٣٩٥) ويسكونتى وكان اول دوق من دوقات ميلان وكان قد اعطى الملك المذكور مبالغ جسيمة من الاموال ورزق منها بنت يقال لها والنتينه ويسكونتى وهى التى تزوجها ابن خالها لويز دوق اورليان اخو كرلوس السادس الذى لم يكن له اخ سواه وقد اشترط فى وثيقة نكاح هذه البنت (والنتينة) التى اقرها البابا ان دوقية ميلان عند انقراض سلسلة الذكور من عائلة ويسكونتى تؤول الى ذرية والنتينة ودوق اورليان فلما مات فيليبش مارى (سنة ١٤٤٧) وهو آخر الورثة من عائلة ويسكونتى ادعى هذه الدوقية بعده جماعة يزعم كل منهم ان له الحق فى وراثتها فاثبت كرلوس دوق اورليان ان له الحق فيها بموجب وثيقة نكاح امه والنتينة ويسكونتى واظهر الفونس

ملك نابلي وثيقة تشهد له بان له الحق فيها بموجب وصية فيليبش مارى له يوما وقال الايمبراطور حيث انقرضت سلسلة الذكور من عائلة ويسكونتى وجب ان ترد هذه الدوقية لمالكها الاصلى لتنضم الى الايمبراطورية لكن لما كان اهل ميلان يميلون الى الحرية لانها كانت منتشرة فى سائر دول ايطاليا لم يرضوا بواحد منهم وجعلوا حكومتهم جمهورية

ولكن فى اثناء تداعى هؤلاء الملوك وتنازعهم فى وراثة هذه الدوقية صار ما كانوا يتنازعون فيه غنيمة لرجل لم يكن يتوهم فيه انه يصدر عنه منازعة فى هذا المعنى وذلك أن ياكس سفورس بعد ان كان من آحاد الفلاحين صار بمعارفه وشجاعته من اعظم الرؤساء الايطاليانيين واقواهم شوكة وامتيازا وكان له ولد من الزناء يقال له فرنسيس سفورس خلفه من بعده على رياسة الطائفة الطغشونية التى كانت تحت لوآء ابيه وتزوج بنت من زناء آخر دوقات ميلان فبنى على هذا الاصل الواهى مازعمه من ان له حقا فى دوقية ميلان ومازال يعضد دعواه بقوته ومهارته العجيبة حتى استولى على كرسى هذه الدوقية وصار يسلك فى احكامه فيها مسالك الحكمة والحزم حتى أنسى اهل ميلان أن حقه فيها كان واهيا ثم انتقلت بعده لابنه ومنه الى حفيده من غير أن يعارضهما احد فى ذلك الا ان الاخير قتله اخو جده المسمى لودوويق وكان يلقب بلقب مور فتغلب على دوقية ميلان واثبت حقه فيها بتقليده بها من الايمبراطور مكسيمليان (سنة ١٤٩٤)

وكان لويز الحادى عشر بميل الحمى كان فيه اذلال اقاربه من الامرآء ويستحسن من فرنسيس سفورس معارفه السياسية فمن ثم لم يأذن لدوق اورليان أن يسعى فى اثبات حقه فى دوقية ميلان وزيادة على ذلك حصل بين لودوويق مور وكرلوس الثامن ملك فرانسا ارتباط اكيد مكث معظم مدة هذا الملك فبقيت حقوق عائلة اورليان موقوفة فلما استولى لويز الثانى عشر دوق اورليان على مملكة فرانسا اشتغل باحياء حقوق عائلته فى دوقية ميلان ولم يكن فى وسع لودوويق المذكور مقاومة هذا الخصم

القوى

القوى الشوكة سلبت منه الدوقية المذكورة فى زمن قليل وتقلد منصبها لويز الثانى عشر ودخلها باحتفال وموكب عظيم واما لودويق فمن قليل من الزمان خانه السويسيون الذين كانوا مستأجرين اذ ذاك عنده فى العسكرية واسروه وبعثوه الى فرانسا فسجن فى قلعة لوش ومات فى السجن من غير أن يرثى احد لحاله

ولكن حصلت واقعة من الوقائع الغريبة التى كثر ذكرها فى تاريخ ميلان ترتب عليها تغلب مكسمليان سفورس بن لودوويق مور على دوقية ميلان (سنة ١٥١٢) ولكن كان فرنسيس الاول الذى خلف لويز الثانى عشر على غاية من الكبر والطمع بحيث لم ترض نفسه أن يترك بالسهولة دعواه فى شأن دوقية ميلان فبمجرد جلوسه على كرسى فرانسا تأهب لاخذ الدوقية المذكورة وكان حقه فيها اقرب للحق والحلال من الحقوق التى كان يدعيها غيره فى هذه الدوقية ويعارضه بها

ولا فائدة فى الكلام على كيفية حكومة جنويزة وپرمه وموديِن وغيرها من الدول الصغيرة بايطاليا وان كانت اسماؤها تذكر غالبا فى تاريخ شرلكان لانها كانت ضعيفة الشوكة واما ما حصل لها من الوقائع والتغيرات فلم يكن من نفسها وانما الاولى أن ينسب ذلك الى الملوك الذين اغاروا عليها او دافعوا عنها الا الى شئ من سياساتها وقوانينها

مطلب قوانين اسبانيا وحكومتها

واما اسبانيا فكانت من اعظم الممالك الموضوعة أمام جبال ألبه وحيث انها هى المملكة الوراثية للملك شرلكان وهى منشأ قوته وثروته كان من المهم معرفة قوانينها السياسية معرفة تامة لاجل الوقوف على حقيقة اسباب الحوادث التى حصلت فى حكومة هذا الملك ومناسبتها لبعضها فنقول

مطلب فتح الونداليين لبلاد اسبانيا

ان الونداليين والغوثيين الذين دمروا دولة الرومانيين وازالوا شوكتهم من بلاد اسبانيا رتبوا فى هذه البلاد كيفية جديدة فى حكومتها حيث ادخلوا فى تلك البلاد عوائد وقوانين تشبه بالكلية العوائد والقوانين التى ادخلتها

القبائل المنصورة الشمالية فى باقى بلاد اور با فما قليل تكاملت الحياة
التقنية عند سكان اسبانيا المستجدين بصعودها و تقدمها على التدريج
كما حصل فيما عداها من البلاد الافرنجية ولكن اغارات العرب على تلك
البلاد اوقفت على حين غفلة هذا التقدم و التكامل ولم يمكن للغوثيين
مقاومة هؤلاء الامم الذين تقوّت شجاعتهم بالحمية الدينية فتغلبوا على مملكة
اسبانيا فى اسرع وقت كما هو عادتهم فى غزواتهم وادخلوا باستيطانهم فيها
دين الاسلام واللسان العربى والاخلاق المشرقية والتولع بالفنون
والرفاهية و الزينة التى كان الخلفاء الاسلاميون شرعوا فى استعمالها
فى دولهم

مطلب
تاريخ اغارة العرب
على اسبانيا وهو
(سنة ٧١٢)

ثم ان من ابى من اشراف الغوثيين أن ينقاد للعرب الفاتحين فرّ الى جبال
أستوريس واستوطن بها لانها صعبة المرتقى فلا يمكن الوصول اليها ورضوا
أن يعيشوا فيها على دين النصرانية وحكومة قوانينهم القديمة وانضم اليهم
عدد عظيم من ابطال ابناء اوطانهم وتحزبوا جميعا احزابا صغيرة كانت على
حين غفلة تغير على قبائل العرب القريبة منهم ولكن كان قصدهم بتلك
الاغارات القصيرة العديدة انما هو مجرد السلب و النهب والانتقام لا فتح
بلادهم واستعادتها ومع ذلك فما زالت تقوى قوتهم وتتسع مقاصدهم شيأ فشيأ
فرتبوا بينهم حكومة منتظمة وعزموا على توسيع اراضيهم واستمروا على تلك
الاغارات مع حمية دينية تتزايد وتتقوى دائما بغيرتهم على دينهم وتلهفهم
على الانتقام وتعلق آمالهم بانقاذ بلادهم من الظلم والجور فكانوا اذا شرعوا
فى شئ يسلكون فيه مسالك الشجاعة التى هى من شأن من لا شغل له الا الحروب
والقتال ولا معرفة له بما يزيل ثبات القلوب او يضدها واما العرب فكانوا
على خلاف ذلك فقد فقدوا بالتدريج كثيرا من الوسائل التى كانت سببا
فى نجاحهم وذلك انهم استقلوا بالكلية عن خلفائهم واهملوا المراسلات
المتتابعة بينهم و بين ابناء وطنهم بافريقية وكانت سلطنتهم فى اسبانيا منقسمة
الى عدة ممالك صغيرة و بالجملة فالشئون التى كانوا يمارسونها اوا كسبتهم الرخاوة

والرفاهية

والرفاهية اضعفت جزأ من قواهم العسكرية ونقصت حميتهم الحربية ومع ذلك كانوا شجعانا ولم يزل عندهم من الوثابة ما يحركهم حتى انه على حسب ما في تواريخ اسبانيا مضت ثمانية قرون وهم في حروب متتابعة بلغت وقائعها ثلاثة آلاف وسبعمائة ولم يحصل أن ادنى ممالكهم انقادت للنصارى

مطلب انضمام ممالك اسبانيا الى بعضها (سنة ١٤٩٢)

ولما كانت فتوحات النصارى لبلاد اسبانيا ثانيا واخذهم اياها من ايدي المسلمين واقعة في ازمنة مختلفة وكانت من رؤساء عديدين استبد كل منهم بمملكة من تلك البلاد مستقلة عما عداها من مجموع البلاد التي اخذوها من اعدائهم فبذلك صارت اسبانيا منقسمة الى ممالك متميزة عن بعضها بقدر ما كان فيها من الاقاليم وصار كل ملك يختار له مدينة عظيمة من مدنها ويجعلها دار اقامته ويظهر فيها ابهة المنصب الملوكي ثم بعد عدة سنين بواسطة التغيرات التي تنشأ عادة عن الزواج والوراثة والفتح آل امر تلك الممالك الصغيرة الى أن انضمت الى المملكتين القويتين وهما مملكة كاستيلة او قسطيلة ومملكة اراغون ثم تزوج فردينند ملك اراغون بالملكة ايزابيلة التي ارتقت الى كرسي مملكة قسطيلة بحب الرعية فيها فبذلك انحصرت ممالك اسبانيا كلها في عائلة واحدة

مطلب بقاء قوانين اسبانيا وعوائدها القديمة مع ما حصل فيها من التقلبات (سنة ١٤٨١)

ومن ذلك الوقت شرعت قوانين اسبانيا السياسية في أن يكون لها كيفية منتظمة ثابتة لا تتغير وبذلك تيسر لنا معرفة حقيقة حكومتها وتبيين تقدم قوانينها وعوائدها بيانا شافيا فنقول انه مع ما حصل فيها من التقلبات العجيبة والمشاق الغريبة التي كابدتها مدة مديدة تحت امر الاسلام لم يتغير ما كان ادخله فيها الوندليون والقوطيون من العوائد والاخلاق لما انها [illegible] متمكنة من قلوبهم ملائمة بالكلية لحكومتهم حتى انه في جميع الاقاليم التي اخذها النصارى من ايدي الاسلام كانت احوال الناس وكيفيات قوانينهم السياسية باقية على حالة قريبة كما في غيرها من اوربا ونتج أن العوائد القديمة التي كانت على الاراضي كان معمولا بها وكانت الانظمة والاحكام

باقية على ما كانت عليه وكذلك مزايا الاشراف وخصايصهم ولم تزل مشهورة العموم باقية على شوكتها وكان لحفظ القوانين الالتزامية فى بلاد اسبانيا عدة اسباب وان كان يظهر ان فتح العرب لتلك البلاد لم يبق منها شيأ وبيانها ان جميع اهل اسبانيا الذين فروا من اسر المسلمين استمروا متمسكين بعوائدهم القديمة وكان الحامل القوى لهم على ذلك بغضهم للعرب وشدة نفرتهم منهم لا ميلهم لتلك العوائد لان اصول حكومة العرب وقواعد احكامهم فيما يتعلق بالاراضى مخالفة بالكلية لقوانين الالتزامات التى كانت عند هؤلاء النصارى بل من دخلوا تحت اسر الاسلام ورضوا بان يكونوا رعية للمسلمين لم تبطل من عندهم القوانين القديمة بالكلية وذلك ان اهل الاسلام رخصوا لهم ان يبقوا على دين النصرانية ويعملوا بقوانينهم القديمة المتعلقة بالاراضى ويستمروا على ما كانوا عليه فى المحاكم من الاقضية والاحكام ويسلكوا فى الغرامات المسلك الذى كانوا عليه اولا فاهل الاسلام دون غيرهم من ارباب الحمية هم الذين جمعوا بين الغيرة على ادخال الناس فى دين الاسلام والترخيص لهم فى البقاء على دينهم الاصلى فتراهم اذا حملوا اسلحتهم لتوسيع دائرة الاسلام ونشره فى الاقطار يأذنون لمن لا يبغى الدخول أن يبقى على ما كان عليه من العقائد والعبادات فبقاء تلك العوائد والقوانين القديمة فى اسبانيا مع ما حصل فيها من الاخطار الجسيمة والاهوال العظيمة التى نشأت عن فتح المسلمين لها واستمرارها مع ظهور دين جديد وترتيب حكومة جديدة ليس ذلك ناشئا الا عن هذه المزية الغريبة المختصة بالمسلمين وعن رغبتهم فى استمالة من ظهروا عليه الى حكمهم ويظهر من ذلك لبادئ الرأى انه بمثل هذه الاسباب يسهل على النصارى اعادة اخلاقهم وعوائدهم وقوانينهم الى ما كانت عليه سابقا فى اقاليم اسبانيا التى انتقذوها بالتدريج من اسر المسلمين لاسيا وكان اغلب اهل اسبانيا باقين على ولعهم بعوائد اسلافهم واحترام شرايعهم فكانوا لا يتمنون الا رجوعها الى قوتها القديمة وأن يتعادوا اليها

مطلب
اختلاف احكام اسبانيا وقوانينها

ومع ان الحكومة الالتزامية مع جميع قوانينها الخاصة بها كان معظمها باقيا في مملكتي قسطيلة واراغون وما يتعلق بهما من الممالك كان يوجد في الاحكام السياسية بهذه الممالك المختلفة خصوصيات تميزها عن غيرها فكانت الخصايص والمزايا الملوكية ضيقة جدا في جميع الممالك الالتزامية وكانت في اسبانيا اضيق منها في غيرها بحيث ان الملك لم يكن له من المزايا والخصايص الا شوكة صورية واما مزايا الاشراف فكانت متسعة جدا بحيث يكاد ان يكونوا على غاية من الاستقلال واطلاق التصرف وكان للمدآئن مزايا وخصايص عظيمة جدا فكان لها مدخلية كبيرة في مشاور العموم الاهلية وكانت تبحث عما يكون به اتساع شوكتها اكثر مما كانت عليه ففي هذه الحالة كان امر السياسة غير منظوم وكانت قوانين الممالك لا تناسب بينها الا فيما ندر فكانت بذلك مملكة اسبانيا عرضة لفتن داخلية اخطر من الفتن والتقلبات التي تنشأ عادة عن عدم الانتظام في الحكومات الالتزامية ويدلك على صحة ذلك تاريخ اسبانيا فانه لما خرج المسلمون من تلك البلاد وامن اهلها سطوتهم لعدم مباشرتهم اياهم اخذوا في اضرام نيران الفتن التي كانت تلايمها كيفية حكومتهم وصاروا دآئما مستعدين للقيام على ملوكهم والخروج عن طاعتهم واساءتهم وهتك حرمة مقامهم ومثل هذه الفتن توجد في تاريخ اسبانيا اكثر من تواريخ الممالك الاخرى ولكن في اثناء هذه الفتن والتقلبات كان يظهر في اسبانيا آرآء عدل تطلب حقوق الرعايا واخرى تعضد مزايا الاشراف ولم يكن يوجد لهذه الآرآء نظير في باقي ملل اوربا

مطلب
كون مزايا الملوك دون مزايا الاهالي

مطلب
براهين تؤيد الملحوظة السابقة
(سنة ١٤٦٢)

فقد اتفق انه في امارة قتالونيا التي كانت منضمة الى مملكة اراغون قام الرعية على ملكهم يوحنا الثاني معتقدين انه يظلمهم وشهروا اسلحتهم عليه لينتصفوا منه ونقضوا مبايعته واعلنوا انه وذريته ليسوا اهلا للجلوس على سرير المملكة وارادوا ان يرتبوا في قتالونيا حكومة جمهورية ليأمنوا على ما تعلقت به آمالهم من التمتع بالحرية على الدوام

وحصل قريبا من ذلك الوقت ان اشراف قسطيلة قاموا ايضا على ملكهم هنرى الرابع لبغضهم ادارته وعدم حزمه وزعموا ان من جملة خصايصهم ومزاياهم التى لا تنفك عنهم كونهم لهم الحق فى ملاحظة افعال الملك والحكم عليه اذا وقع منه خلل ولاجل اشهار هذا الحق بين الناس طلبوا من جميع احزابهم ان يجتمعوا بمدينة آويلة وبنواميدانا واسمانى بطحاء خارج اسوارهذه المدينة ووضعوا فيه تمثالا على صورة هنرى الرابع جالسا على الكرسى وعليه حلة الملك وعلى رأسه التاج وبيده قضيب الملك متقلدا بسيف العدل ثم قرأ واحد منهم باعلى صوته ما كانوا يتهمون به هذا الملك وصدر الحكم بعزله فى هذا المحفل العام ولما قرئ اول بند من بنود التهمة تقدم مطران مدينة توليدة (مدينة طليطلة) ونزع التاج عن رأس التمثال وبعد قرآءة البند الثانى تقدم قونتة بليزانسه وجرده من سيف العدل وبعد قرآءة البند الثالث تقدم قونتة بنيوانته ونزع من يده قضيب الملك وبعد قرآءة البند الاخير تقدم الامير ديجو لو پيس الى التمثال والقاه من فوق الكرسى على الارض واعلنوا حين سقوطه بتنصيب الامير ألفونس اخى هنرى على مملكتى قسطيلة وليون

ولا شك ان رؤساء تلك الفتنة مهما بلغت جسارتهم ما كان يمكنهم فعل مثل ذلك على هذا الوجه لو كانوا يعلمون ان الاهالى يعارضونهم فى هتك حرمة المرتبة الملوكية وان الشرائع الموجودة فى حكومة قسطيلة وفى أراغون لم تسوغ للناس استحسان مافعلوه والرضى به

مطلب قوانين حكومة اراغون واصول ترتيبها

ثم ان حكومة أراغون وان كانت حكومة ملوكية الان قوانينها واصولها كانت جمهورية محضة وذلك ان الملوك مكثوا زمنا طويلا وهم يولون على سبيل الانتخاب فلم يكن لهم من الشوكة والقوة الاخيالها وصورتها وكانت الشوكة والسلطنة الحقيقية للقرطس (وهى مشورة وكلاء المملكة) التى كانت مركبة من اربع مراتب مختلفة (الاولى) رتبة اشراف الدرجة الاولى (الثانية) رتبة اشراف الدرجة الثانية (الثالثة) وكلاء المدن

والقرى الذين هم بموجب ماذكر فى تواريخ أراغون كان لهم حق الحضور فى تلك المشورة لاعن حدوث بل من ابتدآء ترتيب قوانين المملكة (الرابعة) مرتبة القسيسين وهى مركبة من اعيان الكنيسة و بعض وكلاء من المرتبة القسيسية الدنيا فكان لا يثبت حكم فى هذه المشورة الا برضى كل واحد من اربابها ممن له الحق فى الشورى فكان لا يمكن وضع فردة ولا اشهار حرب ولا عقد صلح ولا ضرب معاملة ولا تغيير شئ فى المعاملة الجارية الا باذن تلك المشورة التى كان لها ايضا الحق فى أن تحقق الدعاوى والاقضية التى كان يحكم بها فى جميع المحاكم السفلى وان تلاحظ كل ادارة وتبطل ما يكون مخالفا للاصول فكل من له مظلمة اوشكوى كان يعرض لهذه المشورة و يطلب الانصاف لا على سبيل الترجى والتذلل بل على سبيل كون الانصاف من الحقوق الطبيعية الثابتة لكل انسان حر وحيث ان ارباب تلك المشورة كانوا منوطين بالمحافظة على حرية الرعايا وجب عليهم البحث عن تنجيز ما يقدم لهم من طرف الرعايا ومكثت هذه المشورة عدة قرون وهى تجتمع فى كل سنة مرة ولكن فى ابتدآء القرن الرابع عشر تجدد قانون به عقد انها لا تكون الا كل سنتين ولما كانت تعقد المشورة المذكورة كان لا يمكن للملك تأخير اجلها ولا فسخها الا اذا رضى اربابها بذلك وكانت مدة انعقادها اربعين يوما

مطلب
وظيفة القاضى الاعظم

ثم ان اهالى مملكة أراغون لم يكتفوا بكونهم اقاموا للقوة الملوكية تلك الموانع الكبيرة التى تمنعها عن مقاصدها ولم يريدوا ايضا ان يثقوا فى حفظ حريتهم بمجرد اهتمام المشاور المرتبة عندهم وتدقيقها وان كانت مشابهة لمشاور الديت (اسم موضوع لمشورة وكلاء الدولة فى المانيا و پولونيا وأسوج) ومشاور (ليزينا) ودواوين (البرلمان) التى يأتمنها غيرهم من الامم المنقادين للحكومة الالتزامية بل رتبوا ترتيبا خاصا بهم لا يوجد عند غيرهم من الامم فانتخبوا قاضيا عظيما وسموه باسم جوستوزا وكانت وظيفته مشابهة لوظيفة القضاة المسمين (ايفوره) وهم قضاة (اسبرطة) من قديم الزمان فكانت

هذا القاضي ناصر الرعية وظهيرها وملاحظا للملك في افعاله ومفتشا عليه وكان محترما عندهم وكانت شوكته وافتاؤه لا ينحصران في حد فكان فيهم فاعلا مختارا وكان اعظم ترجمان لقوانينهم وشرائعهم اي المفسر لها والمفصح لهم عنها وكان من دونه من القضاة يرجعون كلهم اليه بل وكذلك الملوك كانوا يضطرون الى مراجعته عند الشك والتوقف في الاحكام ويتبعون ما يحكم به من غير امتحان ولا بحث فيه وكانت تعرض عليه ايضا الاقضية والاحكام التي تصدر من القضاة الملوكية ومن القضاة الموجودين في الاراضي الالتزامية التي تحت حكم الامراء البارونيين وكان يمكنه ان يطلب رفع جميع الدعاوى اليه ولو لم ترفع اليه وأن يمنع القضاة المعتادين من كونهم يقيمون دعاوى عندهم بل كان يستخبر عن الدعاوى في اسرع وقت وينقل المدعى عليه الى حبس الدولة المسمى باسم مانيفستيون وكان لا يدخل احد في هذا السجن الا باذنه وكان له ايضا قوة عظيمة تنجيزية فعالة في شأن تغيير الحكومة كقوته الثابتة له في شأن اجراء الشرائع والاحكام ومن خصايص وظيفته ايضا انه كان له التفتيش والبحث عن سلوك جميع الناس ولو الملك وكان له ايضا الحق في البحث عن احكام الملك واوامره وينظر هل هي موافقة للشرع بحيث يجري العمل بها ام لا وكان من جملة حكومته الخاصة به انه يجوز له ان يمنع وزراء الملك من اجراء المصالح وأن يجبرهم على ان يخبروه بتدبيرهم واما هو فلم يكن يخبر باعماله احدا الا مشورة (الجزنتا) اي مشورة وكلاء المملكة فكان يفيدهم كيفية توفيته بوظائفه التي هي اهم وظائف اتتمن عليها انسان في ملته

مطلب انحصار الشوكة الملوكية في حدود ضيقة

ولاشك ان تلك الخصوصيات التي كانت لمشورة أراغون والحقوق التي كان يتمتع بها هذا القاضي تدل على انه لم يكن للملك من القدرة والشوكة الا شيء واهن ذلك أن الملة كان يتراآى منها انها انما بذلت جهدها في سلوك تلك المسالك لتظهر للملوك عجزهم ومع ان مبايعة الملوك يلزم ان تكون مع غاية التعظيم والتبجيل والخضوع سلك اهالي أراغون مسلكا آخر حيث أنهم

اخترعوا

اخترعوا نوعا من صيغ المبايعة يفيد الملك انه لا يكون مطلق التصرف
فى الرعية فكانت تتلى هذه الصيغة عند عقد المبايعة على طاعة الملك وهى أن
القاضى الاعظم حين المبايعة يقول للملك عن لسان البارونيين ارباب
الكبر والأنفة (نحن كل مناعلى حدته بمنزلتك ومجموعنا اعظم منك فى الشوكة
فان اردت منا الطاعة لاحكامك فاحفظ حقوقنا ومزايانا والافلا انتهى)
وبموجب هذه المبايعة رتب الاشراف قانونا اصليا وهو انه اذا هتك الملك
حرمة حقوقهم ومزاياهم جاز للملة شرعا فسخ مبايعته وانتخاب غيره ملكا
عليها وقد شوهد من اهالى أراغون انهم يميلون الى هذه الحكومة الغريبة
الشكل ميلا عظيما ويحترمونها احتراما كليا وذكروا فى بعض مقدمات
قوانينهم انه حيث كانت اراضى مملكتهم قحطة وسكانها فقراء جدا الزم أن يجبر
خلل ذلك بحرية وحقوق تميزهم عن غيرهم من الملل الاخرى والا خرجوا
منها الى اراض اكثر خصوبة من اراضى مملكتهم يستوطنون بها لتيسر لهم
اسباب السعادة

مطلب
قانون قسطيلة
وحكومتها

واما مملكة قسطيلة فما كان لها شئ غريب فى شكل حكومتها يميزها عن
غيرها من ممالك (اوروبا) امتيازا بينا شهيرا لانه وان كان الملك يجرى فيها شوكة
تنجيزية فعالة الا ان هذه المزية كانت ضيقة جدا وكان تشريع القوانين
من خصوصيات مشورة القرطس التى كانت مركبة من الاشراف ومن
ارباب الوظائف من القسيسين ومن وكلاء المدن وجمعية مشورة (القرطس)
المذكورة كانت موجودة بتلك المملكة من قديم الزمان بحيث كان مبدؤها
من مبدء قوانين ترتيب حكومتها فكانت هذه الطوائف الثلاثة التى
كان لها الحق فى الشورى يجتمعون فى محل واحد ويتذاكرون مع بعضهم
فما يحط عليه رأى الجمهور هو الذى يكون عليه العمل وكان لهم الحق فى وضع
الجرائم والغرامات وانشاء القوانين وابطال المظالم وكانت عادتهم
ان لا يتذاكروا فى شأن الامدادات والمساعدات التى يطلبها الملك من الرعية
الابعد تتميم المصالح التى كانت تخص المنفعة العمومية جلالة على أن يقرر

تباشير عنوه من القوانين للمصلحة العامة و ينظمها فى سلك الشرائع المعوّل عليها

والظاهر ان مدخلية وكلاء المدن فى مشورة قسطيلة كانت ثابتة لهم من قديم الزمان وانهم كانوا قد اكتسبوا فى اسرع وقت درجة عظيمة من الصولة والسطوة ونفوذ الكلمة وقت أن كانت قدرة الاشراف فى الممالك الأخر وخرقتهم كاسفة لنورانية بجهة من عداهم من طوائف الاهالى على اختلاف مراتبهم وكان عدد وكلاء المدن كثيرا بالنسبة لعدد الطوائف الاخرى فبذلك كان لهم نفوذ كلمة فى الدولة و بهذه الحادثة الآتية يمكن معرفة درجة اعتبارهم فى المملكة وهى انه عند موت الملك يوحنا الاول ترتبت مشورة نيابة بحكم المملكة مدة قصور ولده حتى يبلغ رشده وكانت هذه المشورة مركبة من عدد متساو من الاشراف ووكلاء المدن وكان وكلاء المدن فى الرتبة والمقام والشوكة مثل الاكابر والاحبار الذين هم من الدرجة الاولى ولكن مع ان ارباب الجمعيات البلدية (و يقال لها الاهلية) (فى قسطيلة) كانوا وقتئذ اعلا مقاما من ارباب الجمعيات البلدية الموجودة فى غيرها من الممالك وكانوا قد اكتسبوا شوكة عظيمة فى شأن السياسة حتى لم يمكن بعنقوان الاشراف الارستقراطية الالتزامية منعهم عن الدخول فى شأن تدبير امور الحكومة فلايخفى ان الاشراف لم يزالوا مستمرين على كونهم يرجحون مزاياهم وخصايصهم عن المزايا الملوكية مع محاماة وكلاء المدن لها فلم يكن فى اوريا فرقة من الاشراف امتازت بمحبة الاستقلال والحرية و السلوك مسلك الكبر و الجراءة والثبات فى الادّعاء والزعم اكثر من طائفة اشراف قسطيلة فقد بين لنا تاريخ هذه المملكة امثالا عديدة يذكر لنا وقائع كثيرة بها يستدل على انهم كانوا متيقظين الى ملاحظة جميع حركات الملك وكانوا يعارضونه مع الثبات الكلى فى مشروعاته اذا رأوا انها تضر باحكامهم او تحط بمقامهم او تضيق قدرتهم وتضعف شوكتهم وكان لهم ايضا فى المداولات الخصوصية التى كانت بينهم وبين ملوكهم انفة (سنة ١٣٩٠)

وتعاظم

وتعاظم كبير في انفسهم بحيث ان اكابرهم كانوا يعدون من جملة مزاياهم
كونهم يسترون رؤسهم في حضرة الملك على خلاف العادة الافرنجية
ولا ينزعون البرانيط عند الدخول عليه ويدنون منه كانهم اقرانه لا رعاياه
واما سياسة الممالك الصغيرة التي كانت من تعلقات مملكة قسطيلة ومملكة
أراغون فكانت سياسة كل مملكة منها تكاد ان تكون مثل سياسة المملكة
المنسوبة اليها من هاتين المملكتين فكان الاشراف في سائر تلك الممالك
الصغيرة محترمين جدا اولى حرية واستقلال وكانت المدن منها تمتع بشوكة
عظيمة جدا ومزايا كثيرة
و من لاحظ حالة اسبانيا وامعن النظر في غرابة امورها وتذكر ايضا
الحوادث المختلفة التي وقعت فيها على التعاقب منذ اغارة المسلمين الى زمن
صيرورة ايالاتها مملكة واحدة تحت حكومة فرديننده وايزابيلة بعد ان كانت
منقسمة الى ممالك مختلفة عرف بالسهولة جميع اسباب النوادر الخصوصية
التي ذكرناها لحكومة هذه المملكة ووقف على اصولها
ثم ان اهل اسبانيا لم يتوصلوا الى تخليص اقاليمهم من ايدى الاسلام الا على
التدريج مع غاية التعب والمشقة ففي الحروب التي حصلت حينئذ كان كل
من دخل من الاشراف تحت ظل راية رئيس ممتاز وحارب معه يشترط
عليه أن يقتسم معه ثمرات النصرة فكان الاشراف يطلبون من رؤسائهم
الذين قاتلوا معهم الجزء العظيم من الاراضي التي يأخذونها من الاعداء
بقوتهم وخدمتهم في الحرب فصارت تزداد شوكتهم بتزايد شوكة ملوكهم
واتساع اراضيهم
وفي اثناء الحروب الدائمة مع العرب اضطر ملوك اسبانيا الى أن يستعينوا
باشرافهم وعرفوا انه من الضروري لهم ترغيب هؤلاء الاشراف فيهم
وأن يكونوا من حزبهم ولذلك صاروا يتحفونهم بعطايا متتابعة
ومزايا جديدة فكان الملك بمجرد استيطانه في اقليم يؤخذ من ايدى الاسلام
يقدم بين امراء البارونيين معظم اراضيه ويقلدهم زيادة على ذلك

قضاء خصوصيا ومزايا كانوا يقربون بها ان يكونوا مطلق التصرف

وبذلك كانت الممالك التى تحدث وتنشأ فى بلاد اسبانيا صغيرة قليلة الاعتبار بحيث لم يكن ثم امتياز لملوك تلك الممالك الصغيرة عن اشرافها بل كان الاشراف يرون انفسهم مثل ملوكهم بلا فرق فكانوا يفعلون ماشاؤا ولم يكن يمكن للملك أن يجبرهم و يدخلهم تحت طاعته حيث لم يكن له سطوة عظيمة عليهم فلما رأى الاشراف انه لا فرق بينهم و بين ملوكهم لم تسمح نفوسهم أن يعاملوهم بالتعظيم والتبجيل الذى كان يعامل به اهالى اوربا ملوكهم العظام

و بجميع تلك الاحوال المذكورة ارتفعت شوكة الاشراف وانخفضت شوكة الملوك و بعدة مقتضيات احوال اخرى عظمت كذلك مدن اسبانيا وقويت شوكتها

وذلك انه فى مدة الحروب مع المسلمين كانت البلاد المكشوفة الخالية عن التحصين دائما عرضة لاغارات العرب حيث لم يكن يتأتى معهم عقد صلح اوهدنة يستريح بها اهالى تلك البلاد و يتمتعون فيها بالامن والاطمئنان فاضطر جميع الناس على اختلاف مراتبهم الى الاقامة بالميادين والحصون ليكونوا مستعدين للمدافعة عن بلادهم لحفظ انفسهم واما قصور البارونيين التى كانت فى غير هذه البلاد ملجأ آمنا يحتمى فيه من ارباب الصيال ومن اهوال الفتن الداخلية فلم تكن بتلك البلاد حصينة بحيث يمكن بها مقاومة جيوش الاسلام الماهرين فى التعليمات العسكرية حيث انهم مع مهارتهم وشجاعتهم كانت اغاراتهم مستمرة لا تنقطع عن تلك البلاد فكان لا احد من الاهالى يأمن ان يخرج من بلدته الا اذا كان خروجه ليذهب الى بعض مدن معلومة يجتمع بها الناس للمدافعة عن جميع البلاد فهذا هو السبب الذى ينسب اليه ازدياد عظم مدن اسبانيا التى فتحها النصارى ثانيا ونمو شوكتها فى اقرب وقت حيث كان جميع اهالى اسبانيا الذين يفرون من المسلمين يذهبون الى تلك المدن وكانت كذلك ملجأ لعائلات من كان يتصدى من النصارى

لمقاتلة المسلمين
فمكثت كل مدينة من هذه المدن مدة قصيرة كانت او طويلة وهى تحت لمملكة صغيرة وتمتعت بسائر المزايا التى تزداد بها الاهالى عادة فى سائر الثغور وامهات المدن
وكانت اسبانيا فى ابتداء القرن الخامس عشر محتوية على مدن كثيرة اعمر من باقى مدن اوربا ماعدا مملكتى ايطاليا والبلاد الواطية وذلك لان العرب كانوا قد انشأوا فى تلك المدن فبريقات وورشا عديدة وقت ان كانوا حاكمين فيها ولما اختلط اهلها بهؤلاء الامم تعلموا منهم الفنون التى كانت عندهم واستمروا على ممارستها والاشتغال بها والظاهر ان عدة من تلك المدن كانت فى ذلك الزمن ذات تجارة معتبرة واستمرار التجارة كان سببا فى بقاء الاهالى فيها بكثرة كما انهم كانوا قد آووا اليها لخوفهم من الاخطار والاهوال التى كانت على كافة الناس
وحيث كانت تلك المدن كثيرة العمران كان يوجد فيها اناس كثيرون من الاعيان اكثر ممن كانوا يسكنون غيرها من مدن ممالك اوربا والسبب الذى به كثرت اهاليها جذب كثيرا من الناس اليها فصار يهرع اليها الناس من جميع الممالك ليلتجأوا فيها من الاعداء او لانهم كانوا يأملون انها انفع لهم من غيرها فى الممانعة ودفع الاعداء
وهناك حوادث مختلفة مذكورة فى تاريخ شرلكان تدل على ان وكلاء المدن الذين كانوا من اعضاء مشورة العموم ومن كانوا مؤتمنين ومقلدين بمناصب الشرف العالية فى حكومة القرى كانوا فى الغالب ارباب رفعة وامتياز بحيث كانوا يشرفون موكليهم ووظائفهم التى هم مقلدون بها
وحيث رأى النصارى انه لا يمكنهم المقاومة فى تلك الحروب الدائمة بينهم وبين المسلمين بمجرد القوة العسكرية التى كان يقدمها البارونيون للغزوات على حسب قوانين الخدمة الالتزامية فى العسكرية عرفوا فى اقرب وقت انه لابد لهم من كونهم يحجزون عندهم دائما على طرفهم جميع ما يلزم لهم

من الجيوش خصوصا من عساكر الخيالة الخفيفة وكان من مزايا الاشراف معافاة اراضيهم من الخراج والفردة فكانت المدن بمفردها هى التى يطلب منها مصاريف العساكر اللازمة لاجل الطمأنينة العمومية وحيث كان الملوك غالبا فى تلك البلاد مضطرين الى طلب امدادات ومصاريف من هذه المدن الجأهم ذلك ان يجثوا عن استمالتها اليهم فصاروا يتحفون اهلها بمزايا و عطايا عظيمة فاتسعت من حينئذ مزاياها وخصايصها وازداد غناها وعظمت شوكتها وكثرت ثروتها

واذا علم الانسان انه بانضمام تلك الاحوال التى لم تقع الا فى اسبانيا قد تقوت نتائج الاسباب العمومية التى اعانت على نمو شوكة هذه المدن وعظمها وعلو شأنها فى باقى بلاد اوربا عرف بالسهولة اصل المزايا العديدة المهمة التى اكتسبتها تلك المدن فى كل موضع و منشأ اعتبارها الغريب الذى اكتسبته فى جميع ممالك اسبانيا

مطلب
وسايط استعملها عدة ملوك مختلفة من ملوك اسبانيا لاجل توسيع قدرتهم وازدياد شوكتهم لاسيما الملك فردينند والملكة ايزابيلة زوجته

وبهذه المزايا العظيمة الثابتة للاشراف والشوكة العجيبة الثابتة للمدن كانت مزايا ملوك اسبانيا من جميع الوجوه محصورة فى حدود ضيقة فاغتاظ عدة من هؤلاء الملوك من تلك العوائق التى كانت تمنع تقدم قدرتهم ونمو شوكتهم فبذلوا جهدهم فى عدة فرص مختلفة فى اطلاق شوكتهم وفك قيدها واضعاف شوكة الرعية ولكن عجزت قواهم اومعارفهم عن تتميم هذا المشروع فمكثوا زمنا طويلا ومجهوداتهم لا ينشأ عنها كبير جدوى فلما تملك فردينند وايزابيلة على جميع ممالك اسبانيا وآلت كلها الى مملكة واحدة تحت حكمهما وكانا حينئذ آمنين من اهوال الحروب الاهلية واخطارها العائقة للتقدم امكنهما تنجيز المشروعات التى كان اضمرها المتقدمون من اسلافهما لاجل تقوية الشوكة الملوكية وتوسيعها ولم ينجزوها فنجحا فى ذلك لما انه كان لفردينند فراسة غزيرة فى تدبير مقاصده ونشاط عظيم فى سلوكه وكان ثابتا جلدا لا يجزع من شئ فى تنجيز مشروعاته وهذه هى الصفات التى لابد منها فى تنجيز مثل هذا المقصد المهم

ولما كانت

مطلب
وسايط مختلفة استعملت لاجل تنقيص شوكة الاشراف

ولما كانت شوكة الاشراف ومزاياهم قد تجاوزت الحد وكان ذلك هو الذى يغضب كثيرا ملوك اسبانيا وكانوا يتضررون منه جدا ولا يتحملون ذلك الامع غاية القلق والاشمئزاز كان قصد الملك فرديناند مجرد تضييق دائرة مزايا هؤلاء الاشراف حتى لا تتجاوز حدودها فصار يتعلل بعلل مختلفة فتارة كان يسلك سبيل الجبر والاكراه وتارة يعمل بما يصدر من المحاكم الشرعية فى شأنهم حتى سلب من البارونين بعض الاراضى التى كانوا اكتسبوها من افراط كرم الملوك الاولين واسرافهم لاسيما الاراضى التى كانوا اكتسبوها من تبذير سلفه الملك هنرى الرابع وضعفه

ولم يجعل ادارة المصالح وتدبيرها مقصورا على أعيان الاشراف اذ كانوا قبل ذلك مقلدين بامور التدبير وكانوا وحدهم ارباب شورى الملك ووزراءه ويرون ان هذه الخصوصية مزية لازمة لطائفتهم لا تنفك عنها ولا احد يشركهم فيها فكان غالبا يعقد امورا ومشارطات مهمة من غير مشاورتهم وقلد اناسا آخرين بمناصب مهمة علية الشأن من مناصب الدولة لكونه رأى منهم الميل الى مصلحته ومنفعته واحدث فى ديوانه رسوما لاحترام المقامات كل انسان على حسب مقامه لم تكن معهودة فى اسبانيا مدة انقسامها الى عدة ممالك صغيرة وبهذه الرسوم اعتاد الاشراف على ان لا يدنوا من الملك الا مع التعظيم والتبجيل وصارت الرعايا تحترم ملوكهم وتهابهم وتخشى بأسهم وتنقاد اليهم اكثر مما كانوا عليه سابقا

مطلب
انضمام رياسة الرتب الثلاثة العسكرية الى الملك

وزيادة على ذلك ضم الملك فرديناند الى المنصب الملوكى منصب رياسة الرتب الثلاثة العسكرية وهى رتبة سان ياكس ورتبة كلتراوه ورتبة ألكنترة وبذلك ازدادت كثيرا ايرادات ملوك اسبانيا وعظمت شوكتهم وكان القصد من هذه الرتب الثلاثة كالقصد من رتبتى تمپليه وسجان دجوريزاليم (اى طائفة عساكر حروب الصليب) وهو محاربة اهل الاسلام على الدوام وحماية الزوار الذين كانوا يذهبون لزيارة قمبسطيلة وغيرها من الاماكن المقدسة الموجودة فى اسبانيا فالغيرة الدينية التى كانت فى اهل هذا الزمن الذى

حدثت فيه تلك الرتب واوهامهم الفاسدة و اعتقاداتهم الكاسدة حملت
الناس على اختلاف مراتبهم أن يهادوا هؤلاء العار بين الاتقياء بهدايا عظيمة
فصاروا في اقرب زمن اصحاب املاك وجمعوا مقدارا جسيما من اموال الناس
واراضيهم وبناء على ذلك كانت رياسة كل رتبة من هذه المراتب من اعظم
الوظائف واهمها وكان ذلك يكسب اشراف اسبانيا الاعتبار ونفوذ الكلمة
ويجلب لهم الاموال والغنى لان امرآء هذه المراتب كانوا يتصرفون فيها
كما يشاؤن بحيث كانوا بواسطتها يكادون أن يساووا ملوكهم في المقام
والاعتبار وحيث رأى الملك فرديناند ان رجال الاشراف عظيم الهيبة
والسطوة ورأى ان حكمهم وولاءهم على هذه المراتب الغنية يزيدهم من
غيرشك شوكة ومهابة اشتغل بسلب تلك المزية عنهم ليزيد بها ثروة الشوكة
الملوكية ودبر بحذقه وفراسته امر هذا المقصد ولم يزل باذلا جهده فتارة كان
يسلك طرق الدسائس وتارة يعد بعض الناس بحسن المكافأة وتارة يهدد
آخرين حتى توصل الى ان حمل امرآء تلك المراتب الثلاثة ان يجعلوه هو (سنة ١٤٧٦)
وزوجته ايزابيلا رئيسين عليهم وقد تشرف هذا العقد وازداد ثباتا وتأكدا (سنة ١٤٩٣)
بكون البابا انوسان الثامن والبابا اسكندر السادس اقراه وابتاه برضاهما
وحكم من تولى بعدهما البابية بانه لا يجوز فصل تلك الرياسة عن المنصب
الملوكي وبينما كان هذا الملك ينقص قدرة الاشراف وشوكتهم كان لا يغفل
عن تقوية شوكته واكساب سطوته درجة نورانية جديدة وكان يدبر تدبيرات
اخرى ليست اقل تأثيرا من الاولى فكانه يريد التوصل الى مقصد واحد
بوسائل عديدة وذلك انه لما رأى الحكم المطلق الذي للبارونيين في اراضيهم
والتزاماتهم من اعظم المزايا التي كانت تقتضي تعاظمهم وكبرهم وعنفوانهم
تطلع الى تجريدهم عنه مع انهم كانوا يعتنون جدا بهذا الحكم و يعدونه من
اعظم مزاياهم بحيث لو اراد احد أن يجردهم منه بالقوة والسلاح لمانعوا
عنه بأسلحتهم وبذلوا جهدهم في ابقائه ولكن مثل هذا الامر لا يعبأ به ملك
ذو قريحة وفراسة واحتراس مثل فرديناند فبحث هذا الملك عن الوسائل

التي

التى توصله الى ان يهدم خفية بالتدبير دعائم هـذا الامر الذى كان يعجز
عن تصغيره جهرة بالقوة فلم يزل يدبر امره حتى لاحت له فرص عظيمة من الحالة
التى كانت عليها الممالك وتتشذو من طبيعة رعاياه فانتهزها بمهارته ونشاطه
وذلك ان جميع اقاليم اسبانيا كانت مشحونة بالفتن و التعكيرات بسبب
تخريب المسلمين لها على الدوام لعدم تعليم الجيوش الاسبانية التى كانت
تقاتلهم و بسبب الفشل والنزاع الذى كان يتجدد دائما بين الاشراف والملك
و يهلك به اناس كثيرون و بسبب حروب البارونيين مع بعضهم فكثر بتلك
الاقاليم النهب والظلم والقتل و بطلت التجارة فى اثناء تلك الفتن المخلة بالنظام
وانقطعت المخالطة والمواصلة جهرا بين البلاد وضاع الامن والاطمئنان
الذى هو القصد من بحث الناس عن الائتلاف والتأنس والاجتماع وقل
الالتفات الى حفظ النظام الداخلى والضبط والربط مدة ما كانت
القوانين الالتزامية معمولا بها فى المملكة واهمل تدبير العدل والشرائع
وضعفت واضمحلت رسومها حتى كان لايسوغ اجراء القوانين المسطرة
ولا توسط القضاة المعتادين فيها و بذلك كله قويت مصائب الناس لاسيما
سكان المدن فانهم كانوا فريسة هذه الفتن فالجأهم غرض حفظهم الى ان
يتعاطوا دواء عجيبا لتقطيب جراح هذا الداء وهو انه اجتمعت فى اثناء القرن
الثالث عشر مدن مملكة أراغون وتبعها مدن مملكة قسطيلة واتفقت
مع بعضها وتسمت باسم الجمعية او المعاهدة المقدسة واعانت تلك المدن
المتعاهدة بعضها حتى رتبت جيوشا عظيمة اعدتها لحماية المسافرين
السواحين وللبحث عن المذنبين ورتبت ايضا قضاة فصوا محاكمهم فى بلدان
مختلفة من المملكة فكل من كان قد سبق له قتل او سرقة او غيرهما
مما يخل بالراحة العامة ووقع فى ايدى جيوش تلك الجمعية المقدسة كان
يحضر به بين ايدى القضاة وهم يحكمون عليه بالعقاب من غير نظر الى انه
لايجرى عليه سوى افتاء ملتزمه فبذلك تقوى العدل فى اقرب وقت
كما كان وتجددت رسوم المحاكم ونواحي النظام وحصلت الراحة الداخلية

واطمأنّ الاهالى و عادت تلك الحادثة بالضرر على الاشراف وحدهم حتى تشكوا بانها جور عظيم وتعدّ ظاهر على بعض مزاياهم العظيمة الاصلية وتشكوا كثيرا للملك من هذه الجمعية حتى اظهروا انهم لا يعطونه الامدادات التى يطلبها منهم الا اذا ابطلها او محا رسومها ولكن رأى فرديننند ان هذه الجمعية نافعة لازمة جدا لحفظ السياسة وابقاء الضبط والربط فى ممالكه لاسيما و ينتهى امرها بحصول غاية امله و مقصوده الاصلى وهو ضعف احكام البارونين فى شأن الاراضى واضمحلالها فلم يزل ينصرها و يبذل جهده فى حمايتها فانظر الى هذا الملك حيث لم يكتف بمشروعاته التى فعلها بنفسه كباقى ملوك اوربا بل عرف ان يستفيد فى تلك الحادثة التى لم تحصل الا فى اسبانيا فائدة عظيمة وهى تضييق دائرة الحكم المطلق الذى كان يدعيه الاشراف وكانوا مستقلين به لانه كان مخالفا للشوكة الملوكية ونظام الجمعية

فوسع الملك فرديننند بهذه الحوادث السعيدة دائرة خصايصه ومزاياه ووصل الشوكة الملوكية الى درجة لم تبلغها تحت احد ممن تقدمه من الملوك ومع ذلك فكان هنالك عدة عوائق اخرى قوية تمنع من تقدم مزايا الشوكة الملوكية وذلك لان محبة الحرية كانت متمكنة من قلوب اهالى اسبانيا وكان الاشراف متولعين بحب الاستقلال فكانت سطوة فرديننند على رعاياه اضيق من سطوة غيره من ملوك اوربا المشهورين على رعاياهم واما كونهم اعانوه مع الرغبة والحماسة فى حروبه الغريبة الاجنبية وسهلوا له جميع الوسايط التى تجز بها مشروعاته العظيمة فانما كان ذلك لتولعهم بالفخار الذى امتازوا به فى نوار يخهم ولذلك ترى فى عدة وقائع مختلفة من تاريخ شرلكان ان حقوق الملك فى اسبانيا مكثت محصورة ضيقة الدائرة الى أن مضت مدة مستطيلة من حكومة شرلكان الذى خلف فرديننند المذكور

مطلب قوانين فرانسا وحكومتها

ثم ان القوانين القديمة التى كانت بمملكة فرانسا تشبه قوانين الممالك المحكومة حكومة التزامية فلا حاجة الى التعرض لذكر جميع التفاصيل

التى

التى يعرف بها حقيقة القوانين الخصوصية التى كانت فى اسبانيا ومانشأ عنها
وقد تقدم انا عندذكرنا الوسايط التى سلكها ملوك فرانسا ليصيراهم التصرف
والولاء على العساكر والقوى الاهلية بمملكتهم لاجل ان يمكنهم التصدى
للحروب الاجنبية الكبيرة ذكرنا كيفية وصولهم بالتدريج الى توسيع
شوكتهم السياسية وتمتعهم بمزاياهم وخصايصهم من غير كثير منازعة
ولم يبق علينا فى شأن ترتيب فرانسا الا ان تنبه على الامور الخصوصية
التى كانت تميزها عن الدول الاخرى او التى تفيدنا شيأ فى شأن الوقائع
التى حصلت فى الزمن الذى يشتمل عليه تاريخ حكومة شرلكان

مطلب
شوكة الجمعيات
العمومية من الملة
فى زمن اول دولة
من الملوك

وفى حكومة اول دولة من ملوك فرانسا كانت شوكة الملك ضعيفة جدا
وجمعيات الملة العمومية التى كانت تجتمع كل سنة فى زمن معين
هى التى كانت شوكتها نافذة فى سائر اقسام المملكة فكان لها الحق
فى انتخاب ملوكها وفى اعطائهم الامدادات والاعانات اللازمة وكانت
هى التى تشرع القوانين والشرائع وتبطل جميع المظالم وتحكم فى جميع
الدعاوى على اختلافها من غير ان يراجعها احد فى حكمها ولو عظم
مقام اصحاب الدعوى

مطلب
شوكتها فى زمن
الدولة الثانية

ومع ما اكتسبته الشوكة الملوكية من القدرة والنورانية بسبب الفتوحات
والنصرات التى حصلت للملك كرلوس مانوس فى الدولة الثانية من الملوك
كانت لم تزل تلك الجمعيات المتقدمة مستمرة على عظم شوكتها وتنجيز
حكمها وتنفيذ اوامرها فى زمن الدولة الثانية فكان لها الحق فى كونها
تنتخب من العائلة الملوكية الامير الذى يجلس على كرسى المملكة
ولا يولى سلك الابرضاهم وبذلك كان الملوك يدعونهم فى كل امر ويستشيرونهم
فى شأن المصالح المهمة فى الدولة وكان لايمكن من غير رضاهم ترتيب قانون
جديد ولا احداث فردة جديدة على الرعايا

مطلب
شوكتها فى الدولة
الثالثة

واما الملك هوغس كابيت رئيس الدولة الثالثة من ملوك فرانسا فانه عند
جلوسه على كرسى المملكة احدث فى سياستها تغييرات عظيمة بحيث اثرت

فى شوكة الجمعيات العمومية المتقدمة وفى احكامها وافتاتها ولكن كانت الشوكة الملوكية حينئذ قد ضعفت ونزلت عن رتبتها بسبب جبن ذرية كرلوس مانوس وكادت لاتكون الاخيالا فكان كل صاحب ارض عظيم يجعل ارضه بارونية مستقلة خارجة عن حكم الملك وكانت الدوقات الذين هم حكام الاقاليم والقونتات الذين هم حكام القرى والاخطاط الصغيرة وكذلك الضباط الملازمون للملك واكابر اتباعه قد جعلوا مناصبهم وراثية لاولادهم وعائلاتهم مع انهم كانوا اكتسبوها فى الاصل ليتمتعوا بها مدة حياتهم حتى ينزعها الملك منهم وكان كل بارون من البارونيين قد نسب لنفسه بالادعاء والزعم جميع الحقوق التى لم يكن قد اتصف بها احد قبل ذلك الوقت سوى الملك كاجرآء احكام خصوصية فى اراضيهم والتزاماتهم وكضرب المعاملة واشهار الحرب وغير ذلك فكانت كل ارض محكومة بحسب عوايد اهلها ولها ملتزم مخصوص لاتنقاد لغيره ولها مزايا مخصوصة وبالجملة فلم يبق عند سفهاء هؤلاء البارونيين من الطاعة للملك والانقياد اليه الا الطريقة الجارية عندهم فى احترامه وتبجيله بل كانوا لا يفعلون ذلك الا باختيارهم وارادتهم

ولاشك ان المملكة المنقسمة الى عدة بارونيات مستقلة عن بعضها قل أن يوجد فيها اصول بها يسوغ حفظ نفع الناس كافة والتئامهم ببعضهم وحيث كان فى تلك الملة الاعلى والادنى ولم يكن الناس فيها على حد سوآء كان لايمكن للمشورة العمومية أن تعتبر فى احكامها الملة على حد سوآء بحيث تكون كجسم واحد ولا أن ترتب اصولا وقوانين عمومية لكافة الاهالى حتى تكون جارية على نسق واحد فى جميع اقسام الدولة وكان يمكن للملك أن ينشر قوانين جديدة ويجريها فى التزاماته الخصوصية حيث انه ملتزمها دون غيره ولكن لو اراد ان ينشر هذه القوانين فى جميع المملكة ويجريها فيها لاغتاظ منه سائر البارونيين وحقدوا عليه وعدوا ذلك تطاولا منه وهتكا لحرمتهم ومحض تعد القصد منه ابطال

استقلالهم فى الحكومة والافتاآت وكان البارينون كذلك لا يتعرضون ابدا
لتصديق قوانين اوشرآئع عمومية لان حق اجرآئها يكون للملك وذلك يزيد
فى قوته وشوكته وهو عكس مرادهم والداعى لغيرتهم منه وبالجملة ففى زمن
حكم ذرية هوغوس كاپيت كانت مشورة ليزيتاجنرو (اسم المشورة
العليا التى كانت فى فرانسا ومعناها مشورة وكلاء المملكة) قد فقدت شوكتها
ونفوذ كلمتها فى شأن الشرآئع اواهملت اجرآءها وتنفيذها ومن وقتئذ
صارت احكام اربابها وافتاآتهم مقصورة على ترتيب فرد وغرامات جديدة
وعلى القضاء فى بعض مسائل تتعلق بوراثة تاج المملكة عند موت الملك وتعيين
نائب ينوب عن الملك المتوفى اذا لم يكن عين فى وصيته من ينوب عنه وعلى
انشاء بعض قوانين فى شأن الاشياء التى تتشكى منها الاهالى وتطلب
اصلاحها

وحيث ان ملوك اوروبا مكثوا عدة قرون من غيران تلجئهم الحاجة والضرورة الى
ان يطلبوا من رعاياهم امدادات واعانات كبيرة تستلزم عقد مشورة ليزيتاجنرو
وكانت الاحوال التى تستلزم تلك المشورة نادرة صار عقد تلك المشورة
العظيمة نادرا فى مملكة فرانسا وانما كان يجمعها الملوك حين كان يحملهم
الخوف او الاحتياج على استعانتهم بها ولكن لم تكن مثل مشورة الديت التى
كانت فى الامبراطورية الالمانية ولا مثل مشورة اسبانيا المسماة قرطس
ولا مشورة انكلترا المسماة البرلمان بحيث تكون شطرا من الاصول المبنى عليها
ترتيب المملكة مثل هذه المشاور المذكورة التى كانت تقوى الحكومة وتنشطها
باستدامتها على اجرآء وظائفها المنوطة بها

مطلب
تغلب الملوك على
حق التشريع

فلما تركت مشورة ليزيتا حق التشريع اخذ ملوك فرانسا يتغلبون عليه ولكن
لم يتجاسروا فى مبدء الامر على انشاء شئ من الشرآئع الا بعد التبصر
والاحتراس التام خوفا من ان تقوم عليهم الرعايا لتصديهم الى هذا الامر
الجديد فلم يظهروا فى مبدء امرهم فى الاحكام والاوامر التى نشروها شيأ
مما يدل على تعاظمهم وانفتهم وشدة بأسهم بل كانوا يحسنون معاملة

رعاياهم و يعرضون عليهم الطرق والوسايط التى كانوا يرون انها الانفع والاصوب لتحصيل النفع العمومى و يلتمسون منهم قبولها والعمل بموجبها فى المملكة فنى اقرب وقت ازدادت المزايا والخصايص الملوكية على التدريج وعظمت شوكة ملوك فرانسا واتسعت دآئرة احكامهم الشرعية واعترف لهم الناس بان لهم الافتاء الاعلى فصاروا حينئذ يظهرون لرعاياهم التعالى و بطش المشرعين و بأسهم وقبل ابتدآء القرن الخامس عشر كانوا قد احاطوا بجميع اطراف حق التشريع وانفردوا به

مطلب
استيلاء الملك على حق ضرب الفرد و الغرامات على الاهالى

ولما تمكن الملوك من تلك الخصوصية الجديدة وقويت بها شوكتهم وامنوا عليها ثبت لهم كذلك بالسهولة حق ضرب الفرد والغرامات وذلك ان الاهالى كانوا يرون الملوك دائما تصدر عنهم اوامر تعود بالنفع على املاك الرعية وعقاراتهم فلم يحصل لهم غم عند ما طلب منهم بالاوامر الملوكية دفع مبالغ ضربت عليهم لحاجة المملكة ومصاريف الاعمال والمشروعات الملية وحين شرع الملك كرلوس السابع والملك لويز الحادى عشر فى اجرآء تلك العادة الحادثة وكان ذلك اول مرة كانت الشوكة الملوكية قد ازدادت بالتدريج وهيأ ازديادها عقول الفرنساوية لقبول تلك الحادثة فقبلوها من غير أن يحصل بينهم شقاق ولا فتن وقل أن وقع بينهم بعض قلق وتشك منها

مطلب
صيرورة حكومة فرانسا ملوكية محضة

ولما اكتسب ملوك فرانسا اعظم شوكة يمكن اجرآؤها فى الحكومة كحق تشريع الشرآئع والقوانين وترتيب الفرد والغرامات على الناس وابقاء جيوش مستأجرة على الدوام وعقد صلح واشهار حرب آل ترتيب المملكة بعد أن كان قريبا من الحكومة الدمقراطية (اى الجمهورية) فى زمن الدولة الاولى وصار فى زمن الدولة الثانية ارستوقراطيا (اى من قبيل حكومة الاشراف) الى ان صار فى زمن الدولة الثالثة مونرشيكا (اى ملوكيا محضا) والظاهر انه من وقتئذ بحث مع الاهتمام عن ازالة جميع ما يظهر ان فيه مزاولة لابقاء شىء من آثار حكومة الازمنة المتقدمة او يكون سببا فى تذكرها ففى مدة حكومة فرنسيس الاول الطويلة التى لم تحمد نيرانها كان هذا الملك فى حروب

كبيرة مستمرة لا ينقص از دحامها فاضطر الى ان يجعل على الرعايا فردا وغرامات جسيمة من غير ان يجمع مشورة ايزينا و يستوضيها فى ذلك وكان لا يؤذن للاهالى فى توزيع الفردو الغرامات بانفسهم على انفسهم مع ان هذا كان ثابتا قبل ذلك لكل رجل حر بموجب قوانين الحكومة الالتزامية

مطلب
حصر الشوكة الملوكية بمزايا الاشراف وخصايصهم (وهو الشئ الاول)

ولكن مع ذلك كله كان قد بقى شيئان من الرسوم القديمة ضيقا على المزايا الملوكية وحصراها فى حدود معينة لا تجاوزها ليلا يفسد ترتيب مملكة فرانسا و يؤول الى الظلم والتعدى احدهما الحقوق والمزايا التى كان يطلبها الاشراف فكان هذا الشئ بلاشك مانعا للشوكة الملوكية عن تعديها و تجاوزتها الحدود و تصرفها كيف تشاء نعم الاشراف بفرانسا كانوا وقتئذ فاقدين لشوكتهم التى كانت لهم بمقتضى القوانين ولكن كان ذلك بالنظر لمجموع طائفتهم بخلاف الحقوق الشخصية فكانوا باقين على المحافظة عليها وعلى رفعة قدرهم بمعنى ان كل شخص منهم كان لا ينسى حقوقه ولا علو مقداره فكانوا يعلمون ان مرتبتهم لم تزل فوق مراتب الرعايا و كانوا معافين من الفرد والغرامات دون الاهالى وكانوا يستحقرون اشغال الاهالى ويعدونها عارا عليهم بحيث كانوا لا يشتغلون بها ولا يدخلون فى مصلحة من مصالح الاهالى الا بمزية خصوصية يمتازون بها و لذلك انهم كانوا يأخذون نشانات وعلامات ظاهرة فى ملبوساتهم لكى يستدل بها على رفعة شأنهم وامتيازهم عن غيرهم من سائر الطوائف و كانوا يعاملون بالمراعاة فى زمن الصلح و كانوا فى زمن الحرب يدعون خصوصيات يمتازون بها عن الرعية نعم وان كان كثير من هذه الخصوصيات غير ثابت لهم بموجب اوامر ملوكية ولا مأخوذ من الشرائع والقوانين الصحيحة الموجودة بالمملكة الا انه مبنى على رسوم تعظيم واحترام كانت لهم وهذه الرسوم وان كانت لا تصل الى درجة القوانين الشرعية والاوامر الملوكية فى التأثير والثبوت على اصل متين الا انها لم تكن دونها فى الاحترام

ولما كانت حقوق الاشراف ناشئة عن احترامهم الذى كان يحملهم على حفظها ومحاماتها صارت محترمة حتى عند الملك وكان اذا تعارضت حقوقهم فى امر مع حقوق الملك عطلت الحقوق الملوكية وابطلت اجراءها فلو كان هنالك ملك ظالم ذو بطش شديد لامكنه محق هذه الطائفة وتدميرها بالكلية ولكن مادامت تلك الطائفة باقية على حالها ومحافظة على امتيازاتها الشخصية كان لا يرجى للشوكة الملوكية ان تتسع دآئرتها بل تكون محصورة فى حدود ضيقة

وحيث ان اشراف فرانسا كانوا كثيرين جدا وعندهم غيرة كبيرة على حفظ رفعة شأنهم لم تزل شوكتهم فى النمو والازدياد حتى انتهى الامر الى ان صاروا يعينون للملك الطرق التى يسلكها فى احكامه بحيث لا يتعداها الى غيرها وبذلك امتازت المملكة الفرنساوية عن غيرها وصارت تلك الطائفة حائلا متوسطا بين الملك والرعايا وصار احترام مزايا تلك الطائفة الاهلية من الامور الضرورية الواجبة فى جميع الاحوال فكان يحترس من حصول ادنى تعد ظاهر على خصوصياتهم بل وعما يوهم التعدى وهتك الحرمة فبذلك كنت ترى فى فرانسا نوع حكم مونرشيكى (اى ملوكى) لم يكن معلوما عند الاقدمين وهو ان شوكة الملك كانت غير مضيق عليها بقانون شرعى مخصوص وانما كانت محدودة محصورة بموجب رأى طائفة من رعاياه اقتضى تضييقها

مطلب تضييق الشوكة الملوكية بحكم دواوين البرلمان (وهذا هو ثانى الشيئين المتقدمين)

والشئ الثانى هو انه صدر من دواوين البرلمان التى كانت بمملكة فرانسا خصوصا من برلمان باريس احكام بها ازداد حصر الشوكة الملوكية فى حدود ضيقة وذلك ان برلمان باريس كان فى الاصل ديوان ملوك فرانسا والمحكمة العليا التى كان يأتمنها الملوك على تدبير القضاء والحكم بالعدل فى التزاماتهم واراضيهم حتى كانوا يرخصون لارباب ان يحكموا حكما نهائيا قطعيا فى جميع الدعاوى التى كانت ترسل اليهم وتحال عليهم من دواوين البارونين فلما تعلم حال هذا الديوان وتعين زمن انعقاده ومكانه وانتظمت احكامه واصوله وكيفية اقامة الدعاوى فيه وصارت تحال عليه جميع الدعاوى المهمة

واعتادت الاهالى السعى اليه كمحكمة العدل الكبرى زادت شوكته ونفذت كلمته واكتسب اربابه علو القدر والاعتبار حتى صارت احكامهم محترمة نافذة ومع ان خصوصية التشريع وانشاء القوانين والاحكام كانت من خصوصيات ملوك فرانسا كانت لا تجرى احكامهم واوامرهم الا اذا عرضت على برلمان باريس وقبلت فيه وقيدت وبعد ذلك تعد من القوانين الجارية فى المملكة وحيث كانت مشورة وكلاء المملكة لا تنعقد الا فى اوقات مخصوصة كان الملوك فى خلال المدة التى لا تنعقد فيها تلك المشورة يشاورون البرلمان فى شأن المعضلات والمصالح التى يصعب تدبيرها بل كانوا غالبا يسلكون على حسب رأى ارباب هذا الديوان سوآء كان ذلك فى اشهار حرب وفى عقد صلح اوغير ذلك من المصالح الجسيمة المهمة وصار هذا الديوان فى فرانسا محكمة كبرى تستمد منها جميع الشرآئع وكانت كيفية احكامه منتظمة لا تتغير حتى ترتب فيه طرق جديدة لاقامة الدعاوى واصول لاجرآء العدل صارت محترمة بحيث ان الملك نفسه كان يخشى ان يتعداها او يهتك حرمتها ومع ان ارباب هذا الديوان الفاخر لم يكونوا مقلدين بخصوصية التشريع ولم يكونوا وكلاء الرعية فقد امكنهم بما اكتسبوه فيما بعد من الاعتبار ونفوذ الكلمة ان يعارضوا فى كل حادثة اومظلمة صدر بها قانون من طرف الملك

مطلب ترتيب ايمبراطورية المانيا وحكومتها

ولم تزل فرانسا فى ازدياد واتساع حتى وصلت الى ضواحى ايمبراطورية المانيا التى نذكر لك هنا قانونها السياسى على ما كان عليه فى ابتدآء القرن السادس عشر من غير أن نأتى فى ذلك بتفاصيل يضل فى اعماقها عقل قارئ كتابنا هذا كتعداد محاكمها وبيان اربابها الكثيرين ومنازعة بعضهم بعضا فى الحقوق والخصايص التى كانوا يدعونها وما كان يقع بين علماء الاحكام من المناقشات والمجادلات العديدة فى شأن تلك الاشياء

مطلب حالة ايمبراطورية المانيا تحت حكم كرلوس مانوس وذريته

وكانت ايمبراطورية كرلوس مانوس كبنيان عظيم واسع بنى وشيد فى قليل من الزمن بحيث لا يمكن دوامه ففى زمن حكومة اول خلفائه اخذ اساس هذا البنيان فى تزلزل وارتجاج اعقبه تدمير واضمحلال فسقطت هذه

الايمبراطورية كانها اضغاث احلام فانفصل من وقتئذ تاج المانيا عن تاج مملكة فرانسا ولم يجتمعا ثانيا فاسس خلفاء كرلوس مانوس هاتين المملكتين الكبيرتين اللتين حصل بينهما الشقاق والخصومة وصارتا عدوتين لبعضهما بسبب وضعهما الذى هما فيه بالنسبة لبعضهما فالفرع الذى استولى فى المانيا على كرسى السلطنة من ذرية كرلوس مانوس فسد حاله اقل من الفرع الذى حكم فى فرانسا لان الشوكة الملوكية بالمانيا كانت فى مبدء الامر باقية على درجة من القوة لم تكن لملوك فرانسا حتى ان اشراف المانيا مع انهم كانوا يتمتعون بمزايا واسعة جدا وكان لهم املاك واراضى التزامية كثيرة لم يمكنهم ان يصلوا الى استقلالهم بانفسهم الامع البطئ والتأنى ولم يزل اكابر ضباط التاج ملازمين لطاعة الملك وتحت طلبه برهة طويلة ومكثت الالتزامات مدة مستطيلة على حالتها الاصلية من غير ان تكون وراثية لعائلات من كانت بايديهم بل كانت تنتقل من ملتزم الى آخر ومن عائلة الى اخرى على حسب ارادة الملك

ثم انقرض الفرع الغساوى من العائلة الكرلوفنجية بعد المكابدات والتقلبات العديدة واما الفرع الذى كان يحكم فى مملكة فرانسا فانه لجبنه سقط من أوج الاعتبار الى حضيض الاحتقار حتى صار اهل النمسا لايعتبرون احدا من ملوك هذا الفرع وجاوزوا الحدود فى حقوقهم الثابتة لهم بحريتهم فعقدوا مشورة عمومية من الملة وانتخبوا بحضرة اربابها كونراد قونتة فرنكونيا واقاموه ايمبراطورا عليهم وانتخبوا بعده هنرى دوسكس ثم ثلاثة من ذريته يسمى كل منهم باسم أوتون فعادت بهجة المملكة اليها بسبب اتساع اراضى الايمبراطورية السكسونية ومعارفهم وجسارتهم وشجاعتهم وازدادت الشوكة الملوكية وعظم بأسها وخيف بطشها فتوجه الايمبراطور أوتون الاكبر الى ايطاليا قائدا جيشا جرارا وتأسى بسلفه كرلوس مانوس فتغلب على تلك البلاد ورتب فيها قوانين وشرائع جديدة موافقة على حكومتها بجميع ممالك اوربا فنصب بابات بارادته وعزل آخرين وضم مملكة ايطاليا الى ايمبراطورية

(سنة ٩١١)

(سنة ٩٥٢)

المانيا

مطلب
اكتساب اشراف
المانيا القوة
والاستقلال

المانيا فعميت بصائره بظفره هذا واغتر بسراب نجاحه ولقب نفسه بالقيصر اوغوسطوس وزعم انه خليفة ايمبراطرة مدينة رومة القديمة وانه وارثهم فى حقوقهم ودولتهم مع انه مولود بالبلاد الجرمانية

ولكن بينما كان هؤلاء الايمبراطرة يزيدون على التدريج فى شوكتهم بواسطة هذه الالقاب والفتوحات الجديدة لتشتغل اشراف المانيا بتوسيع مزاياهم وتقوية احكامهم وافتا آتهم لاسيما وكانت احوال الوقت تساعدهم فى مشروعاتهم حيث ان القوة والسطوة التى اكتسبتها الشوكة الملوكية فى زمن كرلوس مانوس كانت قد ضعفت وتلاشت فى اقرب وقت فحصل لبعض خلفائه ضعف وعجز كبير بحيث انه كان يسوغ لاتباعهم الذين هم اقل شوكة من الاشراف ان يزيدوا وتتشدد فى مزاياهم ويدعوا حقوقا جديدة وكان البعض الآخر من الايمبراطرة خلفاء كرلوس مانوس مشغولا دائما بالحروب المدنية الداخلية فاضطروا الى ان صاروا يراعون خاطر الاحزاب التى كانت معهم من الاهالى الذين يساعدونهم فكانوا يتغافلون عن تعدى هذه الاحزاب الحدود بل كانوا غالبا يقرونه ويستحسنونه فصارت الالتزامات على التدريج وراثية يتوارثها العصبة او الحواشى وكان النساء والرجال يطلبون حقوقهم فى الالتزام الموروث لهم واخذ يرتب كل من البارونين فى اراضيه والتزاماته احكاما خصوصية وافتاء مستقلا عن افتاء المملكة وكذلك دوقات المانيا والقونتات اشتغلوا عند وجود هذه الفرصة بجعل اراضيهم التزامات مخصوصة مستقلة بنفسها وكل ذلك كان لا يخفى على الايمبراطرة بل كانوا يعلمونه غير انهم كانوا يعلمون انه لا يمكنهم قمع نفوس اتباعهم الطماعين الا اذا صرفوا جميع قواهم وبذلوا كل جهدهم اذ كان هؤلاء الاتباع ارباب شوكة وقوة عظيمة وحيث كان هؤلاء الملوك وتتشدد يعتنون فى الاكثر بغزواتهم مع بلاد ايطاليا ورأوا انه لا يمكنهم النجاح بتلك الغزوات الا بمعاونة الاشراف لم يريدوا أن يغضبوا رؤساء تلك الطائفة بالتعدى على مزاياهم وافتاآتهم وظنوا انه يمكنهم أن يتوصلوا

مطلـــــب
اكتساب قسيسى
المانيا شوكة مثل شوكة
الاشراف

مطلـــــب
النتايج القبيحة التى
نشأت عن تقوى
شوكة القسيسين
واتساع قدرتهم
(سنة ١٠٢٤)

الى هذا المقصد بطريق اخرى وهى أن صاروا يعطون لطائفة القسيسين املاكا عظيمة وأغدقوا عليهم بالخيرات وجعلوها طائفة محترمة مؤملين أن قدرة هذه الطائفة فيما بعد تكون موازية ومعادلة لقدرة الاشراف

وعما قليل ظهرت نتايج وثمرات شنيعة لهذا التدبير السياسى الذى كان عن خطاء ونشأ عنه خلاف مقصود هؤلاء الايمبراطرة وتغيرت احوال المصالح فى زمن ايمبراطرة عائلات فرنكونيا وسوابه الذين انتخبهم اهالى المانيا بالطوع والاختيار للاستيلاء على الايمبراطورية فصارت المانيا بهذا التغيير ميدانا للواقعة تعجب منها اهالى اوربا بل ولا يمكن الآن التصديق بها عقلا وهى ان البابات الذين كانوا الى ذلك الوقت من تعلق الايمبراطرة ومن اتباعهم وتحت حكمهم ولم يحصل لهم ترقية ولا اكتساب شوكة الاجتماعية الايمبراطرة طلبوا ان تكون لهم الحكومة العليا فى الافتاآت زاعمين انهم خلفاء الله فى ارضه فصاروا يحكمون على الايمبراطرة بالعقاب والفسق والخروج عن الدين وبالعزل عن منصب الايمبراطورية وهذه المشروعات لم تكن ناشئة عن طمع كاهن او بابا اغتر باتساع حكومته القسيسية وعظم شوكته البابية بل من تصدى لذلك كان جديرا به وهو البابا اغرغوار لانه كان نشطا جسورا فكان يومل نجاح دعواه وتصديه لهذا المقصد بسبب حذقه واستقامة سياسته وكثرة معارفه السياسية فلما وجد امرآء المانيا واشرافها مهانين عند الايمبراطرة اولى سطوة بسبب اتساع التزاماتهم واراضيهم واستقلال افتاتهم عن افتاء ايمبراطرة عصرهم ورآهم مستعدين لتجهيز مشروع كان يفضى الى حصر الشوكة الايمبراطورية فى حدود ضيقة ورأى ايضا ان القسيسين المساوية كانوا فى القوة تقريبا مثل هؤلاء الامرآء والاشراف وانهم بلاشك يعينون بقدر ما يمكنهم كل من يظهر المحاماة عن مزاياهم وخصايصهم ويجتهد فى طلب استقلالهم اخذ يتداول فى هذا الشأن مع الاشراف والقسيسين حتى تيقن قبل ان يدخل الميدان

مع الايمبراطور ان هنالك من احزاب هاتين الطائفتين اناسا كثيرين ارباب شوكة قوية يعينونه اتم الاعانة على مرامه

مطلـــــــع المشاجرات التي حصلت بين البابات والايمبراطرة

فتعلل اغرغوار بعلل يظهر انها حقة وان كانت في الواقع لا اصل لها وبدأ بالشقاق والمنازعة مع الايمبراطور هنري الرابع وذلك انه تشكى من كون هذا الايمبراطور قد وهب بنفسه للقسيسين عطايا كثيرة وتبرع لهم بانعامات واموال قسمها بينهم وهذا مخل بمزايا اغرغوار لانه يزعم ان حق هذه القسمة من وظيفته اذ هو رئيس الكنيسة وطلب من هنري المذكور أن لا يعود لمثل ذلك وان لا يتعدى حدود الافتاء المدني وان لا يحكم في ماعداه من الافتاآت وان يجتنب الجور والتعدى على ما هو من وظيفة البابات مما يتعلق بالديانة فلما ابى الايمبراطور ذلك ولم يرض بترك هذه الحقوق لانها كانت ثابتة لاسلافه صار مغضوبا عليه وطريد الكنيسة فخرج عليه امرآء المانيا واعيانها واكابر قسيسيها واخذوا في قتاله وحرضوا عليه امه وزوجته واولاده حتى بغضوه وتبرأوا منه جميعا ونقضوا كل رابطة بينهم وبينه طبيعية كانت اوشرعية وانضموا الى حزب اعدآئه فهذه هي الحيلة والواسطة التي اضرم بها ديوان رومة نيران حمية بدع هذا العصر وهوس اهله وعرف ان يأخذ بعقول احزاب الفتن من اهل ايطاليا واهل المانيا حتى ان هذا الايمبراطور الممتاز بالفضائل العالية والمعارف النادرة الوجود اضطر الى ان يظهر بالتضرع على ابواب قصر البابا ومكث عليها ثلاثة ايام مكشوف الرأس في شدة القر والبرد ليطلب العفو من البابا ومع ذلك فلم ينله الا مع الصعوبة واشتراط شروط مفضحة تمزق العرض

(سنة ١٠٧٧)

فتلك الكيفية المدنسة بخست بمقام الايمبراطورية بخسا بقي اثره مدة طويلة ونشأ عن هذه المشاجرة التي حصلت بين اغرغوار وهنري تحزب حزبين عظيمين عدوين لبعضهما احدهما يقال له حزب الغويلف والآخر يسمى حزب الجبلين فكانت بهما نيران الفتن مضطرمة بين المانيا وايطاليا ثلاثة قرون من غير خمود فكان حزب الغويلف يمانع عما يدعيه البابات

من المزايا وحزب الجبليين يحامى عن الشوكة الايمبراطورية ولكن فى اثناء هذه التعكيرات والفتن ظهر رأى معضد شديد العصبية يقول باذلال الايمبراطرة وبخسهم واضعاف شوكتهم وصار هذا الرأى متبعا مويدا عدة قرون وكان بابات ايطاليا واهاليها المستقلة الحرة واشراف المانيا وقسيسوها يرغبون جميعا فى نجاح هذا الرأى ومع ان الشوكة الايمبراطورية كان يحصل لها قوة وصولة فى مدة بعض ايمبراطرة ارباب براعة وحزم لم تزل آخذة فى الانحطاط والاضمحلال حتى انه فى مدة الفترة الطويلة التى حصلت عقب موت الايمبراطور غليوم الهولندى لم يكن باقيا فيها الا مجرد الخيال والصورة

مطلب تنازل الشوكة الايمبراطورية وانحطاطها على التدريج (سنة ١٢٥٦)

(سنة ١٢٧٣)

ثم ولى رودولف دوهسبورغ ايمبراطورا على المانيا بالانتخاب وهو الذى انعش عائلة اوستريا ومهد لها ما يكون به علو شأنها فى المستقبل ولم يكن انتخابهم له ناشئا عن ظنهم فيه انه يرفع دعائم الشوكة الايمبراطورية بل لما ظهر لهم من ضعف شوكته وقلة التزاماته فلا يغار منه امراء المانيا الذين كانوا يأملون ان يثبتوا لانفسهم مزايا الشوكة الملوكية التى كانوا اضعفوها ثم تولى الايمبراطورية بعده عدة ايمبراطرة لهذه العلة بعينها وكانوا ضعفاء الشوكة فسلبت منهم جميع الحقوق التى كانت باقية للايمبراطرة حيث لم يمكنهم ادارتها ولا الممانعة عنها

مطلب تغيير ترتيب تلك الايمبراطورية تغييرا كليا

وفى هذا الزمن الكثير التعكيرات والفتن حصل انقلاب عظيم وتغيير جسيم فى ترتيب الجمعية الجرمانية فلم يبق فيها شئ على اصله سوى الاسماء القديمة التى كانت تسمى بها المحاكم واسماء القضاة ولم يبق من السياسة القديمة الا مجرد الصورة الظاهرية واما باطن الحكومة فقد تغير بالكلية وذلك انه حصل مدة الفترة التى كانت بعد موت غليوم الهولندى وخلو كرسى الايمبراطورية عن حاكم ان اكابر الاشراف واعيان القسيسين واهالى المدن الحرة المستقلة بذلوا جهدهم فى اثبات ما كانوا يزعمونه من الحقوق وتوسيع ما كانوا قد حازوه بالغصب والتعدى فادعوا ان لهم الحق فى كونهم

يحكمون فى اراضيهم بحكومة مطلقة مستقلة ولم يرضوا ان ينقادوا لرئيس
فى مصلحة مما يخص تدبيرهم الداخلى و سياسة التزاماتهم وكانوا يحدثون
قوانين وشرآئع جديدة و يشهرون الحرب ويعقدون الصلح ويضربون
المعاملة و يرتبون الفرد والغرامات على الاهالى وبالجملة فكانوا يجرون
سائر الاعمال الملوكية التى تمتازبها كل دولة مستقلة عن غيرها ومحيت اصول
الانتظام والقوانين السياسية التى كانت انضمت بها اقاليم المانيا الى بعضها
وصارت جمعية واحدة فلولا انه كان هنالك صورة ارتباط وعلاقة بين
الجمعية الجرمانية والحكومة الالتزامية لانحل عقد نظامها وصارت عدما
الا ان ارتباطها بالحكومة الالتزامية وان كان صوريا انقذها من ان
تتقرض بالكلية

مطلب
وسايط مستعملة
لابطال اختلال
الدولة

ثم ان هذا الارتباط الجامع بين الحكومة الالتزامية والجمعية الجرمانية
كان واهيا جدا بحيث لم يبق فى الجمعية الجرمانية قوة كافية لحفظ الامن
بين الناس وابقاء الراحة العمومية بل ولا ما يوجب الطمأنينة الشخصية
وبالجملة فمن استيلاء رودلف دوهسبورغ على كرسى الايمبراطورية الى
حكومة مكسيمليان الذى خلفه شرلكان قاست تلك الايمبراطورية جميع
الاهوال والمصائب التى تكون عرضة لها كل دولة فقدت شوكتها ولم يبق
فى وسعها وسيلة تدافع بها عن نفسها فكانت بلاد الجمعية الجرمانية فى كرب
شديد مما كان يتجدد فيها على الدوام من اسباب الفتن والشقاق التى يتعذر
مجانبتها فكانت نيران مشاجراتها الخصوصية لا تنطفى لما كان فى الناس
اذ ذاك من الحقد على بعضهم ولم يكن هنالك شوكة قوية تمنعهم عن بعضهم
وتطفىء تلك النيران المتقدة بينهم فطغوا وبغوا وفشا بينهم الظلم والجور
والسلب والنهب فى جميع البلاد وانقطعت التجارة وتعطلت الصنايع وصارت
اقاليم المانيا اشبه ببلاد اتلفها الاعدآء وخربوها فتنبه الناس الى استعمال
بعض وسايط يسترجعون بها الراحة والامن بينهم و يضبطون بلادهم
ويزيلون خللها وهذه الوسايط نفسها مما تدل على ان المصائب التى نشأت

عن تلك التقلبات وعن عدم الحكم كانت لاتطاق فميزوا بجماعات منهم لتكون حكما بين الاخصام فى شأن المشاجرات التى كانت تقع بين الايالات المختلفة واجتمعت المدن عصبة واحـدة وتعاهدت على قمع الاشراف عن التعدى والظلم واتفق الاشراف كذلك مع بعضهم على ان يحافظوا على الطمأنينة والامن وأن لايفعلوا مايوجب الفشل والشقاق بينهم وقسمت المانيا الى عدة اقسام كل قسم منها له حكومة تخصه واحكام مقصورة عليه قامت مقام المحكمة العمومية المشتركة بين عموم الناس ولكن جميع هذه الوسايط لم تجد نفعا وبذلك يستدل على عظم المصائب والاهوال التى لحقت تلك الجمعية ثم انه بعد المكابدات الكثيرة والمشاق الصعبة توصل الايمبراطور مكسيمليان الى استرجاع الامن والنظام والطمأنينة العمومية فى جميع بلاد تلك الايمبراطورية حيث احـدث فيها ديوانا يقال له المجلس او الديوان الايمبراطورى وهو كناية عن محكمة مركبة من عدة قضاة بعضهم انتخبه الملك وبعضهم انتخبه الاهالى ورخص لهذا الديوان أن يحكم ويقضى فى جميع دعاوى الجمعية الجرمانية كيف يشاء من غير ان يراجع فى حكمه احد وبعد مضى بعض سنوات غير هـذا الايمبراطور صورة المشورة الاوليقية (اى المشورة العليا) التى كانت تحال عليها دعاوى الالتزامات والدعاوى التى تخص اقتناء الايمبراطور وبذلك اكتسبت شوكته بعض قوة وشدة

مطلب
تجديد المجلس الايمبراطورى

(سنة ١٤٩٥)

(سنة ١٥١٢)

ومع انه تحصل مما احدثه هذا الايمبراطور بعض امور اعانت كثيرا على اقامة الايمبراطورية كانت حكومة تلك الايمبراطورية فى ابتداء القرن الذى نتكلم عليه لم تزل حكومة خصوصية لاتشبه فى شئ جميع الحكومات التى عهدت عند المتقدمين والمتأخرين وذلك لان تلك الايمبراطورية كانت مركبة من عدة دول مختلفة كانت كل واحدة منها تجرى فى شأن اراضيها والتزاماتها اقتناآت واحكاما مخصوصة لاتعلق لها باحكام الاخرى من تلك الدول التى كان يحكمها ايمبراطور واحد فكان جميع ما يشرف الايمبراطورية من الاوامر والقوانين التى تخص كافة الاهالى والرعايا يصدر باسمه وكان له

مطلب
فى ان تلك الايمبراطورية فى ابتداء القرن السادس عشر كانت مركبة من مجموع دول مستقلة عن بعضها فى الحكم

قدرة على اجرآئه وتنفيذه فى جميع بلاده ولكن تلك القدرة لم تكن الاصورية فقط حيث كانت قدرة الامرآء والاشراف والدول اشد تأثيرا منها فى تدبير سائر الاعمال السياسية فكان لا يمكن من غير رضى مشورة الديته احداث قانون فى الجمعية الجرمانية ولا عمل شئ يخص المصلحة العامة وكان كل امير له الحق فى أن يحضر فى هذه المشورة ويعطى رأيه وكذلك وكلاء كل دولة من الدول المستقلة السابقة كانوا يحضرون تلك المشورة ويشاركون فى الشورى وكانت شرآئع الا يمبراطورية ترتب على حسب ما انحط عليه الرأى فى تلك المشورة ويجب على الايمبراطور قبولها والامر باجرآئها

مطلب الخصوصيات التى امتازت بها الجمعية الجرمانية

واذا نظرت الى ترتيب تلك الايمبراطورية من هذا الوجه وجدت فيها مشابهة للعصبة الاخائية التى كانت ببلاد اليونان فى الازمنة الخالية وللمعاهدة التى كانت بالاقاليم المجتمعة والاقاليم السويسية فى الازمنة الاخيرة واذا نظرت اليه من جهة اخرى رأيت فيها من الخصوصيات ما يميزها عن غيرها من الجمعيات وذلك ان هذه الجمعية الجرمانية لم تكن مستقلة عن بعضها استقلالا كليا بل كان جميع امرآئها ودولها سابقا رعايا للايمبراطور وكانت تعترف له بالتملك عليهم وكانت اراضيهم فى الاصل التزامات للايمبراطور ثم اقطعها لهم على انها التزام ايمبراطورية بمعنى انهم ينتفعون بها من غير تملك وله ان يستردها منهم متى شاء فكان يجب عليهم أن يوفوا له بما يجب التوفية به للملتزم على اتباعه الذين يدفعون له الخراج نعم وان كان هذا الامر قد انعدم وتلاشت التبعية الالتزامية الان الرسوم والقوانين القديمة كانت محفوظة فى الصورة باقية على ما كانت عليه حين كانت كلمة ايمبراطرة المانيا نافذة وشوكتهم قوية فى بلادهم كغيرهم من ملوك اوربا فبذلك كان يوجد فى الايمبراطورية الجرمانية مباينة كلية بين باطن الحكومة وكيفية التدبير وذلك انه بمقتضى الحكومة لم يكن الايمبراطور الا رئيسا على الجمعية حيث ولاه اهلها ملكا عليهم باختيارهم وانتخبوه بارادتهم

مطلب
امور مخلة كانت موجودة فى ترتيب الايمبراطورية

واما بالنظر الى التدبير وظاهر الحكومة فكان يظهر ان للايمبراطور الحكم المطلق فى الحكومة فبناء على ذلك كان ترتيب الجمعية الجرمانية مشتملا على امور موجبة للفشل بين اعضاء تلك الجمعية حيث كانت تضعف الروابط الباطنية بينهم وتمنعهم من تنظيم اعمالهم وتنجيز مشروعاتهم السياسية ونشأ عن هذا الخلل الذى كان ملازما لقوانين الايمبراطورية حوادث عظيمة يتعذر على جاهلها ان يقف على حقيقة كثير من وقائع حكومة شرلكان وان يعرف الحكومة الجرمانية معرفة صحيحة

مطلب
عيوب اخرى نشأت عن حصر الشوكة الايمبراطورية وشدة التضييق على الملك

وفى ابتداء القرن السادس عشر كان ايمبراطرة المانيا ممتازين بافخر الالقاب الملوكية وبنشانات وعلامات دالة على علو شأنهم فكان يظهر ان لهم شوكة اعلا واعظم من شوكة غيرهم من الملوك وكان اعظم امراء الايمبراطورية يصحبونهم ويخدمونهم فى بعض الاحيان بوظيفة ضباط بيت الملك وكانوا يتمتعون بمزايا وخصوصيات لم يمكن لغيرهم من الملوك أن يتجاسر على أن يدعى مثلها لنفسه فحافظوا على جميع الحقوق التى كانت ثابتة لاسلافهم فى الازمنة الخالية واما من جهة الاملاك والالتزامات الواسعة التى كانت لايمبراطرة المانيا سابقا على امتداد شاطئ نهر الرين من مدينة بالة الى مدينة كولون فانهم تجردوا عنها وعن غيرها من سائر الاملاك الارضية بحيث لم يبق لهم مدينة ولا قصر ولا شبر من الارض يملكونه بوظيفة كونهم رؤساء الايمبراطورية وبذلك قلت ايراداتهم جدا حتى كادت ان تكون عدما * والامدادات العظيمة الجسيمة التى كانوا يأخذونها بالسهولة من الاهالى عند الحاجة صارت لا تعطى لهم الا بغاية الصعوبة والتقتير والتضجر من الاهالى حتى ان امراء الايمبراطورية وسائر دولها لم تكن رعية للايمبراطور الا بالاسم فقط وان كان يظهر منها الانقياد والامتثال له لان كلا من الامراء وتلك الدول كان يجرى فى اراضيه احكاما وافتاءات خصوصية مستقلة عن افتاء الايمبراطور

مطلـــــــب
فيما يتعلق بالقاب الايمبراطـرة وادعاآتهم

ولما كانت الحكومة بهذه الصورة رديئة التدبير حصل لها مضار عظيمة بعدم اجتنابها واول ذلك ان الايمبراطرة لما اغتروا بابهة القابهم ورونق نشأتهم التى كانت تدل على اتساع الشوكة وعظمها حملهم ذلك على ان اعتقدوا انهم هم ملوك المانيا الحقيقيون وانهم لا يشركهم فيها احد فصاروا يسعون دائما مع بذل الجهد فيما يثبت لهم التمتع بالحقوق والمزايا التى كان يظهر لهم امكان تحصيلها بموجب قوانين الايمبراطورية لاسيما وكان يتمتع بها قبلهم كرلوس مانوس والايمبراطور أوتون ولما كان الامرآء واهل الدول لا يجهلون مأ ر بهم وانهم فى دعوى عريضة صاروا يلاحظون الديوان الايمبراطورى فى سائر حركاته وافعاله لحصر واشوكتهم فى حدود اضيق مما كانت عليه ونشأت المنافسة بين الحزبين فكان الايمبراطرة يستعينون على ثبوت تلك المزايا الادعائية لهم بالرسوم والقوانين القديمة وكان الامرآء واهل الدول يعدون هذه الرسوم من الامور التى الغيت وبطل العمل بها ويتعضدون بقواعد واصول جديدة ويؤسسون دعواهم على خصوصيات حادثة يدعون ان الملوك معتدون عليهم فى شأنها عادلون فيها عن منهاج الحق

مطلـــــــب
طريقة انتخاب الملوك

وقد ازدادت غيرة الامرآء واهالى الدول من الشوكة الايمبراطورية وعظمت المعارضة والمناقضة بين حقوقهم وحقوقها واشتدت المنافسة بينهم وبينها حين صار الايمبراطرة يولون على المملكة بانتخاب بعض امرآء من الاشراف مخصوصين ممتازين عن غيرهم فى الدرجات والمناصب وكان قبل ذلك يجتمع اهل الجمعية الجرمانية كلهم ليتفقوا على انتخاب رئيس للايمبراطورية عند خلو الكرسى من الايمبراطرة ثم فى اثناء الفتن والتقلبات التى افسدت حالة اوروبا ونحو بتمادة قرون عديدة ظهر سبعة من الامرآء اصحاب التزامات واراض واسعة جدا نالوا من مناصب الدولة العظيمة حقا ورائيا فادعوا انهم دون غيرهم لهم الحق فى انتخاب الايمبراطرة وثبت ذلك الحق لهم بالفرمان المسمى فرمان الذهب الصادر من الملك كرلوس الرابع وبهذا الفرمان تبين لهم طريق هذا الانتخاب وكيفيته ولقب هؤلاء السبعة بلفظ

ايلكتور اى المنتخبين فلارأى الاشراف واهل المدآئن الحرة انهم تجردوا عن تلك المزية وخرجوا عن دآئرة اربابها مع انها كانت ثابتة لهم منذ زمن طويل تناقصت محبتهم فى الايمبراطور حيث لم يكن لهم دخل فى توليته بل كانوا يخافون من ازدياد شوكته ولكن عما قليل عظمت سطوة هؤلاء المنتخبين حتى صار يهابهم الايمبراطرة و يخشون بأسهم لعظم شوكتهم واتساع دآئرة مزاياهم وخصوصياتهم لانهم كادوا يساوون بها الايمبراطرة فى بعض الاحكام الافتائية و بالجملة فلم يترتب على انشاء هذه الجمعية الانتخابية فى الايمبراطورية واكتسابها الشوكة الا تقوية الفشل الذى كان ملازما للجمعية الجرمانية مع انه كان القصد من انشائها قطع عرق الفشل وازالته

مطلب
تنوع صور الحكومات فى دول الجمعية الجرمانية

وكانت اسباب هذا الفشل مقواة بتنوع صور الحكومات المدنية التى كانت فى الدول الجرمانية بل ربما كانت هذه الحكومات متناقضة مع بعضها لتلك الاسباب ولا يتصور وجود التئام واتحاد كامل بين الدول المستقلة عن بعضها ولو فرض ان صور حكوماتها متقاربة ومتشابهة وحيث ان الايمبراطورية الجرمانية كانت مركبة من امرآء وقسيسين ومدآئن حرة مستقلة وكلها كانت بمعزل عن بعضها كان يتعذر ائتلافها والتئامها مع بعضها التئاما تاما فكانت المدآئن الحرة جمهوريات صغيرة مائلة لقوانين الاستقلال والتولع بالحرية كما هو شأن الحكومات الجمهورية واما الامرآء والاشراف فكان لهم الحكومة العليا حيث كانوا يحكمون فى التزاماتهم بنوع تصرف ملوكى وادارتهم الداخلية كانت تشبه ادارة الممالك الكبيرة المحكومة على حسب القوانين والاصول الالتزامية فيتعذر بلاشك ان يكون هنالك موافقة بين اغراض هذه الحكومات المختلفة واصولها وذلك لان اغراض المدآئن التى كانت تميل اليها وتسعى فى تحصيلها هى التولع بالحرية والتجارة واما اغراض الامرآء والاشراف فكانت منحصرة فى كسب الشوكة وحوز الفخار العسكرى فبذلك كان من المستحيل توافق آرآئهم واغراضهم

مطلب
في بيان اسباب المنافسة التي كانت بين قسيسي الايمبراطورية وامرآئها واشرافها

ولم يكن ايضا بتلك الايمبراطورية اتفاق ولا اتحاد بين القسيسين والامرآء والاشراف كما لم يكن ذلك بين المدآئن الحرة والاشراف فكان في المانيا عدة اسقفيات ودبور لها اراض والتزامات واسعة وكان للقسيسين اصحاب المقامات مناصب مهمة من اعظم مناصب الدولة ثابتة لهم بحق وراثي فكان ماعدا البكري من اشراف الرتبة الثانية اذا اعدلوظيفة القسيسية يعطى من تلك المناصب العظيمة الممتازة فكان يتضرر الامرآء واشراف الرتبة الاولى من كونهم يرون من هو ادنى منهم رتبة يصل الى درجاتهم ويصير معهم في رتبة واحدة بل ربما كانوا يطفشون بهجتهم بمناصبهم العالية وايضا كان القسيسون بتربيتهم وتعليمهم ووظيفتهم وملازمتهم لديوان البابات بمدينة رومة لهم طباع وخصوصيات مخالفة لطباع غيرهم من اهل الجمعية الجرمانية الذين كانوا يشركونهم في المذاكرات فهذا موجب آخر لازدياد الغيرة والفشل في الايمبراطورية يلزم معرفته لمن اراد الوقوف على حقيقة ترتيب الجمعية الجرمانية

مطلب
في عدم المساواة بين اهالي الايمبراطورية في الثروة والشوكة

وكذلك كان عدم المساواة بين دول الايمبراطورية في الشوكة والثروة معدودا من جملة اسباب القلق والفشل التي ذكرناها وذلك ان الامرآء السبعة المنتخبين واشراف الرتبة الاولى كانوا امرآء قادرين ذوي شوكة يحكمون على بلاد واسعة سعيدة عامرة حكما مستقلا مطلق التصرف وكانت عدة اخرى من الدول تتمتع ايضا بحقوق عظيمة وحكومة مطلقة ولكن كانت اراضيها قليلة ولم تكن هناك مناسبة بين شوكتها وشوكة امرآء الانتخاب فكان من المستحيل ان يتركب من هذه الاجزآء المختلفة قوة وضعفا جمعية تكون على قلب رجل واحد حيث كان الحزب الضعيف يغار من القوي لعدم اقتداره على التمتع بحقوقه ومزاياه الثابتة له شرعا ولا على الممانعة عنها وكان الاقوياء مستعدين دائما لسلوك طريق الجور والتعدي فكان امرآء الانتخاب والايمبراطرة يشتغلون بمعونة بعضهم بعضا بتوسيع دآئرة شوكتهم حيث كانوا يتغلبون على حقوق الضعاف من اهل الجمعية الجرمانية وكان الضعفاء من خوفهم وجبنهم يتغلون لهم

عن مزاياهم الثابتة لهم بل كان بعضهم يساعد بما يعطى له من الرشوة فريق الاقوياء فى ادعاآتهم ومشروعاتهم لاضرار الضعفاء

مطلب فى كون هذه العيوب منعت الجمعية الجرمانية من ان تلتئم بعضها وتتشارك فى تنجيز مشروعاتها

واذا تأملنا هذه الاسباب الموجبة للفشل والخلل الذى كان ملازما لايمپراطورية المانيا سهل علينا ان نقف على اصل عدم الالتئام والتوافق الموجود الآن فى جميع مشروعات تلك الايمپراطورية واغراضها ولا عجب فى بطئ هذه الايمپراطورية فى تنجيز مشروعاتها وتراخيها وترددها فى مشاورها وعدم تصميمها على مقصد تنجزه حيث ان ذلك من شأن كل جمعية مركبة من احزاب لا ارتباط بينها الا بروابط ضعيفة فكانت تتنازع مع بعضها بالقسوة والشدة ولكن كانت الايمپراطورية الجرمانية مشتملة على بلاد واسعة جدا معمورة بامم حربيين اقوياء البنية بحيث لو كان فيهم ايمپراطور صاحب معرفة يحرك همتهم او كان فيهم غيرة ورغبة فى تحصيل المنفعة العمومية لبلادهم فتحثهم وتحرضهم على اظهار شجاعتهم بجميع قواهم لما امكن لاى دولة كانت مصادمة جمعياتهم الكبيرة واذا اطلعت على تاريخ الملك شرلكان رأيت مقاصد هذا الملك ومشروعاته التى اجتهد فى تنجيزها الاجتهاد التام فى الغالب غير ناجحة على وفق مراده او معطلة بالكلية وسبب ذلك وجود الغيرة والفشل وتفرق الآراء واختلافها حيث ان هذه الامور المخلة كانت ملازمة للجمعية الجرمانية لا تنفك عنها ولم يحصل لهذا الملك ظفر الا بعد ان صارت له صولة على امراء تلك الايمپراطورية وصارت يده فوق ايديهم فجبرهم على أن ضموا قواهم الى قواه وامكنه حينئذ تتميم بعض مشروعاته العظيمة التى امتازت بها حكومته وصار اماما ووفق بين الممالك

مطلب حكومة الدولة العثمانية

ثم ان الدولة العثمانية كان لها فى زمن شرلكان ارتباط وتعلق بدول اوروبا العظمية فكانت تتداخل غالبا بشوكة عظيمة وبطش كبير فى حروب النصارى واداراتهم وجميع مصالحهم ومشروعاتهم بحيث ان ذكر حالة سياسة هذه الايمپراطورية الواسعة الشديدة البأس لافادة من قرأ هذا الكتاب ليس اقل

لزوما

مطلب
اصل الدولة العثمانية

لزوما من ذكر الدول الاخرى التى تكلمنا عليها

وقد سبق القضاء فى الازل ان الاقاليم الجنوبية التى هى اخصب بلاد آسيا لابد وان يفتحها عدة مرات الامم الشجعان الاقوياء البنية الذين كانوا يسكنون بلاد تارستان الواسعة فمن هؤلاء الامم طائفة تسمى بالترك ويقال لها ايضا امة التركمان جاءت مع رؤسائها مرارا عديدة وفتحت بالتوالى فى البلاد من سواحل بحر الخزر الى بوغاز الدردانيل (وهو بوغاز اسلامبول) وفى اثناء القرن الخامس عشر فتح هؤلاء الشجعان ارباب السطوة و العنفوان مدينة القسطنطينية عنوة و جعلوها كرسى سلطنتهم و تغلبوا على الروم وهم اليونان وعلى بغدان والافلاق وغيرهما من بلاد روملى ومقدونيا وعلى قسم من بلاد المجار

مطلب
ظلم هذه الدولة

ومع ان كرسى السلطنة العثمانية كان فى اوروبا وكان للسلطان اراض واسعة بهذا القسم الذى هو احد اقسام الدنيا كانت طريقة حكومته مشابهة لحكومات آسيا بالكلية فيمكن ان يلقب بكونه ظالما اى فاعلا مختارا يتصرف كيف يشاء فى رعيته يعنى انه ليست حكومته حكومة ملوكية بالمعنى المتقدم ولا جمهورية وسبب ذلك ان القدرة العليا وكمال التصرف من خصوصيات كل ملك من بنى عثمان لانهم طاهرو النسب عند الاتراك حيث يعتقدون ان تلك السلالة وحدها هى التى تستحق السلطنة وانها اهل لذلك دون غيرها فلما كان هؤلاء السلاطين يرون ان رعاياهم يخضعون لهم مع غاية الذل كانوا لا يبحثون عن ان يدخلوا فى مملكتهم شيأ من القوانين التى فى غيرها من الممالك والدول يمنع تعدى الملك وظلمه واختصاصه باطلاق التصرف فكان لا يوجد فيها كغيرها محاكم شرعية تعرض عليها القوانين والشرائع قبل تنبيهها ونشرها فى المملكة ولم يكن بها طائفة اشراف ولا امراء وراثية كما فى المانيا مثلا يغارون على مزاياهم ومناصبهم فيضيقون قوة الملك وشوكته و يمنعونه عن فعل كل ما يريده و يكونون حكما بينه و بين رعاياه بل كانت الدولة العثمانية خلية عن ذلك فكان جميع الرعية فيها

على حد سواء ولا امتياز عندهم الا لمن هو متعلق بخدمة السلطان بل كان
هذا الامتياز على قدر المنصب الذى يستخدم فيه الانسان بحيث لا يستظل
بظله الا صاحبه دون ذريته وعائلته فاعلى منصب فى الدولة لا يفيد الرتبة
ولا ارتفاع المنزلة لعائلة صاحبه وكان كل انسان قبل ان يصل الى منصب
عظيم ذى رفعة لا بد ان يمكث زمنا طويلا فى الخدمة والذل لاجل تعليمه
واختباره واذا عزل عن منصبه عاد كما كان وتوسى امره وعائلاته وجرى
عليه وعلى عشيرته سائر احكام الرعايا وبالجملة فتلك الحكومة المشرقية ليست
الا حكومة ظلم وجور مستكملة لانواع الرذائل والقبائح حيث ان السلطان
يتوصل بها الى اعدام جميع الرعايا وتجريدهم عن جميع الاشياء وحوزها له
بظلمه ويزول بها من قلوب الناس اعتقاد حريتهم فلا يرون انفسهم الا عبيدا
فكأنه مخلوق لان يحكمهم كيف شاء ويذيقهم العذاب بالعقاب وهم
مخلوقون لان يخافوه ويطيعوا امره

مطلب تحديد قدرة السلطان وتقييد افعاله بالدين

ولكن كما ان هذا الذى فى كل دولة حسنة التدبير والحكم وقائع احوال تعوق
فى الغالب الامور النافعة بثمراتها وتبطلها بالكلية كذلك يوجد ايضا
فى كل دولة قبيحة الحكم بعض احوال تمنع من حصول الامور المضرة
او تخفف مصيبتها ان تعذر منعها ثم انه فى حكومة الدولة العثمانية
كان يوجد الظلم والجور وكانت القوانين لا تمنع الملك عن فعل ما يريده
ويشتهيه ربما وجدت وقائع احوال اخرى خصوصية تكون زماما
للسلطان تمنعه عن ان يفعل كيف يشاء بمحض ارادته ولو بلغ
السلطان ما بلغ من كونه متصرفا مطلقا فلا يخفى ان احكامه مقيدة بالدين
وانه ممنوع التصرف به اذ احكامه مقصورة عليه وشوكته مستمدة منه وكان
ايضا محجوزا بالعساكر الذين هم الآلة التى يعضد بها شوكته ففى جميع
الاحكام التى بينها الدين يجب على السلطان الامتثال والانقياد من غير تخلف
فاذا بين القرآن شيأ من المعاملات أو من العبادات او شيأ من سياسات الدول
ومصالحها وجب على السلطان ان يعمل بموجب ذلك فاوامره لا يمكن

ان

مطلب
تضييق قوة السلطان بالعساكر

ان تبطل ماهو مفروض بالدين وزيادة على ذلك كانت العساكر تمنع السلطان منعا كليا وتضيق عليه وذلك ان كل سلطان ظالم يريد ان يتصرف فى مملكته كيف يشاء لابد له من قوة عسكرية كافية تكون ملازمة لكرسيه لاجل تأييده وتعضيده واجراء احكامه والاستعانة بها عند الحاجة وحيث ان الدولة العثمانية كانت قد وسعت حكومتها حتى استولت على امم آثرت تلك الدولة ادخالها تحت حكمها على تدميرها علمت انه لابد لها من ان تزيد فى عساكرها وتتقوى بها فاراد السلطان مراد وهو السلطان الثالث من الدولة العثمانية ان يحدث وجاقا من العساكر لخدمة نفسه ليكون ورديانه وخفره فامر ضباطه ان يأتوا اليه كل سنة بخمس الاولاد الشبان الذين يؤخذون اسرى فى الحرب لينجز هذا المقصد حيث انه من منافع الدولة فصارت تعطى له هؤلاء الاولاد الاسارى يربيهم ويعلمهم اصول دين الاسلام حتى اعتادوا من صغرهم على الطاعة والضبط والربط والمهارة العسكرية ثم جعل منهم بعد ذلك طائفة سميت الانكشارية يعنى العساكر الجديدة فتعلمت الغيرة الدينية والحمية الاسلامية وامتازت من السلطان بابهج علامات الشرف التى يتحفها الملوك لمن شاؤا فكان هذا سببا فى تقويه هذه الطائفة فى اصول العسكرية وترغيبها فى الفخار والقتال فعلا شأنها وازداد مقامها وصارت عن قريب اعظم العساكر العثمانية وسببا فى نجاحهم وانتصارهم وبالجملة فازدادو جاق هؤلاء العساكر الانكشارية واشتهروا بالشجاعة والامتياز عن جميع الوجاقات التى كانت معدة لخفر ذات السلطان حتى ابطلوها وانفردوا بذلك

مطلب
صولة الانكشارية فى الدولة العثمانية

وحيث كانت القوة العظمى فى جميع الممالك انما هى فى الحقيقة لمن معه القوة العسكرية صار هذا الوجاق بعد ان كان فى مبدء امره آلة للسلطان يقوى بها شوكته ويوسعها وكان ذا هيبة وقدرة بحيث كان السلطان يخشى سطوته وذلك ان الانكشارية كانوا فى اسلامبول بمنزلة العساكر البريطريانية الذين كانوا بمدينة رومة فى قديم الزمان اذ ادركوا ان لهم فائدة كبيرة

فی اقامتهم بتخت السلطنة تحت لواء واحد امناء علی ذات السلطان
وصاروا یبذلون جهدهم فی خدمة السلاطین حتی صار السلاطین
یراعون وجاقهم ویعاملونه احسن المعاملة وکان وجاق القاپوکولی
یعنی خفر باب السلطان هو المهاب فی الدولة الذی یخشی بأسه السلطان
ووزراءه فتفرغ السلاطین بجمیع مجهوداتهم وسیاساتهم الی استمالة
وجاق الانکشاریة الیهم وجعله صادقا لهم لایخونهم ولایغدر بهم
وفی حکومة کل سلطان عنده معرفة وشجاعة وفیه نباهة واهلیة لحکومة
دولته کنت تری عساکر طائفة الانکشاریة مطیعین له کآلات تنفذ
للسلطان اغراضه وتفعل مایأمر به وتجعله مطلق التصرف یفعل کیف یشاء
فیهم کغیرهم واما اذا کان السلطان ضعیفا اوسیء الحظ فتراهم یتمردون
مدة حکومته ویوقدون نیران الفتن والاذی ویسلکون مسلك الکبر
والریاسة ویظهرون انهم ارباب الحل والعقد فی الدولة ویعطون تاج السلطنة
لمن شاؤا ویحرمون منه من ارادوا عزله وحرمانه ویخوفون هؤلاء السلاطین
الذین لوکانوا فی حالة اخری لکانت نظرة عین منهم اواشارة اوکلمة تکفی فی قتل
من ارادوا قتله

ومن زمن السلطان محمد الثانی الذی فتح القسطنطینیة الی السلطان سلیمان
الذی تولی السلطنة بعد تولیة شرلکان الامبراطوریة بعدة اشهر کانت الدولة
العلیة محکومة بسلاطین ارباب مهارة وسیاسة وشهرة ومعارف ادخلوا تحت
طاعتهم جمیع طوائف رعایاهم علی اختلاف مراتبهم وکانوا یتصرفون
فی عساکر دولهم الواسعة تصرفا مطلقا حتی ان السلطان سلیمان الذی لم یکن
مشهورا فی الدول الافرنجیة الابکونه ذافتوحات اشتهر عند مؤرخی العثمانیة
بکونه مشرعا کبیرا انشأ قوانین عظیمة بها ضبط مملکته واحسن سیاستها
وحکم بلاده مدة حکومته الطویلة مع الحکمة والمعرفة والحزم وکان
مطلق التصرف فقسم مملکته الی عدة ایالات وجعل علی کل ایالة عدة معینة
من العساکر علی حسب مارتبه هو بنفسه وجعل فی کل اقلیم اقساما

مخصوصة

مخصوصة من الاراضى يأخذ ايرادها الامداد عساكره ورتب مع غاية التنظيم
والاتقان جميع ما يلزم لضبط العساكر وربطهم ورتب اسلحتهم وبين خدمهم
المطلوبة منهم ونظم ايضا تدبير ايرادات المملكة ومصاريفها ومع ان الفرد
والغرامات التى تؤخذ من بلاد العثمانية وسائر البلاد المشرقية التى تحت
حكمه كانت قليلة الايراد لاتكفى مصاريف السلطنة فى الواقع فبتدبيره
وتوفيره كانت كافية

مطلب ما فاق العثمانية به النصارى فى القرن السادس عشر

ثم ان العثمانية كانوا يقاومون اشد المقاومة فى حروب النصارى و يظفرون بهم
و ينتصرون عليهم فى مدة السلاطين الذين هم من قبيل السلطان سليمان
يحسنون الادارة الداخلية المدنية والادارة العسكرية لان الدولة العثمانية
كانت قد ازدادت شوكتها تحت سلاطينها العظام ذوى النشاط الذين
حكموها على التوالى مدة مستطيلة حتى كان يظهر فى القرن السادس
عشر انها وصلت الى اعلى درجات الكمال القابلة له بخلاف دول النصارى
الكبيرة فانها كانت بمعزل عن هذه القوة العظيمة وكانت قوى الدولة
العثمانية تعادل قوى جميع تلك الدول مع بعضها وسبب ذلك ان العساكر
العثمانية كانوا يتمتعون فى ذلك العصر بمزايا عظيمة فكان يحثهم ذلك على
بذل جهدهم فى التعليمات العسكرية والتقوى فيها اصولا وفروعا حتى فاقوا
فيها غيرهم وحين تسلطن السلطان سليمان كانت الانكشارية مرتبة قبله
بقرن ونصف وكانت فى غاية الضبط والربط ولم يحصل منها تراخ ولا فتور
فى ظرف هذه المدة وكان العساكر الذين يؤخذون من الاقاليم ملازمين
لحمل الاسلحة لانهم كانوا دائما مشغولين بالحروب التى كان يفعلها السلاطين
على الدوام من غير ان يتخللها صلح فمثل هؤلاء العساكر المتعلمين المتمرنين
على الحروب كانوا يظفرون بجيوش النصارى فى كل واقعة وجميع مؤرخى
القرن السادس عشر ارباب المعارف والصدق الخالين عن الاغراض يعترفون
ببراعة الاتراك وفوقانهم على النصارى فى الفنون العسكرية و الصناعة
الحربية و يتأسفون على اضمحلالها منهم ومما يدل على ثبوت ذلك انهم

نصراتهم وظفرهم باعدآئهم فى جميع الغزوات واما فوقان عساكر النصارى على الاتراك كما هو مشاهد الآن فلم يحصل الا بعد ان ترتبت عندهم العساكر المنتظمة واستكملت فى التعليم وبعد ان وجدت عدة اسباب ووقائع افسدت القوانين العسكرية القديمة من عند الاتراك ضعفت شوكتهم بالتدريج ولا حاجة الى بيان تلك الاسباب ولا تلك الوقائع هنا اذ فيما ذكرناه تمام المرام ونسال الله حسن الختام

قال مترجمه

وحيث كان هذا الكتاب رؤس عبارات * واطراف حكايات * واشارات ورموز * ورآها امهات كنوز * اذ كل عبارة فيه * ودقيقة اودعت فى قوافيه * تشير الى نوادر جمه * او وقائع مهمة * رأى المؤلف ان ذكر الاصل فى مثل ذلك جدير بان يلتفت اليه * اذ هو مهم يعول عليه * وها لك عبارة من خطبة المؤلف حيث ان الغرض من المقدمة المسماة اتحاف الملوك الالبا بتقدم الجمعية فى اوربا قد اوقعنى فى مباحث جدالية عديدة نحو ان تكون من خصوصيات الاصولى او المجادل لا من خصوصيات المؤرخ جعلت هذه المباحث جزأ مستقلا برأسه زيلت به المجلد الاول من تاريخ الاعبراطور شرلكان وسميته البراهين والتوضيح واظن ان هنالك اناسا لا يعتنون بهذه المباحث ولا يلتفتون اليها حق الالتفات ولكن لاشك انه يوجد اناس آخرون يعتنون بها اعتناء كليا بل و يعدون انها الجزء الاهم من كتابى هذا * وقد اتيت فى تلك المباحث بمأخذ الوقائع التى ذكرتها فى هذا التاريخ وذكرت عبارات المؤلفين الذين اعتمدت عليهم او معنى عباراتهم ودققت الغاية فى ذلك حتى فى الاشياء الدنية منه بحيث انه ان كان يثبت للانسان فخر بكونه قد قرأ كتبا كثيرة واطلع على تآليف عديدة اقول ان من تأمل فى المؤلفات الجمة التى نقلت عنها يتراآى له انى انافس وافتخر بتعدادها لا سيما وهى مشتملة على كتب كثيرة ما كان يخطر ببالى ان انظر فى ورقاتها * ولا ان اشغل فكرتى بالتأمل فى صفحاتها لو كنت لم اعزم على تحقيق وقائع هذا التأليف وعلى تأكيد حقائقه والبحث عن تعضيدها مع غاية الاهتمام ليكون على وفق المرام انتهى

وحيث وجدت ان هذه المباحث نفيسة اثيره * وفوائدها كثيره * لم آل جهدا فى تعريبها * وتنقيحها وتهذيبها * وقد راعيت تسمية الاصل فسميتها عقد جمان التوضيح * بالبرهان الصحيح * ونسأل الله التوفيق * وان يوصلنا الى تتميم هذا المقصد باقوم طريق

هذا عقد جمان التوضيح بالبرهان الصحيح

المبحث الاول

في بيان مضمون مطلب النتائج الرديئة التي نشأت عن حكم الدولة الرومانية
بصحيفة ١٨ من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

لايخفى ان الاحزان والاشجان التي كانت منبثة ومنتشرة بين اهالي ابريطانيا وقت ان هجم عليهم اهالي كالدونيا (المسماة الآن ايقوسيا) وامة البكت بعد انصراف جيوش الرومانيين عنهم تدلنا على ان مذلة الابريطانيين كانت قد بلغت الغاية في المدة المستطيلة التي مكثوها تحت اسر الرومانيين حتى انهم بعثوا للشجاع أتيوس مكتوبا سموه انين ابريطانيا وهو هذا لانعرف الى اي جهة نتوجه اليها ولا لاي ارض نلتجأ فيها اذ نحن محصورون بين البحر والامم المتبربرين فالبحر يلجئنا اليهم وهم يطردوننا اليه ولم يبق لنا الا اختيار الموت باحد سببين أما غرقنا بالامواج اوذبحنا بالنصال انتهى كذا قال المؤلف غال في تاريخه وبسبب هذه الامارات الدالة على الجبن يبعد على الانسان ان يصدق بان هذه الملة من نسل الامم الحربيين الشجعان الذين طردوا القيصر عن بلادهم ومكثوا زمنا طويلا يدافعون عساكر الرومانيين عن حريتهم

المبحث الثاني

في بيان مطلب اغارة الامم الخشنية
بصحيفة ١٨ من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

كانت الملل المتبربرة مع جهلها تحتقر الآداب لما انهم كانوا يرون ان سكان الاقاليم الرومانية اهل رخاوة يهابون الحروب ومن المعلوم ان مثل هؤلاء الناس اصحاب الانفة الذين لايبالون من اقتحام اهوال ولا اخطار يكون عندهم احتقار للجبن واصحابه قال لويتبرند اذا اردنا سب عدو ونسبته

للصفات القبيحة المكروهة تقول له انت رومانى فان هذا الاسم وحده يشمل على جميع الرذائل كدناءة وجبن وبخل وفسق وفساد وكذب وغير ذلك من النقائص والعيوب انتهى ذكر ذلك المؤلف موراطورى فهؤلاء الامم المتبربرون كانوا بجهلهم ينسبون فساد اخلاق الرومانيين لحبهم الآداب وتولعهم بها حتى انهم عند استيطانهم بالاقاليم التى فتحوها لم يأذنوا لاولادهم ان يتعلموا شيأ من انواع المعارف والعلوم لانهم كانوا يقولون ان العلوم تكسب الانسان الخمول والدناءة وضعف القوى لانه اذا كان الانسان يتعود من صغره على الفزع من عصى المؤدب او المعلم فانى له ان يثبت امام رمح او سنان انتهى كذا ذكر المؤلف بروكوب فى تاريخه فمن ثم مضت مدة مديدة وهؤلاء الامم غريقون فى بحار التبربر والخشونة مرتدون بجلال الجهل يبغضون العلوم والمعارف حتى لم يخرج منهم فى تلك المدة مورخ فيه قابلية لتقييد حوادثهم وتسطير اخلاقهم ورسوم قوانينهم التى كانت فى بلادهم ولم يكن عندهم فى تلك المدة ايضا من يروى لنا حالتهم القديمة بحيث لم تبق لهم آثار يستفيد منها المؤلفون فيما بعد فائدة صحيحة حتى ان المؤلف يورنندیس والمؤلف بواص ورينفريد والمؤلف اغرغوار دو تورس مع انهم اقدم المؤلفين الذين كتبوا تاريخ هذه الامم واكثرهم صيتا وشهرة لم يفيدونا فائدة كافية فى شأن اخلاق الغوطيين او الغوتيين واللومبرديين والفرنسيس ولا فى شأن قوانينهم وعوايدهم واما الشئ اليسير الغير الموفى الذى نعرفه فى شأن مبدء حالة هؤلاء الامم المتبربرين فلم نستفده من هؤلاء المؤلفين المذكورين وانما استفدناه من مؤرخى اليونان والرومانيين

المبحث الثالث

في بيان مطلب حالة البلاد التى خرج منها هؤلاء الامم المتبربرون

بصحيفة ١٩ من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

قد ذكر المؤلف برسكوس فى تاريخه على الرسالة المبعوثة الى الملك أتيلا ملك الهونيين حكاية تدلنا دلالة واضحة على تولع الملل المتبربرة بالحروب حيث قال انه بعد ان قدم الملك أتيلا الطعام للرسل الرومانيين قرب اليه اثنان من امة السيت واخذا فى انشاد قصيدة تشتمل على نصرات هذا الملك وفضله فى العسكرية وجميع الهونيين يصغون اليها واعينهم متطلعة الى صفايح الخيل بل ظهر على بعضهم امارات الاضطراب من هذه الاشعار وبعضهم كاد يطير فرحا عند تذكر غزواته وحروبه وسالت دموع شيوخهم كالانهار* عند ذكر ما فيه الحماسة والفخار* وتحسروا على عجزهم* وضعف قواهم بكبر سنهم

المبحث الرابع

فى بيان مطلب التغييرات العمومية التى حصلت فى اوربا عن فتوحات هذه الامم الخشنية بصحيفة ٢٥ من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

يوجد فى تاريخ انكلتره جميع التفصاصيل التى تدل على صحة ما ذكرناه فى صحيفة (٢٥) من اتحاف الملوك الالبا وذلك ان امة السكسونيين لما فتحوا ابريطانيا الكبرى خربوها كغيرهم من الامم المتبربرين عند استيلائهم على مملكة او اقليم فدمروا البلاد وقطعوا دابر الابريطانيين وتشتت فنهم من فروذهب الى جبال بلاد غالة ليلتجأ فيها ومنهم من اسر وادخل السكسونيون حينئذ فى ابريطانيا باسرها شرآئعهم وقوانينهم واخلاقهم ولغتهم وشكل حكومتهم حتى انه عما قليل محيت جميع قوانين الابريطانيين القديمة ورسومهم ولم يبق لها اثر وفيما بعد حصل ضد هذه الحادثة وذلك ان غليوم النورمندى شن الغارة على السكسونيين وهزمهم من اول واقعة وجلس على كرسى مملكة انكلتره وسلك بالسكسونيين مسلك الظلم والتعسف لا التدمير والاهلاك وبذل ما فى جهده من قوة الشوكة والسياسة ليدخل عندهم قوانين النورمنديين واخلاقهم فلم يمكنه ذلك لان

السكسونيين وان كانوا مغلوبين كانوا اكثر عددا من الغالبين اعنى النورمنديين فلما اختلط السكسونيون بالنورمنديين وشرعوا فى الاخذ والعطا معهم غلبت اخلاقهم وشرآئعهم لكثرتهم على اخلاق النورمنديين وتقوت على التدريج ثانيا حتى تسومى اغلب الشرآئع النورمندية وطمست معالمها الان هذه الشرآئع كانت مبنية على الجور والظلم مبغوضة عند الناس حتى انه يوجد الى الان فى قوانين الانكليز السياسية وفى لغتهم امور شتى يعرف بديهة ان اصلها سكسونى لانورمندى

المبحث الخامس

فى بيان المطلب المتقدم ايضا

بصحيفة ٢٥ من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

قد ذكر المؤرخ پروكوب انه انما لم يتعرض لتفصيل قساوة الغوثيين وسوء فعالهم بالناس لان تلك الفعال شنيعة تشمئز منها النفس وتخل بمروءة البشر ونص عبارته فى ذلك . لا اريد ان انقل الى اهالى الاعصر الآتية امثالا خشنية بربرية لانه ربما نسجوا على منوالها انتهى ولكن حيث ان تلك الحادثة التى تكلمنا عليها واعتبرنا انها نتيجة استيطان الملل المتبربرة بالاقاليم التى كانت سابقا منقادة للدولة الرومانية هى حادثة كبيرة بحيث لا يتصور انسان حصولها الا بعد ان يتصور تدمير معظم الاهالى الاقدمين ظننا ان مثل هذه الحادثة العظيمة النتائج والتأثير حرية بامعان النظر وبالبحث عنها مع الاعتناء وهذا هو السبب الداعى لنا الى كشف القناع عن بعض اطراف هذه الحادثة المحزنة التى سكت عنها پروكوب ولم يتعرض لها واجتنبنا الاطناب فى ذلك بحيث لم نذكر هنا الا بعض امثلة استنبطناها من الكتب يستدل بها على تخريب امتين من الامم المتبربرة التى استوطنت بامبراطورية الرومانيين وعلى ما ارتكبه هاتان الامتان من الفعال السيئة القبيحة فنقول

ان الونداليين هم اوّل امة متبربرة اغارت على اسبانيا وكانت وقتئذ من اغنى اقاليم الامبراطورية الرومانية واكثرها عمرانا واهلا وكان سكانها قد امتازوا بالشجاعة والفروسية ومكثوا عدة سنوات يدافعون عن حريتهم العساكر الرومانية مدافعة عظيمة لم تحصل من غيرهم من ملل الافرنج ولكن لما تغلب الرومانيون على اهل اسبانيا فيما بعد طبعت قلوب الاسبانيين على الارتضاء والجبن بحيث ان الونداليين لما دخلوا اسبانيا (سنة ٤٠٩) تمموا فتوحها في اقل من سنتين واقتسموها بالقرعة فيما بينهم في اوائل (سنة ٤١١) وذكر المؤلف ايداس الذى شاهد التخريب الذى حصل عقب اغارة الونداليين مانصه قد خرّب المتبربرون البلاد مع مافيها باشد قسوة وانضمت الى تلك المصيبة اهوال الطاعون وعم الوباء والقحط بهذه البلاد حتى اضطر الاحياء الى ان يتقوّتوا بالجيف والرمم وكل هذه المصائب المهولة كانت قد حلت في آن واحد بالعباد وتخربت بها تلك البلاد انتهى ثم ان القوطيين هجموا على الونداليين في بلادهم الجديدة فاتقدت بينهم نيران حرب مهولة وخرّب كلا الفريقين البلاد وسلب العباد حتى ان المدائن التى سلمت من ايدى الونداليين في اوّل مرة دثرت في تلك الواقعة الاخيرة وصارت دارسة بالكلية وصار الاهالى عرضة لجميع انواع المصائب والاهوال التى تنتظر من قساوة مثل هؤلاء الامم المتبربرين ذكر ذلك المؤلف ايداس وأيده من معاصريه المؤلف ايزيدور دوسويل وغيره

وبعد ان خرّب الونداليون اسبانيا انتقلوا الى افريقة (سنة ٤٢٨) وكانت بلاد افريقة اخصب الاقاليم الرومانية بعد بلاد مصر لانها كانت خزانة عظيمة يستمد منها الغلال والحبوب للامبراطورية الرومانية حتى سماها بعض المؤلفين الاقدمين حياة الجمهورية وكانت عساكر الونداليين لاتزيد على ثلاثين الف محارب ومع ذلك تغلبوا على افريقة في اقل من سنتين وتصرفوا فيها تصرفا مطلقا وهاك عبارة ذكرها بعض مؤلفى ذلك العصر ناطقة بكيفية تخريب تلك البلاد بهؤلاء الاقوام فقال دخلوا بتلك

الاقطار

الاقطار فوجدوها ذات براعة * يانعة بثمار الزراعة * كانها زينة الارض
اذ كانت تمتع بكل حظ عظيم * وفيض عميم * فاتعبوها بالسنان * وحرقوها
بالنيران * حتى لم يبق محل من محالها اللطيفة * الا وصار بافسادهم كالجيفة *
و تخرب العمران * واقفرت الوديان والبلدان * وقلع العنب باشجاره *
وقطع الشجر باثماره * لئلا يجد من اختفى من الاهالى فى المغارات * وفر الى
الجبال الشامخات والمغازات * شيأ من القوت * فيتجرع كاس الموت *
وصار هؤلاء الاقوام كالوحوش الكواسر * تلعب على رقاب العباد سيوفهم
البواتر * ونفرت من قسوتهم القلوب * واشتدت بالناس الكروب * وعذبوا
الاسارى بالعذاب المهين * الذى لم تسمع به اذن ولم تره عين * ليبينوا لهم
الرموز * و يطلعوهم على الكنوز * وكلما كانوا يطلعونهم على شئ من ذلك *
تزيد قسوتهم عما هنالك * ويطلبون ان يطلعوهم على غيره بالتهديد *
ويذيقونهم العذاب الشديد * وما كان يضعف طغيانهم وعتوهم مروءة
انسانية * ولا شفقة قلبية * فكانوا لا يرحمون الشيوخ ولا رؤسا الدين *
ولا يرأفون بالنساء وذوى العاهات المستضعفين * وعم كذلك الاشراف
والاكابر * بغى هؤلاء الامم الفواجر * بل كان يعظم مصاب الاسير *
اذا كان فى قومه ذا شان كبير * يضاعف عقابه * ويكبر عذابه * وهدموا
جميع العمارات العمومية * والمبانى المحكمة البهية * التى سلمت من النار *
فعميت منها الرسوم والآثار * وخربوا عدة مدن بحيث لم يبق فيها احد
من السكان * واندثرت المعالم وتهدمت الاوطان * وكانوا اذا قربوا من صرح
حصين * او حصن متين * ورأوا انه لا يمكنهم التغلب عليه * ولا الوصول اليه
لعدم درايتهم بالتعليمات العسكرية * وقلة معرفتهم بالفنون الحربية * يقبضون
من الاهالى على مقدار جم * ويسفكون منهم الدم * ويلقون رممهم بدون
دفن * فى اطراف ذلك الحصن * لاجل انه اذا انتشرت رائحتها المنتنة * ورأى
المحافظون تلك الحالة المحزنة * تركوا الحصن لهم * والقوا السلاح دونهم *
انتهى وذكر مثل ذلك المؤلف سنتوغوسطين الذى ولد بافريقة وكان موجودا

فى عصر هذه الحادثة وبعدان نكث الونداليون فى افريقة مائة سنة هجم عليهم بليزير وطردهم منها وتسبب عن هذا الحرب ايضا تخريب جديد قال بعض فاصقيه من مؤرخى ذلك العصر وهو المؤرخ بروكوب ان افريقة تخربت وقتئذ بحيث كان الانسان يسافر فيها عدة ايام متتابعة من غير ان يجد شخصا واحدا حتى يمكن ان نقول من غير مبالغة انه فى مدة هذا الحرب هلك خمسة ملايين من الناس فاكثر انتهى كلامه وذكر ذلك ايضا المؤلف بيزنت

وانما اطنبنا فى ذكر المصائب التى حلت ببلاد افريقة لانه تصدى لذكرها عدة مؤلفين من مؤرخى ذلك العصر وأيدهم آخرون شاهدوا هذه الحوادث باعينهم و يعضد قول كل من الفريقين الحالة الراهنة التى عليها بلاد افريقة حيث ان عدة من اعمر مدائنها الزاهرة قد اضمحلت وطمست بحيث لم يبق منها اثر يستدل به على الحالة التى كانت تلك المدن بها * واراضيها الخصبة التى كانت تقوت الامبراطورية الرومانية صارت الآن قفرا فى اغلب اجزائها غير صالحة للزراعة وصارت ملجأ لقطاع الطرق وارباب الصيال

وفى مدة ما كان بعض الامبراطورية الرومانية غنيمة للونداليين المتبربرين كان البعض الآخر فريسة لامم الهونيين الذين كانوا ملازمين لتخريبه

ثم ان الهونيين كانوا اطغى الامم المتبربرين واكثرهم توحشا واغتيالا وقد وصف اخلاقهم وحكومتهم المؤلف أميان مرسولان الذى هو مؤرخ عصرهم واحسن مورخى الدولة الرومانية حين سقوطها ويؤخذ من عبارته ان الهونيين اقرب شبها بقدماء السيت و التتار المتأخرين ويشبهون ايضا فى بعض اخلاقهم وعوايدهم الامم الخشنية الذين هم بشمال امريقة وان ميلهم الى الحروب والغزوات مفرط عجيب وهذا نص عبارته ان الامم المتمدنين يحبون الصلح والراحة واما الهونيون فلا يميلون الا الى الحروب واقتحام الاهوال والاخطار وحظ الانسان عندهم ان يموت فى غزوة و السلاح بيده وعار عندهم ان يموت هرما ادمى يضا

و يفتخر

ويفتخر كل منهم بقدر ماقتل من الاعداء وزينة النصرة عندهم هى ان يعلق الفارس فى طقم فرسه شعور من قتله انتهى واول اغاراتهم على الايمبراطورية الرومانية كان فى القرن الرابع وكان الرومانيون قد تعوّدوا وقتئذ على التجلد لاغارات الامم المتبربرين ومع ذلك فصبروا الغاية وامتلأت قلوبهم رعبا وخوفا من تخريب الهونيين لبلادهم ومن افعالهم القبيحة واول ماخرّبه هؤلاء الامم الخشنيون هو اقليم روملى واقليم بانونيا واقليم ايليريا وحيث لم يكن قصدهم الاستيطان ببلاداوريا كانت اغاراتهم على هذه البلاد متتابعة كثيرة وذكر المؤلف بروكوب انه كان يقتل و يؤسر فى كل اغارة مائتا الف نفس وبعد ان كان اقليم روملى فى الزراعة اينع بقعة فى تلك الجهات صار قفرا كالصحراء حتى ذكر المؤلف بروسكوس انه لما ذهب بمعية الرسل الذين ارسلوا من طرف الرومانيين الى اتيلا ملك الهونيين دخل فى اقليم روملى فوجد منه عدة مدائن خالية من السكان غير أن فيها بعض اناس قليلين اختفوا فى آثار الكنائس المخربة ووجد الخلاء مشحونا بعظم الناس الذين حصدت مناجل الهونيين اعمارهم * ثم ان أتيلا المذكور كان قد تولى ملكا على الهونيين (سنة ٤٣٤) وصار هذا الرجل بفتوحاته ينتظم فى سلك اعظم المتغلبين الذين ذكروا فى التواريخ واكثرهم شجاعة واجتراء حيث وسع مملكته وتغلب على البلاد الواسعة التى كانت تسمى سابقا فى تقسيم الارض القديم باسم السيتيا وباسم الجرمانيا ومع انه كان يحارب الملل المتبربرة كانت أضج منه الايمبراطورية الرومانية لانه كان يطلب امدادات جسيمة من جميع الملوك الذين كانوا حاكمين وقتئذ وكانوا لضعفهم لا يستطيعون مخالفته وفى (سنة ٤٥١) دخل فى بلاد الغلية بجيش عظيم اودع فيه رجالا من جميع الملل التى تغلب عليها وكان هذا الجيش اكبر جيش اغار على الايمبراطورية الرومانية الى ذلك الوقت من جيوش الامم المتبربرين تخرب أتيلا بهذا الجيش الضياع والبلدان وخرّب المدائن اليانعة الزاهرة وافسد حالها ونهب اموالها وقد ذكر وصف ذلك كله

المؤلف سلو يان والمؤلف ايداس ولكن هزم آتيلا بعد ذلك فى الواقعة المشهورة التى كان ميدانها بقرب مدينة شالون فعيق عن فتوحاته فى تلك السنة وقال مؤرخو ذلك العصر انه لم يقتل فى هذه الواقعة اقل من ثلثمائة الف رجل وفى السنة التى بعدها عزم آتيلا على ان يشن الغارة حتى يصل الى وسط الايمبراطورية الرومانية فتوجه اولا الى ايطاليا وخربها وهو فى شدة غضبه بسبب الهزيمة التى حصلت له فى السنة الماضية حتى ان ما قاسته ايطاليا من المصائب والاهوال فى هذه الاغارة كان يزيد على جميع الاهوال التى حلت بها قبل ذلك من اغارات الامم المتبربرين وقد جمع المؤلف كورنجيوس عدة عبارات من كتب المؤرخين الاقدمين تبرهن على ان الهونيين والونداليين خربوا البلاد التى على شاطئ نهر الرين تخريبا شنيعا وفعلوا باهلها اسوء الفعال ولاشك ان العقل لا يستطيع ان يتصور هذه الحروب التى خربت البلاد وافنت العباد فاذا نظر انسان الى افعال هؤلاء الامم المتبربرين ورآهم يسبحون مع الفرح فى بحار دماء القتلى ودموع الباكين تفتت قلبه وازداد رعبه وتحسر على ما حل بالجنس البشرى من هذه الاهوال والبرهان القطعى الذى يدل على قساوة هؤلاء الامم المتبربرين وكثرة تخريبهم هو الحالة التى مكثت عليها ايطاليا عدة قرون بعد استيطان هؤلاء الامم الخشنين فيها وذلك لان من المعلوم ان البلاد ان قلت اهاليها ترى فيها الاشجار والاعشاب تنمو فى الاراضى الغير الصالحة للزراعة حتى يتكون منها على التدريج غابات كبيرة وترى بقية اراضيها تؤول الى بحيرات ومستنقعات بسبب المياه التى تطفو عليها من الانهر والمياه الراكدة وقد اجتمعت فى ايطاليا هذه العلامات بعد ان كانت مركز رونق الرومانيين وابهج بلادهم وكانت يانعة بالزراعة خربها المتبربرون ونكسوا منها اعلام الحرف والصنايع والتجارات والزراعة حتى انها فى القرن الثامن كانت اراضيها مشحونة بالغابات الكثيفة والبحيرات الواسعة وقد اطنب المؤلف موراطورى فى شرح وضع هذه المملكة واكنافها وبرهن باصح البراهين على ان معظم

اراضيها كان بعضه مشحونا بالغابات والآخر مستورا بالمياه وهذه الاراضى
لم تكن مجدبة بطبعها بل كلها اراض بالغ فى خصوبتها المؤلفون الاقدمون
وصارت زراعتها الآن فى اعلا درجات الكمال وهنالك برهان آخر
على كل ماقدمناه مستفاد من عبارة ذكرها احد مؤرخى القرن العاشر
فى وصف مدينة مودين ببلاد ايطاليا والظاهر ان تخريب الخشنيين فى بقية
بلاد اوربا كان على هذا المنوال لانه وجد الآن عدة من الاوامر القديمة
يذكر فيها ان الاراضى التى كانت تعطى للديور والكنائس اولا حاد الناس
كان منها اراض مزروعة عامرة واراض قفرة خربة ومنها اراض اعطيت
للآحاد فى الصحراء لانهم احيوا امواتها بالعمران والزراعة كما يفهم ذلك
من امر صادر من الايمبراطور كرلوس مانوس ذكره المؤلف ايكر وومن عدة
اوامر اخرى صدرت من خلفاء هذا الايمبراطور نبه عليها المؤلف دوكنج
ومن المعلوم ان كل بلد يكون فيها حق مثل هذا فى تملك العقارات لاتكون
الا قفرة غير معمورة وبهذا السبب امكن لاول من أتوا اليها من القبائل
الامريقية ان يتملكوا بعض اراض من اراضيها * وكان كل من قدر على احياء
ارض و زرعها يتملكها فكانت تصليح الارض كان ثمنا لها وذلك هو
منشأ الاقطاعات الارضية التى ذكرناها آنفا ولذلك ترى كل الممالك مشابهة
لبعضها فى هذا الشأن * وقال موراطورى ان ايطاليا مدة القرن الثامن
والقرن التاسع كانت مشحونة بالذئاب والحيوانات الوحشية وهذا دليل
على انها كانت خالية من السكان فمن ذلك يعلم ان ايطاليا بعد ان كانت
تفتخر بها الدنيا القديمة بسبب خصوبتها واستكمال زراعتها صارت ترى
وقتئذ كقبيلة جديدة شارعة فى الانتعاش والتعمير ولاشك ان بعض
هذه العبارات التى نقلتها مشتمل على المبالغة بل أعلم كذلك ان جميع هؤلاء
الامم المتبربرين لم يكونوا يسلكون على نسق واحد عند استيطانهم بالبلاد
التى كانوا يفتحونها بل كان يظهر من بعضهم انه مصمم على تدمير سكانها
الاقدمين و يظهر من بعض اخر انه يميل الى ابقائهم و جعلهم من حزبه

ولا حاجة لنا بالبحث هنا عن سبب الاختلاف الذى كان حاصلا فى سلوك هؤلاء الامم المتبربرين فى فتح البلاد ولا بوصف حالة البلدان التى كان سكانها الاصليون يعاملهم الامم المتبربرون المتغلبون عليهم معاملة حسنة وفيما نقلناه كفاية فى البرهنة على ان غارات هؤلاء الملل الشمالية على الايمبراطورية الرومانية قد تسبب عنها افناء وتخريب للجنس البشرى اكثر مما يظنه اغلب المؤلفين

المبحث السادس

فى بيان مطالب الاصول التى اسس عليها الامم (الشمالية) استيطانهم فى اوربا

(بصحيفة (٢٦) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا)

قد نبهنا فى المبحث الثانى على ان الشئ اليسير الذى نعرفه معرفة يقينية فى شأن الحالة الاصلية التى كان عليها الامم المتبربرون انما استفدناه من مؤلفى اليونان والرومانيين لا غير ومن هؤلاء المؤلفين اثنان مشهوران بوفور العقل بل ربما كانا اصدق جميع من كتب فى شأن اخلاق هؤلاء الامم المتبربرين وشرائعهم وهما قيصر وتاسيت وقد كتبا لنا فى تآليفهما فوائد جليلة يرجع اليها جميع ما قاله غيرهما من المؤلفين فى هذا الشأن * اما قيصر فقد وصف لنا قدماء الجرمانيين مع الايجاز فى المقالة السادسة من كتابه واما تاسيت فقد الف كتابا مخصوصا فى هذا الشأن * وما ذكره هذان المؤلفان هو اعظم تآليف الاقدمين واكثرها فائدة لاهالى اوربا الموجودين الآن وهاك ما استفدناه من تآليفهما .

اولا قال قيصر كانت حالة الجمعية عند قدماء الجرمانيين خشنية جدا ساذجة خالية من انواع الزينة والرفاهية فكان قوتهم الصيد والمرعى وكانوا يهملون الزراعة واغلب غذائهم اللبن والجبن واللحم انتهى و قال تاسيت مثل ذلك تقريبا * وكان الغوثيون كذلك يهملون الزراعة كما ذكره المؤلف بيزنت وغيره وكانت حالة الجمعية كذلك خشنية عند الهونيين

لانهم كانوا يحتقرون زراعة الارض وتأنف نفوسهم ان يمكوا حرثا كما ذكره المؤلف مرسولان وذكر ايضا ان الآلانيين يشبهونهم كذلك في الاخلاق * ومادام هؤلاء الناس على حالتهم الاصلية لم ينقص استقلالهم الطبيعي عن بعضهم بعد التئامهم وانضمامهم ببعضهم الاشيأ قليلا جدا

(ثانيا) انه عند قدماء الجرمانيين كانت شوكة الحكومة المدنية ضيقة جدا فما كان لهم مدة الصلح قاض معين يحكم بينهم باجمعهم وانما كان الرؤساء يحكمون بينهم في الاقضية والمخاصمات وكل واحد منهم كان يحكم في خطه الذي هو رئيس عليه كذا ذكر قيصر واما ملوكهم فلم يكونوا مطلق التصرف وانما كانت كلمتهم في الرعايا كناية عن مزية لهم في اعطاء رأيهم في الشورى لا حقا ثابتا لهم في ان يبتوا بامر اونهي مطلق شيأ بين رعاياهم فكانت المصالح الغير المهمة تقضى على ايدى الرؤساء واما المصالح المهمة العامة فكان لا يفوض في الحكم فيها الا لمجموع الملة بتمامها قاله تاسيت وكان الهونيون يتشاركون كذلك في الشورى في المصالح الضرورية ولم يكونوا منقادين لكلمة ملك مطلق التصرف ذكره أميان مرسولان

(ثالثا) كان كل انسان عند قدماء الجرمانيين ولي امره مخيرا في شأن كل مشروع حربي فان شاء دخل وان شاء ابى ولا احد يكرهه في هذا الشأن قال قيصر اذا عرض رئيس من رؤساء الملة مشروعا حربيا كان كل من استحسن قوله ورضي باتباعه فيه يقوم ويعقد نيته فاذا احجم بعد ذلك ولم يوف بعقد نيته عد جبانا خائنا للوطن ولحقه الذل والعار انتهى ونبه تاسيت كذلك على هذه العادة لكن بطريقة مشكلة

(رابعا) حيث كان كل انسان من هؤلاء الناس حرا لا يجبر على شئ من أفعاله فمن كان يريد نصب نفسه رئيسا كان لابد له ان يبحث عن احزاب يستميلهم اليه ليعينوه على تنجيز مقاصده وسمى قيصر هؤلاء الاحزاب اتباعا وسماهم تاسيت اصحابا * وكان اعظم شئ يميز الرئيس منهم ويكسبه الشوكة والقدرة هو ان يكون معه اصحاب كثيرون من الشبان المنتخبين لما ان هؤلاء

الشبان مدة الصلح هم فخر الملة وزينتها ومدة الحرب يكونون امنها وحصنها والرئيس منهم كان يستميل قلوب اصحابه بواسطة هدايا يعطيها لهم من الاسلحة او من الخيل او بواسطة كثرة الطعام لاظرافته انتهى تاسيت

(خامسا) وبسبب هذه الحرية والاستقلال الشخصى الذى لم يزل بين الجرمانيين بل وبعد التئامهم واجتماعهم ببعضهم كانت افتاآت قضاتهم واحكامهم ضيقة الدائرة جدا فكان الجرمانيون يحقدون على بعضهم حتى يساعدهم الوقت فى الانتقام وما كان يمكن للقاضى ان يحبس انسانا حرا ولا ان يعاقبه بجلد ونحوه انتهى تاسيت وكان كل شخص ينتقم كذلك لاقاربه واحبابه من مسبة حصلت لهم اوهتك حرمة حتى صارت العداوة وقتئذ تتوارث من فرع الى آخر ولكن لم تكن وصلت الى درجة حقد لايشفى غله حتى فى القتل فكان اذا قتل انسان آخر يمكنه ان يأمن من حقد صاحب القود باعطائه قدرا مخصوصا من المواشى ذكره تاسيت وقال ايضا ان بعض جريمة القصاص كان يعطى للملك اوللدولة والباقى يعطى للشخص المتعدى عليه اولاهله انتهى

ومع ان هذه الخصوصيات التى ذكرناها من اخلاق الجرمانيين وعوايدهم لاتخفى على كل عالم متمكن من آداب الاقدمين واخلاقهم وعوايدهم ظننا ان من اللازم ذكرها على هذا النسق السابق ليطلع عليها القاصر ممن يقرؤ كتابنا هذا لانها تثبت جميع ماذكرناه فى شأن الملل المتبربرين وتبين جميع الملحوظات التى سنذكرها فى شأن التغيرات والتقلبات التى حصلت فى حكومة هؤلاء المتبربرين واخلاقهم * ثم ان الشرائع والعوايد التى ادخلها هؤلاء الامم فى البلاد التى استوطنوا فيها هى اجل مايذكر شرحا لتأليف قيصر وتاسيت وبناء على ذلك فملحوظات هذين المؤلفين هى اعظم مفاتيح كنوز هذه الشرائع والعوايد

ويوجد فيما ذكره قيصر وتاسيت فى شأن الجرمانيين امر مهم ينبغى التنبيه عليه وهو ان الشذرة التى ذكرها القيصر فى اخلاق الجرمانيين كان قد الفها

قبل ان يكتب تاسيت تأليفه فى هذا الشأن بمائتى سنة وهذه مدة كبيرة جدا تتقدم فيها الاخلاق كل ملة ايا ما كانت لاسيما اذا كانت هذه الملة تكثر فى تلك المدة من معاشرة الملل المتمدنة ومن مخالطتها وهذه الحالة كانت موجودة عند الجرمانيين لانهم كانوا قد عرفوا الرومانيين من وقت ان اجتاز قيصر نهر الرين وصارت المخالطة بين الجرمانيين و بين الرومانيين تتزايد كل يوم من منذ هذه الحادثة الى وقت تأليف تاسيت كتابه فى اخلاق المتبربرين وزيادة على ذلك كانت القبائل الجرمانية تختلف حالتها التأنسية والتمدنية اختلافا كليا عن بعضها فكانت قبيلة السويتوس مثلا قد تقدمت فى التمدن حتى اخذت ثانيا فى الهبوط والتنازل كما ذكره تاسيت واما قبيلة الفينوس فكانت على غاية من التبربر والخشونة بحيث كان يتعجب منها كيف امكنها مع هذا التبربر أن تعيش بين الناس انتهى تاسيت ولا ينبغى ان يغفل عن هاتين الحالتين من يريد ان يصف اخلاق الجرمانيين او ينشئ بعض فوائد سياسية على حالة الجمعية والتأنس عند هؤلاء الامم

وقبل ان نختم قولنا فى هذا الشأن لا بأس ان ننبه على انه وان كانت تغيرت بالكلية اخلاق الامم المختلفة التى فتحت ايمبراطورية الرومانيين بسبب التغيرات المتعاقبة التى حصلت عندهم فى القوانين والرسوم و بسبب التقدم الذى حصل لهؤلاء الامم فى شأن التمدن والترفه فنقول ان صورة اخلاقهم موجودة الى الآن فى امة تقرب فى التأنس وحالة الجمعية من الحالة التى كان عليها امم الشمال المتبربرون حين استيطانهم بفتوحاتهم الجديدة وهذه الامة هى الاقوام الخشنيون الساكنون بشمال أمريكه فبناء على ذلك ليس من الاقتضاب المحض الذى لا جدوى فيه ولا من محض التشوق الى الامور الغريبة ان نبحث عن توافق هؤلاء الامم فى السياسة هل نشأ عنه مقاربتهم لبعضهم فى الاخلاق والعوايد ام لا فان وجدنا بينهم مشابهة كبيرة فى الاخلاق والعوايد كان ذلك برهانا لصحة ما وصف به سكان اوربا

الاقدمون اقوى مما ذكره قيصر وتاسيت وهاك اصول اخلاقهم

(أولا) قوت الامريقيين فى الاغلب هو صيد البر والبحر لاغير ومنهم قبائل يهملون الزراعة بالكلية واما القبائل التى تزرع بعض قطع من الارض بقرب عششهم فالنساء هن اللاتى يزرعن دون الرجال ويفعلن جميع الاشغال الاخرى كذا ذكر كرلواكس فى رحلته التى الفها فى شأن بلاد امريكة * ولايخفى ان الناس اذا كانوا على مثل هذه الحالة فلايحتاجون لبعضهم احتياجا ضروريا دائما ولايختلطون ببعضهم الاختلاط قليلا جدا ويستمرون على التمتع بحريتهم الطبيعية واستقلالهم عن بعضهم حتى يمكن ان ذلك لاينقطع من بينهم واول شئ يعرفه هؤلاء الخشنيون الامريكيون هو ان كل انسان قد ولد حرا ذا استقلال فلاحق لانسان آخر ايا ما كانت قدرته وشوكته على وجه الارض ان يضيق عليه فى حريته الطبيعية ولذلك قل ان توجد بينهم صورة طاعة وانقياد فى الحكومة المدنيه اوالمنزلية بل كل انسان فى عائلته يفعل كيف يشاء فالاب والام واولادهما يعيشون مع بعضهم كأن اجتماع شملهم ليس الاشيأ حاصلا بالصدفة والاتفاق وليس بينهم شئ من الروابط الطبيعية اوغيرها يربطهم ببعضهم وهذا ناشئ عن التربية حيث ان الآباء لايعاقبون اولادهم ابدا بل ولافى حال الصبى والصغر فاذا كبروا يتركونهم بالكلية فيصيرون ولاة انفسهم مطلق التصرف فى سلوكهم يفعلون كيف شاؤا ولايجب عليهم ان يقصوا امرهم على احد راجع كرلواكس فى رحلته

(ثانيا) شوكة قضاتهم المدنية ضعيفة جدا * وفى اغلب القبائل ترى الرئيس تنتخبه القبيلة بنفسها (والرئيس يسمى عندهم ساكيم) وتجعل له مشورة مخصوصة ارباب مشايخ ومن غير ارباب هذه المشورة لايجوز له ان يبت حكما فى شأن مصلحة مهمة فلا يدعى احد من هؤلاء الرؤساء ان له شوكة واسعة جدا كيف وهو يعرض لحزبه ما يبدو له على سبيل العرض والترجى لاعلى سبيل الحكم والتحضيض وبالجملة فطاعة هؤلاء الناس لرؤسائهم

انما هى طاعة اختيارية انتهى كرلواكس

(ثالثا) لا يجبر احد على الدخول فى مشروع حربى بل ذلك باختيار الناس فعند نية الحرب يقوم رئيس من الرؤساء ويتكفل بقيادة الجيش فيتبعه من يريدون هذا المشروع ويختارونه ويقومون ورآءه واحدا بعد واحد وهم ينشدون الاشعار الحماسية الحربية ولكن بعد هذه الجمعية اذا احجم انسان ممن اظهروا العزم وابى ان يتبع رئيسه الذى انضم الى حزبه خيف عليه من الهلاك ويفضح بين الناس ويلحقه اكبر عار يدنس العرض انتهى من الرحلة المذكورة

(رابعا) اذا اتبع اناس رئيسا لا ينتظرون منه سوى الاكرام وان يعاملهم باحسن معاملة لانه يجب عليه ان يتحفهم بهدايا جليلة (كذا ذكر كرلواكس فى رحلته)

(خامسا) القاضى بينهم يكاد ان لا يكون له افتاء فى شأن اقضية الذنوب والقصاصات بل المتعدى عليه او عيلته ينتقم من المتعدى بما شاؤا كما ذكر كرلواكس وحقد هؤلاء الناس لا يشفى غله ولا يمكن مع طول الزمن ان تطفى من قلوبهم نار الانتقام ولا ان يخمد لهيبها الا باخذ الثار الذى هو اعظم ميراث عندهم يوصى به الآباء عند موتهم لاولادهم فينتقل الحقد من جيل الى جيل حتى يسعف الزمن باخذ الثار (كذا ذكر كرلواكس) ولكن ربما سكن غضب المتعدى عليه فيعطى الدية فى القتل أحيانا ويأخذها اقارب القتيل والدية عندهم عادة هى اسير من الحرب يقوم فى العائلة مقام القتيل ويسمى باسمه ولكن يكون مقبولا مالوفا عند العائلة

وقد توجد المشابهة كذلك بين هؤلاء وملل شمال اوربا الاقدمين من عدة وجوه اخرى ولكن يكفينا فى بيان غرضنا ذكر هذه المشابهات المأخوذة من اوصافهم الاصلية التى هم ممتازون بها عن غيرهم ولا يخفى ان المؤلف بوكرت وغيره من مؤلفى العصر الاخير الذين ألفوا فى شأن الامم الطفشونية وعولوا فى تآليفهم على المباحث الادبية اكثر من العلمية كانوا اذا رأوا ادنى مشابهة

بين الملل وان كانت تلك الملل بعيدة جدا عن بعضها يعدونها مشابهة كبيرة ويبنون عليها ان هذه الملل اصلها واحد فلاشك ان هؤلاء المؤلفين لورأوا هذه المشابهة الكلية الموجودة بين المتبربرين الذين تغلبوا على ايمبراطورية الرومانيين و بين امم امريقة المتبربرين لاثبتوا بها اثبوتا يقينيا ان هؤلاء الامم كلهم امة واحدة فرقت بينها صروف الزمان بخلاف الفلسفى فانه لايعتبر مثل ذلك وانما يقول ان اخلاق الملل وطبائعها ناشئة عن حالة جمعياتها وعن قوانينها السياسية الجارية بينها او يقول ان الناس اذا كانت مقتضيات احوالهم واحدة يكونون فى اى زمان واى مكان على خلق واحد وكيفية واحدة

وانما اطنبنا فى الكلام على المقابلة بين قدماء الجرمانيين و بين الخشنين الذين هم فى امريكة لان ذلك لازم لتوضيح موضوعنا الذى نحن فيه * ولا نزعم ان حالة الجمعية بين هاتين الامتين متساوية مساواة كلية لان عدة قبائل من الجرمانيين كانت اكثر تمدنا من الامريكيين فكان منهم من يعرف الزراعة وكان اغلبهم عنده مواش يقتنا تون منها غالبا بخلاف الاقوام الامريكية فمعظمهم لايعيش الا من الصيد وهم اكثر تبربرا وخشونة من قدماء الجرمانيين ولكن نقول انه يوجد فى حالة جمعية كلا هذين الفريقين مشابهة عظيمة لم تشاهد بين امتين اخريين ومن هذه المشابهة نشأ كذلك بينهما توافق عجيب فى الاخلاق

المبحث السابع

فى بيان المطلب المتقدم بصحيفة (٢٦) من القسم الاول من الحاف الملوك الالبا

الغنيمة التى كان يأخذها الجيش كانت توزع على عساكره بالحصص حتى ان الملك نفسه كان لا يأخذ منها سوى ما يخصه بالقرعة وذكر فى تاريخ الفرنسيس مثال شهير فى هذا الشأن وهو ان عساكر الملك قلويس الذى انشأ المملكة

الفرنساوية قد نهبوا كنيسة فى غزواتهم واخذوا منها امتعة مقدسة من جملتها اناء كبير جدا لطافته لا يمكن ان يحيط بها قلم واصف فبعث الاسقف حالا الى قلو يس رسلا يترجونه ان يرجع هذا الاناء الى الكنيسة لاجل استعماله فيما هو معد له من الخدم المقدسة فقال قلو يس للرسل اذهبوا معى الى مدينة سواسون التى تقسم فيها الغنيمة ووعدهم بانه ان كان هذا الاناء يقع فى نصيبه يرجعه الى الاسقف فلما وصلوا الى سواسون جمعت الغنائم ووضعت وسط العساكر فطلب قلو يس ان يعطوه قبل القسمة الاناء المذكور زيادة على حصته فظهر من جميع العساكر انهم يريدون مراعاة الملك واجابة طلبه الا انه ظهر من بينهم عسكرى جسور تقدم كالوحش ورفع بلطته وضرب بها الاناء مع القوة وقال للملك باعلا صوته ما لك شئ هنا الا ما يخصك بالقرعة كذا ذكر المؤلف اغرغوار فى تاريخ فرانسا

المبحث الثامن

في بيان مطالب كون الحكومة الالتزامية مخلة بترتيب الجمعية الداخلى (بصحيفة (٢٨) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا)

لا يخفى ان تاريخ انشاء المذهب الالتزامى والتقدمات التى حصلت له هو تاريخ ترغب فيه جميع ملل اوربا والى الآن توجد بعض بلاد اغلب شرائعها وافتاآتها الفقهية التزامية محضة وفى بعض بلاد اخرى توجد بعض رسوم او جبتها العادة والقوانين واذا تأملت ترى ان منشأها احكام المذهب الالتزامى حتى انه لا يمكن الوقوف على حقيقتها ومعرفتها حق المعرفة الا بمعرفة احكام هذا المذهب واصوله وقد بذل عدة من المؤلفين المشهورين بالقريحة وسعة العلم جميع جهدهم فى توضيح هذا الامر لكنهم مع ذلك تركوا فيه محال مظلمة لم تقتبس من انوارهم ما يضيئها او يكشف القناع عن مخدراتها وسنذكر مع التدقيق فى هذا المبحث جميع التقدمات والتغيرات التى حصلت عند الملل المتبربرة فى شأن تملك الاراضى ونذكر كذلك الاسباب التى كانت

مفشأ لهذه التغييرات ومانتج عنها

والظاهر ان تملك الاراضى قد حصل له عند الامم الذين استوطنوا باقاليم ايمبراطورية الرومانيين اربعة انواع متوالية من التقلبات وهى

(الاول) كان الامم المتبربرون مدة مكثهم ببلادهم التى ولدوا بها لايعرفون ابدا تملك الاراضى ولا العقارات ولم يكن لهم املاك معينة محدودة بينهم بل كنت ترى العائلة منهم تنزل بارض وتترك مواشيها ترعى فى مروجها ثم بعد ذلك ترحل من هذه الارض الى ارض اخرى وتمكث فيها بعض ايام ثم ترحل الى غيرها وهكذا ولما لم يكن للناس عقارات ولا املاك مخصوصة كانوا لايجبرون ابدا على خدمة بلادهم وكل ما كانوا يفعلونه من الخدم والمصالح انما كان اختياريا فكان فى المشروعات الحربية يباح لكل انسان ان يتخذ وجهته التى يستحسنها وكان لا يتبع انسان رئيسا فى حرب الالكونه يميل لهذا الرئيس لالكونه يرى ان هذا الحرب واجب عليه وقد بينا ذلك ببرهانه فى المبحث السادس ومادام هؤلاء الناس بهذه الكيفية لايعرفون تملك الاراضى ولاتملك العقارات كان لايمكن ان يوجد فى عوايدهم ماهو مشابه لرسوم الملتزمين ولو ادنى شبها ولا ان يوجد عندهم فى الخدم العسكرية الطاعة والامتثال الذى حدث بين الملتزمين بعد انشاء عادة الاقطاعات الالتزامية عندهم

(الثانى) لما استوطن هؤلاء الناس المتبربرون بالبلاد الاجنبية التى تغلبوا عليها اقتسم العساكر المنتصرون الاراضى التى فتحوها وكل عسكرى كان يعتبر قسمه الذى وقع له كانه جزاء له استحقه بعزمه وقوته وكانه وطن له اخذه بسيفه وصار كل فرد من العساكر متملكا على قسمه كتملك انسان حر على عقاره فكان يتمتع به مدة حياته وعند موته كان يتصرف فيه بماشاء كان يتركه ارثا لاولاده اوغير ذلك ومن وقتئذ صارت تلك الاراضى تملكاتا بتا مستقرا وصار ايضا ألوديا ليا يعنى ان المالك كان له حق مطلق فى ملكه لاولاء عليه لسيده الذى كان سابقا يحترمه وملازما لخدمته ولكن حيث كانوا يخشون

كماذكر

(كما ذكرنا فى اتحاف الملوك الالبا) ان يشركهم فى املاكهم من كان باقيا من الاهالى الاصلية ويخافون كثيرا من أن يهجم عليهم امم اكثر تبربرا وتوحشا واشد منهم طمعا رأوا من تلقاء انفسهم انه لابد لهم ان يفرضوا على بعضهم لاجل المدافعة عن جمعياتهم واجبات احكم واضبط من الواجبات التى كانت مفروضة عليهم فى بلادهم التى ولدوا فيها فبناء على ذلك صار كل واحد من هؤلاء الناس بعد استيطانهم ببلادهم الجديدة يتسلح من نفسه ويتجهز لحماية ملته بدون اهمال واذا اهمل فرد منهم فى هذا الامر او ابى ان يوفى بواجبه حكم عليه بعقاب شديد ثم ان هذا الامر لم يكن ثابتا بقانون صريح اقر بمحفل او جمعية شرعية وانما كان هو وجميع الاشياء التى فيها التئام بين اعضاء الجمعية مؤسسا على رضاء عام تقديرى لان الناس كانوا مضطرين الى اقراره وتجيزه لاجل حفظ انفسهم وابقاء الامن والاطمئنان بينهم * واذا صعدنا الى اصل هذا الامر الجديد الذى كان واجبا على اصحاب الاملاك والعقارات نرى انه يصل الى زمن قديم جدا من تاريخ الفرنك (قدماء الفرنسيس) وذلك ان الملك شلبريق الذى ابتدأ حكمه (سنة ٥٦٢) كان قد حكم بجريمة على عدة اناس ابوا ان يصحبوه فى بعض حروبه كما ذكره المؤلف اغرغوار وكذلك شلدبيرت الذى تولى المملكة (سنة ٦٧٥) قد اجرى هذا العقاب على بعض اناس من رعاياه لكونهم ارتكبوا هذا الذنب بنفسه (ذكره اغرغوار) وكذلك كرلوس مانوس امر ان كل انسان حر يملك تسعين فدانا فاكثر يجب عليه وقت الازدحام ان يمشى بنفسه لمصادمة العدو وفى (سنة ٨١٥) اعطى الملك لويز لوديبونير بعض اراض لاناس اسبانيين هربوا من بلادهم عند اغارة الاسلام عليها واذن لهم ان يستوطنوا فى مملكته بشرط ان يخدموا فى العسكرية كسائر الناس الاحرار ويوجد فى القوانين التى شرعها كرلوس مانوس ذكر الاراضى المملوكة على سبيل كونها عقارات ومعناها على حسب ذلك العصر الاراضى الالودياليه اى المعافاة المطلقة التى لمالكها ان يتصرف فيها بما شاء حسبما فسره دوكنج وقد ذكر المؤلف

موراطورى وثيقتين من الوثائق القديمة مبينتين اوضح بيان الفرق بين الملك العقارى او المطلق والملك الربحى او الانتفاعى ويستفاد من هاتين الوثيقتين ان الانسان يمكن ان يكون بعض املاكه عقاريا مطلقا يعنى له الحق فى ان يتصرف فيه بما شاء والاخر ربحيا او انتفاعيا يعنى انه يتمتع بمنافعه مدة حياته وبعد موته يرجع العقار الى الملتزم الاعلا وهذا الفرق منبه عليه كذلك فى قانون كرلوس مانوس الذى رتبه (سنة ٨١٢) كما ذكره المؤلف بالوزثم ان القونتة ابو برارد الذى كان متزوجا ببنت الملك لويز لوديبو نير قد كتب قبل موته وصية يستدل بها على وجود هذا الفرق حيث قسم جميع اراضيه والتزاماته على اولاده ولكن بين فيها ما كان يملكه عقارا وما كان يملكه لمجرد الانتفاع به والظاهر ان اغلب املاكه كانت عقارية

ومن ثم كان لفظ الرجل الحرفى الغالب مقابلا لمعنى الرجل التابع لان الاول فى هذا المعنى يدل على من له ملك عقارى والثانى معناه التابع الملتزم وكان يجب على كل انسان حر بالمعنى المذكور ان يخدم الدولة ولا يجوز له الدخول فى مراتب القسيسين الا برضاء الملك وسبب ذلك مقبول وهو ان الملك كان يقول انما منعنا ذلك لان بعض الناس يدخل فى المراتب القسيسية لا للتعبد ومعزة الدين بل ليعافى من الخدمة العسكرية الواجبة عليه انتهى وذكر بعض المؤلفين ان الانسان الحر كان اذا نودى الى غزوة ولم يجب حكم عليه بحسب قوانين الفرنك ان يدفع جريمة تسمى جريمة الهربان وقدرها ستون كورون (الكورون نوع من النقود) فيفهم من قوله بحسب قوانين الفرنك ان الخدمة العسكرية وترتيب القصاص لمن لا يتقلدها كانا موجودين من قديم مع الشمراتع والقوانين التى انشأها قدماء الفرنك عند استيطانهم اول مرة فى بلاد الغلية وكان يدقق فى طلب هذه الجريمة حتى قال بعض المؤلفين انه اذا كان الشخص المحكوم عليه بالجريمة معسرا يجبر على ان يبقى فى الخدمة والعبودية حتى يبلغ كسبه مقدار جريمة الهربان المفروضة عليه انتهى وقد شدد الايمبراطور لوتير فى هذا القصاص حيث حكم بان الانسان اذا كان له

عقار من الارض يجبر بحسب عقاره على ان يخدم فى العسكرية بنفسه فاذا دعى الى الحرب وابى ضبطت جميع امواله واملاكه للميرى بل و يجوز ان يحكم عليه بالنفى كذا ذكر مورا طورى

(الثالث) لما كان تملك الاراضى ثابتا دائما وكان مشروطا فيه الخدمة العسكرية نشأ عنه على التدريج تغيير ثالث وهو كما ذكره تاسيت ان الرؤساء عند الجرمانيين كانوا يبحثون عن ان يستميلوا الى انفسهم اصحابا يتبعونهم فى جميع مشروعاتهم و يقاتلون تحت راياتهم ولم تزل هذه العادة موجودة عندهم بعد استيطانهم بالبلاد الجديدة التى فتحوها وكان هؤلاء الاصحاب يحبون رؤساءهم و يميلون اليهم كل الميل حتى سموا باسم الامناء وذكر تاسيت ايضا ان رتبة هؤلاء الاصحاب كانت رتبة شريفة محترمة حتى انه فى القرون الوسطى كان يمكن ان تعرف رتبة الانسان وحسبه بموجب العقاب الذى كان مرتبا لكل ذنب فكانت دية الواحد من هؤلاء الاصحاب ثلاثة اضعاف دية الانسان الحر

ومدة ما كان الجرمانيون فى بلادهم الاصلية كان الرؤساء يبحثون عن استمالة هؤلاء الاصحاب اليهم بواسطة هدايا من الاسلحة والخيل و بواسطة الولائم والضيافات (راجع المبحث السادس) ومادام الجرمانيون لا يملكون شيأ معينا من العقارات والاراضى كان الرؤساء لا يعطون لاتباعهم غير هذه الهدايا وكان الاتباع لا ينتظرون منهم مكافأة غيرها * ولكن لما استوطن هؤلاء الناس باقاليهم الجديدة التى تغلبوا عليها وعرفوا اهمية العقارات صار الرؤساء والملوك عوضا عن هذه الهدايا القليلة يهادون اتباعهم باقطاعات ارضية تسمى بالرجعية لانها كانت تعطى لهم مجانا وكانت تسمى كذلك شرفية لما انها كانت شرفا لمن تعطى له * فاذا قلت ماهى الخدم التى كانت تطلب عادة ممن يأخذ هذه الاراضى قلت يتعذر تعيين هذه الخدم على وجه الصحة لانه لم يبق لنا آثار قديمة تدلنا عليها ولما اخذت العقارات المطلقة فى ان تصير التزامية لم تفرض عليها الخدم الالتزامية دفعة

واحدة بل على التدريج كـكل تغييرمهم وكان الغرض الاصلي للناس وقتئذ من كونهم يصيرون اتباعا هو ان يجدوا لهم رئيسا يحامي عنهم فلارضي اول اصحاب العقارات المطلقة بان يكونوا اتباعا لبعض رؤساء ذوي شوكة وكلمة تركوا من شعائر حريتهم واستقلالهم القديم جميع ماهو مخالف للتبعية التي عقدوها عن قريب وكانوا يؤدون الى رؤسائهم الملتزمين احترا مايقال له الاحترام الوسط حيث كان هؤلاء الملتزمون لايطلبون منهم سوى الامانة ولا يجبرونهم على خدم عسكرية ولا على الحضور في المحاكم الالتزامية ويمكن ان يوجد الى الآن بعض آثار واهية من آثار الاحترام الوسط المذكور ذكره المؤلف بروسيل

وذكر المؤلف دوم دويك والمؤلف دوم ويسيت في تاريخهما المسمى تاريخ لنغدوق عدة احكام وقوانين قديمة منها ماسمياه باسم الاحترام وهو كما هو الظاهر حد متوسط بين الاحترام الوسط الذي نبه عليه المؤلف بروسيل كما تقدم آنفا وبين وجوب الوفاء بالخدمة الالتزامية بتمامها فكان الملتزمون يعدون ان يحموا اتباعهم ويعطوهم قصورا واقطاعات ارضية وكان الاتباع كذلك يعدون بانهم يدافعون عن ساداتهم الملتزمين ويساعدونهم في المدافعة عن املاكهم وعقاراتهم عند الطلب والحاجة ولم تكن هذه المواعدة من الواجبات الالتزامية التي يشترط فيها الخدم الالتزامية وانما كانت بين الملتزمين والاتباع كمصلحة خصوصية منعقدة بين اقران لا كشروط التزامية بها يجب على كل تابع ان يخدم سيده من الملتزمين انتهى من شواهد تاريخ لنغدوق وبمجرد ما اعتاد الاتباع على هذه الخدم نشأت بينهم بالتوالي خدم التزامية اخرى وقد ذكر المؤلف مونتسكيو في كتابه المسمى روح الشرائع ان الاراضي التي كان يعطيها الملتزمون لاتباعهم هي التزامات كان يجب في الاصل على من تملكها ان يدخل في الخدامة العسكرية انتهى وزعم المؤلف مبلي ان من كانوا يأخذون هذه الاقطاعات الربعية لم يكونوا ملزومين في اول الامر بشيء سوى الخدمة التي كانت تجب على كل

انسان حر واما نحن فنقول اننا اذا قابلنا بين براهينهم وادلتهم ومناقضاتهم لبعضهم وتأملنا فى أن كل انسان حر كان يجب عليه الخدمة فى نظير عقاراته المعطاة له واذا أبى يعاقب بقصاصات شديدة نرى انه لا يوجد هنالك سبب مقبول عقلا فى اعطاء هذه الاراضى لاناس آخرين من غير ان تفرض عليهم بعض واجبات جديدة وما الداعى مثلا للملك الى تجريد نفسه من املاكه واراضيه واعطائها الاناس آخرين اذا كان ذلك لا يكسبه حقا عليهم فى خدم كان لا يتأتى له ان يلزمهم قبل ذلك بها فنستنتج من ذلك انه حيث كان اصحاب العقارات المطلقة يجب عليهم خدمة الجمعية فكذلك يلزم انه كان يجب على الاتباع اصحاب الاملاك الربحية ان يخدموا الملتزمين الذين كانوا يعطونهم هذه الاملاك وان يكونوا امناء فى حقهم وكانت هذه الالتزامات اختيارية غير التزامية يعنى ان الملتزمين الذين كانوا يعطونها للاتباع كانوا يأخذونها منهم متى شاؤا ولا يوجد فى حوادث القرون الوسطى حادثة اخرى اكيدة اكثر من هذه الحادثة المذكورة حتى يمكن ان تقتبس منها براهين عديدة تثبت بها الحوادث التى ذكرت فى روح الشرائع للمؤلف مونتسكيو وفى تأليف دوكنج

(الرابع) لم يمكث ملك الاراضى الربحية على هذه الحالة زمنا طويلا لان الملك الاختيارى الغير الثابت لا يكفى فى استمالة الاتباع الى ساداتهم فما زال الاتباع يتعللون حتى صارت هذه الاراضى الانتفاعية تبقى معهم مدة حياتهم (ذكره فودو ر) وقد جمع المؤلف دوكنج من القوانين القديمة والتواريخ عدة عبارات تبرهن على ثبوت ذلك قال ان الاتباع بعد هذا الامر سهل عليهم أن توصلوا بالرضاء او بالغصب الى ان كتبوا حججا بينهم وبين ساداتهم بوراثية هذه الاراضى الربحية الانعامية فيتوارثها اولا الابناء من الذكور ثم الحواشى من الذكور ثم النساء انتهى

و يعسر تعيين زمن كل من هذه التغييرات المذكورة وذكر المؤلف مبلى فى هذا الشأن ما يتراءى عليه الصحة وهو ان الملك كرلوس مرتيل هو اول

من انشأ عادة اعطاء الاراضى الانعامية عطاء لا يرد مادام المنعم عليه حيا
و يظهر من الاسانيد التى اسس عليها هذا المؤلف وأيمان الملك لويز لوديبونير
هو احد من ابتدأوا بجعل هذه الانعامات وراثية ولكن قد ذكر المؤلف
ما بيلون نص الفرمان الذى صدر من الملك لويز لوديبونير ف (سنة ٨٦٠)
و يظهر منه ان هذا الملك كان لم يزل يعطى هذه الانعامات مدة حياة المنعم
عليه فقط و فى (سنة ٨٨٩) اعطى ملك فرانسا المسمى أودوس دو باويس
بعض اراضى لتابعه المسمى ريكابودوس واذن له ان ينتفع بها مدة حياته وانه
اذا او جد له ابن بعد موته ينتفع هذا الابن ايضا بتلك الاراضى الى ان يموت
انتهى ما بيلون) فهذه درجة اخرى متوسطة بين التزامات العمرى المحضة
و بين الالتزامات الوراثية الدائمة الوراثة و مادامت الالتزامات التى لمجرد
الانتفاع على حالتها الاولى وهى ابقاؤها بيد التابع المنعم عليه الى ان يشاء
استاذه نزعها منه كان السادات زيادة على مزاياهم السيادية التى تجب لهم
على اتباعهم محافظين على تلك العقارات ولا يأذنون لاتباعهم الا بالانتفاع
بها فقط فلما آلت الى الحالة الاخيرة وهى حالة التوارث كان الفقهاء اذا
كتبوا فى شأن الالتزامات يكتبون على حسب الاصول الاولى ومع ذلك
فلم يكن ملك عقارها للسادات بل كان قد انتقل للاتباع و بمجرد ما عرف
الملتزمون واتباعهم النفع الذى يحصل لهم من بعضهم بتملك الالتزامات بهذه
الطريقة الاخيرة وهى طريقة الوراثة استحسنها كل من الملتزمين والاتباع
حتى صارت الاراضى من وقتئذ تعطى التزامات وراثية وكذلك المدخولات
البرانية كالمكس و جمرك الممر و المرتبات وما شبه ذلك وانما كان الاتباع
فى نظير ذلك يعدون بان يوفوا بالخدامة العسكرية كما يطلبها منهم ساداتهم
الملتزمون (ذكره المؤلف موريس والمؤلف بروسيل)
ومع ان جعل مثل هذه الاملاك والمدخولات البرانية التزامات وراثية
لا يخلو عما لا يستحسنه العقل يوجد فى العوايد الالتزامية احكام اخرى اغرب
من هذه وذلك ان محصول مرتب الوعظ فى الكنائس كان معدودا

من المدخولات القسيسية وكان يرجع مدخول كل ديراوكنيسة من هذه الجهة الى القسيسين الذين يخطبون بمحرابها ثم حصل ان بعض البارونيين الاقوياء الشوكة تغلبوا على هذا الامر واثبتوا حق هذه المدخولات لانفسهم بان اخذوها من الكنائس التزامات لهم وقسموها بين اتباعهم كغيرها من الاراضى (ذكره بوكيت)

والسبب الباعث لجعل الالتزامات وراثية هو الذى حمل الاشراف على أن غصبوا من ملوكهم عدة وظائف فى المملكة مهمة وجعلوها وراثية لهم ايضا فصارت عدة من اهم الوظائف الملكية وراثية للاشراف فى اغلب ممالك اوروبا وكان الملوك يعرفون معرفة جيدة ان هذه الفعال اختلاس وتعد من جهة الاشراف وكانوا يحترسون الغاية من ازدياد ذلك واتساعه حتى انهم كانوا فى بعض الاحيان يجبرون من يعطونه منصبا او وظيفة من الاشراف على ان يكتب وثيقة شرعية على نفسه بانه لا يجوز له ولا لورثته من بعده ان يتملكوا هذا المنصب او هذه الوظيفة بدعوى حق الوراثة وقد ذكرت امثلة ذلك فى الكتب اكثر من مرة * وبتغير حالة العقارات والاراضى تغيرت كذلك حالة السياسة باصولها لان اكابر اتباع الملك كانوا كلما زادت املاكهم والتزاماتهم زادت شوكتهم وكبرت كلمتهم وخفضوا افتاء الملك واحتقروا مزايا الرعايا * وانما كان البحث عن اراضى الملتزمين امرا يرغب فيه فى التاريخ لانه كان يوجد وقتئذ التعادل بين الالتزامات والشوكة اذ كان كلما عظمت اراضى الملتزم عظمت شوكته وبالعكس واذا علم الانسان حالة الالتزامات والاراضى فى اى وقت كان يمكنه ان يعلم على التحقيق درجة شوكة الملوك والاشراف فى ذلك الوقت

وقد حصلت حادثة اخرى فى تغيير حالة الالتزامات والاراضى جديرة بان ننبه عليها وقد ذكرنا انه عند الامم المتبربرين على اختلافهم حين تقاسموا البلاد التى فتحوها فى القرن الخامس والسادس كان تملك الاراضى تملكا مطلقا معافى من جميع الحقوق والغرامات الالتزامية ولكن من ابتداء القرن العاشر

صار اغلب تملك الاراضى فى عدة من ممالك اوربا تملكا التزاميا وحيث ان التملك بالطريقة الاولى يظهر انه انفع و يرغب فيه اكثر من التملك بالطريقة الثانية كان تحول التملك من الاولى الى الثانية مما يستغرب لاسيما اذا نظرنا الى ما فى التاريخ من ان التملك المطلق المعافى كان يؤول غالبا الى تملك التزامى بموجب حجة يكتبها مالك الارض باختياره وقد اجتهد المؤلف مو تسكيو فى البحث عن الاسباب التى دعت الناس فى الاعصر الاول الى ان يفعلوا بالعقارات افعالا مخالفة لما سلكه اهالى الاعصر الاخيرة وحرر هذه الاسباب مع الاتقان كما هو عادته واقوى هذه الاسباب هو السبب الذى ذكره لنا المؤلف لمبيردروس وهو مؤلف قديم ذكره المؤلف دوكنج وهذا السبب هو انه بعد موت كرلوس مانوس صارت بلاد اوربا فى انقلاب واضطراب واختلال لعدم وجود ملك اذذاك وفى هذا الوقت كانت روابط الالتئام والعلائق الجامعة بين ارباب الدول والسياسات قد وهت وتلاشت و كانت الرعايا عرضة لكل اذى وسبى واجحاف وما كان يمكن للدولة المدافعة عنهم فاضطر كل واحد من الرعايا الى ان يبحث له عن حام قوى الشوكة يستظل بظله و يدخل تحت رايته و يتخذه ملجأ له يحميه عن الاعداء الذين لا يمكنه التصدى لمقاومتهم فبهذا صار كل صاحب عقار يتنازل عن حريته واستقلاله و يدخل فى الخدم الالتزامية ليستظل بظل الامان فى حمى الملتزمين القادرين ذوى الاحترام فبذلك صارت الاراضى والعقارات التزامية بعد ان كانت مطلقة معافاة وعم ذلك فى بعض بلاد اوربا حتى محيت حرية اصحاب الاملاك والاراضى بحيث صار لا يمكنهم انتخاب من يريدونه من الملتزمين بل جبروا على ان يتخذوا لانفسهم سادات من الملتزمين يكونون اتباعا لهم وذكر المؤلف بومنو اراه فى قونتة بوويس وقونتة كلرمون كان السادات الملتزمون او القونتات اذا وجدوا فى حصصهم ارضا لم يخدم مالكها فى الخدامة الالتزامية ابدا ولم يدفع عليها شيأ من القرد والغرامات ينزعونها منه فورا و يقولون انه على حسب عوايدنا ورسومنا لا يجوز لاحد ان يملك

ارضا

ارضا عالكامطلقا معافى وعلى هذه القاعدة بنى حكم فى القوانين الفرنساوية وصار الآن عاما فى مملكتهم وهو ان كل ارض لابد لها من ملتزم . وفى اقاليم اخرى من مملكة فرانسا غير الاقليمين المتقدمين (بوويس وكارمون) يظهر لنا ان التملك المطلق المعافى كان معتبرا اكثر من التملك الالتزامى وان التملك الاول قد مكث فيها من غير تغيير اكثر مما مكث فى اقليم بوويس واقليم كارمون

وقد ذكر فى تاريخ لنغدوق العمومى فى المجلد الثانى جملة كبيرة من صور الوثائق فمنها ما يدل على ان الاراضى المعافاة بهذا الاقليم (اى اقليم لنغدوق) كانت تعطى اقطاعات للناس ومنها ما يدل على انها كانت تباع ومنها ما يدل على انها كانت تستبدل بل الظاهر انه فى مدة القرن التاسع والعاشر ومعظم القرن الحادى عشر كانت الاراضى بهذا الاقليم مطلقة معافاة وقل أن وجد فى جميع وثائق هذا الاقليم بعض آثار من الرسوم والعوايد الالتزامية والظاهر انه فى اقليم قتالونيا واقليم روسيلون كانت الاملاك فى القرن التاسع والعاشر ومعظم القرن الحادى عشر على نسق ما كانت عليه فى اقليم لنغدوق كما يستفاد ذلك من الوثائق الاصلية التى ذكرت فى مقدمة كتاب المؤلف بطرس دومركا والظاهر ايضا ان الملك المعافى مكث كذلك فى مملكة البلاد الواطية اكثر من البلاد المتقدمة بل لم تزل فيها آثار الاملاك المعافاة الى القرن الرابع عشر

ولا يخفى ان آراء الناس فى شأن ملك الاراضى والعقارات كانت تختلف بحسب اختلاف معارفهم واهوآئهم وشهواتهم النفسانية وذلك انه اتفق فى آن واحد ان بعض الناس كان يترك بعض اراضيه المعافاة و يبحث عن ان يكون من اتباع الملتزمين وبعض آخر كان شديد الرغبة فى جعل اراضيه الالتزامية اراضى معافاة مثال ذلك ماذكر فى قانون الملك لويز لوديبونير الذى ذكره المؤلف ايكردو وامثلة كثيرة فى مؤلفات اخرى ومثل هذا الاختلاف حصل فى مملكة البلاد الواطية

وماذكرناه الى هنا فى شأن تغيير الاراضى وتحولها من حال الى اخرى يكاد ان يكون مقصورا على ماوقع من ذلك فى المملكة الفرنساوية وسبب ذلك ان آثارهم القديمة اعتنى بحفظها اكثر من غيرها او وضحت اكثر من آثار غيرها من ممالك اوربا

وهذه التغيرات السابقة قد حصلت ايضا فى اراضى بلاد ايطاليا وكانت على النسق المتقدم ولكن هنالك براهين دالة على ان التملك المطلق المعافى مكث مرغوبا فيه عند الايطاليين زمنا اطول من زمن رغبة الفرنساوية فيه والظاهر ان عدة من القوانين التى احدثها ملوك ايطاليا فى القرن التاسع تؤذن بتملك الاراضى تملكا مطلقا معافى ولكن حصل فى القرن الحادى عشر ان بعض اناس تركوا تملكهم المطلق فى اراضيهم وجعلوها التزامية وقال المؤلف موراطورى ان لفظ التزام الذى جرى على السنة الناس بعد لفظ ربح لم يعهد كتابته فى وثيقة صحيحة مؤرخة قبل القرن الحادى عشر وانا اقول ان اقدم وثيقة وجد فيها لفظ التزام هى الوثيقة التى صدرت من الملك روبرت ملك فرانسا حسبما ذكره المؤلف بوكيت فى المجلد العاشر من تاريخ الغالة وفرانسا ثم وجد كذلك لفظ التزام فى امر ملوكى ظهر (سنة ٧٩٠) ذكره المؤلف بروسيل ولكنه مختلف فى صحته وايضا كثرة ذكر هذا اللفظ فى الامر الملوكى المذكور ربما ادت الى الشك فى صحته ثم ان المعنى الذى فسرت به التملك المطلق المعافى والتملك الالتزامى تستفاد صحته من منشأ هذين اللفظين لان التملك المطلق يسمى ألودا وألوديوم ولفظ ألود مركب من لفظين نمساويين وهما لفظ آل ولفظ لود ومعناهما الارض المأخوذة بالقرعة وذكر المؤلف دوكنج وغيره ان امم الشمال تقاسموا الاراضى التى تغلبوا عليها بطريق القرعة واما الالتزام فيسمى فيودوم وهو مركب ايضا من لفظين وهما لفظ اود ومعناه الملك او المال ولفظ فيو ومعناه الرهن او الجامكية وبهذا يتعين ان الالتزامات كانت نوعا من الاجرة يعطى لمن يخدم فى نظير خدمته

والمذهب الالتزامى عند النمساويين قد تقدم كذلك وبلغ الدرجة التى بلغها فى مملكة فرانسا كما سبق ولكن حيث كان ايمبراطرة النمسا يفوقون فى المعارف جدا على ملوك فرانسا الذين كانوا فى عصرهم لاسيما بعد ان انتقل التاج الايمبراطورى من ذرية كرلوس مانوس الى عائلة سكس لم يمكن للاشراف اتباع الدولة ان يجلوا بطلب استقلالهم كما حصل فى مملكة فرانسا فلم ينالوا المزايا التى ثبتت فى فرانسا مع السرعة من تملك الاراضى الريحية بحق وراثى وعلى حسب ماذكر المؤلفون الجامعون لكتب الالتزامات كان كونراد الثانى المسمى لوساليك اول ايمبراطور من ايمبراطرة النمسا جعل الالتزامات وراثية وكان جلوس كونراد على كرسى الايمبراطورية (سنة ١٠٢٤) واما فى مملكة فرانسا فلم تصر الالتزامات وراثية ولم يشع ذلك بين الناس الا فى ايام الملك لويز لودبيونير الذى خاف اباه فى التسلطن (سنة ٨١٤) فلم تحصل هذه الحادثة كما ترى بين اتباع ايمبراطرة المانيا الا بعد حصولها عند الفرنساوية بكثير وزيادة على ذلك كانت هذه الحادثة بعد ان رتبها كونراد فى بلاد النمسا معطلة بقوانين تلك البلاد لما ان هذه القوانين كانت لم تزل محافظة على العوايد والرسوم القديمة فاذا كان لانسان من الاتباع التزام وراثى ولكن كانت الوثيقة لم تنص صراحة على ان التزامه يصير بعده لورثته كان يحكم بان هذا الالتزام لم يكن اعطى له الا لينتفع به مدة حياته بل بعد انشاء وراثية الالتزامات بامر كونراد كان لا يستغرب فى بلاد النمسا اعطاء بعض التزامات على سبيل العمرى فقط وذكر بعض المؤلفين وثيقة من هذا القبيل وتاريخها (سنة ١٣٧٦) ثم ان حق انتقال الالتزامات الوراثية الى الحواشى والى فرع الاناث لم يثبت فى المانيا الا مع غاية التراخى والبطئ وذكر بعض المؤلفين وثيقة تاريخها (سنة ١٠٦١) مشتملة على توريث بعض نساء ولكن كان اعطاء ذلك على سبيل الانعام لخصوصية فيهن اقتضت مراعاتهن وفى نظير بعض خدم مهمة اقتضت ذلك ايضا كما ذكره بوهمير ولا يخفى ايضا انه بعد حدوث التملك الالتزامى بمدة مستطيلة وجد فى بلاد النمسا

وفى مملكة فرانسا وايطاليا مقدار جسيم من الاراضى باق على التملك المطلق المعافى * ويظهر من قانون الدير المسمى دير بولى ان جزأ عظيما من التزامات اقليم مسنيه مكث مملوكا تملكا معافى الى القرن الثالث عشر ويظهر ايضا ان التملك المعافى كان موجودا كذلك وقتئذ فى خط آخر من اراضى اقليم مسنيه المذكور

المبحث التاسع

فى بيان المطلب المتقدم بصحيفة (٢٨) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

وحيث انه يمكننى ان اذكر فى غير هذا المبحث حالة الناس الذين كانوا يسكنون المدن اقتصرت هنا على ذكر حالة سكان الخلاء فأقول ان الناس الذين كانوا يشتغلون بزراعة الاراضى فى الاعصر التى نتكلم عليها يمكن تقسيمهم الى ثلاث مراتب

المرتبة الاولى مرتبة المستعبدين او الاسرى والظاهر ان هذه الطائفة كانت اكثر من غيرها اناسا وكان اناسها اما اسرى اخذوا فى الحرب او اناسا صاروا ارقاء بسبب بعض الشروط والوسائط التى ذكرها المؤلف دوكنج وهناك عدة امور تفيد ان ارباب هذه الطائفة كانوا فى غاية الذل والاسترقاق وهى (اولا) كان السيد مطلق التصرف فى شأن من هم تحت ولائه من المستعبدين فكان يجوز له ان يعاقب من شاء منهم بالموت من غير ان يتعرض له احد فى فعله ولم يزل هذا الحق الشنيع ثابتا للسادات على ارقائهم من الازمان الخالية الخشنية الاخلاق الى القرن الثانى عشر وبعد ان قلت هذه الفعال وضاقت دائرة افتاء السادات كانت نفس الرقيق لا قيمة لها بحيث كان اقل شئ من الاموال يكفى فى خلوص قاتله من ذنب القتل وحيث كان السادات يتصرفون فى نفوس ارقائهم بما شاؤا من قتل وابقاء فمن باب أولى كان لا يمكن منعهم من ان يعاقبوهم بما شاؤا من انواع العذاب

و كانت العقابات المرتبة بالقوانين القديمة للمستعبدين فى نظير ذنوبهم الكبيرة غير العقابات المرتبة للناس الاحرار لان الاحرار كان لا يحكم عليهم فى نظير كبائرهم الا بان يدفعوا جريمة معلومة واما المستعبدون فكان يحكم عليهم بقصاصات جسمانية كانت احيانا من اشد العذاب فانه كان من الممكن ان يحكم عليهم بالتعذيب فى نظير ادنى ذنب يقع منهم وبالجملة فالشرائع التى تخص هذا الشأن تنفر منها نفوس ذوى المروءة والانسانية

(ثانيا) حيث كان تصرف السادات فى نفوس ارقائهم مطلقا بهذه المثابة لزم انهم بالنسبة الى افعال ارقائهم الذاتية وما كان تحت ايديهم لم يكونوا فى تصرفهم فى ذلك اقل من التصرف السابق ففى مبدء الامر كان لا يؤذن بالزواج لاحد من المستعبدين ثم كان يمكن للنساء ان يعشن مع الرجال كالازواج بل كان السادات يحملون الرجال والنساء من ارقائهم على ذلك ولكن لم يكن هذا معتبرا زوجية بينهم وانما كان عاما شائعا حتى انه بعد ان دخل الملل المتبربرون فى دين النصرانية بمدة قرون كان المستعبدون الذين يعيشون مع بعضهم كالزوج والزوجة ليسوا مجتمعين ببعضهم بعقد دينى ولا بنكاح صحيح فلما صار هذا الاجتماع فيما بعد معتبرا بين المستعبدين كنكاح شرعى صار لا يؤذن لهم ان يتزوجوا الا بعد رضا سيدهم وكل من كان يتجاسر على خرم هذه القاعدة بان يتزوج بغير اذن سيده كان يعاقب باشد العقاب بل وكان يحكم عليه احيانا بالموت فلما حسنت اخلاق ملل اوربا وتيقظت عقولهم صار من يتزوج من المستعبدين بغير اذن سيده لا يحكم عليه الا بجريمة معينة

(ثالثا) اولاد المستعبدين كانوا مستعبدين ايضا وكان ملك رقبتهم لسادات آبائهم

(رابعا) كان للسيد ملك رقبة ارقائه بحيث كان يتصرف فيهم بالبيع كيف شاء وما دام المستعبد فى خدمة منزل سيده كان يجوز بيع رقبته كباقى امتعة البيت واثاثه فلما صار المستعبدون بعد ذلك معينين للفلاحة وخدمة

الاراضي صاروا يباعون مع الجفلك او الارض التي هم في خدمتها وقد جمع المؤلف بو تجيسر جميع القوانين والوثائق التي توضح هذا الامر المشهور في شأن المستعبدين

(خامسا) كان لا يمكن للمستعبدين ان يطلبوا من ساداتهم سوى الاكل والكسوة وكل ما يكتسبونه بكدهم وتعبهم كان يرجع لساداتهم فان اقتضى الحال ان السيد ينعم على ارقائه و يعطيهم جهة شغل يتعيشون منها او يعين لهم مبلغا معلوما كان يرجع اليه ما يزيد على كفايتهم فكل ما كانوا يجمعونه كان ملكا لسيدهم وكل من مات من المستعبدين كانت مخلفاته ترجع الى سيده ولا يجوز له ان يتصرف فيها بالايصاء

(سادسا) كان المستعبدون يمتازون عن الاحرار بلبوسهم وحيث كانت طول الشعر عند جميع الملل المتبربرين مما يدل على المقام والحرية كان المستعبدون مجبورين على ان يحلقوا رؤسهم ومع ان هذا الامر بالنظر لذاته يستوي وجوده وعدمه كان يذكرهم في كل وقت رقهم واستعبادهم وكان من جملة القوانين المرتبة في شرائع اغلب ملل اوربا ان الرقيق لا يقبل ابدا في محكمة للشهادة على حر

(المرتبة الثانية) طائفة الويلاني وهي طائفة تخدم بعض اراض تسمى ويله ولذلك سميت طائفة الويلاني وكانوا يباعون مع الاراضي التي يخدمونها ان بيعت والفرق بين هذه الطائفة وطائفة المستعبدين كما ذكره بطرس دوغو تنجي ان الويلانيين كانوا يدفعون لساداتهم مقدارا معينا من محصولات الاراضي التي كانوا يزرعونها وبعد ان يدفعوا المقدار المجعول عليهم يكون لهم ان يتصرفوا كيف شاؤا في ثمرات اشغالهم وكدهم

(المرتبة الثالثة) من مراتب الناس الذين كانوا يشتغلون بالزراعة هي طائفة الاحرار وهناك ما يدلنا على ان الناس الاحرار كانوا اما ان يملكون بعض عقارات صغيرة تملكا مطلقا معافى وزيادة على ذلك كانوا يزرعون بعض التزامات لمن يلوذ بهم من الملتزمين الاغنياء و يعطون لهؤلاء الملتزمين في نظير

ذلك

ذلك عقد ارامعينا ويخدمونهم فى عدة امور خفيفة كحراثة قطعة ارض للملتزم مثلا واماته وقت الحصاد ووقت اجتناء الكروم وما اشبه ذلك وذكر المؤلف موراطورى برهانا لذلك واضحا جدا وكذلك المؤلف دوكنج ولكن لم يمكنى أن اعرف هل كان هؤلاء الناس يعزلهم الملتزمون متى ارادوا او كانوا يستأجرون اراضى الملتزمين مدة معلومة من السنوات ولا يمكن عزلهم قبل انقضاء مدة الاجارة والظاهر بحسب احوال الزمن وقتئذ ان الامر الاول هو الاقرب وان كان هؤلاء الناس احرارا بمعنى انهم حازوا الصفات الشريفة الدال عليها لفظ حرية لانهم كانوا يتمتعون بجميع مزايا الاحرار وكانوا يدعون الى الخدم الحربية مع انها كانت خدما شريفة لم يكن للمستعبدين حق فيها هكذا ذكره موراطورى

ومما ذكرناه فى شأن تلك المراتب الثلاثة يعين قارئ كتابنا على اتقان برهان سنذكره لاجل اثبات ما قدمنا فى اتحاف الملوك فى شأن سوء حال الاهالى فنقول مع انه كان هنالك بون بعيد بين طائفة المستعبدين وطائفة الاحرار كان ظلم الملتزمين الكبار شديدا فكانوا يظلمون من يستوطن باراضيهم ظلما متواليا لا يطاق بحيث ان عدة من الناس الاحرار سئموا من ذلك فتنازلوا عن حريتهم وجعلوا انفسهم باختيارهم من جملة المستعبدين لهؤلاء الظلمة الجائرين وانما جعلوا انفسهم من جملة المستعبدين ليتقربوا الى ساداتهم فيحموهم ويعطوهم قوتهم وقوت عائلاتهم وصورة هذا الاستعباد الذى كان مشهورا وقتئذ باسم أوبنوكسياسيون مذكورة فى كتاب المؤلف مار كولف وفى كتاب آخر لا يعلم مؤلفه الا انه جمع الرسوم والقوانين القديمة والذى اشهر هذا الكتاب الاخير هو المعلم بينون

فيعلم من هذين الكتابين ان لفظ أوبنوكسياسيون كان مدلوله حالة القهر والظلم التى كان فيها كل شخص يتنازل عن حريته باختياره وكان الناس الاحرار فى الاكثر يتنازلون عن حريتهم ويدخلون تحت طاعة الاساقفة ورؤساء الديور لاجل ان يكون لهم جانب من الامن الذى كان يستظل به

اتباع الكاثلكين والدوروارتاوها الان اعالى نالث العشر يدولهم ولوماسوم كانوا يحترمون القديسين والقسيسين ويدخلون فى حماهم ذكره دوكنج ولابد ان حالة الاحرار كانت سيئة جدا حيث ان الاحرار كانوا مضطرين الى ان يتنازلوا باختيارهم عن حريتهم ويدخلوا تحت طاعة غيرهم كالمستعبدين ثم ان مقدار المستعبدين كان جسيما جدا عند كل ملة من ملل اوربا لانه فى ابتداء الجيل الثالث فى مملكة فرانسا كان معظم رعاع الناس قد آل الى الاستعباد والرق كما فى روح الشرائع وكذلك فى انكلتره وجد فى كتاب المعلم بارنكتون عدة حوادث غريبة فى شأن الحالة التى كان عليها الويلانيون والمستعبدون فى بلاد انكلتره

المبحث العاشر

فى بيان مطلب كون الآثار التى ترتبت عن هذه الجمعية اضرت بالعلوم والفنون بصحيفة (٣١) فى القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

يمكن ان نبرهن على هذا الامر بادلة كثيرة جدا فانه وجدت عدة قوانين وعدة وثائق صادرة عن الاعيان ذوى الدرجات الرفيعة يستبين منها ان هؤلاء الاعيان كانوا لا يعرفون كتابة اسمائهم ولا وضع امضاآتهم وبسبب ذلك كانوا يعملون صورة صليب على الوثائق الصادرة عنهم وكانت هذه العلامة امضاءهم وقد بقى الى زمننا عدة وثائق بعضها صادر عن الملوك وبعضها صادر عن الاعيان امضاؤها صورة الصليب فقيل ان هذه العلامة رسم ايديهم لانهم كانوا لا يعرفون الكتابة ذكره دوكنج وفى القرن التاسع كان القونتة هربود رئيس المحكمة واعظم قضاة الدولة مع انه كان لا يعرف ان يكتب اسمه بل قد وجد فى القرن الرابع عشر الذى هو قريب العهد منا ان دوغسقلين رئيس الجيوش الفرنساوية واعظم رجال الدولة واول اكابر عصره كان اميا لا يعرف القرآءة ولا الكتابة كما ذكره سنتبالى وهذا الجهل لم يكن مقصورا على العوام بل كان اغلب القسيسين ارباب المناصب لا يمكنهم

ان يكتبوا اسماءهم على القوانين التى كان يضط الرأى عليها فى المجالس
التى كانوا يحضرون بها وكان من جملة القوانين انه يلزم ان كل من طلب
ان يتقلد منصبا او وظيفة يسئل هل يعرف ان يقرأ الانجيل والمكاتبات
و يفسر معناها ولو كلمة بكلمة من غير نظر الى تفسير الجملة وطالما كان
يتشكى الملك ألفريد الاكبر من انه لم يكن يوجد فى البلاد التى بين نهرى
هومبير وتاميزا احد من القسيسين يفهم الدعوات القديسية بلغتها الاصلية
و يمكنه أن يترجم من اللغة اللاطينية ولو العبارات السهلة و يتشكى ايضا
من ان البلاد التى كانت بين نهر تاميز والبحر كان قسيسوها اجهل
من قسيسى البلاد التى ذكرت آنفا

وقد وصف لنا بعض مؤلفى تلك الاعصر جهل القسيسين وقتئذ ولكن بالغ
فى ذمهم على وجه السخرية والاستهزاء بعبارة لا يمكن ترجمتها بما يؤدى
مؤداها بحيث يكون على الوجه الذى سلكه وزيادة على تلك الاسباب
التى ترتب عليها عموم الجهل و يمكن اخذها من حالة الحكومات واخلاق
الناس من القرن السابع الى القرن الحادى عشر نقول ان من اسبابه ايضا
ندرة الكتب وقتئذ وعدم انتشارها بين الناس

وذلك ان الرومانيين كانوا يكتبون كتبهم على جلود مصقولة اوعلى رق قشر
شجر البابيروس المسمى بردى اوفيلكون و يقال له ايضا ورق النيل لانه كان
يأتى اليهم من مصر ولما كان قشر البابيروس ارخص ثمنا كان استعماله
عندهم اكثر من الجلود ولكن بعد ان فتح الاسلام بلاد مصر فى القرن السابع
انقطعت المخالطات بين اهالى مصر و بين ملل ايطاليا وغيرهم من ملل اوربا
وبطل استعمال ورق النيل من بلاد اوربا فاضطر الناس الى أن يكتبوا جميع
الكتب على الجلود وحيث كانت غالية الثمن صارت الكتب كذلك غالية ونادرة
جدا و يستفاد من هذا انه كان يصعب تحصيل مواد يكتب عليها و يوجد
الى الآن عدة كتب من مؤلفات القرن الثامن والتاسع كلها منسوخة
فى جلود ازيلت منها الكتابة القديمة وعوضت بكتابة اخرى جديدة و يمكن

ان هذه الطريقة كانت هى السبب فى ضياع عدة مؤلفات قديمة فكانوا مثلا يمحون تأليف المؤلف تتليوه اوتاسيت و يكتبون بدلها سير بعض القديسين اودعوات بعض الكهنة والرهبان كذا ذكره موراطورى وقد ذكر المؤلف منتفوكون ان معظم الكتب القديمة التى عثر عليها كان مكتوبا على جلود وكان قد مسح منها بعض الكتابة القديمة الا ما كان قبل القرن الثانى عشر وحيث كان ندور المواد التى يكتب عليها من جملة الاسباب التى ضاع بها مقدار عظيم من كتب المتقدمين استفيد منه سبب قلة كتب المتقدمين السابقة على القرن الحادى عشر مع ان هذا القرن كان اول اخذ الكتب فى الكثرة والانتشار لسبب سنذكره لك فى آخر هذا المبحث وهناك وقائع اخرى كثيرة تدل على ان الكتب مدة القرون التى نتكلم عليها كانت نادرة جدا وقل ان وجد فى ذلك الوقت اناس يملكون بعض كتب بل بعض الديور والكنائس الكبيرة لم يكن موجودا فيها سوى نسخة واحدة من كتاب القداس (صلاة النصارى) كما ذكره موراطورى وقد كتب الراهب المسمى لوپ وهو قديس ديرفيريرس (سنة ٨٥٥) مكتوبا الى البابا واقسم عليه فيه ان يعيره نسخة من كتاب الاديب قيثرون ومن قانون كنتيليان قائلا انه وان كان يوجد عندنا بعض شذرات من هذا الكتاب الا انه لا يوجد نسخة كاملة فى مملكة فرانسا باجمعها انتهى ذكره المؤلف موراطورى

ثم ان ثمن الكتب لم يزل آخذا فى الغلو حتى ان الناس المتوسطى الحال فى الغنى كانوا يعجزون عن شراء شئ منها وقد اشترت قونتيسة أنجو نسخة من كتاب مواعظ هيمون اسقف هلبرستاده فدفعت فيها مائتين من الضأن وخمس مقادير من الارض مزروعة قمحا (يقال للمقدار منها كارتيه) وخمسة اخرى مزروعة من قمح الجاودار وخمسة مزروعة من الذرة البيضاء كما فى تاريخ آداب فرانسا ولما استعار الملك لويز الحادى عشر (سنة ١٤٧١) من جمعية الطب البشرى بمدينة باريس مؤلفات الفخر الرازى وهو من حكماء العرب رهن هذا الملك فى نظيرها مقدارا جسيما من امتعته النفيسة

الثمينة بل وطلب منه كفيل يضمنه حتى يرد هذه الكتب فمن لذلك بعض الملتزمين واستلمها كذا ذكره المؤلف نودى وذكر ايضا عدة وقائع واحوال غريبة تدل على غلو ثمن الكتب فى القرون الوسطى بحيث لو اطلعت على مجموع هذا المؤلف الذى استنبطه من الكتب لوجدت الآداب جديرة بان تشد اليها الرحال وحرية بان يتولع بها فحول الرجال وكان اذا وقف احد كتابا على كنيسة اودير (لانه لم يكن فى تلك الازمان المتبربرة كتبخانات الا فى الكنائس والديور) عد ذلك امرا عظيما حتى ان واقف الكتاب يدنو بنفسه من المحراب ويضع الكتاب فيه لتغفر له ذنوبه قاله موراطورى

وفى القرن الحادى عشر اخترع فن اصطناع الورق المعتاد الآن فى جميع البلاد وباختراعه تعددت الكتب وسهلت ممارسة العلوم سهولة غريبة كما ذكره موراطورى ولا يخفى ان اختراع صنع الورق واختراع الطبع هما حادثتان مهمتان من حوادث تاريخ الآداب فكان اختراع فن الورق مقدمة لنمو الآداب والفروع الفلسفية فى اواخر القرن الحادى عشر واختراع الطبع اخرج اوروبا من ظلمات الجهالة واشرق فيها سواطع الانوار التى ازالت عنها ليلها الحالك وردتها عن ضلالها الى الاقوم المسالك

المبحث الحادى عشر

فى بيان مطلب مدخلية الحكومة الالتزامية فى الامور الدينية
بصحيفة (٣١) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

لا يخفى ان جميع القواعد والاصول الدينية التى كانت فى اعصر الجهالة تبرهن على ما قدمناه فى الكتاب ونذكر لك شاهدا على ذلك استنبطناه من كتاب عد مؤلفه من قديسى كنيسة رومة وهو اسقف نوايون المسمى الواه وكان موجودا فى القرن السابع ونص عبارته خير النصارى من يتردد غالبا الى الكنائس ويقدم الى المحراب القربان الذى يتقرب به الى الله تعالى ولا يذوق ثمرة كده الا بعد ان يتقرب ببعضها الى الله تعالى وقبل المواسم

والاعياد المقدسة بعدة ايام يلازم الرياضة والعفة فى عيشته ولومع زوجته ليكنه التقرب الى محراب الله تعالى طاهر القلب خالص النية وخيرهم ايضا من يمكنه ان يستمر على تلاوة ادعية الحواريين والصلاة فافيدوا ايها الناس انفسكم بالطاعة وانقذوا ارواحكم من التلف والفساد قبل ان تضيع منكم كل وسيلة ولاتجدوا لكم قدرة ولااستطاعة واتحفوا القسيسين بالهدايا واخرجوا لهم العشر من اموالكم ومحصولات اراضيكم واكثروا من التردد الى الكنائس وحافظوا على التضرع والخضوع الى القديسين ليظلوكم بحمايتهم ورعايتهم فان حافظتم على هذه الاشياء وقفتم ثابتين الاقدام * بحضرة الملك العلام * يوم يدعو الداعى هذا يوم القيام * هذا يوم الاهانة والاكرام * فيصيح من اتقى الله فى السيئات * وقدم الحسنات * قائلا للحق الديان * الكريم المنان * اللهم أعطنا فانا منحنا * وأنلنا فانا اوجهنا عملنا * كذا ذكرداشير * ثم ان المترجم العالم الحاذق الذى ترجم تاريخ القسيسين الذى ألفه العالم موسهيم قدكمل هذا التاريخ ووسعه بحواش نفيسة زادها عليه ذكرفى حاشية منها عبارة صحيحة تعقب بها عبارة القديس ألواه السابقة ونصها قدرأينا فى عبارة القديس ألواه وصفا يبين التقى من ابناء النصرانية ولكن لم يذكر فيه حب الله ولا الرضاء بما تعلقت به ارادته تعالى ولا الانقياد لشريعته ولا التحريض على اتباع سبيل العدل والانصاف والمراعاة والاحسان بين الناس وبين بعضهم انتهى

المبحث الثانى عشر

فى بيان المطلب السابق ايضا

من المضر لكنيسة رومة ان مذهبها ان لاتغير شيأ من المحافل والرسوم الدينية التى هى مقبولة عند عامة الناس من اعصر الجهالة فهى فى الاعصر المنورة بمصابيح العلوم والمعارف مضطرة الى ان تستمر على ملاحظة العوايد التى لايمكن قبولها الا فى اعصر الجهالة التى يصدق فيها الناس بكل شئ

ثم ان عدة من هذه العوايد والمحافل الدينية مأخوذة من عوايد عبدة الاوثان مع بعض تغيير خفيف وكان يوجد فيها امور هزئية بحيث لو كنا نشاهد ان كل قرن يخلو عن انواع الاوهام الفاسدة والبدع الكاسدة لما امكن الانسان ان يعتقد ان مثل هذه الامور كان مقبولا او مباحا فى الاعصر الماضية ومن هذه المحافل المضحكة محفل كان يعمل سابقا فى عدة كنائس من مملكة فرانسا فى شأن فرار السيدة مريم الى بلاد مصر وهذا المحفل كان يسمى موسم الحمار وصورة هذا المحفل انهم كانوا يصورون بنتا شابة مزينة بافخر الملابس حاملة طفلا فوق ذراعيها راكبة على حمار مسرج بسرج فاخر والناس يقودونه الى المحراب مع الزفاف والاحتفال ثم يصلون وهم فى محفل وازدحام عظيم وقد عوّدوا الحمار ان يجثو على ركبتيه فى احيان معلومة وقت الصلاة . و بعد الصلاة ينشدون اشعارا مضحكة ككلام الصغار مكفرة ثم بعد هذا المحفل يصرف القسيس الناس بكونه ينهق كالحمار ثلاث مرات عوضا عن ان يصرفهم بالكلام المعتاد وكذلك الحاضرون عوضا عن ان يردوا عليه بالجواب المعتاد ينهقون مثله ثلاث مرات ذكره دوكنج

وهذا الموسم المضحك لم يكن يعمل فى الكنيسة على سبيل الاستهزآء واللعب الذى كانت عادة الناس ان يصحبوه ببعض امور دينية بل كان يعمل على سبيل انه امر تعبدى يعمله القسيسون وتقره الكنيسة وكذلك الموسم المسمى موسم المجانين وغيره من مواسم هذه الاعصار ولكن حيث ان هذا الامر لم يكن مقبولا عند الكنيسة القاثوليقية بل كان من الامور المخالفة للعقل التى لا تصدر الا عن البهائم آل الامر الى ان بطلت تلك العادة بالكلية

المبحث الثالث عشر

فى بيان مطلب انتهاز فرصة المجاهدة الصليبية بصحيفة (٣٥) من القسم الاول من المحاف الملوكانيا

وحيث ان تاريخ الدنيا لا يوجد فيه واقعة اغرب من واقعة المجاهدات

الصليبية رأينا من المفيد المرغوب ان نذكر مافيه توضيح كيفية الاختلال العجيب بل والجنون الغريب الذى كان حاصلا وقتئذ لعقول البشر فنقول قد ذكرنا فى اتحاف الملوك الالبا انه كان هنالك عدة اسباب حرضت عقول الناس شيأ فشيأ الى الفعال العجيبة التى حصلت منهم لاسيما وكان قد حثهم على ذلك وهيج قواهم وعزائمهم القديس بطرس لرميت بوعظه اياهم وحيث ان تاريخ هذه الغزوات المرغوب ليس موضحا توضيحا شافيا فيظهر ان ذكر هذه الغزوات وتبيين احوالها تفصيلا على قدر اللازم يرغب فيه و يعتنى به بعض قراء كتابنا هذا

ومما استشهدنا به من كلام المؤلفين يحمل الانسان على ان يتيقن ان الناس فى آخر القرن العاشر واوائل القرن الحادى عشر كانوا منتظرين قيام الساعة وكانوا يقولون انها قريبة من عهدهم حتى صار الناس كافة بهذا الوهم فى حزن واشجان وتمكن من قلوبهم حتى بان اثره فى الوثائق المدنية و يوجد عدة وثائق سطرت فى آخر القرن العاشر اولها هكذا حيث ان الآخرة قد قربت كما يستدل على ذلك بالمقت والغضب الحال بالناس من الله تعالى اختبارا لهم نقول كذا وكذا الى آخره انتهى من تاريخ لنغدوق للمؤلف ويسيت فبهذا الرعب ذهب مقدار جسيم من حجاج النصارى الى بيت المقدس ليموتوا فيه او ينتظروا نزول المسيح عيسى فصار الملوك والملتزمون والاساقفة وكثير من النساء والقونتات ورعاع الناس كلهم يحثون السير الى ارض القدس وذكر بعض المؤرخين ان قونتة أنغوليم ذهب الى بلاد القدس (سنة ١٠٢٦) بعدد لا يحصى من الناس ثم ان هؤلاء الحجاج بعد رجوعهم من بلاد القدس ملأوا اوروبا من الحكايات المبكية على المعاملة السيئة الحاصلة للنصارى فى ارض القدس ذكره ولدبرم وزيادة على ذلك كان يرى كثيرا اناس من النصارى الساكنين بمدينة القدس وغيرها من مدائن المشرق يسعون فى بلاد اوروبا للشحاذة و يبالغون فى فقر النصارى الموجودين ببلاد المسلمين ليحسن اليهم الناس و يحرضوا اصحاب الغيرة

والحمية من النصاري على ان يأخذوا فى بعض مشروعات بها يكون خلاص النصارى وانقاذهم من ظلم المسلمين ذكره بلدويسى

وفى (سنة ٩٨٦) كتب مطران راوين المسمى جربرتى الذى تقلد منصب البابية من ذلك الوقت وسمى سيلوستروا الثانى مكتوبا لجميع النصارى باسم كنيسة مدينة القدس وكان هذا المكتوب بليغا فصيحا يهيج القلوب من عباراته لما ان فيه تحريض الناس على ان يسيروا متسلحين الى مدينة القدس ليخلصوها من ظلم المسلمين وبتحريضه القوى فى هذا المكتوب هامت قلوب بعض اهالى جمهورية بيزه وجهزوا سفنا حربية حتى وصلوا الى المسلمين بارض الشام كما ذكره موراطورى

وقد بثت غزوتهم الاحزان والاشجان ببلاد المشرق وفى (سنة لنة) ظهر رأى جديد فى بلاد النصارى وهو ان الملل النصرانية يجب عليها ان تنضم الى بعضها لتطرد المسلمين من ارض القدس كما فى تاريخ بوكيت فبهذه الحوادث المذكورة يفهم ان الآراء التى حملت الناس على الغزوات الصليبية التى هى من قبيل الهوس والجنون قد ظهرت شيأ فشيأ على التدريج وحيث كان كذلك فلا ينبغى للانسان ان يكثر من العجب من كون الناس كافة اصطفوا فيما بعد للمجاهدة الصليبية حين نشر اوربان الثانى رايات الصليب لان عقولهم كانت متيقظة لذلك من قبل

وتلك الحوادث التى ذكرناها فى هذا المبحث وفى الاتحاف تكفى فى افادتنا الحمية التى تمكنت فى عدد لا يحصى من الناس وحملته على الاقدام والدخول فى هذا المشروع الخطر وهو المجاهدة الصليبية ولنذكر لك هنا الخصوصيات والمزايا التى كانت تعطى لاتباع الصليب فى هذه المجاهدة حيث ان ذلك يدل على طول مكث تلك الحمية فى اوربا فنقول اولا كان المحاربون مع الصليب فى تلك الغزوات لا يطالبون بديون ما داموا من اهل الحرب المقدس

(ثانيا) كانوا معافين من ربح الدراهم التى اقترضوها

(ثالثا) كانوا معافين من الجرائم والغرامات دواما او لاجل معلوم

(رابعا) كان يباح لهم ان يعطوا اراضيهم لمن شاؤا من غير اذن ملتزمهم الذى اقطعها لهم ذكر ذلك كله دوكنج

(خامسا) كانت ذواتهم وامتعتهم فى حماية مارى بطرس فكانت الكنيسة تصمى بسهام الغضب والمقت جميع من كان يتعرض لهم بسوء او يبحث عن مشاجرتهم ماداموا مشتغلين بالحرب المقدس ذكر ذلك دوكنج والمؤلف غيبرت

(سادسا) كانوا يتمتعون بجميع مزايا القسيسين فلم يكن يجب عليهم الحضور بالمحاكم المدنية وانما كان يحكم عليهم بالافتا آت الدينية قاله دوكنج

(سابعا) كانوا اذا ارتكبوا ذنبا يسامحون مسامحة كلية وتغفر ذنوبهم لانهم كانوا يعتقدون ان ابواب السماء مفتحة لهم ولا يطلب منهم كفارة لخطاياهم لان كفارتهم هى دخولهم فى المجاهدة الصليبية التى كانت ملايمة لطباعهم وشهواتهم حيث كانوا يحبون الحرب حبا جاذكره غيبرت

وحيث ان القوى المدنية والقسيسية كانت تبذل كل الجهد فى تنجيز مشروعات تزيد اباطيل اوهام الناس وتعضدها فهل يستغرب انه كان من العار وقتئذ الامتناع عن الدخول فى الحرب المقدس وان الناس كانوا يعدون من الجبن والعار احجام الانسان عن هذا الحرب قاله ويلرم ثم ان تواريخ الغزوات الصليبية التى ألفت اخيرا لا تفيدنا التولع الذى كان قائما بأهالى اوربا وقت هذه الغزوات الا فائدة ناقصة قليلة جدا لان المؤلفين المتأخرين الذين ألفوا هذه التواريخ عوضا عن ان يذكروا لنا الآرآء والاصول التى كان يسلكها الامم القديمة التى تصدى هؤلاء المؤرخون لبيان تاريخها بدلوها بآرآء اعصرهم الاخيرة واصولها واما المؤرخون المتقدمون فكانوا متولعين بما كان يتولع به اهل عصرهم فلم يصفوا لنا هذه الاعصر واخلاقها الا بالامور العجيبة ثم ان اضطراب المؤرخين وحماستهم عند ذكر النتائج التى ترتبت على تحريض البابا فى المشورة القسيسية التى عقدت فى مدينة كلرمون وكذلك ما ظهروه من المسرة عند سرد الناس الذين وهبوا انفسهم

فى هذه الغزوة المقدسة واعتمادهم وتوكلهم على حماية الله عز و جل وفرط الحظ و الفرح الذى ظهر منهم عند وصفهم اخذ مدينة القدس كل ذلك يعين على معرفة الغيرة المفرطة والحمية الجنونية التى اضطربت بها عقول الناس وقتئذ اضطرابا شديدا بل و يمكن ايضا ان ذلك يولد فى عقل الفلسفى بقدر ما تولده فيه اى حادثة عظيمة اخرى من الحوادث المعلومة فى التواريخ ولا فائدة فى ان نذكر لك هنا نصوص المؤرخين التى تثبت هذه الملحوظة ولكن ربما قيل ان هؤلاء المؤلفين لم يذكروا ذلك على سبيل المبالغة الا لمجرد تزيين حكاياتهم وتحسين عباراتهم فلاجل ذلك استحسنا ان نذكر لك هنا مكتوبا يعضد قولنا لان هذا المكتوب حرره الرئيس ايتيين قونتة شرتروس و بلواس وكان من رؤساء هذه الغزوة الى زوجته عديله يذكر فيه التقدم و النجاح الذى حصل لاهل الصليب فكتب فيه ما يفيد ان اهل الصليب هم جند عيسى المصطفون وانهم جند الله المجاهدون فى سبيله وانهم تحت حماية الله القدير من غير واسطة اجنبية اذ انه كان يرشدهم بقدرته ويوصلهم الى النصرة والفتوح وقال فى حق الترك انهم امة كافرة مغضوب عليها من الله اذ كان سبحانه وتعالى لا يفعل بها سوى التخريب والتدمير وقال فى حق عساكر النصرانية الذين ماتوا اوقتلوا ان ارواحهم بمجرد خروجها من اجسامهم دخلت بلا شك فى جنات النعيم ذكره داشير

ولا يخفى انه لزم لانتقال هذه الجيوش العديدة من اوربا الى اسيا مبالغ جسيمة حصل فى جمعها مشاق كبيرة لان الايرادات السنوية العمومية كانت وقتئذ عند جميع اهالى اوربا قليلة جدا وقد بقيت بعض خصوصيات تبين لنا الطرق التى سلكها الامير هومبرت الثانى الذى هو دوفين و تانه فى تحصيل المبالغ اللازمة لعساكره التى اهبها للمجاهدة الصليبية (سنة ١٣٤٦) ولا بأس بذكر هذه الخصوصيات لانه يعرف بها تأثير تلك الغزوات الصليبية ومدخليتها التى كانت لها وقتئذ فى الاملاك والعقارات والحكومة المدنية فنقول (اولا) قد باع هذا الامير بعض التزاماته باذن ملك

فرانسا الذى كان اعطاها له واذن لهذا الامير بيعها حيث اعدّ اثمانها لامر جليل مقدّس

(ثانيا) صدرت منه فرمانات يعد فيها الاشراف بمزايا جديدة و يعد ايضا مدائن التزاماته وقراها بخصوصيات جديدة بشرط أن يعطيه الاشراف واهالى المدائن والقرى من غير تراخ مبالغ معلومة لاجل الغزوات الصليبية ومن ثم ترتبت عدة شرائع للجمعية سنتكلم عليها فى مبحث آخر

(ثالثا) انه لاجل أن يجمع المصاريف اللازمة لمشروعه فرض قدرا معلوما على كل من لم يصحبه بنفسه من رعاياه الى تلك الغزوة سواء كان هذا الممتنع من طائفة القسيسين او العامة

(رابعا) قد عين مبلغا جسيما من ايراداته المعتادة لمصروف الجيوش التى تخدم فى هذه الغزوة

(خامسا) اخذ مبالغ جسيمة من اليهود القاطنين بلاده ومن صيارفة اللومبرديين وغيرهم من الصيارفة الذين كانوا ساكنين بلاده فبتلك الوسائل كلها صرف مصاريف واسعة فى تلك الغزوة بحيث انه اضطرّ بعد رجوعه الى ان طالب رعاياه ثانيا وظلم اليهود بغرامات جديدة اخذها منهم ذكر ذلك كله فى تاريخ الدوفينه ولما سافر قونتة فواكس فى اوّل غزوة لم يمكنه جمع المبالغ اللازمة لمصاريف هذه الغزوة الا بعد ان باع بعض التزاماته كما فى تاريخ لنغدوق واما بودوان قونتة هينوت فانه رهن او باع جزأ من اراضيه لاسقف ليجه (سنة ١٠٩٦) كما فى تاريخ دوموند وبعد ذلك بزمن طويل اراد بودوان قونتة نامور (سنة ١٢٣٩) ان يدخل فى الغزوات الصليبية فباع بعض بلاده لدير من الديور كما قاله ميروى

المبحث الرابع عشر

فى بيان مطلب تأثير حرابة اهل الصليب فى الامن على الاملاك

بصحيفة (٣٨) من القسم الاوّل من اتحاف الملوك الالبا

قد جرت العادة ان الانسان اذا اراد أن يعلم اخلاق ملتين مختلفتين يلزمه
ان ينظر فى الوقائع التى ذكرها المؤرخون فى شأنهما ويوجد فى تاريخ اليونان
عدة عبارات فى وصف رونق الايمبراطورية اليونانية وبهجتها التى كانت عليها
وقد استنبط القسيس مونفوكون من تاريخ القديس كريزوستوم حكاية
تبين بيانا شافيا ظرف اليونانيين ورفاهيتهم مدة عصره ووصف ايضا
اخلاق اهل عصره وعوايدهم فى مواعظه باوصاف مفصلة يستغرب مثلها
فى مقام الوعظ المعد للخطابة على المنابر وقد جمع هذا القسيس تلك الاوصاف
وفصلها بابعنا وين مختلفة والظاهر ان ديوان القدماء من ايمبراطرة اليونانيين
كان مشابها كثير الدواوين ملوك المشرق فى العظم والرونق وفساد الاخلاق
وكذلك ايمبراطرة القرن الحادى عشر فانهم وان كانوا اضعف من المتقدمين
فى الشوكة لكنهم لم يكونوا اقل منهم فى الرونق والغنى ويمكن أن تقابل بين
اخلاق ايمبراطورية المشرق واخلاق ملل غربى اوربا بوجه آخر اظهر
مما ذكرناه وربما كان اصح منه وهو انه لما كانت مدينة القسطنطينية ملتقى
الجيوش الصليبية كانت كذلك ملتقى الامم المشرقية والامم المغربية ويوجد
الى الآن عدة مؤلفين من تلك الاعصر بعضهم يونانى وبعضهم لاطينى
قد شاهدوا باعينهم اختلاط امم المشرق بامم المغرب اختلاطا غريبا بعد ان كان
اغلب هؤلاء الامم يجهلون بعضهم قبل ذلك وقد حكى هؤلاء المؤلفون مع
التخلى عن الاغراض جميع ما ارتسم فى عقول الناس من التأثيرات عقب هذا
الاختلاط بل ويمكن ان هؤلاء المؤلفين اذا وصفوا ملة وذكروا عوايدها
واخلاقها يكون وصفهم لها اصدق من وصف غيرهم

وقد وصف اليونانيون امة الفرنك (قدماء الفرنساوية) بانها امة متبربرة
كالوحوش الكاسرة خشنية جاهلة ذات حمية شديدة وسلكوا فى هذا
الوصف مسلك الشمم والتعالى بحيث يرى من عباراتهم ان امتهم كانت
اكثر تمدنا من الفرنك وانها كانت متبحرة فى فن ادارة الحكومة مستضيئة
بانوار التمدن والذوق السليم وكان ذلك مجهولا عند الامم الشمالية

وبهذه الكيفية وصفت الاميرة أنكومنينة اخلاق اللاطينيين كما فى تاريخ بيزنت فلم تتكلم عليهم الامع الاحتقار حيث وصفتهم بانهم امة خشنية متبربرة يكفى ذكراممها فى تدنيس التاريخ وازالة بهجته ورونقه وكذلك المؤلف نستاس كرونيات فانه بالغ فى ذم هذه الامة اكثر من أنكومنينة ووصفها فى نهبها وسلبها بعبارات تقرب كثيرا من العبارات التى قالها المؤرخون قبله فى وصف اغارات امم الغوثيين والوندا ليين ذكره فى تاريخ بيزنت

وايضا المؤرخون اللاطينيون تعجبوا غاية العجب عند نظرهم بهاء ايمبراطورية المشرق وثروتها وظرفها فبمجرد مانظر احدهم وهو المؤلف فولكود وشر تروس الى مدينة القسطنطينية تعجب من منظرها وصاح قائلا يالها من مدينة ظريفة واسعة وما اكثر دورها وما اكثر قصورها البديعة البناء وما اكثر ما يرى فيها من الورش العجيبة وما كنت اتوهم انه يكثر بها سائر انواع الاشياء والنفائس من ذهب وفضة واقمشة متنوعة كيف لا وقد شاهدت ميناها يأتى اليها فى كل ساعة سفن موسوقة من جميع الاشياء اللازمة لاستعمال الناس انتهى واما غليوم مطران مدينة صور وكان اعلم جميع المؤرخين الذين الفوا تاريخ الغزوات الصليبية فقد وصف فى عدة مواطن بهاء ديوان القسطنطينية وعظمه وذكران ما كان يراه اهل المغرب فى تلك المدينة كان يجل أن تحيط به عقولهم واما بنيامين العبرانى وهو من مدينة تودلة باقليم نوار وكان مبدء رحلته (سنة ١١٧٣) فالظاهر انه تعجب كذلك من عظم مدينة القسطنطينية حيث وصفها بعبارات تدل على غاية التعجب من تلك المدينة وذكر مثل ذلك المؤلف برجرون فى رحلاته فى القرن الثانى عشر والثالث عشر ومابعدهما وقد ألف الراهب غوتيير الفرنساوى تاريخا فى فتح القسطنطينية بالجيوش الصليبية فى القرن الثالث عشر وتكلم فيه على عظم تلك المدينة وبالغ فيها كغيره ثم ان جرفرو ادوويل هردوان الذى هو من الاشراف الممتازين وكان

متعودا

متعودا على الرفاهية التى كانت وقتئذ فى بلاد المغرب فقد ذكرلنا عبارة فى هذا المعنى وبالغ فى التعجب الذى ادهش بعض عساكره الذين لم يروا مدينة القسطنطينية الا تلك المرتمعه فقال كان يعسر على هؤلاء العساكر أن يصدقوا بانه يوجد فى الدنيا بتمامها مدينة ظريفة غنية مثل هذه المدينة حتى نظروا الى اسوارها الكبيرة وحصونها المشيدة العالية وقصورها البهية اللطيفة وكنائسها النفيسة المنيفة فكبر ذلك فى اعينهم بحيث لو لم يروا هذه المدينة باعينهم لم يتأت لهم أن يتصوروها بمقتضى وصف واصف انتهى

وهذه العبارات الصادقة المبينة لنا حالة اللاطينيين فى التعجب الذى قام بانفسهم تقتضى ان اليونانيين يحق لهم أن يعتبروا اللاطينيين امة متبربرة خشنية قليلة التمدن وان اللاطينيين كانوا يحتقرون ميل اليونانيين الى الامور الغير الحربية وكانوا لا يعترفون ايضا بان اليونانيين يفوقون عليهم بكثير فى شأن فنون الرفاهية والظرف

ولا شك ان الحكومة والاخلاق قد بلغا فى ايطاليا درجة كمال لم تكن فيما عداها من باقى ممالك اوربا وهذا ثابت مبرهن عليه بالحوادث والحكايات المذكورة فى التواريخ بل يظهر ان امهر رؤساء الجيوش الصليبية تعجبوا من هذا الفرق الكبير بين الايطاليين واليونانيين وكتب المؤلف ياكوس دو يترى الفرنساوى تاريخا فى الحرب المقدس وبالغ فى مدح اخلاق الايطاليين وعوايدهم فذكر انهم امة آدب واكثر حياء من غيرها ومدحهم خصوصا بمحبة الحرية وبنشاطهم فى حكومة بلادهم

المبحث الخامس عشر

فى بيان مطلب اول ترتب الحرية فى مدن ايطاليا بصحيفة (٤٩) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

مما يستصوب ان ننبه هنا على الوسائل والوسايط التى استعملتها مدائن ايطاليا لاجل توسيع حكمهم وتقوية شوكتهم فنقول ان هذه المدن بمجرد

نما الطساتت على حريتها وعرفت انه صار لها العصبية وتأثير اشتغلت بان تملك على الاراضى التى حول اسوارها وذلك انه لما كانت هذه المدن فى حكم الرومانيين تتمتع بافتيا آت ومزايا بلدية كانت جميع الاراضى المجاورة لمدينة تنسب لتلك المدينة ومن مجموع هذه الاراضى تكونت عقارات الجمعية ولكن لم تكن سياسة الملتزمين تساعد هذه المدائن فى حفظ مزاياها واراضيها فتسبب عن ذلك أن اخذت منها هذه الاراضى فيما بعد وقسمت بين من فتحوا بلاد ايطاليا ثم اعطيت لبارونيين بنوا قصورهم قريبا من ابواب المدن التى كانوا يحكمون عليها فاغارت عدة من مدائن ايطاليا على هؤلاء البارونيين المجاورين لهم فى املاكهم متعللين بان تلك الاملاك كانت لهم وغصبت منهم والآن يريدون اخذها فطردوا البارونيين منها واشتركوا مع بعضهم فيها ومن ثم ازدادت قوة المدائن وقويت شوكتهم كثيرا وحصل فى القرن الحادى عشر واوائل القرن الثانى عشر من تلك المدن كثير من انواع التعدى كما ذكره موراطورى وكان طمعها يزيد بازدياد شوكتها فهجمت بعد ذلك على البارونيين القاطنين بعيدا عنها وجبرتهم على ان يحلفوا انهم يكونون من جملة اعضاء الجمعية البلدية او الاهلية وان يعقدوا الميثاق على الانقياد لقضاتها وان يصير على اراضيهم جميع الفرد والغرامات التى تفرض عليها من طرف الجمعية البلدية وان يكونوا انصارا لهذه الجمعية ويحاموا عنها من كل عدو يتعدى عليها وان يسكنوا المدائن مدة معلومة فى كل سنة قاله موراطورى

فامتثل الاشراف للحكومة المدنية فى سائر البلاد ولكن لا يخفى انهم مع انقيادهم هذا كانوا يتأذون كثيرا من هذه الكيفية لانهم كانوا متعودين على ان يعيشوا فى الاستقلال وقد وصف المؤلف أوتون دوفرزنجهان الحالة التى كانت عليها ايطاليا مدة حكم الملك فريدريق الاول فقال ان المدن تحب الحرية كثيرا ولا تقبل اذى حاكم صاحب شوكة وقدرة حيث تقضت كل حكم كان عليها الاحكام القضاة طلبها رضيت ان تكون

محكومة به حتى ان ايطاليا الآن مشحونة بالمدائن الحرة التي جبرت اساقفتها على ان تسكن من داخل اسوارها وقل ان وجد احد من الاشراف ولو عظمت شوكته مهما عظمت الا وهو مكلف بالشرائع واصول حكومة المدينة التي هو مقيم بها انتهى وذكر هذا المؤلف في عبارة اخرى ان الملتزم مونتو فيرات هو الذي امكنه دون غيره من بارونية ايطاليا أن يبقى على استقلاله كما كان وابى أن يكلفوه بشيء من الشرائع والقوانين التي كانت توجد بمدائن ايطاليا ذكره مورا طوري

واختار بعض الاشراف من نفسه ان يكون تابعا للمدن حين نظر بجمعياتها الاهلية يتمتعون بأمن عظيم و نفوذ كلمة وامتياز و شوكة وثروة فاحب ان يكون له جزء من هذه الفوائد وعزم على ان يدخل تحت حماية هذه الجمعيات القوية الشوكة فجعل نفسه من جملة اهالي المدن القريبة لاملاكه وترك قصوره القديمة وصار من وقتئذ يمكث في داخل المدن ولومدة معلومة في كل سنة و يوجد الى الآن وثائق تدل على ان عدة من اشهر عائلات اشراف ايطاليا تجمعت مع بعضها على وجه كونها منسوبة لجمعيات مختلفة من الجمعيات الاهلية ذكره مورا طوري ويوجد ايضا الوثيقة التي بها صار الملتزم أولد وماسوراتا من جملة اهالي مدينة أوز يمو في اقليم مرشودنكون و شرط على نفسه في هذه الوثيقة أن يكون من جملة اهالي هذه المدينة وأن يفعل جميع ما يكلف به ليزداد فخرا وسعادة وان يكون مطيعا للقضاة هذه المدينة ولا يتعصب ابدا عليها مع احد من اعدائها وأن يقيم داخل المدينة شهرين في كل سنة بل وأكثر من ذلك اذا كلفه القضاة بذلك ولكن يلزم ايضا ان تتكفل هذه المدينة بحمايته وحماية عائلته واحبابه وان تدفع عنه كل عدو يتعدى عليه

وكان الدخول في جملة اهالي الجمعيات المدينة مزية كبيرة بحيث ان العوام بل والخسيسين اصحاب الامتياز رضوا بان يكونوا من جملة ارباب الجمعيات المدنية الكبيرة ليتمتعوا بالامن وشرف المقام الذي كان لارباب هذه الجمعيات

ذكره موراطورى وقبل حدوث الجمعيات المدنية كان الاشراف لايقيمون الا بقصورهم وكانوا ينصبون فيها دعاوينهم وكانت المدن وقتئذ خربة لايسكنها الا الارقاء المستعبدون وبعض من رعاع الناس ولكن بسبب هذه الحادثة التى تكلمنا عليها صارت المدن اعمر من املاك الملتزمين والاشراف وصارت مشحونة بسكان اعيان اولى احترام وامتياز وتجددت فى ايطاليا تلك العادة السعيدة الموجودة فيها الى الآن فترى العائلات ذات الامتياز التى تسكن المدن الكبيرة من ايطاليا اكثر من العائلات الشهيرة التى تسكن المدن الكبيرة فى باقى بلاد اوربا ولما صارت مدن ايطاليا مسكونة بالاكابر والاعيان ازدادت بهجتها وعظم احترامها وزاد تولعها بحفظ حريتها واستقلالها ثم ان الامبراطرة كان لهم سابقا فى اغلب مدن ايطاليا الكبيرة قصور ينزلون بها وقت ان كانوا يشقون فى بلاد ايطاليا وكان العساكر الذين يصحبونهم يوزعون على بيوت اهالى المدن فكان اهالى المدن يرون ان فى ذلك اذلالا لهم وخطرا عليهم لانهم كانوا يقولون ان هؤلاء الناس الداخلين فى مدنناهم حكامنا واعداؤنا فاشتغلوا سريعا بانقاذ انفسهم من هذا الامر فبعض مدن حالفها الامبراطرة على ان لايدخلوها ابدا بل يجعلون مساكنهم خارج اسوارها كما فى الوثيقة الملوكية التى ذكرها موراطورى وبعض آخر رخص له الامبراطرة ان يهدم القصور الملوكية التى فى داخل الاسوار بشرط ان يبنى قصورا غيرها فى الرساتيق لتنزل بها الامبراطرة

وهذا التعدى الحاصل من طرف مدن ايطاليا أفزع جميع الامبراطرة وملأ قلوبهم بالاحزان والاشجان فصمموا من وقتئذ على ان يجددوا فيها ثانيا الاقتدار الملوكى وان يردوا فيها الاشياء الى حالتها القديمة وكان من جملة من اظهروا العزم فى هذا الشأن واجتهدوا فى تتميم هذا المشروع الملك افريدريق بربوروس فاجتمعت عند ذلك جميع المدن الحرة من ايطاليا وصارت عصبة واحدة وتأهبت للمدافعة عن نفسها وبعد المنازعات

والمشاجرات

والمشاجرات الطويلة التي كان فيها كل من الفريقين ينجح تارة ويخسر أخرى
عقدت في مدينة قونسطنسه (سنة ١١٨٣) مشارطة صلح بها ثبت لمدن
ايطاليا الكبيرة جميع المزايا والخصوصيات التي كان اعطاها لها الايمبراطرة
المتقدمون ذكره موراطوري ثم اعتبرت هذه المشارطة بعد ذلك كانها
فصل مهم من شرائع القرون الوسطى حتى جرت العادة بقرنها مع قوانين
الالتزامات في آخر كتاب الحقوق المدنية حيث كانت تضمن للمدن المتعاهدة
حفظ الاهم من مزاياها ومع ان هذه المشارطة كانت تثبت للملك شوكة
عظيمة واقتدارا واسعا لم تزل المدن مواظبة على قوة عزمها وبذل جهدها
في توسيع دائرة مزاياها وساعدتها في سعيها الاقدار حتى ان اغلب مدن ايطاليا
الكبيرة قبل انقضاء القرن الثالث عشر كانت قد رفضت طاعة الايمبراطرة
وصارت جمهورية مستقلة بنفسها في احكامها واقتنائها ولا حاجة
الى أن نذكر هنا الطرق التي سلكتها حتى وصلت الى أوج هذه الشوكة
العلية التي هي طالع نحس على الايمبراطرة وطالع سعد لحرية بلاد ايطاليا
وقد جمع المؤلف موراطوري الذي عادته الصدق والتدقيق عدة وقائع نقلها
عن المؤلفين كما هي من غير تصرف في عباراتهم توضح هذا الامر التاريخي
المرغوب الذي قل من يعرفه وذكر ذلك ايضا المؤلف ويلنوف

المبحث السادس عشر

في بيان مطلب ادخال الحرية في فرانسا وغيرها من باقي ممالك اوربا
بصحيفة (٤٢) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

وقبل انشاء الجمعيات البلدية والاهلية في مملكة فرانسا بزمن طويل اعطى
الملتزمون وثائق عتق او وثائق مزايا لبعض مدن وقرى من التزاماتهم ولكن
كانت هذه الوثائق مباينة بالكلية للوثائق التي انتشرت في القرن الثاني عشر
والثالث عشر حيث لم تجعل المدن بتلك الوثائق جمعيات بلدية كما جعلت
بالوثائق التي انتشرت في القرنين المذكورين ولم ترتب فيها حكومة بلدية

ولم تأذن لاهلها بحمل السلاح فلم يكن في تلك الوثائق الا مجرد اعتاق الاهالى
من الاستعباد والرق الذى كانوا فيه ومعافاتهم من بعض خدم شاقة
مذلة ولكن فرضت عليهم بعض غرامات معلومة يدفعونها لساداتهم
الملتزمين فى نظير ما كانوا يكلفونهم به سابقا كيف شاؤا ويوجد الى الآن
من هذه الوثائق وثيقتان لقريتين من قونتية روسيلون تاريخ احداهما
(سنة ٩٧٤) والاخرى (سنة ١٠٢٥) ذكرهما بطرس دومركه
والظاهر ان هذه الوثائق لم تكن مجهولة فى غير مملكة فرانسا من بلاد اوربا
وانها كانت واسطة يتوصل بها الى المزايا الواسعة التى اعطاها لويز لوغروس
(اى لويز السمين) لمدن التزاماته وجفالكه
ثم ان الجمعيات البلدية فى فرانسا لم تصل ابدا الى درجة الاستقلال الذى كانت
تتمتع به جمعيات ايطاليا نعم ان جمعيات فرانسا قد اكتسبت مزايا وخصوصيات
جديدة ولكن كان حق الحكم عليها منوطا بالملوك او بالبارونات الذين
يحكمون مقاطعات تلك المملكة ويعطونها وثائق الاعتاق ويوجد الآن فى مجموع
اوامر ملوك فرانسا عدة كبيرة من هذه الوثائق صادرة من ملوك فرانسا
او من كبار اتباعهم ومن قرأ هذه الوثائق يتعجب من الحالة السيئة المحزنة التى
كانت عليها المدن قبل حدوث الجمعيات البلدية وقت ان كان عليها قضاة
منصوبون من طرف الملتزمين وكان هؤلاء القضاة يفعلون فيها كما شاؤا حيث
لم يكن ثم شريعة سوى شريعتهم وقوانينهم وكانت العطايا التى تذكر فى هذه
الوثائق كناية عن اعطاء بعض مزايا لم يكن يتمتع بها الناس قبل والقوانين
التى كانت فيها كناية عن واسطة لازالة بعض المظالم التى كان يتأذى
منها الناس وتشتمل هذه الوثائق ايضا على الوسايط التى كانت اول منشاء
للحكومات المنتظمة وقوانين التعادل وبهذين الامرين كانت تلك الوثائق
حرية بان يلتفت اليها التفاتا خصوصيا فرأينا انه عوضا عن كوننا نحيل
من قرأ كتابنا هذا على المؤلفات المطولة التى توجد فيها هذه الوثائق مشتتة
نذكر له هنا ما يكون له به الالمام ببعض بنود مهمة مذكورة فى تلك الوثائق

ونرتب ماجمعناه من تلك البنود على فصلين الفصل الاول فيما يخص الأمن الشخصى والفصل الثانى فيما يخص الأمن على العقارات والاراضى فنقول

(الفصل الاول فيما يخص الأمن الشخصى)

لايخفى انه فى حالة الفتن والتقلبات التى نشأت فى اوروبا عن فساد الحكومة الالتزامية كان الأمن الشخصى اهم مقصد لكل انسان وكان وقتئذ لايمكن لاحد ان يحامى عن اتباعه الاكابر البارونين الحربيين فكان ذلك احد الاسباب الاصلية التى وصلتهم الى اكتساب السطوة وعظم الشوكة ولكن كان انشاء الجمعيات البلدية فيمابعد واسطة لأمن كل انسان على نفسه من غيران يحتاج لحماية الاشراف والبارونيين كما كان سابقا وذلك من عدة وجوه

(اولا) كان مبنى كل وثيقة ان اهل الجمعية الاهلية يلزمهم ان يتحالفوا على أن يعين بعضهم بعضا عندالحاجة وان يحاموا عن أنفسهم وينتقموا لبعضهم من كل عدو اوظالم يتعدى عليهم

(ثانيا) انه متى طلبت مدينة حريتها وجب على جميع سكانها أن ينضموا الى بعضهم ويصيروا جمعية واحدة ليحاموا عن انفسهم واذا أبى احد منهم ذلك حكم عليه بغرامة كبيرة فى نظير امتناعه

(ثالثا) كان لاهالى تلك الجمعيات البلدية الحق فى ان يحملوا السلاح وان يحاربوا اعداءهم الخصوصية وان يستعملوا قوتهم العسكرية فى تنجيز جميع الاحكام التى تصدر عن قضاتهم ذكر الوجوه الثلاثة المؤلف داشورى

(رابعا) بطلت عندهم عادة اخذ دية القتيل اموالا وكذلك عادة اخذ الاموال فى نظير كل فعل قبيح يخالف انتظام الجمعية ولامن الناس وصار كل من ارتكب ذنبا من الكبائر الفاحشة يعاقب بالقتل او يحكم عليه بعقاب آخر شديد على حسب ذنبه الذى جناه

(خامسا) كان لايجب على اهالى الجمعيات ان يبرؤا انفسهم او يدافعوا عنها

بالمقاتلات الشرعية فكان اذا اتهم انسان بجناية لا يحكم عليه بشئ الابعد ثبوته بالبينة واقامة الدعوى على الوجه الشرعى ذكر هذين الوجهين داشورى والمؤلف ميروى

(سادسا) اذا كان انسان من اهالى الجمعيات يظن بآخر انه يريد ايذاءه اوانه عدوه ساغ له ان يشكو للقاضى لكن يلزمه اليمين فى هذه الحالة فيحضر القاضى الشخص المدعى عليه ويطلب منه ضامنا يتكفل انه لا يقع منه ضرر فى حق المدعى ويشترط عليه انه ان وقع منه ذلك عوقب بدفع غرامة كبيرة ذكره داشورى .

ومثل هذا الامن موجود الى الآن فى ايقوسيا واول حدوث هذا الامن فى فرانسا كان بين اهالى الجمعيات البلدية وحيث تحقق الناس فيما بعد ان نفعه كثير فى أمن كل انسان على نفسه توسعوا فيه حتى عم سائر اعضاء الجمعية كما ذكره دوكنج فى كتابه المسمى حياة الملك سنت لويز

(الفصل الثانى فيما يخص الامن على العقارات والاراضى)

كانت وثائق الجمعيات البلدية لاتهمل فى شأن الامن على العقارات بل كانوا يعتنون به كما يعتنون بالامن الشخصى وذلك انه على حسب القوانين القديمة التى كانت بمملكة فرانسا كان لا يجوز القبض على احد ولا وضعه فى السجن بسبب دين خصوصى فى ذمته فكان اذا قبض على انسان لاى سبب كان ماعدا ارتكابه للكبيرة من الجنايات والذنوب يجوز تخليصه من ايدى الضباط القابضين عليه قهرا عنهم والظاهر انه فى بلاد اخرى غير بلاد مملكة فرانسا كان الناس يتمتعون بهذا الحق ايضا وهو عدم جواز القبض عليهم من اجل الديون فمادامت الجمعية باقية على اصل خشونتها وعدم تمدنها كان الدين معتبرا كانه امر ذاتى يتعلق بذات المدين لا باموال ولا بعقاراته واملاكه ثم تقدم الناس فى التمدن وصار كل غريم له الحق فى ان يقبض على عقارات مدينه حتى يدفع له ما عليه واول واسطة استعملت فى هذا الشأن كانت فى الجمعيات البلدية ثم اخذت فى التقدم

شيأ

شيأفشيأ على الوجه الذى نذكره وهو (اولا -) كان فى مبدء الامر اذا باع انسان لاخر شيأ بثمن مؤجل استوثق البائع من المشترى برهن يحفظه عنده حتى يسلمه الثمن وتوجد الى الآن من هذه العادة عدة وثائق ذكره داشورى

(ثانيا) كان اذا لم يدفع المشترى لبائعه رهنا وماطل عند انقضاء الاجل او اعسر كان لغريمه الحق ان يقبض بنفسه على امتعة مدينه قهرا عنه وقد صدر امر من ملك فرانسا يرخص لجميع اهالى مدينة باريس ان من له دين على آخر يجوز له ان يستولى كيف شاء فى اى محل كان على جميع ما ينسب لمدينه حتى يقضى ما عليه وهذه العادة الخشنية التى هى من قبيل القساوة الجبلية الفطرية مكثت زمنا طويلا اكثر مما يظن بالنظر لحالة الجمعية وقتئذ حيث كانت منتظمة غير خالية عن الشرائع والقوانين وبيان كون هذه العادة مكثت زمنا طويلا هو ان هذا الامر الملوكى المذكور قريبا كان صدوره من الملك (سنة ١١٣٤) واما الامر الذى نسخه ونهى عن ان يأخذ الغرماء امتعة المدينين الا بامر القاضى وتفتيشه فلم يصدر الا (سنة ١٣٥١) ولكن يظهر انه منذ زمن طويل قبل ان تأتى الشرائع بدواء يقطع عرق هذا الداء القبيح كان الناس مجبورين على ان يسلكوا فيه مسلك التخفيف لما كان يترتب عليه من المضار التى كانت تلحقهم واذا تفطنت لذلك رأيت ان هذه العادة موافقة لعوايد كثيرة قد ذكرناها فيما تقدم ولا ينبغى ان تنسب العوايد الجديدة للشرائع والقوانين التى اقتضتها لان القوانين فى العادة انما تقرر بعض عوايد يظهر بالتجربة انها نافعة لائقة

(ثالثا) بمجرد ما صار للقضاة مدخلية فى هذا الشأن رتبوا صورة مستحسنة فى القبض على المنقولات من امتعة المدين واثاثه وان نقصت قيمة هذه الامتعة عن الدين قبض على عقاراته واملاكه وبيعت حتى يستوفى الغريم دينه ذكره داشورى وبهذا القانون كان يأمن كل غريم على حقه امنا كليا ولكن حيث ان هذا القانون كان صعبا على الناس اخذت المروءة الانسانية

من نفسها فى تصفيته وتخفيفه فمنع الغريم من القبض على ملابس مدينه وفرشه وباب بيته وآلات زراعته وغير ذلك كما ذكره داشورى وذكر ايضا انه لما صار قانون القبض على امتعة المدين عاما شائعا منع كذلك ان يقبض الغريم على فرس مدينه واسلحته اذا كان من الاشراف وحيث كان الصيد تسلية الاشراف الحربيين وكانوا دائما مشتولعين به منع الملك لويز لوديبونير أن يقبض على صقر احد من الاشراف فى نظير دين اوجريمة عليه ولكن اذا اتفق ان المدين ليس له من الامتعة الا هذه الاشياء فانها تؤخذ كغيرها

(رابعا) لاجل ان يصير الامن على العقارات اكيدا فى الجمعيات البلدية كان كل من اراد ان يكون عضوا من اعضائها يجبر على ان يشترى او يبنى له بيتا او يتخذ له ارضا من اراضيها او يأتى معه فى المدينة التى يسكنها بمقدار معلوم من الامتعة والاثاث بحيث يكون مضمونا بها فى سلوكه وافعاله ذكره داشورى

(خامسا) انه لاجل تأكيد هذا الامن حسب الامكان صار اهل الجمعيات فى بعض المدن مضطرين الى كفالة بعضهم بعضا ذكره داشورى ايضا

(سادسا) جميع القضايا التى تخص العقارات كان يحكم فيها القضاة الذين ينتخبهم الاهالى وكان ما يحكم به هؤلاء القضاة اعدل واصح من احكام البارونيين الذين كانوا يعتقدون ان احكامهم فوق كل حكم مع انهم كانوا يحكمون كيف شاؤا على حسب اهوآئهم وشهواتهم النفسانية ذكره داشورى

(سابعا) كان لا يجوز أن يفرض على اهالى الجمعيات غرامات اختيارية غير مضبوطة بحيث تكون على حسب ارادة من يفرضها لان الملتزم الذى كان يعطى وثيقة اعتاق او معافاة لبعض المدن كان لا يأخذ من رعاياتها الا مبلغا معلوما فى نظير جميع انواع الحقوق التى كانت له عليها وكان لا يجوز ايضا توزيع هذه الغرامات الا بالسوية فكان يجب ان يوزع مقدار الغرامات المفروضة على الجمعية بين أهاليها على حد سوآء خشية أن يخص الضرر جماعة دون آخرين حتى انه فى وثائق بعض الجمعيات الاهلية ذكرت قوانين تبين طريق توزيع الغرامات على كل انسان ذكره داشورى

وقد صدر من الملك سنت لويز فى هذا الشأن امر شاع بين جميع الجمعيات ولا يخفى ان هذه القوانين كانت تعين الناس كثيرا على تحصيل الحرية والتشبث بها حيث كان حق توزيع الفرد والغرامات بموجب هذه القوانين منوطا ببعض اناس من الاهالى ينتخبون من كل برواس (اى خط الخورى) وتؤخذ عليهم المواثيق أنهم يوفون بهذه الوظيفة على وجه الحق والعدل ثم ان الذين احدثوا الجمعيات الاهلية صمموا على مقاصد عظيمة من اعظمها انهم عزموا على ان يقووا ميثاق الامن على العقارات حتى تصير آمنة اكثر مما ذكرنا ويدل على هذه العزيمة مقتضيات الاحوال التى كانت فى ذلك الوقت ويدل عليها ايضا عبارات عدة وثائق حررت وقتئذ كوثيقة الملكة أليونوره ملكة انكلتره التى صدرت منها لجمعية بواتيرس ذكره دوكنج وما قدمناه هو بعض القوانين الاصلية التى احدثت لاجل الجمعيات البلدية مدة القرن الثانى عشر والثالث عشر ويمكن أن نعتبر هذه القوانين كأنها مبادى اصول التشريع والسياسة من ضبط وربط لانها اعانت كثيرا فى انشاء حكومة منتظمة بين جميع اهالى الجمعيات فبمجرد انشاء الجمعيات اخذ الناس فى التعاظم والتجاسر ونشروا اعلام الحرية حتى ان الملتزم هومبير ملتزم بوجو لما اعطى لمدينة بيلويل وثيقة الاعتاق طلب من اهاليها أن يحلفوا على أن لا يخونوه ولا يخونوا خلفه من بعده واخذوا عليه المواثيق ايضا ان يحافظ على حريتهم وعتقهم ولاجل كمال امنهم جبروه على ان يعين عشرين من الملتزمين يلتزمون بما التزم به ذكره داشورى ونظير ذلك ما وقع من الملتزم دوموارنس فى اقليم دوفينه حيث عين عدة اشخاص ليكونوا ضامنين له اذا تخلف عن العمل بموجب البنود المبينة فى وثيقة جمعية مدينة موارنس فتكفل هؤلاء الاشخاص الضامنون بان يسلموا انفسهم لسكان مدينة موارنس اذا تعدى ملتزمهم على بعض حقوقهم وان يمكثوا اسرى عندهم الى ان يعدل هذا الملتزم بينهم كما فى تاريخ اقليم دوفينه وكان اذا عاب انسان من مشايخ البلدة او اكابر القضاة فى حق احد من الاهالى جبر

على أن يحضر ضامنا يلتزم بحضوره فى المحكمة لتمام دعواه كالآحاد فاذا حكم عليه بعقاب كان يحكم عليه ايضا كالاحاد سوآء بسوآء بالنظر للذنب الذى ارتكبه قاله داشورى وكل ذلك يفهم منه أن جميع الناس كانوا على حدسوآء وهذا امر لم يكن يعرف فى المذهب الالتزامى ولا فى الحكومة الالتزامية وكانت الجمعيات البلدية تحافظ على الحرية مهما امكن حتى بالغوا فى ذلك وصار يطلق لفظة حرية على كل جمعية منها كما ذكره دوكنج وكان الاشراف فى مبدء الامر لا يميلون كثيرا الى هذه الجمعيات حيث يعلمون أن فيها تضييقا لشوكتهم وحكمهم وقد سماها الراهب غيبرت بالابتداعات القبيحة المشؤومة لانها كانت واسطة فى اعتاق المستعبدين واخراجهم عن طاعة ساداتهم وهذا على زعمه مخالف للشريعة والعدل ذكره دوكنج ايضا وقد حصل ان بعض الاشراف والقسيسين اولى الشوكة والبأس تصدوا لتعطيل انشاء هذه الجمعيات وكلفوا انفسهم ما لا تطيق فى تضييق دآئرة مزاياها حتى اظهروا فى هذا الشأن غيرة زائدة جدا عن حد العادة وشاهد ذلك المنازعة والمنافسة التى حصلت بين مطران مدينة رمس وسكانها اذ مكث جميع المطارنة زمنا طويلا وهم يشتغلون بتضييق دائرة افتياآت جمعية هذه المدينة وحقوقها واما الاهالى فكثوا مدة خلو الكرسى القسيسى من رئيس وهم يهتمون بتمكين افتياآتهم وتقويتها وتوسيع دائرة حقوقهم ومزاياهم ذكره أنكتيل فى تاريخ مدينة رمس المدنى والسياسى

وهذه الملحوظات التى قدمناها فى بيان حالة المدن وسكانها ثابتة ببراهين جمة صرحت بها عبارات شتى فى تواريخ القرون الوسطى وشرائعها وزيادة على ذلك كان بعض المدن الكبيرة العظيمة يتمتع بشروط ومزايا احسن من المتقدمة وكان لها من الحرية حظ اوفر مما تقدم وذلك انه فى مدة حكم الرومانيين كانت الحكومة البلدية المرتبة فى المدن حكومة ملائمة للحرية بالكلية وكان حكم مشورة السنت فى كل جمعية نافذا ودائرته واسعة

وكذلك

[illegible]

[illegible]

[illegible] التي [illegible] ذكر [illegible]

[illegible] فلك [illegible]

[illegible]

[illegible] في القرية الثالث عشر والثاني عشر في منطقة [illegible]

الا بعض القرى التي كانت تنتج بها الاطلال قبل [illegible]

[illegible] وكان هناك مدن اخرى تبحث من [illegible]

فضلا عن ان هذه القرى الثابتة لها [illegible]

[illegible] ولكن المدن التي كانت تنتج بها القرى [illegible]

بحيث لا يمكن الاستدلال بها على شيء [illegible]

[illegible] الالبا

البحث السابع عشر

فيما يتعلق بالتقسيم ايضا بحسب (٢٠٢) من القسم الاول [illegible] التي تعالج الالبا عند الكلام على [illegible] مدن الالبا في ترتيب [illegible] التي هي [illegible] الآن

بعدما ذكرناه تفصيلا في هذه البحوث السابقة [illegible] النتائج التي نشأت من ترتيب هذه البحوث اردنا أن نذكر [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] لم يكن [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

يلزم موتها بان تهدم اسوار المدن التى بناها الرومانيون فى اراضيها ليستدل بذلك على انها صارت حرة وكانوا يقولون ان ابر ألوحوش السكاسرة اذا وضع فى حبس تضعف قوته وتضيع شدته ذكره تاسيت ايضا ثم كان الرومانيون قد بنوا عدة مدن كبيرة على شواطئ نهر الرين ولكن قبل القرن التاسع من الميلاد كان يقل أن توجد مدينة واحدة فى جميع الاقطار والاقاليم الواسعة التى بين نهر الرين و بحر بالطق كذا قال المؤلف كونر نجيوس وخالفه المؤلف هينكسيوس ولكن اذا سلمنا جميع ما استدل به هذا المؤلف الاخير واستند اليه رأينا انه لم يكن بهذه الاقطار الواسعة الا بعض محال سماها بعض المؤرخين مدائن وليست مدائن حقيقية واما فى زمن الايمبراطور كرلوس مانوس وذريته فان حالة المانيا السياسية اخذت فى الانتظام على وجه حسن واسست عدة مدن واعتاد الناس على التأنس والاجتماع بمحل واحد وذلك ان كرلوس مانوس جدد فى اكبر مدن المانيا مطرانيتين وتسع اسقفيات وزادها خلفاؤه من بعده وحيث كان المطارنة والاساقفة مقيمين بالمدن ويحكمون فيها بالاقضية الدينية اضطر كثير من الناس الى الاستيطان بتلك المدن كذا ذكره كونر نجيوس ثم ان الملك هنرى لوواز لور (اى صياد الطيور لانه كان متولعا بصيدها) الذى جلس على كرسى المملكة (سنة ٩٢٠) هو اعظم من اسس المدائن فى المانيا وذلك لان المانيا كانت وقتئذ متضررة باغارات اهل المجار وغيرهم من الملل المتبربرة فعزم هنرى المذكور على ان يسد مجرى سيل هذه الاغارات فحصن المدن بالاسوار والبروج وامر رعاياه بالاستيطان بها وامر بعض الاشراف ايضا بذلك فلما سكن الاشراف مع الاهالى شرف مقام الاهالى وعظموا عما كانوا عليه سابقا فلم تزل المدن آخذة فى الازدياد وصارت تنمو فى العمار والغنى الا انها كانت فى ذلك الوقت محرومة من الحرية والاستقلال باقتنا تها البلدية لان المدن التى كانت من التزامات الايمبراطورية كانت تحت حكم الايمبراطور وقضاته الذين كانوا رؤساء المحاكم يقضون فيها

بالعكس. واما المدن التى كانت فى اراضى البارونيين فكان كل بارون يزعم ان المدن التى بارضه من جملة التزاماته ويحكم فيها بنفسه او نوابه ذكره كونرنجيوس وهينكسيوس ثم تأسى اهل المانيا بالايطاليين فى انشاء الجمعيات البلدية فكان افردريق بربوروس (اى ذو اللحية الشقراء) هو اول من خطر بباله زمن ايمبراطرة المانيا ان يفعل مثل الملك لويزلوغروس حيث زاد فى عدد الجمعيات البلدية ليضيق بها دائرة شوكة الاشراف ويضعف قوتهم ذكره المؤرخ بفيفيل فى تاريخ المانيا

وقد وجدت عدة مقتضيات احوال اعانت على ازدياد مدن المانيا من حكم هنرى لو واز و لور الى ان صارت هذه المدن مستكملة لجميع مزاياها وخصوصياتها ثم ان انشاء الاسقفيات الذى تكلمنا عليه آنفا قد جلب الى المدن اناسا كثيرين استوطنوابها وكذلك انشاء الكتدرالات (اى امهات الكنائس) بتلك المدن فانه جلب اليها كثيرا من السكان فصارمن وقتئذ تعقد فى المدن جمعيات قسيسية ومجالس اقتنائية من كل نوع قسيسية او مدنية وعتق فى القرن الحادى عشر عدة من المستعبدين استوطن معظمهم بالمدن واستكشفت عدة معادن واستخرجت فى اقاليم عديدة وبهذا صار الناس يتنافسون فى سكنى الاقاليم ويأتون اليها افواجا ونشأ عن ذلك احداث عدة مدن كما ذكره كونرنجيوس وفى القرن الثالث عشر اخذ اهل المدن فى التحزب والتعصب لاجل المدافعة عن انفسهم ومنع الخلل وعدم الانتظام الناشئ فيها بسبب حروب البارونيين اللصوصية وظلمهم وجورهم فى الناس وبهذه العصب صار حال سكان المدن احسن وآمن من غيرهم من سائر طوائف الرعايا حتى ان كثيرا من الناس انتظموا فى سلك الجمعيات البلدية بالطوع والاختيار كما ذكره كونرنجيوس ايضا

وكان سكان مدائن المانيا منقسمين الى ثلاث مراتب كما ذكره كينبسكيلد (الاولى) مرتبة الاشراف (الثانية) مرتبة الاحرار من الاهالى (الثالثة)

حكومة الشابية وكانوا مستعبدين فلما تولى هنرى الثانى المملكة (...) اعتق الشابية المستعبدين الذين كانوا سكان المدن ورفعهم من مرتبة الاسرا كما ذكره المؤلف المذكور والمؤلف يشبه بالمدن التى فى المانيا وان كانت تمسكت فى الاستعباد اكثر من مدن فرانسا الا انها تملكت حريتها ما بعد وسع دائرة من ايامها حتى فاقت مدن فرانسة بكثير فى هذا الشان فجميع مدن الايبراطور يتا المرتسم كثرتها المسماة بالمدن المباشرة او المتصلة وسمى كل من هذين اللفظين فى اصطلاح متها مطلبرطيين ان هذه المدن كانت تحت اقتدار الايبراطور وحده مباشرة بدون واسطة وانه كان لها فى خطها جميع حقوق الاستقلال وكمال التصرف وقد بين كيفية تشكيل مزايا تلك المدن الايبراطورية وهى حرية بان تلقب باعظم مملكة للحرية الجرمانية واصول هذه المزايا معلومة فى الجملة فلا حاجة الى ان نتصدى لذكرها هنا تفصيلا

المبحث الثامن عشر

فى شرح قوله ودخلت فى جميع بلاد النيسا الى آخره بصحيفة (٤٢)
من المطلب المتقدم فى القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

ان مؤرخى اسبانيا لم يذكروا الا شيأ واهيا جدا فى اصل انشاء الجمعيات البلدية وتقدماتها فى اسبانيا بحيث انه لا يمكننا ان نعين زمن انشاء هذه الجمعيات فى تلك المملكة ولا كيفية احداثها ولكن ذكر المؤلف ماريانا ما يفهم منه انه فى (سنة [illegible]) كانت ثمان عشرة من مدائن اسبانيا لها الحق فى الحضور بمشورة القرطس فى مملكة قسطيلة وهى فى اسبانيا نظير مشورة اليرلمنتا جنرال فى فرانسا ونظير مشورة الدييت فى المانيا وبولونيا والنروج وكل من هذه المشاور الثلاثة يسمى مشورة العموم او مشورة وكلاء المملكة وما ذكرنا فى القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا فى شأن ترتيب هذه المدن والطرق التى كانت تدعيها لنفسها يبرهن لنا برهانا جليا على انها فى شكل

حكومتها

حكومتها ومزاياها كانت مماثلة للجمعيات الالتزامية وهذا الامر بانضمامه لكونه جميع الدول المحكومة حكومة التزامية كانت كلها تشبه بعضها شبها كليا في ترتيبها وتدبيرها السياسي - يستنتج منه ان الجمعيات البلدية قد حدثت في اسبانيا على نسق حدوثها في غيرها من بلاد ايطاليا ويمكن ايضا انها حدثت عند الاسبانيين قريبا من زمن حدوثها عند غيرهم من ملل اوربا وسنذكر في بعض المباحث الآتية ان الظاهر انه في اراغون كانت المدن قد بادرت الى اكتساب مزايا كبيرة حتى صار لها حق في التشريع وانشاء القوانين وفي (سرقسطة) كان اهالي سراغوسه يتمتعون بالحرية السياسية كانوا مساوين في الرتبة والمقام لاهالي المرتبة الثانية من مراتب الاشراف وكانوا ايضا قد اكتسبوا مزايا اخرى عديدة لم تكن ثابتة وقتئذ لمن كان في مرتبتهم من ملل اوربا الآخرين كما ذكره زوريتا في تاريخ اراغون

واما انكلتره فلم يحصل انشاء الجمعيات البلدية فيها الا بعد أن فتحها النرمنديون وذلك انه بعد هذا الفتح نقل اهل انكلترة هذه العادة عن الفرنساويه واحدثوا في بلادهم الجمعيات البلديه وصارت المزايا التي يعطيها الملك في انكلترة مشابهة بالكلية للمزايا التي تكلمنا عليها فيما سبق ولكن حيث ان هذا امر معلوم لمعظم الناس فلا نتصدى لذكر شيء مخصوص منه وانما نقتصر على أن نوصي من قرأ كتابنا هذا بان يراجع كتب المؤلفين الذين وضحوا هذا الامر المهم من تاريخ انكلترة وهم المؤلف برادى والمؤلف مادوكس والمؤلف هوم

نعم يمكن ان بعض مدن انكلتره في زمن الملوك السكسونيين كانت قد آلت الى جمعيات وان الوثائق التي اعطاها ملوك العائلة النورمندية لم تكن وثائق اعتاق وانما كانت تثبت المزايا التي كان يتمتع بها المدن سابقا كما ذكره ليتلتون ومع ذلك كانت مدن انكلترة مدة القرن الثاني عشر صغيرة ضعيفة وهنا البرهان جلي على ذلك مذكور في تاريخ هنري الثاني للمؤلف ليتلتون واما المؤلف فيتلو سطوفان وهو احد مؤلفي هذا العصر فقد وصف مدينة لوندرة مدة الملك هنري الثالث وتكلم على تجارة هذه المدينة وثروتها

ورفاهية سكانها وبالغ فى ذلك حتى ان ماذكره من الوصف لا يصح لن يصدق على حالة هذه المدينة التى هى عليها الآن وان كانت فى وقتنا هذا اكبر مدائن اوروبا واغناها ولكن مانسبه هذا المؤلف من العظم والبهاء لتلك المدينة القاهر بالنظر لحالها وقتئذ بالنسبة الى غيرها وذلك ان بطرس دوبولواس احد مؤلفى ذلك العصر وكان رئيس شحامة مدينة لوندره فهو الذى يعرف احوال هذه المدينة حق المعرفة لتوفر اسباب ذلك عنده قد ذكر ما يفهم منه ان هذه المدينة التى بالغ فى وصفها المؤلف فيظوسطوفان لم يكن سكانها اكثر من اربعين الفا فانظر الى المدائن الاخرى تعلم بالقياس كمية اهاليها حيث ان اهل تخت المملكة كانوا لا يزيدون على اربعين الفا وبالجملة فلم يكن لهذه المدن اقتدار على ان تثبت لانفسها مزايا واسعة جدا وكذلك ترتيب القرى فى ايقوسيا كان يشبه من عدة وجوه ترتيب مدن فرانسا وانكلترة كما هو موضح فى بعض التواريخ

المبحث التاسع عشر

فى شرح قوله وقويت خصوصيات الرعايا على التدريج الى آخره بصحيفة (٤٧) من مطلب النتائج السعيدة التى نشأت فى الحكومة عن هذه الحادثة بصحيفة (٤٦) من القسم الاول من اضعاف الملوك الالبا

ثم انه بعد انشاء مشورة الاهالى بقليل وظهورها بين مشاور الملك استيقظت عقول الفرنساوية بسبب هذه المشورة الحادثة الى التولع بالحرية ونشأ عن هذا التولع ثمرات جليلة فحصل فى عدة اقاليم من مملكة فرانسا ان الاشراف والجمعيات البلدية قد تشاوروا مع بعضهم واتفقوا على ان يحاموا عن حقوقهم ومزاياهم من تعدى الملك الذى كان يتصرف كيف شاء بسطوته وشوكته التى كانت له وقتئذ وقد نقل القوتنة بولانوليرس نسخة من نسخ القوانين التى كانت ترتبها هذه الجمعيات المتفقة تاريخها (سنة ١٣١٤) وذلك بحجة اصابة رسل العمالات والمدن دخل فى مشورة

وكلاء المملكة وصاروا من امر بابهم بثلاث عشرة سنة وشدد الاهالى كثيرا
فى المدافعة عن حقوقهم ومزاياهم حتى صار الملك يحترمهم فى جميع
حقوقهم وخصوصياتهم ولا يتعدى عليهم فى شئ فمكثت هذه المشاورات
والخصومات بين الاهالى والاشراف ست سنوات و بعد هذه المدة كتب الملك
فيليپش لولونك (اى فيليپش الطويل) ملك فرانسا الى جمعية مدينة تربون
مكاتيب من عنده ليدعو اهل هذه الجمعية اليه وكتب فى اولها ما معناه
بعد ما يليق من التحية والاكرام من فيليپش الذى انعم الله عليه بملك فرانسا
وملك نوار الى احبابنا واتباعنا سكان مدينة تربون حيث ان احب
الاشياء الينا وغاية آمالنا هو ان نحكم بعون الله تعالى مملكتنا ورعايانا
مع الامن والراحة من غير ان نعكر عليهم فى شئ وحيث اننا نتمنى ايضا تطهير
مملكتنا من جميع المظالم الموجودة فيها وراحة رعايانا الذين كانوا مكلفين
بالايطيقون من الفرد والغرامات بسبب رداءة تدبير كثير ممن كان لهم
مدخلية فى الحكومة كما اعلمتنا بذلك السنة العامة وحكايات عدة اناس
من الثقاة المعتبرين أمرنا ان تعقد مشورة بمدينة پواتيرس فى الاسبوع
الذى يلى عيد العنصرة (ويسمى ايضا عيد حلول روح القدس) واكون
رئيسا على هذه المشورة لتكون مبنية كما نريد على العدل والحق ونروم
ان تكون احكام هذه المشورة متقنة محكمة بآراء قسيسى مملكتنا وباروناتها
واهالى مدنها الذين انتم من جملتهم ونرجو ان كل ما يحكم به فى تلك المشورة
يكون على ما يرضى الله تعالى وينفع رعايانا وبناء على ذلك ننهى اليكم
كيت وكيت ذكره المؤلف مبلى وهذا الكلام وان كان من قبيل الكلام
الدارج الجارى فى كتابة الوثائق العمومية الان ما ينتقش فى الذهن منه
من الاحكام صحيح معقول يجل عما يؤمل من عصر خشنى مثل ذلك العصر
ولا شك انه اذا كان هنالك ملك اين الجانب من ملوك ابريطانيا الكبرى الذين
يحبون مسايرة الاهالى وملاطفتهم تعذر عليه ان يتكلم فى ديوان البرلمان
بعبارات اليق من هذه فى شأن الحرية العمومية * واذا قرأ الانسان

فى تواريخ فرانسا العجب من التقدم الذى نشأ للتلك المملكة من التوليع بالحرية
وتعجب ايضا من الشوكة القوية التى اكتسبتها بالتدريج ديوان المشورة
فى مشورة وكلاء المملكة وفى اثناء المصائب التى كانت متراكمة على مملكة
فرانسا بسبب حرب جماعة انكلترة وبسبب اسر ملكها يوحنا ظهر ارباب
مشورة وكلاء المملكة وهموا همة جاسرة فى توسيع مزايا الاهالى ولا سيما
وفى (سنة ١٣٥٥) انعقدت مشورة وكلاء المملكة فى مدينة باريس ورتبت
قوانين فى شأن اخذ القرض والغرامات (لان تدبير هذا الامر لم يكن مفوضا فيه
للملك بل كان لوكلاء مخصوصين من طرف مشورة وكلاء المملكة)
وفى شأن ضرب المعاملة واجتناب التظالم او التعدى الذى يقع من المحتسبين
المنصبين من طرف الملك وشأن انتظام تدبير المحاكم الشرعية وكل ذلك يصلح
ان يكون من قبيل الحكومة الجمهورية اكثر من صلاحيته لان يكون
من قبيل الحكومة الالتزامية وهذا القانون الذى يرغب فيه موجود
فى الكتاب المسمى مجموع الاوامر الملوكية فى المجلد الثالث ومن تعذر عليه
تحصيل هذا الكتاب الكبير فليبحث عن ذلك القانون فى مختصر تاريخ فرانسا
للمؤلف ويلاريت او فى تاريخ الحكومة القديمة لمملكة فرانسا
للمؤلف بولانو يلير س

ثم ان مؤرخى الفرنساوية قلما تكلموا فى تواريخهم على اسقف مدينة لايون
وعلى اسقف مدينة مرسيل وكان هذا الاخير شاهبندر تجار مدينة باريس
وكان كل منهما اعظم ارباب مشورة وكلاء المملكة واكثرهم مداخلة وتأثيرا
واكبرهم شوكة وصفوتهما انهما كانا صاحبى فتن وتعسف وكانا من ارباب
الاغراض كثيرى الطمع لا يقنعان بشىء فكانا لا يبحثان الا عن ان يحدثا
فى مملكة فرانسا حوادث مضرة وان يجعلاها على نسق بلادهما فى الحكم
والترتيب وهذا الامر لا يبعد على مثلهما ومع ذلك كان الاهالى يأتمنونهما
بالخصوص واذا رأى الانسان ما كان يعرضه هذان الرجلان للمشورة
من الوسايط التى كانا يحكمان بانها انفع واصلح من غيرها فلا يشك فى ان

التواح

التواطع بالحرية كان قد بلغ فى مملكة فرانسا أو جرمانيا وان الحرية كانت قد تقدمت واتسعت دائرتها جدا وان الناس كانوا فى الغالب يعرفون للحكومة اصولا صحيحة مستقيمة

ومشورة وكلاء المملكة التى انعقدت فى باريس (سنة ١٣٥٥) فى شأن طلب الحرية كان عدد اربابها نحو ثمانمائة نفس كان اكثر من نصفهم رسلا من طرف المدن كما ذكره المؤلف سوكوس والظاهر انه فى جميع المشاور العمومية التى انعقدت فى ايام الملك يوحنا كان لوكلاء المدن فيها تأثير كبير وكانت طائفتهم محترمة كطائفة القسيسين وطائفة الاشراف بدون فرق وكانت هذه المشروعات الكبيرة تتناطو يلا وهى تحصل فى فرانسا قبل ان يكون لديوان الجمعيات البلدية فى انكلتره مدخلية كبيرة او تأثير عظيم فى شأن التشريع وانشاء القوانين وكان المذهب الالتزامى كان قد وصل فى صعوده الى اقصى الدرجات فى فرانسا قبل انكلتره فكذلك عند سقوطه واضمحلاله تأخر فى انكلترا اكثر من فرانسا وجميع الوسايط التى استعملت فى انكلتره لاجل تقوية الحرية وتوسيع دائرتها بين الاهالى نجح اغلبها واما فى فرانسا فحصل خلاف ذلك وليس هنا محل البحث عن الاسباب السياسية التى طرأت واوجبت اختلاف هاتين المملكتين فى هذا الشأن

المبحث العشرون

فى بيان قولنا وصار اغلب اقاليم فرانسا خاليا من الاسترقاق فى مطلب اسباب الاعتاق وتقدمانه بصحيفة (٤٨) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

قد ذكرنا فيما سبق (فى المبحث الثامن) كيف كانت حالة الناس الذين كانوا معدين للزراعة وذكرنا ايضا المصائب والاساآت التى كانت حالة بغريقهم ولكن وثائق الحرية والاعتاق التى اعطيت لهم فيما بعد كانت ترخص لهم فى اربعة اشياء عظيمة كل شئ منها يقابل واحدا من الاشياء الاربعة التى هى اعظم ما كان يضر بهم زمن استعبادهم وهى (اولا) ابطال حق التصرف

فى ذواتهم بيع او هبة او غيرذلك (ثانيا) رخص لهم ان يوصوا لمن شاؤا باموالهم وما تملكه ايديهم او يعطوها لمن شاؤا بوجه آخر من الوجوه الشرعية فاذا مات احدهم من غير ايصاء انتقلت امواله واملاكه لورثته الشرعيين كغيرهم من الاهالى الاحرار (ثالثا) الفرد والخدم التى كان يجب عليهم تأديتها للتزميهم صارت مبينة محدودة بعد ان كانت سابقا اختيارية مطلقة يعنى ان الملتزم كان قبل ذلك يكلف اتباعه بما يشاء ويريد (رابعا) رخص لهم ان يتزوجوا بمن شاؤا بعد ان كان لا يجوز لهم ان يتزوجوا بغير اسرآء ملتزميهم وبدون اذن منهم وجميع هذه الخصوصيات مذكورة فى وثيقة اعطيت (سنة ١٣٧٦) لسكان مدينة مونبر وطون كذا فى تاريخ اقليم دوفينة

وبانضمام عدة مقتضيات الى الحوادث التى ذكرناها فى اتفاق الملوك الالبا تخلص سكان الخلوات من الظلم الذى كان حالا بهم وذلك ان دين النصرانية دأبه الرفق والامر بالمعروف والنهى عن المنكر والاصل فيه تساوى الناس بعضهم لان الخلق عند الله سبحانه وتعالى كلهم فى درجة واحدة لا فرق فيهم بين غنى وفقير وحقير وامير وجعلهم المولى سبحانه وتعالى فى نعمه على حد سوآء وهذا كله مخالف لعادة الاستعباد التى كانت جارية بين الناس فانه لما اقتضت الاحوال ان كل انسان صار لا ينظر الا المصلحة نفسه وحدثت طرق سياسية رديئة اضطر الناس الى ان يسلكوا سبلا مخالفة للاصل الذى هو مراعاة المساواة بين بعضهم ولكن عرفوا فيما بعد ان ذلك مخالف للاوامر الرحمانية بحيث كانوا يعتبرون ان اعتاق النصارى من هذا الاستعباد من باب الرأفة والشفقة التى ترضى الله سبحانه وتعالى فالرفق الذى امر به الدين النصرانى كان يعارض بجميع القوانين والعوائد الحادثة وكان اقوى سبب اعان على انشاء عادة اعتاق المستعبدين وقد انعم البابا اغرغوار الاكبر الذى كان فى أواخر القرن السادس بالحرية على بعض المستعبدين مستندا فى ذلك لسبب يرجع الى الدين كما ذكره المؤلف بوتجيسيروذكر ايضا انه يمثل

هذا

هذا السبب اعطيت عدة وثائق بالاعتاق. وقد اعطيت عدة وثائق بالحرية ايضا قبل حكم الملك لويز العاشر حبا فى الله تعالى وطلبا لعفوه ورضاه ذكر ذلك المؤلف موراطورى والمؤلف دوكنج .

وكان محفل الاعتاق يعمل فى الكنيسة بموكب عظيم كانه من المحافل الدينية والشخص الذى يراد اعتاقه كان يطاف به حول المحراب الاكبر وفى يده شمعة موقودة وبعد ذلك يقف فى احد اركان المحراب وتتلى عند ذلك صيغة العتق ذكره المؤلف دوكنج * واذا قرأت وثائق الاعتاق التى كانت تعطى وقتئذ تستدل بها على قلة معرفة الناس باللغة اللاطينية فى ذلك العصر الذى هو عصر تبربر وجهالة لما انها ركيكة العبارات والتركيب غير موافقة لقواعد الاعراب واصول النحو وقد نقل تلك الوثائق المؤلف موراطورى . وكان الاعتاق يقع فى مرض الموت او بالوصية لان الناس فى هذا الوقت يميلون الى الصدقة وفعل الخير * وهذا وجه يؤيد ما ذكرناه من ان الاعتاق كان من الثمرات الناشئة عن الدين ذكره المؤلف دوكنج وكان هنالك طريق اخرى يعتق بها الانسان من استعباده وهى ان يدخل فى مراتب القسيسين او ينذر نذرا لبعض الديور ولكن لم تمكث هذه العادة مباحة الاحقبة قليلة من الزمن وذلك انه لما رأى السادات ان ارقاءهم قد خلص منهم مقدار جسيم بهذا السبب شددوا فى تضييق تلك العادة حتى انها منعت فيما بعد بالشرائع عند اكثر ملل اوروبا كما ذكره المؤلف موراطورى وكان الملوك والامراء اذا رزقوا بولد ذكر او حصلت لهم حادثة اخرى سعيدة يعتقون مقدارا من المستعبدين حمدا لله وشكرا له على هذه النعمة الجزيلة كما ذكره المؤلف ماركولف وذكر ايضا عدة طرق للاعتاق وكلها كانت مبنية على الدين بمعنى ان الحامل لهم على الاعتاق هو اما الرغبة فى نعم الله تعالى او رجاء ان تغفر ذنوبهم ويستفاد ذلك ايضا من عدة مؤلفين آخرين * ولكن كما انه كان هنالك اناس تجبرهم تقواهم على ان يعتقوا اخوانهم فى دين النصرانية كان هنالك اناس آخرون يسعون بانفسهم الى الاستعباد لما رتب

صنمية ايضا على الديانة لكن هذه ديانة مضرة وفى غير محلها فكان اذا اعتقد انسان مثلا فى قديس من رهبان الكنيسة او الدير الذى عادته ان يحضر فيه الصلوات كان يهب نفسه وعائلته وذريته الى هذا القديس ويصيرون جميعا ارقاءه

ثم ان هؤلاء المستعبدين الذين كانوا يهبون انفسهم للكنائس والديور كانوا كثيرين جدا لو يمكن تقسيمهم الى ثلاث مراتب مختلفة وهى (المرتبة الاولى) كانت من اناس يجعلون انفسهم واموالهم تحت حماية الكنائس والديور بحيث لا يعارضهم احد لكن بشرط ان يحاموا عن حقوق الدير او الكنيسة التى هم تحت حمايتها وان يدفعوا عن اراضيها ومزاياها كل من تعدى عليها وهؤلاء الناس لم يكونوا ينقادون للكنائس بقصد الديانة فقط بل كانوا يحامون عنها لحماية انفسهم وامنهم من تعدى الغير عليهم فالاولى تسميتهم اتباعا لا مستعبدين حتى ان بعض الاشراف استحسن هذه الواسطة فى امنه وحماية نفسه ودخل فى حمى الكنائس (المرتبة الثانية) كانت من اناس يفرضون على انفسهم شيأ سنويا يعطونه للكنائس والديور التى هم يحماها او مبلغا من الدراهم يعطونه اياها على عقاراتهم واملاكهم الارضية وربما كانوا يفرضون على انفسهم ان يخدموا الكنائس فى بعض مصالح وكان اهل هذه المرتبة يسمون سنسوال اى اهل الجزية (المرتبة الثالثة) كانت من اناس يتركون حريتهم بالكلية والجزئية فتراهم ارقاء مستعبدين يتصرف فيهم بجميع ما يتضمنه مدلول لفظ الرق وكانت تسمى مينيستريال اى الواهبة نفسها للقديسين وذكر فى بعض الوثائق ان اهل هذه المرتبة كانوا يجعلون اجسامهم فى الذل والاستعباد ليفوزوا بعتق ارواحهم وكان القسيسون يسعون مع الرغبة التامة فى تقوية هذا الاستعباد الاخير وتعضيده كما يفهم ذلك من بعض خطب القسيسين فى هذا الشأن لاناس وهبوا انفسهم لبعض الكنائس ذكرها المؤلف دوكنج وغيره

والظاهر

والظاهر ان عادة الاعتاق لم تكن كثيرة حين كان المذهب الالتزامى باقيا على اصل قوته وتشديده بل كان هنالك شرائع تشدد فى منع هذه العادة ظننا انها تضر بالجمعية وآخر طائفة من المستعبدين لم تنل الحرية الا بعد اضمحلال حكومة الاشراف الاوستوقراطية التى كانت تجعل لبعض افراد قليلين من الناس شوكة واسعة يتصرفون بها كيف شاؤا وتترك الباقين من الناس فى المظالم وانواع الجور وكان بعض الناس قد تعوّد على الرق والاستعباد وصار الذل سجية لهم حتى انه لما امر الملك لويز العاشر بالاعتاق وابطال عادة الاستعباد فى جفا لكه عرض العتق على عدة اناس من المستعبدين فابوا ان يخرجوا من رقهم كما ذكره المؤلف داشورى * وبعد حكم هذا الملك بزمن طويل كان كثير من الاشراف مستمرين على عادتهم القديمة فى شأن المستعبدين والظاهر ان الشهير دوغسقلين قائد جيوش فرانسا كان قد صدرت عنه اوامر تذم عادة عتق المستعبدين وتفيد انها مضرة كما ذكره المؤلف موريس فى كتابه المسمى شواهد تاريخ بريطانيا حتى ان المستعبدين الذين كانوا معدين لخدمة الاراضى والغيطان مكثوا بعد عتقهم مدة من الزمن وهم مجبورون على ان يخدموا ساداتهم فى بعض الاحوال وكانوا يعتبر ونهم اعتبارا لا كاعتبار بقية الناس فما كان يؤذن لهم ان يشتروا شيأ من الاراضى ولا ان يصيروا من ارباب الجمعيات الاهلية الموجودة فى بلاد الملتزمين الذين كانوا تحت ولايتهم ولكن الظاهر ان هذا الامر لم يكن شائعا فى البلاد

وفى كتاب قوانين انكلتره لا تجد اصلا قانونا عموميا لاعتاق المستعبدين يكون مشابها للقانون الذى رتبه ملوك فرانسا ثم وان كانت حكومة انكلترة ملائمة للحرية الشخصية الا ان الاستعباد الشخصى مكث زمنا طويلا فى بعض عمال من انكلتره حتى ان هنالك وثيقة تاريخها (سنة ١٥١٤) صدرت عن الملك هنرى الثامن باعتاق رقيقين كانا الى وقتئذ باقيين على رقهما فى بعض التزاماته كما ذكره المؤلف ريبروذكر ايضا ان الملكة اليزابيطة

(سطلانة) قدوكلت جمعية فى شأن اعتاق بعض المستعبدين حكانوا ارقاءلها الى ذالك الوقت

المبحث الحادى والعشرون

في بيان قولنا العادات اموراً صحيحة للحكومة والانتظام والامن العام بصحيفة (٥٣) من مطلب استعمال وسايط مختلفة لاجل ابطالها بصحيفة (٤٥) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

ليس فى عوايد القرون الوسطى اغرب من عادة الحروب الخصوصية فان هذه العادة كانت من الحقوق المهمة بين الناس وكانت مقبولة عندهم بحيث ان القوانين التى تخصها كانت من اعظم شرائع ذالك العصر ومع ان المؤلف مونتسكيو قد وضح اموراً كثيرة عويصة من القوانين الالتزامية بانوار مصابيح معارفه عوايد كانت قبله مظلمة الدياجى لا تعرف لها سبل لم يأت له موضوع تأليفه ان يبحث عن هذا الشأن فمن ثم استنسبنا ان نذكرها مع التوضيح والتفصيل العوايد والقوانين التى كانت تأذن بهذه العادة المخالفة الآن لعقول الملل المتمدنين العارفين بنظام الجمعية والحكومة فنقول

(اولاً) كان عند قدماء الجرمانيين وغيرهم من الملل الذين لم يكونوا كثيرى التقدم فى التمدن والمعارف اذا سب انسان آخر او عاب فى حقه فينتقم منه بنفسه لان هذا الانتقام كان وقتئذ حقاً شخصياً خصوصياً فكان يجوز للمتعدى عليه ان يخاص حقه من المتعدى بالسلاح من غير ان يرفع دعواه الى قاض أو حكم عدل يحكم بينه و بين خصمه وقد بينا ذلك بادلته بياناً كافياً فى المبحث السادس

(ثانياً) كانت هذه العادة جارية بين الملل المتبربرين بعد استيطانهم بالاقاليم التى تغلبوا عليها من الامبراطورية الرومانية وكانت اسباب التعدى تعظم وتزيد بين هؤلاء الملل ولذلك كثرت البغضاء بين العائلات وصارت الحروب الشخصية كثيرة متواترة وشواهد ذلك فى تاليف أقدم مؤرخى هؤلاء الامم

الاقارب كتب قوانينهم كما ذكره المؤلف اغرغوارد ونورس وكان يجوز للاقارب
ان ينتقموا لكل واحد من عائلاتهم ممن سبه اوتعدى عليه بل كان ذلك
واجبا عليهم وكان من قوانين الانغلوس وامة الويرنس ان ينتقم للعائلة
من رئيسها في اراضيها
(ثالثا) كان لا يجوز لاحد ان يعمل حربا خصوصيا ماعدا الاشراف واهل
الحسب وأما جميع المشاجرات التي كانت تحصل بين المستعبدين على
اختلافهم وبين سكان المدن والاناس الاحرار الذين هم في الرتبة ادنى من
الاشراف فكانت تقام دعواهم في المحاكم بين ايدي القضاة وكذلك
المشاجرات التي كانت تحصل بين الاشراف واناس آخرين ليسوا من رتبتهم
لان حق الحرب الشخصي كان شرطه ان يكون الانسان شريفا بحسب
الاصل والعنصر وان تكون هنالك مكافأة بين احساب الاخصام وانسابهم
كما ذكره المؤلف بومنوار ثم ان القسيسين اصحاب المراتب والوظائف كان لهم
حق في الحروب الشخصية ولكن حيث كان لا يليق بهم ان يحاربوا بأنفسهم
كانوا يستنيبون عنهم وكلاء ينتخبهم أهل الديور والاسقفيات وكان هؤلاء
الوكلاء في العادة من ذوي الحسب والامتياز والشهرة فكانوا يتكفلون
بحماية هذه الاسقفيات والديورة يقاتلون لاجلها كما ذكره المؤلف بروسيل
والمؤلف دوكنج وكان يحصل غالبا ان بعض قسيسين من أهل الحسب والنسب
يتعودون على الحروب بسبب اخلاق ذلك العصر وقوانينه فينسون
الصلح الذي هو روح وظيفتهم القسيسية ويبارزون بانفسهم في الميدان أمام
اتباعهم كما ذكره المؤلف دوكنج
(رابعا) كان الاشراف كانوا يدعون الى الحرب كل من تعدى عليهم
بصفة او نحوها كانوا ليكون هذا المسلك ايضا مع من يظلم احدا ظلما كبيرا
او يقتنيه او يهتكه او يفعل فعلا يخس بالعامة ويوجب لها العار وبالجملة
جميع الذنوب والكبائر التي عقابها الآن الموت عند الامم المتمدنين كانت
تحصل عند هؤلاء الناس الحروب الخصوصية كما ذكره المؤلف بومنوار

والمؤلف دوكنج ومع ان الانتقام من المسبات كان بمفرده يعد الى شرط الحروب الخصوصية كانت المنازعات التى تحصل بين الناس فى شأن العقارات المدنية ينشأ عنها غالبا العداوة والبغضاء التى كانت تؤول الى حروب بين الفريقين المتشاحنين كما ذكره المؤلف دوكنج

(خامسا) كل من كان حاضرا فى مبدء مشاجرة او عند ارتكاب مظلمة او فاحشة كان يجبر على ان يكون له دخل فى الحرب الذى يترتب على هذا الامر الذى حصل بحضوره لانهم كانوا يقولون انه لا يمكن ان يحضر انسان مثل هذا الفعل ويكون خليا عن الاغراض بحيث لا يميل الى احد الخصمين

(سادسا) جميع اقارب الخصمين كانت تلحقهم الدعوى بحيث يجبرون على ان يباشروهما ويكونوا عصبة معهما كل مع قريبه وهذه العادة مبنية على قاعدة كانت موجودة عند قدماء الجرمانيين وهى انه يجب على الانسان ان يعادى من عادى ابويه واقاربه كما يجب عليه مودة من ودهم ولا شك ان مثل هذه العادة لا تنشأ الا عن طبائع الملل الخشنية التى تكون حالة سياستها وجمعيتها ملايمة لهذه العادة الرديئة * ثم ان بيان درجة القرابة التى كانت توجب على الانسان ان يكون له دخل فى دعوى قريبه هو مما ينبغى التنبيه عليه فنقول انه مادامت الكنيسة تمنع الزواج كان الاقارب الذين يدخلون فى الحروب الشخصية او الخصوصية معلومين بنفس هذا المنع البدعى الذى لا يستحسنه العقل وبناء على ذلك كان جميع الاقارب الى الدرجة السابعة يدخلون فى الحرب الشخصى كل فريق مع قريبه من احد الخصمين ولكن لما حصل التخفيف فى هذا المنع حيث لم يمتنع الزواج الا الى الدرجة الرابعة انتقل وجوب الدخول مع القريب فى الحروب الشخصية على الاقارب الى الدرجة المذكورة (وتوضيح ذلك ان درجة القرابة تعتبر بعدد البطون فكل بطن يسمى درجة وتوالى الدرجات يسمى جهة وهى قسمان جهة مستقيمة وجهة حاشية فالمستقيمة هى توالى درجات بين عدة اشخاص كل واحد منهم والد لمن بعده وهكذا وجهة الحاشية هى توالى الدرجات بين

اشخاص

العناصر ليس كل واحد منهم ابا لمن بعده ويجمعهم اصل واحد وعدد درجات الجهة المستقيمة يكون على حسب ما فيها من البطون فكل بطن درجة فالابن بالنسبة لابيه فى الدرجة الاولى وابن الابن فى الدرجة الثانية وهكذا وكذلك الاجداد بالنسبة للاولاد واولاد الاولاد واما درجات جهة الحاشية فهى ايضا على حسب عدد البطون فالاخوة او الاخوات درجة ثانية والاعمام والاخوال واولاد الاخ او الاخت درجة ثالثة واولاد الاعمام والعمات او اولاد الاخوال والخالات من غير واسطة درجة رابعة وهكذا)

(سابعا) الاخوان اذا كانا شقيقين لا يجوز لهما ان يتحاربا لان الاقارب يكونون متحدين فى هذه الصورة فلا يجب على احد منهم ان يرجح اعانة احد الاخوين على الآخر بخلاف ما اذا كانا غير شقيقين فيسوغ لهما ان يتحاربا لان كلا منهما يكون له فى هذه الصورة اقارب غير اقارب الآخر كذا ذكره المؤلف بومنوار

(ثامنا) اذا كان احد الخصمين من الرؤساء وجب على اتباعه ان يدخلوا معه فى الحرب الشخصى لانه بموجب قوانين المذهب الالتزامى يجب على كل تابع ان يدافع عن رئيسه وان يساعده فى جميع حروبه ومشاجراته فلذلك بمجرد ما حدثت التبعية الالتزامية اى صار للملتزمين اتباع وصار هنالك رابطة بين الملتزمين واتباعهم اعتبر الاتباع فى شأن الحروب الشخصية كالاقارب وصار يجب عليهم ما يجب على الاقارب كما ذكره بومنوار

(تاسعا) مكثت الحروب الشخصية كثيرة متواترة عدة قرون ولم توجد حادثة اخرى اقوى من هذه الحادثة تأثيرا فى ازدياد خلل الحكومة وشراسة الاخلاق التى اوقعت ملل اوروبا فى الحالة المحزنة الشنيعة التى كانت فيها مدة العصر الذى نتكلم عليه وليس هنالك حادثة غير هذه الحروب ترتب عليها عوائق كثيرة منعت من نظام تدبير المحاكم والاقضية الشرعية ولم تحصل حادثة اقوى منها ايضا فى تعطيل الصنايع والحرف ومنع التقدم وممارسة العلوم والفنون الصلحية وهذه الحروب كانت تحصل مع العناد والقساوة

الحرب التي يقتضيها الحقد الشديد سيما وكان هذا الحقد اذذاك متسلطا
بسلاح الحمية ومؤيدا بالقوانين والشرائع ويستفاد من القوانين التي منعت
تلك الحروب الشخصية او خففتها ان ضرر اغارات الامم المتبربرين على البلاد
اخف من ضرر هذه الحروب الاهلية وقد وصف اهل ذلك العصر من المؤلفين
القساوة الخشنية المفرطة التي كانت تقع في تلك الحروب بحيث ان من قرأ
عباراتهم زاد عجبه وكثر رعبه ونفر منها قلبه

فهذه هي القوانين الاصلية التي ترتبت على عوايد الناس في الحروب
الشخصية التي كانت من جملة الحقوق الاكيدة * ولنذكر لك هنا الوسايط
المختلفة التي استعملت لاجل تضييق دائرة هذه العادة الخطرة او ابطالها
مرتبة على نسق ازمنتها فنقول

(اولا) اول واسطة استعملها الحكام المدنيون في تخفيف شدة حقد
الناس لبعضهم هي ما رتبته القوانين من فرض غرامة على كل انسان فعل
كبيرة بعد ان كان المتعدى عليه يقضى بنفسه لنفسه في المظلمة التي كانت تحصل
له او في العيب الذى كان يفعله انسان في حقه فان شاء اقتص ممن تعدى عليه
بالانتقام او جعل عليه شيأ في نظير جرمه الذى اجتناه وبذلك كان حقد الناس
لبعضهم شديدا فكانوا على بعضهم كالوحوش الكاسرة وكانت عادتهم في
الغالب ان شرف الانسان هو عدم عفوه عمن تعدى عليه وان لا يأخذ منه شيأ
في نظير الجناية ومن اجل ذلك كان من الضرورى اللازم ان ترتب هذه الجرائم
التي تكثر في قوانين الملل المتبربرة وبعد هذا الترتيب كان اذا حصل ذنب من
انسان في حق آخر او تعدى عليه رفعت الدعوى الى الحاكم المدني فيعين
للشخص المتعدى عليه المبلغ الذى يستحقه على المتعدى وقد صرح ورتاريس
مشرع الاومبرديين وكان حاكما في اثناء القرن السابع بقصده من الغرامات التي
كان يضربها على المتعدى وزيادتها عن الغرامات الاصلية فقال ما فعلنا
ذلك الا لاجل اطفاء نار البغضاء والحقد من قلوب الناس حتى لا يصروا
على الانتقام من بعضهم ويحصل الامن بينهم انتهى

(ثانيا) قد اضر الايمبراطور كرلوس مانوس فى اوائل القرن التاسع باصول هذا الامر الردىء حيث صدر عنه امر وهو ان كل من ارتكب ذنبا اوهتك حرمة وجب عليه ان يكفر عن سيئته من غير تراخ بالكفارة التى اوجبها الدين وان يدفع الجريمة التى فرضها عليه الشرع واذا ابى المتعدى عليه او اقاربه من قبول هذه الجريمة وطلبوا الانتقام من المتعدى على وجه الحرب ضبط على اراضيهم واملاكهم وضمت للميرى انتهى

(ثالثا) كانت قريحة هذا الايمبراطور فى ذلك الامر وغيره من القوانين التى كان يرتبها تفوق على عقول اهل عصره وكان اقتراحه يجل ان تدرك حكمته عقول هؤلاء الناس فكان ما يتصوره اهل عصره فيما تكون به الحكومة منتظمة واهيا يكاد ان يكون عدما وكانت اخلاقهم خشنية بحيث لم تأذن لهم باتباع ذلك الامر ومع جميع المصائب التى كانت تترتب على الحروب الشخصية تمسك الناس بعد موت هذا الايمبراطور بعادة الحروب الشخصية اكثر مما كانوا عليه اولا ولم يمكن لمن حكموا بعده ان يأتوا بدواء لهذا الداء فرأى القسيسون انه يلزمهم ان يتوسطوا فى ابطالها واقدم القوانين التى رتبها القسيسون فى هذا الشان تاريخه من اواخر القرن العاشر وهو موجود الى الآن وذلك انه فى (سنة ٩٩٠) اجتمع عدة من اساقفة الاقاليم الجنوبية من فرانسا ورتبوا بعض قوانين ونشروها بين الناس لاجل تضييق دائرة هذه العادة التى كانت كثيرة متواترة وحكموا بانه اذا تجاسر احد فى اسقفياتهم على نقض اوامرهم سلبت منه مدة حياته جميع المزايا الثابتة لابناء النصرانية وبعد موته يحرم من الدفن على طريقة النصرانية ولكن لم ينشأ عن هذه الوسايط الامداواة بعض هذا الداء فاضطروا الى ان عقدوا مشورة قسيسية اخرى فى مدينة ليموجوس سنة ٩٩٤ ونقلوا الى هذه المشورة على حسب عوايد ذلك العصر اجسام اسلافهم من القديسين واقسموا على النصارى بهؤلاء القديسين ان يبطلوا تلك الحروب وان يطفئوا نيران العداوة والبغضاء من قلوبهم وتحالفوا معهم على انهم من الآن فصاعدا لا يعكرون الامن العام

بهذه الحروب الشخصية وانعقدت عدة مشورات قسيسية اخرى لاجل هذا المأرب ذكرها المؤلف دوكنج والمؤلف بوكيت

(رابعا) هذه الاوامر القسيسية وان كان محترمة فى ذلك العصر الا انها كانت ضعيفة جدا غير نافذة بحيث لم يمكنها ان تؤثر فى ابطال تلك العادة التى كانت ملايمة لكبر الاشراف وموافقة لشهواتهم النفسانية القوية فعظم هذا الداء وصار لا طاقة لاحد على تحمله حتى اضطر القسيسون الى ان يستعينوا على قطع عرقه بوسايط مما فوق الطبيعيات كادعاء امور خارقة للعادة وذلك انه فى (سنة ١٠٣٢) ادعى اسقف من اقليم اكيتينا انه نزل عليه ملك من السماء ومعه مكتوب فيه النهى لكافة الناس عن عادة الحروب الشخصية والامر بصلحهم مع بعضهم وكان وقت اشهاره لهذا الوحى وقت مصائب عمومية كانت فيه عقول الناس قابلة لان يرتسم فيها كل تأثير دينى ومستعدة لان تفعل كل شئ يرفع مقت الله وغضبه عن الناس فنتج عن ذلك هدنة عمومية وبطل الحرب عند كافة الناس مدة سبع سنوات وحكم بانه لا يجوز لاحد ان يهجم على خصمه مدة ازمان المواسم الدينية الكبيرة ولا يجوز له ذلك ايضا من مساء يوم الخميس الى صبيحة يوم الاثنين من كل اسبوع فهى ثلاثة ايام منها يومان من الايام الحرم المقدسة لان احدهما يوم موت المسيح والآخر يوم احيائه بعد موته وهذا التغيير الفجاءى الذى حصل لعقول الناس عد من خوارق العادات لانه نشأ عنه امر كان لا يرجى حصوله لتمكنه من قلوب الناس فسمى ابطال هذه الحروب هدنة الله كما ذكره بوكيت وغيره وبعد ان كان هذا الامر خاصا بمملكة واحدة عم جميع البلاد النصرانية وصار قانونا لكافة النصارى واقره البابا واوعد بان من يتعداه يحكم عليه بالكفر والخروج عن دين النصرانية ويكون بذلك مستوجبا لان يحل به غضب الله ومقته ذكره دوكنج

وفى تاريخ اقندوق قانون انحط عليه الرأى فى المشورة القسيسية التى عقدت سنة ١٠٤١ فى مدينة تولوجوس باقليم روسيلون وهو مشتمل على جميع

الشروط

الشروط التي اوجبتها هدنة الله

ولما كانت الحروب ممنوعة مدة ثلاثة ايام كوامل من كل اسبوع كان يمكن ان تخمد نيران غضب المتعدى عليه في ظرف تلك المدة الواسعة وكان كل انسان آمنا في تلك المدة من مصائب الحروب الشخصية ومعه فسحة يبحث فيها عن الوسايط التي يحترس بها من خصمه اذا دعاه الى الحرب بعد هذه الايام الثلاثة ولو بقيت هدنة الله على ما هي عليه من اركان وشروط لكفت في ابطال الحروب الشخصية لكن لم يستمر العمل عليها بل صار الاشراف فيما بعد لا يعتبرونها بل كانوا يتتبعون اخصامهم على الدوام كما كانوا اولا وصارت الحروب الشخصية لا تنقطع من بينهم ابدا ولم يكن هنالك امر يؤثر في قمع شدة الغضب والحقد الذي كان يقوم بنفوس هؤلاء الاشراف فضجت الناس من ذلك كثيرا فامر الاساقفة جميع الخوري بن الذين كان الاشراف العصاة مقيمين باخطاطهم ان يبطلوا العبادات والمناسك الدينية ليكون ذلك حاملا للاشراف على تجديد الميثاق الذي كانوا عقدوه لاجل ابطال الحروب الشخصية

(خامسا) لما كان الناس يبحثون دائما عن دواء يعالجون به امراضهم لم يجدوا لهم مفرا الان يستعينوا بادعاء وحي جديد فادعى رجل نجار من اقليم غيين في اواخر القرن العاشر انه رأى عيسى عليه السلام ومعه امه مريم فامره ان يعظ الناس ويأمرهم بالصلح ولاجل ان يوثق بكلامه اتى بصورة مريم حاملة ابنها على ذراعيها قائلا ان هذه الصورة اعطاها الى المسيح وكان مكتوبا على تلك الصورة هذه الكلمات انت ابن الله ومحقت المعاصي من الدنيا فاجعلنا بالصلح انتهى وهذا الرجل الضلالي كان في عصر جهالة اهله عمي البصائر فكانت عقولهم مستعدة لان يرتسم فيها جميع ما هو من قبيل خوارق العادات لتصدق فيما اخبر به واعتقد الناس انه مرسل اليهم من الله تعالى فاجتمع بعض الاحبار والكهنة والبارونيين في منشورة بمدينة بوي وتحالفوا على ان ينسوا من الان فصاعدا الاذى او التعدي الذي حصل لهم

من الغير وعلى ان يجمعوا على كل من يأبى ابطال الحرب ويمتنع عن ان يتصالح مع عدوه وتساعدوا على تنفيذ هذا الامر ولقبت عصبتهم بلقب شهير يقولون له عصبة انصار الله ولكن تأثير هذا الوحي الهوسي انطراف لم يمكث من تمكنا في قلوب الناس زمنا طويلا

(سادسا) اضطر الملوك الى ان يبذلوا جميع جهدهم في ابطال تلك العادة التي كان يخشى منها تدمير الحكومة واضمحلالها فقد قال بعض المؤلفين ان الملك فيليبش اغسطوس او الملك سنتلويزامر (سنة ١٢٤٥) انه لا يجوز للمتعدى عليه ان يدعو احباب خصمه ولا اتباعه الى الحرب الا بعد اربعين يوما من وقت المشاجرة التي هي السبب في ذلك الحرب وكل من تجاسر على نقض هذا القانون حكم عليه بما يستحقه في نظير كونه خان ونكث بالعهد وتعدى الشرائع وارتكب ما يخل بالامن العام وكان عقابه بعينه العقوبة المعتادون ولذلك سمى هذا القانون الهدنة الملوكية ولا شك ان في هذه الهدنة مصلحة بحيث يهدأ فيها الغضب الشديد وتطفى نيران الحقد ويسهل بها لمن يريدون ان يصلحوا بين الفريقين المتشاحنين ان يسعوا بجميع ما يمكنهم فعله من الطرق والوسايط والظاهر ان هذا امر قد اثمر ونشأت عنه نتائج سعيدة جدا الان من حكم بعد هذا الملك اهتم كثيرا بابقاء تلك الهدنة الملوكية والمحافظة عليها .

(سابعا) لما حكم الملك فيليبش لو بيل تعلقت اماله بتضييق عادة الحروب الشخصية اكثر مما كانت عليه فامر سنة ١٢٩٦ بابطال الحروب الشخصية مدة حرب الدولة مع دولة اجنبية وهذا القانون الذى هو امر لازم لحفظ الجمعية لزوما ذاتيا كان يجدده في الغالب خلفاء الملك المذكور ولما كان الملوك يعتمون الغاية بابقاء هذا القانون آل امره الى منع الاشراف منعا كليا عن الحروب الشخصية وبعد ان كان هذا القانون خاصا بمملكة فرانسا عم في اقرب وقت جميع بلاد اوروبا وقبل عندسائر ملوكها

(ثامنا) لما كان هذا الداء قد ازمن وتطاول عهده لم يمكن مداواته

بجميع هذه الادوية وذلك انه بمجرد ما اخذ الناس فى الهدنة والصلح مع بعضهم
المنفرد البارونيون ثانيا فى تجديد الحروب الشخصية واجتهدوا ان يثبتوا
لانفسهم حق اجراء تلك الحروب الشخصية من غير ان يعارضهم فى ذلك احد
وذلك انه بعد موت فيليبش لو بيل تحزب جميع اشراف مملكة فرانسا وطلبوا
ممن حكم بعده ان ينسخ جميع القوانين التى كان احدثها فيليبش لاجل تنقيص
مزايا مرتبة الاشراف ولم ينسوا حق اجراء الحروب الشخصية بل عدوه من
اعظم مزاياهم وطلبوا اباحة هذه الحروب كما كانت اولا ونسخ العوائق
والشروط المفروضة فى قانون هدنة الله وقانون الهدنة الملوكية والامر الذى
صدر من فيليبش لو بيل سنة ١٢٩٦ فكان ولدا الملك فيليبش لو بيل اللذان
حكما بعده على التعاقب يحاولان تارة فى منع بعض اشياء من هؤلاء الاشراف
وتارة كانا يضطران الى التسليم فى بعض اشياء اخرى ثم ان الاوامر الملوكية
التى تكلمنا عليها طويلة جدا فلذلك لم نذكرها هنا بعباراتها الاصلية ولكنها
امور مرغوبة تتشوف النفوس اليها كل التشوف خصوصا وهى مفيدة جدا
لمن يقرأها من الانكليز لانها تفيده فائدة جليلة فى شان تاريخ انكلترة مدة اول
زمن حدثت فيه بعض مشروعات لاجل تضييق دائرة المزايا الملوكية وهذه
المشروعات لم تكن من جهة الاهالى لاجل المدافعة عن حريتهم بل كانت من
جهة الاشراف لاجل توسيع دائرة مزاياهم وازدياد شوكتهم ولا حاجة الى
ان نذكر هنا ما يبرهن على ان الحروب الخصوصية كانت لم تزل باقية مدة
حكم خلفاء الملك فيليبش لو بيل·

(تاسعا) ثم بعد ذلك حدثت واسطة اخرى فى منع الحروب الشخصية تكاد
ان تكون مثل الهدنة الملوكية حتى انها كانت صالحة لان تقوى الهدنة
الملوكية وتوسع دائرة ثمراتها ونتائجها وذلك انه تجدد قانون اوجب على
كل من الفريقين المتشاحنين ان يعطى وثيقة على نفسه انه لا يغدر بصاحبه
ولا يدعوه الى الحرب ابدا او مدة موقتة معينة فى تلك الوثيقة وكانت هذه
الوثيقة تسمى وثيقة الامن فكان كل من ينقض العهد من الاخصام يعاقب

عقابا شديدا وكانت هذه الوثائق تعطى احيانا باختيار الخصمين وفى الاغلب كان القضاة المدنيون يأخذونها منهما قهرا وذلك فى صورة ما اذا كان احد الخصمين يعلم ضعف نفسه فيطلب وثيقة الامن لئلا يتعدى عليه خصمه الاقوى منه فيعرض للقاضى المدنى فى شأن ذلك فيطلب القاضى خصمه الى ديوانه ويكرهه على ان يكتب على نفسه وثيقة امن لخصمه الشاكى فاذا حصل من هذا الخصم القوى بعد ذلك تعد على الشاكى فانه يكون بذلك معرضا نفسه للجزاء المرتب لذنب الخيانة والغدر وهذه الواسطة كانت معلومة فى عصر الملك سنتلويز وكانت موجودة كذلك فى ابريطانيا ومن الغرابة ان هذه الوثائق كانت تكتب ايضا بين الملتزمين وبين اتباعهم وقد اتفق ان اولوردوكليسون كتب وثيقة من هذا القبيل بينه وبين اميره دوق ابريطانيا وكما حصل ذلك فى اقليم ابريطانيا حصل ايضا فى غيره من اقاليم فرانسا كما بين ذلك المؤلف بروسيل بامثلته ثم ان اشراف بورغونيا تشكوا من هذه العادة وبرهنوا على انها مضرة لمزاياهم فحوفوا منها وهذه الوثائق كان اول منشائها فى المدن فلما عرف الاشراف ان ثمراتها طيبة لامن الانسان واطمئنانه بادروا الى قبولها بينهم (راجع المبحث السادس عشر)

(عاشرا) كان ينشأ فى بعض الاحيان عن الحروب الخصوصية مصائب كبيرة بحيث ان الاشراف من تلقاء انفسهم تجمعوا واتفقوا على انه اذا حصل لاحد منهم مشاجرة فى شان عقاراته المدنية او لامر يزرى بشرف عرضه يرجع فى ذلك الى مشورة بقية الجمعية التى هو منها ويعمل بموجب ما يحكم به جمهور اربابها كتاب كرمورديس

(الحادى عشر) حيث ان جميع هذه الوسايط لم ينشأ عنها ما كان يؤمل من الملك كرلوس السادس (سنة ١٤١٣) امر بمنع الحروب الشخصية باى سبب كان ورخص للقضاة المعتادين ان يجبروا كل انسان على اتباع هذا القانون او يعاقبوا جميع من تعداه بالسجن او بضبط امواله واملاكه او بارسال بعض ناس من طرف المحكمة يسمون بالا كالين او القطاعين ليعيشوا فى اراضى

من

من يتعدى هذا القانون اوفى بيته ليتمتعوا بما شاؤا مجانا ولو اذا تعذر القبض على
من تعدى هذا القانون ساغ للقضاة المعتادين ان يقبضوا على احبابه واتباعه
ويضعوهم فى السجن الى ان يلتزموا بالصلح ويأتوا بكفيل يضمنهم فى ذلك ونسخ
الملك ايضا جميع القوانين والعوايد والمزايا المخالفة لهذا الامر الذى
صدر منه

فابطأ تقدم العقل وتنظيم الجمعية حيث بذل الملوك والقسيسون جهدهم
عدة قرون لاجل انشاء هذه القوانين السابقة التى يظهر لنا الآن انها من باب
العدل جارية على مقتضى الطبيعة لا تكلف فيها بل وبعد ذلك كله اضطر لوين
الحادى عشر فى ايام حكمه الى ان امر سنة ١٤٥١ بابطال الحروب
الشخصية من اقليم دوفينه ذكره دوكنج

ولولا خوف الاطناب والتطويل الممل لذكرنا هنا مع التفصيل السابق بجميع
التقدمات التى حصلت لتلك العادة الخشنية فى بقية بلاد اوروبا ولكن نختصر
فنقول انه فى انكلترة كانت قوانين السكسونيين فى الانتقام تقريبا مثل
قوانين امم اوروبا المقيمين بالارض القارة وكذلك قوانينهم فى الحروب
الشخصية والجرائم والغرامات التى تفرض على المتعدى للمتعدى عليه فان
ماشرعه اينه فى القرن الثامن فى شأن الانتقام وما رتبه ايدموند فى القرن
العاشر فى شان القتل والمعاداة وما شرعه ايدوارد لوكونفسور فى القرن
الحادى عشر فى شان الصلح او هدنة الله كلها مشابهة فى الموضوع لما شرعه
ملوك فرانسا مدة تلك العصر بل بعض قوانين ايدوارد كان اصعب من قوانين
ملوك فرانسا وفيها بعض اصول واوامر يستدل بها على ان انكلترة وقتئذ
كانت اكمل من غيرها انتظاما وضبطا وربطا وبعد فتح النورمنديين لانكلترة لم
تكن الحروب الشخصية وقوانينها مجهولة بالكلية كذا يفهم من كتاب انموذج
القوانين الانكليزية للمؤلف مادوكس ومن مختصر كتاب دومسدى وهو كتاب
سرد اراضى انكلترة وعدا اهاليها امر بتأليفه الملك غليوم لوكونكريان اى
صاحب الفتوحات والظاهر ان الانكليز اخذوا من هدنة الله والهدنة الملوكية

حكما شرعيا اشتهر فيما بينهم وهو انه مما يعظم به الذنب على الجانى كونه يتعدى
على انسان فى هدنة الله اوفى الهدنة الملوكية اللتين تكلمنا عليهما فيما سبق
ولكن بعد ان فتح النورمنديون انكلترة قلت فيها الحروب الشخصية اكثر من
غيرها من بلاد اوربا كما يفهم ذلك من تاريخها حتى انه لا يوجد فيها الآن شئ
من تلك القوانين القديمة وسبب هذا التغير العظيم الذى حصل للانكليز
فى اخلاقهم عجيب حيث لم يحصل لغير الانكليز ممن بجوارهم من الملل
فلا يدرى اهو شوكة الملك غليوم النورمندى العجيبة التى كان قد اكتسبها
فى بلاد الانكليز بعد ان تغلب عليها لان هذه الشوكة قد ضبطت تدبير الحاكم
عما كان عليه وقوته وبها ايضا صار اقتدار الملك غليوم النورمندى واسع
الدائرة واقوى من اقتدار سائر ملوك اوربا الاخرين الذين كانوا فى عصره
وبعد موته انتقلت هذه الشوكة الى خلفائه او سبب هذا التغير مجرد استيطان
النورمنديين بتلك المملكة فابطلوا منها عادة الحروب الشخصية لانها لم تكن
معروفة لهم فى بلادهم وقد صرحت بعض اوامر الملك يوحنا ملك فرانسا ان
الحروب الشخصية لم يؤذن بها اصلا فى بلاد النورمندية وما كانت تجوز
لانسان ايا ما كانت رتبته وكان من يتجاسر على فعلها يحكم عليه بجزاء
يناسبه لانه فعل امرا مخالفا للشرائع والاحكام واذا صح ذلك كان دليلا
مؤيدا للوجه الثانى فى سبب تلاشى الحروب الشخصية فى انكلترة ولكن حيث
ان بعض المؤلفين العارفين قد كتب بعض ملحوظات على القوانين والشرائع
القديمة ونبه فيها على ان بعض قوانين پرلمان انكلترة لا يخلو عن غلط فيمكن
ان يقال ان هذا الامر لم يكن موجودا فى القوانين النورمندية وعلى هذا
فما ذكر فى امر ملك فرانسا غير صحيح وليس هنا محل ايراد الخلاف فى هذا
الشأن الذى يرغب فى البحث عنه كل عالم خبير بالاشياء التى كانت قديما بمملكة
انكلترة من شرائع وعوايد وغيرها

ثم ان عادة الحروب الشخصية كانت كثيرة منتشرة جدا فى مملكة قسطيله
بل كانت مأذونة بموجب قوانين تلك المملكة وعوايدها وحيث كان اشراف

قسطيلة

قسطيلة اقوياء الشوكة اولى فتن وتعصبات كانت لا تنقطع بينهم المصادمات والحروب الشخصية حتى ان وطنهم كان مشحونا بالمصائب والاهوال الكبيرة كما برهن على ذلك المؤلف ماريانا بادلة عديدة وكذلك فى مملكة اراغون كانت القوانين تأذن في الانتقام بطريق الحروب الشخصية وكانت هذه الحروب جارية فيها مع غاية الشدة والافراط كما كانت فى غيرها ويوجد الى الآن وثائق تدل على انه كان هناك معاهدة بين ملوك اسبانيا واشرافها على ان لا ينقضوا عهد الصلح وان يستمروا على موجب هدنة الله بل حصل فى (سنة ١١٦٥) ان الملك وارباب ديوانه فى اراغون عقدوا مشورة واتفقوا على ابطال حق الحروب الشخصية وعلى عقاب من يدعى ان هذه الحروب حق ومزية له ولكن كان هذا الداء قد تمكن من قلوب الناس وتشعب الى شعب كثيرة حتى اضطر الايمبراطور شرلكان (سنة ١٥١٩) الى ان رتب قانونا جديدا لاجل احياء القوانين القديمة التى كانت رتبت لدفع عادة تلك الحروب ثم تنوسيت

ثم ان اللومبرديين وغيرهم من ممالك الشمال الذين استوطنوا فى ايطاليا قد اتوا اليها بعادة تلك الحروب الشخصية ونشأ عن هذه العادة فى ايطاليا ما نشأ فى غيرها ولما كثرت هذه الحروب بايطاليا كما كثرت بفرانسا لزم ان يستعمل فى ابطالها من ايطاليا نفس الوسائط التى استعملت فى فرانسا

واما المانيا فقد ترتب فيها على الحروب الشخصية مصائب وتعكيرات اعظم هولا مما حصل فى غيرها من سائر ممالك اوروبا وذلك ان شدة الحروب المدنية التى حصلت بين ايمبراطرة عائلة سوابه وايمبراطرة عائلة فرنكونيا كانت قد اضعفت الشوكة الايمبراطورية كثيرا بحيث ان الاشراف بل واهالى المدن كادوا ان يكونوا مستقلين حتى انهم ابوا ان ينقادوا لشئ من الشرائع والقوانين التى كانت وقتئذ ويفهم من التواريخ الجرمانية ان الحروب الشخصية كانت كثيرة متواترة بين اهالى المانيا وقد بالغت تلك التواريخ فى وصف النتائج الشنيعة المهولة التى نشأت عن الحروب الشخصية فى بلاد المانيا ثم وان كانت هدنة الله التى حصلت اولا فى فرانسا قد بادر اليها ايضا

اهل المانيا الا انها لم تجد شيأ ولم تمكث الا مدة قليلة ولم تزدادت الفتن مع السرعة حتى وصلت الى درجة خيف منها اضمحلال نظام جمعيات المانيا بالكلية فاضطروا الى تعاطي الدواء الذي لا دواء غيره لهذا الداء وهو ان منعت الحروب الشخصية فيها منعا كليا وفي سنة ١٢٥٥ صدر الامر بذلك من الايمبراطور غليوم قبل امر كرلوس السادس ملك فرانسا بمائة وستين سنة ولكن لم يقدر هذا الايمبراطور ولا خلفاؤه على اجراء هذا الامر وحصلت حينئذ في المانيا حادثة تدل على عظم المصائب المهولة التي تنشأت عن الحروب الشخصية وتدل على ضعف ايمبراطرة المانيا مدة القرن الثاني عشر والثالث عشر وهذه الحادثة هي ان اهالي المدن والاشراف عقدوا جمعيات ومعاهدات بينهم وتعاهدوا مع بعضهم على ان يحافظوا على الامن العام وان يقاتلوا كل من تجاسر على خرم نظامه وهذه المعاهدات هي اصل عصبة الرين وعصبة سوابيه وعدة عصب اخرى صغيرة وقد حقق المؤلف ذات اصل تلك الجمعيات وتقدمها والنتائج السعيدة التي ترتبت عليها حيث قال ما حاصله لا يخفى ان الامن العام ونظام الحكومة اللذين مكثا في ايمبراطورية المانيا من ابتداء القرن الثاني عشر الى الخامس عشر كان سببهما تلك الجمعيات السابقة وفي ظرف هذه المدة عظم عدل تدبير المحاكم في المانيا وانتظمت السياسة وصار الناس يحترمون الشرائع والقوانين ولكن ابطال عادة الحروب الشخصية الابطال الكلي لم يتم الا في سنة ١٤٩٥ لان الشوكة الايمبراطورية كانت قد تثبتت وقتئذ وكانت عقول الناس قد تصفت ادراكها وعرفت طرق الحكومة واطاعة المدنيين فبعد ان مكث الاشراق زمنا طويلا عاكفين على تلك الحروب الشخصية وكانوا يعتبرونها حقا لازما لهم رأوها فيما بعد من الامور الشنيعة الخشنية ورأوا انها مخالفة لسعادة الناس ومؤدية لاضلال نظام جمعيتهم ولاجل قطع عرق المنازعات التي كان يمكن حصولها بين اهالي الجمعية الجرمانية جعل للديوان الملوكي الحجاء ما نفذ في جميع امور الايمبراطورية فصار هذا الديوان يحكم بما شاء من غير

معارض فى جميع الدعاوى التى تقدم له ومن ذلك الوقت ترتبت فى المانيا محكمة محترمة جدا لم تنفك عن الجمعية الجرمانية من ذلك الوقت وهى الى الآن موجودة بها ومعدودة من الفروع المهمة اللازمة لنظامها وترتيبها ذكر ذلك المؤلف دات والمؤلف بفيفيل

البحث الثانى والعشرون

فى بيان مطلب الوسايط المختلفة التى ابدوها لابطال هذه الطريقة بصحيفة (٦٠) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

لانذكر هنا جميع الطرق التى كان يسلكها الناس فى طلب الانصاف بحكم الله وكانت ناشئة عن جهل هذه الاعصر لان ذكرها تفصيلا يؤدينا الى التطويل الممل وانما نذكر منها طريقة واحدة لانها هى الموجودة الموضحة فى صورة دعوى عملت بحضرة الايمبراطور كرلوس مانوس وهذه الطريقة تكفى فى ان تبين لنا ان تدبير القضايا والاحكام الشرعية كان ناقصا جدا فى تلك الاعصر بل وفى زمن هذا الايمبراطور العظيم وذلك انه سنة ٧٧٥ حصلت منازعة بين اسقف مدينة باريس وبين القديس دنيس فى شان دير صغير يدعى كل من الخصمين انه ملكه واتى كل منهما بوثائقه والقبابه التى تشهد له وتثبت دعواه فعوضا عن ان ينظر فى وثائق كل منهما ويبحث عن تحقيق مضمونها احيلت دعواهما الى طريقة يقال لها حكم الصليب فقدم كل من المتخاصمين انسانا نائبا عنه ليقف هذان النائبان مدة الصلاة امام الصليب الذى فى محراب الكنيسة واذرعتهما ممدودة فكل من تعب منهما اولا وترك الهيئة التى كان عليها اضاع حقه فاتفق ان نائب الاسقف كان ضعيفا عن نائب القديس دنيس فثبت الحق للقديس المذكور كما ذكره مايلون فاذا كان مثل هذا الايمبراطور مع معارفه ونباهته يقر هذا الحكم المخالف للعقل فلا عجب ان غيره من ملوك ذلك العصر قد مكثوا ازمنا طويلا راضين بتلك العادة

ثم ان المؤلف مونتسكيو قد تكلم فى كتابه المسمى روح الشرائع على المقاتلة

او المحاربة الشرعية وشرحها شرحا كافيا واودع فى مطولاته التى ذكرها فى هذا الشأن صفتيه المميزتين له من بين مشاهير المؤلفين وهما الفيضة فى البحث على وجه الصحة عن جميع احوال القوانين القديمة والحوادث التى قل من يعرفها وذكاء عقله وكمال قريحته فى ادراك اسباب تلك الاحوال واصولها التى هى مؤسسة عليها فلذلك احلنا من يقرأ كتابنا هذا على كتاب هذا المؤلف الشهير ليستوفى منه ما يلزم فى تلك المواد لان من نظر فى كتابه وجد اغلب الاصول والقواعد التى بنيت عليها فى توضيح تلك المسألة ويظهر من تنبيهات المؤلف موتسكيو والوقائع التى ذكرها المؤلف مورماطوري ان عادة طلب حكم الله بواسطة اختبار الانسان بالنار او الماء وما اشبه ذلك كانت معروفة عند الامم الذين استوطنوا فى اقاليم الايمبراطورية الرومانية وكانت جارية عندهم قبل استعمال المحاربة الشرعية ولكن فى زمن استيلاء الملل المتبربرين فى الايمبراطورية اول مرة كانت المحاربة الشرعية عندهم اقدم الطرق التى كانوا يسلكونها فى انهاء المنازعات التى تحصل بينهم وقد ذكر المؤلف وليوس باتركولوس لذلك برهانا واضحا فقال ان جميع الدعاوى التى كان يلزم رفعها للشرع عند الرومانيين كانت تقضى بطريق الحرب عند الجرمانيين ومثل ذلك يوجد ايضا فى انموذج قوانين قدماء اهل اسوج وعوايدهم للمؤلف سترنوهولك ثم مما يمكن صحته ان الملل المتبربرين الذين تغلبوا على الايمبراطورية الرومانية لما تمسكوا بدين النصرانية ابطلوا المحاربات الشرعية مدة لما انها كانت مخالفة للدين الذى تمسكوا به ولكن اضطروا فيما بعد بالتدريج الى تجديد هذه العادة ثانيا بسبب عدة مقتضيات قد ذكرناها فيما تقدم ١٢٠

ويظهر ايضا من القانون الذى ذكره المؤلف سترنوهولك ان المحاربات الشرعية كانت سابقا مباحة مأذونا بها فى صورة ما اذا كانت الدعوى التى بين الخصمين قدفا يدنس العرض ثم توسع فيها بالتدريج حتى صارت جائزة فى جميع الجنايات ودعاوى العقارات وها النص عبارة القانون المتعلق

بهذه الشيلك اذا سب انسان آخر او قذفه كأن قال له انت لست رجلا كبقية الرجال او ليس فيك عزم الرجال فاجابه الآخر بقوله انا رجل مثلك لزمهما ان يتبارزا في الثلاثة فاذا حضر المتعدى في محل الوعد وغاب المتعدّى عليه اكسبه ذلك تدنيسا اكثر مما لحقه من السبة التي دعته الى ميدان الحرب مع خصمه فلا تقبل له شهادة سواء كانت في حق رجل او امرأة ولا يجوز له ان يوصي بشيء من اموالهو واما اذا حضر المتعدى عليه وغاب المتعدى نادى الحاضر الغائب ثلاث مرات باعلا صوته ويرسم علامة في الارض فبذلك يلحق الغائب عار وخزى عظيم في نظير كونه تفوه بكلمات لاقدرة له عليها والا برز كل منهما مستكملا لما يلزم من ادوات الاسلحة وقتل المتعدى عليه في النزال لزم المتعدى نصف ديته واما اذا قتل المتعدى فهذا جزاؤه في نظير وقاحته التي افضت به الى ذلك فيبقى مطروحا في الميدان ولا تطلب له دية انتهى ذكره ستربو هو لئ ثم ان هؤلاء الامم الحربيين كانوا يتأثرون الغاية مما يدنس عرضهم في الشجاعة والعسكرية ففي قوانين امة السليان اذا قال انسان لآخر انت ارنب اى جبان او اتهمه بانه قد ترك ترسه في ميدان الحرب لزمه في نظير ذلك غرامة كبيرة وفي قوانين اللومبرديين اذا قال انسان لآخر انت اركا اى لا تنفع في شيء جاز لمن خوطب بهذا اللفظ ان يدعو من خاطبه به الى القتال وفي قوانين السليان ايضا اذا قال انسان لآخر انت سنيتوس (كلمة توبيخ تقرب في المعنى من لفظ اركا) لزمه دفع غرامة كبيرة جدا وقد وصف المؤلف بولص دياكرو الغضب المهول الذى حل بانسان من ابناء بلده عند سبه بهذا اللفظ المدنس وذكر ما نشأ عن سبه بهذا اللفظ من الاشياء الشنيعة فيعلم من ذلك ان المحافظة على شرف العرض التي نعتبرها الآن من جملة محاسن التمدن الجديد وان عادة الحروب الشخصية التي هي نتيجة ذلك كانتا من عوايد قدماء الافرنج في تلك الازمان الخالية التي كان المتقدمون فيها قليلى التأنس والتمدن

ولكن حيث ان مقصد المؤلف مونتسكيو في هذا الشان لم يوصله الى البحث

على وجه التفصيل عن جميع الاحوال التى تقتضى المحاربات الشرعية نذكر لك هنا بعض وقائع خصوصية لازمة لتوضيح ماذكرنا فى هذا الفرض ونمثل لك ذلك بمسئلة فقهية مشكلة قد حكم فيها بالمحاربة الشرعية وهى انه حصلت منازعة فى القرن العاشر فى شأن ميراث لان الحقوق الميراثية وقتئذ كانت غير معلومة فى اوروبا وان كانت الآن معلومة فيها عند الخاص والعام فقال بعض المؤرخين كان من المشكل معرفة هذه المسئلة وهى هل اولاد الابن كاولاد الصلب بحيث يرثون كاعمامهم سوآء بسواء فى صورة ما اذا مات ابوهم وكان جدهم موجودا فعقدت مشورة لحل هذه المسئلة والمحط رأى الجمهور فيها على تفويض هذا الامر للقاضى ولكن استحسن الامبراطور غير ذلك فامر أن يحكم فى هذه المسئلة بالمحاربة بين شخصين نائبين عن كل من الفريقين فاتفق ان الشخص الذى كان يحارب نيابة عن اولاد الميت انتصر على صاحبه فحكم من وقتئذ ان الاولاد يقاسمون اعمامهم فى التركة انتهى ذكره المؤلف ويتيكند كوربان

واذا امكن ان يقال ان الحماقة والشهوات النفسانية تؤدى بالانسان الى ان يقوم بنفسه تصورات جنونية اكثر من الحكم فى مثل هذه المسئلة الفقهية بالمحاربة الشرعية قلنا اكثر من ذلك فى الجنون والحماقة ما وقع من اختبار آرآء مختلفة فى الدين بالمحاربة الشرعية ليعلم صحيح هذه الارآء من فاسدها فمن امثلة هذا الجنون الذى يصاب به عقل العقول البشرية انه اتفق فى القرن الحادى عشر ان حصلت منازعة بمملكة اسبانيا فى شأن مذهبين دينيين فاختلفت الارآء فى معرفة الاحسن منهما عند الله تعالى هل هو المذهب الموزرابيكى الذى كان معمولا به فى كنائس اسبانيا او المذهب الذى كان يستحسنه البابات وكان مخالفا للاول من بعض الوجوه فصار اهل اسبانيا يحامون مع الغيرة عن مذهبهم الذى نقلوه عن آبائهم واجدادهم وصار البابات يشددون عليهم فى قبول مذهبهم الذى كانوا يستحسنونه ووضعوا عليه امضاءهم الذى لا ينتقض

ولا يوضع

ولايوضع الاعلى كل مصون عن الخطأ والزلل فنشأ عن ذلك منازعة كبيرة فحكم الاشراف بان الاحسن فى هذا الامر انهاؤه بالمحاربة الشرعية واستحسن الملك رأيهم وخرج من كل فريق محارب شاكى السلاح وبرز المحاربان لبعضهما فى الميدان فاتفق ان المحارب الذى كان يحامى عن المذهب الموزرابيكى ظفر بالنصرة على صاحبه ولكن كان كل من الملكة ومطران توليده يميل الى مذهب البابات فاشارا بان يكون اختبار صحة هذين المذهبين وبطلانهما بطريق اخر غير طريق الحرب لامدخلية لاحد فيه سوى الله تعالى ولا يمكن فيما بعد مراجعته ولا التخلف عما يبينه وكان لهما شوكة ونفوذ كلمة بحيث امضيا امرهما وهذا الطريق هو ان اشعلوا نارا كبيرة ورموا فيها كتابا من كل مذهب واتفقوا على ان الكتاب الذى يحترمه اللهب ولا تأكله النار يصير معمولا به فى جميع كنائس اسبانيا فحمى الله المذهب الموزرابيكى وقال المؤلف رودريكيز دوتوليده انه لم يحصل لكتاب هذا المذهب ادنى خلل من النار بخلاف كتاب مذهب البابات فانه صار رمادا ولكن كل من الملكة والمطران ما ولا بشوكتهما او بتحيلهما فى هذا الحكم بحيث لم يؤذن فى العمل بالمذهب الموزرابيكى الا ببعض كنائس قليلة وهذا الحكم خارق للعادة كغيره من الاحكام التى سبقت فى هذا الشان (راجع تاريخ تقلبات اسبانيا للمؤلف رودريكيز دوتوليده)

ويوجد فى شرائع اللومبرديين واقعة شهيرة تدل على ان اختبار الاشياء بطريق الحرب كان شائعا عند جميع الناس بل كانوا يميلون اليه كثيرا وكانت عادة الناس فى تلك الاعصر المتبربرة الخشنية ان كل انسان مخير بالنظر للشرائع ولكن اذا اختار شريعة وجب عليه اتباع ماتوجبه هذه الشريعة ولا يلزمه ان يعمل بشئ مما تأذن به شريعة اخرى فكان من يتبع شريعة الرومانيين مثلا ويعمل بالاحكام الفقهية القديمة على حسب ما يلايم جهالة تلك الاعصر لايجب عليه مراعاة شئ من الاقضية والاحكام المرتبة فى شرائع البرغونيين واللومبرديين وغيرهم من الملل المتبربرين ولكن نرم الايمبراطور

اونون هذه القاعدة العمومية بامر صدر منه وهو ان كل انسان مهما كانت شريعته المتمسك بها ولو كان متمسكا بشريعة الرومانيين يجب عليه العمل بمقتضى الاوامر الملوكية الصادرة لخصوص الحكم بطريق المحاربة انتهى

ومادامت العادة جارية بالمحاربة الشرعية كانت الادلة الثابتة بالوثائق والحجج والشرائع وغير ذلك باطلة لا يعمل بها بل كانوا يحاولون فى الشهادات التى كانت معمولا بها فى الاقضية الشرعية التى تقام فى المحاكم فكان اذا قدم احد الخصمين وثيقة او ذكر لقبا يثبت به حقه يجوز لخصمه ان يرفض هذه الوثيقة ويبرهن على انها باطلة لا اصل لها او يطلب بيان صحتها بطريق المحاربة الشرعية نعم ذكر المؤلف بومنوار بعض صور كان يجوز للقاضى فيها ان يأبى انهاء الدعوى بطريق المحاربة الشرعية منها هذه الصورة وهى ان الدعوى ان امكن اثباتها ثبوتا يقينا بوجه آخر فلا حاجة الى المحاربة الشرعية انتهى ولكن مثل هذه الصورة لم يكن ينشأ عنها ابعاد الضرر الا من جهة واحدة وذلك لان الخصم المدعى عليه كان اذا وقع فى قلبه ريب ممن شهد عليه يسوغ له ان يتهمه بانه اخذ الرشوة و ينكر عليه شهادته ويدعوه الى الحرب فاذا اتفق انه ظفر على الشاهد فلا يجوز قبول شهادة اخرى واما الخصم المشهود له فيضيع حقه ذكره بومنوار وسبب كون الشاهد يجبر على اجابة الخصم المشهود عليه الى الحرب جديرا بالالتفات اليه لانه من قبيل المحافظة على شرف العرض وهو كما نصت عليه الشريعة اذا كان الانسان جازما بانه يعرف الشئ على حقيقته كما ينبغى ولا ينكل عن يمين فى شأنه فلا ينبغى له ان يخشى من اثبات ما هو جازم به بطريق الحرب انتهى

ومن المعلوم ان اختبار الدعاوى بطريق المحاربة الشرعية كان مقبولا فى جميع بلاد اوروبا وكانت العادة جارية بذلك على سبيل التواتر والكثرة كما يشاهد ذلك فى كتب الشرائع القديمة التى كانت تأذن به وفى كتب المؤلفين الاولين الذين كتبوا فى شان شرائع ذلك العصر التى كانت جارية فيه عند ملل

اوروبا على اختلافهم فان هؤلاء المؤلفين قد اطالوا فى شرح هذه العادة وذكروا قوانينها واصولها تفصيلا من غير ان يفوتهم منها ادنى شئ واهتموا بتوضيح معانيها وحل رموزها اهتماما زائدا لان هذا الامر كان مهما ومعتبرا جدا فى شرائع ذلك العصر ولا يوجد فى دستور الشرائع امر آخر التفت اليه المؤلف بومنوار والمؤلف بطرس دوفنتين وغيرهما من جمع ما انحط عليه الرأى فى المشورات القسيسية التى عقدت ببيت المقدس واعتنوا به اكثر من هذا الامر المذكور واثبت ذلك ايضا اقدم المؤلفين الاجانب فذكر مادوكس ما يفيد ان اختبار الدعوى بطريق الحرب كانت العادة جارية به كثيرا فى انكلترة بحيث ان الجرائم والغرامات التى كانت تجبى من ذلك كانت فرعا عظيما من ايرادات الملك وقد ذكر المؤلف موريس وصفاغر يبا جد المحاربة شرعية حصلت بحضرة دوق اربطانيا (سنة ١٣٨٥) بين روبرتد وبومنوار وبطرس دوتورنومين وجميع القوانين والرسوم التى كانت تلاحظ مع هذه العادة الغريبة ذكرها هذا المؤلف بطريق اوضح مما ذكر فى جميع ما راجعته من الكتب والمؤلفات القديمة وصورة هذه المحاربة التى حصلت امام الدوق المذكور هى ان بومنوار اتهم تورنومين بانه قتل اخاه فبارزا بعضهما وهزم الاول اى بومنوار الثانى فثبت على تورنومين القتل وحكم عليه شرعا بالشنق فى الميدان ولكن من كرم خصمه بومنوار اسقط حقه وعفا عنه وفى تاريخ باويه للمؤلف برناردو توضيح جيد مبين لمنشاء الشرائع والقوانين المرتبة للمحاربة الشرعية

ثم ان المحاربة الشرعية كانت مستحسنة عند الناس حتى ان القسيسين مع منع الدين عن هذه العادة اضطروا الى اباحتها بل والى تعضيدها وتأييدها كما مثل ذلك المؤلف بسكير فى كتابه المسمى بالابحاث اليقينية فى المملكة الفرنساوية بمثال جدير بالالتفات اليه وكان القسيس ويتيكند كوربان الذى نقلنا عنه فى هذا المبحث العبارة المتعلقة بالارث يعتبر ان انهاء مسئلة [illegible] بطريق المحاربة الشرعية هو احسن واشرف واسطة فى انهاء الاحكام وحصل

(فى سنة ٩٧٨) بمحاربة شرعية بحضرة الايمبراطور هنرى وذلك انه وقعت منازعة فى دعوى بين اثنين من اشراف دوانه فاشاروا عليه المطران ألديبرت بانه يحكم فى دعواهما بطريق المحاربة الشرعية فقبل الايمبراطور ذلك من المطران وامرهما بالمبارزة لبعضهما ومن انهزم من الاثنين ضرب عنقه فى الميدان ذكره بوكيت فى كتابه زبدة التواريخ وكان يحكم كذلك بطريق الحرب فى شأن الدعاوى المتعلقة بملك الكنائس والديورمن ذلك المنازعة التى حصلت (سنة ٩٦١) فى شأن كنيسة سنت ميدار هل تنسب للراهب بوليو ام لا فحكم بان هذه المسئلة لا يحكم فيها الا بطريق المحاربة الشرعية وقد اعلن الايمبراطور هنرى الاول اان قانونه الذى رتبه فى الترخيص بالعمل بالمحاربة الشرعية كان عن رضاء عدة من ثقلة الاساقفة المؤتمنين فانظر كيف كان الناس متولعين بالحروب وقتئذ وكان حكم الحرب مغلبا على حكم الشرائع القانونية وعلى احكام القسيسين واوامرهم (وفى سنة ١٥٢٢) اذن الايمبراطور شرلكان بمحاربة شرعية فى اسبانيا فبرز الخصمان فى الميدان بحضرته وكانت المحاربة بينهما على حسب الرسوم القديمة المرتبة فى شرائع امارة الشوالرية وقد ذكر المؤلف بونتوس هوورورس جميع ذلك موضحا اتم توضيح

وآخر واقعة حصلت فى فرانسا من المحاربات الشرعية هى المحاربة الشهيرة التى حصلت (سنة ١٥٤٧) بين جرنالئو كستينرم (وفى سنة ١٥٧١) اذن فى انكلتره بمحاربة شرعية ووكل بملاحظتها قضاة محكمة المخاصمات العمومية ولكن لم يشدد فيها كالمحاربة الاخيرة التى حصلت فى فرانسا لان الملكة ايليزابيطه توسطت فيها بصولتها وامرت الخصمين ان يتمما تلك المحاربة على وجه مستحسن ولكن المحاربان لاجل شرف عرضهما بارزا لبعضهما وفعلا فى الميدان بجميع الرسوم الاولية التى كانت جارية بها العادة فى المحاربات الشرعية ذكره سيلان وفى (سنة ١٦٣١) اذن كذلك فى انكلتره بمحاربة شرعية توكل بملاحظتها كل من قائد جيوش انكلتره ومارشالها

الاكبر

الا كبر وكانت هذه المحاربة بين دونلد لوردري وداود رمسي ولكن تمت هذه المحاربة ايضا من غير سفك دم بين الخصمين لانه توسط فيها الملك كرلوس الاول وفيما بعد بسبع سنوات حصل ايضا في انكلترة محاربة شرعية اخرى

المبحث الثالث والعشرون

في شرح قولنا فلما صار تدبير الاقضية والاحكام ناشئا عن اصل واحد الى آخره بصحيفة (٦٧) من مطلب الوسايط التي صنعت لاجل تحديد قوانين الاشراف بصحيفة (٦٥) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

قد ذكرنا في اتحاف الملوك الالبا الوقائع الكبيرة المهمة التي تدل على تقدم شوكة القضاة سابقا عند ملل اوربا وعلى تقدم افتائهم واحكامهم عمومية كانت او خصوصية ولكن حيث ان هذا امر مهم يرغب فيه رأيناه جديرا بان نفصل في شرحه زيادة عما ذكرناه في الاتحاف ونبين الطريق التي سلكتها العقول البشرية في هذا الشان الذي هو فرع من الفنون السياسية فنقول ان دفع الغرامة لمكافأة الشخص المتعدى عليه او العائلة المتعدى عليها كان اول واسطة اخترعها الامم الخشنيون في اطفاء نار الحقد الشخصي الذي كان يقوم بانفس الناس للانتقام والاخذ بالثار وكان ينتقل من جيل الى جيل ولا تخمد نيرانه الا بسفك الدم واذا تأملت عادة دفع هذه الغرامة رأيتها قديمة تصل الى عصر قدماء الجرمانيين وكانت موجودة ايضا عند ملل آخرين غير الجرمانيين خشنيين مثلهم وكثيرا ما ذكرت شواهد ذلك في التواريخ ثم ان هذه الغرامات كانت تفرض وتقبض بثلاث طرق مختلفة الطريقة الاولى كانت الغرامات اولا تعين باتفاق اختياري بين الفريقين المتشاحنين وذلك ان الفريقين لما كانت تخمد نار غضبهما الاول كانا يدركان المضار التي تنشأ لهما عن استمرار حقدهما البعض فيتصالحان على غرامة تعطى للمتعدى عليه ويفهم من ذلك ان هذه الغرامة كانت عن تراضيهما كما في روح الشرائع ويؤخذ من

بعض الشرائع القديمة انه بعد ترتيب القوانين لم تزل الاشياء على هذه الحالة الاولية ثم كان يحصل فى بعض الاحيان ان الانسان اذا تعدى على آخر يصير عرضة لغضب من تعدى عليه الى ان يمكنه ان يتصالح معه ويسكن غضبه بطريق الاستعطاف * الطريقة الثانية فى تعيين هذه الغرامات هو ان الامر كان يفوض فيها الرأى حكم يقام بين الخصمين لان الحكم من شأنه ان يكون خلى اغراض دون الخصمين ولانه اعدل منهما فى تعيين المكافأة اللازمة ويعسر علينا ان نبرهن بادلة صحيحة على تلك العادة لانها كانت قبل زمن التآليف التى وجدت عند ملل اوربا فى شأن الاعصر القديمة ولكن يوجد فى القوانين التى جمعت فى القرن السادس قانون فيه اشارة الى مصالحة وقعت بين خصمين بموجب توسط حكم بينهما لا بموجب حكم قاض كما ذكره بوكيت فى زبدة التواريخ ولما كان يلزم ان يكون فى الحكم شوكة لاجل تنفيذ احكامه ترتب من وقتئذ قضاة مخصوصة لهذا الشان وصار لهم شوكة كافية فى ان يجبروا الخصمين على اتباع احكامهم وقبل هؤلاء القضاة كانت الجرائم فى هذا المعنى لا تجدى شيأ ولا تؤثر فى الداء الشنيع الذى كان متمكنا من قلوب الناس وهو داء الحقد الشخصى ولكن بمجرد ترتيب القضاة صار القاضى منهم يجعل نفسه قائما مقام المتعدى عليه ويعين الغرامة التى تجب على المتعدى للمتعدى عليه وصارت جميع المظالم والجنايات التى يمكن وقوعها بين الناس مبينة الاحكام والعقوبات وصارت جريمة كل ذنب ومظلمة محددة على حدتها مع غاية التدقيق بحيث ان هذا التدقيق كان يؤدى فى بعض الاحيان الى احكام دقيقة جدا لا تنشأ الا عن كل قريحة غريبة وفى بعض آخر كان يؤدى الى احكام جنونية لا يقبلها عقل ولا يقرها ذوق سليم وزيادة على الغرامة التى كانت تدفع للمتعدى عليه كان يدفع المتعدى للامراء او للدولة نوعا من الجريمة يسمى فردة كذا قال المؤلف تاسيت وفى قوانين الامم المتبربرين ان هذه الفردة كانت لبيت المال وقد قابل بعض المؤلفين بين سياسة عصرنا هذا الدقيقة

وما انحط رأيهم عليه فى شأن تلك الاعصر القديمة فتبين لهم من هذه المقابلة
ان هذه الفردة كانت تفرض للجمعية على المتعدى فى نظير كونه ارتكب امرا
يخل بالامن العام والظاهر ان هذه الفردة هى المحصول الذى يأخذه القضاة
فى نظير حمايتهم للمتعدى واطفاء نيران غيظ المتعدى عليه ثم انه بانشاء
هذا القانون حصل للناس تقدم عظيم فى تحسين قوانين العقوبات والجنايات
وفى بعض كتب الشرائع القديمة جدالا يوجد لهذه الفردة ذكر اوذكرت نادرا
بحيث يفهم ان العادة لم تكن جارية بها الا قليلا واما الشرائع الاخيرة
فان هذه الفردة فيها مطلوبة ومؤكدة كالجريمة التى تعطى للمتعدى عليه
سواء بسواء وكانت فى الاحوال المعتادة فى الدعاوى على الثلث من الجريمة
المذكورة واما فى الاحوال الصعبة التى كان يعسر فيها محاماة الشخص
المتعدى والمدافعة عنه فكانت تزيد على ذلك بحسب ذنب الانسان المتعدى
وكانت هذه الفردة فرعا جسيما من ايرادات البارونيين والملتزمين لان جميع
الاراضى التى كان فيها القضاء البارونى كان لا يجوز للقضاة الملوكية
ان يطلبوا منها شيأ من الفرد
ثم ان ما فسرنا به لفظ الفردة قد وافقنا فى معظمه رأى المؤلف موتسكيو
وان كنا نعلم ان عدة من العلماء قد فسروا هذا اللفظ بغير ذلك وكان اعظم
مقصد للقضاة فى هذا الشان هو انهم كانوا يجبرون احد الخصمين على المكافأة
التى يوجبها عليه الشرع ويكرهون الآخر على قبولها فرتبوا لاجل ذلك
قوانين عديدة وصاروا يهددون بالعقاب الشديد جميع من تعدى تلك القوانين
وكان يجب على كل من يأخذ جريمة ان يقطع من حين اخذها جميع اسباب
العداوة والبغضاء بينه وبين خصمه الذى كان تعدى عليه ولاجل تأكيد ذلك
كانوا يلزمونه ان يحلف أن لا ينقض ميثاق الصلح بينه وبين خصمه ولا يتعرض
بطلب شئ فيما بعد ولتأييد ذلك وتأكيد صفاء باطنهم كان يجب على المتعدى
عليه ان يعطى لخصمه الذى دفع له الجريمة وثيقة أمن يطمئن بها من كل
ما يطالب به بعد ذلك فى هذا الشان وذكر المؤلف ماركولف وغيره ممن جمعوا

الوثائق والقوانين القديمة عدة من قبيل هذه الوثائق * ومما يشبهها شبها كليا الوثائق المعروفة فى قوانين ايقوسيا بوثائق سلان فانها كانت تؤخذ على ورثة المقتول واقاربه بعد اخذ جريمة من القاتل انهم قد عفوا عمن سفك دم قريبهم وانهم لا يرجعون ابدا الى البغضاء والعداوة بل يتركون ما كانوا عازمين عليه من الغدر والانتقام من القاتل او من ذريته فى نظير قتله لقريبهم و يعفون عنه من كل فعل وجزاء مدنى اوقصاصى يجرى عليه او على امواله حالا اواستقبالا وعلى حسب وثائق سلان القديمة كان الفريق المتعدى عليه يصفح بالكلية عمن ضره بظلمة او سيئة بل كان يعفو عنه ايضا فى صورة ما اذا وقع فى حقه كبيرة من الكبائر وقد قابل المؤلف دلاس هذه العادة باصول عصره فرآها من التعدى على الحقوق الملوكية اذ لا حق فى العفو عن الكبائر الا للملك ولكن فى تلك الاعصر المتبربرة كان الامر بيد المتعدى عليه فكان له ان يتتبع من ظلمه او يعاقبه او يعفو عنه وقد ذكر المؤلف مادوكس وثيقتين احداهما تحررت فى حكم الملك ايدوارد الاول والاخرى فى حكم الملك ايدوارد الثالث و يستفاد منهما انه كان يجوز لاحاد الناس ان يعفوا عن كل فعل سيء كخيانة وسرقة وقتل وغير ذلك ولكن يظهر من الوثيقة الاخيرة ان الناس كانوا يراعون فى هذا الشان حقوق الملك لان من كان يعفو غير الملك كان يقول فى صيغته قد عفونا فيما يخصنا بل بعد ان ترتب القضاة المدنية وتقووا وتداخلوا بشوكتهم فى عقاب المذنبين من اصحاب الكبائر مكثوا زمنا طويلا والعقاب الذى كانوا يحكمون به يعتبر كانه مكافاة لتسكين غضب الفريق المظلوم المتعدى عليه و يوجد فى بلاد العجم الى الآن انه اذا قتل انسان آخر يسلم فيه لاقارب القتيل ليقتلوه بايديهم واذا عرضت لهم الدية ولم يقبلوها وطلبوا ان يقتلوا قاتل قريبهم لا يمكن للملك ولو كان مطلق التصرف فى تلك البلاد ان يعفو عن القاتل كما فى رحلة كاردين ورحلة تاو يرنين وهذه العادة موجودة ايضا عند العرب مع انهم من اعظم الامم المشرقية التى كانت قد ترقت وتقدمت

فى التمدن والتأنس كما فى كتاب تخطيط بلاد العرب للمؤلف نيبوهر وكان يوجد فى مملكة اراغون سنة ١٥٦٤ قانون لا يأذن لاحد فى صورة القتل بالتوسط فى تخفيف العقاب الا اذا كان ذلك عن رضا اقارب القتيل اوورثته

فاذا تعهد انسان كما ذكرنا بان يكظم غيظه ويطفئ نار حقده ولا يتعرض ابدا لمن تعدى عليه ثم حدث منه فيما بعد اظهار معاداة او تعدى على من كان دفع له جريمة لاجل تسكينه او تعدى على اقاربه اوورثته كان يأثم بذلك اثما كبيرا ويعاقب باشد العقاب لان ذلك كان يعد عصيانا كبيرا وخروجا عن طاعة الملك فلزم عقاب من تجاسر على فعله بكل تشديد اذن به الشرع ليكون ذلك زجرا لغيره فبذلك صار الناس لا يتتبعون مع الدوام من تعدى عليهم ولا يحقدون عليه وترتبت غرامات شرعية لكل ذنب بحسبه وتجدد الصلح والتوافق بين الناس بملاحظة الملوك ولا يخفى انه فى وقت استيطان الملل المتبربرين باقاليم الامبراطورية الرومانية كان لهم قضاة يحكمون بينهم بقدرة جبرية فعالة حيث كان يجوز لهم جبر من شاؤا على قبول ما يستحسنونه ويفهم من كلام المؤرخين الاقدمين فى مؤلفاتهم انه كان يوجد فى الازمان الاولى قضاة اولو قدرة جبرية مثل هؤلاء القضاة كما ذكره دوكنج فى الاحكام الارضية التى كان يزعمها البارونيون الملتزمون لم يكن محض تعد منهم لان القادرين من رؤساء الملل المتبربرين بعد دخولهم فى البلاد التى فتحوها جعلوا بعض اخطاط منها عقارات لهم وتملكوها ملكا مطلقا وجعلوا لانفسهم عليها حق الحكم والافتاء الارضى وصاروا من وقتئذ يجرونه فى اراضيهم وكان افتاؤهم مطلقا يتصرفون به فى جميع الاحوال وقد ذكر المؤلف بوكيت ادلة ذلك موضحة والظاهر ان كل بارون صاحب التزام كان فى الاصل له الحق فى ان يحكم بين اتباعه فى مشاجراتهم وكان ذلك حقا ثابتا له اذ هو الملتزم وصاحب الارض واذا تأملنا فى دفاتر هؤلاء الملل واستنتجنا منها افادة صحيحة نرى ان الالتزام والافتاء كانا متلازمين كالشئ الواحد لا يوجد

احدهما بدونها الآخر حتى كان الانسان ملتزما كان له حق الافتاء وقد اطلعت على وثيقة من الوثائق القديمة اعطاها المرتبة الاربيك الملك لويزلود بيونير (سنة ٨١٤) تفيد بطريق النص والصراحة ثبوت حق الافتاء الارضى لهؤلاء الناس وهنالك عدة وثائق اقدم من هذه اعطاها الملك للكنائس والديور وتثبت لها مثل هذا الافتاء المتقدم حيث منعت جميع القضاة الملوكية ان يدخلوا فى اراضى هذه الكنائس والديور ويجروا فيها شيأ من الاقضية والاحكام الشرعية ذكره بوكيت وقد ذكر ايضا المؤلف مورا طورى عدة وثائق قديمة جدا مشتملة على مثل هذه المزايا المرتبة اللاييك وللكنائس والديور وفى اغلب هذه الوثائق كان يشدد فى منع طلب الفردة بالمعنى المتقدم وهذا يدل على ان تلك الفرد كانت فرعا جسيما من الايرادات العمومية اى ايرادات المملكة فكان اذا اقيم على انسان دعوى بتلك المحاكم يصرف فى قضائها مبلغا جسيما بحيث كان هذا الامر بمفرده يكفى فى صد الناس عن انهاء منازعاتهم اواقامة دعاويهم بموجب الاحكام الشرعية ويظهر من بعض وثائق القرن الثالث عشر ان الملتزم الذى كان له حق الحكم فى الدعوى كانت الفردة التى يأخذها فى ذلك خمس قيمة الشئ الذى هو موضوع المنازعة بين الخصمين فاذا رضى الخصمان بعد الشروع فى عمل دعواهما ان يتصالحا ويقيما حكما يحكم بينهما فلا ينقذهما ذلك من دفع خمس قيمة الشئ المتنازع فيه للمحكمة التى فتحت بها تلك الدعوى وهنالك قانون يشبه ذلك فى وثيقة الحرية التى اعطيت لمدينة فريبورغ (سنة ١١٢٠) وبموجب هذه الوثيقة كان اذا تشاجر اثنان من اهل تلك المدينة ورفع احدهما شكواه الى ملتزمه او الى محكمة ملتزمه وافتتحت دعواهما ثم تصالح الشاكى مع خصمه جاز للقاضى ان لا يقبل هذا الصلح وان يجبرهما على تتميم دعواهما وكان كل من حضر صلحهما يحرم من انعام الملتزم المتولى امره .

ويتعذر علينا الآن ان نحدد على وجه الصحة اتساع دائرة الافتاء الذى كان يتمتع به الملتزمون فى الاصل وانما نقول انه فى مدة الفتن والتقلبات التى حصلت

فى جميع ممالك اوروبا عرف بكاد اتباع الملوك ان يختلسوا من ملوكهم جميع ما يكفيهم فى ان يوسعوا دائرة اكتتابهم بقدر ما يمكنهم لان هؤلاء الملوك كانوا ضعفاء الشوكة فى تلك المدة فصار الملتزمون الاقوياء من القرن العاشر باختلاسهم هذا لهم الحق فى ان يحكموا فى جميع الدعاوى سواء كانت جنايات اوغيرها وجعلوا انفسهم متصرفين فى الاحكام والاقضية الحقيرة والجليلة فى المحاكم الدنيا والعليا فكانت احكامهم بتية لا يجوز الرجوع فيها الى محكمة اخرى كما يدل لذلك عدة شواهد معتبرة ذكرها المؤلف بروسيل ولم يقتصر البارونيون على ذلك بل جعلوا التزاماتهم على نسق الجفالك الملوكية فاحدثوا فيها جميع حقوق الافتاآت والمزايا الملوكية وقد حصل مثل ذلك فى ممالك فرانسا ولكن ما حصل منها فى ايقوسيا كان اكثر مما حصل فى فرانسا لان شوكة الاشراف الملتزمين فى ايقوسيا كانت قد بلغت الغاية القصوى وتجاوزت الحدود نعم وان كانت شوكة الملوك النورمنديين قد اضعفت فى انكلترة شوكة البارونيين حتى صارت دائرة افتاآتهم اضيق من سائر الافتاآت والاحكام الموجودة فى الحكومات الالتزامية الا انه ترتب فى انكلترة وقتئذ عدة قونتيات بالاطينية (اى حربية) كان لا يمكن لقضاة الملوكية ان يدخلوا فيها ولا يمكن نفوذ وثيقة باسم الملك فى قونتية منها الا اذا كانت مشتملة على ختم القونتية البالاطينى فاذا كان اتباع البارونيين الذين جعلوا التزاماتهم جفالك ملوكية يطلبون فى دعوى بالمحاكم الملوكية كان لهؤلاء البارونيين الحق فى منعهم ان شاؤا وامهم ان يرسلوهم اليها ذكره بروسيل وكان هذا الحق ثابتا ايضا فى شريعة ايقوسيا وكانت العادة جارية به بحيث ترتب عليه ابطال المحاكم وكان منشأ لاغلب الفتن والتعكيرات الكبيرة التى بها اختل نظام المملكة.

وتحدث فى انكلترة مثل هذه المضار بسبب حدوث انشاء القونتيات البالاطينية وكثيرا ما استعمله الملوك من الوسائط لاجل الاحتراس من المضار التى كانوا يتوقعونها من هذه الحقوق والمزايا التى اختلست منهم

فكانت الحقوق والمزايا الملوكية فى ايام الايمبراطور كرلوس مانوس وذريته لم تزل قوية واسعة الدائرة حيث كان هنالك نوعان من القضاة النوع الاول القضاة المعتادون ويسمون بالقاطنين (لانهم كانوا قاطنين ببلاد مخصوصة) وهؤلاء هم الدوقات والقونتات والنوع الثانى القضاة الغير المعتادين ويسمون بالرحالة (لانهم كانوا ينتقلون من بلدة الى اخرى للبحث والتفتيش) وكل من النوعين كان له فى الاقاليم التى هى تحت ولايته افتياء مساو لافتياء البارونيين فى بعض الاحوال بل وكان افتياؤهم يزيد عن افتياء البارونيين فى احوال اخرى كما ذكره دوكنج واما بعد هؤلاء الملوك فضعف خلفاء كرلوس مانوس وضعف كذلك معهم القضاة الملوكية واخذت شوكتهم فى السقوط ومن ثم اختلس البارونيون الافتياء الواسع جدا الذى تكلمنا عليه آنفا وقد بحث لويز السادس ملك فرانسا عن ترتيب القضاة الرحالة واحياء وظيفتهم ثانيا فغير لقبهم الاول ولقبهم بالقضاة البريئين ولكن كان البارونيون اقويا الشوكة فلم يسلموا له فى ذلك لما علموا انه يضر بشوكتهم فاضطر الى ترك هذا المشروع ولكن سلك خلفاؤه طرقا اخرى لم تظهر مهولة للبارونيين مثل طريقه التى سلكها ولم يحصل لهم منها خوف بقدر ما حصل لهم من الاولى فرتب هؤلاء الملوك حقا به يجوز للانسان اذا لم ينصفه ملتزمه ان يقيم دعواه الى اعلا منه وسمى هذا الحق حق طلب الانصاف وهو اول مشروع نجح فيه الملوك فصار من جملة قواعد الشريعة الالتزامية انه اذا لم ينصف البارون احدا من اتباعه او توانى فى انصافه فلهذا التابع ان يرفع دعواه الى ارباب محكمة هذا الملتزم فاذا لم يكن لهذا الملتزم اتباع كثيرون بحيث تكفى آراؤهم فى ان يحكموا على بعض فى محكمته جاز له ان يرفع دعواه الى محكمة الملتزم الاكبر كذا فى روح الشرائع وقاله ايضا المؤلف دوكنج ثم ان محاكم البارونيين كان اربابها يبلغون غالبا مقدارا جسيما وقد اقيمت دعوى جناية (سنة ١٢٩٩) فى محكمة الويقونت دولوتريك فحضر فيها اكثر من مائتى نفس وكلهم اعطوا آراءهم

عند الحكم كما فى تاريخ لنغدوق ولكن حيث كان حق الافتياء وقتئذ ثابتا لمقدار جسيم من صغار البارونيين كان فى الغالب لا يمكن لهؤلاء البارونيين ان يضبطوا محاكمهم نحو ثم اذن باقامة الدعاوى الى اعلا عند وجود المقتضى وصارت العادة بذلك جارية منتشرة حتى حصل بالتدريج ان صار الناس يرفعون دعاويهم الى المحاكم الملوكية بعد انهائها فى اعظم محاكم البارونيين وذكر المؤلف بروسيل حكايا يؤخذ منه ان القضاة الملوكية كانوا يرغبون كثيرا فى ازدياد اسباب رجوع الدعاوى اليهم ولكن لا يخفى ان حق طلب الانصاف المتقدم الذى رتبه الملوك ساعد فى اضعاف افتياء الاشراف اقل مما ساعد به الحق المسمى بحق الحكم الباطل (اى طلب الانصاف من حكم باطل لم يراع فيه منهاج الحق) فلما صار الملوك اقوياء واتسعت دائرة افتياء قضاتهم كثر رجوع الدعاوى اليهم وصارت تلك الدعاوى تعمل بطريقة تلايم عوايد اناس خشنين لا تمدن عندهم فكان الاخصام المظلومون يذهبون الى قصر الملك و يصيحون باعلا صوتهم العدل والانصاف وفى مملكة اراغون كان اذا رفع انسان دعواه الى الجوستوزا اى القاضى الاعظم يعلم انه فى خطر كبير كموت اوفضيحة فاحشة وكان اذا احضر امام القاضى يصيح قائلا باعلا صوته اوى اوى فوبرزا فوبرزا (اى الاعانة الاعانة الانصاف الانصاف) و يتضرع لهذا القاضى الاعظم فى اعانته وانقاذ نفسه ثم ان ابطال المحاربة الشرعية كان ايضا سببا من بعض الوجوه فى احياء عادة رفع الدعاى والى قضاة الملك وحيث كان قضاة الملك يعدلون فى محاكمهم و يعتنون كثيرا بالاقضية والاحكام نشأ عن ذلك طاعة الناس لهم وترتب على هذه الطاعة ثمرات عظيمة جدا فصارت جميع الدعاوى المهمة تقدم لمحاكم دواوين الملك كما ذكره (بروسيل) ونجد فى روح الشرائع جميع الاسباب والاحوال التى اعانت على احداث عادة رفع الدعاوى الى القضاة الملوكية وعلى ازديادها وانتشارها ولكن ليس هنالك حادثة اعانت فى هذا الشان بقدر ما اعان فيه عزم الملوك وتصميمهم على ان يجعلوا فى محاكمهم ودواوينهم الشرعية طريقة جليلة ثابتة

فى الاحكام بحيث لا تتخلف ابدا وكان من العوايد القديمة ان الملوك يحضرون فى محاكمهم و يحكمون فيها بانفسهم كما ذكره (ماركولف وموراطورى) فكانت عادة كرلوس مانوس انه فى وقت لبسه يحضر الاخصام امامه و بعد ان يسمع شكواهم يفكر فى ذلك ليختبر الدعوى ثم ينطق بالحكم فورا ولاشك ان حضور الملك بتلك المحاكم كان يزيدها هيبة و يكسب احكامها اعتبارا فلما حكم الملك سنت لويز الذى فاق غيره من ملوك عصره فى تقوية عادة رفع الدعاوى الى المحاكم الملوكية احيى تلك العادة القديمة وصار يحكم هو بنفسه و يدبر امر الاقضية والاحكام مع صفاء نية وحسن طوية والتخلى عن الاغراض قال جوانويل كنت ارى هذا الملك غالبا يجلس فى ظل شجرة بلوط فى غابة ونسين وكل من كان معه شكوى يدنو منه من غير ان يمنعه احد وكنت اراه احيانا يأمر بفرش سجادة فى بستان و يجلس لاجل استماع الدعاوى التى تعرض عليه كما فى تاريخ سنت لويز ثم ان الامراء الذين كان لهم حق فى المحاكم كانوا فى بعض الاحيان يحكمون بانفسهم ولا يتركون محاكمهم ويدل على ذلك امران فى تاريخ دوفينه ولكن حيث ان الملوك والامراء كان لا يمكنهم ان يحكموا بانفسهم فى جميع الدعاوى وكان لا يمكن ايضا ان يحكمها غيرهم فى محكمة واحدة رتبوا نوابا من القضاة فى سائر اخطاط دولهم وجعلوا لهم حق الافتاء فكانت قدرة هؤلاء القضاة تشبه من بعض الوجوه قدرة القونتات الذين كانوا يحكمون سابقا وقد ترتب هؤلاء القضاة فى فرانسا فى اواخر القرن الثانى عشر واوائل القرن الثالث عشر كما ذكره (بروسيل) فلما ترتبت هذه المحاكم فى الاقاليم امر الملك رعاياه ان يرفعوا دعاويهم اليها واخذ هؤلاء القضاة لخصوص مصلحتهم فى توسيع دائرة افتائهم واعانهم على ذلك قصد تحصيل الامن العام وتنظيم السياسة فكان اذا حصل فى محاكم البارونيين حكم باطل او خال عن الانصاف اتخذه القضاة الملوكية فرصة لهم يستعينون بها على ابطال رفع الدعاوى الى محاكم البارونيين وقصرها على محاكمهم ولا يخفى انه كان يوجد سابقا فى المذهب الالتزامى فرق بين الفتوى

الدنيا والفتوى العليا حتى ان عدة من البارونيين كان لهم الفتوى الدنيا دون العليا اما العليا فكانت محاكمها منوطة بجميع الكبائر بل والخيانات الكبيرة الفاحشة ككل مشروع يعود بالضرر على الدولة واما الفتوى الدنيا فكانت مقصورة على الجنايات والذنوب الصغيرة وهذا التباين اعان كثيرا على تعليق الاقضية والاحكام التى كانت تحصل فى محاكم البارونيين وعلى تضييقها وعرضها على المحاكم الملوكية

ثم بعد ذلك بقليل ولى حادثة انشاء هؤلاء النواب من القضاة الملوكية حادثة اخرى عظيمة من اهم الحوادث وهى ان عين لديوان الملك العالى اوالبرلمان الزمان والمكان اللذان ينعقد فيهما وذلك ان ديوان الملك فى فرانسا وغيرها من سائر الممالك الالتزامية كان اولا غير معين المحل بل كان مع الملك حيثما توجه ولا ينعقد الا فى بعض مواسم كبيرة معلومة فاراد الملك فيليبش لو بيل (سنة ١٣٠٥) ان يجعل مقر هذا الديوان فى مدينة باريس وان ينعقد مدة معظم ايام السنة وصدرت اوامره بذلك ذكره بسكير ثم ان هذا الملك ومن بعده من الملوك جعلوا لهذا الديوان العالى قدرة واسعة التصرف واعطوا الاربابه مزايا وخصوصيات لا حاجة لنا بها هنا وانتخبوا اقضاته من اناس اولى امتياز مشهورين بالاستقامة والكمال وصلاحيتهم للشرائع والاحكام الفقهية ثم بالتدريج صار برلمان باريس وغيره من البرلمانات التى كانت تحكم باسم الملك فى اقاليم مملكة فرانسا لها الحق فى ان لا تراجع فى شئ مما تحكم به فى سائر الدعاوى المهمة ولكن لا يخفى ان برلمان باريس لم تتسع دائرة افتائه الامع غاية التراخى لان اكابر اتباع الملك بذلوا جميع جهدهم فى تعطيل تقدم احكامه وازدياد شوكته حتى انه فى اواخر القرن الثالث عشر اضطر الملك فيليبش لو بيل الى ان منع ديوانه عن ان يقبل شيا من الدعاوى التى تقدم اليه من دواوين قونتة ابر يطانيا واقر بنفسه لهذا القونتة بحق الافتاء الملوكى الذى كان يزعمه القونتة المذكور ذكره (موريس) ثم ان الملك كرلوس السادس اضطر فى اواخر القرن الرابع عشر الى ان يثبت باقرار بين حق هذا الافتاء

لدوقات ابريطانيا وكثيرا مانازع البارونيون فى رفع الدعاوى الى الدواوين الملوكية حيث كانوا يرون ذلك يضر بمزاياهم وقدرتهم حتى ان بعض المؤلفين ذكروا الذلك عدة شواهد يرى فيها ان البارونيين كانوا يحكمون بعقوبات شديدة على من كان يتجاسر على رفع دعوى الى برلمان باريس من الدعاوى التى كانت تفصل فى محاكمهم فكانوا يعاقبون من يفعل ذلك تارة بالموت وتارة بجدع عضو من اعضائه وتارة بسلب امواله واملاكه

وفى الممالك الاخرى الالتزامية حصل للافتاء تقدم يقرب مما حصل فى مملكة فرانسا وذلك ان البارونيين فى انكلتره كان لهم افتاء ارضى واسع من قديم وبعد ان فتح النورمنديون هذه المملكة صارت حكومتها التزامية اكثر مما كان قبل ويعلم من الوقائع المذكورة فى تاريخ انكلتره ومن حادثة انشأ القونتيات البالاطينية التى تكلمنا عليها سابقا ان اختلاس الاشراف حقوق الافتاء بهذه الجزيرة لم يكن اقل من الاختلاس الذى حصل وقتئذ فى الاراضى القارة من اوروبا والوسايط التى استعملت فى انكلتره لاجل تضييق دائرة هذا الافتاء الخطر وابطاله بالكلية هى نفس الوسايط التى استعملت فى غيرها فان غليوم لوكونكيران رتب فى قصره ديوانا لذلك وجعله دائما مستقرا ومن ثم نشأت المحاكم الاربعة الموجودة الى الآن فى انكلتره واما هنرى الثانى فقسم انكلترة الى ستة اخطاط وارسل فيها قضاة رسالة وعين لهم ازمانا يعقدون فيها مجالسهم ورتب من حكم بعده من الملوك فى كل قونتية قضاة يقال لهم قضاة الصلح فصار افتاء هؤلاء القضاة يتسع شيأ فشيأ حتى صاروا يستفتون فى كثير من الدعاوى المدنية ثم ان مزايا القونتيات البالاطينية تناقصت شيأ فشيأ حتى بطلت بالكلية فى بعض محال وانتقل تدبير الاقضية والاحكام الى المحاكم الملوكية او الى قضاة معينين من طرف الملك وقد ذكر المؤلف دالريمبلو الوسايط التى استعملت لاجل التوصل الى هذا المأرب

ثم ان الاختلاس الذى ارتكبه الاشراف فى الحقوق الافتائية فى ايقوسيا كان زائدا عما حصل فى غيرها من الممالك الالتزامية ولكن التقدم الذى حصل لهذه الاختلاسات والوسايط التى استعملها الملوك لاجل تحديد او ابطال افتاآت البارونيين الارضية واستقلالهم بها كانت كلها تقرب مما ذكرناه آنفا وقد اطنبنا فى هذا الشرح فى كتاب آخر من مؤلفاتنا

ولا نذكر على وجه التدقيق التقدم الذى حصل للافتاآت فى الايمبراطورية الجرمانية لان ذلك يجرنا وقراء كتابنا هذا الى التوغل والغرق فى لجج بحور الفقه والشرائع الجرمانية وانما يكفى ان ننبه هنا على ان الشوكة التى تتمتع بها الآن المشورة العليا فى الايمبراطورية وتتمتع بها ديوان الايمبراطور لم تحدث الا بسبب اختلاس البارونيين للافتاآت الارضية وكان تعاظم هذه الشوكة على نسق ما حصل للمحاكم الملوكية فى الممالك الاخرى وذكر المؤلف بفيفيل البنود الاصلية من هذه الشريعة فى كتابه المسمى مختصر تاريخ المانيا وحقوقها العمومية وذكرها ايضا المؤلف لوكوكدولرى فى كتابه المسمى الحقوق العمومية للايمبراطورية الالمانية وهذان الكتابان يوثق بهما كثيرا الا انهما الفا باطلاع رجل ماهر من مشرعى المانيا وهو المعلم سكو يفلان دوستر سبورغ

المبحث الرابع والعشرون

فى بيان مطلب كون صورة الفقه القسيسى اكمل من الفقه السياسى المدنى بصحيفة (٦٨) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

يعسر علينا ان نبين على وجه الصحة الزمن الذى طلب فيه القسيسون معافاتهم من الافتاء المدنى لانه فى مدة حمية الكنيسة الاصلية كان القسيسون لا يزعمون استحقاق مثل هذه المزايا فكانت اوامر القضاء المدنى جارية على جميع الناس على اختلاف وظائفهم ومعمولا بها فى سائر انواع الدعاوى كما برهن على ذلك مؤلفو البروتستانيين ومشاهير مؤلفى القاثوليقيين

الرومانيين لاسيا المؤلفين الذين كانوا يحامون عن حرية الكنيسة الغليكانية اى الفرنساوية

وقد نقل المؤلف موراطورى فى كتابه عبارات عديدة يستدل بها على ان دعاوى القسيسين المهمة جدا كانت فى القرن التاسع والعاشر تفصل على ايدى القضاة المدنية وشواهد ذلك ايضا فى كتاب الشرائع القديمة التى كانت عند الفرنساوية وغيرهم للمؤلف هوارد ولم يخرج القسيسون عن الانقياد للافتاء المدنى دفعة واحدة وانما نالوا هذه المزية وسائر مزاياهم الاخرى على التدريج والظاهر ان معافاتهم من هذا الافتاء فى الاصل كانت من باب التفضل والانعام لان القسيسين كانوا اولا مكرمين محترمين فمن ذلك ان الامبراطور كرلوس مانوس (سنة ٧٩٦) كرامة لكنيسة مادس امر القضاة بانه ان حصلت منازعة بين انسان اياما كان وشخص من نظار ايرادات هذه الكنيسة لا يطلبون هؤلاء النظار على رؤس الاشهاد بل يلزم اولا ان ينهوا بانهاء المشاجرة بين الخصمين على وجه لا يضر باحد من هؤلاء النظار فصارت هذه الرخصة التفضلية فيما بعد معافاة شرعية او حقا لازما ناشئا عن جهل العوام واحترامهم للقسيسين ووظائفهم وما يتعلق بخدمهم ومما يدل على هذا الاحترام ما صدر عن الملك افريدريق بربوروس (سنة ١١٧٢) من منع القضاة الملوكية ان يتعرضوا لقسيسى ديرأتمبورغ ويعكروا عليهم فى افتائهم ولا حاجة لنا فى توضيح ما ذكرناه فى الاتحاف مما يتعلق بهذا الشان ان نبين هنا كيفية جمع الحقوق القانونية من الكتب ولا ان نبين ان هذه القوانين التى كانت اكبر معين للقسيسين مؤسسة على الجهل والكذب او مستندة الى التزوير والتدليس لان هذه الاشياء توجد موضحة فى تاريخ الشرائع والقوانين القسيسية للمؤلف جيراردو توجد ايضا فى كتاب المعلم ريال نعم وان كان ذكر تاريخ التقدمات التى بها اتسعت دائرة الافتاءات القسيسية مع بيان الحيلات التى استعملها القسيسون ليجلبوا اليهم فصل سائر الدعاوى لا يرغب فيه اقل من غيره من الامور الغريبة حيث انه يوضح لنا عوايد تلك الاعصر

الجاهلية

الجاهلية ويبين لنا قوانينها واخلاقها الا ان ذلك خارج بالكلية عن موضوعنا وقد جمع المؤلف دوكنج اغلب الصور والدعاوى التي ادعى القسيسون ان الافتاء فيها لهم دون غيرهم ويبين الوثائق التي استند عليها والمؤلفين الذين نقل عنهم وذكر المؤلف جيانون هذه المواد في تاريخه المدني لمملكة نابلي وتكلم على ادعاآت الكنيسة مع التعقل والوقوف على الحقيقة كما هو عادته ونبه المؤلف فلورى ايضا على ان القسيسين مازالوا يتزايدون في ابداء حجج وتعللات وسعوا بها دائرة شوكة المحاكم القسيسية حتى امكنهم ان يمنعوا جميع الناس وسائر الدعاوى عن الافتاء المدني نعم وان كان الافتاء القسيسى واهى الاساس ولا يخلو عن الظلم والجور الا ان اصوله وطرقه الفقهية كانت اكمل واحسن من الاصول التي كانت جارية بها العادة في المحاكم اللاييكية ومن المعلوم ان القسيسين مكثوا بعض قرون من الاجيال الوسطى لا يستطيعون شيأ من قوانين الملل المتبربرة وشرائعها بل كانوا محكومين بموجب الحقوق الرومانية وكانوا يجرون جميع مصالحهم على حسب اصول الشرائع الرومانية التي وصلت اليهم بالروايات اوكانت موجودة في شريعة تيودوز وغيرها من الكتب القديمة وذلك ثابت ايضا بعادة كانت جارية عند كافة الناس في تلك الاعصر وهي انه كان يجوز لكل انسان ان يعمل بموجب ما يريد من القوانين والشرائع التي كانت جارية وفتئذ في الدعاوى المهمة كان يجب على الفريقين المتشاحنين ان يبينا الشريعة التي يريد ان العمل بموجبها لتفصل دعواهم بموجب اصول هذه الشريعة وشواهد هذه العادة كثيرة جدا في وثائق الاجيال الوسطى ولكن كان القسيسون يعدون من جملة مزاياهم اللازمة لزوما ذاتيا لمرتبتهم انهم يحكمون بموجب الحقوق الرومانية حتى انه اذا دخل معهم انسان في خدم الدين المقدسة وجب عليه ان يجحد شريعته التي كان عليها اولا ويلتزم باتباع الشريعة الرومانية من حين تقلده بالوظائف القسيسية

وفي القرن التاسع شرع الناس في جمع قوانين الحقوق القسيسية ومضى

ماثتاسسنة قبل ان يجمع شئ من العوايد التى صارت اساسا للاحكام
والاقضية فى محاكم البارونيين ودواوينهم فكان قضاة القسيسين يعملون
بموجب شرائع مسطرة عندهم معروفة بخلاف قضاة اللاييك اى العوام
فلم يكن لهم قانون يرشدهم بل كانوا يسلكون على حسب عوايد ورسوم
نقلت اليهم بطريق الروايات فكانت مبهمة عيراكيدة عندهم حيث لم يكن لها
قوانين مسطرة وزيادة على ذلك كانت اصول الحقوق القسيسية وقواعدها
اقبل عند العقل واقرب للصواب من الاصول التى كانت جارية فى المحاكم
اللاييكية واكثر ملاحية منها فى شأن المحافظة على العدل فى الاقضية
والاحكام وقد تقدم فى المبحث الحادى والعشرين والثالث والعشرين عند
الكلام على الحروب الشخصية والاختبار بالمحاربة الشرعية ما يفهم منه
ان اذواق القسيسين وقوانينهم كانت تمج هذه العوايد التى لم ينشأ عنها الاسفك
الدماء واعدام العدل والانصاف وسبق ايضا ان القسيسين بذلوا جهدهم
فى ابطال هذه العوايد الخشنية وتعويضها بفصل الدعاوى على مقتضى
الشرع وبالاختبار بموجب الشهادة ثم انه فى المحاكم اللاييكية كانت
القوانين والرسوم التى تنتظم بها الدعاوى الشرعية تكاد ان تكون كلها مقتبسة
من القوانين القسيسية حتى ان الملك سنت لويز احدث فى قوانينه بعض
قوانين جديدة فى شأن كيفية ملك الاراضى وادارة المحاكم اخذها من القوانين
القسيسية وبذلك اعتمدها الناس ووثقوا بها مثلا استنبط من القوانين
القسيسية القبض على امتعة المدين حتى يقضى ما عليه من الدين وكذلك بيع
اموال المفلس واستنبط ايضا ما بنى عليه قانونا جديدا فى شان اموال من يموت
من غير ايصاء وجميع هذه القوانين النافعة وغيرها اقتبسها مشرعو
القسيسين من الحقوق والقوانين الرومانية وهنالك شواهد كثيرة نفيسة غير ما
ذكر ترجح القوانين القسيسية على قوانين المحاكم اللاييكية ولذلك كان الناس
يعتبرون ان من اعظم المزايا اتباع الافتاء القسيسى ومن جملة المزايا
والخصوصيات التى اغرت الناس واستمالت قلوبهم الى اقتصار احوال

حروب بلاد القدس الاعلان بان من يأخذ الصليب ويدخل فى تلك الحروب الصليبية لايحكم عليه من الآن فصاعدا الا فى المحاكم القسيسية وهذا الامر كان من اعظم الاسباب التى اغرت وتشتذ وحثت الناس على المبادرة الى المحاربة الصليبية (راجع المبحث الثالث عشر)

المبحث الخامس والعشرون

فى بيان مطلب ما نتج من مطالعة الحقوق الرومانية من الامور السعيدة المهمة بصحيفة (٧١) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

من العجيب ان العلوم والقوانين الرومانية صارت تمارس فى سائر بلاد اوروبا مع السرعة الغريبة وذلك انه فى مدينة املفى (سنة ١١٣٧) عثر على نسخة من شريعة البندكت التى جمعها الملك جوستنيان وبعد ذلك بقليل من السنوات فتح المعلم ايرنريوس فى بولونيا مدرسة لتعليم الحقوق المدنية وفى اثناء هذا القرن صارت هذه الحقوق المدنية يتعلمها الناس فى عدة مدائن من مدن فرانسا وصارت من جملة العلوم السكولاستيكية (اى التى تقرأ فى المدارس) ومن (سنة ١١٤٧) اخذ المعلم واكريوس فى تدريس الشرائع المدنية بمدينة اوكزوفورد (وفى سنة ١١٥٠) ظهر فقيهان من ميلان كتبا قوانين التراميه على نسق الشرائع الرومانية وفى هذه السنة صحح المؤلف كراتيان قانون الشرائع القسيسية واضاف اليها زيادات كثيرة واقدم قوانين الشرائع القسيسية هو القانون الذى كان يعمل بموجبه فى المحاكم والمجالس الشرعية وهو القانون الذى رتب فى المجالس القسيسية التى انعقدت فى مدينة القدس وهذا القانون جمع (سنة ١٠٩٩) كما يستفاد ذلك من خطبة كتابه وكان سبب ذلك انه حصلت عدة مقتضيات احوال خصوصية دعت الناس الى جمع هذا القانون وجعله فى كتب مخصوصة فلما انتصر النصارى فى الحروب الصليبية استوطنوا فى تلك البلاد الاجنبية فتكونت من جميع ملل اوروبا بهذه البلاد قبيلة جديدة فاتفقوا على انه من اللازم الضرورى

ان ترتب الشرائع والعوايد التى تنتظم بها ينهم المصالح المدنية وادارة الحـكم والدعاوى الشرعية ولكن لم يكن يوجد وقتئذ شئ مسطر من العوايد بل ولم يكن هناك احد فى بلاد اوروبا بتمامها شرع فى ترتيب شرائع معينة فاول من شرع فى هذا الشان هو المعلم غانو يل الذى كان وقتئذ رئيس الحاكم فى مملكة انكلتره فالف قانونه (سنة ١١٨١) وبعد ذلك ظهر فى ايقوسيا قانون جديد ينسب الى داود الاول وكان هـذا القانون على نسق تأليف غانو يل كلمة بكلمة بحيث لا يفيد ازيد منه وذكر فى هذا القانون المنسوب الى داود المذكور ان بطرس دوفونتين الذى هو اول من شرع فى مملكة فرانسا فى عمل قانون من هذا القبيل الف قانونا جامعا لعوايد بلاد ورمندواس فى ايام حكم الملك سنت لويز واوله (من سنة ١٢٢٦) وفى هذا الزمن كان يوجد المؤلف بومنوار الذى ضمن كتابه عوايد بلاد البو برزيس ثم نشرت قوانين الملك سنت لويز باصره وكانت مبينة بيانا شافيا للعوايد التى كانت فى بلاد الجهالات الملوكية فبمجرد ما عرف الناس اهمية تسطير الشرائع والعوايد وتقييدها بالكتابة لما انها تنفعهم وتعينهم فى كل حال صارت عادة جميع الناس تحرير كل عادة حدثت وتسطير كل شريعة ظهرت ثم ان كرلوس السابع ملك فرانسا امر (سنة ١٤٥٣) بجمع الشرائع التى اوجبتها العادة فى كل اقليم من اقاليم فرانسا كما ذكر ذلك المؤلف وبلى والمؤلف ويلاريت فى تاريخ فرانسا وجدد هذا الامر من تولى بعده وهو الملك لويز الحادى عشر ولكن لم يكن تتميم هذا المشروع المهم العظيم الفائدة على ما ينبغى ولو تم ما امر به هذان الملكان العاقلان لكانت الشرائع الفرنساوية القديمة منقحة ومهذبة اكثر مما عليه الآن وهناك عادة كانت جارية فى القرون الوسطى تدل دلالة واضحة على ان القضاة لم يكن عندهم وقتئذ من القوانين التى بموجبها يقضون احكامهم ويفصلون الدعاوى الا عوايد ليست مكتوبة كانوا غالبا يتحيرون فى امرهم عند ترتيب الاسباب والاصول التى يبنون عليها احكامهم فكانوا فى كل امر مريب او مشكل يجمعون عدة رجال من المشيوخ الهرمين ويعرضون عليهم

الدعوى ويسألونهم عما جرت به العادة فى مثل هذا الامر وكانت هذه العادة تسمى بحث الجم الغفير ذكره دوكنج ولا يخفى ان النتائج التى ترتبت على تجديد الشرائع الرومانية كلها موضحة فى روح الشرائع للمؤلف مونتسكيو وفى تاريخ انكلترة للمؤلف هوم وقد استفدنا فوائد كثيرة من عباراتهما واى انسان يتبع مثل هذين المؤلفين فى تأليفه وينسج على منوالهما من غير ان يستفيد وينجح ولكن نقول ان معرفة الشرائع الرومانية لم تكن مفقودة بالكلية فى القرون الوسطى ببلاد اوروبا كما يظنه اغلب الناس وليس من موضوعنا ان نبحث عن هذا الامر الذى قد جمع العجب وقاله المؤلف دوناتوانه ونيادستى

ولا شك انه كان هذه العلاقة اكيدة فى عدة من بلاد اوروبا بين الشرائع المدنية العمومية والشرائع البلدية او الارضية الخصوصية ومع انه فى انكلترة كان يظن ان القوانين التى اوجبتها العادة مخالفة بالكلية للقوانين الرومانية وكان من يمارس فى انكلترة القوانين التى اوجبتها العادة يفتخر بوجود الفرق بينهما نقول ان تلك القوانين الانكليزية مشتملة على كثير من اصول القوانين المدنية الرومانية وقواعدها كما يوجد ذلك موضحا فى كتب بعض المؤلفين العارفين

المبحث السادس والعشرون

فى بيان مطلب النتائج التى نشأت للجمعية من هذا التغيير بصحيفة (٧٢) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

ثم ان تاريخ القرون الوسطى بجميع اجزائه يدل على ان الاشراف لم يكن لهم صنعة سوى صنعة الحرب التى هى الغرض الاصلى من تربيتهم بل بعدما تغيرت الاخلاق وصار للعلوم والفنون موقع فى قلوب الناس مكث الاشراف زمنا طويلا على الاخلاق القديمة وصفاتهم المميزة لهم ويوجد فى كتاب المؤلف فلور خصوص بجميع الاشغال والرياضات والتمرنات التى كان يشتغل بها الملك فرنسيس ايفرنسوا الاول فى صباه فاذا تأملتها علمت انها القصد منها ما يعلمه

محاربا ومصارعا وانما احب هذا الملك فيما بعد الآداب والفنون المستظرفة لانه كان صحيح العقل والمزاج سليم الذوق لان ذلك ناشئ عن تربيته واقوى ما نبرهن به على ان الصنايع لم تكن مرجحة ولا ممتازة عن بعضها ببلاد اوروبا فى القرون الوسطى كما ينبغى هو اخلاق اعيان القسيسين وذلك انه بالنظر الى شان القسيسين الدينيين ووظيفتهم كان يرى بينهم وبين اللاييك اى العوام فرق كبير كما ان طائفة ادنى المستخدمين فى الكنائس كانت وقتئذ مغايرة لطوائف بقية الاهالى وكان هؤلاء القسيسون اولوا المناصب الدينية ممتازين حسبا ونسبا ومع ذلك كانوا لا يراعون ذلك بل كانوا ينسجون على منوال الاشراف فى عوايدهم وما يميل اليه ذوقهم فكانوا لا يمتثلون لاوامر البابا ولا لقوانين الجمعيات القسيسية وكانوا يحملون الاسلحة ويقودون اتباعهم الى الميدان لمحاربة اعدائهم وقل ان عرفوا ان الوظائف القسيسية ممتازة عن غيرها بل كانوا يظنون ان العلوم العسكرية والفنون الحربية هى وحدها الملايمة لشرفهم وعظم مقامهم واما العلوم التى بها تكون معرفة الله بصفاته ومعرفة الفضائل الحميدة التى هى اليق وانسب للوظائف الدينية فكانت عندهم محتقرة منسية

ولما عرف الناس عظم العلوم الشرعية واهميتها وصارت تقرؤ وتدرس وصارت جارية عند الناس صار من يتخذها صنعة له ويفوق الاقران فيها يكتسب انواع الشرف والامتياز التى لم تكن تعطى قبل ذلك الا لكل عارف بالعلوم العسكرية والفنون الحربية وحيث ان مرتبة امارة الشوالرى مكثت عدة قرون وهى تكسب من دخل فيها اعظم الشرف وابهى الامتياز وكان لا يثبت للانسان مزايا هذه الامارة لا بمقامه ورتبته ولا بكونه كريم الاصل شريف الحسب والنسب جليل القدر من يوم ولادته بل كل من نجب وظهرت براعته فى معرفة الشرائع رقى الى مرتبة الشوالرى وساوى من حاز الاحترام والاعتبار بفضله وبراعته فى العسكرية فصار الشرف منوطا بكل من العلوم الشرعية والفنون الحربية واذا كان قاض من القضاة

يبلغ درجة مستحسنة فى اجراء الشرائع والاقضية كان ذلك يكسبه حقا فى جميع مزايا امارة الشوالرى وما يترتب عليها من الشرف وحوز الامتياز كما ذكره بسكيرو المؤلف هو نرى دوستماری وحيث كانت معرفة القوانين والشرائع توصل الى مراتب الشرف والامتياز صار لها اعتبار كبير عند الناس وصار كل انسان فى بلاد اوروبا يرتقى الى اعلا درجات الجمعية ومراتبها بواسطة العلوم الشرعية كما يرتقى الى ذلك بالفنون الحربية

المبحث السابع والعشرون

فى بيان مطلب الاعمال السعيدة التى نشأت عن هذا الترتيب بصحيفة (٧٤) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

لا يخفى ان معظم قصدنا من هذه المباحث هو ان نطلع من قرأ كتابنا هذا على جميع الوقائع التى تبين او تثبت بعض محال من تاريخنا ولكن اذا كانت هذه الوقائع مشتتة فى كتب عديدة او غير مشهورة او يعسر مراجعتها رأينا ان الاحسن جمعها والتقاطها من اصولها بخلاف ما اذا كانت هذه الوقائع موجودة فى كتب مشهورة او جديرة بان تكون مشهورة فاننا نكتفى بان نحيل عليها من قرأ كتابنا وهذا هو ما سلكناه فى شأن توضيح امارة الشوالرى بجميع الوقائع والاحوال التى ذكرناها فى الاتحاف وعدة خصوصيات اخرى غريبة من خصوصيات هذه الامارة مذكورة فى كتاب امارة الشوالرى القديمة المعتبرة كما انها حادثة سياسية وحربية للمؤلف دولاكورن دوسنتوبالى

المبحث الثامن والعشرون

فى بيان مطلب تأثير المعارف فى الاخلاق بصحيفة (٨٠) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

اعلم ان المقصود من ابحاثنا لا يستلزم ان نذكر هنا تاريخ تقدمات العلوم فى ذلك

العصر * وماقدمناه من الوقائع والملحوظات يكفى فى بيان مدخلية تقدمات هذه العلوم فى تحسين اخلاق الجمعية وحالتها وفى مدة ما كانت شموس العلوم كاسفة بالكلية فى غرب اوروبا كانت مضيئة بمدينة القسطنطينية وغيرها من بلاد الامبراطورية اليونانية الاان اليونان بسبب دقة عقولهم تفرغوا بكليتهم الى المناقشات فى الامور الالهية وحذا حذوهم اللاطينيون فى ذلك وسائر اهالى اوروبا اكتسبوا من اليونانيين معظم معارفهم وعلومهم وكان اليونانيون ايضا منشأ العدة من المباحث المشكلة التى اختلف فيها الحكماء والفلاسفة ولم تزل الى الآن شاغلة لبالهم ومطمحا لانظارهم وافكارهم (انظر ما قاله اوناس سلوبوس وماذكر فى تاريخ آداب فرانسا) وبعد ان ترتبت دولة الخلفاء فى بلاد المشرق بقليل من الزمن ظهر من بينهم عدة ملوك اقاموا شعائر العلوم ورغبوا الناس فى ممارستها ولكن لما التفت العرب الى علوم اليونانيين والرومانيين الادبية القديمة وجدوها غير حماسية لان اليونانيين والرومانيين اهل ظرف ورقة ذوق بخلاف العرب فان عقولهم وتصوراتهم حماسية تميل بطبعها الى الحماس والتصورات العويصة البليغة فكان لا يعجبهم شعراء مدينة اثينا ومدينة رومة ومورخوهما ولكن كانوا يعترفون بنجابة حكمائهما اوفلاسفتهما فكانت اصول علم الميزان عند اليونانيين والرومانيين اكد وامكن من القواعد الادبية والتخيلية وذلك لان من المعلوم ان تأثير الحقيقة فى العقول واحد لا يتفاوت تقريبا بخلاف التصورات الظريفة او الرقيقة او الحماسية فانها تختلف باختلاف الاقطار ولذلك اهمل العرب ما الفه اوميروس من الاشعار والآداب وترجموا الى لغتهم تأليف اشهر فلاسفة اليونان فلما اتبعوا هؤلاء الفلاسفة وسلكوا على نسق قواعدهم واستكشافاتهم تفرغوا بالكلية للعلوم الهندسية والفلكية والطبية وعلم المنطق وعلم ماوراء الطبيعيات وهى الالهيات حصل لهم تقدم كبير فى العلوم الهندسية والفلكية والطبية ووقفوا منها على فائدة جليلة فاعانهم ذلك كثيرا على الترقى والصعود الى درجة العلو والكمال التى وصلوا اليها من

وقتئذ واما فى العلمين الآخرين وهما علم المنطق وعلم الالهيات فقد اتخذوا ارسطاطاليس منهاجا لهم فاقتفوا اثره وزادوا من عند انفسهم امورا دقيقة على التدقيقات والمناقشات التى امتاز بها هذا الفلسفى حتى فسد هذان العلمان بالكلية وصار لا مفهومية لهما وقد حصلت شهرة كبيرة للمدارس التى جددها العرب فى بلاد المشرق لممارسة العلوم والفنون وتبعهم فى الميل الى العلوم والآداب العرب الذين فتحوا بلاد اسيا واسبانيا وفتحت فى تلك البلاد مدارس لم تكن فى الشهرة دون مدارس بلاد المشرق بكثير ومن اشتهر فى العلوم من جميع الامم مدة القرن الثانى عشر والثالث عشر كان اغلبهم قد تعلم من العرب كما استشهد لذلك المؤلف بروكير بشواهد كثيرة فى تاريخه وبالجملة فضت عدة قرون وجميع العلماء المشهورين يكتسبون معارفهم من بلاد العرب التى كانت مدارس يتعلم فيها الخاص والعام واول معرفة الناس فى القرون الوسطى بفلسفة ارسطاطاليس كانت بواسطة معرفة تراجم مؤلفاته باللغة العربية حيث كان مترجمو العرب معتبرين وقتئذ كانهم اعظم مرشد وانجب دليل فى معرفة مذهب ارسطاطاليس ذكره كونرنك فى تأليفه وكذلك موراطورى وعن العرب اخذ العلماء العارفون بعلم الكلام السكولاستيكى اى الذى يقرأ فى المدارس قواعدهم واصولهم الفلسفية التى نشأ عنها تأخير تقدم الفلسفة الحقيقية الصحيحة

ثم ان انشأ الكوليجات (المدارس الكبيرة) والانيورسات (الجمعيات التى فيها كليات العلوم) من اهم حوادث تواريخ العلوم الادبية وذلك انه فى مكاتب الديور والكتدرالات اى امهات الكنائس كانوا يعلمون علم النحو وكان كل مكتب فيه مدرس واحد او اثنان فقط لتعليم هذا الفن واما الكوليجات فكانت مشتملة على عدة مدرسين معدين لتعليم كل علم وفن وكان فيها زمن كل علم مبينا وكانت تعمل بها امتحانات لمعرفة تقدمات الطلبة وكل من ظهرت نجابته وشهد بفضله على غيره كوفئ بالقاب ومراتب ونشريفات اكدمية (اى علمية) والذى نقل الينا اصل هذه المراتب وكيفيتها هو المؤلف

باكستيرو المؤلف وسفالين وهناك بعض تفاصيل غير مفيدة مبينة للمراتب
الاكدمية التي كانت (سنة ١٢١٥) في اونيورسة مدينة باريس التي
اخذ منها اونيورسات بلاد اوروبا اغلب عوايدها وقوانينها كما ذكر مكروبر
مؤلف تاريخ اونيورسة باريس وقد كمل ترتيب هذه الاونيورسات
والكوليجات (سنة ١٢٣١) ولا فائدة في ان نسرد هنا مزايا عديدة اعطيت
اذ ذاك للمدرسين والمعلمين والعلماء لان المثال الواحد يكفي في بيان
الاعتبار الذي كان يتمتع به العلماء في سائر الجمعيات العلمية فنقول انه كانت
تحصل منافسات بين العلماء وبين امراء الشوالري في شان التصدر وكان
يتم الامر في الغالب بترجيح العلماء وترقيتهم الى مرتبة امارة الشوالري مع انها
امارة عظيمة قد ذكرنا مزاياها وخصوصياتها فيما تقدم بل وحكم ان العالم له
الحق في ان يلقب باسير الشوالري من غير ان ينتخب لان يكون من اربابها وقد
ذكر المؤلف برطول ان العالم الذي درس الحقوق المدنية مدة عشر سنوات
كان يعد من امراء الشوالري وامارة العلماء الشوالرية كانت تسمى الشوالري
دكتور (اي العلمية) ومن كان يبلغ درجتها من العلماء كان يسمى
الشواليير كارلس (اي الامير العالم) ثم كثرت المدارس والاونيورسات وازداد
شرف العلماء وجلت مزاياهم وبهذا كثر الطلبة واتوا الى المدارس العلمية من
كل فج عميق حتى ان اونيورسة مدينة بولونيا (سنة ١٢٦٢) كانت تشتمل
على اكثر من عشرة آلاف من التلامذة مع انه يفهم من تاريخ هذه
الاونيورسة انه لم يكن يدرس فيها حينئذ الا علم الحقوق بمفرده واما اونيورسة
مدينة اوكزوفورد فكان فيها (سنة ١٣٤٠) ثلاثون الفا من الطلبة كما ذكره
سيبيد وفي ذلك القرن اضطربت الاراء في مسئلة باونيورسة باريس فاجتمع
عشرة آلاف من العلماء في تلك الاونيورسة لاجل حل هذه المشكلة وهذا القدر
لم يكن الا من ارباب المراتب لان حق ابداء الرأي لم يكن ثابتا وقتئذ الا لارباب
الرتب فعلى ذلك كان مقدار الطلبة يبلغ مقدارا عجيبا ذكره والي في تاريخ فرانسا
نعم وان لم يكن في اوروبا وقتئذ الا قليل من الاونيورسات الان مقدار الطلبة

يكفى فى اثبات الغيرة والتولع العجيب الذى كان يحث الناس على ممارسة العلوم ويدلنا على ان الناس كانوا قد اخذوا حينئذ فى اعتبار عدة فنون وصنايع اخرى غير صنعة الحرب عرفوا نفعها بعد ان كانوا لا يعتبرون الا الفنون الحربية

البحث التاسع والعشرون

فى بيان مطلب تأثير التجارة فى الاخلاق والحكومة بصحيفة (٨٠) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

ثم ان المواد التى بيناها والمواد التى تصدينا الآن لبيانها واسعة ومتنوعة جدا بحيث يصح ان نتمثل بقول المؤلف مونتسكيو حين اخذ يتكلم فى كتابه على التجارة المواد الآتية تستلزم ان يتكلم عليها بازيد مما ذكرنا ولكن موضوع كتابنا لا يحتمل ذلك فاردنا ان نسير على نهر راكد فانجذبنا الى سيل عرم انتهى

وفى التاريخ شواهد كثيرة تدل على ان الامم فى القرون الوسطى لم يكن بينهم من المخالطات والمعاشرات الا علاقات ضعيفة فمن ذلك ان بوشارد فى اواخر القرن العاشر اراد ان يبنى ديرا فى قريته موديفوس بقرب مدينة باريس فذهب الى رئيس دير كبير فى بورغونيا مشهور بالتقوى والصلاح وخاطبه بخطاب عجيب راجيا منه ان يأتى لهذا الدير برهبان فقال له انى قد سافرت سفرا طويلا وارتكبت فيه مشقة فادحة وقد تعبت كثيرا من طوله فبناء على ذلك ارجو من القديس اجابة سوألى بحيث لا يكون سعيى الى هذه البلاد البعيدة خائبا فاجابه القديس بجواب اعجب من سوأله وهو ان منعه صراحة مما يطلبه متعللا بانه يشق جدا الذهاب معه الى اقطار غريبة لا يعرفها من يذهب اليها ذكره بوكيت وفى ابتداء القرن الثانى عشر كان رهبان دير قرية فريير فى ابرشية سنس لا يعرفون انه يوجد فى بلاد الفلمنك مدينة تسمى تورنى وكان رهبان مدينة دير تورنى يجهلون ايضا فى اى الجهات تكون فريير ولم يحصل

بينهم مخالطة فيما بعد الا بسبب مصلحة كانت بين الديرين فلما احتاج هذان الديران الى بعضهما اخذ يبحث كل منهما عن الآخر ليعرف فى اى جهة يكون وبعد البحث الطويل الذى اطنب فى بيانه المؤلفون عرف كل منهما الآخر لكن على سبيل الصدفة والاتفاق كما ذكره هيريمانوس والمؤلف دلشورى وكان جهل امم القرون الوسطى بالجغرافيا ووضع البلدان البعيدة عنهم كبيرا جدا فكانوا لا يعرفون شيأ من الممالك والمسالك واقدم خرطة جغرافية معروفة لنا الآن توجد فى نسخة من تاريخ القديس دنيس وهى اثر يستدل به على حالة العلوم الجغرافية التى كانت فى بلاد اوروبا مدة تلك الاعصر فترى فى هذه الخرطة اقسام الارض الثلاثة التى كانت معروفة وقتئذ والثلاثة موضوعة بحيث ان مدينة القدس توجد فى وسط الكرة واسكندرية قريبة منها كمدينة نازاريت والظاهر انه فى تلك الاعصر الجاهلية كان لا يوجد بالبلاد خانات ولا منازل عمومية للمسافرين كما ذكره موراطورى وهذا دليل على انه لم يكن هنالك الا مخالطة واهية بين الملل ولا يخفى انه عند الامم الذين يكونون على اصل الفطرة ولا يأتى الى بلادهم انسان اجنبى الا نادرا تجد اكرام الضيف من اعظم الفضائل وتجد فى كل جمعية قليلة التمدن كجمعيات القرون الوسطى اكرام الضيف من الواجبات المحتمة لانهم كانوا يميلون الى ذلك بطبعهم وجبلتهم او بكرمهم وسخائهم ولذلك كان اكرام الضيف عندهم واجبا بالشرع ومن يأباه يحكم عليه بعقوبات معلومة ومما ينبغى الالتفات اليه انه بعد ترتيب شريعة البوركيون بزمن مستطيل اعنى فى زمن اخذ السياسة والترتيب فى الاستكمال زاد بمقدار الجرائم النقدية التى كانت تؤخذ قبل ذلك الزمن ممن كان يأبى اكرام الضيف وهنالك شرائع اخرى فى هذا المعنى جمعها المؤلف ولالك ولا يخفى ايضا ان شرائع امة السكلاوون فى هذا الشان اصعب من الشرائع التى ذكرها هذا المؤلف فكانت هذه الشرائع تأمر بحرق بيت من يأبى اكرام الضيف وضبط امتعته وامواله الى بيت المال وكانت ترفق بالغرباء

حتى وصلتها تلك المروءة ان اذنت لصاحب البيت بالسرقة لاكرام ضيفه على ما ينبغى وبناء على تلك الشرائع وحالة الجمعية التى كانت تجعلها الازمنة كان اكرام الضيف محتما مشددا فيه مادام بين الناس روابط واختلاطات قليلة فكان كل غريب أوى الى بيت اياما كان يتيقن انه يرحب به ويحسن قراه والذى يدل زيادة على ان المخالطات بين الناس كانت قليلة هو انه بمجرد ما اتسعت المخالطات بين الناس صار اكرام الضيف ثقيلا بعد ان كان لا تسأم منه النفوس بل كان فيه حظها وسرورها وصار دخول السواحين فى كل بلدة من فروع الكسب المفيدة لاهلها

ثم ان شرائع القرون الوسطى برهان قطعى على قلة المخالطات التى كانت توجد وتتشذ بين الملل لانه بقوانين المذهب الالتزامى والغيرة التى لا تنفك اصلا عن الجهل كان الغرباء يسأمون من استيطانهم خارج بلادهم فاذا كان احد ينتقل من اقليم الى آخر ولو فى مملكة واحدة كان يجب عليه بعد مضى سنة ويوم ان يصير من اتباع البارون الذى استوطن هو بارضه ومن خالف هذا القانون كان يغرم جريمة معلومة واذا مات غريب فى ارض ملتزم كان قاطنا بها ولم يوص قبل موته بشئ لهذا الملتزم كانت جميع امواله تصير فيأ لبيت المال وكان يجرى فى حق الغريب الذى يستوطن بلاد غريبة قوانين اصعب من هذه فكان فى تلك الازمان اذا استوطن غريب بارض ملتزم يجوز لهذا الملتزم ان يقبض عليه ويجعله من ارقائه وشواهد ذلك مذكورة فى التاريخ وهى اخلاق وقوانين متبربرة فلما ان النورمنديين فى القرن التاسع لما خربوا البلاد واتلفوا حال العباد خرج كثير من سكان الاقاليم المجاورة للبحر من مملكة فرانسا او بالوافى داخل تلك المملكة ولكن عوضا عن ان يقبلوا فيها مع المروءة والشفقة التى كان يستلزمها سوء حالهم كبلوا باغلال الاسر فى تلك البلاد واتخذهم اهلها ارقاءهم ولكن آل الامر الى أن كلا من الشوكة المدنية والقسيسية استشعرت انه يلزم ابطال هذه العادة المتبربرة الخشنية كما ذكره بوتجيسير وفى بلاد اخرى كانت الشرائع تأذن لسكان

السواحل ان يأسروا جميع من تغرق مراكبه و يقع فى ايديهم من الغرباء وهذه العادة الوحشية التى لا مروءة فيها كانت توجد فى مملكة فرانسا من بلاد اوروبا والظاهر ان عادة الاستيلاء على امتعة الغريق وضمها الى بيت مال الملتزم الذى رست السفينة على ارضه كانت عامة فى جميع البلاد ذكره وسفالين ودوكنج وعند قدماء الولس وهم سكان بلاد غالة كان يجوز قتل ثلاثة من غير قصاص المجانين والغرباء والمبتلون بداء البرص كما ذكر ذلك فى بعض التواريخ وذكر المؤلف لوريير عدة وثائق تدل على انه فى عدة من اقاليم فرانسا كان الغرباء يستعبدهم الملتزم الذى يستوطنون فى ارضه وقال المؤلف بومنوار انه كان فى بعض بلاد مملكة فرانسا كل غريب استوطن فى ارض واقام بها مدة سنة و يوم يصير رقيقا للملتزم الارض التى استوطن بها تلك المدة كما فى كتاب عوايد اقليم بوازيس ولكن حيث ان مثل هذه العادة المباينة للمروءة والشفقة لا يمكن مكثها زمنا طويلا انحط رأى كبار الملتزمين فيما بعد على ابطالها والاكتفاء عنها بفرض بعض جرائم سنوية على الغرباء الذين يستوطنون باراضيهم او بفرض بعض خدم غير معتادة ولكن عند موت الغريب فى اراضيهم لا يجوز له ان يوصى بشئ من امواله بل كانت كلها من عقار واثاثات ترجع للملك او الملتزم البارونية التى كان فيها ولا يأخذ احد منها شيأ ولو ورثته الطبيعيين (كاولاده واخوته وما اشبه ذلك) وهذا ما يسمى فى فرانسا حق وراثة الغريب كذا ذكر لورير و بروسيل ودكنج و بسكيير وهذه العادة قديمة جدا وهى مذكورة بطريق غير واضح فى قانون من قوانين كرلوس مانوس رتب سنة ٨١٣ ولم تكن هذه العادة جارية فى حق الغريب البعيد البلاد بل كانت جارية ايضا فى حق كل انسان استوطن فى ابرشية غير ابرشيته او بارونية غير بارونيته ولو فى مملكة واحدة او اقليم واحد قال بروسيل وقل ان يكون هناك قانون اقبح من ذلك يؤدى الى منع مخالطات الامم وارتباطهم ببعضهم وان كان يمكن ان هناك ما يقرب من ذلك فى الشرائع القديمة التى كانت سابقا جارية فى جميع ممالك اوروبا وما يتعلق من ذلك

بايطاليا فراجع فيه المؤلف جوراطوري ومن العار الكبير الآن حتى في حكومة فرانسا انه يوجد بها الى الآن هذه العادة المخالفة للمروءة والشفقة والتأنس لان الفرنساويين ليس بأعلم قصيرا في التمدن حتى يتمسكوا بهذه العادة ولكن هذه العادة المسماة حق وراثة الغريب زالت كلها من فرانسا او كادت تزول قبل الفتنة الاخيرة التي حصلت بين الفرنساوية وانما الآن لم يبق لها اثر فيها

ثم ان الحكومة وقتئذ كانت ضعيفة لا قدرة لها على انشاء قوانين نافعة او اجراء شرائع محكمة توجب الضبط والربط ولذلك كانت تنشأ عنها الفتن التي كانت بها مخالطات اهالي الاقاليم مع بعضهم ووقوفي مملكة واحدة خطرة جدا وقد كتب القديس لوب رئيس رهبان ديرفريز في القرن التاسع مكتوبا يفهم منه ان الطرق السلطانية والشوارع العمومية كانت مشحونة باللصوص بحيث ان السواحين كانوا يجتمعون مع بعضهم قوافل ويمشون الجم الغفير ليأمنوا من هؤلاء اللصوص كما ذكره بوكيت وقد رتب في هذا القرن الملك كرلوس لوشوب (اى كرلوس الاصلع) عدة قوانين تدل على ان النهب والسلب كان كثيرا حينئذ وكانت هذه الامور قد كثرت وشاعت بحيث ان كثيرا من الناس كاد لا يعدها من الذنوب الكبيرة الفاحشة ولذلك كان يجبر اصاغر القضاة على ان يحلفوا بانهم لا يسرقون ابدا بانفسهم ولا يحامون عمن يسرق (ذكره بالوز) وقد وصف مؤرخو القرن التاسع والقرن العاشر هذه الامور الخلل فبالغوا في وصفها الذى كانت عليه وقتئذ وهناك عدة عبارات عظيمة في هذا الشأن مذكورة في كتاب مباحث المؤلف جرو وبالجملة فكانت هذه الافعال التي فيها هتك حرمات الشرائع كثيرة متواترة تجاسر عليها الناس جسارة كبيرة حتى ان سطوة القضاة المدنية لم يكن لها قدرة على منعها فاستعانوا بشوكة القسيسين وانعقدت فوراً جمعيات قسيسية بمحافل كبيرة حلت اليها الجماهير القسيسيين الهالكين ونادوا فيها بدعوات قاصفة كالرياح العاصفة تصل باللصوص

وغيرهم عن يسعى فى فصل ما يتصل بالانتظام والامن العام ذكره بوكيت وقد نقلت البناصورية خطبة من هذه الخطب المحرضة على اتباع العدل والاستقامة خطب بها فى سنة ٩٨٨ وهى خطبة مغايرة للخطب المعتادة فى فصاحتها وبلاغتها بحيث ترى جديرة بان نذكر ترجمتها هنا فنقول انه بعد المقدمة على حسب عادة ذلك العصر وبعد ذكر المظالم والافعال القبيحة التى كانت سببا فى تحرير الخطبة قيل ايها الناس جعل الله على ابصاركم غشاوة لان الشره قائدكم * والوله عوايدكم * وجفت منكم الايادى لانها طالما اختلست واختطفت * وشلت منكم جميع الاعضاء التى للمعاصى جنت واقترفت * وسلط الله عليكم الشغل الابدى * والتعب السرمدى * واكثر بريكم وسعيكم * وقلل خيركم وكسبكم * والقى فى قلوبكم الخوف والفزع * والقلق والجزع * امام كل عدو لكم * وبدد عند اللقاء شملكم والقى فى قلوبكم الهزيمة * وخيب سعيكم فى كل مشروع وعزيمة * وجعل الله بحتكم ان تكونوا بجوار الخائنين يهودا فى ارض هول وظلام ووبا * الى ان تطهر قلوبكم التى اتخذت المعاصى منهلا عذبا والمآثم مأربا * ولا ابعد الله عنكم هذه الدعوات المشؤمات * ولا كشف عذابه عنكم فى سائر الاوقات * مادمتم بالفجور موصوفين * ولابواب المعاصى طارقين * امين

البحث الثلاثون

فى بيان مطلب ناشئ عن تقدمات التجارة من الفوائد الجليلة النفع بصحيفة (٨٥) من القسم الاول من اتحاف الملوك الالبا

بموجب ما ذكرناه فى التجارة بصحيفة (٨٠) يمكن ان يقال ان بلاد ايطاليا كان لها بعض تجارات مع مدن الايمبراطورية اليونانية من ايام الايمبراطور كرلوس مانوس وكانت هذه البلاد الايطالية تجلب محصولات المشرق النفيسة الثمينة كما ذكره موراطورى وفى القرن العاشر فتحت ابواب التجارة بين اهل البنادقة وبين الاسكندرية بمصر وبين هذه الثغور المذكورة

ومدينتى املفى و بيزه ذكره مورا طورى ايضا وقد بينا فى صحيفة (٣٩) من هذا الجزء كيف كان للمحاربة الصليبية مدخل فى نمو تجارات بلاد ايطاليا وازدياد ثروتها الأسيما تجارتها مع البلاد المشرقية فان اهالى ايطاليا كانوا يجلبون من البلاد المشرقية محصولات الهند بل وتبوا فى بلادهم منفتورات وورشا بديعة الصنع وقد وصف المؤلف مورا طورى عدة من هذه الورش فى مباحثه على فنون القرون الوسطى ومن وقتئذ حصل للايطاليين تقدم كبير فى هذه الورش لا سيما فى ورش الحرير التى مكثت زمنا طويلا وهى خاصة بالاقاليم المشرقية فى آسيا وكانت اقمشة الحرير فى مدينة رومة القديمة غالية جدا حتى انه لم يكن هنالك الا ناس قليلون بمن لهم اقتدار على شرائها وفى زمن الملك اورليان سنة (٢٧٠) كان رطل الحرير برطل من الذهب وفى القرن السادس انشأ الملك جوستونيان فى بلاد اليونان فن تربية دود الحرير وبهذا استعمل الحرير اكثر مما كان عليه وان كان لم يزل غاليا ومعتبرا من انواع الرفاهية وعلامات العظم المخصوصة بالاكابر والاعيان ولا يلبس الا فى المواسم والمحافل العامة وفى سنة ١١٣٠ ارسل روجير الاول ملك جزيرة سيسليا الى مدينة أثينا واحضر منها عدة صنايعية من صناع الحرير واسكنهم بمدينة بالرمة وقوى هذا الملك صناعة الحرير فى مملكته ومنها انتقلت الى اجزاء ايطاليا الاخرى ذكر ذلك المؤلف جيانون فى تاريخ نابلى فانتشرت اقمشة الحرير من وقتئذ حتى انه فى اثناء القرن الرابع عشر كنت ترى فى محفل من محافل مدينة جنو يز نحو الف من اهلها لا يلبس ثياب الحرير ومن محصولات المشرق قصب السكر وذلك انه جلب من آسيا بعض اعوادمن القصب وكان ايضا اول زراعة فى جزيرة سيسليا فى اثناء القرن الثانى عشر ثم بعد سيسليا زرع فى الاقاليم الجنوبية من اسبانيا ثم نقل الى الجزائر الخالدات والى جزائر ماديره ثم الى بلاد امريكة ذاسبرة لو يز كيشادين البضائع والمحصولات التى كانت تجلب الى ميناانورس سنة ١٥٠٠ عد القصب الذى كان محضرا لهذه المينا من بلاد اسبانيا وبلاد

البورتغال وذكر انه من محصولات جزائر مادره وجزائر انطالدات ولم تكن زراعة القصب معلومة فى بلاد الهند الغربية اوانها كانت قليلة فيها وحتى كانت لا تعد فى القرون الوسطى من المواد التجارية الهندية ومع ان السكر كان نادرا حينئذ وكان لا يدخل فى جميع الاستعمالات المعاشية فالظاهر انه كان فرعا عظيما من فروع تجارات ايطاليا

ولما كان الايطاليون يأتون الى بلاد اوروبا بجميع انواع البضائع وفروع التجارات صار لهم موقع عظيم وقبول حسن عند هذه البلاد وفى القرن الثالث عشر استوطنوا فى مملكة فرانسا وصار لهم فيها اعظم مزايا حيث رخص لهم فى الامور التى تغويها تجاراتهم واعطيت لهم حقوق ومزايا شخصية لم تكن ثابتة للرعايا فرتب فى فرانسا قانون خصوصى لمعافاتهم من حق وراثة الغريب الذى تقدم شرحه وحيث كان اللومبرديون (اهل لومبردة وهى قسم من ايطاليا) مستغرقين بجميع تجارات الممالك التى كانوا مستوطنين بها جمعوا فى اقرب زمن مقادير جسيمة من الاموال وصارت النقود المضروبة بين ايديهم يشترون بها بضائعهم بل وكانت هى نفسها نوع تجارة يكسبون منها كسبا عظيما حيث كانوا يرتبون بها بانكات وصيارف عظيمة الربح فانهم فى هذا الفرع وفى غيره من فروعهم التجارية كانوا يسلبون اموال الناس كما هى عادة اهل التحكير فى التجارات من غير ان يعارضهم معارض فى مجاوزتهم الحدود ومما اعانهم على مجاوزتهم الحدود فى التجارات والمعاملات واحل لهم مثل هذه الافعال رأى معمول به عندهم وهو ان التجارة لا تروج الا اذا اعطى المقترض لمقرضه بعض ربح فى نظير استعمال دراهمه التى اقترضها منه لان رأس ماله بيد الغير عرضة للضياع وهذا امر مرتب الآن شرعا فى جميع البلاد التجارية ويسمى ربح الاموال الشرعى فاتفق ان بعض القسيسين فى ذلك العصر ناقض فى جواز هذه العادة واستند الى عبارات من الكتاب المقدس الذى يمنع الربا فمنعت هذه العادة وصارت من وقتئذ من المحرمات التى يأثم فاعلها وسلم فى ذلك ايضا علماء الكلام

السكولاستيكي وايدوه لانهم كانوا يتبعون اراء ارسطاطاليس على ما هي عليه من غير نقد ولا فحص كما ذكره بلاكستون فصارت تجارات اللومبرديين ممنوعة شرعا واذا عثر على احد عقد عقدا بمثل الشروط الاولى عد آثما وعوقب فلما شدد عليهم بهذا الوجه صاروا لا يكتفون بالمبلغ الذى كان يكفيهم وقت ان كانت التجارة فى الاموال مأذونة بالشريعة فكانوا اذا اقرضوا احدا اموالا يطلبون منه مبلغا فى نظير استعمال المال ومبلغا آخر فى نظير عقوبة الربا لانه ربما عثر عليه فلا يسلم من العقوبة وفى القرن الثالث عشر كان الربح المعتاد عشرين على كل مائة كما ذكره موراطورى وقد حصل فى اثناء هذا القرن ان قونتيسة الفلمنك اضطرت الى ان تقترض اموالا لفداء زوجها فطلبت ذلك من بعض تجار ايطاليين او اليهود فكان اقل ما اخذوا منها بها عشرين على كل مائة بل بعضهم طلب منها ثلاثين فى كل مائة ذكره مارتين دورند وفى القرن الرابع عشر (سنة ١٣١١) امر فيليبش الرابع ان لا يزيد الربح الشرعى فى المال باسواق اقليم شمبانيا عن عشرين على كل مائة وفى ارغونيا كان اقل من ذلك وفى سنة ١٢٤٢ رتب الملك ياكوس الاول قانونا وجعل فيه على كل مائة ثمانية عشر لا غير ومن سنة ١٤٩٠ صار الربح فى بليزنسه اربعين على كل مائة وبهذا التكسب العجيب صارت تجارة ايطاليا عظيمة جدا وذكر المؤلف كيشاردان فى تاريخه ان شرلكان جعل ربح المال فى جفالكه التى بمملكة البلاد الواطية لا تزيد عن اثنى عشر فى كل مائة وفى زمن تأليف هذا المؤرخ كان لا يستغرب ان يكون الربح ازيد من ذلك ومع ذلك فقال ان هذا القدر مجاوز للحد وبين بالبرهان النتائج القبيحة التى تنشأ عنه فى التجارة والزراعة وهذا الربح المفرط يكفينا دلالة على ان التجارة كانت حينئذ واسعة الكسب عظيمة الثمرة وفى القرن الثالث عشر استوطن اللومبرديون ببلاد انكلتره بل ويوجد الى الآن فى مدينة لوندره زقاق كبير يقال له زقاق اللومبرديين ولهم فى انكلتره مزايا كبيرة وتجارة واسعة كثيرة الربح والكسب

لاسيما البانكات وذكر المؤلف اندرسون جميع الاوامر الملوكية والوثائق التي اثبتت للومبرديين في انكلترة المزايا والخصوصيات التي جعلت لهم هذا كله وكانت مدينة ابروجه اعظم مراكز تجارات ايطاليا واكبر مخازنها الان الملاحة كانت وقتئذ ضعيفة غير معروفة بحيث كان السفر بحرا من بحر بلطق الى البحر المتوسط لا يمكن تتميمه في صيفية واحدة فمن ثم رأى التجار ان من اللازم لهم ان يجعلوا مخزنا يدعون فيه تجاراتهم في نصف الطريق بين مدآئن الشمال التجارية ومدآئن ايطاليا فرأوا ان مدينة ابروجه هي الاصلح والاوفق لذلك فجعلت مركزا للتجارات بين البلاد واكسب ذلك مملكة البلاد الواطية الثروة وصارت مدينة ابروجه مخزنا لصوف انكلترة ولمحصولات ورش مملكة البلاد الواطية من جوخ واقمشة وللذخائر البحرية وغيرها من الصنايع الآتية من بلاد الشمال والمواد التجارية التي كانت تأتي اليها من ايطاليا سواء كان ذلك من البضائع الهندية او من محصولات ايطاليا التي كان يشتغلها الايطاليون ومما يدل على عظم التجارة التي كانت بين مدينة ابروجه ومدينة البنادقة في المحصولات الهندية هو انه في سنة ١٣١٨ وصلت الى مدينة ابروجه خمسة غلايين كبيرة من البنادقة واسقة وسقا عظيما من البضائع الهندية لتباع في سوق هذه المدينة التي كانت اكبر اسواق اوروبا وشواهد ذلك كثيرة في تواريخ ومؤلفات القرن الثالث عشر والرابع عشر ولا حاجة الى الاطناب في ذلك وانما نقول انها موضحة في تاريخ اندرسون فراجعه ان شئت لكن وان كان كتابنا لا يحتمل الاطالة في شرح ذلك نقول ان هنالك بعض حوادث منفردة يعرف بها غنى البلاد التجارية من الفلمنك وايطاليا ولذلك استنسبنا ان ننبه على بعضها فنقول قد حصل سنة ١٣٣٩ ان دوق اقليم برابنط (من بلاد الفلمنك) عقد نكاح ابنته على الامير نوار ابن ايدوارد الثالث ملك انكلترة واعطى هذا الدوق لبنته من المهر ثلاثمائة الف من لورا السطرلنغ (هو نوع من النقود يساوي في القيمة نحو اربعة وعشرين من الفرنكات والفرنك اربعة من

القروش

القروش الرومية) وكذلك حناغلياس دوق اقليم ميلان (من بلاد ايطاليا) اشهر سنة ١٣٦٧ عقد نكاح بنته على الامير ليونيل دوق كلارنسه وهو ثالث اولاد الملك ايدوارد فدخلت هذه الاميرة لزوجها بمائة الف من لورا السطرلنغ امهرها ابوها بهذ المبلغ كذا ذكر المؤلف ريمير وهذه مبالغ جسيمة تزيد بكثير عما كان يعطيه حينئذ اكبر الملوك و يتعجب منها فى اعصرنا هذه مع ان الاموال قد زادت كثيرا فى اوروبا عما كانت عليه ونمت فيها ثروة الناس نموا كبيرا ولا شك ان مثل هذه المبالغ كانت ناشئة عن كسب التجارات التى كانت تتفجر منها انهار الثروة التى روت تلك البلاد والظاهر ان اول منابع غنى المدائن الموضوعة على بحر بلطق هو صيد سمك الهارنك الذى كان يكثر حينئذ على شواطئ اسوج ودانيمارقه كما هو كثير الآن على شواطئ بريطانيا الكبرى وذكر بعض مؤلفى القرن الثالث عشر عبارة يصف بها الثمرات التى كانت تنشأ عن صيد هذا السمك فقال كان اهل دانيمارقة سابقا يلبسون كفقراء الملاحين واما الآن فتراهم يلبسون الثياب الارجوانيــة والاقمشة الرفيعة وانما جاءهم هـذا الغنى من السمك الذى يصيدونه كل سنة من سواحل اقليم سكونان لان جميع الملل كانوا يذهبون اليهم فى بلادهم بالاموال من ذهب وفضــة و بسائر مواد الرفاهية والزينــة ليستبدلوها منهم بسمك الهارنك الذى اتاحه الله لهم ذكره ارلوندوس لوبسانسيس ثم ان العصبة او المعاهدة الانسياتيقية هى اعظم معاهدة عهدت وفى التواريخ ذكرت وكان منشاؤها فى اواخر القرن الثانى عشر وقد ذكر المؤلف كنيبسوكلد سبب اتفاق الناس عليها وتكلم المؤلف اندرسون على الحوادث الاصلية التى تخص تقدم تجارات هـذه المعاهدة والمزايا التى ثبتت لها فى عدة بلاد والتى تخص الحروب السعيدة التى حصلت بينها و بين عدة من الملوك وتكلم ايضا على الهمة التى بذلتها والشجاعة التى اظهرتها المدافعة عن حرية التجارة وعن الحقوق التى لولاها لما نجحت التجارة وحيث كانت هذه المعاهدة ذات الجد والسعى لا تشتغل الا بامور

التجارة نشأ عنها فى مدة قريبة أن نشرت على جميع بلاد اوروبا رايات عدل وصلح وانتظام لم تمتع بها قبل ذلك قط
واما فى انكلترة فكان تقدم التجارة على غاية من التراخى وسبب ذلك واضح وهو انه وقت ان كانت انكلترة منقسمة بين سبعة ملوك كانت بريطانيا الكبرى منقسمة الى ممالك صغيرة كثيرة لا تنقطع الحروب بينها وبين بعضها وبذلك كانت عرضة لنهب الدانيمارقيين وغيرهم من لصوص الامم الشمالية ولاغاراتهم الخشنية وحيث كانت على هذا الوجه منغمسة فى الجهالة والتبربر كان لا قدرة لها على الاشتغال بالتجارة ولا على ترتيب قانون به يحصل الضبط والربط ومنع الاجحاف والاضرار فلما اجتمعت هذه الممالك وصارت مملكة واحدة واخذت انكلترة فى اصلاح حالها فجاءها النورمنديون بفتوحهم لها فهدموا جميع ما كان اسس فيها وبهذه الحادثة ارتجت انكلترة وانقلب حال العقارات والاملاك بين اهلها حتى ان الملة الانكليزية مضت عليها عدة حكومات وهى لا تفوق من الاغماء الذى حصل لها عقب هذه الحادثة فلما اخذ حال انكلترة فى الانتظام وصار الانكليز مع النورمنديين المتغلبين عليهم كامة واحدة قسمت ملة الانكليز بجميع جهدها فى اثبات دعوى ملوكها ان لهم حق الملوكية فى مملكة فرانسا فصرفت قواها واموالها واتعبت فكرها فى الحروب التى اجرتها لاجل التغلب على مملكة فرانسا فلما عاندهم الدهر فى مشروعاتهم وخسروا فيها كل الخسران واضطروا الى ابطال هذه الحروب الجنونية واخذوا بعدها فى ذوق طعم الراحة وجمعوا بعض قواهم حصلت حروب مهولة بين عائلة يورقه الملوكية وعائلة لنكستره فتراكت ثانيا على مملكة انكلترة مصائب جديدة فلم تكن تجارة انكلترة معطلة بمجرد الحكومة الالتزامية والاخلاق البربرية التى كانت عامة فى القرون الوسطى بل كانت معطلة ايضا بوجود اسباب خصوصية كما رأيت ولاشك ان مثل هذه الحوادث المتتالية مناقضة بالكلية لامر التجارة فهى كافية فى تعطيلها بالكلية او فى تراخيها او بطئها ولو كان هنالك اسباب اخرى تعين على تقدمها

ونجاحها

وقبائحها * فبناء على ذلك كان الانكليز من بين ملل اوروبا هم الذين تأخروا
فى اغتنام فوائد الفرص التى ابدتها لهم الطبيعة فى شأن التجارة فقبل
حكومة الملك ايدوارد الثالث كان صوف انكلترة كله ماعدا شيأ يسيرا
كان يشتغله الاهالى جوخا غليظا خشنيا و يلبسونه يباع لاهل الفلمنك
واللومبرديين لانهم كانوا ينسجونه نعم ان هذا الملك شرع سنة ١٣٢٦
فى احضار بعض نساجين الى انكلترة من بلاد الفلمنك ولكن مضى بعد ذلك
مدة طويلة قبل ان يصير للانكليز قدرة على اصطناع بعض من الجوخ
ليباع للغرباء وكان الصوف الذى ينقل من عندهم بحالته الاصلية الى البلاد
الاجنبية هو اعظم تجاراتهم كما فى تاريخ التجارة للمؤلف اندرسون وجميع
البضائع الاجنبية كانت تأتى الى انكلترة بواسطة تجار اللومبرديين
الانسياتيقية فكانت مينات انكلترة يجلب اليها السفن التجارية من شمال
اوروبا ومن جنوبها وصار الغرباء يتجولون بدون مشقة من الملة الانكليزية
و يحضرون لها جميع ما كانت تحتاجه واول مشارطة تجارية تنسبت
لانكلترة فى تاريخها هى المشارطة التى عقدتها سنة ١٢١٧ مع الملك هاكين
ملك نرويج كما ذكره اندرسون فى الجزء الاول من تاريخه بصحيفة (١٠٨)
ولكن لم تتجاسر انكلترة على ان تتاجر بنفسها وتنشر اعلام جواريها فى بحر
بلطق الا فى ابتداء القرن الرابع عشر ذكره اندرسون بصحيفة (١٥١) ولم يصر
لها بعض سفن فى البحر المتوسط الا بعد نصف القرن الخامس عشر ذكره
اندرسون ايضا بصحيفة (١٧٧) وقبل هذا الزمن بمدة قليلة كانت قد ارسلت
بعض سفن الى مينات اسبانيا والبورتغال وانما اطنبنا فى شرح بطئ
سير التجارة الانكليزية لانه الى الآن لم يعتن بها احد الاعتناء الذى تستحقه
ولا يخفى ان ازدحام الغرباء فى مينات انكلترة بانضمامه الى المخالطة التى
لم تنقطع بين بلاد اوروبا من ابتداء القرن الثانى عشر تكفى فى بيان صحة
الملحوظات التى ذكرناها فى الاتحاف فى شأن مدخلية التجارة فى تحسين اخلاق
الناس وانشاء التأنس والالتئام بينهم فى جمعياتهم

المبحث الحادى والثلاثون

في بيان مطلب وظيفة القاضى الاعظم بصحيفة (١٤٣) من القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا

لم يمكنا ان نعلم على وجه الجزم واليقين على اى حالة كان انتخاب الجوستوزا اى القاضى الاعظم وانما كان اهل العصبة المتعاهدة التى تحزبت على الملك يا كوس الاول سنة ١٢٦٤ يدعون ان الملك لاحق له اصلا فى انتخاب القاضى الاعظم الابرضاء الاشراف كما فى تاريخ اراغونيا للمؤلف ذوريتا بصحيفة (١٨٠) من الجزء الاول ولكن عارضهم الملك فى دعواهم بانه قد جرت العادة منذ احقاب خالية وكذلك جرت قوانين المملكة بان الملك بموجب مزاياه الملوكية له الحق فى ان ينتخب القاضى الاعظم ذكره ذوريتا بصحيفة (١٨١) من الجزء الاول وذكر ذلك ايضا المؤلف بلانكا فى صحيفة (٦٥٦) من تاريخه وذكر ذوريتا فى عبارة اخرى انه مادام اهل اراغونيا لهم حق التعاهد والاجتماع يعنى مادام لهم الحق فى تعاهدهم وتحزبهم على معارضة ملوكهم اذا تعدوا على حقوق الاهالى ومزاياهم كان حق انتخاب القاضى الاعظم ثابتا للملك بل وكان للملك ايضا ان يعزله من منصبه متى شاء ولم ينشا عن هذه العادة الثابتة للملوك شئ مضر اصلا لان مزية التعاهد الثابتة للاهالى كانت قامعة لظلم الشوكة الملوكية ومجاوزتها الحدود ولكن لما بطل حق التعاهد الذى كان ثابتا للاهالى لما انه كان مخالفا لنظام المملكة وراحتها حصل الاتفاق على انه اذا ولى القاضى الاعظم لا يجوز عزله من منصبه مدة حياته ومع ذلك فاتفق كثيرا ان الملك اذا شابه ريب من القاضى الاعظم او اتهمه بخيانة يهم بعزله من منصبه وقد نجح فى هذا الامر ملوك كثيرون ولكن لاجل الاحتراس من التعدى والظلم الذى يضر بالقوانين ويبطل اجرآءها ومن ان يكون القاضى الاعظم كآلة فى يد الملك بحيث لا يمكنه محاماة الاهالى ولا المدافعة عن حقوقهم رتبت مشورة

القورطس (مشورة وكلاء المملكة) سنة ١٤٤٢ قانونا يقول ان هذا القاضي" الاعظم يكون ولاؤه على منصبه مدة حياته ولا يجوز عزله الا باذنهما و بموجب الشرائع القديمة كانت ذات القاضي الاعظم محترمة ولا يجبرا حدا بما يفعله الا مشورة القورطس وقد كتب المؤلف ذوريتا تاريخه وقت ان كان القاضي الاعظم في اراغونيا باقيا على مزاياه الاولى واقتناته الاصلي" وكذلك المؤلف بلانكا ومع ذلك اهمل كل منهما توضيح اشياء كثيرة مما يخص وظيفة هذا القاضي وسبب ذلك انهما انما ارخا لافادة اهل بلادهما وهم كانوا عالمين ما يكفي من وظائف هؤلاء القضاة الذين كانوا معتبرين كانهم حفظة للحقوق الاهلية ولا فائدة في مراجعة تواريخ اسبانيا التي الفت اخيرا في هذا الشأن لان تلك التواريخ مع قدمها ضربت صفحا عن ذكر ذلك لان القوانين القديمة التي كانت بتلك المملكة كانت قد تغيرت صورتها و بنيت فيها حكومة مطلقة على اثار الحرية القديمة التي اندرست وقت ان شرع مؤرخو هذا القرن الاخير وما قبله في تأليف تواريخهم وسبب عدم بحثهم عن ذلك ان بعضهم كان لا يرغب في معرفة حقيقة القوانين التي كانت تكسب آباءهم واسلافهم الحرية السياسية و بعضهم كان يخاف كثيرا فلم يتجاسر على ذكرها مع كثير من الصحة والتدقيق فترى بونا بعيدا بين تاريخ المؤلف ماريانا الذي كله المؤلف مانياناو وكذلك تاريخ المؤلف فراس و بين تاريخي ذوريتا و بلانكا اللذين استنبطنا منهما ما ذكرناه في بيان قانون مملكة اراغونيا

وغير الامور التي قدمناها في الاتحاف مما يخص القاضي الاعظم يوجد ثمة امران اخران جديران بان ننبه عليهما هنا الاول انه كان لا يجوز اقامة القاضي الاعظم من اشراف المرتبة الاولى وانما كان ينتخب من اشراف المرتبة الثانية او من مرتبة الكوالروس الذين كانوا وقتئذ بمنزلة اربابها المشاورو البلدية في انكلتيرة وذلك ان الريكوس هومبروا اي اشراف المرتبة الاولى كان لا يجوز في اي حال عقابهم بعقوبة كبيرة كموت ونحوه فلزم لاجل الامن

العام جعل القاضي الاعظم من مرتبة اخرى بحيث يكون ضامنا اذا تعدى او جاوز حدود منصبه المعطى له و يكون مضطرا الى ان يقتصر على ما يجب عليه ولا يتعداه فى شئ خوفا من الشرائع وشدة عقوباتها كذا ذكر المؤلف بلانكا بصحيفة (٦٥٧) وصحيفة (٧٥٦) وكذلك المؤلف ذوريتا فى الجزء الثانى من تاريخه بصحيفة (٢٢٩) وذكر ذلك ايضا غير هذين المؤلفين و يظهر من عدة عبارات ذكرها المؤلف ذوريتا ان القاضى الاعظم كان مجعولا لمنع اجحاف الاشراف وتعديهم ولقمع شوكة الملك وحيث ان الامر كذلك لزم انتخابه من طائفة من الاهالى غير طائفة الاشراف حتى يكون خلى الاغراض و يكون ميزان عدل لا يراعى شوكة الملوك ولا طائفة الاشراف

الامر الثانى ان القاضى الاعظم لو لم يكن فوقه شوكة اقوى من شوكته لامكنه ان يتصرف فى امور تضر بالمملكة فلم يخف ذلك على المشرعين بل رتبوا فى الشرائع ما يكون دواء لدائه اذا ظهر وفشى فكان ينتخب على وجه القرعة من كل جهة من مشورة القورطس سبعة عشر شخصا ويجعلون فى محكمة يقال لها محكمة التفتيش مكلفة بالتفتيش والبحث فى اقضية القاضى الاعظم واحكامه وكانت هذه المحكمة تجتمع ثلاث مرات فى كل سنة فى اوقات معلومة وكان لكل انسان حق فى ان يتشكى لهذه المحكمة من ظلم القاضى المذكور او وزرائه او اهماله وكان يجوز احضار هذا القاضى بجميع ارباب ديوانه الى تلك المحكمة ليحاسبوا على اعمالهم وكل من ارباب محكمة التفتيش يعطى رأيه سرا ثم يحكمون على كل من ثبتت عليه جنحة من القاضى الاعظم او ارباب ديوانه بضبط امواله الى بيت المال او بالعزل بل ويجوز لهم الحكم بالقتل ولكن الشريعة التى رتبت هذه المحكمة و بينت كيفية اقضيتها واحكامها نسخت سنة ١٤٦١ ذكر ذلك ذوريتا فى تاريخه وكذلك بلانكا وقبل هذا الزمن كان يفتش ايضا فى اعمال القاضى الاعظم لكن بطرق وقوانين غير المذكورة فكان القاضى الاعظم بمجرد توليته يصير

موضعة لتفتيش مشورة القورطس وبهذه التدقيقات الضمينة لنقايض الاغراض كان القاضى المذكور دائما فى الخشية والخوف وكانت الشبيبا تو يلسا سلاله على الاستقلال وتأديتهم واجباتهم على وجه الصحة وحصل فى سنة (١٣٨٦) امر غريب يدل على قوة شوكة القاضى الاعظم ومعارضتها لشوكة الملك وذلك ان قوانين مملكة اراغونيا كانت تثبت لابن الملك الكبرى اولى بطن انه يرث اباه فى المملكة شوكة كبيرة واصرفا عظيما فى المملكة فاتفق ان الملك بطرس الرابع تزوج بامرأة ثانية فأغرته تلك المرأة ان يمنع ابنه من التصرف فى المملكة فسمع كلامها وعزم على ان يجرده من جميع حقوقه وامر رعاياه ان لا يطيعوه فى شىء فعند ذلك رفع الامير دعواه الى القاضى الاعظم الذى كان حمى للرعية من كل ظلم واجحاف يصدر عن الملك فطلب منه القاضى كفيلا يضمن حضوره فى المحكمة عند الطلب واعطاه وثيقة بانه لا يجوز تجريده عن شىء من حقوقه ومن ايامه الابموجب حكمه واقامة الدعوى على يديه فشاع هذا الامر فى المملكة فعلمها وصار الملك بطرس الرابع يعارض فيه ومع ذلك فلم يمكنه تنفيذ ارادته واستمر ابنه على التمتع بجميع حقوقه ونفوذ كلمته فى سائر المملكة

المبحث الثانى والثلاثون

فى بيان مطلب انحصار الشوكة الملوكية فى حدود ضيقة بصحيفة (١٤٤) من القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا

قد جعلنا قول عدة من المؤلفين الثقاة على ان نختبر ان صورة المبايعة التى ذكرناها فى الاتحاف هى الميثاق الذى تعهد به اهل اراغونيا بان لا يخونوا ملكهم ولكن مما نعترف به ايضا ان هذا الميثاق الغريب لم نره ابدا فى كتب مؤرخى اسبانيا التى امكننا الاطلاع عليها فلم نرها فى كتاب ذوريتا ولا فى كتاب بلانكا ولم نرها ايضا فى كتاب اربجونسولا ولا كتاب ساباس مع ان هؤلاء الاربعة كانوا معينين من طرف مشورة القورطس بمملكة

اراغونيا بجمع شرائع المملكة وتقييدها وكل من الاذ بتشكك في اصل غريب بين المؤلفين وهوانهم كانوا يدققون في ذكر تقدم شرائع بلادهم وقوانينها على ما هي عليه فسكوتهم عن الميثاق المذكور جعل في انفس بعض ريب في صحته ولكن حيث ذكر في كتب كثير من المؤلفين بالفاظه القديمة الاسبانية التي كان اصل التعبير عنه بها فيمكن انهم عثروا عليه في بعض كتب القضاة الذين لم تقف لهم على تأليف وايضا ان معنى هذا الميثاق موافق بالكلية لما ل لميثاق قانون مملكة اراغونيا

وبمجرد ما اشتهر كتابنا هذا اول مرة وانتشر بالاقطار تفضل علينا العالم طوليز مدرس علم التاريخ في مدينة بتزوب بدوقية مكانبورغ بان بين لنا حو لحنه ثقة من مؤرخي اسبانيا ذكر صورة هذا الميثاق وهو الشهير انطونيو بيرز كاتب سر الملك فيليبش الثاني وولد في مملكة اراغونيا وذكر الفاظ هذا الميثاق كلمة بكلمة باللغة الاسبانية وهاك معناه كلمة بكلمة نحن نساويك وجعلناك ملكا علينا بشرط ان تحفظ لنا مزايانا وحريتنا والا فلا انتهى ذكره انطونيو بيرز بصحيفة (١٤٣) من تاريخه

ثم ان مزية الاجتماع او التعاهد التي كانت ثابتة لاهل اراغونيا كما ذكرناه في المبحث السابق ونبهنا عليها ايضا في المبحث الآتي هي ولا شك اغرب شئ يمكن حصوله في حكومة منتظمة مثل اراغونيا ولا يخفى ان الميثاق الذي تكلمنا عليه لا يدل على ازيد من هذه المزية الاصلية التي كانت حقا ثابتا لاهل اراغونيا فاذا كان الملك او وزراؤه يتعدون بعض الشرائع او يجورون على المزايا الثابتة للرعايا او لا ينصفون احدا فيما طلب كان اشراف المرتبة الاولى واشراف المرتبة الثانية وجميع قضاة المدن يجتمعون مع بعضهم في مشورة القورطس او في غيرها ويتعاهدون على ان يكون كل منهم امينا في حق الآخر ويتحالفون على ان لا ينقضوا هذا العهد ويحلوا ميثاقه فاذا فعلوا ذلك وتحالفوا يقسمون على الملك بجمع العصبة المتعاهدة على التصفيهم فاذا لم يعتن الملك بطلبهم او يشرع في ادخالهم تحت طاعته بطريق الحرب

يجاز لهم بموجب حق التعاهد ان ينقضوا ميثاق الامان بينهم وبينه ويكرهوا
قابيله عليهم ويتشاوروا فى شأن انتخاب ملك سواء من غيره يأتمروا ولا يصمهم
ضرر من ذلك كما ذكره بلانكا وهذا التعاهد لا يشبه فى شئ معاهدات
غير اراغونيا من الممالك الاخرى المحكومة بحكومة التراتبية لانه كناية
عن تعاهد شرعى يطلب حقوقا ومزايا تامة بشرائع المملكة وقوانينها
فتصدر من ارباب اوامر باسم الاهالى وكان يجرى جميع افعاله بموجب قوانين
ورسوم استمرارية لا تتخلف ولم يكن هذا الحق الخطر مجرد زعم وادعاء غير
ثابت بل جرى به العمل غير مرة ففى سنة ١٢٨٧ تعاهد اهل اراغونيا
على معارضة الملك الفونس الثالث وجبروه على ان يعطيهم ما كانوا يطلبونه
وعلى اقرار حق هذا التعاهد الذى هو مضر بالشوكة الملوكية كذا قال
ذوره يتالف تاريخه بصحيفة (٣٢٢) وفى سنة (١٣٤٧) تعصب اهل
اراغونيا على الملك بطرس الرابع وحصل لهم نجاح اثبت لهم حق التعاهد
وزاده ثباتا بيدا ذكره ذوربتا ايضا ولكن بعد ذلك بمدة قليلة هزم الملك بطرس
الرابع رؤساء هذا التعاهد وكانوا مصطفين ونسخ حق التعاهد بالكلية
من مشورة القورطس وابطل ايضا جميع القوانين والشرائع التى كانت تثبته
وطلب هذا الملك بحضرة ارباب مشورة القورطس الوثيقة التى كان قد اقر
فيها هذا التعاهد فلما اخذها جرح يده بخنجره ووضعها على الوثيقة قائلا
يلزم ان لا تمحى هذه المزية التى كانت خطرة على الدولة ومضرة بالشوكة
الملوكية الا بدم ملك من الملوك انتهى كذا ذكر ذوربتا
ثم ان الشريعة التى نسخت حق التعاهد حفظت ومن يومئذ صار القاضى
الاعظم حصنا متينا للحرية العمومية ولكن لم ينشأ عن شوكته واقتداره
من الفتن الكبيرة مثل ما نشأ عدة مرات عن حق التعاهد ومع ذلك كانت
قوانين اراغونيا لم تزل على غاية من الحرية ومن جملة اسباب هذه الحرية قبول
وكلاء المدن من مبدء الامر فى مشورة القورطس ويظهر من كلام ذوربتا
ان الاهالى كانوا يقبلون فى مشورة القورطس منذ انشاء اول قانون فى المملكة

وقد تكلم على عقد مشورة القورطس حصلت في سنة (١٣٢٠) وقبل بان الاهالي
قد قبلوا فيها بلسم وكلاء المدن وذكر ايضا انهم بهذا الاسم كانوا يدخلون في كل
مشورة تنعقد من مشاور القورطس وكانوا كذلك مسمين به في الدفاتر
والظاهر ان مثل هذا المؤرخ الثقة لا يسميهم بهذا الاسم الا اذا كان تقلد ذلك
من محال صحيحة ومن ذلك الوقت مضى نحو قرن قبل ان يحصل في غير اراغونيا
من ممالك اوروبا قبول لوكلاء المدن في المشاور الملية واما حكومة
اراغونيا فقد امتازت بالحرية في عدة احوال حيث كانت فيها مشورة
القورطس تمنع الملوك من تنجيز ما يشرعون فيه لاجل ازدياد ايراداتهم
واتساع دائرة مزاياهم وكانت ايضا تطلب حقوقا عظيمة وتنالها وكانت
شوكتها كبيرة بحيث كان يتعجب منها حتى في البلاد المتعودة على التمتع
بالحرية ففي سنة (١٢٨٦) ادعى ارباب مشورة القورطس بان لهم الحق
في انتخاب ارباب مشورة الملك وانتخاب ضباط قصره والظاهر انهم ظفروا
بذلك ومكثوا يتمتعون به برهة زمن كما ذكره ذوريتا وكان من جملة حقوق
مشورة القورطس انتخاب ضباط الجيوش المرتبة باوامرها كما يفهم ذلك
من بعض عبارات ذوريتا وفي سنة (١٥٠٣) جددت تلك المشورة فرقا
عسكرية لترسلها الى بلاد ايطاليا وحررت للملك امرا بانتخاب الضباط
العمومية التي تكون رؤساء على هذه الفرق ذكره ذوريتا وذلك يدل على ان
هذا الحق لم يكن من حقوق الملك وذكر بعض المؤلفين عرضين عموميين اشهرا
لطلب حقوق اهل اراغونيا ومزاياهم احدهما في زمن حكم بطرس الاول
سنة (١٢٨٣) والثاني في حكم باكوس الثاني سنة ١٣٢٥ ولكنهما مفرطان
في الطول بحيث لا يليق ذكرهما هنا وانما نقول يفهم منهما ان مزايا الاشراف
وحقوق الاهالي كانت حينئذ اعظم واحكم من الحقوق والمزايا التي كانت
ثابتة لكل من هاتين الطائفتين في مملكة اخرى من سائر ممالك اوروبا حيث
كان الملك متعاهدا معاهدة شرعية صحيحة بحفظ حقوق الاهالي وحريتهم
وكان ارباب مشورة القورطس يغارون على حفظ قوانينهم وشرائعهم الغيرة

التى هى من عادات كل مملكة ذات حرية بل كانوا يدققون تدقيقا كليا فى حفظ
ادق رسوم جرت بها العادة عندهم فمن جملة شرائعهم وعوايدهم
انه لا يجوز لاجنبى عنهم ان يدخل فى الديوان الذى ينعقد فيه مشورة
القورطس ولما سافر الملك فرديننذ الى غزواته فى بعض الجهات سنة (١٤٨١)
اقام زوجته ايزابيله وكيلة عنه فى المملكة وكان بموجب الشريعة انه اذا اقيم
وكيل على المملكة يلزم ان يحضر بمشورة القورطس ليعقد امام اربابها
ميثاق الامان وحيث كانت الملكة ايزابيله غريبة وليست من ارباب
مشورة القورطس لزم فى هذه الصورة ان كتب ارباب تلك المشورة امرا
للحاجب بان يفتح لها باب الديوان و يعطيها الجازة بالدخول قال المؤلف
ذوريتا وذلك فى مدة ما كان اهل اراغونيا معتنين بحفظ رسومهم
وعوايدهم ولوالادنى منها انتهى

وكما كان ارباب مشورة القورطس يحافظون على الحقوق الشخصية للاهالى
كانوا يغارون كذلك على حفظ حرية القوانين والشرائع وكانت شرائعهم
متيقظة دائما لحفظ كل من هذين الامرين وهنا حادثتان فيما يخص هذا
الشان جديرتان بان ننبه عليهما الاولى هى انه صدرت اوامر سنة (١٣٣٥)
بمنع تعذيب اهل اراغونيا لاجل الاقرار وحكم بان المدعى عليه
اذا لم تثبت عليه الدعوى بالبينة يكون بريا كما ذكره ذوريتا مفتخرا بهذا
القانون لكونه يدل على مروءة اهل وطنه فشبه شرائع اراغونيا بشرائع
رومة التى كانت تستثنى الاحرار وسكان المدن من هذا التعذيب
الخشنى الفاحش الذى يؤدى الى الفضيحة وهتك العرض وكان لا يذوقه فيها
سوى المستعبدين الارقاء ولاشك ان مدح هذا المؤلف لشرائع بلاده
فى محله لان هذا التعذيب كان فى ذلك الوقت مستعملا عند جميع ملل اوروبا
الآخرين حتى فى انكلترة التى نسخ منها منذ زمن طويل بموجب شريعة
مبنية على الحكمة والمروءة

وهنا الحوادث اخرى تدل على ان ما كان من خصوصيات شرائع اسبانيه

كالحرية والمحافظة على الحقوق والمزايا كان كذلك موجودا فى طباع اهاليها وكان ذلك سببا فى حصول الحادثة الثانية وهى انه فى سنة (١٤٨٥) حصل ان الملك فرنندو وزوجته الملكة ايزابيلة لتولعهما بالدين ارادا ان يرتبا محكمة تفتيش قاثوليقية فى مملكة اراغونيا ومع ان اهل اراغونيا كانوا يميلون للمذهب القاثوليقى الرومانى كغيرهم من اهالى اسبانيا ويرغبون كثيرا فى قطع عرق الضلالات والبدع التى غرسها المسلمون واليهود فى بلادهم قاموا على قضاة هذه المحكمة القاثوليقية وشهروا عليهم السلاح وقتلوا رئيسهم ومكثوا زمنا طويلا يعطلون انشاء هذه المحكمة والسبب الذى أبدوه فى عصيانهم هو ان طرائق محكمة التفتيش فى اجراء اقضيتها واحكامها مخالفة للحرية وذلك انه فى هذه المحكمة لم يكن القضاة يحضرون المدعى عليه مع الشهود ويسألونه امامهم بل كانوا يعلمونه ابدا بما شهد به الشهود عليه وانما كانوا يعذبونه ليقر بما ادعى عليه به واذا ثبت وحكم عليه بعقوبة كانت جميع امواله فيأ لبيت المال (ذكره ذوريتا)

ثم ان شكل حكومة مملكتى والنسة وقثالونيا اللتين ضمتا الى مملكة اراغونيا كان ملائما للحرية كشكل حكومة اراغونيا حيث كان اهل والنسة يتمتعون بمزية الاجتماع او التعاهد بالمعنى السابق كاهل اراغونيا ولكن لم يكن لهم قاض يشبه الجوستوزا واما اهل قثالونيا فكانوا يغارون ايضا على حريتهم كاهل اراغونيا واهل والنسة وكانوا يدافعون عنها بقوة عزم وشجاعة كاهالى هاتين المملكتين ولا حاجة الى ان نطنب اكثر مما ذكرناه فى شأن الخصوصيات التى كانت ثابتة لهذه الممالك بالنظر الى ترتيبها وقوانينها الان ذلك ليس بلازم فى توضيح ما قدمناه فى الاتحاف

المبحث الثالث والثلاثون

فى بيان قوله وكان عدد وكلاء المدن كثيرا الى قوله فى الدولة بصحيفة (١٤٦) من مطلب قانون قسطيلة وحكومتها بصحيفة (١٤٥) من القسم الثالث

من اتحاف الملوك الالبا

طالما بحثنا من غير طائل فى تأليف مؤرخى مملكة قسطيلة عن فوائد يمكننا ان نعرف بها درجات تقدم شرائع الحكومة فى هذه المملكة اونوضح كيفية ترتيبها وقوانينها على وجه الصحة كما فعلنا ذلك فى قوانين اراغونيا وحالتها السياسية فان جميع تواريخ قسطيلة وكذلك شرائعها القديمة لاسيما كتاب الشريعة المسمى لوفوير وجوزكو تدل على ان ملوك قسطيلة كانوا فى الاصل يولون على سبيل الانتخاب فكان ينتخبهم الاساقفة والاشراف والرعية والظاهر ايضا من هذا الكتاب القانونى المذكور ان حقوق ملوك قسطيلة ومزاياهم كانت قليلة جدا وقد ذكر المؤلف ويلالديكو فى شرحه على الشرائع بعض حوادث واسانيد تثبت هذين الامرين واما العالم جيدوس الذى كان عارفا حق المعرفة بكتب اسبانيا الادبية وتواريخها فانه تشكى من كونه لم يجد احدا من المؤلفين بين بيانا شافيا ما يتعلق بشورة القورطس اوالجمعية الملية الكبيرة التى كانت تنعقد فى قسطيلة وبتوضيح كيفية انعقادها وبيان مقدار عدد اربابها الذين كان لهم الحق فى حضورها ولكن ذكر المؤلف جيل كونزال داويلا الذى الف تاريخ هنرى الثانى بعض مكاتيب ومراسلات حررها هذا الملك الى مدينة ابولا تفيد ان هذه المدينة قد انتخبت وكلاء ارسلتهم لمشورة القورطس التى عقدها الملك سنة (١٣٩٠) ويستفاد مما قاله هذا المؤلف ان احبار القسيسين والدوقات والملتزمين ورؤساء المراتب الثلاثة العسكرية والكوندات واكابر الاشراف كل هؤلاء دعوا الى الحضور فى تلك المشورة وكانوا فريقين فريق القسيسين وفريق الاشراف وكانا عضوين لهذه المشورة المشرعة وكان هنالك ثمان واربعون مدينة بعثت رسلا تنوب عنها بتلك المشورة وكان مقدار هؤلاء الرسل يبلغ مائة وخمسة وعشرين (لان كل مدينة كان لها الحق فى ان تبعث الى تلك المشورة من الوكلاء بحسب قدرها وعظم شوكتها) كما ذكره جيدوس ولما تكلم ذوريتا الذى كانت عادته الصدق والتحقيق

على مشورة القورطس التى عقدها الملك فرديناند فى مدينة طوروسنة ١٥٠٥ ليثبت لنفسه حق الملوكية على قسطيلة بعد موت زوجته الملكة ايزابيله ذكر اسماء ارباب هذه المشورة واسماء المدن التى ارسلت وكلاءها اليها ويظهر من كلامه انه لم يكن فى تلك المشورة من وكلاء المدن الا ثمانية عشر رسولا وبين هذا القدر والمتقدم بون بعيد بالنظر لهاتين المشورتين وليس فى وسعنا توجيه ذلك ولا تبيان سببه

المبحث الرابع والثلاثون

فى بيان قولنا فى المطلب السابق فلما رأى الاشراف الى قولنا ملوكهم العظام بصحيفة (١٤٨) من القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا

كان معظم اراضى اسبانيا للاشراف وقد الف العالم ماريئوس سيكولوس فى ايام الامبراطور شرلكان كتابا ذكر فيه اشراف اسبانيا ومدخولات اموالهم ونص على ان ماذكره فى هذا الشان صحيح بالكلية وعلى مقتضى كلامه تبلغ سنويات اراضى الاشراف مليونا واربعمائة واثنين وثمانين الفا من الدوقات (نوع من النقود) واذا قابلت بين قيمة النقود فى القرن الخامس عشر وقيمتها الآن ولاحظت ان ماريئوس المذكور لم يتكلم فى تأليفه الا على اكابر الاشراف الممتازين ذوى الالقاب والانساب الفاخرة رأيت هذا المبلغ جسيما جدا * وكانت جمعيات مملكة قسطيلة البلدية فى منازعاتها ومجادلاتها مع الملك التى سنذكرها لك فى غير هذا المبحث تشتكى من اتساع اراضى الاشراف وتدعى ان هذا الامر مضر بالمملكة ويستفاد من بعض العرضحالات التى كانت تقدمها هذه الجمعيات البلدية ان الملك لم يكن له اكثر من ثلاث قرى فى المسافة الكبيرة التى كانت بين اقليم والادوليد ومدينة سنجاكوس فى اقليم غاليس مع ان هذه المسافة كان مقدارها مائة فرسخ ومابقى منها كان للاشراف من غير ان يدفعوا عليه خراجا ويظهر مما قاله المؤلفون الذين ذكرهم المؤلف بواديله ان الادلالك الواسعة

التى كانت للاشراف وارباب امارة الشوالرى كان قد اعطاها لهم ملوك قسطيلة فى نظير كونهم اعانوهم على طرد المسلمين من المملكة وصار للاشراف بهذا السبب كلمة نافذة وسطوة كبيرة فى المدائن التى كان كثير منها تحت ولاية هؤلاء الاشراف قبل ذلك اى كانوا ملتزميها

المبحث الخامس والثلاثون

فى بيان قوله فى المطلب السابق ايضا واذا علم الانسان الى قوله فى جميع ممالك اسبانيا بصحيفة (١٥٠) من القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا

قد سبق لك فى المبحث الثامن عشر انه لم يمكننا ان نعرف على وجه الصحة اصل ترتيب الجمعيات الاهلية او المدائن الحرة فى مملكة اسبانيا وانما يمكن ان يقال انه بمجرد خلوص هذه المدائن من ربقة اسر المسلمين صار يسكنها اناس اعيان ذوو شوكة وصولة ولذلك صار لهم جميع مزايا الاكابر فى الحكومة الاهلية وفى الافتاء والاحكام ويوجد الى الآن براهين جلية تدل على بهاء مدائن اسبانيا الذى كانت عليه وثروتها وشوكتها فقد وصف لنا المؤلف جيروم بولوس مدينة برسولون فشبهها بمدينة نابلى فى الكبر وبمدينة فلورنسه فى ظرف المبانى وكثرة الورش واتساع التجارة وذكر المؤلف مارينوس ما يفيد ان مدينة توليده كانت مدينة كبيرة كثيرة الاهالى وكان فى اهاليها اناس اعيان ممتازون وكانت تجارتها زاهية زاهرة وكان يكثر بها خصوصا ورش الحرير والصوف لان هذين الفرعين كان عدد الناس الذين يشتغلون بهما يبلغ نحو عشرة آلاف وقال ايضا لا اعرف مدينة تفضل بظرافتها وثروتها على مدينة توليده انتهى وهاك حادثة تدلك على اهالى هذه المدينة وهى ان سكانها اقاموا (سنة ١٥١٦) على الكردينال اكزيمينيس فخرج ثلاثون الفا شاهرين السلاح فى هذه الواقعة وكلهم من تلك المدينة ومن الاراضى التابعة لها ثم ان الورش التى كانت فى اسبانيا لم يكن يخرج منها ما هو لازم لاهاليها فقط بل كان يخرج منها ايضا بضائع الى البلاد الاجنبية وهذه

البضائع كانت كنزا عظيما تغنى منه اهالى اسبانيا وتزداد ثروة ولا يخفى ان القوانين البحرية التى كانت بمدينة برسولون صارت اساسا للقوانين التجارية الموجودة الآن كما ان قوانين جزيرة رودس كانت كذلك اساسا للقوانين التجارية عند الاقدمين لان جميع الايالات التجارية التى كانت فى ايطاليا اقتدت بهذه القوانين ونسجت على منوالها فى شأن التجارة و يظهر من بعض الاوامر الصادرة عن ملوك فرانسا ان تجار مملكتى اراغون اواراغونيا وقسطيلة كانوا بموجب هذه القوانين يتمتعون بما كان يتمتع به تجار ايطاليا من المزايا والخصوصيات وبالجملة فكانت المدآئن على حالة زاهية زاهرة حتى صارت فى اقرب وقت حزبا محترما فى الجمعية وصار لها كلمة نافذة فى شأن التشريع ووضع القوانين وكان قضاة برسولون يطلبون اعظم شرف كان يدعيه بعض الرعايا فى اسبانيا وهو كونهم يسترون رؤسهم بحضرة الملك و يعاملون كاكابر المملكة واعيانها

المبحث السادس والثلاثون

فى بيان قوله لان امرآء هذه المراتب الى قوله ان يساووا ملكهم فى المقام والاعتبار بصحيفة ١٥٢ من مطلب انضمام رياسة الرتب الثلاثة العسكرية الى الملك بصحيفة (١٥١) من القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا

كان اعظم واغنى المراتب الثلاثة العسكرية التى ترتبت فى اسبانيا هى رتبة سنجاكوس التى ترتبت سنة (١١٧٠) واقرها فرمان صدر من اسكندر الثالث تاريخه سنة (١١٧٦) وكان فى ذلك الوقت جزء عظيم من اسبانيا فى اسر المسلمين وكانت جميع الخلوات عرضة لسلب المسلمين واللصوص فترتبت طائفة سنجاكوس المذكورة لاجل طرد المسلمين اعداء النصارى من تلك البلاد وقمع من كانوا سببا فى وقوع الفشل والفتن التى كانت تمنع من الامن العام واطمئنان الناس وحيث كان القصد منها ذلك فلا غرابة فى كون الناس قد استحسنوها وساعدوا فى تتميمها ثم ان ثروة هذه الطائفة كانت كبيرة

وكانت

وكانت شوكتها قد بلغت الدرجة القصوى حتى قال بعض المؤلفين ان رئيس هذه الطائفة كان بعد الملك اعظم ارباب الشوكة والامتياز من اهالى اسبانيا وقد ذكر بعض المؤلفين ايضا ان هذه الطائفة كان لها فى مملكة قسطيلة جميع ما تتطلع اليه وتتطلبه نفوس الملوك كما ذكره ذوريتا

وكان من دأب اهل تلك الطائفة ثلاثة اشياء الطاعة والزهد وعدم الانهماك مع نسائهم فكانوا يطيعون اوامر رئيسهم وكان يخرج منهم نحو الف رجل متسلحين وكل منهم كان له اتباع معلومون وعلى حسب عوايد ذلك العصر كان التابع يصحب متبوعه فى ميدان الحرب فيؤخذ من ذلك ان رجال هذه الطائفة كانوا عديدين يخشى بأسهم * وكان لتلك الطائفة ايضا كثير من المزايا والخصوصيات كما ذكره المؤلف هونورى فيسهل حينئذ على الانسان ان يعرف ان الملك كان يخشى من رئيس هذه الجيوش الذى كان منوطا بادارة ايرادات جمة وكان يتصرف كيف يشاء فى كثير من المناصب والمصالح المهمة * نعم ان الطائفتين الاخريين لم يكونا مثل هذه الطائفة المذكورة فى الثروة ونفوذ الكلمة غير ان كل طائفة منهما كانت قوية الشوكة جدا ولكن لما تغلب عساكر طائفة سنجاكوس على اقليم غرناطة وتخلصوا بسبب ذلك من امراء اعدائهم المسلمين الذين هم القصد من انشاء هذه الطائفة قامت بانفسهم اوهام جديدة بذلوا غاية جهدهم فى المدافعة عنها فزادوا على ميثاقهم القديم شيأ آخر وهو ان قالوا نأخذ المواثيق على انفسنا اننا نعتقد ان السيدة مريم ام عيسى قد حملت به من غير ان تجيء شيأ فريا واننا انصار لهذا الاعتقاد بجمهورنا واحادنا انتهى وكان ظهور هذا الوهم فى اثناء القرن السابع عشر ولم يكن هذا القول خاصا بطائفة سنجاكوس بل كذلك طائفة كلتراوه التى هى ثانى طائفة من الطوائف العسكرية الثلاثة اظهرت الغيرة التامة والشجاعة والعزم فى هذا الامر الذى فيه تشريف مريم لانهم كانوا من جملة انصارها الامناء وقد عبروا عن هذا المقصد بعبارة كلامية ادق من عبارة طائفة سنجاكوس حتى يمكن ان عبارتهم يسر بها من اطلع عليها

من امة الانكليز

ذلك استثنيناذكرها هنا فنقول ان كل من انتظم فى سلك هذه الطائفة
يؤخذ عليه الميثاق امام من كان منوطا بذلك وصيغة ميثاقه ان يقول مما
التزم به لله تعالى ولرئيس طائفتنا ولك ايها المنوط باخذ المواثيق اذا انت
خليفة الله فى ذلك انى من هذا الوقت الى ما لانهاية اعتقد اعتقادا جازما
ان السيدة مريم ام عيسى عذراء وانها حملت به من غير ان تأتى شيأ فريا
ولم ترتكب فى حملها به ما يدنس عرضها وانها عند هذا الحمل السعيد وامتزاج
روح القدس بجسمها انعم الله تعالى عليها بصيانتها عن ارتكاب الفاحشة
فى نظير ما حصل فيما بعد من التعذيب والاساءة والقتل لابنها الذى انقذنا
معاشر البشر من عقاب الخطيئة التى اقترفها آدم حيث سبق ذلك فى علمه
تعالى وهذا اشرف انواع الفداء التى تعلقت بها ارادة الله تعالى فى شان بنى آدم
وانقاذهم من محذور اراد سبحانه تخفيفه عنهم واتعهد بانى احيى واموت على
هذه العقيدة معتقد اشرف السيدة مريم بصيانتها عن الامر المذكور
لان هذا الشرف من تعلقات قدرة الرب القدير الذى له خرق العوائد انتهى
ومع ان كنيسة رومة ابت ان تضع اقرارها على هذا الرأى وهو ان الحمل كان
مع الصيانة بل قبل كل من الطائفتين القسيسيتين وهما طائفة سند ومينيق
وطائفة سنفرنسوا آرا المخالفة لهذا الرأى استمر اهل اسبانيا محافظين على
هذه العقيدة المشرفة للسيدة مريم حتى ان ملك اسبانيا فى سنة (١٧٧١)
رتب طائفة عسكرية جديدة ليشهر بها ولادة حفيده وجعلها تحت حماية
العذراء نظرا لاكرامها من الله تعالى حيث حملت بعيسى من غير ان يمسها
بشر وحيث ان هذه الغيرة لها نوع شبه بالغرض الاصلى من ترتيب امارة
الشوالرى فلا غرو ان هذه الطائفة مكثت مقبولة بين الطوائف العسكرية
مدة تولع الناس بالامارة الشوالرية ولكن فى عصرنا هذا يتعجب
من احداث مثل هذه الطائفة الشهيرة لاجل تأييد رأى غريب لامستند له
فى الانجيل

المبحث السابع والثلاثون

في بيان قوله بصحيفة (١٥٤) بل عرف ان يستفيد من هذه الحادثة الى قوله ونظام الجمعية من المطلب السابق

قد نبهنا في مواطن كثيرة مما يتعلق بتاريخ القرون الوسطى على اختلال السياسة وعدم الضبط والربط في تلك القرون لضعف الحكومة وعدم الارتباط كما ينبغي بين طوائف الناس وسبق لك في بعض المباحث ان هذا العيب اعان كثيرا على منع المخالطة بين الامم بل وبين اهل المملكة الواحدة فاذا اطلعت على تواريخ اسبانيا ورأيت ما فيها من كثرة القتل والسلب والظلم الذى كان يحصل في اسبانيا نفرت نفسك وتشوش ذهنك وتصورت ان حالة تلك المملكة وقتئذ كانت تقرب من حالة الفطرة التى هى حالة اختلال وفشل نعن كثرة الفتن والتقلبات لزم انشاء محكمة سميت سنتهرمنداد ولكن كانت خواطر الاشراف تراعى حينئذ كل المراعاة حتى كان يحترس الغاية في اول الامر من كون انشاء هذه المحكمة يضر بالاشراف او يعكر عليهم في شئ فصار افتتاه هذه المحكمة مقصورا على ان تبحث عن معرفة الجنايات الكبيرة التى تضر بالامن العام واما غيرها من الجنايات فكان منوطا بالقضاة المعتادين فكان الانسان اذا ارتكب خطيئة كبيرة كنقض الميثاق وما اشبه ذلك وطلب امام قضاة محكمة سنتهرمنداد لا يمكن لهؤلاء القضاة ان يحكموا عليه بجزاء من عندهم وانما كانوا يحيلون دعواه على قاضى بلده ومع ذلك كله استشعر بارونات المملكة ان هذه المحكمة على طول الزمان تضر بحقوقهم وافتياتهم فتوقفت بشورة القورطس بمملكة قسطيلة في ان تقر انشاء هذه المحكمة ولكن تحيل الملك فرد يننده على رئيس تلك المملكة حتى رتب هذه المحكمة في الجزء الذى كان فيه اراضى هذا الرئيس والتزاماته من مملكة قسطيلة وهذا الامر بانضمامه الى اقرار اهل اسبانيا انشاء هذه المحكمة اعان الملك فرد يننده على ان ازال جميع

العوائق الاخرى التى كانت تحول بينه وبين مقصده من انشاء محكمة سنتهرمنداد وقد تحزب اشراف اراغونيا على منع احداث هذه المحكمة وناقضوا فيها بجميع جهدهم فدافع عنها الملك فرديننداعظم المدافعة ومع ذلك اضطر الى ان رخص لهم فى بعض ما كانوا يطلبونه لاجل تسكين غضبهم كما ذكره ذوريتا *والظاهران محكمة سنتهرمنداد كان لها فى قسطيلة شوكة كبيرة وايرادات واسعة وقت ان كان الملك فرديننديتجهز لقتال المسلمين الذين كانوا باقليم غرناطة وذلك ان هذا الملك طلب منها ستة آلاف من الدواب لحمل الاحمال وبر المواد والاثقال وطلب ثمانية آلاف من الرجال لاجل توصيل هذه الدواب فاعطته ما طلبه *وفيما بعد عرف اهل اسبانيا ان انشاء هذه المحكمة شئ مهم نافع جدا لحفظ الامن العام ومنع الناس عن ارتكاب الذنوب وانواع المظالم حتى ان هذه المحكمة توجد فيها الى الآن مع انها ليست بلازمة ولا يحتاج اليها الآن فى قمع شوكة الاشراف ولا فى توسيع دائرة الشوكة الملوكية

المبحث الثامن والثلاثون

فى بيان سطلب شوكتها اى الجمعيات العمومية فى الدولة الثالثة بصحيفة (١٥٥) من القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا

لا شئ يوقع الانسان فى الزلل والخطأ اكثر من كونه يحكم على قوانين الاعصر الماضية واخلاقها بموجب قوانين عصره واخلاقه ومع ذلك فهذا امر شائع كثير بين العلماء فمنه ان فقهاء مملكة فرانسا المار ذكرهم رأوا ان ملوكهم كانوا يتمتعون فى القرن السادس والسابع بشوكة كبيرة وكانوا مطلقى التصرف ظنوا انه يجب عليهم ان يثبتوا انه كلما كانت حكومة فرانسا ملوكية ثبت لملوكها الشوكة واطلاق التصرف حتى ان المؤلف ريال لما تكلم على عصره وكانت فيه حكومة فرانسا ملوكية قال ان حكومة فرانسا الآن ملوكية محضة كما كانت كذلك من مبدء امرها وان ملوكنا معشر الفرنساوية كانوا فى الاصل مطلقى التصرف كما هم الآن انتهى *ومع ذلك لم يعهد فى الجمعيات المدنية

حالتان متباينتان اكثر من حالة المملكة الفرنساوية فى ايام الملك قلو يس وحالتها
فى ايام الملك لويز الخامس عشر * ويظهر من قوانين الطوائف التى كانت
استوطنت ببلاد الغلية وبالبلاد المجاورة لها ومن تاريخ المؤلف اغرغوار
التورسانى وغيره من المؤرخين الاقدمين ان صورة الحكومة بين هذه
الطوائف كانت خشنية جدا وانهم كانوا وقتئذ آخذين ان يعرفوا بعض اشياء
من اصول النظام والضبط والربط اللازم لحفظ كل جمعية كبيرة وكان للملك
او للرئيس شوكة ونفوذ كلمة على العساكر ولكن لم يكن ذلك خوفا منهم بل كان
بارادتهم واختيارهم حيث كانوا لا يجبرون اصلا فى شأن مشروع حربى
ولذا كانت تسميتهم اصحابا اولى من تسميتهم عساكر وقد برهنا على ذلك
بطريق جلى فى المبحث السادس * وقد ذكر المؤلف اغرغوار التورسانى واقعة
غريبة تدل على ان ملوك فرانسا سابقا كانوا فى طوع عساكرهم وحاصل
هذه الواقعة ان الملك قلوتير الاول سنة (٥٥٣) توجه الى قتال السكسونيين
فلما وصل بجيوشه اليهم فزعوا منه وطلبوا الصلح والتزموا ان يدفعوا له مبلغا
جسيما لاجل تسكين غضبه وغيظه فرضى قلوتير بذلك وعزم على عدم الحرب
ولكن لم يرض عساكره بذلك بل شددوا عليه ان لا يقبل شيأ وان لابد من
الحرب معهم فصار الملك بفصاحته يعظهم ان يقبلوا الصلح من السكسونيين
على هذه الشروط بل فرض السكسونيون على انفسهم ان يعطوا العساكر
هذا الملك مبلغا اكبر من المبلغ الذى التزموا به للملك اولا ولما الح هذا الملك على
العساكر ان يرضوا بالصلح غضبوا منه وهجموا عليه فى صيوانه ومزقوه
وصاروا يسحبونه حتى اخرجوه منه وهموا بقتله لولا رضاؤه حالا بالتوجه
معهم لمصادمة الاعداء

وحيث كانت شوكة قدماء ملوك فرانسا ضيقة على هذا الوجه مع جيوشهم
يستفاد من ذلك ان مزاياهم مدة الصلح كانت اضيق من ذلك * وكانوا يولون
منصب الملوكية على سبيل الانتخاب من طرف الرعايا لا على سبيل الخلافة
او الوراثية ولا حاجة الى ذكر ما يستدل به على ذلك من عبارات المؤلفين وانما

تفصيلات على الكتاب المسمى تاريخ الغلية الفرنساوية فانك تجد فيه براهين جلية على ذلك مستنبطة من كتاب المؤلف اغرغوار التورساني والمؤلف ايموان وغيرهما من المؤرخين الثقاة الذين كتبوا تاريخ الدولة الاولى من دول ملوك فرانسا * ولا شك ان القصد من تولية الملوك على سبيل الانتخاب هو ان لا يكونوا مطلقي التصرف في افعالهم واوامرهم لان جميع ما يخص مصالح الملة كان امره يفوض لمشاور الملة وكان ينعقد لهذا الشان في كل سنة مشورتان احداهما تسمى غيط ايار والاخرى تسمى غيط ادار وانما سمي مثل هذه المشاور الملية غيطا لان الامم الخشنين كانت عادتهم ان يعقدوها في الخلاء في بعض سهول واسعة جدا حتى تسع الناس الكثيرين الذين كان لهم الحق في الحضور بها كما ذكره المؤلف سور بوروس وانما سميت احداهما غيط ايار والاخرى غيط ادار لانهما كانتا ينعقدان في هذين الشهرين فما كانت تنعقد في شهر ايار سميت غيط ايار وما كانت تنعقد في شهر ادار سميت غيط ادار وكانت غيط ايار تسمى ايضا مشورة ايار وغيط ادار تسمى مشورة ادار * وقال بعض المؤرخين انه في هذه المشاور كان يبحث عما فيه سعادة المملكة ونفع الملة كما ذكره المؤلف فريديكير والمؤلف دوكنج وقد سرد الملك قلوتير الثاني المواد التي كانت هذه المشاور منوطة بها واقرانها بالشوكة ونفوذ الكلمة فقال انما جمعت هذه المشاور لان جميع ما يخص الامن العام ينبغي ان يحكم فيه بمشورة عمومية فيجب على حينئذ ان اعمل على وفق ما ينضبط عليه الرأى فيها انتهى كذا ذكره المؤلف ايموان في تاريخ فرانسا والمؤلف بوكيت في كتابه المسمى زبدة التواريخ * ثم ان الخلاصات او الاوامر التي كان يستقر عليها الرأى في تلك المشاور وتنشر في المملكة ليجرى العمل عليها لم تكن باسم الملك وحده بل كان اربابها يضعون فيها امضاآتهم فقد قال الملك شلدبيرت في خلاصة صدرت سنة (٥٣٢) ما معناه قد وقعت منا المذاكرة مع البارونات بمشورة ادار في بعض المصالح فكانت نتيجة ذلك ما ننشره الآن ليعلمه الخاص والعام انتهى كذا ذكره بوكيت وقال هذا الملك ايضا في خلاصة اخرى قد

اتفقنا مع بعضنا على كيت وكيت انتهى ذكره بوكيت ايضا وقال ايضا في خلاصة اخرى اتفقنا مع بعضنا في المشورة التي اجتمعنا فيها جميعا انتهى قاله بوكيت وبالجملة فالقوانين السالكية التي هي اعظم القوانين الفرنساوية كانت كلها على هذا الوجه وكانت الوثائق التي تصدر عن ملوك الدولة الاولى ينصون فيها على انها عن رضاء اتباعهم ولما تكلم المؤرخون على الوظائف التي كانت للملوك في المشاور الملية ذكروا عبارات تدل على ان الشوكة الملوكية كانت ضيقة جدا وان كل شئ كان يفوض فيه للمشورة كما في تواريخ الفرنك المتعلقة بمشورة ادار

وكانت المشاور العمومية تجرى احكامها وافتاآتها الواسعة على جميع الناس وتعمل بها في سائر انواع الدعاوى والخصومات وهذا امر جلي لا يحتاج الى برهان ويكفي في اثبات ذلك ما حكم به على الملكة برنهوت سنة (٦١٣) حيث عمل به وان كان من باب الظلم كما ذكره المؤلف فرديكير فان ما اشتمل عليه هذا الحكم من القساوة والظلم يكفي في الدلالة على اتساع حكم هذه المشاور اتساعا بينا حيث ان الملك الظالم قلوتير الثاني ظن ان اقرار المشورة الاهلية لما حكم به في شان تلك الملكة التي هي ام وجدة لكثير من الملوك يحلل ذلك الحكم الظلمي الخشني واما الاموال التي كان يدفعها الناس للملوك فانها كانت قليلة لما ان اخلاق ذلك العصر وقوانينه السياسية كانت خشنية بحيث كانت احتياجاتهم قليلة فما كانوا يعرفون فردا ولا غرامات وانما كانوا يدفعون تلك الاموال القليلة بالطوع والاختيار وذلك دليل على انه لم يكن يفرض عليهم غرامات معينة وكان ذلك عادة للجرمانيين والامم التي خرجت من بلاد جرمانيا ولما تكلم المؤلف تاسيت على طائفتين من الطوائف القديمة استدل على انهما ليستا من الجرمانيين بانهما كانا يدفعان غرامة معينة وتكلم ايضا على طائفة من الجرمانيين فقال انها لم تتغير عوايدها لانها لم يكن عليها غرامات معينة ومن المعلوم ان هؤلاء الامم لما استوطنوا بلاد الغالة لم يزالوا محافظين على شعارهم القديم وعلى ما توارثوه عن اسلافهم

من الشمم والتعالى فلم يرضوا ان يفرض عليهم غرامات لانهم رأوا فيها شائبة استعباد واذلال كما يؤخذ ذلك من تواريخ القدماء والآثار القديمة وقد بحث كل من المؤلف مونتسكيو والمؤلف مبلى عما يتعلق بهذا المعنى وبالا بإذعانهما فى ذلك الغرض فذكرا براهين جلية على ان اصحاب العقارات الاحرار من الفرنك لم يكونوا ملزومين بدفع شئ على عقاراتهم وعلى ان الدولة ليس لها طلب عليهم فى شئ الا فى الخدمة العسكرية ومصاريفهم فيها من اموالهم وكان يلزمهم ايضا ان يقبلوا الملك فى منازلهم اذا مر بهم فى ذهابه الى جفالكه وان يعطوا للضباط خيولا وعربات اذا كانوا مبعوثين بصدد دعوى تخص العامة ولم تكن ايرادات الملوك الا من جفالكهم ومما يكتسبونه فى محاكمهم من محصول الدعاوى ومما يفرضونه من الغرامات القليلة على من ثبتت عليه جناية ولا يليق بهذا المختصر ان تعرض لسرد هذه الاشياء تفصيلا وان اردت ذلك فعليك بكتاب المؤلف مبلى المسمى بالملحوظات السنية على تاريخ الفرنساوية

واذا اتفق ان هؤلاء الاحرار اعانوا الملوك باعانات كبيرة فانما كان ذلك بمحض اختيارهم وكان من عادة مشورتى ايار وادار اللتين كانتا ينعقدان فى كل سنة ان يهديا للملك هدايا من الاموال والخيل والاسلحة اوغيرها من الاشياء النفيسة وهذه العادة القديمة توارثها الفرنك عن اسلافهم الجرمانيين واذا انظرنا الى عبارات المؤرخين فى شأن تلك الهدايا وجدناها عظيمة جدا بحيث انها كانت جزأ عظيما من ايرادات الملوك السنوية وقد نقل دوكنج جملة من هذه العبارات وربما كانت بعض الملل المهزومة تعين للملك المقدار الذى تدفعه له فى كل سنة فاذا امتنعت من دفعه طولبت به كأنه دين فى ذمتها والظاهر ان هذه الهدايا وتعيين قدرها فى بعض الاحوال هو منشأ الفرد والغرامات فهى وان كانت فى مبدء امرها اختيارية الا انها صارت فيما بعد الزامية بمعنى ان كل امة يلزمها ان تدفع ما هو مقرر عليها ويوجد الى الآن وثائق اصل تلك الغرمات ويفهم منها ان الاعانات التى كانت تعطى للملوك

اذذاك فى جميع ممالك اوروبا كانت تسمى تبرعات او هدايا وملوك فرانسا
الذين هم من الدولة الثانية كانت تنتخبهم الملة وتوليهم المنصب الملوكى قال بعض
المؤرخين من عصر الملك پيپان ان هذا الملك التقى جلس على السرير بامر
البابا وانعام المسيح وانتخاب جميع الفرنك انتهى ولكن لما كان رؤساء
الملة قد نزعوا تاج المملكة من عائلة واعطوه لعائلة پيپان اخذ عليهم الميثاق
ان لا ينزعوه من هذه العائلة الثانية فكانت الملة محافظة على هذا الميثاق
مدة طويلة وخلف پيپان على الكرسى ذريته فلما اقتضى الحال ان تقسم
الجفالك بين افراد العائلة الملوكية اضطر امراء تلك العائلة ان يتشاوروا
فى ذلك المشورة الاهلية العمومية وكان الملك پيپان قد ذكر فى شان
ولديه كرلوس وكرلمانيا سنة (٧٦٨) انهما بعده يحكمان المملكة معا
ولما كان هذا الامر يتوقف على رضاء المشورة الاهلية فوض لها الملك
المذكور الامر فى هذا الشان

ثم ان الفرنك عقدوا لهذا الامر مشورة بعد موت الملك پيپان ولم يكن الغرض
من انعقادها مجرد تقليدا الاميرين المذكورين المنصب الملوكى ذكره المؤلف
ايجنهرت بل بينوا فيها ايضا ما يكون لكل منهما من الجفالك والالتزامات
وبهذه المشورة كانت تنتهى جميع المشاجرات التى كانت تقع بين العائلة
الملوكية وقد اقر الايمبراطور شرلمانيا افتاء هذه المشورة فى هذا الشان واثبته
لها فى الوثيقة التى صدرت منه اليها لتقسم جفالك بنى عائلته حيث قال
اذا تنازع جماعة فى التاج الملوكى ولم يظهر المستحق من غيره فللملة ان تنتخب
من تلبسه التاج انتهى

وفى زمن ملوك الدولة الثانية كانت مشاور كونوانتوس اونالى الاهلية المسماة
ايضا بلاسيتا تنعقد فى السنة مرة او مرتين ومن اعظم تواريخ فرانسا مختصر
المؤلف هانكومار مطران رمس الذى مات سنة (٨٨٢) بعيد
الايمبراطور شرلمانيا بثمان وستين سنة ذكر فيه الحوادث التى استفادها من
وزير كرلوس مانوس وامين سره المسمى ادلهرد فذكر هذا المطران ان كرلوس

مانوس كان يعقد فى كل سنة المشورة الاهلية العمومية فكان اربابها يتذاكرون فى شأن ما يخص الامن العام ونفع المملكة قبل المذاكرة فى المصالح الخصوصية ثم ان خلفاء كرلوس مانوس الذين حكموا باثره اقتدوا به وصاروا لا يتون امر مصلحة مهمة الا بعد رضاء المشورة الاهلية العمومية

ثم انه فى ايام الدولة الثانية المذكورة كان اغلب الحكومة الفرنساوية دوموقراطيا (اى يحكم فيها برأى جمهور الاهالى) ولم تكن تلك المشورة من خصوصيات الاشراف والقسيسين اصحاب المناصب واكابر ضباط المملكة بل كان للاحرار من الاهالى حق فى الحضور فيها اما بانفسهم او وكلائهم ولما وصف المؤلف هانكومار كيفية انعقاد هذه المشورة قال انه فى مدة الصحو وعدم المطر كانت تنعقد فى الخلاء واما فى زمن الغيم والمطر فكانت تنعقد فى عدة محال وكان لكل طائفة من اربابها محل مخصوص فكان ارباب المناصب من القسيسين متميزين عمن لا منصب له منهم وهم اللاييك وكان الاعيان والاكابر متميزين ايضا عن غيرهم وكان لكل من الاهالى واعظم ارباب المناصب فى الدولة حق فى التشريع وترتيب القوانين ولذلك صدر امر سنة (٨٠٣) مضمونه انه اذا اريد ترتيب قانون جديد لزم عرض ذلك على الاهالى للتذاكر فيه فاذا رضوا به واقروه جرى به العمل بمقتضى امضاء وكلاء الاهالى انتهى وهذا وامر اخرى تدل دلالة واضحة على ان الاهالى كان لهم مدخلية فى تدبير الحكومة

وكان للاهالى اذا الحقهم امر يضر بهم الحق فى التشكى للملك وطلب الانصاف منه فما عرضوه للملك فى هذا الشان تقرير طلبوا فيه ان القسيسين يعافون من حمل السلاح ومباشرة الحرب بانفسهم وتاريخ هذا التقرير سنة (٨٠٣) وكان معروضا على الايمبراطور كرلوس مانوس ومن اطلع على عباراته علم انه لا يجرأ على مثله الا من كان من الحرية والمزايا بمكان حيث ان عباراتهم تدل على انه ان اراد بقاءهم رعية له مع الامانة يبنون مطاليبهم على ما يعطيه لهم

من المزايا وضاعن كون هذا الايمبراطور الاكبر يغضب من هذه الجسارة اجاب مطلوبهم بالبشاشة ولين الجانب واظهر لهم انه يميل الى تنفيذ اغراضهم وتنجيز مرغوباتهم غير انه لما كان يعلم انه لا يستبد بترتيب القوانين وليس مستقلا بالتشريع وعدهم ان يعرض هذا الامر للمشورة العمومية لان مصالح الرعايا يلزم فيها التشاور والمذاكرة من عموم الناس فاذا انحط عليها الرأى نظمت فى سلك القوانين الجارية

وهنالك مايدلنا على كيفية قبول المشورة العمومية مطالب الرعايا بعد احالتها على المشورة المذكورة ويدلنا ايضا على كيفية نظم هذه المطاليب فى سلك القوانين الجارية فى المملكة وبيان ذلك ان يقرأ تقريرهم فى المشورة باعلى صوت ثم يلتمس من الاهالى ان تفيد هل اقرت هذا التقرير اولا فان كانوا يرضون بذلك قالوا باعلى اصواتهم ثلاث مرات نحن مسرورون من ذلك فعند ذلك يضع الملك والقسيسيون واكابر الاليك امضاآتهم على التقرير ليجرى العمل عليه ويؤخذ من القانون الذى صدر من الملك كرلوس الاصلع سنة (٨٥١) ان الملك لا يمكنه ان يمتنع من اقرار مايعرضه الرعايا فى المشورة العمومية ويقبله اربابها

ولا حاجة الى الاكثار من عبارات المؤلفين لنستشهد بها على ان حق التشريع فى مملكة فرانسا مدة الدولة الثانية كان منوطا بمشورة الملة وان تلك المشورة كان لها الحق فى عقد الصلح او الحرب فان اتحاد سائر القوانين الصادرة فى حق التشريع يكفى فى الاستشهاد على الدعوى الاولى (وهو كون حق التشريع منوطا بمشورة الملة) واما الدعوى الثانية وهى عقد الصلح او الحرب فان شواهدها الجلية مذكورة فى الكتاب المسمى اصل الحكومة الفرنساوية والحكومة الفرنساوية القديمة فى المجلد الثالث منه فراجعه ان شئت

وماذكرنا من انه كان للاهالى حق الحضور فى المشورة العمومية بانفسهم او وكلائهم هو مما ينبغى الالتفات اليه لانه مع دلالته على تقدم الحكومة

الفرنساوية حصل نظيره فى انكلترة اذ شرعت الجمعيات البلدية فى ان تصير من ارباب مشاور التشريع ووقع فى تلك المملكة اضطراب عظيم لهذا الغرض

المبحث التاسع والثلاثون

فى بيان مطلب تغلب الملوك على حق التشريع بصحيفة (١٥٧) من القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا

هذا التغيير المهم الذى حصل فى ترتيب مملكة فرانسا بانتقال حق التشريع من المشورة الاهلية الى الملوك لم يعتن به المؤرخون ولم يفصلوه تفصيلا شافيا كغيره من المواضع التى اطنبوا فيها فلذلك صرفت الهمة فى بيان الوسائل التى ادت لهذا التغيير العظيم واضفت الى ذلك بعض اشياء توضح هذه الحادثة فنقول ان القوانين الساليكية او السالية وقوانين البرغونيين وغيرها من القوانين التى نشرتها الطوائف التى استوطنت بلاد الغالة كانت عامة جارية على كل انسان وفى كل اقليم وخط من المملكة التى ترتبت فيها تلك القوانين ثم بطل التشديد فيها بسبب ظاهر وهو انه لما ترتبت هذه القوانين كانت جميع العقارات معافاة من الغرامات وغيرها فلما ترتبت القوانين الالتزامية نشأ عنها كثير من المجادلات والمنازعات فى شأن هذه العقارات ولم يكن فى القوانين القديمة ما يحل هذه المشكلات الجدالية حيث لم تكن مشتملة على اصول تلايم امرا لم يكن زمن ترتيبها فبهذا التغيير الحاصل فى شأن العقارات لزم نشر القوانين الجديدة التى تضمنتها الشرآئع الفرنساوية فانها بالاطلاع عليها يعلم انها غالبا لا تخص طائفة دون اخرى من الطوائف الفرنساوية حيث انها كانت ترتبت فى المشاور العمومية ثم ان ضعف اغلب ملوك الدولة الثانية من فرانسا وما حصل فى مملكتهم من الاختلال الناشئ عن افساد النورمنديين اعانا البارونات على ان يكتسبوا شوكة كادوا يكونون بها مطلقى التصرف وكان هذا الامر قبل ذلك غير معروف فى فرانسا

وقد بينا في بعض المباحث السابقة كيفية اقتنائهم واتباعها وترتب على اكتسابهم لهذه الشوكة ان انقطعت العلائق المدنية والارتباطات السياسية بين اهل الدولة وتغير النظام القديم ولم يبق من العلائق بين الملك واتباعه الا علاقة التزامية محضة فضاقت دائرة الاحكام الملوكية بحيث صارت لا تجرى الا في جفالك الملك والتزاماته ثم تلاشت الجفالك الملوكية في اواخر الدولة الثانية واضمحلت في مبدء الدولة الثالثة بحيث ان معظمها كان منحصرا في التزامات الملك هوغس كابيت التي ورثها عن آبائه لانها كانت اضيفت الى الجفالك الملوكية ومع انضمامها اليها كانت الالتزامات الملوكية قليلة جدا كما في تاريخ فرانسا للمؤلف ويلي

ثم ان عدة من الاقاليم الكبيرة في فرانسا لم تقر اولا هوغس كابيت ملكا عليها زاعمة انه لا يستحق ذلك شرعا فكان هذا الملك في مبدء امره منازعا في توليته بحيث لم يكن في وسعه تأييد الاحكام الملوكية ولا نقض احكام البارونات

وبجميع هذه المقتضيات سهل على البارونيين ان يتغلبوا على الحقوق الملوكية في شأن جفالكهم بحيث يكونون فيها كالملوك وصارت قوانين فرانسا القديمة والجديدة نسيا منسيا وتجدد في كل محل عوايد تخصه صارت بمفردها فيما بعد قوانين يجرى العمل عليها في المعاملات المدنية وفي سائر الدعاوى ومما اعان على انشاء هذه القوانين التي اوجبتها العادة ما كان عليه الفرنساوية من الجهالة العامة في القرن التاسع والعاشر فكنت لا ترى ما عدا القسيسين انسانا يعرف القرآءة الا القليل فبذلك كان يتعذر مراجعة القوانين المسطرة ليعلم الحكم في شأن مصلحة خصوصية او في اجرآء الاقضية الشرعية فوجب ان يكون مدار ادارة المملكة على القوانين التي اوجبتها العادة

والظاهر انه في هذه المدة لم تنعقد مشورة اهلية قط ولم تحفظ بكونها رتبت قانونا نظم في سلك القوانين الجارية وذلك ان سائر الاشياء كان يعمل فيها

بمقتضى العوايد المحلية اى كان يعمل فى كل محل على حسب عادة اهله واذا تتبعت تقدم القوانين الفرنساوية وجدت هذا الامر ظاهرا جليا وآخر قانون من القوانين الفرنساوية التى جمعها المؤلف بالوزة هو الذى صدر سنة (٩٠١) من الملك كرلوس لوسنبل ولم يتجدد بعده قانون مدة مائة وثلاثين سنة وبعد تلك المدة ظهر قانون ذكره المؤلف لوريير فى كتابه فهو اول قانون صدر من ملوك الدولة الثالثة بعد المدة المذكورة * واول قانون يستحق ان ينخرط فى سلك الشرآئع هو القانون الذى صدر من الملك فيليبش اغسطوس سنة (١١٩٠) فانه انتشر فى جميع اقاليم المملكة وهذه المدة الطويلة التى هى مائتان وتسع وستون سنة من سنة (٩٢١) الى سنة (١١٩٠) كان يعمل فيها بالقوانين العادية السابقة ولم يتجدد فيها شئ على شرآئع المملكة القديمة وقبل حكم فيليبش اغسطوس كان هناك قوانين لا يعمل بها الا فى الالتزامات الملوكية

وثم عدة شواهد تدل على ما كان قائما بالملوك من الاحتراس حين اخذهم فى ترتيب قوانين تنتشر فى المملكة فقد ذكر المؤلف مبلى الامر الذى صدر من الملك فيليبش اغسطوس سنة (١٢٠٦) فى شأن اليهود الساكنين باراضى الملتزمين وكان كل ملتزم يتصرف فيمن كان بارضه منهم على سبيل انهم ملك يمينه واذا تأملت هذا الامر وجدته اشبه بمشارطة خصوصية بين الملك المذكور وكل من قونتيسة شمبانيا وملتزم دامبيير لا امر ملوكى لان ما تضمنه هذا الامر من القوانين كان عن رضاهما لا بمحض الزام الملك وكذلك الاوامر التى صدرت عن الملك لويز الثامن سنة (١٢٢٣) فى شأن اليهود فانها كناية عن عقد مشارطة بين الملك واشراف مملكته فيما يخص المعاملة السيئة التى كان يعامل بها هؤلاء اليهود واما القوانين التى رتبها الملك سنت لويز فهى وان كانت جديرة بان تكون قوانين عمومية الا انها لم تنتشر كالشرآئع المدونة المسطرة بل كانت كالقوانين العادية المعدة للعمل بها فى الالتزامات الملوكية لكنها لما كانت مبنية على الحكمة والعدل وموجبة

لاحترام

للانتظام والضبط مال اليها الناس وقبلت فى جميع اجزآء المملكة لاسيما وعرتبها كان حريا بالاحترام لخصاله الحميدة وحسن مقاصده فكان ذلك ايضا باعثا قويا للملة على الرضى واقرار هذا الملك على اثبات حق التشريع لنفسه و بعد ذلك بمدة قليلة اتفقت آرآء الناس على ان الشوكة العظمى فى التشريع لاتكون الا للملك وقد ذكر المؤلف بومنوار ان الملك اذا رتب قانونا يخص التزاماته ساغ للبارونات ان يعملوا بمقتضى عوايدهم القديمة واما اذا رتب قانونا عاما لكافة الناس فانه يلزم العمل به فى جميع اجزآء المملكة فانه لاريب ان مثل هذا القانون العام لايكون الا بعد ان يتذاكر فى شأنه مذاكرة تامة و يظهر ان فيه مصلحة عامة انتهى ومع ان ملوك الدولة الثالثة لم يتفق انهم جمعوا مشورة اهلية عمومية فى المدة الطويلة التى بين الملك هوغس كابيت والملك فيليبش الظريف يظهر انهم كانوا يتشاورون مع الاساقفة والبارونات الذين كانوا بديوانهم فى شأن مايريدون نشره من القوانين الجديدة وشواهد ذلك فى الكتاب المسمى بمجموع الاوامر الملوكية والظاهر ان هذه العادة مكثت الى حكومة الملك سنت لويز الذى فى مدته تقوت الشوكة الملوكية واشتد بأسها وصارت مشاور البارونات وعدمها على حد سوآ فنشأ عن ذلك للملوك الحظ الاوفر فى حق التشريع وصار فى وسعهم اجرآء هذا الحق من غير مذاكرة مع الاساقفة والبارونات

ثم ان المشاور الملية المسماة بمشاور العموم اومشاورى كلاء المملكة كان اول انعقادها سنة (١٣٠٢) ومكثت تنعقد عند الحاجة الى سنة (١٦١٤) ومن وقتئذ بطل انعقادها وكانت هذه المشاور مباينة بالكلية لمشاور الفرنسيس الملية التى كانت تنعقد فى ايام ملوك الدولة الاولى والدولة الثانية من ملوك فرانسا وذلك انه لم يكن لها حق فى المذاكرة فى نشر القوانين ولم يكن لها اقتدار خاص بها كما اتفق على ذلك العلماء و يعضده ايضا تاريخ فرانسا ولنذكر لك هنا كيفية انهاء الدعاوى فى مشاور العموم المذكورة فنقول كان يجتمع اربابها كلهم فى محل واحد ثم يوجه الملك الخطاب لهم

ويفيدهم عن الغرض الذى جمعهم من اجله فيجتمع عند ذلك وكلاء المراتب
الثلاث التى هى مرتبة الاشراف ومرتبة القسيسين ومرتبة الرعايا ليتذاكروا
مذاكرة خصوصية مع بعضهم فى شأن ماعرض عليهم وبعد المذاكرة
يكتبون اجوبتهم ومايرونه حسنا فى شأن ما سئلوا عنه ثم يعرضون ذلك على
الملك ليتذاكر فيه مع ارباب ديوانه ثم يصدر امره بما انحط عليه الرأى واعلم
انه لم يكن من اللازم ان يجمع فى الاوامر الملوكية بين المراتب الثلاث المتقدمة
بل كان الملك فى بعض الاحيان يرسل امره لكل مرتبة بخصوصها وكان
احيانا يوجه الخطاب فيه الى مجموع المراتب الثلاث واحيانا يخص بالخطاب
مرتبة دون اخرى بل كان فى بعض الاحيان لايذكر فى الامر الصادر منه
مشورة المراتب التى اشارت بانشاء القانون الذى يأمر به فعلى ذلك لم يكن
لمشورة وكلاء المملكة حق سوى ان تفيد رأيها وتعرضه بعد ذلك على الملك
واما الشوكة التنجيزية فى التشريع وترتيب القوانين فكانت من خصوصيات
الملك التى لايشركه فيها غيره

المبحث الاربعون

فى بيان مطلب تضييق الشوكة الملوكية بحكم دواوين البرلمان بصحيفة
(١٦٠) من القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا
اذا اعتبرنا ان ديوان البرلمان الذى كان بمدينة باريس لم يكن الامحكمة
ملوكية رأينا ان جميع مايخص منشاءه وافتاءه معلوما لايحتاج الى توضيح
لانه على ذلك يكون عين الديوان القديم الذى كان سابقا بقصر الملك وانما تغيرت
حالته القديمة وصارله محل قرار مخصوص وبينت جهات احكامه واتسعت
دائرة افتائه اكثر من قبل وليس الغرض من هذا المبحث ذكر الديوان
المذكور بالنظر لكونه محكمة منوطة بتنفيذ بعض احكام مخصوصة وانما
نذكر فيه الحق الذى كان يدعيه هذا الديوان من كونه يبين كيفية تنفيذ
القدرة التشريعية ويدخل فى ادارة مصالح المملكة السياسية لان هذا

امر

امر صعب دقيق حرى بالالتفات اليه والبحث عنه مع الاعتناء فنقول ان الضباط الذين كانوا اعضاء لديوان برلمان مدينة باريس كانوا سابقا ينصبون من طرف الملك وتصرف لهم علوفاتهم من عنده حتى اتفق عدة مرات ان الملك عزل من شاء عزله منهم فعلى ذلك لم يكونوا وكلاء الملة ولم يكن لهم حق فى التشريع على سبيل كونهم نواب الاهالى فيلزم حينئذ ان نبحث لهم عن سبب آخر يرجع اليه منشأ المزايا العظيمة التى نسبوها لانفسهم فنقول

كان ارباب البرلمان فى مبدء الامر من اعظم اكابر المملكة واعيانها فكان اربابه هم امراء فرانسا المعروفون باسم البيروكذلك اكابر القسيسين والاشراف الطيبون العنصر ثم زيد فيما بعد على هؤلاء بعض اناس متبحرين فى معرفة الشرائع والقوانين ولما كان هذا الديوان بتلك المثابة استحق ان يكون مشورة وكلاء المملكة حقيقة لما ان اربابه كانوا من البارونات والاعيان الامناء فكانت عادة الملوك ان يشاوروهم فى جميع الاحكام والقوانين التى يريدون نشرها بين الناس فالظاهر انه فى خلال مجالس مشورة وكلاء المملكة بل وفى المدة المستطيلة التى لم تنعقد فيها تلك المشورة كانت عادة الملوك ان يشاوروا ديوان البرلمان و يفوضون له فى البحث عما يخص المصلحة العامة و يعرضون عليه الاوامر والقوانين الجديدة التى يريدون نشرها ليقرها هذا الديوان ثم بعده يجرى بها العمل

وفى زمن الدولة الثانية كان كل قانون جديد يحرره امين المملكة على الوجه اللائق ثم يعرضه على الاهالى واذا انتظم فى سلك القوانين الجارية كان يجب على الامين المذكور ان يحفظه عنده فى الدفترخانه العمومية ليعطى منه نسخا صحيحة لكل من يطلب ثم انه كان لهذا الامين الرياسة على برلمان مدينة باريس فى مبدء الامر فلا مانع من ان الملك فيما بعد لم يزل يقلد هذا الامين بوظائفه القديمة وهى تحرير القوانين الجديدة التى كانت ترتب وحفظها ونشرها وهذا مما يستدل به على ان ديوان البرلمان كما كان محكمة للعدل

كان ايضا مشورة العموم فترى فى القوانين القديمة ما يفيد انه كان محكمة للعدل وان ما يصدر منه من القوانين كان يقرّه القضاة بوضع امضاآتهم عليه ولذا كان هذا الامر قد جرت به العادة لزم ضرورة انه كان لهذا الديوان بپاريس حق فى تحقيق الاوامر الملوكية واختبارها وهذا الامر انما هو بحسب ما ظهر لى ولست جازما به كما هى عادتى اذا تعرضت للكلام على قوانين الملل الاجنبية

وهذا الديوان العالى الذى كان فى فرانسا محكمة كبرى لاجراء العدل كان يسمى پرلمان وكان هذا الاسم يطلق على المشورة العمومية فى اواخر الدولة الثانية ومن المعلوم ان الانسان محل النسيان بالنظر الى عقله وفعله عند تشابه الكلمات ولذلك امكن لاغسطوس وخلفائه ان يوسعوا دآئرة شوكتهم من غير مانع ولا حصول فتن لانهم حافظوا على الاسماء القديمة التى كان يتسمى بها القضاة فى رومة حين كانت حكومتها جمهورية وكذلك لما كان لفظ پرلمان يطلق اولا على مشورة العموم ثم سمى به ديوان پاريس ترتب على ذلك اختلاط وظائفهم بوظائفه وحقوقهم بحقوقه والتباس ذلك على الناس

وجميع تلك الاسباب اوقعت فى اذهان ملوك فرنسا ان ديوان البرلمان هو الذى يصلح لحمل الملة على ان تقرّ الملوك على الشوكة التشريعية التى كانوا ينسبونها لانفسهم فلما كان الفرنساوية معتادين على ان القوانين الجديدة تفحص قبل نشرها وكان ذلك واقعا فى ديوان البرلمان كما كان واقعا فى مشورة العموم قبل ذلك لم يدركوا الفرق فى هذا الامر بين مشورة الملة وديوان رتبه الملك ولما كان ارباب هذا الديوان من اكابر المملكة المحترمين الذين لهم معرفة جيدة بقوانين الملة كان ذلك كافيا فى قبول الملة لقانون رتبه الملك واقرّه ارباب الديوان بحيث تأخذه قضية مسلمة

ولما جرت العادة عند سائر الناس لان الاوامر الملوكية لابد ان تقع فيها المذاكرة وتقيد فى ديوان البرلمان بپاريس آل الامر الى ان ادعى هذا الديوان

ان هذه الطريقة المذكورة لابد منها وانه لا يجوز ان ينتظم امر ملوكى فى سلك
القوانين الجارية الا بعد المذاكرة فيه وتقييده بالديوان فكان ذلك منشأ
لقاعدة من قواعد القوانين الفرنساوية وهى لا يجوز نشر قانون فى المملكة
بغير هذه الطريقة ولا يعمل بالاوامر الملوكية اذا لم تكن على هذا الوجه
ولا يجب على الملة ان تنقاد لتلك الاوامر ولا ان تعتبرها كالقوانين الجارية
حتى تحقق فى ديوان البرلمان ويتذاكر فيها على ما ينبغى انتهى ذكر ذلك
المؤلف روشفلاوين فى كتابه الذى تكلم فيه على دواوين البرلمان بفرانسا
وقد اتفق ان ديوان البرلمان قاوم الملوك مع الثبات التام عدة مرات فقد
امتنع غير مرة ان يقرا و ينشر عدة اوامر ملوكية يرى انها تضر بالاهالى
او مخالفة للقوانين الاصلية المبنى عليها مصالح المملكة مع ان الملوك
الحوا فى ذلك كثيرا وذكر المؤلف روشفلاوين انه من سنة (١٥٦٢) الى سنة
(١٥٨٩) امتنع من ديوان البرلمان اكثر من مائة مرة ان يقرا اوامر الملوك
وذكر المؤلف ليمنوس كثيرا من الشواهد التى تدل على العزم والثبات الذى
اظهرته دواوين البرلمان بمملكة فرانسا فى مناقضة نشر القوانين التى ظهر
لها انها مضرة

ولكن لم يكن عند البرلمان لاجل المدافعة عن المزية التى كان يدعيها شوكة
تعادل اهمية هذه المزية ولا قوة توازى ما كان يظهره او بابه من الثبات
فى حفظ تلك المزية وذلك انه كان اذا صمم الملك على اجراء قانون رتبه فعارضه
فى ذلك ديوان البرلمان ازال الملك هذا المانع ونفذ غرضه بواسطة شوكته
الملوكية فكان يذهب بنفسه الى الديوان المذكور ويجلس فى المحل السلطانى
المعدله فيه و يجبر ارباب الديوان على قرآءة القانون الذى يريد اجراءه وعلى
تقييده ونشره بحضرته لانه كان من جملة القوانين الفرنساوية ان الملك متى
حل بمحل لا يكون لديوان البرلمان ولا لاحد من القضاة شوكة ولا نفوذ كلمة
ولا يجرى شيأ بحضرة الملك كما ذكره روشفلاوين وذكر ايضا عدة
حوادث اجرى فيها الملوك هذه المزية التى خصتهم بالشوكة التشريعية

وابطلت الحقوق القديمة التى كانت للملة الفرنساوية وذكر المؤلف بسكير عدة شواهد تتعلق بالحل السلطانى فى ديوان البرلمان وذكر ايضا المؤلف لينوس عدة حوادث اخرى لا يليق ايرادها هنا لطولها وان كانت توضح هذا الامر المهم من تاريخ فرانسا وتلك المزية الملوكية وان كان يظهر انها من باب الظلم الانهامبغية على القوانين الاصلية فى المملكة وثابتة لهم بشواهد عديدة وبها كانت مجهودات دواوين البرلمان فى تحديد الشوكة التشريعية الملوكية غير نافعة ولا طائل تحتها

ولم نتعرض فى هذا المقام الا لبيان ديوان البرلمان بباريس حيث ذكرنا كيفية ترتيبه واحكامه دون غيره من دواوين البرلمان بفرانسا الآن تلك الدواوين كلها كانت على نسق برلمان باريس فما قيل فيه يقال فيها

المبحث الحادى والاربعون

فى بيان مطلب المشاجرات التى حصلت بين البابات والايمبراطرة بصحيفة (١٦٥) من القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا

لا يخفى ان الحالة السيئة التى تلجئ اكابر الايمبراطرة الى التذلل والخضوع لطلب الصفح من آحاد البابات هى امر غريب جدا وقد عبر المؤلف اغرغوار عن هذه الحادثة بعبارات جديرة بايرادها هنا لانها تدل بوجه غريب على كبر البابا واساءته للايمبراطور ونصها مكث الايمبراطور ثلاثة ايام وهو على باب خيمة البابا بعد ان نزع جميع علامات المنصب الايمبراطورى وخلع نعاله ولبس ثوبا من الشعر ولا زال فى هذه المدة يتضرع ويطلب الصفح عنه ويلتمس الرحمة من البابا بحيث ان جميع من حضروا هذا الامر او بلغهم ذلك رثوا لحاله وحنت قلوبهم اليه وتوسلوا الى البابا بالدمع والانتحاب والتذلل فى الخطاب وتعجبوا جميعا من هذه القساوة التى ليست من شيم القلوب البشرية انتهى راجع مكتوب اغرغوار فى كتاب القونتيسة ماتيلدة

المبحث الثاني والاربعون

في بيان مطلب عدم المساواة بين اهالى الايمبراطورية فى الثروة والشوكة بصحيفة (١٧٣) من القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا

حيث بينا بيانا شافيا فى تاريخ شرلكان درجات التقدم فى الايمبراطورية ووضحنا تفصيلا خصوصيات حكومتها فلا حاجة هنا الى ذكر براهين اخرى وانما نقتصر على المهم من ذلك وقد حصرناه فى اربع موادّ اصلية

المادة الاولى

فى الكلام على شوكة الايمبراطرة واحكامهم وايراداتهم

من اراد الوقوف على حقيقة هذه الاشياء فليراجع مختصر المؤلف بفيفيل الذى الفه فى شأن حقوق الايمبراطرة بالنسبة الى زمنين مختلفين احدهما زمن طرد العائلة السكسونية وهو سنة (١٠٢٤) فيستفاد من هذا المختصر انه فى هذا الزمن كان للايمبراطور الحق فى اقطاع الاراضى القسيسية فى المانيا وفى اخذ ايراداتها مدة خلو الكرسى عن البابا وفى ارث مخلفات القسيسين الذين يموتون لاعن وصية وفى اقرار او نقض انتخاب البابات وفى جمع المشاور القسيسية للمذاكرة فى شأن مصالح الكنيسة وفى تلقيب اتباعه بلقب ملك وفى الانعام بالاراضى الغير المملوكة وفى قبض ايرادات الايمبراطورية التى ترد من التزامات الايمبراطور ومن الغرامات والجمرك ومعادن الذهب والفضة ومن الغرامات التى كانت على اليهود ومن الاموال التى تضبط لبيت المال وفى الحكم على ايطاليا على وجه كونه ملكها الحقيقى وفى الانعام بالحرية على بعض المدن وترتيب الاسواق بها وفى جمع مشورة الدييت وتعيين مدة انعقادها وفى ضرب المعاملة وفى الترخيص لمشورة الدييت فى ضرب المعاملة والزمن الثانى من الزمنين المذكورين هو زمن انقراض ايمبراطرة عائلة لوكزانبورغ وعائلة باويرة قال صاحب المختصر

السابق ما حاصله ان مزايا الايمبراطور فى هذا الزمن هى كونه له الحق فى اعطاء
جميع المناصب والالقاب ما عدا تنصيب ارباب مشورة الدييت وفى تنصيب
رئيس واحد مدة حكومته على كل جمعية قسيسية او محل دينى " وفى المعافاة
من تقييد الرشد بالاجل المعلوم وفى احداث مدن واعطائها مزية ضرب
المعاملة " وفى جمع مشاور الدييت والرياسة عليها ويسهل علينا ان نبرهن
على ان المؤلف بفيفيل بنى ماذكره فى هذا المعنى على قواعد متينة ونعضد
ما ابداه فى هذا الشان بشواهد ذكرها من يوثق بكلامه من المؤلفين
وقد استبان مما نقلناه ان الايمبراطرة فى الزمن الاول كانوا اقوياء الشوكة
وانهم كانوا يتمتعون باعظم المزايا وانهم فى الزمن الثانى كانوا اشبه برؤساء
معاهدة شوكتهم ضيقة جدا

ثم ان ايرادات الايمبراطرة قد نقصت ايضا وتلاشت اكثر من شوكتهم وذلك
ان الايمبراطرة الاولين لاسيما ايمبراطرة العائلة السكسونية كان لهم التزامات
واسعة جدا فى ايطاليا والنمسا غير الالتزامات الكثيرة التى ورثوها عن آبائهم
وكانت ايطاليا تنسب للايمبراطرة وحكمها مقصور عليهم فكان يرد اليهم
منها ايرادات عظيمة ثم بيعت التزامات الايمبراطرة التى بتلك المملكة فكانت
اول مملكة بيعت فيها الاراضى الايمبراطورية وذلك انه لما صارت مدائن
ايطاليا ذات غنى وثروة وارادت ان تستقل بنفسها اشترت من الايمبراطرة
حريتها بمبالغ من الدراهم بينها المؤلف غسبار كاوكيوس وذكر ايضا
الملوك الذين عقدوا هذا البيع مع تلك المدن منهم كرلوس الرابع وابنه
وانسيسلاس باعا جميع الالتزامات الايمبراطورية التى كانت باقية فى ايطاليا
ثم ان الالتزامات الايمبراطورية فى مملكة المانيا كان معظمها على شواطئ نهر
الرين وكان القونتات البالاطينية (اى قونتات نهر الرين) هم الموكلون بادارة
مصالحها وكانت هذه الالتزامات مدة مستطيلة معتبرة جزأ من اراضى
المملكة ويعسر علينا بيان حدودها ومقادير ايراداتها ولكن يمكن
ان نستفيد بعض فائدة فى هذا الشان مما ذكره المؤلف غلوسير وقد فصله

المؤلف

المؤلف كلوكيوس الذى ذكرته آنفا
وكان للاعبراطرة ايضا اخطاط كبيرة من الاراضى كانت مختلطة باراضى الدوقات والبارونات وكانت عادة الاعبراطرة ان يشقوا غالبا على هذه الالتزامات و يستخرجوا منها ما يلزم لهم فى كفاية دواو ينهم مدة اقامتهم بتلك الالتزامات ثم تغلب الاشراف على بعض هذه الاراضى الاعبراطورية مدة الفترة الطويلة والحروب المهولة التى نشأت عن المشاجرات الحاصلة بين الاعبراطرة والبابات بل فى مدة التغلب على اراضى الاعبراطرة كان ينزع منهم ايضا جميع الايرادات البرانية الطارئة ككس وكرلئو وما اشبه ذلك فاثبت الامرآء والبارونات لانفسهم سائر محصولات الفردو الغرامات التى كانت ترجع للاعبراطرة كذا ذكر المؤلف بفيفيل ثم ان كرلوس الرابع بطمعه الشديد المفرط بددا الآثار القليلة التى كانت باقية من الايرادات الاعبراطورية لانه فى سنة (١٣٧٦) اراد ان يحمل الامرآء المنوطين بحق الانتخاب على ان يجعلوا ابنه وانسيلاس ملكا على الرومانيين فوعدهم بان يعطى لكل امير منهم مائة الف كورون (هو نوع من النقود) ولكن حيث كان لا يمكنه ان يفى بهذا المبلغ الجسيم وكان متولعا جدا بجعل ابنه ملكا على الرومانيين اعطى للقسيسين الثلاثة ارباب الانتخاب وللقونتة البالاطينى جميع الاراضى والبلدان التى كانت باقية للاعبراطرة على شواطئ الرين واعطاهم ايضا الحقوق والغرامات التى كان يأخذها الاعبراطرة من هذا الخط وقد بين مقادير تلك الاراضى والحقوق المؤلف تريتيم ومؤلف تاريخ اقليم مكدبورغ وذكرا ان هذه العطية هى آخر سهم اصميت به الشوكة الاعبراطورية ومن ذلك الوقت صارت بقايا الايرادات الاعبراطورية القديمة واهية جدا بحيث لم تكن كافية لمصاريف بيت الاعبراطور بل ولم تقم بمصاريف البوسطة التى كانت فى الاعبراطورية على ما ذكره المؤلف سبيديليوس وكانت هذه الايرادات مع قلتها لم تزل آخذة فى التناقص حتى ان الكوديشال غرانويل وزير الاعبراطور شرلكان قال سنة (١٥٤٦) بحضرة عدة من امرآء المانيا

ان الايمبراطور شرلكان لم يدخل له من الايمبراطورية شئ من الاموال ذكر ذلك المؤلف سليدان فى تاريخه وهذه الكيفية موجودة الى الآن كما ذكره المؤلف كولك دوو يلرى فى مختصره الذى تكلم فيه على حقوق الايمبراطورية ومن منذ حكومة كرلوس الرابع التى سماها مكسيليمان و باب الايمبراطورية لم يبق للايمبراطرة الا التزاماتهم الوراثية فبها كان حفظ شوكتهم ومعاشهم

المادة الثانية

فى بيان كيفية انتخاب الايمبراطرة سابقا وما اعتراها من التغيير

حيث ان هذه المادة مهمة حتيج الى توضيحها فنقول ان التاج الايمبراطورى هو كغيره من تيجان اغاب ممالك اوربا لم يكن ينساله احد فى مبدء الامر الابطريق الانتخاب وقد مكث علماء المانيا وفقهاؤها زمانا طويلا وهم يقولون ان حق انتخاب الايمبراطور انما كان لمطران ميانسة ومطران كولونيا ومطران ترتوة ومعهم ملك بوهيمه ودوق سكس وملتزم برندبورغ وقونتة الرين البالاطينى وزعموا ان هذا الحق قد ثبت لهؤلاء الجماعة بامر صدر من الايمبراطورا وتون الثالث واقره اغرغوار الخامس سنة (٩٩٦) ولكن جميع الوقائع المعروفة فى التواريخ تخالف ذلك فانه من مبدء تاريخ المانيا حصل ان من يحكم على الجميع يكون بانتخاب الجميع كما حصل فى تولية كونراد الاول فانه انتخبته لذلك امة الفرنك باجمعها كما ذكره بعض المؤرخين وذهب آخرون الى انه انتخبه جميع الامراء والرؤساء وقال جماعة انتخبته الملة وقد ذكر عبارات هؤلاء المؤرخين المختلفين المؤلف ستروويوس والمؤلف كونرنجيوس

وقد حصل فى سنة (١٠٢٤) ان الملك كونراد الثانى تولى على الايمبراطورية بموجب انتخاب جميع الرؤساء واقرار الاهالى كما ذكره ستروويوس مع ان هذا الزمن متأخر عن زمن تاريخ الامر الصادر من الايمبراطورا وتون الثالث الذى ادعاه العلماء والفقهاء الذين سبق ذكرهم وقد حصل ايضا فى سنة

(١١٢٥) ان ستين الف نفس حضروا انتخاب الايمبراطور لوتير الثانى لما انه انتخبه الرؤساء ثم عرض ذلك على الاهالى ليقروه كما ذكره ستروبوس ثم ان اول مؤلف تكلم على السبعة المنتخبين هو المؤلف مارطين پولونوس الذى كان موجودا فى ايام الملك افريدريق الثانى ومات سنة (١٢٥٠) فيهم مما ذكرنا ان طريقة الانتخاب سابقا هى ان يفوض الاهالى لاكبر امرآء بلادهم واعظمهم شوكة ان ينتخبوا الشخص الذى يريدون تسليم الايمبراطوريه اليه ثم يعرضون من انتخبوه على الاهالى فان شاؤا اقروا هذا الامر والافلا ثم ان مزية العرض فى هذا الشان تسمى عند فقهاء المانيا حق البريتكساسيون كما ذكره المؤلف بفيفيل وهذه المزية كانت اصلا للحق الذى ادعاه المنتخبون فيما بعد من ان لهم حق الانتخاب دون غيرهم وكان للمنتخبين التزامات واسعة جدا لم تكن لغيرهم من الامرآء فى الايمبراطوريه وكانت جميع المناصب العالية بايديهم وتنتقل من بعدهم الى ورثتهم على سبيل انها من الحقوق الوراثية وبمجرد ما صار لهم فى الانتخاب نفوذ كلمة بحيث يمكنهم ان ينسبوا الى انفسهم حق البريتكساسيون رأى قسيسو المرتبة الثانية واصاغر البارونات ان الاوفق بهم ان لا يحضروا فى مشاور الديت حيث انه لا وظيفة لهم فيها الا كونهم يقرون ما حكم به امرآء اقوى منهم وكان اذا حصلت فتنة لا يمكن لاحد من البارونات ان يذهب الى المحل الذى تنعقد فيه مشورة الانتخاب الا وخلفه جم غفير شاكى السلاح من اتباعه الذين كانت مصاريفهم على طرفه وزيادة على ذلك كان حق السبعة المنتخبين معضد ابذراريهم ومحالفيهم لانهم كانوا يشركونهم فى الشوكة والاعتبار الذى كانوا يكتسبونه من هذا الحق كما ذكره المؤلف بفيفيل ثم ان السبعة المنتخبين صاروا فيما بعد بمنزلة ارباب الرتبة الاولى من اشراف الجمعية الجرمانية وهؤلاء السبعة كان فيهم ثلاثة مطارنة امناء على ثلاثة اخطاط كبيرة كانت الايمبراطوريه سابقا محصورة فيها وهى لف ودوق وقونتة وهذه المقتضيات بانضمامها الى بعضها سهل بها جدا حصول حادثة الانتخاب المهمة فى الجمعية الجرمانية وجميع

الامور اللازمة لتفصيل ما يتعلق بهذا الامر السياسي" قد بينها المؤلف
اونوفريا نو بنيوس الذى كان فى عصر شرلكان فى مختصره الذى ينبغى
الاغضاء عن الهفوة التى ارتكبها فيه من اظهار الغرض فى شأن الشوكة
التى كان ينسبها البابات لانفسهم فى الايمبراطورية فانه مختصر جليل له
مزيد فضل بكونه من اول المؤلفات التى تصدت لتحقيق عدة مواضع مشكلة
من التاريخ حررها هذا المؤلف مع غاية الاتقان والاعتناء اللازم لاستنباط
الشواهد من الكتب القديمة وتواريخ اهل عصره

وكما ان المتخبين ادعوا ان لهم دون غيرهم الحق فى انتخاب الايمبراطور وتوليته
زعموا ايضا ان لهم الحق فى عزله وهذا الزعم لم يكن بمجرد الدعوى فقط
بل حصل انهم اجروا عدة مرات هذا الحق المهم ففى سنة (١٢٩٨) اتفق
ان بعض المتخبين عزل الايمبراطور ادولف دوناسو وولى بدله البيرت دوتريش
والاسباب التى بنوا عليها حكمهم فى ذلك تدل على انهم انما كانوا يفعلون
ذلك لمحض التحزب والغرض لا للمصلحة العمومية كما ذكره المؤلف
ستروبوس وفى اول سنى" القرن الخامس عشر عزل المتخبون ايضا الايمبراطور
وانسيلاس والبسوا التاج الايمبراطورى للمنتخب البالاطينى" المسمى
روبيرت والاوامر التى صدرت عنهم بذلك موجودة الى الآن ذكره المؤلف
غولدست فنجد ان العزل حصل باسم المتخبين وشوكتهم واقرار عدة احبار
وبارونات من الايمبراطورية كانوا حاضرين وقت الحكم وبمثل تلك الاوامر
يعلم عظم شوكة المتخبين وضعف الايمبراطرة وانحطاط درجتهم

ثم ان المزايا الاخرى التى كانت ثابتة للمتخبين والحقوق التى كانت لمشورة
الانتخاب قد بينها المؤلفون الذين الفوا كتبهم فى شأن حقوق المانيا

المادة الثالثة

فى الكلام على مشورة الدييت او مشورة العموم التى كانت تنعقد
فى الايمبراطورية

لانطنب فى الكلام على هذه المادة لانه ليس القصد ان نؤلف تاريخا خاصا

بالايمبراطورية

بالامبراطورية النمساوية والالزم التصدى الى تفاصيل واسعة حتى تتعلق بالكلام على كيفية انعقاد مشورة الديت وعلى الاشخاص الذين كان لهم الحق فى الحضور بها وعلى تقسيمها الى عدة مراتب مختلفة وعلى المواد التى هى موضوع مذاكراتها وعلى كيفية المذاكرة فى هذه المواد وابداء الآراء فيها وعلى نفوذ اوامر اربابها ولكن حيث ان تاريخنا هذا عمومى يتكلم على ممالك كثيرة يكفى ان ننبه فيه على ان مشورة الديت المذكورة كانت فى الاصل مشابهة لمشورة ادارو مشورة ايار التين كانتا بفرانسا فانها كانت تنعقد فى كل سنة مرة فاكثر وكل انسان حر له الحق فى حضورها وابداء رأيه فيها فهى كناية عن مجلس يجتمع فيه الملك والرعية للمذاكرة فى شان المصالح العمومية ذكره المؤلف آروموس ولكن لما صار للامراء واصحاب المناصب من القسيسين والبارونات اقتناآت الزامية يحكمون بها على حدتهم صارت تلك المشورة مؤلفة من مراتب مختلفة من الناس فكانت اشبه بمعاهدة رئيسها الامبراطور وفى مدة ما كانت الامبراطورية باقية على ترتيبها الاصلى كان الحضور بالمشورة المذكورة من جملة الواجبات والخدم التى توجبها القوانين الالتزامية على الرعية الملكهم فكان كل انسان حر يجب عليه ان يحضر فيها بنفسه وكل من تخلف عن ذلك زال عنه حق اعطاء الرأى وربما حكم عليه بغرامة جسيمة ذكره المؤلف آروموس فلما صار ارباب مشورة الديت مستقلين باقسامهم صار حق ابداء الرأى منوطا بالاراضى او المناصب لا بالاشخاص فبناء على ذلك كان اذا تعذر الحضور على احد من اربابها او لم يرد ان يحضر فيها بنفسه يسوغ له ان يبعث اليها وكيلا ينوب عنه فكان الامراء يبعثون الجيين وكان كل وكيل مرخصا فى اجراء ما كان من وظيفة موكله وبمقتضى هذا الاصل وهو استقلال ارباب تلك المشورة وكون كل واحد منهم له الحق فى ابداء رأيه حصل بالتدريج انه اذا كان انسان منهم له عدة مناصب او اراض كان له الحق فى ابداء آراء بقدر مناصبه او اراضيه كما ذكره المؤلف بفيفيل ولما صارت مدن الامبراطورية حرة وصارت احكامها مستقلة نافذة صارت من اعضاء

مشورة الديت على النسق السابق وكان لهذه المشورة الكلمة فى سائر ما يخص المصلحة العمومية للجمعية الجرمانية وجميع ما يتعلق بها من حيث كونها معاهدة واما تدبير المصالح الداخلية فلم يكن من وظائفهما ما لم يترتب عليه امر يوجب التعكير فى المملكة او يخشى منه عدم الانتظام واختلال الامن العام

المادة الرابعة

فى الكلام على المجلس الايمبراطورى

اعلم ان هذا المجلس الذى كانت احكامه السبب الاصلى فى تجديد انتظام والامن فى المانيا كان الغرض من انشائه منع الفشل والفتن التى نشأت فى الايمبراطورية عن عادة الحروب الخصوصية وقد تكلمنا فيما سبق على منشاء هذه العادة الفاسدة وبينا تقدمها واتساعها وما ترتب عليها من النتائج الخطرة مع الاطناب الذى يلايم مثل هذه العادة السيئة التى عظم تأثيرها فى القرون الوسطى والظاهر ان الحروب الشخصية كانت فى المانيا اكثر منها فى غيرها وان عواقبها اضرت بتلك الايمبراطورية اكثر من اضرارها بغيرها من ممالك اوربا وشواهد ذلك واضحة فمنها ان جمعية الاشراف فى المانيا كانت عديدة جدا فكانت المشاجرات والمنازعات كثيرة جدا على قدر عددهم خصوصا وكانت احكامهم وافتاتهم التى تخص التزاماتهم واسعة جدا بحيث لم يكن لاشراف ملة اخرى مثلها فكانوا فى الحقيقة ملوكا مستقلين وطلبوا لانفسهم جميع المزايا الملوكية لاسيما والفترة الطويلة التى خلت فيها الايمبراطورية عن الايمبراطور وهى من (سنة ١٢٥٦) الى (سنة ١٢٧٣) عودتهم على تجاوز الحدود حيث لم يكن هناك من يردجماحهم حتى نسوا ما يجب من الطاعة لحفظ الراحة العمومية ففى مدة ما كانت ممالك اوربا الاخرى آخذة فى نمو الشوكة وازدياد الايرادات كانت شوكة ايمبراطورية المانيا وايراداتها آخذة فى التناقص والاضمحلال ولم يكن هناك من له حق فى الحكم فى مشاجرات البارونات الاقويا ولا شوكة تجبرهم على الرضا بحكمه الا مشورة الديت ولكنها لم تكن تنعقد وقتئذ الا نادرا كما ذكره المؤلف كونرنجيوس وكان ارباب

تلك المشورة عند انعقادها يتألف من عدة آلاف و بذلك كانت غير مضبوطة
من كثرة ار بابها كان يتعذر عليهم ان يبتوا امرا في شأن الحقوق كما ذكره
المؤلف ستروبوس وكانت مدة انعقادها لا تزيد على يومين او ثلاثة فلم يكن
معهم وقت يسمعون فيه مسئلة مشكلة حتى يتذاكروا فيها كما ذكره المؤلف
بفيفيل فبذلك كانت المانيا محرومة من محكمة شرعية تجبر خلل المصائب
التي نشأت فيها عن الحروب الخصوصية

وقد استعمل في المانيا جميع الوسائط التي استعملت في غيرها من ممالك اوربا
لابطال هذه العادة الخشنية كما سبق في المبحث الحادى والعشرين الا انها
لم تجد في المانيا نفعا وكذلك معاهدات الاشراف على حفظ الامن
في هذه الايمبراطورية وتقسيمها الى عدة ايالات لهذا الغرض كما بيناه في المبحث
المذكور لم ينشأ عنها منفعة و بالجملة فالدواء الاخير الذى استعمله اهل المانيا
لمعالجة هذا الداء هو انهم جعلوا للحكم بين الخصمين حكما يفصل دعواهما
يسمونه اوستروغو وتحالف البارونات وارباب مشورة الديت في عدة
من اقطار المانيا على ان يرجعوا في مشاجراتهم الى الاوستروغو وان ينقادوا
لما يحكم به بحيث يكون حكمه عليهم بتيا لا ينقض وفي بعض الاحيان
كانوا يعينون في وثيقة المحالفة الحكم الذى يحكم بينهم ولذلك شاهد ذكره
المؤلف لودويك وفي بعض احيان اخرى كان الحكم المذكور ينتخبه الخصمان
المتشاحنان وتارة كانا يفوضان انتخابه لاشخاص اجانب من الدعوى
وتارة كان انتخابه بالقرعة كما ذكره المؤلف سيدليوس وغيره و بمجرد حدوث
هذه العادة صارت المحاكم العمومية لا نفع لها في الاغلب بل كادت
تبطل بالكلية

فلما اراد الايمبراطور مكسيمليان ان يعيد شوكة الحكومة احدث المجلس
الايمبراطورى في الزمن الذى بيناه في الاتحاف وكان ارباب هذا المجلس
اولا ستة عشر قاضيا غير رئيسهم الذى كان ينتخب دائما من اشراف الرتبة
الاولى وكان الذى ينتخبه هو الايمبراطور بخلاف القضاة فكان بعضهم

باتخاب الايمبراطور وبعضهم بانتخاب مشورة الديت على وجه معلوم لا حاجة للاطالة ببيانه وكان يفرض على مشورة الديت برضاها مقدار معلوم تصرف منه ماهيات قضاة هذا المجلس وغيرهم من المستخدمين فيه ثم ان هذا المجلس ترتب اولا فى مدينة فرنكفورد التى على نهر ملن ثم نقل فى ايام الايمبراطور شرلكان الى مدينة سبيره ومكث بها مدة تزيد على مائة وخمسين سنة وهو الآن فى مدينة ويتزلارة ومن وظائف هذا المجلس الحكم فى سائر الدعاوى المدنية التى تقع فى الايمبراطورية وحكمه فيها نافذ لا ينقض ومن وظائفه ايضا الحكم فى الجنايات التى تضر بالامن العام كما ذكره المؤلف بتفصيل

واما الدعاوى التى تخص الحقوق الالتزامية او تخص اراضى ايطاليا التى هى من تعلقات الايمبراطورية فكان الحكم فيها للمشورة الاوليقية اى المشورة العليا التى كان ترتيبها على نسق ترتيب الديوان الملوكى القديم الذى كان احدثه ايمبراطرة المانيا ولم تكن هذه المشورة الاوليقية تكتسب شوكتها من مشورة الديت بل كان الايمبراطور هو الذى له الحق دون غيره فى تعيين اربابها بارادته واختياره واصل منشا هذه المشورة هو ان الايمبراطور مكسيمليان لما عزم على ان يسترد بعض الشوكة التى فقدها بسبب عظم شوكة المجلس الايمبراطورى جعل لهذا الغرض مشورة الديت ترخص له سنة (١٥١٢) ان يرتب المشورة الاوليقية ومن ذلك الوقت صار اعظم غرض سياسى يهتم به ديوان مدينة ويانة هو توسيع دائرة احكام المشورة الاوليقية وتقويته بشوكتها التضعيف بذلك شوكة المجلس الايمبراطورى وتحصر احكامه فى حدود ضيقة ثم ان المجلس المذكور فترت همته فى فصل الدعاوى فكان يطول امدها من غير تمييز فانتهز الايمبراطرة هذه الفرصة ليتوصلوا بها الى مقصدهم لان هذا التوانى لازم لمجلس اربابه انتخبتهم مشورة الديت يفارقون من بعضهم ولا التئام بينهم بخلاف المشورة الاوليقية فان رئيسها واحد لا تقبل حكما من غيره فبذلك كانت تجرى المصالح بلا توان وتنجزها

مع السرعة التامة كما ذكره المؤلف بوفاندورف والمؤلف بفيفيل

المبحث الثالث والاربعون

فى بيان مطلب ظلم هذه الدولة (اى الدولة العثمانية) بصحيفة (١٧٥) من القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا

ماذكرناه فى وصف دولة الترك موافق لما ذكره محققو السواحين الذين دخلوا اراضى تلك الدولة وان خالف فى ذلك القونتة مارسيغلى فى مختصره الذى الفه فى الحالة العسكرية للدولة العثمانية وكذلك سيرجامبورتير مؤلف الكتاب المسمى ملحوظات ديانة الترك وشرآئعهم وحكومتهم واخلاقهم حيث ان هذين المؤلفين قد خالفا من كتب فى شأن ترتيب سياسة هذه الدولة الشديدة الباس ومنشأ مخالفتهما طول مكثهما فى تلك البلاد فوجدا فى بعض سياساتها عدلا وانتظاما فلم يصفا هذه الدولة بانها ظالمة محضة كما قال به غيرهما ولكن اذا قيل فى حق حكومة ايا كانت انها ظالمة فلا يلزم من ذلك ان الملك افعاله دآئما مبنية على الظلم والاجحاف خالية عن العدل والانصاف وايضا جميع انواع الحكومات لابد وان تكون ادارتها المعتادة مضبوطة ببعض اصول مؤسسة على العدل ما لم يكن الملك ظالما ذا طيش واختلال وان لم يبذل صاحب الادارة غاية جهده فى تحصيل السعادة لرعيته فلا اقل من كونه لا يجعل غرضه محقهم وابادتهم فهل يمكن ان نطلق اسما آخر غير الحكومة الظلمية على دولة فيها الملك يحكم باطلاق تصرف على جيوش عديدة و يتصرف كيف شاء فى ايراداتها الواسعة وليس للاهالى فيها شئ من المزايا ولا دخل فى حق التشريع لا مباشرة ولا بواسطة ولا يوجد فيها جمعية اشراف تغار على حفظ حقوقها ومزاياها التى يرثها الفرع عن الاصل بحيث ان هؤلاء الاشراف يكونون حاجزا بين الملك والرعية نعم ان الدين وعساكر القابوى كولى يضيقان شوكة السلطان تضييقا بينا ولكن هذا لا يكفى فى عدم تسميتها بالحكومة الظلمية لانه لا يغير صورتها

ولاحالتها التى هى عليها فلا يخفى انه اذا اراد ملك ظالم ان يعد عساكر لتعضيد
شوكته يجعل لهذه العساكر الشوكة الكبرى فهذا هو سبب تعاظم العساكر
فى الدولة العثمانية فحينئذ الانكشارية كان لهم سطوة كبيرة و بأس شديد
فى الدولة وهذا لا يمنع من كون حكومتها ظلمية فان العساكر البرِّيطوريانية
فى مدينة رومة كانت تعزل الملوك وتقتلهم وتولى من شاءت على الايمبراطورية
كما فعلت العساكر الانكشارية فى مدينة القسطنطينية ومع ذلك اتفقت كلمة
المؤلفين السياسيين على ان ايمبراطرة رومة كانوا ظالمين مطلقى التصرف
ثم ان المؤلف سيرجامبورتير مؤلف الملحوظات السابقة ذكر فى مقدمة كتابه
فى الطباعة الثانية بعض تنبيهات تتعلق بموضوع هذا المبحث ولا اثق بصحة
ما ابديه فى هذا المقام مما يخالف رأى هذا المؤلف الذى بذل جهده فى البحث
عن حالة حكومة الترك ووصفها باوصاف تدل على ان معارفه فى ذلك غزيرة
لكن بعد الفحص الشديد مرارا عديدة عن هذا الغرض ظهر لنا ان هذه
الحكومة لا يمكن نظمها الا فى سلك الحكومات التى سماها المؤلفون
السياسيون بالظلمية فلا ترى فى قوانين الترك ما يمنع السلطان عن تنفيذ
ما يريد تنجيزه بشوكته المطلقة الا الشيئين اللذين تكلمنا عليهما احدهما
مأخوذ من الدين الذى هو اساس للشوكة السلطانية والآخر هو العساكر
الذين يحتاج اليهم فى حفظ شوكته وذكر المؤلف سيرجام السابق ان العلماء
حاجز بين السلطان ورعيته وفيه ان شوكتهم المانعة لتصرف السلطان
وان بلغت ما بلغت لا تخرج عن الدين ثم ان طائفة الملا التى ينتخب منها المفتى
وغيره من اهل الشريعة هم علماء الدين وانما كانت محترمة عند هؤلاء الناس
لانها ترجمان القرآن ومبينة لاسراره الالهية وعلى هذا فما تمنع به هذه
الطائفة تصرف السلطان ليس خارجا عن الشيئين المذكورين على ان شوكتهم
فى ذلك ضعيفة فان المفتى الذى هو رئيس هذه الطائفة ومن يلحق بها من اهل
الشريعة ينصبه السلطان و يعزله متى شاء وقد حصل سنة (١٧٤٦)
ان طائفة العلماء ارادت عزل وزير كانت تبغضه فسلكت فى ذلك واسطة

غريبة تدل دلالة واضحة على ان هذه الطائفة لم يكن لهما من الشوكة الاشئ واه لايقمع السلطان عن فعل مايشاء وهذه الواسطة على ماذكره المؤلف سيرجام هى ان هذه الطائفة لم يمكنها منع المظالم التى كانت حاصلة فى الادارة اذذاك الا بحرق مدينة القسطنطينية ولا يخفى ما فى ذلك من الغرابة

والظاهر ان هذا المؤلف لا يقول ان عساكر القابوى كولى اى الحجاب آلة مقوية لشوكة السلطان ولا مانع لتصرفه و بنى هذا الرأى على ان عدد هؤلاء العساكر قليل بالنسبة الى العساكر الاخرى التى تتآلف منها الجيوش العثمانية وعلى انهم فى زمن الصلح لا يشتغلون بالفنون العسكرية وانا اقول ان العساكر الذين يكونون محافظين على التخت وان كانوا قليلين لابد وان يكون لهم سلاطة على ذات السلطان فمن باب اولى تكون لهم السلاطة على الحكومة فان العساكر البريطوريانية الذين كانوا محافظين على الدولة الرومانيــة كانوا قليلين جدا بالنسبة الى غيرهم من العساكر الذين كانوا فى اقاليم تلك الدولة بل عساكر القابوى كولى اكثر عددا من البريطوريانية فلاشك ان لهم من الشوكة ما للبريطوريانية فيكونون مهابين عند السلطان والرعية ثم ان الانكشارية لم يكونوا وقت وصفنا لهم بما ذكرنا على الحالة التى هم عليها الآن من ضعفهم فى العسكرية وقد ذكر المؤلف سيرجام ان الانكشارية لم يعزلوا سلطانا قط بمحض شوكتهم بل كانوا يستندون فى ذلك الى الشريعة حقيقة او ادعاء فكان المفتى يفيد السلطان الشق الحكم الشرعى الذى يوجب عزله وهذا لا يرد علينا لان ذلك امر معلوم فان جميع ما يقع من القيام والخروج عن الطاعة ولو من العساكر لا يترتب عليه غرض العاصين الا اذا اقترنه القوانين السياسية والشرعية التى هى مبنى نظام المملكة

والغرض مما اوردته فى هذا المقام توجيه ارآءى لامناقشة ماذكره المؤلف سيرجام الذى اتى فى حقنا بعبارات حسنة ومدحنا فى التنبيهات التى اوردها على ماذكرناه فما اسعد المؤلفين الذين يتصدون لافادة الناس آراءهم اذا كان مايبدونه من المناقشات لرد ما ورد على تأليفهم محلى بخلوص الطوية والحياء

والوقار والظاهر ان هذا المؤلف فى بعض تنبيهاته لم يقف على حقيقة ماقصدته فى بعض عباراتى فانى لم اقصد بذكر طول مكث هذا المؤلف والقونته مارسيغلى ببلاد الترك ان اضعف ماذهبا اليه فى شأن هذه الدولة وانما ذكرته لغرض آخر وهو ان من اطلع عليه لا يأخذ رأيى قضية مسلمة حيث انه مخالف لرأى هذين المؤلفين اللذين تيسرت لهما معرفة احوال تلك الدولة بوسايط امكن واحكم مما تيسر لى منها

المبحث الرابع والاربعون

فى بيان مطلب تحديد قدرة السلطان وتقييد افعاله بالدين ومطلب تضييق قوة السلطان بالعساكر بصحيفتى (١٧٦) و(١٧٧) من القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا

جميع المؤلفين الذين تكلموا على دولة الترك ذكروا منشأ ترتيب الانكشارية ووصفوا لنا ما كانوا عليه من الضبط والربط وما كان لهم من المزايا والمهارة العسكرية وقد بين الامير كانتوميرا الحمية الدينية التى توصل بها الى غرس الشجاعة فى قلوب الانكشارية فقال لما جدد السلطان مراد الاول ارطة من هؤلاء العساكر بعثها الى الحاج بكتاش وكان من الاولياء عندهم اشتهر بالكرامات والاخبار بالمغيبات وارسل اليه يترجاه ان يسمى هذا الجيش الجديد باسم ويعطيه لوآء ويسأل الله تعالى ان يعينهم فى غزواتهم فلما مثل هؤلاء العساكر بين يديه وضع كمه على رأس احد رؤسائهم وقال ليسموهم بالانكشارية واخذ فى الدعاء لهم فقال اللهم اجعل لهم الشوكة القوية دائما ابدا * واجعل النصرة بايديهم سرمدا * واجعل نصالهم قاطعة * وسنانهم على هامات اعدائهم لامعة * واجعلهم فى كل وجهة مسرورين * وردهم امنين فرحين * انتهى

ولم يكن عددهم فى مبدء الامر كثيرا جدا فكانت عدتهم سنة (١٥٢١) فى ايام السلطان سليمان اثنى عشر الفا ثم اخذوا فى الكثرة من ذلك الوقت

كما ذكره المؤلف مارسيغلى ومع ان هذا السلطان كان ذا حزم وعزم وشوكة فى قمع الانكشارية وادخالهم تحت الطاعة ادرك بعض المتبصرين العارفين فى زمنه ان هؤلاء العساكر لابد وان يضروا حالا اومآلا بشوكة السلاطين وقد ذكر المؤلف نقولة دوفنواس وكان مع ارامون الجى هنرى الرابع ملك فرانسا عند السلطان سليمان فى رحلته اوصاف الانكشارية ومدحهم بالضبط والربط والبراعة العسكرية الا انه ادرك ان هؤلاء العساكر لابد ان يصيروا ذات يوم مخوفين على السلاطين ويفعلوا فى القسطنطينية نظير مافعله العساكر البريطوريانية فى مدينة رومة

المبحث الخامس والاربعون

فى بيان مطابق مافاق العثمانية به النصارى فى القرن السادس عشر بصحيفة (١٧٩) من القسم الثالث من اتحاف الملوك الالبا

السلطان سليمان الملقب بالسلطان الفاخر ويعرف عند الترك بالقانونى هو اول من ابدع تدبير الخزائن وجعلها على صورة منتظمة واحكم ترتيب العسكرية فى الدولة العثمانية فقسم الجيوش الى عساكر قابوى كولية وهؤلاء هم الذين كانوا فى الحقيقة ملازمين للخدمة العسكرية والى سرتاتا كولية اى العساكر المعدة لمحافظة الرساتيق وكان هؤلاء العساكر يجلبهم اصحاب الاراضى التى يسميها الترك تيمار بوت وزيام وهى اراض يعطيها السلطان على سبيل العمرى لاناس بشرط ان يخدموا فى العسكرية فهى قريبة من الالتزامات القديمة عند الافرنج وقد بين السلطان سليمان فى قانوننامه الذى رتبه مقادير هذه الاراضى من كل اقليم من اقاليم السلطنة وبين ايضا عدد العساكر الذى يجب على صاحب الارض جلبه وعين ماهية كل عسكرى مادام فى الخدمة العسكرية وقد لخص هذا القانون كل من القونتة مارسيغلى والامير بولص ريكوت ويظهران مقدار العساكر العثمانية المعتاد كان يزيد على مائة وخمسين الفا وبانضمام هذه العساكر

الى عساكر الدولة تتكون شوكة عسكرية قوية تفوق شوكة اى ملك كان من ملوك النصرانية كذا ذكره المؤلفان المذكوران ولما كانت ايام السلطان سليمان كلها حروب وغزوات كانت العساكر دائما فى الوقائع مشغولة بالقتال ولذلك كادت العساكر السرتاكولية تساوى الانكشارية فى الضبط والربط

فعلى هذا لا يستغرب ما ذكره مورخو القرن السادس عشر من ان الترك يفوقون بكثير على النصارى فى الفنون الحربية والحركات العسكرية فمن ذلك ما ذكره المؤلف غيشاردين من ان الايطاليين تعلموا من الترك فن تحصين الثغور وما قاله المؤلف البارون بوسبيك الذى كان ايلجيا عند السلطان سليمان من طرف الملك فرديننـد واغتنم الفرصة بملاحظة حالة العساكر التركية والعساكر النصرانية حيث اشهر مؤلفا ذكر فيه الطريق العظيمة التى ينبغى للنصارى سلوكها فى حرب الترك واطنب فيما اختص به الترك وفاقوا به ابناء النصرانية من الضبط والربط وغير ذلك مما يخص الفنون الحربية ولو امكن ان فى هذا المبحث ريبا لاتيت بما يكشف عنه الغطاء من الشواهد الواضحة

وقبل ان نختم عقد جمان التوضيح بالبرهان الصحيح ينبغى لنا ان نبين لقارئ كتابنا هذا سبب امرين اهملنا ذكرهما لان من قرأ هذا الكتاب يمكن ان يلاحظ انى اهملتهما فيجب ان ابين ان ترك احدهما عين الصواب واذكر علة اهمال الاخر لاتدارك ما يمكن ايراده على ويعترض به على كتابى فاقول

الامر الاول هو ان جميع ما اوردته من المناقشات فى شأن تقدم الحكومة والاخلاق والآداب والتجارة فى القرون الوسطى وكذلك ما قدمناه من وصف القانون السياسى فى دول اوربا المختلفة فى اوائل القرن السادس عشر لم اتعرض فيه لذكر المؤلف ولتيراصلا مع انه تكلم على هذه الحوادث المذكورة وبحث عن احوال تلك القرون فى كتابه المسمى مختصر التاريخ

وليس ذلك من اهمالا فى مؤلفات هذا الرجل العجيب الذى بذكاء قريحته واتساع دائرة معارفه تمرن على اغلب انواع الانشاآت الادبية فاغلب مؤلفاته تقضى بفوقانه على غيره وجميعها يشهد له بحسن عبارته وطلاوتها وغزارة معارفه الا انه يتأسف عليه من جهة قدحه فى الاديان واغماضنا على ذلك انه قل ان تأسى بمؤرخى المتأخرين الذين يذكرون الاصول التى استمدوا منها الحوادث التى دوّنوها فى كتبهم فلم اعتمد على ما نقله فى هذا الشأن لا بين به امرا مبهما او مريبا ومع ذلك فقد اقتفيت اثره فى هذا الكتاب فدلنى على شيئين احدهما الحوادث التى اطلعت عليها والثانى استنبطناه منها ولو بين لنا اسماء ما استنبط منه من الكتب التى بسطت الكلام على الحوادث التاريخية لكفانا المؤونة فى البحث عن معظم هذا التاليف ولا عترف له كثير ممن قرأ كتابه الذين لا يشهدون له الا بكونه كاتبا ماهرا يرغب فى تأليفه بانه ايضا مؤرخ عالم متبحر

والامر الثانى هو ان كل قارئ متيقظ يلاحظ انى لم اطنب فى الجزء التاريخى من الاتحاف ولا فى عقد جمان التوضيح الذى زدته عليه فى الكلام على القوانين والعوايد القديمة التى تخص دول ابريطانيا الكبرى الثلاثة بقدر ما اطنبت فى الكلام على قوانين الملل الاخرى من اوربا وعوايدها والباعث على ذلك هو ان الحوادث الاصلية التى تتعلق بتقدم الحكومة والاخلاق فى هذه الدول الثلاث مما لا يخفى على اغلب القارئين فلذا اضربت عنها صفحا لما انه لاداعى الى بسطها ومع ذلك فلم اهمل من الملحوظات والحوادث ما لابد منه فى الوفاء بالمقصود من الجزء التاريخى من الاتحاف بل ذكرتها فى المواد التى هى موضوع كتابنا ولما كانت صور الحكومة فى سائر بلاد الافرنج تكاد ان تكون متحدة فى عدة قرون رأينا انه ليس هنالك ما يوضح تقدم القانون الانكليزى اتم توضيح الا بجنسا مع التحقيق عن قوانين دول الافرنج الاخرى وعوايدها وقد اهمل فى بيان اصول هذا القانون القديمة مؤرخو الانكليز ومشرعوهم لانهم لما استغربوا القانون السعيد الذى تحظى به الآن بلادهم

تفرغوا بكليتهم الى تحسين صورته واحكام احكامه اكثر من التفاتهم لبيان وضعه القديم مع انه مباين بالكلية للقوانين المتأخرة ولما اطلعت على غير بريطانيا الكبرى من الدول الافرنجية ورأيت قوانينها وشرطاتها ومؤلفاتها القديمة تفكرت كثيرا ان كل مؤلف اعتنى فيه بايضاح الكلام على تقدم التشريع والقوانين السياسية ببلاد الانكليز وقوبل ذلك بما فى الدول الاخرى من التشريع والقوانين المشابهة لها يصير عظيم النفع ويكشف الغطاء عن مباحث عويصة باقية على ابهامها الى الآن ويبت الامر فى شأن كثير منها من المباحث التى هى منذ زمن طويل موضوع مجادلات وارتياب بين المؤلفين الذين بذلوا فيها من الجهد الغاية وبحثوا عن تحقيقها ليقفوا اثرها على نهاية

براهين جليه فى نقض ماقيل فى الدولة العثمانيه

لمترجم هذا الكتاب الفقير الى مولاه خليفة بن محمود احسن الله فى الدارين مثواه قال مؤلف كتابنا بصحيفة (١٧٥) فلما كان هؤلاء السلاطين يرون ان رعاياهم يخضعون لهم مع غاية الذل كانوا لا يبحثون عن ان يدخلوا فى مملكتهم شيأ من القوانين التى فى غيرها من الممالك والدول يمنع تعدى الملك وظلمه واختصاصه باطلاق التصرف فكان لا يوجد فيها كغيرها محاكم شرعية تعرض عليها القوانين والشرآئع قبل بثها ونشرها فى المملكة ولم يكن بها طائفة اشراف ولا امرآء ورائية كما فى المانيا مثلا يغارون على مزاياهم ومناصبهم فيضيقون قوة الملك وشوكته الى آخره

اقول ان الممالك الاخرى انما تبحث عن قوانين تمنع تعدى الملك وظلمه لان الملك فى غير الدولة العثمانية ليس مكبوحا بقيد اكيد كالسلطان اى ليس عنده القرآن الذى يرجع اليه السلطان فى الجزئيات والكليات بحيث ان تعداه لا يطاع امره بل قوانينه سياسية لا الهية فصاح لمن يذب عنها ويحفظها من تعدى الملك واما قوانين الدولة العثمانية فكلها مستنبطة من الكتاب والسنة ويجب على كل مسلم ان لا يتعداها فى شئ لانه ان تعداها فقد خالف الكتاب والسنة اذ انه من

لم يحترم الفرع لم يحترم الاصل وحاشا ان يستطيع احد من المسلمين مخالفة المشرع لاسيما السلطان الذى يعلم انه اما اولى ليعدل بين رعاياه و ينسج على سنة سيد البرية واما القوانين السياسية عند المسلمين فلا يمكن ان يوجد فيها ما هو مخالف لنص القرآن فى الاحكام بل هى احكام منه تخالفه فى الالفاظ لا فى المعانى

وايضا ان السلطان لا يجرى احكام القران بمجرد ما يفهمه برأيه ولا يتصرف فيها بشئ الا اذا كان مستكملا لشروط الاجتهاد بل كل شكوى اودعوى ترجع الى الديوان العالى بمدينة اسلامبول فيتذاكر فى شأنها ارباب هذا الديوان ومن جملتهم المفتى الذى هو مفتاح آيات التنزيل المبين وترجمان كلام رب العالمين فاذا حكم بشئ فى الديوان نظر فيه المفتى هل هو موافق للحكم الشرعى اولا فاذا افتى به واقر عليه قدم الى السلطان فان شاء التخفيف عن استحق العقاب خفف او العفو عفا الا اذا كان ذنب الجانى كبيرا يضر بمصلحة المسلمين فان السلطان لا يمكنه ان يتجاوز ما حكم به المفتى وارباب الديوان ولو كان فى حق اعز اخصائه واحزابه * قال المؤلف غراسى

ينعقد الديوان السلطانى ليحكم فى المعاملات والجنايات وغير ذلك مما يرفع الى السلطان ويحقق هذا الديوان ايضا دعوى ما اذا اتهم احد من الرعية قاضيا ولو القاضى الاعظم الذى هو قاضى عسكر

ويحقق الديوان المذكور كذلك كل شكوى قدمت الى السلطان فى شأن وزير او باشا او احد من ارباب المناصب العالية فى الدولة او فى الديوان و بالجملة فهذا الديوان يحقق جميع انواع الشكاوى ولو فى حق احد من اربابه فاذا شكا انسان احدا من ارباب الديوان لا يجوز له ان يحضر به حتى يتم تحقيق دعواه مع شاكيه وكل شئ فى هذا الديوان لا يكون الا بموجب رأى الجمهور

ورئيس هذا الديوان هو الصدر الاعظم واذا غاب يقوم المفتى مقامه واما اذا اقيمت دعوى فى حق احدهما بهذا الديوان كان رئيسه غير المتهم

منهما وليس للسلطان محل بهذا الديوان يجلس فيه بل يجلس فى محل مطل
على الديوان متصل بسرايته فاذا جلس فيه رأى كل مايقع فى الديوان وسمع
كل مايحصل فيه المذاكرة كل ذلك وهو لا ينظره احد و يجب على الوزرآء
وارباب الديوان ان يتكلموا بصوت عال وان يفصحوا فى عباراتهم لكى لا يخفى
على السلطان شئ مما يتذاكرون فيه فيعرف طوية كل منهم و يظهر له
الانفع والاصلح منهم للدولة فيجازيه على عدالته وحسن سلوكه واستقامته
انتهى

فاقول ان السلطان ليس مطلق التصرف لان الحكومة المطلقة هى حكومة
يكون الملك فيها فاعلا مختارا قادرا على تنجيز ماتسوقه اليه نفسه من غير
ان يجد معارضا وليست واجباته مقيدة معلومة بل واجبة ما عليه له رأيه
فهو مشرع وملك وقاض وخصم وحكم لنفسه مع خصمه ولاشك ان مثل
هذا يمكنه بمحض ارادته ان يقتل من شاء و يعفو عن شاء و يقرب من احب
و يبعد من بغض

ومن الخطاء المحض ان يعتقد انسان ان السلطان يسلك هذا المنوال اى يمكنه
بمجرد رأيه ان يقتل احدا من ارباب المناصب فى دولته لا بل ولا من الرعاع لان
السلطان كما ذكرت لا يفعل شيأ من تلقاء نفسه بل جميع افعاله مقصورة على
القرآن والحديث لانهما اصل شوكته واحترامه عند رعيته فان كانوا يطيعونه
و يخضعون اليه يكون ذلك لمجرد اوامر القرآن المجيد قال الله تعالى يا يها
الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم فالطاعة
واجبة له بتنزيل الرحمن اذ لا ولى لمعرفى الحقيقة سواه قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم السلطان ظل الله فى ارضه ولا يفلح السلطان الا اذا اتبع القرآن
والسنة لانه ان خالف نصهما فى شئ فقد تعدى الحدود ونفرت منه القلوب
لمخالفة الرب المعبود اذ لا يتبع السلطان فيما جاء مخالفا لتنزيل الرحمن ولكم
قتلت سلاطين عظام فى نظير تعديهم لقوانين الدولة وللشرع ولكم حكم
ديوان القسطنطينية العالى بقتل وزرآء وباشات ظالمين خائنين ولكم

حكم كذلك بصلب آخرين بتسمير آذانهم بمسامير على باب السراية ولو كانوا من ندماء السلطان واخصائه * فالدولة العثمانية ليست خالية حكمهم المخالفين من ديوان يفتش على السلطان فى احكامه ويمنعه من كل فعل يضر بالرعية او بيلادهم

قال المؤلف غراسى من الخطاء اعتقاد كون السلطان يمكنه بمحض ارادته وشوكته ان يقتل من شاء قتله من ارباب المناصب فى دولته او من رعاياه * ولا شئ اشد فسادا من هذا القول فانه لا يقتل احد من الاكابر الا بعد الحكم عليه بذلك من طرف الديوان العالى فان اربابه هم الذين يتذاكرون فى هذا الشان ويملون ما انحط عليه رأيهم ثم يعرضونه على السلطان لانه اذا حكم الديوان على احد بالقتل لا يجوز اجراء هذا الحكم الا بعد ان يوضع عليه امضاء السلطان واما فى غير صورة القتل فيكفى امضاء المفتى وبعض من ارباب الديوان ولا بد ان تقيد صورة الحكم بتمامها فى دفاتر الديوان ولا يكتبها الا المفتى بنفسه

وغير هذا الديوان العالى الذى ترفع اليه المصالح العمومية والدعاوى الكبيرة الجسيمة يوجد عند كل باشا من حكام الاقاليم مشورة تسمى ايضا باسم الديوان وهو كناية عن محكمة تبحث عن تحقيق الدعاوى والشكاوى التى تقدم لهذا الباشا ولا يحكم فى شئ بدون ارباب هذا الديوان وكذلك القبطان باشا اذا سافر مع الدونانما اى السفن الحربية فانه اذا خرج من بوغاز كليبولى ورخص له فى احكامه على البلاد التى بالسواحل وصارت شوكته فى التصرف كشوكة الصدر الاعظم يعطى له كذلك مشورة بمعيته فلا يفعل شيأ الا بعد المذاكرة مع ارباب هذه المشورة * وارباب هذه الدواوين كلهم افندية اى عالمون بالشريعة وعدة ارباب كل ديوان تختلف بحسب عظم منصب الرئيس الذى هم بمعيته فبناء على ذلك يرى ان الشوكة المطلقة والتصرف الواسع المرخص فيه للباشات والحكام فى بلاد الترك ليست الا شوكة ظاهرية لان هؤلاء الباشات معهم فى دواوينهم من الافندية

من لا يغفل عن ملاحظتهم ادارة وافعالا وهؤلاء الافندية المعاونون هم انفسهم يلاحظهم الديوان العالى بالقسطنطينية وهو الذى يعاقبهم عند الاهمال واتباع سبيل الغى والضلال * واذا حكم باشات الاقاليم بالقتل على احد من القضاة لا ينفذ حكمهم الا بعد عرضه على الديوان العالى ليحققه ثم يصدر منه اوامر بالاجراء او بالمنع الى آخره .

وللسلطان الحق فى ان يعفو عن الجانى او يبدل عقابه بعقاب آخر ولكن اذا ثبت على الجانى كبيرة او فعل قبيح يضر بمصلحة عمومية مهمة وحكم عليه ارباب الديوان بعقاب لا يمكن للسلطان ان يتعداه ولو كان فى حق اعز اخصائه وندمائه لان الفتوى تكون فى هذه الصورة من نص الشريعة الرحمانية فلا يمكن نقضها واذا ابى السلطان ان يقبلها تغضب عليه الملة بتمامها وتخلى عنه فى نظير امتناعه من اجراء هذا الحكم وتصير فى حزب من قالوا به

فجميع من قتل من الباشات الظالمين والوزراء الخائنين اصحاب الاختلاس قد قتل بامر هذا الديوان وكذلك من علقوا من آذانهم بمسامير على باب السراية ولقد حصل هذا الفعل مع كثير من ندماء السلطان واخصائه ولا شك ان مثل ذلك عبرة عظيمة تناقلها الخلف عن السلف

ولكم حكم ديوان القسطنطينية ايضا بقتل سلاطين عظام من سلاطين الدولة العثمانية وحكم على آخرين منهم بالسجن الابدى الدائم فى نظير كونهم تعدوا قوانين الدولة واتوا بما يخالف القرآن * وفى مثل هذه الصورة لا ينعقد الديوان العالى فى سراية السلطان كعادته بل ينعقد فى الجامع المسمى آية صوفية

فيسوغ لنا ان نقول انه فى اى دولة كانت غير الدولة العثمانية لا يمكن ان يكون ارباب الديوان المنوط بادارة مصالح المملكة كارباب ديوان القسطنطينية فى الحرية وابداء الرأى فان كلا من ارباب ديوان القسطنطينية يقول رأيه بقلب قوى ولا يخشى بأس احد ونقول ايضا ان حزب السلطان فى الديوان المذكور اضعف من حزب ملك آخر فى دولة اخرى بحيث يقال ان حزب الملك

فى

فى دولة اخرى اقوى شوكة واعظم كلمة من حزب السلطان فى الدولة العثمانية التى يظهر ان حكومتها مطلقة بحيث يتصرف فيها الحاكم كيف شاء

ولربما استبعد قولى هذا من اطلع عليه ولكن اقول يسهل التصديق به عند من عرف ان السلطان لا يسوغ له ان يكون من ارباب الديوان العالى وان رأى الصدر الاعظم كراى غيره من ارباب الديوان فى الاعتداد والنفوذ وان السلطان والصدر الاعظم لا يمكنان حكما بتيا فى شأن ما يخص المصالح الجسيمة كعقد صلح او اشهار حرب وما اشبه ذلك واما فى غير هذه الدولة فترى اكثر الملوك هم الذين يتصرفون مع دواوينهم فى مثل هذا المعنى واما وكلاء المملكة فليسوا الا صورة وكل شئ اجرى لا يكون الا عن ارادة الملك وحزبه وشتان بين هذه الممالك والدولة العثمانية لان الديوان العالى فى بلاد الترك هو الذى يحكم بكل شئ من تلقاء نفسه

ولكن ربما قال قائل ان ارباب الديوان العالى كلهم قد ولاهم السلطان واغلبهم فى الاصل كان تاديبه بالسراية السلطانية وتربى فيها فهم عائلة السلطان وبناء على ذلك يلزم ان يكونوا انصاره المطيعين لامره يفعلون ما شاء من غير مخالفة ولا نقض وليست اراؤهم مستقلة فى شأن ما تقع فيه المذاكرة بالديوان اقول ان هذا الايراد كان يمكن قبوله وتسليمه لولم يكن عند الاتراك ما يمنعهم عما لا يرضى الله وما هو نصب عين كل مسلم فترى المسلمين اجمعين يدققون فى اتباعه وهو القرأن الذى يعسر على كل مسلم تبديل ادنى شئ منه كيف لا ومن عقائدهم الدينية انه يجب على كل انسان منهم المحافظة على هذا الكتاب المطهر ومراعاة احكامه مهما امكن * فارباب الديوان كلهم يعتقدون اعتقادا يقينيا انه يجب عليهم ان يقدموا احكام القرأن عن غيرها وان يكون اعتبارهم له فوق كل اعتبار ويعتقدون كذلك انه يجب عليهم ان يدافعوا عن القرأن وعن القوانين المبنية عليها الدولة من كل من اراد تبديلها او خدشها ولو كان السلطان ولاجل ذلك ترى انهم ليسوا انصارا للسلطان ولا يطيعونه فى جميع اوامره بل ترى ان بعض المناصب

التي يكون لصاحبها الحق في حضور مذاكرات الديوان ومشاوره ولا يجوز نزعة من صاحبه اذا قلده به السلطان وبالجملة فارباب هذا الديوان يعرفون ان شريعتهم المبنية على الحكمة قد نهت عن المخادعة واغوآء الغير لمجرد حاجة نفسانية فهم آمنون من ذلك

وقد عهد كثيرا في تاريخ الدولة العثمانية ان من اراد من ارباب الديوان ان يتعاظم او يرجح رأيه على رأى غيره ضاع اعتباره عند اهل الديوان وعند الرعية بحيث لا يرجى له فلاح بل لا بد من حطه او قتله فيما بعد كما حصل ذلك مع كل صدر اعظم بحث عن ان تكون له ادارة مذاكرات الديوان ومشاوره وعن ان يكون فوق اربابه كلمة ورياسة فهل يمكن بعد ذلك ان يفعل الصدر الاعظم لاجل حاجة نفسية له ما يجر بالسلطان والدولة الى ادنى حرب او ادنى ضرر والحاصل ان ارباب ديوان القسطنطينية لا يحبون ان يتأمر عليهم احد ولا يطيعون احدا في محذور بل يحبون ان يكونوا مطلقين في ابدآء آرائهم لمصالح الدولة كل يقول ما استحسنه عقله واستطابته نفسه من غير نظر الى مراعاة صاحب شوكة او صولة في دولتهم

نعم ان ما يحكم به في هذا الديوان يعرض على السلطان ولكن ليس للسلطان ان يبطل منه شيأ الا اذا اعتمد على اسباب قوية صحيحة والا فيخشى ان ينقض شيأ مما حكم به ارباب هذا الديوان وكذلك الصدر الاعظم فانه يخشى ان يشير على السلطان بشئ في هذا الشان لانه ان فعل مثل هذا لا يكون آمنا على نفسه فاذا لم يتعرض لشئ ربما كان عند الشدة من الناجين ويقع السلطان وحده فيما جناه على نفسه ولذلك ترى ان احكام هذا الديوان لا يرد منها الا القليل النادر انتهى

نعم ان الدولة العثمانية لم تكن بها طائفة اشراف ولا امرآء ورائية يغارون على مناصبهم ومزاياهم فيضيقون قوة الملك وشوكته ولكن اقول ان هؤلاء الاشراف او الامرآء كانوا يضيقون قوة الملك لاجل توسيع شوكتهم ولاجل نفع انفسهم لا لنفع الرعية فلا يخفى ما حل بالناس من المصائب والمظالم بسبب

اتساع مزية الاشراف وتقوية شوكتهم وسعة اراضيهم والتزاماتهم فكانت
الرعية تسأم من حكومة الاشراف كما كان يسام منهم الملوك فانظر الى الاهوال
التى حلت بمملكة فرنسا وانكلترة واسبانيا والمانيا وغيرها من ممالك اوروبا
بسبب الاشراف فانك تجد انه لم ينشأ عن حكومتهم سوى تخريب البلاد
ومحق العباد ولا حاجة الى ان ننبه هنا على ما فعله الملك كرلوس السابع وابنه
لويز الحادى عشر بعده فى خفض الاشراف ولا على ما حصل للمملكة
الفرنساوية بعد ضعفهم من التقدم والشوكة ونفوذ الكلمة فى البلاد
الاجنبية ولا يخفى كذلك ما فعله ملوك اسبانيا لاجل توسيع قدرتهم وضعف
شوكة الاشراف التى كانت سببا فى عدم راحة الرعايا لاسيما ما فعله الملك فردينند
وبالجملة فطوائف الاشراف التى ظن مؤلف كتابنا ان عدم وجودها بالدولة
العثمانية مما يقل العدل والنظام بها ليست الا منبعا للظلم والغصب
والاختلاس وجميع ما يتصوره العقل من مفاسد الطغيان والبغى وانواع
المساوى ثم فلطالما ظلم هؤلاء الاشراف فى المانيا وغيرها طوائف الرعايا حتى
كانت الرعايا خداما او عبيدا لهم ولطالما اساؤا الادب على كل من اراد
منعهم من الملوك واحب ان يمنعهم عن الظلم ليصلح حال رعيته اما انهم توغلوا
حتى صاروا يحكمون حكما مطلقا فى اراضيهم من غير ان يقدر على معارضتهم
احد وصارت احكامهم مطلقة فى المعاملات والجنايات ورخص لهم
فى المزايا الملوكية كضرب المعامل وعقد الصلح واشهار الحرب واحتقر بعضهم
بيأسه وقوته وتعاظمه وانفته ان يكون من جملة الرعايا ونقض العهود
التى تربطه بالملك حتى صار هؤلاء الاشراف انفسهم ملوكا مستقلين فصارت
كل مملكة حوتهم منقسمة الى امارات ووجاقات بقدر ما كان فيها من الملتزمين
الاقوياء وصار كل منهم يطمع فى حوز المملكة لنفسه و يبحث عن تكثير
اراضيه والتزاماته وتضعيف احزابه وازدياد رجاله حتى ظهرت اسباب
الاختلال من كل جهة واوقدت نيران الحروب بينهم غيرة من بعضهم وسفكت
دماء كثيرة بسبب الحروب التى كان لا ينقض لها ازدحام من بينهم فكانت

حصون كل مملكة وقلاعها معدة للمدافعة والاحتراس من الاغارات الداخلية لا لمنع الاعداء الاجنبية وجود هؤلاء الاعيان الملك عن معظم خصائصه حتى صار لا يمكنه ان يذب عن البريئين ولا ان يعاقب المذنبين وصار لا يمكنه ان يعارضهم فى ظلمهم ولا ان يدافع عن نفسه وكذلك الرعايا حل بهم من طرف هؤلاء الاشراف الظلم والنهب والسلب وصاروا عبيدا لهم يخدمونهم فى الحرب وغيره ويزرعون لهم الاراضى بل وكانوا يباعون مع الارض ان بيعت وكانوا فى غاية الذل والاسترقاق اذ كان السيد مطلق التصرف فى شأن من هم تحت ولائه من المستعبدين فلا يعارضه احد فى قتلهم او تعذيبهم او غير ذلك من العقابات التى تنفر منها نفوس ذوى المروءة والانسانية وكانوا لا يتزوجون وانما كانوا يعيشون مع بعضهم كالزوج والزوجة لا بعقد دينى فهم اشبه بحيوانات فى دار تأتلف مع بعضها كما هو مذكور فى المبحث التاسع بصحيفة (٢١٢) من كتابنا هذا فكانت الراحة مقصورة على اعتاب هؤلاء الاشراف الملتزمين وهل صلح حال بلاد الافرنج الا بعد قطع دابر هؤلاء الاشراف بطوائفهم وجعلهم كبقية الاهالى وكفانا معشر الاسلام فخرا ان دولتنا لم يقع فيها مثل هذه الامور لان طائفة الزراعين ببلاد الترك فى غاية من الامن والراحة لا كبلاد الافرنج فان الزراعين فيها مستعبدون ارقاء او اتباع للملتزمين واما بلاد الترك فترى الفلاح فيها لا ملتزم له يأخذ كسبه بل ما يكسبه بشغله وكده يرجع له ولعائلته فالحمد لله الذى انجى بلاد الاسلام من طوائف الاشراف التى تمدح بها مؤلف كتابنا لانه شتان بين من يحاول نفع نفسه ومن يحاول نفع وطنه فان الاشراف كانوا يحاولون نفع انفسهم ولا يقصدون بتضييق شوكة الملك نفع الرعية ولا راحة الاهالى بخلاف الدولة العثمانية فان الاكابر والرعاع على حد سوا فترى الاكابر الذين شربوا مشرب القرآن والشريعة المحمدية من صغرهم لا يميلون الى الظلم واذا اراد ذو نفس خبيثة منهم ذلك يرى من يعارضه فى الديوان العالى بل وفى نفس الرعية حتى يمكن ان يؤدى به ذلك

الى

الى حطه اوقتله

وبالجملة فالاكابر فى الدولة العثمانية يرجحون منافع الرعية على منافعهم فانظر الى ديوان القسطنطينية ترا اربابه لايبحثون الاعما فيه نفع الرعية ويبذلون فى ذلك غاية جهدهم وقد حصل عدة مرات ان الصدر الاعظم وغيره من اكابر الديوان قدر جحوا خروجهم من هذا الديوان عن كونهم يتبعون جمهور الديوان فى بعض اشياء راوا انها خطرة لدولة الاسلام كما حصل ذلك عن قريب عهد من المفتى والصدر الاعظم المسمى عزت باشا وذلك انه حصلت مذاكرة بديوان القسطنطينية (سنة ١٢١٤) من الهجرة المحمدية فى شأن مرور بعض سفن موسقوبية ببوغاز اسلامبول فابى الصدر الاعظم وهو عزت باشا ان يوافق اهل الديوان فى ذلك وكذلك المفتى فانه ابى ان يعطى الفتوى باجرآء هذا الامر فلما رأيا ان جمهور ارباب الديوان قد رضى بذلك ورأيا ان كلامهما لم ينفذا ستعفيا من الخدمة وذهب احدهما الى جزيرة كريدوا الآخر الى جزيرة رودس وقد حصل كذلك ان بعض سلاطين الدولة العثمانية قد بويع بالسلطنة على سبيل الانتخاب لكن من نفس العائلة السلطانية حيث ان بعض السلاطين قد توفى وله اخوة واولاد فانتخب اهل الديوان من يصلح للحكم منهم وبايعوه فاتفق انهم ولوا الاخ دون الابن او الصغير دون البكرى على حسب ماشاهدوا من صلاحية كل منهم قبل انتقال المتوفى وقد حكم الديوان المذكور كذلك على السلاطين بامور صعبة فى شأن الزواج اذرأوه يعود بالضرر على دولة الاسلام وصار حكمه بذلك معدودا من القوانين المحترمة فى الدولة حتى انه باق الى الآن وتعرض المؤلف غراسو لذكر هذا الامر فقال

ينبغى لنا ان نوجه العادة الغريبة التى ذهب اليها الاتراك فى حق سلاطينهم وجعلوها من القوانين المعتمدة فى الدولة وهو ان السلاطين لايجوز لهم ان يعقدوا زواجا شرعيا صحيحا وانما يقتصرون على ان يتسروا من الجوارى الارقاء الموجودة بالسراية فنقول ان هذا القانون رتب من ايام السلطان

بايزيد وقد اختلف فى الاسباب التى حملت السلاطين على اقرار هذا القانون فالاتراك يعدونه من اسرار الدولة التى لا يعرف سببها احد واما المؤرخون فقد بذلوا جهدهم فى توجيهه وبيان سببه فنسبه المؤرخ بوسبيك الى المصائب التى حلت بالسلطان بايزيد عقب انهزامه بالملك تيمورلنك لما ان السلطان بايزيد كان له زوجة تسمى ديسبينه وكان يحبها حبا جما فلما وقع الحرب بينه وبين الملك تيمورلنك وهزم اخذ تيمورلنك زوجته ديسبينه واحضرها امام عساكره وهى تكاد ان تكون عريانة فقال المؤرخ المذكور ما نصه ان ذلك هو السبب فى كون السلاطين الى الآن لا يتخذون لهم زوجة بعقد نكاح شرعى خوفا من مثل هذه الواقعة انتهى ولكن عد المؤرخون هذه الحادثة من جملة الخرافات المحضة فقال اعقلهم واحسنهم سياسة كالمؤلف ريكوت ان هذا القانون لا بد له من اسباب سياسية أأكد واعظم من هذه الحادثة التى لا يقرب لها احتمال عقلا

واقرب من ذلك الى الحق ان يقال ان سبب هذا القانون هو قصد حفظ الدولة العثمانية وابقائها على اصلها وذلك ان الاتراك بمجرد استيطانهم ببلاد اوروبا وكانوا اقوياء الشوكة اراد عدد من ملوك الافرنج ان يتخذوهم جاها ليكونوا فى حماهم فعرضوا على السلاطين بناتهم ليتزوجوا بهن فقبل بعض السلاطين ذلك لما ان القرآن يجوز زواج المسلم بالنصرانية

ومن جملة السلاطين الذين تزوجوا من بنات النصارى السلطان اورخان الاول فانه تزوج بالاميرة تيودوره بنت الملك كوتاكوزين لان هذا الملك كان يحب ان يستعين بالسلطان المذكور على الامبراطور باليولون ولاجل ان يستميل هذا السلطان ويتوصل الى مقصده عرض عليه بنته ليتزوج بها وكانت بديعة الجمال ما لها فى جنسها مثال فكتب السلطان عليها وبعد ان تم العرس نقلت هذه الاميرة الى سراية السلطان ورخص لها فى ان تبقى على دينها

ولكن بعد ان تثبت الاتراك فى بلاد اوروبا اقتضت السياسة ان لا يأذنوا

لسلاطينهم بالزواج وذلك ان ارباب الديوان العالى خافوا من ان يصير لدول الافرنج فيما بعد تأثير وكلمة فى الدولة العثمانية ويصير للافرنج دخل فى احكام دول الاسلام وترتيبها فصمموا على ابطال هذا الامر الذى يمكن ان تكون عاقبته سوأ لهم فجعلوا من جملة القوانين الصحيحة فى دولتهم ان لا يجوز لاحد من السلاطين ان يعقد زواجا شرعيا وانما يجوز لهم لاجل ان يخلفوا اولادا يرثونهم فى السلطنة ان يتسروا بالجوارى الموجودة بالسراية لانهما قد ربيت فيها وتدينت بدين المسلمين وعوايدهم ومن بعد هذا القانون انقطعت سلسلة المصاهرة من بين المسلمين والنصارى لانه صار لا يجوز للسلطان ان يأخذ امرأة على سبيل الزوجية بل ينكحها بملك اليمين ومن يرض من ملوك الافرنج ان يعطى بنته او اخته لاحد من السلاطين على هذا الوجه

وفى الواقع يمكن ان يقال ان منع السلاطين عن الزواج من ملة اجنبية هو السبب فى بقاء الدولة العثمانية على اصلها وابقاء شرائعها وقوانينها على صحتها الان اسير العشق ذليل مطيع فلو كان السلاطين يتزوجون ببنات ملوك الافرنج او اخواتهم وشغفوا بحبهن اواتوا منهن بذرية لكانوا عرضة لان تتغير طباعهم وربما كان ذلك يجر الى تغيير شرائع الدولة فمن حسن سياسة ارباب الديوان بادروا الى قبول هذه العادة التى صارت اصلا منع من ان يحصل فى بلاد الدولة العثمانية حكومة اشراف ارستوقراطية كما حصل فى غيرها من باقى ممالك اوروبا ولا شك ان مثل هذا الرأى السديد لا ينشأ الا عن كل ذى قريحة غزيرة وفطنة كبيرة

فانظر كيف حكم اهالى العثمانية على سلاطينهم فى شأن الزواج وكيف شددوا عليهم التشديد الكلى فى ذلك بحيث لا يمكنهم الآن ان يتزوجوا ولو من رعاياهم الاحرار انتهى

فعلم من ذلك ان السلطان فى الدولة العثمانية ليس مطلق التصرف بل هنالك قوانين تمنعه عما يريده ان كان لا يصح شرعا وسياسة او كان يضر بالدولة ولتعلم ان السلطان لا يمكنه ان يخالف قوانين بلاده من غير قصاص اذ كالك

هنا حادثة ذكرها المؤلف المتقدم فى مباحثه وملخصها ان المفتى راجيل فى ايام
السلطان ابراهيم كان له بنت قل مثلها فى الجمال وصفات الكمال فاشتهرت
بحسنها وبهائها فى مدينة اسلامبول حتى قيل انها فى قدها ولطفها وبديع
صفاتها وحسن صنعها تعلو على محظيات السراية

بروحى منها حاجبا غنج قوسه * تسلمه من طرفها اى نابل
وقضبان بلور بدت فى خواتم * واعمدة من فضة فى خلاخل
وزندين لولم يمسكا فى دمالج * لسالا من الاكمام سيل الجداول
لما اختال ظبى قبلها فى مدارع * ولا مال غصن يانع فى غلائل

فانتشر هذا الخبر حتى طرق اذن السلطان ابراهيم وكان يصبو الى كل ذى
جمال فصارت لذيذ كراوصاف هذه الجميلة ويحب تكرارها فى كل وقت وحين

يقولون فى البستان للنفس لذة * وفى الخمر والماء الذى غير آسن
اذا شئت ان تلقى المحاسن كلها * ففى وجه من تهوى جميع المحاسن

ولم يزل فى وله واحتراق وقلق واشتياق حتى الجأه الحب الى ان طلبها من ابيها
فتعجب المفتى من ذلك واعتذر له بانه لا يجوز له ان يتخذ امرأة الا من محظيات
سرايته ولا يجوز له ان يأخذ بنتا او امرأة حرة من نساء مملكته الا على سبيل
كونها جارية محظية لا على سبيل كونها زوجته وانه لا تسمح نفسه
بكونه يعطيه اله جارية محظية فقال له السلطان اتزوجها بعقد صحيح شرعى
فقال له المفتى ان الرسوم تمنعك عن ذلك لانه لا يؤذن للسلطان ان يتزوج
فاذا فعلت ذلك يخشى عليك لان الرعية لا تصفح عن السلطان اذا فعل
ما يخالف القوانين فهذا الزواج لا ينشأ عنه لك الا كل ضرر ولكن من شدة
غرام السلطان لم يسمع نصيحة المفتى وقال لا بد من الابتناء ببنتك فعند ذلك
اظهر المفتى انه جنح الى تزويج بنته للسلطان لكن بشرط رضاها
فلما ذهب المفتى الى بيته احضر بنته واخبرها بالقضية وقال لها ان تزويج بك
السلطان حل به كل خطر لان القوانين لا تأذن للسلاطين بالزواج ولو بما أدى
ذلك الى ايقاع فتنة او حادثة مشؤومة فى الدولة فيلزم ان لا ترضى بزواجه

فاطاعته

تاطاعته وطردت رسل السلطان وهدايا النفيسة من جواهر والماس وغير ذلك الى تقبل القصور والسرايات التي اعدها لها فلما علم السلطان بذلك صار يعجز قصده ببعض الشوق والتعصب فجعل ينتظر الفرصة حتى خرجت بنت المفتي مع جواريها لتذهب الى الحمام فاختطفها مأمورون من طرف السلطان وذهب بها الى السراية فظن السلطان حينئذ انه قد فاز بقصده واخذ يستميلها بمواعيد المزخرفة وبتودده اليها تارة وبتهديدها تارة اخرى فلسان حاله يقول

صل محبا العياء وصف هواه * فضناه ينوب عن ترجمانه
كلما راقه سوال تصدت * مقلتاه بدمعه ترجمانه

غيره

يا من يديم ترجسا * في روض وردذابلا
اصبح جسمي مدنفا * مذغبت عنه ذابلا

ولكن لم يجده ذلك شيئاً لان هذه الشابة العفيفة لم تظهر له سوى الاساءة والاحتقار فاضطر الى ارسالها بالشالي الى دار ابيها فلما علم المفتي ذلك اغتاظ كل الغيظ لما ان هذا تعدٍ من طرف السلطان وفيه هتك حرمته ومخالف لقوانين الدولة فتعلقت آماله بالانتقام لنفسه وللملة لان من تعدى على حق فرد واحد يخشى منه ان يتعدى على حق الجميع وحيث ان المفتي رئيس طائفة العلماء اجتمع معهم واتفقوا على تخليص حقه من السلطان فنشروا الخبر على الانكشارية واذاعوه بين الناس حتى علم الخاص والعام بان السلطان يريد ان يخالف قوانين الدولة ويتزوج بنت المفتي فعند ذلك تعللوا عليه بامور سابقة له وحكموا بعزله وقتلوه

صورة الحكم على السلطان ابراهيم المذكور

قد ارتكب هذا السلطان فعل عدة اشياء اغاظت الرعية لاسيما وكان عزيمه الاعظم محمد قبيح السلوك في الادارة والتدبير حتى اتهمته الرعية بانه ظالم غشاش ومع ذلك فكان السلطان يحبه ويجعله نديمه فنسبت الرعية هذا السلطان الى الظلم الذي صحبه من يظلم الناس واضرمت نيران الفتن بلاد الترك

وكان السلطان ابراهيم قد وقع بينه و بين المفتي عداوة كبيرة بسبب خطف بنته المتقدم ذكره وكان قد اغضب ارباب الديوان بسبب انه اراد ان يخرم القوانين و يتزوج بنت المفتي فابتدأ العلماء والرعية والعساكر بانتخاب وزير غير الصدر الاعظم محمد المذكور وارسلوا الوزير الذي انتخبوه الى السلطان صحبة ثلاثين رسولا من طرف الديوان والرعية ليطلبوا عقاب الوزير محمد في تظلماته وقبح سلوكه فلما وصلوا الى السلطان نظر اليهم بعين الاحتقار واستنكف ان يصغ لكلامهم وقبض بلحية الوزير مراده انه الذي انتخبته الرعية وصار يضرب به بين يديه فخلصه منه الرسل الذين كانوا معه وذهبوا من عند السلطان يقصون ما حصل لهم فزاد غيظ ارباب الديوان والرعية وفي اليوم الثاني عند انشقاق الفجر ظهرت رأس الوزير محمد معلقة امام الناس حيث ان هذا الوزير قتل ليلا بامر الديوان وفي هذا اليوم ذهب العلماء وارباب الدولة الى جامع آية صوفية ليتذاكروا في شأن السلطان واعرض المفتي راجيل على اهل المجلس ان الدولة قد حلت بها جميع المصائب بسبب قبح سلوك السلطان وظلمه فقال ان الدولة قبل حكم السلطان ابراهيم كانت في حالة زاهية زاهرة فلما حكم تخربت الاقاليم في اقرب وقت ونفدت خزائن الدولة وفترت همة العساكر وانقرضت قواتنا البحرية وتغلب النصارى على جزء من بلادنا وكل ذلك ناشئ عن ادارة هذا السلطان الذي لم تظهر صولته الا في ارتكاب المآثم والمظالم وذكر ايضا ما فعله هذا السلطان من اساءة الوزير الذي انتخبته الاهالي وختم بقوله ان من يعمل في انقاذ الدولة من ذلك يعد ولا شك من اصحاب الكمائر فعند ذلك حكم ارباب الديوان بان يرسلوا للسلطان يحضر وهاما مهم بالمجلس فكتبوا الفتوى ووضع كل منهم امضاءه عليها وارسلوها للسلطان فخزقها واوعد بقتل المفتي فقال له انما سرايته انه يخشى عليك ان تخلص من القتل و ياليتك تنال ان تقضي في السجن ما بقي من عمرك فلما سمع السلطان كلامه سكن غضبه والتفت الى ضباط سرايته الذين كانوا حوله وقال قد سبقت عليكم

التمائم الجزية فهل ارى فيكم من هو قوى القلب يتصدى لان يحامى عن سيده فلم يجيبوه الا بالصمت فعلم انه لا ينفع الظالم جليس ولا نديم فحكم عليه الديوان اولا بالعزل ثم صدر حكم ثان بقتله

ولا يخفى ايضا ما حصل للسلطان عثمان الثانى فى نظير كونه اراد ان يتزوج باخت السلطان محمد الثالث واراد ان يبطل عساكر الانكشارية فذهب اليه العلماء واعلموه بانه ان لم يرجع عن هذا القصد لا يرى من رعيته الا التحزب والعصيان فاجابهم السلطان بقوله والله لاسحقن كل العساكر الخيالة وكل الانكشارية ولكن بعد ان اسحقكم كلكم فى مهراس * فخرجوا من عنده واعلموا بما اجابهم به فصار كل الناس فى قلق وفزع واشتعلت بينهم نيران فتنة مهولة فاعتكف السلطان بسرايته وغلق ابوابها الا ان مدافع الاحزاب المغتاظين فرقعت كالرعد باطراف السراية فكسرت ابوابها وجال المتعصبون فيها الى ان وصلوا للسلطان فاخذوه وسجنوه عن امر الديوان بالصرح المسمى السبعة بروج وولوا محله السلطان مصطفى وقتل السلطان عثمان المذكور فى اليوم الذى اعقب يوم الفتنة

وقد عزل كذلك السلطان محمد الرابع والسلطان احمد الثالث ولا حاجة الى التطويل فى ذلك وانما نبنى على ذلك ان حكومة الدولة العثمانية ليست حكومة ظلم وجور كما ذكر مؤلف كتابنا وعلل ذلك بقوله ان السلطان يمكنه اعدام جميع الرعايا وتجريدهم عن جميع الاشياء وحوزها له بظلمه لا سيما والناس لا يعرفون الحرية فلا يرون انفسهم الا عبيد السلطان فكانه مخلوق لان يحكمهم كيف شاء وهم مخلوقون لان يخافوه ويطيعوا امره

نعم ان الاسلام يهابون السلطان ويحترمونه ويظهرون بحضرته التواضع والخضوع ولكن هذا الخضوع ليس من الدناءة كما يتواضع بعض الناس لا من مثله خوفا ورياء ولم يكن يميل اليه ميلا قلبيا بل هو حق واجب على كل مسلم مادام السلطان متمسكا بالسنة والقرآن اذ هو رئيس دولة الاسلام وحفيظ شريعة سيد الانام فهو خليفة النبى الكريم وسيف الرحمن الرحيم . فان كان

السلاطين يحترمونه كل الاحترام ويتمسكون بالتعظيم والتبجيل ومن بين الانام يكون تلك التبعيات التي تخاطب بها الملك السلام فهم يطيعون لوالدته البهية الشائقة ولا يجترؤن منها لكونهم يعلمون ان احكامهم مستنبطة من القرآن العظيم وسنة الامين الكريم الذي ما ضل وما غوى وما نطق قط عن الهوى الا ترى ان الرعية وارباب الديوان بالقسطنطينية قد اشهروا السلاح وخلعوا بالايجاع في صورة ما اذا تعدى السلطان الحدود ومال عن نهج المقصود

وقد اعترف مؤلف كتابنا المشار اليه بهذا وشهد عليه فقال بصحيفة (١٧٦) ما ملخصه ان الدين للسلطان زمام يمنعه عن ان يفعل كيف شاء بمحض ارادته ولو بلغ ما بلغ من كونه متصرفا مطلقا الا ان احكامه مقصورة عليه وشوكته مستمدة منه فيجب على السلطان الامتثال والانقياد من غير مجاوزة ما بينه الدين فاذا بين القرآن شيأ من المعاملات او العبادات او سياسات الدول وجب على السلطان ان يعمل بموجب ذلك ولا تنفذ اوامره في مناقضة ما هو مفروض بالدين فيتبين من كلامه ان السلطان انما يحكم بموجب الدين وشريعة سيد المرسلين وحيث كان كذلك لا يمكن ان ننسب له الظلم باي وجه كان لانه حاشا ان تكون شريعته ظالمة وهل يظلم ربك احدا كلا وما ربك بظلام للعبيد هذا وقد خالفه في قوله من لهم معرفة بالنصرانية عدة من العلماء الماهرين كالمؤلف مارسيغلي والمؤلف سيرجامبورتير وكذلك المؤلف غراسي والمؤلف سيلوستري فانهم لم يسلكوا في حمل على الدولة العثمانية من مؤلفي الافرنج ووصفها بصفات ذميمة لا تصدق عليها

واذا نظرت الى كيفية تربية السلطان في صغره والى تربيته اكابر دولته وارباب ديوانه ترى ان الدولة العثمانية ليست ظالمة ولا جبورية بوجه من الوجوه وتظهر لك صحة ما قدمناه من ان السلطان في ضيق التصرف بملكته وليس مطلق التصرف بين رعيته فاذا فعل شيأ مخالفا للكتاب او السنة او القوانين السياسية لا يتبعه عليه ارباب ديوانه بل ولا تقبله الرعية ونقلت في ذلك عن المؤلف غراسي عبارة صحيحة وان كانت للمسلمين من الضروريات الا انها

تضعف قول المؤلفين النصارى الذين وصفوا السلطان بكونه متصرفا مطلقا فى بلاده ومن ذلك انتقلوا الى وصفه ووصف حكومته بالظلم والجور وفى ذلك فائدة وهى انا لا نرد عليهم الا بقول ابناء جنسهم وتلك حجة اقوى فى قمعهم وتخطئة ارآءهم

قال المؤلف عراسى المذكور السراية هى منشا السلطان فى التربية اذ يربى فيها مع غاية التدقيق والتشديد تحت ادارة احد اغاوات الحريم ويجب عليه ان يحفظ القرءآن حفظا جيدا وان يعرف تفسيره واعرابه حتى يكون له اقتدار على شرح احكامه ويجب عليه ان يتعلم تاريخ الخلفاء وتاريخ العثمانية والتاريخ العام والجغرافيا ومبادى العلوم الرياضية واللغة التركية والعربية والفارسية بل ويتعلم غالبا الموسيق واللغة اللاطينية ويجب عليه ان يصلى الاوقات الخمس فى كل يوم وان يسلك سلوكا حسنا بحيث يقتدى به ولا فرق فى اولاد السلطان بين من هو معد لان يحكم بعد ابيه وبين اخوته الآخرين فترى السلطان يمتحن ابنه الذى يترقب الحكم بعده كبقية اخوته وكذلك امه وجدته يسألانه فاذا استل فى شئ من القرءآن ولم يحسن الجواب فيما سئل عنه تقطع رأس الاغا المتوكل عليه و يعطى لابن السلطان مهلة يحفظ فيها جميع سور القرءآن التى تعلم الانسان مراعاة العدل والحق والرفق بالفقراء ومن علم ذلك فقد حاز صفات الكمال وحميد الخصال سوآء كان من آحاد الناس او من ولاة امورهم

فهل يمكن ان الامير المتعود من صغره على الشغل والطاعة وحسن الاخلاق والعمل بحميد الشيم والخصال يصير ظالما جبارا * نعم ربما امكن ذلك حيث وقع بالفعل فى بعض الاحيان لكنه نادر ولو كان السلاطين قد تربوا بدوا وينا معشر الافرنج بين متملق وغمام ومفسد فى الانام لكنت ترى الظلم والقساوة من سجيتهم

ومن المعلوم ان قبيح التربية هو الذى يخشى منه فانه لا يفعل شيا حسنا واما الامير الذى تعلم من صغره اصول الحق وتعوّد على الملاطفة وحسن

الاخلاق ومكث بعيدا عن المفاسد والمآثم ولوحظ ملاحظة صعبة من صغره فانه اذا صار سلطانا يستمر كما كان ولا يخرج عن نهج ما يجب عليه
ومع انه بعد توليته يصير رئيس الدولة تراه غير منفك القيد في تصرفه بل يلاحظه المفتي في جميع حركاته وافعاله وكذلك العلماء والعساكر فهو تحت ملاحظة طوآئف ثلاثة طائفة الرعية وطائفة العلماء وطائفة العساكر وهذه الطوآئف الثلاثة يجوز لها بموجب القرءآن ان تقتله او تعزله اذا سلك ما هو مخالف لشريعة النبي (صلى الله عليه وسلم) فترى السلطان لا يغفل ابدا عن فعل ما يجب عليه ولا يخرج عن منهج الحق خوفا من ان يغضب رعاياه لاسيما وهو يميل الى العدل والرفق بالخصال الحميدة التي طبعت فيه بحسن تربيته وتراه لا يفوته وقت من اوقات الصلاة التي اوجبها القرءآن بل يذهب الى المسجد في ايام الاعياد والمواسم كبقية الناس واذا ذهب الى المسجد يقبل جميع الشكاوى التي تعرض عليه ويحققها وينتصف للمظلوم من المظالم وبالجملة فحكومة الدولة العثمانية التي تظهر انها اكثر حكومات اوروبا اطلاقا وتصرفا ترى السلطان فيها مضيقا عليه باناس عادلين لا يغفلون عن ملاحظته وترى شوكته محدودة بحيث لا يمكنه ان يتجاوز حدوده ولا ان يعدل عما يجب عليه مثل ما يفعل غيره من ملوك الافرنج المطلقين التصرف
ولنبين الآن كيفية تربية ارباب الدولة فنقول انهم يدخلون من صغرهم في السراية ويربون فيها مثل اولاد السلطان بدون فرق فترى المؤدبين يشددون عليهم كاولاد السلطان بل واكثر لان السلطان ان كان يرفق بعض الاوقات بالمتوكلين بتربية اولاده لا يرفق بتربية من هم معدون لان يصيروا ذات يوم ولاة الدولة ومديرين مصالحها فهو يشدد في ان يعودهم على الرفق والحلم والعدل والكرم ولا يرجى لهم رقي الا اذا تمكنوا من معرفة الاحاديث وتفسيرها وصار لهم اقتدار على تنزيل احكام القرءآن على كل مسئلة تحصل في الجنايات او في المصالح المدنية والعسكرية وعلى تفسير الآيات المشكلة من القرءآن هذا ولا يحصل لاحد منهم التقدم والنجاح الا اذا كان سلوكه

حسنا بحيث يقتدى به يعني انه يصلي اوقاته مع الخضوع وصدق النية من غير نفاق ولا سمعة ويلزمه ان يتخذ الطاعة قبلته وجب اخوانه امامه والفضائل كعبته وان يسعى مع الاجتهاد في تأدية ما يجب عليه انتهى

ولنرجع الى عبارة مؤلف كتابنا فنقول انه ذكر ان الدولة العثمانية لا يوجد فيها كغيرها محاكم تعرض عليها القوانين والشرائع قبل بثها ونشرها في المملكة

اقول ما يظهر مما تقدم ان هذا الزعم غير سديد لانا ذكرنا ان ديوان القسطنطينية محكمة يرد عليها كل ما يفعل في الدولة وذكرنا ان اربابه يبطلون ما فيه ضرر الرعية ويجرون ما عداه فاذا صدرت بعض اوامر من السلطان ورأى ارباب هذا الديوان انها مضرة او غير لائقة يردونها على السلطان ولا يخشون بأسه فاذا اراد اجراءها وتنفيذها رغما عن انفهم ترى الرعية لاسيما طائفة العلماء في قلق وجزع وتظهر التكدر والغيظ فان لم يرجع عما عزم عليه عزل او قتل وقد ذكرنا امثلة ذلك واما نفي المحاكم الشرعية عن بلادنا بالكلية فليس كذلك لان كل مدينة او قرية كبيرة توجد بها محكمة شرعية عظيمة قاضيها عالم بالشريعة المحمدية ومتمكن منها اذ يشترط شرعا ان يكون اعلم اهل زمانه ويفوض اليه في الاجتهاد فيما لم ينص عليه الشارع وقل ان كان للقضاة بديار الاسلام دخل مع احد الخصمين فيكونون من حزب من ارشاهم لانهم من صغرهم يتعلمون من القرآن والسنة ما يحثهم على اتباع الحق ويعلمون ما جاء من الاحاديث في شأن القضاة والعلماء الغير العاملين

ذكر في التاريخ انه حصل في ايام الصدر الاعظم كيوبرلي احمد ان رجلا من الاغنياء اصحاب العقارات اراد ان يشتري بيتا من جاره لاجل ان يوسع به بيته فطلبه من صاحبه فابى ان يعطيه له فظن انه يمكنه اخذه بطريق الغصب واحضر شهودا شهدوا بان صاحب البيت قد سامحه وباعه البيت واخذ جانبا من ثمنه ائلا يمكنه الرجوع فلما ذهب بهم الى القاضي وكان من اصحابه

طلب منه ان يجبر صاحب البيت على ان يعطيه حجة البيع وكان القاضى يعهد صلاح صاحب البيت فسأله هل باع بيته ام لا لان البيع انما هو عن تراض فحلف هذا الرجل بالقرءآن المجيد انه لم يبع بيته لشاكيه وانه لم يأخذ منه شيأ فتابس قلب القاضى حينئذ بالظن ودعى المدعى وقال انه لم يقر ببيع وحلف على ذلك بالقرءآن المجيد وانا اعهد فيه الصلاح فعند ذلك اراد المدعى ان يوقف القاضى على الحقيقة حيث انه من احبابه فاخبره بان الشهود قد اخذهم بالرشوة وانهم شهدوا الزور وان صاحب البيت لم يبعه بيته وانه لم يعطه شيأ من ثمنه. وانما يريد ان يأخذ منه البيت بهذه الطريقة حيث لم يمكنه ان يأخذه منه بالرضا ثم طلب من القاضى بعد ذلك ان ينجزله مرامه ووعده بان يعطيه خمسمائة قرش فاظهر القاضى انه يريد تنجيز مقصده بهذا المبلغ فلما احضرت الدراهم فى كيس اخذها القاضى ووضعها بجانبه واحضر حالا صاحب البيت ومن يدعى بانه اشتراه منه وسأل اولا المدعى ثم الشهود فشهدوا بان البيت قد بيع امامهم وحلفوا على ذلك فالتفت القاضى الى المدعى عليه وسأله فاجاب بان قول الشهود باطل وان قوله هو الحق وحلف ثانيا بين يدى القاضى فقال له القاضى هل معك شهود فقال لا فاخذ القاضى الكيس الذى كانت به الخمسمائة قرش ووضعه امامه وقال له هؤلاء خمسمائة يشهدون عليك وامر حالا بحبس المدعى والشهود واعلم الصدر الاعظم بذلك فاعرضه على ارباب الديوان فحكم عليهم بالقتل واعطاء اموالهم لصاحب البيت المدعى عليه وعلقت رؤسهم عبرة لغيرهم على باب البيت الذى ارادوا اخذه زورا من صاحبه ولو فرض ان فى القضاة من هوذو طوية خبيثة ونفس دنيئة لا تتأثر بوعظ ولا باحكام دينية تراه فى خوف ورعب من تفتيش حاكم الاقليم او القطر الذى هو به لان الحكام بل والسلطان لا يغفلون عن مصالح الرعية وما فيه اصلاح حالها فان القاضى يعذر ويقتل اذا ثبت عليه اختلاس او حكم بغير حق

وقد حصل كذلك فى ايام السلطان محمد الثانى ان بعض القضاة كتم الحق ونصر

الغنى

الغنى على الفقير فلما علم السلطان بذلك احضر القاضى وامر بتحقيق الدعوى فثبت الزور عند القاضى فامر السلطان بقتله وسلخه ووضع جلده على كرسى المحكمة ثم ولى ابن هذا القاضى محله وامره ان يجلس على جلد ابيه ويحكم بين الناس وهذا يدل على عدل السلاطين وميلهم الى الحق حيث ان تشديدهم بعض الاحيان تجاوز الحد فرجع الى الضد وكثيرا ما يوجد فى تاريخ الدولة العثمانية من مثل هذه الامور الصعبة التى هى عبرة عظيمة لولاة الامور تدعوهم الى اتباع سبيل الرشاد وتزجرهم عن ان يعدلوا عن شريعة سيد العباد

فيعلم مما تقدم ان الدولة العثمانية بديعة الترتيب والنظام راسخة الشرائع والاحكام لا يعترى قوانينها تغيير ولا تبديل بل وما لها فى الدول من مثيل وعلى ذلك يمكن حصر الاسباب التى دعت مؤلفى الافرنج الى ذمها فى شيئين اما مراعاة اختلاف الدين من البعض حيث انه فى مبدأ الامر كان ارباب الحل والعقد من القسيسين فلمحبتهم لملتهم يرون ما عداها قبيحا فهم منسوبون الى الاغراض وعدم النطق بالصواب واما الجهل من البعض الآخر باحوال الدولة العثمانية وقوانينها واحكامها وشرائعها وكل من هذين الامرين مقبول وقال به من يوثق بكلامه من المؤلفين بل قال به ايضا من هو عدل خال عن الاغراض من مؤرخى الافرنج اما السبب الاول فقد ذكره المؤلف سيلوسترى اليونانى وكان يعرف حق المعرفة ترتيب الدولة العثمانية ونظامها وقوانينها واحكامها فقال

قد اختلف المؤلفون النصارى فى شان الدولة العثمانية فوصفها بعضهم بوصف مهول ينفر من نظر اليه * ووصفها آخرون منهم بوصف جيد لطيف يروح قلب من اطلع عليه بحيث انه اذا نظر انسان فى هذين الوصفين يظن ان قول هؤلاء المؤرخين ليس فى شأن ملة واحدة بل هو فى شأن ملتين مختلفتين اما المذهب الاول فهو معضد بقبوله فى جميع الممالك المتمدنة من بلاد اوروبا ومنشأوه اختلاف المسلمين والنصارى فى الدين والاخلاق واما المذهب

الثانى فهو ناشئ عن عين الحقيقة

ومن المعلوم ان المؤلفين اصحاب المذاهب ليسوا كلهم مصيبين حيث انهم يتبعون ارآء العامة و يكتبون عن لسانها ويتخذون اوهامها الكاسدة دليلا يسترشدون به وهذا دليل لايؤدى الا الى سبيل الغى والضلال لاسيما اذا كان من يتبعه من المؤلفين ليس له معرفة خصوصية بالملة التى يريد ان يتكلم عليها وكان لم يبحث قبل ذلك كل البحث عن معرفة عوايدها وشرآئعها ودياناتها

وجميع المؤلفين من النصارى من غيران تستثنى منهم احدا قد اتبعوا المذهب الاول لاسباب اكيدة منها ان من يقول الحقيقة فى شأن الدولة العثمانية يكون عند النصارى عرضة للوم والايذآء واستهزآء الناس به ومنها انهم اتماذموها فى توار يخهم لاجل انه اذا قرأها ارباب التفتيش من النصارى لايرون فيها مايدل على ان المؤلف يميل الى اهل دين اجنبى فيكون ذلك سببا فى تعويق كتابه وعدم نجاحه وقبوله لاسيما وهم يعلمون انه قد حصل عدة مرات ان قائل الحقيقة قد عوقب عقاب اهل الكبائر كما وقع ذلك مع من شذ عن دين الكنيسة وتجاسر على ان يكون من انصار مذهب رفضته ولم تقره بل حصل ذلك ايضا مع من هم بتعضيد بعض اشياء صحيحة من العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية كما عوقب الشهير غاليله بسجنه فى الديماس لتكفير ذنبه الذى جناه بقدح فكرته وتشغيل قريحته اذ ايد مذهب قوبرنيق دون مذهب بطليوس وقال ان الشمس هى القارة وان الارض دآئرة حولها وآخر سبب دعى المؤلفين النصارى الى ذم الدولة العثمانية هو انهم يعلمون ان الاتراك لايعتنون بقرآءة توار يخ بلادهم التى يؤلفها النصارى فهم لايعتنون من باب اولى بمناقضتها ورد ماذموا به فيها * ولكن كان حق هؤلاء المؤرخين النصارى ان يصدقوا فيما ذهبوا اليه وان ينظروا بعين الاحتقار الى كل من اراد ان يتحزب عليهم فى الممالك المتمدنة من بلاد اوروبا

واقول هنا انى لم اصنف كتابى هذا لاجل اصحاب المذاهب من المؤلفين

ولست

ولست صاحب مذهب وان ماقلته فى تاليفى ليس الاعن يقين * وها انا ابرزه بقلب قوى لافريه ولامين * فلا اخشى مما اقوله فى شأن ملة الاسلام قول مناقض * ولا راد ولا معارض * و بالجملة فيكفينى ان اقول ان كتابى ليس مشحونا بالترهات والخزعبلات * والاكاذيب والخرافات * كتأليف من سبقونى فى هذا الشان * وكتبوا تاريخ بنى عثمان * لانى اقمت خمسة وثلاثين سنة فى مدينة القسطنطينية ومدينة ادرنه وازمير وحلب وجميع البلاد اليونانية التى فى حكم الدولة العثمانية و بذلك امكن لى ان اعرف حكومة الاتراك بجزءياتها وكلياتها معرفة يقينية فاقول انها ترجح عندى على سائر الحكومات المطلقة ويوافقنى على هذا القول اغلب اليونانيين ابناء جنسى فهم بقطع النظر عن دين الاسلام يوافقوننى اذا قلت ما اسعد هؤلاء الناس بالنظر لقوانينهم المدنية واحكامهم السياسية

وتعلمت فى صغرى وانا بمدينة القسطنطينية اللغة العربية والتركية فاعاننى ذلك كثيرا على مطالعة الشريعة المحمدية ومعرفتها حق المعرفة لما ان اصول هذه الشرائع محصورة كلها فى كتاب واحد وهو القرآن فهو كتاب مقدس يستمدون منه عباداتهم ومعاملاتهم وفيه جميع الاحكام المحمدية التى لا يستطيع احد من المسلمين ان يتعداها فى شئ انتهى

قال المؤلف غراسى الذى نقلت عنه فيما سبق رأى المؤلف سيلوسترى رأى سديد * وعلى غاية من التعضيد والتأييد * وها انا اذهب اليه * واقتسم معه ما يرد عليه * فاقول كما قال انى لم اصنف كتابى لاجل اصحاب المذاهب الذين يحكمون على الشئ قبل تصوره فهم يأخذون بظواهر الاحوال * وظهور الحق مع ذلك محال * وانما جعلته لكل انسان خال عن الاغراض والظنون * والبدع والميون لا يعقد رأيه على شئ الا بعد البحث والتدقيق والفحص والتحقيق انتهى

واما السبب الثانى وهو احتمال جهل المؤلفين الذين ذموا الدولة العثمانية فقد نص عليه المؤلف دوسون و يكفينى فى ذلك ان اذكر هنا نص عبارته وهو

مع ان هذا العصر منور بمصابيح العلوم لا يعرف فى شان الدولة العثمانية سوى مقدار اراضيها ووصفها الجغرافى واما فى غير ذلك فلم يقف لها احد على حقيقة بل اقتصر الناس على معرفة ظواهرها ولم يجل بل ولم يشاهد نظر احد من ارباب السياسة الوسايط التى بها انتظام حركات دولاب سياسة هذه المملكة الكبيرة وانما اعتنى ارباب السياسة بمعرفة المسببات دون الاسباب حتى ان اقوال المؤلفين فى شأن الدولة العثمانية كلها باطلة اذ هى مبنية على ملحوظات ظاهرية بعيدة غير اكيدة فهى فى الاصل اكاذيب وترهات ثم اخذت ونظمت فى سلك التواريخ الصحيحة وبذلك ضلت بلاد اوروبا بتمامها عن سبل الرشاد فى معرفة عوايد الاتراك واخلاقهم وقوانينهم وشريعتهم ودينهم

وفى الحقيقة يصعب رؤية احوال الملة التركية من خلف الضبابات الكثيفة الحاجبة لها عن غيرها بسبب قلة مخالطتها للملل الاجنبية وذلك انها لاختلاف دينها لا ترضى ان تعاشر غيرها فالدين حاجز حصين بينها وبين الملل الافرنجية لاسيما وهناك اسباب اخرى طبيعية وسياسية تعضد عند الاتراك تلك الاوهام الكاسدة الحائلة بينهم وبين الافرنج الى ان قال

ان من اطلع على شرآئع الدولة العثمانية يرى فى احكام الاتراك واصولهم ماهو بديع * ويرى فى معظم ديانتهم ماهو بعيد الشأو رفيع * وفى عبادتهم ماهو جليل محكم * وفى شرآئعهم ماهو مبنى على الحكم * وفى عوايدهم ماهو سهل محب * وفى اخلاقهم ماهو مألوف عذب * ومن قرأ فى تواريخ تلك الدولة التى الفها المؤرخون الاتراك يرى فيها اناسا ذوى قريحة غزيرة * قد تولوا السلطنة وظهر لهم رونق عظيم وبهجة كبيرة * ويرى ان الدولة العثمانية قد ظهر من اهاليها على اختلافهم اناس ناجبون ذوو ذكاء وفطنة ويرى الوسايط العظيمة التى بها انتظام ادارتها والوسائل الجسيمة التى بها ترتيب حكومتها انتهى

ولكم صعب على نقض قول مؤلف كاتب الا انه مشهور بين المؤرخين بالصدق

والاصابة

والاصابة * فهو رونق تبيان تلك العصابة * ما بارز في ميدان التاريخ وغيره الاوسبق * ومارمى سهمه الاقتل وقنق * خال عن الاغراض والبدع لا يميل الى خول للترهات بجع * وما ادرى ما الداعي له الى مخالفة كثير من المؤرخين * والعلماء الماهرين * في شأن الدولة العثمانية * والملة المحمدية * وطالما تقدمت رجلا واخرت اخرى * في نقض رأى تلك الطامة الكبرى * حتى

دعتنى الحقيقة فلم يكنى المخالفة * ومن نطق بالحق فما قال سفه *

وقد استنبطت ادلتى من تأليف الافرنج دون كتب الاسلام لئلا

ينسبنى احد من اعدآء الدين الى غرض يضعف قولى وتلك

حجة اقوى فنقلتها بهذه المثابة و بينت من ذكرها من

المؤلفين لكى يعلم ان من ذم الدولة العثمانية من

النصارى لا يخلو عن هذين الامرين الاخيرين

ونسأل الله ان يجعلنا من اهل

السعادة والسلامة

في الدارين

تم

(خاتمة)

فى شرح الكلمات الغريبة التى توجد فى كتابنا هذا مرتبة على حروف المعجم مضبوطة حسب الامكان ومفسرة على الوجه الاتم سوآء كانت اسماء بلدان او اشخاص او اشياء ليسهل النطق بها على قارئ الكتاب وتتيسر مراجعتها لمن ارادها من الطلاب

حرف الالف

ابروجه

بكسر الهمزة وسكون الموحدة اسم لمدينة عظيمة من بلاد الفلمنك موضوعة فى سهل لطيف على خليج ظريف ممتد من مدينة اوستندة الى مدينة غندة وهى بعيدة عن البحر بثلاثة فراسخ وعن شرقى اوستندة باربعة وعن شمال غندة الشرقى بثمانية بينها وبين مدينة باريس تسعة وسبعون فرسخا وهى فى الدرجة الحادية والخمسين من العرض الشمالى وفى الثانية عشر من الطول الشرقى وعلى ثلاث وخمسين من الطول الغربى وتجارتها عظيمة وبها فبريقات القطن والصوف والشيت

ابريطانيا الكبرى

بكسرتين بينهما موحدة ساكنة يطلق الآن على مجموع انكلترة وايقوسيا وارلندة والاراضى الواسعة التى اخذها الانكليز من الفرنساوية وهى الآن اوسع ممالك الدنيا بسبب حسن سياستها وتدبيرها وحدها من جهة الشمال البحر المحيط الاطلنطيق ومن جهة الشرق بحر المانيا ومن جهة الجنوب بحر المنش ومن جهة الغرب خليج سنجيورج او بحر ارلندة

اخائية

بفتح الهمزة والخاء المعجمة وكسر الهمزة الثانية بعدها مثناة تحتية مشددة

صفة لعصبة الاخائيين نسبة الى اخائى وهو فى الزمن السابق اسم للجزء الشمالى من مملكة المورة الذى كان على شرقيه مملكة سيسيونى فلما تداخل الرومانيون فى مصالح اليونان وكانت معاهدة الاخائيين اعظم قوة اليونان اطلق الرومانيون هذا الاسم اى اخائى على جميع المملكة التى مبدؤها اقليم تساليه ومنتهاها الاقسام الجنوبية

اراغون

بفتح الهمزة اسم لاقليم عظيم من اقاليم اسبانيا كان سابقا مملكة مستقلة لها قوانين مخصوصة ثم صار من داخل مملكة اسبانيا وتخته مدينة سراغوسه واكبر انهره نهرابره ويكثر به معادن الملح وفيه معادن الحديد والذهب وحده من جهة الشمال جبال برنات الفاصلة بينه وبين فرانسا ومن جهة الغرب نهر نوار ومن جهة الجنوب مملكة ولنسه ومن جهة الشرق جزء من مملكة والنسه وقثالونيا

ارتواس * اوارتوازه

بفتح فسكون فضم اسم لاقليم من اقاليم فرانسا وهو الآن جزء من اقليم باديكالس كان محدودا سابقا من جهة الشمال باقليم الفلمنك الفرنساوى ومن جهة الشرق باقليم الهينوت الذى يقال له الهينولط و باقليم كبريزيس ومن جهتى الجنوب والغرب باقليم بيكارديا وكرسيه مدينة آراس

ارخبيلة

بفتح الهمزة وسكون الراء وفتح الخاء المعجمة وكسر الباء الموحدة بعدها مثناة تحتية ساكنة فلام مفتوحة آخرها معناه مجمع جزائر ويطلق بالغلبة على بحر جزائر الروم الموجود بين اوربا وآسيا واشهر هذه الجزائر جزيرة جريد ونغريبون ورودس ويقال ايضا ارشبيلة

ارستوقراطى

بفتح الهمزة وكسر الراء وسكون السين المهملة فمثناة فوقية هو فى الاصل اسم للجيد القوى ثم نقل الى حكومة الاشراف والاعيان

ارشيدوق

بهمزة مفتوحة وراء ساكنة وشين معجمة مكسورة لقب لامرآء عائلة اوستريا

اسبانيا * اوايسبانيا

بكسر الهمزة وسكون السين المهملة فباء موحدة بعدها الف فنون فمثناة تحتية فالف هى ما كان يسمى سابقا جزيرة الاندلس وهى محدودة من جهة الشمال بجبال البرنات وجون غسكونيا ومن جهة الشرق والجنوب الشرقى ببوغاز جبل طارق الفاصل بينها وبين افريقة ومن جهة الجنوب الغربى بالمحيط الاطلنطيقى ومن جهة الغرب ببلاد البرتوغال وجبالها مملوءة بالغابات ومعادن الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزئبق وغيرذلك وبها فبريقات الجلد والسختيان والسجادات ومعامل السكر والصابون والزجاج ومع ذلك فتجارتها وصنايعها ضعيفة هينة

اسبرطه ويقال ميزتره اوميستره

بكسر الهمزة وسكون السين المهملة فباء موحدة وراء ساكنة وطاء مهملة مفتوحة آخره هاء اسم لمدينة من مورة على البعد من اثار اسبرطة القديمة بنصف فرسخ وبينها وبين مدينة تريبوليزة تسعة فراسخ ويشرف عليها من جهة الغرب جبل تيجيت وفى شمالها جبل ميسترة الذى عليه قلعتها وهى مدينة حسنة المنظر

استاش * اواستاس

بهمزة مكسورة وسين مهملة ساكنة فمثناة فوقية فالف آخره شين معجمة اومهملة اسم لشاعر شهير لاطيق كان فى عصر الايمبراطور دومسيان

الذى اغدق عليه بالخيرات ومات هذا الشاعر فى نابلى بعد الميلاد بنحو مائة سنة وله قصائد مشهورة احسنها القصيدة المسماة برتيوس وله قصيدة تسمى تيبايد ترجمها الى الفرنساوية كوميليول ترجمة حسنة

استريا * او استرسيا

بهمزة مضمومة فسين مهملة ساكنة فمثناة فوقية مكسورة بعدها راء ساكنة فمثناة تحتية آخره الف اسم لايالة من ايالات المانيا تنسب لايمبراطور النيمسا وحدها من جهة الشمال اقليم موراويا واقليم بوهيمه ومن جهة الشرق بلاد المجار ومن جهة الجنوب دوقية ايستريا وقارنتى ومن جهة الغرب ايالة تيرول ومملكة باويرمو بها من المعادن معادن الذهب والفضة والنحاس والحديد وغير ذلك وتوجد فيها المياه المعدنية

استوريس * او استرويس

بكسر الهمزة وسكون السين المهملة بعدها مثناة فوقية مضمومة فواو ساكنة فراء مكسورة اسم لرجل من هولندة شهير بسياحاته فى بلاد الموسقو والتتار والعجم والهند وغيرها وكان اول سياحاته (سنة ١٦٤٧) من جزيرة مدغشقر الى جزيرة يابونيا وساح (سنة ١٦٥٥) من ايطاليا فى الارخبيلة وآخر سياحته كان (سنة ١٦٦٨) من بلاد الموسقو الى بلاد العجم ولم يعد الى وطنه الا فى (سنة ١٦٧٣)

اسقفيات

بهمزة مضمومة وسين مهملة ساكنة وقاف مضمومة ففاء مكسورة فمثناة تحتية مشددة جمع اسقفية وهى اسم للاراضى التى يحكمها الاسقف وتطلق على وظيفته القسيسية وعلى محل سكناه

اسكندر السادس

هو اسم لرجل من بابات رومة ولد (سنة ١٤٣١) فى مدينة والنسة باسبانيا

وتقلد

وتقلد منصب البابية (سنة ١٤٩٢) ومات ميتة شنيعة (سنة ١٥٠٣) وذلك انه على ما قيل انه اراد هو وابنه بورجيا أن يرثا بعض الكرادلة الاغنياء لاحتياجهما الى الاموال اذ ذاك فصنعا اولية ووضعا سما فى بعض قزازات ليسقيا منها من ارادا موته من الكرادلة فغلطا وشربا بالسم الذى كانا اعداه لغيرهما

آسيا

بهمزة ممدودة وسين مهملة مكسورة فمثناة تحتية فالف اسم لاحد اقسام الدنيا الخمسة وهى محدودة من جهة الشمال بالبحر المنجمد ومن جهة الجنوب ببحر الهند ومن جهة الشرق بالبحر المحيط الاكبر الفاصل بينها وبين امريقه ومن جهة الغرب بجبال اورال الفاصلة بينها وبين اوروبا وبالبحر الاسود وبحر مرمرة والبحر الابيض وبرزخ السويس والبحر الاحمر ويكثر بها المحصولات المعدنية والحرير والقطن وغير ذلك

اغر غوار السابع

بكسر الهمزة وسكون الغين المعجمة فراء مكسورة فغين معجمة ساكنة فواو مفتوحة بعدها الف فراء اسم لرجل شهير من بابات رومة كان يقال له اولا هليدو برند وكان ابوه نجارا فى مدينة يقال لها اسوانه من بلاد طوسكان وهى متخربة الآن وتربى هذا البابا فى مدينة رومة ثم ترهب فى دير كولينة ثم عاد الى رومة مع اسقف مدينة طوله المسمى باسم برونون وهو الذى ولاه الامبراطور هنرى الرابع بابا على رومة ثم صارت له الكلمة فى الانتخاب فلما مات هذا البابا خلفه اغر غوار المذكور وكان فيه غيرة شديدة حيث عزم على مقاصد جسيمة فيما يخص الديانة وترتب على شدة طمعه تعكيرات وتقلبات فى ايطاليا فلما رأى ان الرومانيين قد تضجروا منه لكونه هو السبب فيما حل بهم من المصائب والفاقة سئم من ذلك وذهب الى مدينة سالرنة بمملكة نابلى ومكث هناك الى أن مات (سنة ١٠٨٥)

اغر غوار التورسانى * او اغر غوار دو تورس

اسم رجل تولى اسقفية مدينة تورس (سنة ٥٧٣) وكان مولده (سنة ٥٤٤)
وهو من عائلة مشهورة من اقليم اوبرنه حضر عدة مجامع قسيسية واظهر
الحزم والثبات في عدة فرص والف تاريخا اثريا وبشريا من دخول دين
النصرانية في بلاد الغالية الى (سنة ٥٩٥) وهو وان كان ابا التواريخ
الفرنساوية الا ان المؤرخين بعده لم ينسجوا على منواله ذهب في آخر عمره
الى مدينة رومة ومات بها (سنة ٥٩٥) فكان عمره احدى وخمسين سنة

اغزيفون * اواغزنوفون * اوزينفون

بهمزة مكسورة وغين معجمة ساكنة وزاي مكسورة بعدها نون مكسورة
اومضمومة هو اسم لعدة اشخاص لكن المقصود في كتابنا هذا اغزيفون
المورخ الفاسقي وهو ابن اغريلوس ولد بمدينة اثينا قبل الميلاد باربعمائة
وخمسين سنة تخرج على سقراط في الفلسفة والسياسة ثم اشتغل بالعسكرية
وذهب لاعانة الشاب قيروس في غزوته مع اخيه أرتكزرسيس وكان
اغزيفون رئيسا على عشرة آلاف فهزموا عساكر ارتكزرسيس مع انهم
كانوا جيشا جرارا كثير العدد لكن مات في هذه الواقعة قيروس المذكور
ثم عاد اغزيفون مع عساكره الى بوغاز كابيولي وارخ تلك الواقعة ومدح
قيروس واثنى عليه بما حواه من الفضائل ولم يذمه بشيء سوى طمعه في تعديه
على اخيه في ذلك القتال ثم لما رجع الى وطنه تعلق بملك لقدمونه المسمى
اجيزلاس وكان اذ ذاك حاكما على آسيا وتوجه معه الى معاونة اهل اسبرطة
وامتاز اغزيفون في هذه الواقعة ايضا بالحزم والشجاعة وبعد انقضاء
الحرب ذهب الى مدينة قورنثه واشتغل فيها بالامور العقلية النفيسة
الى ان مات قبل الميلاد بنحو ثلثمائة وستين سنة

اغسطوس

بفتحتين فسكون اسم لرجل انجب واغرب بغزارة عقله وسعة علمه وفصاحة
عبارته وكان امرا عجيبا في استمالة الناس اليه ولد برومة قبل الميلاد بثلاث

ستين

وستين سنة وللبالغ من العمر ثماني عشرة سنة وكان في مدينة ابولونيا ببلاد اليونان يتعلم العلوم والآداب اذ جوت خاله القيصر يوليوس فذهب فورا الى ايطاليا وطلب أن يخلفه لانه كان يعلم ان مشورة السنت تعينه على ذلك ثم تولى ايمبراطوريا على مملكة الرومانيين بعد حروب ومنازعات طويلة وسمته المشورة باسم اغسطوس وكان يدعى اوكتافو ولقبته ايضا بابي الوطن ثم بعد مدة ارتاب لئن ينزل عن منصبه فترجته المشورة أن يبقى عليه وسافر الى بلاد الغلية وسيسليا واليونان وآسيا وكان محبوبا عند الجميع وتقلد منصب البابية قبل الميلاد بثمان سنين لحرق الكتب المدونة في مذهب القديسة سيلة وتمسك بمذهب تيبر * مات بمدينة نولا وقد بلغ من العمر ستا وسبعين سنة

افرنك * ويقال فرنك وفرنقه

بكسر الهمزة وسكون الفاء وفتح الراء بعدها نون ساكنة فكاف اسم جنس على طوائف متبربرين سافروا في سالف الازمان من بلاد جرمانيا الى فرانسا وكانت تسمى غالة وهجموا عليها في اوائل القرن الخامس عشر وطردوا الرومانيين منها وتمكنوا بها الى الآن ومن ذلك الوقت سموا فرنساويين وسميت بلادهم بلاد فرانسا ومعنى افرنك احرار سائبون ويطلق ايضا على نوع من المعاملة الفرنساوية تساوي قيمته الآن اربعة قروش

افردريق الثاني

بكسر الهمزة وسكون الفاء وكسر الراء بعدها مثناة تحتية فدال مهملة ساكنة فراء فمثناة تحتية ساكنة آخره قاف هو حفيد افردريق الاول وابن الايمبراطور هنري الخامس ولد (سنة ١١٩٤) وولي ملكا على الرومانيين (سنة ١١٩٦) فلما غضب البابا انوسان الثالث على الايمبراطور اوثون الرابع وطرده من الكنيسة انتخب مطران مينس افردريق هذا ايمبراطورا عوضا عن اوثون المذكور وكان ذلك في (١٢٠٣) كانون الاول (سنة ١٢١٠)

[illegible] مع [illegible] موت
اوفونيا (سنة ١٢٤٤) فوقع بينه وبين البابا الذي كان يحكم الايطاليين بسبب
حمايته على مذهب اليونان وجمع مشورة في مدينة ليون [illegible]
لرهبنة البنيان فحكمت على الاخ العاصي بالسجن الدائم (سنة ١٢٤٥)
وبعد ذلك بمدة يسيرة انتصب ولده الثاني المسمى كونراد الرابع ملكا على الرومانيين
ثم غضب على افردريق المذكور البابا اغريغوريوس التاسع (سنة ١٢٥٦)
لكونه تغلب على عدة اقاليم من اقاليم ايطاليا وبعد ذلك بمدة عزله البابا انوسان
على موجب ما حكمت به المشورة القسيسية التي اجتمعت في مدينة ليون
(سنة ١٢٤٥) وكانت ايامه مشحونة بالحروب مع الرعايا العاصين فسئم
من ذلك وذهب الى مدينة فيورنزوله باقليم بوليه ومات بها في (٢٣) كانون
الاول (سنة ١٢٥٠ م).

افريقة او افريقية

هي احد اقسام الدنيا الاربعة وهي شبه جزيرة محدودة من جهة الشمال بالبحر الابيض الفاصل بينها وبين اوربا ومن جهتي الجنوب والغرب بالبحر الاطلنطيق ومن جهة الجنوب الشرقي بحر الهند ومن جهة الشرق ببرزخ السويس والبحر الاحمر الفاصل بينها وبين آسيا واغلبها في المنطقة المحترقة ومنظرها مختلف فتارة ترى فيها صحاري متسعة لا انيس بها وجبالا شاهقة ينزل منها سيول يتكون منها انهر كبيرة كجبال القمر التي ينزل منها النيل وتارة ترى قرى تكتنفها الاشجار المثمرة ومدنا حسنة الوضع والمنظر وبساتين آمنة لطيفة يأتي اليها الناس من سائر الاقطار وطورا تجد ابطحا تعجب الناظر وتروق الخاطر وسهولا خصبة واودية ظريفة كثيرة الحلفاء التي تروي اراضيها وتكسبها الطراوة والخصوبة وبها معادن الذهب والفضة والملح وتوجد فيها الحيوانات الاهلية والوحشية ومنها طيور ظريفة حسنة الريش والصوت تجدد وجودها في فصل آخر [illegible]

لان اهل افريقة متولعون بها

افردريق الثالث

كان مطرانا في بريمه ثم تولى بعد موت ابيه كرستيرن الرابع ملكا على دانيرقة سنة (١٦٤٨) ومات سنة (١٦٧٠) بعد ان جعل تاج دانيرقة وراثيا وكان قبله انتخابيا

افلاق او ولاق

اقليم من اقاليم بلاد العثمانية في اوروبا واهله نحو مليون وهم ما بين اتراك وارمن و يهود و بلغار وسرب وارورام ارضه كثيرة الجبال يخرج منها القمح والذرة بانواعهما والعنب وغيره من الفواكه والخضراوات والدخان وبها معادن الذهب وملح البارود والكبريت وحاكمها يتقلد المنصب من ديوان الدولة العلية تحت حماية الموسقو ويدفع للدولة العلية كل سنة نحو مليونين من الفرنكات ودين الافلاق هو دين الارورام ومثلهم في ذلك الموسقو وهذه الولاية كولاية بغدان سبب للمنازعة بين العثمانية والموسقوية وقاعدتها مدينة بكراش بضم الباء الموحدة وسكون الكاف وفتح الراء بعدها الف فشين معجمة وقل ان يوجد مثل هذا الاقليم في خصوبة ارضه وحسن منظره وحده من جهة الشمال سلسلة جبال تفصله من بغدان ومن جهة الجنوب نهر دانوب الذي يرويه و يفصله من بلاد بلغار ومن جهة الغرب اقليم سروى المسمى بالتركية سرولايتي واقليم ترنسلوانى

افلندرة و يقال لها الفلمنك

بهمزة مكسورة ففاء ساكنة ولام مفتوحة ونون ساكنة ودال مهملة اسم لاقليم من اقاليم مملكة البلاد الواطية محدود من جهتي الشمال والغرب ببحر الشمال ونهر زيلندة ومن جهة الجنوب باقليم افلندرة الشمالي ومن جهة الشرق باقليم افلندرة الشرقي واهله ٥٢٠٠٠٠ واغلب اراضيه خصبة جيدة فمن ثم كانت زراعته زاهية زاهرة وكذلك ما يصنع في ورشه و يخرج منه القمح والزيت والدخان والسمن وغير ذلك لاجل التجارة مع البلاد

الاجنبية وتطلق هذه الكلمة ايضا على اقليم من اقاليم شمال فرانسا

اقلودس و يقال قلوديوس

بكسر الهمزة وسكون القاف والدال المهملة اسم لشاعر عظيم ولد بمدينة مرسيليا ومات سنة (٥٤٤) وترك من القصائد والاشعار ما يخلد به ذكره

اكزرسة و يقال اكزرسيس

بهمزة وزاى مكسورتين بينهما كاف ساكنة والراء ساكنة والسين المهملة بعدها مفتوحة اسم لملك من ملوك العجم وهو من اولاد دارا خلف اباه في الملك قبل الميلاد باربعمائة وخمس وثمانين سنة وحارب مصر وانقادت اليه وترك فيها اخاه اكمين وتوجه الى بلاد اليونان بجيش يبلغ ثمانمائة مقاتل والف من السفن الحربية قال هردوط ان هذا الملك ثقب جبل اتوس ليفتح فيه ممرا لسفنه لكن اثبت متأخرو السياحين ان هذا الجبل لم يثقب قط وقتل هذا الملك قبل الميلاد باربعمائة وخمس وستين سنة وهو نائم قتله رجل من ضباطه يسمى ارتابان

اكلرمونت و يقال كلرمون

بكسر الهمزة وسكون الكاف وكسر اللام بعدها راء ساكنة اسم لمدينة من مدن فرانسا ذات تجارة عظيمة في الغلال والاقمشة الطريفة وبها اورش كثيرة متنوعة واهلها ٢٤٠٠ وهى على شرقى مدينة بويس بالبعد عنها بستة فراسخ ونصف وعلى البعد من شمال مدينة باريس بخمسة عشر فرسخا ونصف

الان و يقال اللان

بفتح الهمزة الممدودة اسم لامة قديمة من الامم المتبربرة كانت تسكن اولا على نهر الهيبانى ثم اجلاها عنه الهونيون فتشتتت في جبال كوكازة او قوقازة وذهب بعضها الى نهر تنايس وشن الغارة على بلاد اوروبا فنعهم عنها البطل وسيبان فكثوا في ابريطانيا حتى استرضى سنجرمان دوكزير ملكهم وسكن غضبه ثم اجتمعوا بالونداليين قبل الميلاد باربعمائة وخمس سنين ونهبوا البلاد

وخربوها

وتجريهما من نهر دانوب الى نهر الرين

البه

بفتح الهمزة وسكون اللام جبال شاهقة ببلاد اوروبا فاصلة بين ايطاليا وفرانسا والسويسة والمانيا وهى ممتدة من خليج جنوية الى البحر الادرياتيق فيكون امتدادها ثلثمائة واربعين فرسخا ورؤسها مستورة بالثلج والجليد دائما وبمساعدة منابع منها منبع نهر تيزان ومنبع نهر الرين وانهار اخرى كبيرة

الچية

بهمزة مكسورة ولام ساكنة بعدها جيم اعجمية تنطق بين الجيم والشين جمع الچى وهو الرسول المبعوث من طرف دولة الى اخرى بصدد مصلحة جسيمة كعقد صلح او حرب او نحو ذلك

الفريدوس او الفريد الاكبر

بفتح الهمزة وسكون اللام وكسر الفاء والراء بعدها مثناة تحتية ساكنة اسم الملك ولد سنة (٨٤٩) واستولى على مملكة انكلترة سنة (٨٧١) وهزم الدانيمرقيين واخذ مدينة لندره واحيى فى مملكته العلوم والفنون والآداب والحرف والصنايع ومارس العلوم بنفسه والف عدة كتب وزهت فى ايامه التجارة والملاحة وعظمت القوى العسكرية البحرية وصارت فى زمنه انكلترة مأوى للعدل والراحة مات سنة (٩٠٠) من الميلاد وله عدة مؤلفات وقوانين عظيمة اسسها على الحكمة والحزم

الكنتره

بهمزة وكاف مفتوحتين بينهما لام ساكنة ثم نون ساكنة فمثناة فوقية مفتوحة مدينة صغيرة من مدن اسبانيا على نهر تاجه يكتنفها اسوار مشحونة بالبروج والحصون اهلها ٣٠٠٠ وهى على البعد من مدينة مدريد بثلاثة وخمسين فرسخا وفى البرتوغال مدينة اخرى تسمى بهذا الاسم

المانيا

بفتح الهمزة وسكون اللام وفتح الميم وكسر النون وفتح المثناة التحتية مملكة عظيمة من ممالك اوروبا محدودة من جهة الشمال ببلاد دانيرقة وبحر بلطق ومن جهة الشرق ببلاد پولونيا ومن جهة الجنوب ببلاد المجار و بلاد ايطاليا ومن جهة الغرب ببلاد السويسة و بلاد فرانسا ومملكة البلاد الواطية يبلغ سطحها من الفراسخ المربعة اثنين وعشرين الفا ومائتين واثنين واهلها ثلاثون مليونا وهى منقسمة الى عدة ممالك صغيرة كل مملكة منها محكومة بملك مستقل عن الآخر لكنهم متعاهدون مع بعضهم ولذلك تسمى المانيا بالجمعية الجرمانية ثم ان الآداب وسائر العلوم حصل لها تقدم عظيم عند اهل المانيا ولهم اليد الطولى فى علم الطب البشرى وعلم الفلك وسائر العلوم الرياضية وغيرها وعساكرها ٣٠٢٥٣٧ منها لمملكة النمسا ٩٤٨٢٢ ولمملكة البروسيا ٧٩٢٣٤ ولمملكة باويرة ٣٥٦٠٠ ولمملكة ورتمبرغ ١٣٩٥٥ ؟ ولكل مملكة من الممالك الباقية عساكر على حسب كثرة اهلها وقلتهم فمنها ماله عشرة آلاف ومنها ماله اثنا عشر ومنها ماله ثلاثة عشر ومنها ماله اقل من ذلك

امريقة ويقال امريكه وامريقية

بفتح الهمزة وسكون الميم هى احد اقسام الدنيا الاربعة او الخمسة يفصلها من اوروبا وافريقة البحر المحيط الاطلنطيقى ويفصلها من آسيا المحيط المعتدل الذى سماه بعضهم بحر الصلح او البحر الساكن لانه راكد غالبا ويكثر بها انواع النباتات والحيوانات وللانكليز فيها بعض املاك وكذلك اهل اسبانيا والبرتوغال وقد مكثت مدة طويلة مجهولة حتى كشفها كرستف كلب فى ذهابه الى بلاد الهند سنة (١٤٩٢) من الميلاد الموافق ذلك لسنة ٨٩٧ من الهجرة ولهذا سميت بالدنيا الجديدة وينقل منها الى البلاد الاجنبية من مواد التجارة الخشب والقطن والقطران والنيل والغلال والذهب والفضة ودود القرمز والنيلة وخشب الصبغ والسكر والبن وغير ذلك وهى منقسمة الى قسمين امريقة الشمالية وامريقة الجنوبية يفصل بينهما برزخ يقال

اناطولى

هى بحيشبجزيرة من اسيا تحت حكم الدولة العثمانية وتسمى ايضا آسيا الصغرى اوالـغلى وهى محدودة من جهة الشمـال بالبحر الاسود ومن جهة الشرق بنهر دجـلة ومن جهة الغرب بحر مرمرة وبوغاز الدردانيـل و بوغاز اسلامبول

أنجو

بفتح الهمزة وسكون النون اقليم قديم من اقاليم فرانسا وكانت قاعدته مدينة انجرس

انوسان الثامن

بكسر الهمزة وتشديد النون المضمومة اسم لبابة من بابات رومة ولد سـنة (١٤٣٢) وتولى كردينالا ثم صار اسقفا و بعد ذلك تولى بابة سنة (١٤٨٤) ومات سنة (١٤٩٢) والف عدة شذرات تتعلق بدم عيسى عليه السـلام و بالقدرة الالهية وبحمل مريم عليها السلام من غيران يمسها بشر

اوثون الاكبر

بضم الهمزة والمثلثة و يقـال له ايضـا اوثون الاول وهو من ايمبراطرة المـانيـا ولد سنة (٩١٢) ولبس تاج الايمبراطورية سنة (٩٣٦) وكان يهابه ملوك البلاد الاجنبية ونشر دين النصرانية فى بلاد جرمانيا وتغلب على الدانيمرقيين وكانوا خربوا اقبله فرانسا والمانيا وحصر شوكة البابات ومات سنة (٩٧٣)

اوميروس

هو اقدم شعراء اليونان واشهرهم كان ذا قريحة عجيبة وذهن غريب وكان موجودا قبل الميلاد بتسعمائة سنة والاصح انه ولد بمدينة ازميراو بجزيرة ساقز وساح فى جميع بلاد اليونان قيل ذهب من مورة الى كولوفون ونقد فيها بصره ومن ثم لقب بالاعمى وساح ايضا بمصر و بلاد اناطولى وغيرهـا ولذا كان يعرف اخلاق النـاس وعوايدهم واشعـاره حماسية فلذلك ترجمت الى اكثر اللغـات وكان اسكندر الاكبر يعتنى بقرآتهـا بل امر بجمعها لانهـا

بحماستها تنعش قلوب العساكر وتبعثهم على الميل الى الحروب وله قصيدتان عظيمتان يعتبران كامهات اشعار اليونان

ايدوارد الثالث

هو ابن الملك ايدوارد الثانى ولد سنة (١٣١٢) بمدينة وندوسور وخلف اباه فى الحكم سنة (١٣٢٧) وكان ذلك بتحيل امه وتغلب على مملكة ايقوسيا وعزم على عزل فيليبش دووالوه ملك فرنسا فاضطرمت بينهما نيران الحرب سنة (١٣٤٦) وكانت النصرة لايدوارد فاخذ مدينة كالس وعدة مدائن اخرى ولما مات فيليبش وقع الحرب بين ايدوارد وابن فيليبش فهزمه ايدوارد واسره سنة (١٣٥٧) وارسله الى انكلترة ولم يرجع منها الا بعد اربع سنوات

ايقوسيا

هى قسم من ابريطانيا الكبرى فى شمالها محدود من جهة الجنوب الشرقى بانكلترة ومن سائر الجهات بالبحر واهله مليون وثمانمائة الف وسهوله كثيرة الخصب وكان يسمى سابقا قاليدونيا وقطره شديد البرودة فى الغالب لكن هواؤه صاف ملايم للصحة وجباله مشحونة باشجار يخرج منها خشب العمارات وفيها معادن الفحم والرخام وغير ذلك ولم تزل ايقوسيا مستقلة برأسها فى الحكومة الى زمن ملكها اياكوس اوجاكوس السادس الذى دعى للجلوس على كرسى انكلترة ولم تضم ايقوسيا الى انكلترة الا فى حكم الملكة آنة اوحانة وتختها مدينة ايدنبورغ

ايلكتور

بكسر الهمزة واللام بينهما مثناة تحتية ساكنة وسكون الكاف وضم المثناة الفوقية معناه منتخب بكسر الخاء والجمع ايلكتورس اى منتخبون وهم جماعة من الامراء كان لهم ببلاد المانيا الحق فى انتخاب الامبراطور

ايمبراطورية

اسم لما عظم من الممالك وبلغ فى الاتساع والشوكة والسطوة درجة عالية ويقال لمن تولاه ايمبراطور وذلك كدولة الرومان فى قديم الزمان

حرف الباء

بابة او بابا

هو اسم لاسقف رومة رئيس الكنيسة الكبرى واصله فى اللغة اليونانية باباس اى الاب وكان سابقا يطلق على الاسقف ايا كان لاسيما اسقف اسكندرية ثم خص باسقف رومة سنة (١٠٧٣) فى ايام اغرغوار السابع

بارون

هو فى الاصل لقب لاكابر الملتزمين ثم صار يلقب به كل ملتزم له ارض التزام وتنسب ارضه اليه فيقال بارونية اى ارض البارون والانثى بارونة

بحر الخزر ويقال الخزر

هو من بحار اوروبا بين بلاد العجم والموسقو والتتار يكتنفه من اغلب جهاته جبال شاهقة وهو منقطع لا يتصل بغيره من البحور وان زعم بعضهم انه يتصل بالخليج الفارسى بواسطة عيون تحت الارض وعليه يكون بحيرة كبيرة

برغونيا

بضم الباء وسكون الراء وضم الغين المعجمة اسم لاقليم من اقاليم فرانسا القديمة محدود من جهة الشرق باقليم افرنشقنتة ومن جهة الغرب باقليم بربونة ومن جهة الجنوب باقليم ليون ومن جهة الشمال باقليم شنبانيا او شمبانيا وقاعدته مدينة ديجون وهو الآن اربع مأموريات

برلمان

بفتح الباء الفارسية وضم اللام بينهما راء ساكنة كان يطلق فى زمن قدماء الملوك الفرنساوية على الديوان الذى يجتمع فيه اكابر المملكة ليتفاوضوا فى شأن المصالح الجسيمة وهو مأخوذ من برلمانتوم وهى كلمة لاطينية معناها محل المذاكرة او مجلس يجتمع فيه عدة اشخاص للمذاكرة فى المصالح البلدية ويطلق فى بلاد انكلترة على الديوان الذى تجتمع اربابه بطلب الملك وهو مجلسان مجلس للقسيسين والاعيان ويسمى المجلس العالى وآخر لوكلاء الاقاليم والمدن وهو المجلس السافل

بروِنسة

بضم الموحدة التحتية وسكون الراء وفتح الواو وسكون النون وفتح السين المهملة آخره هاء اقليم في جنوب فرنسا بجانب البحر تغلب عليه الرومان ثم المسلمون ثم اجلاهم عنه الملك كرلوس مارتيل

البريطريانية

وجاق من العساكر كان بمدينة رومة يخشى بأسه وسطوته وكان فيها بمنزلة الانكشارية في القسطنطينية

پريووت

بكسر الباء الفارسية والراء وسكون المثناة التحتية وضم الواو ويقال له ايضا پريوست اسم لرجل من فرنسا ولد سنة (١٦٩٧) وكان في مبدء امره ذا طيش فطرد بذلك من وطنه فكان تارة يذهب الى بلاد هولنده وتارة الى بلاد انكلترة وكان تعيشه من صناعة الكتابة وكان يسمى پريووت اكزيل اى المنفى لاخراجه من وطنه الى البلاد الاجنبية ثم دعي الى بلده سنة (١٧٣٤) ومات سنة (١٧٦٣) وترك مؤلفات عظيمة ومصنفات جسيمة اعظمها كتاب ذكر فيه اخبار رجل من اهل الفضل اعتزل الناس ولا يخفى ما في ذلك من الاشارة لنفسه ومنها تاريخ كليولند وكتاب يسمى ما للمرء وما عليه وتاريخ ادبى جسيم وتاريخ السياحات التي حصلت من ابتداء القرن الخامس عشر وقد كمل هذا التاريخ المؤلف كرلون والمؤلف سريجى واختصره المؤلف لاهرپ ومنها تاريخ كرلوس اغرنديسون وله كثير من التاليف غير ذلك وقد ترجم تاريخ عائلة ستورد الملوكية ومجموع تاليفه الكاملة اربعة وخمسون مجلدا

بسوة

بضم الموحدة التحتية وسكون السين المهملة وفتح الواو آخره هاء اسم لمؤرخ شهير ولد بمدينة ديجون سنة (١٦٢٧) وهو عريق الحسب والنسب ذهب الى مدينة باريس سنة (١٦٤٢) وفاق الاقران بفضله وكثرة معارفه وشاع

صيته بين الانام ومات بها سنة (١٠٧٤) وله مصنفات عظيمة

بطرس ارميطه و يقال بطرس لرميط

معنى كلمة ارميط بكسر الهمزة وسكون الرآء العابد الزاهد وانما لقب به هذا الرجل لزهده وتولعه بالديانة النصرانية حتى انه صار رئيس حروب الصليب ببلاد القدس وذلك انه فى اواخر القرن العاشر واوائل الحادى عشر ظهر بين النصارى وهم غريب وهو اعتقاد ان الساعة قد قربت فصار النصارى ملوكا وسوقة يأتون الى بيت المقدس من كل فج عميق وذهب هذا الرجل ايضا الى ارض القدس سنة (١٠٩٣) ولما رجع اخبر ان النصارى فى كرب عظيم من معاملة المسلمين لهم فنفرت نفس البابة اوربان الثانى من ذلك وارسله الى الاقطار النصرانية ليحكى فيها ما شاهده فصار يتنقل من اقليم الى آخر حتى تبعه من النصارى جيش عظيم فيه اربعون الفا من المشاة وعدد جسيم من الخيالة وسار بهم الى بيت المقدس فلما نظرهم المسلمون صاحوا الله اكبر وحملوا عليهم وفتكوا بهم فولوا الادبار وركنوا الى الفرار وقد حصلت لهم الهزيمة مرارا فعزم بطرس المذكور على اخذ بيت المقدس من المسلمين لكنه هلك فى محاصرته سنة الف وتسعة وتسعين

بغداد

اسم لمدينة هى تخت بلاد بغداد يخترقها نهر دجلة و يكتنفها خندق كبير وهى محصنة بعدة ابراج وطوابى عظيمة اسسها الخليفة ابو جعفر المنصور وتم بناؤها فى اربع سنوات واهل هذه المدينة ستون الفا

البلاد الواطية

اسم لمملكة من ممالك اوروبا محدودة من جهة الشمال ببحر المانيا ومملكة هانورة ومن جهة الغرب ببحر المنش ومن جهة الجنوب بمملكة فرنسا ومن جهة الشرق بدوقية الران الاسفل وارضها خصبة وتبلغ فيها الصنايع درجة كمال و بها معادن الفحم وورش القماش والحرير وايرادها السنوى خمسة وسبعون مليونا من القروش

بليزنسة

مدينة عظيمة من مملكة ايطاليا بالبعد عن الشمال الغربي من دوقية برمة باربعة عشر فرسخا وعن الجنوب الشرقي من دوقية ميلان باحد عشر فرسخا وبها كثير من المباني الظريفة المشيدة والكنائس المرونقة المزخرفة واهلها عشرون الفا ونشتغل على فبريقات الحرير والبرانيط وغيرها

البندقية ويقال البنادقة

اسم لمدينة كبيرة ذات ثروة محدودة من جهة الشمال بالبحر الادرياتيقي ومبنية على مائة وثمان وثلاثين جزيرة صغيرة وحاراتها ضيقة ومبلطة بعضها بالحجر وبعضها بالرخام وبها مبان شهيرة منها كنيسة سنت مرق وهي مبنية بالحجر والرخام وحواها ماتتان وثمانية وثمانون عامودا من الرخام ويجلب الى هذه المدينة من البلاد الاجنبية القماش والسكر والبن وانواع الشراب والزيت والادوية والنيلة والصوف والزعفران والصمغ وغير ذلك وبها فبريقات يصنع فيها انواع الاقمشة النفيسة كالقطيفة واقمشة الحرير وغيرها وكان تأسيسها سنة (٤٢١) وهي تحت حكومة البنادقة

جمعيات بوليتيقية

بضم الموحدة التحتية منسوبة الى البوليتيقه ومعناها السياسة وذلك لان هذه الجمعيات تتذاكر في شأن ما يخص سياسة الدول والرعايا

بيزة

بكسر الباء الفارسية وسكون المثناة التحتية وفتح الزاي اسم لمدينة عتلية من دوقية طوسكان على البعد من مدينة ليورنة من جهة الشمال باربعة فراسخ وكذلك من جهة الشرق وبها مبان عجيبة اشهرها الكاتدرال اي الكنيسة الكبرى وكذلك البغروي وهو دار عظيمة كالقبة في انحنائها مبنية بالرخام الابيض وارتفاعها مائة قدم

حرف التاء

تاسيت

بمثناة فوقية وسين مهملة مكسورة فمثناة تحتية ساكنة آخره مثناة فوقية مؤرخ شهير من مؤرخي اللاطينيين كان من اعظم اهل عصره حتى انه لمعارفه وصل الى اكبر مناصب الايمبراطورية فقد اتحفه الايمبراطور وسپازيان والايمبراطور تيت بالمناصب الجليلة وله تآليف عديدة مفيدة منها كتابه الذي اودع فيه اخلاق الجرمانيين ومنها تاريخ الايمبراطرة وعدة تواريخ اخرى شهيرة غير ان بعضها اضاعته صروف الزمان والبعض الآخر موجود ومرغوب الى الآن

التتار

اسم لعدة قبائل مختلفة كل قبيلة منها تسمى باسم يخصها الا انها متحدة في الاخلاق والعوايد ولهم مهارة في ركوب الخيل وهم متوحشون كاسلافهم ولما انقرضت الدولة الرومانية تركوا صحاريهم وساروا كالجراد المنتشر فمنهم من تغلب على بلاد اوروپا وهم الهونيون ومنهم من استولى على بلاد العجم ثم على معظم اناطولي وبعد ذلك تغلب على مدينة القسطنطينية وهم التركمان

تتارستان

هي بلاد التتار وكانت في القرن الثاني عشر اوسع الممالك واعظمها شوكة وذلك ان الايمبراطور جنجيس خان جمع قبائل التتار وجعلها عصبة واحدة فقويت بذلك شوكته وتغلب على بلاد الصين وبلاد العجم وجميع بلاد آسيا من البحر الاسود الى بحر الهند ثم تغلب خلفه على بلاد الموسقو وبلاد پولونيا وجزء من بلاد المانيا ولولم يقع الفشل بين هذه القبائل لتغلبت على بلاد اوروپا بتمامها

توليده اوطوليده ويقال طليطلة

مدينة على نهر تاجه شهيرة بما كابده اهلها من المشاق بعد خروجهم عن طاعة الحاكم بن هشام ثالث خليفة من بني امية بالاندلس وكانت تخت اسبانيا قبل مدينة مدريد

تيتلوه

بكسر المثناة الفوقية بعدها مثناة تحتية ساكنة فمثناة فوقية ساكنة فلام مكسورة اسم لمؤرخ لاطيني شهير اختلف في منشأه فقيل مدينة بندو وقيل مدينة ابونة وله تآليف مفيدة اشهرها التاريخ الروماني من تأسيس رومة الى موت القيصر دروزوس في بلاد النمسا ومات هذا المؤرخ بمدينة بندو بعد الميلاد بسبع عشرة سنة

حرف الثاء

ثاليس

هو احد فلاسفة اليونان المشهورين ولد بمدينة ميليطه قبل الميلاد بستمائة واربعين سنة تقريبا ساح في البلاد عدة سنوات وذهب الى مصر وتعلم فيها العلوم الرياضية ثم عاد الى وطنه وفتح مدرسة ومن تلامذته فيثاغورس وكان له باع طويل في علم الفلك وهو اول من برهن على كسوف الشمس والقمر وهناك ثاليس آخر وهو شاعر يوناني ولد في جزيرة كريد

حرف الجيم

جاليوس الثاني

هو احد بابات رومة ولد في قرية ألبيزالة وجعله عمه البابة سكستو الرابع رئيسا على الجيوش القسيسية سنة (١٤٧١) وارسله الى اقليم اومبرى لتسكين اهله وكانوا قد خرجوا عن طاعة البابة فهزمهم وقمع الباغي منهم وتولى بابة سنة (١٥٠٣) وهو الذى حرض ملوك اوروبا على جمهورية البنادقة فكان سببا في عصبة كمبريه الشهيرة ومات سنة (١٥١٣)

الجمعية الجرمانية

ويقال لها المعاهدة الجرمانية وهي كناية عن اتفاق ملوك المانيا على ان يكونوا جريدة واحدة بحيث يكون من تعدى على واحد منهم كانه تعدى على الجميع وكان رئيس هذه المعاهدة ايمبراطور النمسا

جنو يزو يقال جنويزة

بفتح الجيم وسكون النون وكسر الواو بعدها مثناة تحتية آخره زاى اسم لدوقية عظيمة كثيرة الجبال المشحونة بالغابات والاشجار وبها مروج وسهول لطيفة وقطرها معتدل وفيها بعض معادن من الرخام والمرمر الابيض وكانت سابقا جمهورية عظيمة ذات تجارة كبيرة وكانت تحت حكم الغوطيين ثم اخذها منهم اللمبرديون فهدمت من ذلك الوقت الى ان بناها الملك كرلوس مانوس واضافها الى مملكة الفرنسيس ثم فتحها المسلمون فى القرن العاشر وقتلوا رجالها وسبوا نساءها واطفالها ثم اخذت فى العمار ثانيا وصارت زاهية زاهرة بتجارتها وصنايعها حتى صارت تساعد ملوك النصارى فى الحروب الصليبية الاان ثروتها جعلتها مطمح نظر الحاسد فصارت تتنقل من غزوة الى اخرى حتى وقعت فى اواخر القرن الرابع عشر تحت حكم كرلوس السادس ملك فرنسا ثم خرجت عليه بعد ذلك بمدة قليلة ودخلت فى حكم كرلوس السابع ثم قامت عليه ايضا وعادت الى ما كانت عليه من حريتها القديمة وصارت تحكمها الملكة اندرودرية التى قتلت سنة (١٦٨٤) بامر الملك لويز الرابع عشر

حرف الدال

دلماثيا

بفتح الدال المهملة وسكون اللام وفتح الميم بعدها الف فثلثة مكسورة فمثناة تحتية مفتوحة اسم لولاية عظيمة فى شرقى خليج البنادقة وحدها من جهة الشمال اقليم بسنية ومن جهة الشرق اقليم سروية ومن جهة الغرب والجنوب البحر ويكثر بها النبيذ والقمح والمواشى والزيت والثمار وغير ذلك

دوفين

بضم الدال المهملة وسكون الواو وكسر الفاء بعدها مثناة تحتية ساكنة فنون اسم للابن البكرى من اولاد ملوك فرنسا ويقال لزوجة الدوفين دوفينة

ديت

بكسر الدال المهملة بعدها مثناتان تحتيتان اولاهما ممالة بين الكسرة والفتحة والثانية ساكنة آخره مثناة فوقية اسم لمشورة وكلاء المملكة ببلاد المانيا وبلاد بولونيا وبلاد اسوج

حرف الراء

روسيلون

اقليم من اقاليم فرنسا محدود من جهة الشرق بالبحر الابيض ومن جهة الغرب باقليم سردانيا ومن جهة الشمال باقليم انغيدوك ومن جهة الجنوب باقليم قتالونيا وقد ضم الآن هذا الاقليم اى اقليم روسيلون الى اقليم سردانيا وصارا اقليما واحدا يقال له البيرينة

رومة

بضم الراء اسم لمدينة شهيرة من بلاد ايطاليا وهى كرسى الباپا ويقسمها نهر تبرة الى قسمين يتصلان ببعضهما بواسطة اربع قناطر عظيمة ولها سور حصين يبلغ محيطه خمسة فراسخ وليس لها نظير فى حسن مبانيها القديمة وبهائها ويعسر على الانسان ان يعرف مقدار الاعمدة والهياكل والكنائس والحنفيات المزخرفة والمحال الفاخرة القديمة الموجودة بتلك المدينة التى اسست قبل الميلاد بسبعمائة واثنين وخمسين سنة

رمولوس

بضم الراء والميم واللام اول ملوك رومة وهو الذى اسسها واتقن قوانينها الداخلية واحكم ترتيبها مات قبل الميلاد بسبعمائة وخمس عشرة سنة بعد ان حكم سبعة وثلاثين عاما

حرف السين

سقراط

ولد بمدينة اثينا قبل الميلاد باربعمائة وتسع وستين سنة وكان فى مبدء امره يشتغل بصنعة ابيه وهى النحت ثم تركها وتولع بالفلسفة وبلغ فيها درجة الكمال حتى تخرج عليه فلاسفة مشاهير منهم زينوفون وافلاطون

السنات ويقال السنت

بتشديد السين المهملة المكسورة وفتح النون وتسكين المثناة الفوقية اسم لمشورة كانت عند الرومان سابقا يجتمع بها اكابر الدولة للمذاكرة في شأن المصالح المهمة ويطلق في بعض البلدان على محكمة ملوكية تقام بها الدعاوى

سوابه

بضم السين المهملة وفتح الواو والموحدة التحتية اسم لقسم عظيم من بلاد المانيا محدود من جهة الشمال باقليم ران الاسفل واقليم فرنكونية اوفرنكونيا ومن جهة الغرب بنهر الرين ومن جهة الشرق باقليم باورة من جهة الجنوب بحيرة كونستنسه ونهر الرين وجزء من ولاية تيرول

السويسة

مملكة في اوروبا محدودة من جهتي الشمال والشرق ببلاد المانيا ومن جهة الغرب بمملكة فرنسا ومن جهة الجنوب بمملكة ايطاليا وهي اكثر ممالك اوروبا جبالا وبها كثير من البحيرات والانهار الا ان ارضها في الغالب مجدبة وان كانت زراعاتها كثيرة

سيسرون ويقال قيقرون

بكسر السين المهملة بعدها مثناة تحتية ساكنة ثم سين مهملة مكسورة ثم راء مضمومة اسم لرجل عظيم من ادبا الرومان ولد بمدينة ارپينوم سنة (٦٤٧) من تاسيس رومة اشتهر بالخطابة والحزم والاصابة حضر على اشهر العلماء بمدينة رومة حتى انه في اول خطبة خطبها في المحافل العمومية اخذ بعقول الناس ومع ذلك سافر الى بلاد اليونان ومكث يمارس العلوم والآداب بمدينة اثينا عند علمائها الناجبين ولكن كان يرى في معارفه قرينا لهم لا تلميذا وقد خطب خطبة في جزيرة رودس اودع فيها من الفصاحة والبلاغة ما جذب اليه القلوب حتى ان بعض معلميه المشهورين وهو ابولونيوس مولون قال في شأنه ما معناه واحسرتاه على بلاد اليونان قد هزمت بجند الرومان

وهاهى الآن قد اشرفت على الهزيمة فى ميدان الفصاحة بنجابة قيقرون انتهى مات قتيلا قبل الميلاد بثلاث واربعين سنة و يوجد له الآن مؤلفات جسيمة صحيحة

حرف الشين

شرلمانيا او يقال كرلوس مانوس

هو كرلوس الاول ملك فرنسا ولد سنة (٧٤٢) تقريبا وتملك بعد موت ابيه على جميع بلاد فرنسا وهزم السكسونيين عدة مرات وجبرهم على التمسك بدين النصرانية ثم انتقل الى ولاية لونبارديا وهزم ملكها المسمى ديدية وصار ملكا عليها ثم انتقل الى اسبانيا وانتصر فيها واخذ منها عدة مدن واحيى علوم الآداب وغيرها من ثم كان يلقب بمحيى العلوم والآداب مات سنة (٨١٤) بعد ان قسم ممالكه بين ابنه لويز وحفيده برنارد

امارة الشوالرى

بضم الشين المعجمة وفتح الواو وضم اللام بعدها راء اسم لرتبة شريفة كانت محترمة ذات خصوصيات ومزايا جليلة حتى ان الملوك كانوا يفتخرون بانتظامهم فى سلكها بايها كما فعل الملك فرنسيس الاول ولذلك لا يطلق الآن لفظ شواليرا الا على الاكابر والملتزمين العظام

حرف الصاد

صلاح الدين

هو الناصر يوسف بن ايوب سلطان مصر والشام واصله من الاكراد ثم دخل مع اخيه فى خدمة السلطان نور الدين سلطان الشام فلما طلب العاضد لدين الله عبد الله بن يوسف احد خلفاء الفاطميين بمصر الاعانة من السلطان نور الدين امده بجيش وجعل صلاح الدين واخاه رئيسين عليه فلما وصلا بالجيش الى مصر جعل العاضد صلاح الدين وزيرا واميرا على عساكره ومات العاضد بعد ذلك بيسير فتملك صلاح الدين على مصر ثم مات السلطان نور الدين وكان له ولد قاصر فصار صلاح الدين وصيا عليه واخذ يرتب قوانين عظيمة

محكمة ثم استولى على الشام و بلاد العرب و بلاد العجم وسار لاخذ بيت المقدس من النصارى فانتصر على جميع ملوكهم نصرة عظيمة سنة (١١٨٧) واخذ منهم بيت المقدس سنة (١١٨٨) ثم مات وله من العمر سبع وخمسون سنة حكم فى مصر اربعا وعشرين سنة وفى الشام تسع عشرة واعقب سبعة عشر ولدا من الذكور تقاسموا ممالكه بعده

حرف الغين

اقليم غرناطة

هو ببلاد اسبانيا وهو آخر ممالك الاسلام بها وقاعدته مدينة غرناطة وقد خرج منها عدة مؤلفين منهم صاحب ايجاز الطب وهو يوسف ابن الغرناطى وصاحب احكام القرءآن وهو عبد المنعم بن محمد ابن عرس الغرناطى

غوثيون اوغوطيون

اسم لامم كانوا اولا بشمال اوروبا فى بلاد اسوج و بلاد دانيرقة ثم انفصلوا عن بعضهم فى القرن الرابع وصاروا قسمين احدهما يسمى اوستروغوطيين والثانى يسمى ويزيغوطيين اوويسيغوطيين وهم الذين تغلبوا على الامبراطورية الرومانية وسلبوا اموال رومة وخربوها

غودفروادوبوليون

بضم الغين المعجمة وسكون الدال المهملة وضم الفاء وسكون الراء وفتح الواو بعدها هو ابن القونتة اوستاش الثانى ولد قبل منتصف القرن الحادى عشر وقد ظهر منه وفور الشجاعة والبراعة فقلد رياسة العساكر فى الغزوات الصليبية

الغولة او الغلية

اسم لامة من الامم القديمة المتبربرة كانت مشهورة عند اليونان باسم السلت وتغلبت على بلاد جرمانيا و بلاد ايليرية اوايليريا وكان الرومانيون يخشون بأسها لانها كانت فى الحرب لا تبقى ولا تذر

حرف الفاء

فبيوس بيكتور

بفتح الفاء وسكون الموحدة التحتية وضم المثناة التحتية اسم لمؤرخ من الرومان وهو اول من كتب تاريخ وطنه من الرومان كان موجودا قبل الميلاد بمائتين وست عشرة سنة اعنى بعد تاسيس رومة باكثر من خمسمائة سنة

فرديننذ

بكسر الفاء وسكون الراء وكسر الدال المهملة بعدها مثناة تحتية ساكنة فنون مفتوحة بعدها نون ساكنة فدال مهملة اسم ملك البرتوغال خلف اباه سنة (١٣٦٧) على المملكة وتولى ملكا على قسطيلة ايضا بعد موت ملكها بطرس الجبار فاضطرمت نيران الحرب بينه وبين الملك هنرى دوترنستامار نخرب هنرى المذكور بلاد البرتوغال ولم يقبل الصلح الا على شرط ان يتزوج بابنة فرديننذ

فرمان الذهب

هو اسم للقوانين التى كانت تصدر عن بعض الاعبراطرة فيقال مثلا للقانون الذى رتبه الاعبراطور كرلوس الرابع فرمان الذهب وهو معنى قول الافرنج بولدور وكان من جملة ما تضمنه هذا القانون كيفية انتخاب الاعبراطرة

فرنسا

مملكة عظيمة من ممالك اوروبا محدودة من جهة الشمال بمملكة البلاد الواطية ومن جهة الشرق بجبال اليه وجبل يوره الفاصل بينها وبين بلاد السويسة ومن جهة الجنوب ببحر سفيد ومن جهة الغرب بالبحر الاطلنطيق وارضها خصبة واهلها ارباب نشاط وفطنة وشجاعة وفنون وصنايع وبها كثير من المدارس ودواوين العلوم ويكرم بها اهل الفضل ولكن طالما كابدت مصائب ومشاق فى ايام الاشراف والحكومة الالتزامية فكما انها كانت فى الزمن السابق اسوء ممالك اوروبا صارت الآن اسعدها واحسنها ومنشأ ذلك تقدم اهلها فى العلوم والحرف والصنايع

فرنسيس الاول ويقال فرنسوا

هو احد ملوك فرنسا ولد بمدينة قونياقة سنة (١٤٩٤) وتولى على المملكة بعد موت زوج امه لويز الثاني عشر ولما مات الايمبراطور مكسيمليان اراد فرنسيس المذكور ان يتغلب على مملكته فلم يمكنه ذلك بل اخذها شرلكان فاضطرمت بينهما نار الحرب وانهزم فرنسيس بعد ان كابد اهوالا ومشاق عظيمة واخذه شرلكان اسيرا عنده فكتب لامه يقول قد فقدنا كل شئ ما عدا الشرف ولم يخلص من الاسر الا بشروط صعبة وكان موته سنة (١٥٤٧)

فرنكونيا

بكسر الفاء وفتح الراء وسكون النون وضم الكاف قسم من بلاد المانيا محدود من جهة الشمال بولاية تورنجة ومن جهة الشرق بمملكة بوهمية ومن جهة الجنوب بمملكة سوابة ومملكة باويرة ومن جهة الغرب باقليم ران الاعلى ويخرج بارضها القمح والثمار وتكثر بها المروج اللطيفة وكان عدد اهلها يبلغ مليونا ونصفا وفي سنة (١٨٠٦) ضم جزء منها الى مملكة ورتمبرغ وجزء الى دوقية بادة الكبرى وآخر الى مملكة هيس واعطى جزء لعائلة سكس الملوكية وهو قونتية همبرغ ومابقي اضيف الى مملكة باويرة

فلسطين

اسم لولاية من بلاد اسيا محدودة من جهة الشمال ببلاد الشام ومن جهة الشرق بالجبال التي خلف نهر الاردن ومن جهة الجنوب ببلاد العرب ومن جهة الغرب ببحر سفيد وفيها من العجائب الطبيعية والاصطناعية امور شتى

فلورنسة

بضم الفاء واللام وفتح الراء وسكون النون اسم لمدينة هي قاعدة دوقية طوسكان ببلاد ايطاليا موضوعة في واد نضر ظريف وفيها عدة اكدميات وكتبخانات وقصور منيفة وبساتين انيقة ظريفة واهلها ثمانون الفا وبها كثير من الفبريقات وتجارتها عظيمة

فنلون

بكسر الفاء والنون وضم اللام اسم لاديب شهير ولد سنة (١٦٥١) ولما بلغ من العمر تسع عشرة سنة صار في الخطابة والوعظ بمكان عظيم حتى شهد له الناس بالفضل والمهارة واستمال قلوبهم بحسن فصاحته و بديع بلاغته حتى ان الملك لويز الرابع عشر اختاره في سنة (١٦٨٩) لتربية حفدته ودعى الى غير ذلك من المناصب الشريفة وله تآليف عظيمة في الفلسفة وما فوق الطبيعيات والآداب ومن مؤلفاته الادبية كتابه المعروف بوقائع تليماكوس وهو كتاب نفيس عظيم الفائدة يحث على اتباع الفضيلة والتودد والمروءة وعدم الميل الى الشهوات النفسانية فهو عظيم لتعليم الصبيان وهدية لابناء الملوك والاعيان وقد ترجم الى اللغات الاجنبية وكان موت فنلون المذكور سنة (١٧١٥)

فيليبش لو بيل

هو فيليبش الرابع ولو بيل لقبه ومعناه الظريف وكان ملكا على بلاد فرنسا ونوار ولد سنة (١٢٦٨) وتولى على المملكة بعد موت ابيه سنة (١٢٨٥) واخذ بلاد غيينة من ايدوارد الاول ملك الانكليز سنة (١٢٩٥) وانتصر ايضا نصرة عظيمة على الانكليز والفلمنك سنة (١٢٩٦) ومات في اليوم التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة (١٣١٤)

حرف القاف

قاتون و يقال قاطون

اسم لمؤرخ كان موجودا سنة (٧٠٠) من الميلاد واسمه الاصلي والريوس قاطون

قرطاجة

مدينة شهيرة ببلاد افريقة كانت سابقا كمدينة رومة وصارت الآن خربة لم يبق الا آثارها وهي على البعد عن تونس باربعة فراسخ

قمبانيا او كمبانيا

بضم القاف وسكون الميم جمعية منعقدة للتجارة وتجمع على قمبانيات

قونتيسة

اسم لزوجة القونتة و يطلق ايضا على المرأة التى لها ارض تسمى قونتية وهو من القاب الامرآ يلقب به من هو فى المرتبة الثالثة من مراتب الشرف

حرف الكاف

كرلوس السابع

هو ابن الايمبراطور ليوپولد ولد سنة (١٦٨٥) وتولى ايمبراطورا على بلاد المانيا سنة (١٧١١) ومات سنة (١٧٤٠) وهو سادس ايمبراطور خرج من عائلة اوسترسيا وآخر ايمبراطرتها

كولونيا

اسم لمدينة فى بلاد البروسيا كانت سابقا تخت اقليم كولونيا وهى على شاطئ نهر الرين واغلب حاراتها ضيقة مظلمة و بيوتها رديئة البناء واعظم مبانيها الكنائس وفى ترسخاناتها عدة انواع من الاسلحة القديمة التى تتشوق النفس الى رؤيتها و يوجد فى المدينة معامل الدخان وورش القطن والقطيفة وغير ذلك واهلها تسعة وثلاثون الفا

حرف اللام

لوبيك

مدينة فى المانيا اسسها القونتة آدولف الثانى سنة (١١٤٠) محكمة البناء نظيفة الحارات كانت سابقا من اعظم مدن المانيا ثم نقصت عما كانت عليه وان كانت تجاراتها عظيمة الى الآن فقد كانت فى الزمن السابق كثيرة القلاع والحصون ثم انهدمت فى واقعة سنة (١٨٠٦) ولم يبق بها سوى الاسوار وبها معامل السكر واقمشة الصوف والحرير واقمشة الشراعات وبها ايضا معامل الدخان والصابون والدختيان وغير ذلك واهلها اربعون الفا

لونبرديه و يقال لمبرديه اولمبرديا

بضم اللام وسكون النون او الميم بعدها باء وحدة تحتية مفتوحة وراء ساكنة فدال مهملة مكسورة اسم لامة كانت فى الاصل بشمال اوروبا مقيمة بجزيرة

سكندناوة ثم نزلت بشواطئ نهرالبيس حتى دعاها يوسطنيانوس ببلاد ايطاليا المقاتلة الغوطيين واعطاها فى نظير ذلك اقليم نوريكة واقليم پانونية الاعلى ولازالت من يومئذ تزداد قوة وشوكة حتى تغلبت على بلاد الغلية واسست فيها مملكة وجعلت كرسيها مدينة پاوية هذا وذكر بعضهم ان اللمبردية فى الاصل من بلاد التتار

لويز التاسع وهو سنت لويز اى لويز القديس

هو احد ملوك فرنسا وهو ابن لويز الثامن ولد سنة (١٢١٥) وتولى المملكة سنة (١٢٢٦) وكان لين العريكة يحب اهل الفضل والمعارف وكان له شهامة عظيمة فى الحرب وانتصر فى عدة غزوات وتوجه الى مصر وتغلب على مدينة دمياط سنة (١٢٤٩) غير انه غلب فى بندر المنصورة واسر هو ومن معه من الملتزمين ومعظم جيشه ففدى نفسه بتسليم مدينة دمياط وفدى من معه من الاسرى بمبلغ جسيم من الاموال ثم سار الى فلسطين ومنها الى فرنسا واجتهد فى اصلاح ما فسد فيها مدة غيبته ونشر بين رعيته الوية العدل ثم ذهب سنة (١٢٧٠) الى بلاد افريقة وحاصر مملكة تونس واخذ قلعتها بعد ثمانية ايام ثم مات بتلك البلاد فى السنة المذكورة بمرض وبائى اصابه وكاد يهلك جيشه

لويز الحادى عشر

كان ملكا على فرنسا وهو ابن كرلوس السابع ولد سنة (١٤٢٣) وتولى المملكة سنة (١٤٦١) وصار يظلم الفرنساوية ويكلفهم من الفرد والغرامات ما لا يطيقون حتى افتقر اكابرهم واعيانهم وتعصب عليه الناس فابطل تعصبهم باعطائه لكل رئيس من رؤساء العصبة ما كان يطلبه وله غزوات عديدة مع الانكليز ومات سنة (١٤٨٣)

لويز السابع

هو ايضا من ملوك فرنسا وهو ابن لويز السادس الذى كان يلقب لوغروس اى الغليظ ولد سنة (١١٢٠) وتولى المملكة بعد ابيه سنة (١١٣٧) وكان

قد حكم معه بعض سنوات وحصل له حرب عظيم ادى به وبمملكته الى حالة سيئة وكان سببه تيبون الثالث قونتة شمبانيا فانتقم منه هذا الملك انتقاما شديدا واخذ منه مدينة وترى وخربها سنة (١١٤١) واهلك اهلها عن آخرهم ثم لامته نفسه على ذلك وضاق صدره من هذه الخطيئة فبحث عما يكفر ذنبه فافاده القديس برنارد ان مثل هذا الذنب لا يكفره الا زيارة بيت المقدس فعزم أن يعين المجاهدين النصارى على حماية الارض المقدسة وسافر اليها سنة (١١٤٧) ومعه جيش يبلغ ثمانين الفا ومع ذلك هزمته عساكر الاسلام وعاد الى بلاده ومات بمدينة باريس سنة (١١٨٠)

لويز العاشر

هو ملك فرنسا ونوار خلف اباه فى الملك سنة (١٣١٤) ودعا اليهود الى الاقامة بمملكته ووقع بينه و بين قونتة الفلمنك حرب لم ينجح فيه ومات فى مدينة ونسينة سنة (١٣١٦)

لويز لوغروس اى الغليظ

هو لويز السادس ابن فيليبش الاول ملك فرنسا ولد سنة (١٠٨١) وقيل سنة (١٠٧٧) وتولى المملكة سنة (١١٠٨) وفى مبدء حكمه اخذ فى القتال مع عدة من الملتزمين كانوا خارجين عن طاعته ومكث ثلاث سنوات وهو يبذل جهده فى اذلالهم حتى اخذ سنة (١١١٥) قلعتهم وهدمها ثم انعقد الحرب بينه و بين هنرى الاول ملك الانكليز ومازال الحرب بينهما الى حكم الملك كرلوس السابع وكان موت لويز المذكور سنة (١١٣٧) بعد ان مكث سنتين مقعدا

ليزيتاجنرو

بكسر اللام وسكون المثناة التحتية وكسر الزاى بعدها مثناة تحتية ساكنة فمثناة فوقية مفتوحة ثم جيم ونون مكسورتان وراء مضمومة معناه مشورة العموم او مشورة وكلاء المملكة وهى مشورة تنعقد فى ممالك اوروبا لاجل مصالح الرعايا وانما سميت بمشورة وكلاء المملكة لان اربابها يحضرون من الاقاليم بطريق الوكالة عن الاهالى

حرف الميم

ميلون و يقال مايلون

بميم مفتوحة لموحدة تحتية مكسورة ولام مضمومة اسم لمؤلف شهير ولد سنة(١٦٣٢)و بعث الى بلاد النيسا سنة(١٦٨٣)ليبحث عما يستمد منه تاريخ فرنسا وساح فى ايطاليا سنة(١٦٨٥)وكانت مصاريفه على طرف الملك ثم عاد الى فرنسا بفوائد عظيمة وثمرات جسيمة ومات بمدينة باريس سنة(١٧٠٧)

المجار

بفتح الميم والجيم اقليم كبير فى بلاد اوروبا محدود من جهة الشمال باقليم غاليسه ومن جهة الشرق باقليم الوالاشى ومن جهة الجنوب ببلاد الترك ومن جهة الغرب ببلاد المانيا واهله ملاح القدود شجعان محرصون على الانتقام والاخذ بالثار متدينون بالدين القاثوليقى غيران دائرة العلوم والمعارف عندهم ضيقة وقاعدة هذا الاقاليم مدينة بستة

السلطان محمد الثانى

يقال له السلطان محمد الاكبر ولد بمدينة ادرنة سنة(١٤٣٠) من الميلاد وخلف اباه وهو السلطان مراد الثانى سنة(١٤٥١) و بمجرد تسلطنه تعلقت آماله بقتال اليونان فحاصر القسطنطينية وفتحها عنوة سنة (١٤٥٣)وحاصر ايضا بلغرادة واستولى على قورنثة وضرب الجزية على بلاد مورة وفتح ايضا مدينة طرابوزان وغيرها واغار سنة(١١٧٠) على جزيرة اغر يوزة التى يقال لها فى بعض الكتب العربية نقر بنت واستولى على قاعدة مدنها و بعد ذلك بعشر سنوات ارسل عمارة سفن كبيرة الى جزيرة رودس وفزعت منه بلاد ايطاليا و بلاد اوروبا و آسيا ولم ينقذها منه الا موته فانه كان يضاهى اسكندر الاكبر وكان موته سنة(١٤٨١) من الميلاد واستغرقت مدته احدى وثلاثين سنة

المشورة الاوليقية

هي مشورة وظيفتها بت الحاكم في سائر ما يقام فيها من الدعاوى ومتى حكمت بشيء فلا يمكن نقضه وتطلق ايضا على مشاور خصوصية لبعض ملوك المانيا

مقدونيا

اقليم شهير ببلاد اوروبا محدود من جهة الجنوب باقليم تساليا وجزائر الارخبيل ومن جهة الشرق باقليم تراسة ومن جهتي الشمال والغرب بسلسلة جبال فاصلة بينه وبين اقليم بلغار وهو جزء من بلاد روملي ويسمى عند الترك فيليب ولايتي اى ولاية فيليب لانه وطن فيليش ابي اسكندر الرومي المشهور

مورة

شبه جزيرة في جنوب بلاد اليونان محدودة من جهة الشمال بجون ليبنته ومن جهة الشرق بجون اثينا وجون نابولي ومن جهة الجنوب بجون قولوشينة وجون قورون ومن جهة الغرب بخليج اركاديا وكانت تشتمل سابقا على عدة ايالات كثيرة العمران ومعظم ارضها جبلية الا ان فيها كثيرا من السهول اللطيفة والاودية النضرة الخصبة ويزرع بها القمح والعنب والثمار وهي من اصلح البلدان واحسنها وضعا بالنظر للتجارات البحرية وبها عدة مينات لطيفة كمينا پتراس ومينا قورون ومينا ناواران الشهيرة بالواقعة العظيمة التي حصلت عن قريب بين السلطان محمود وملوك الافرنج الذين استعان بهم اهل مورة بعدان كانت قواهم بجيوش صاحب السعادة ولي مصر وشبله ابراهيم ضرغام العصر ومفتاح النصر

مونتسكيو

بضم الميم وسكون الواو والنون وكسر المثناة الفوقية وسكون السين المهملة بعدها كاف مكسورة فمثناة تحتية مضمومة اسم لمؤلف شهير ولد سنة (١٦٨٩) وتعلقت اماله بالتأليف حين بلغ من العمر عشرين سنة فالف تآليف نفيسة منها كتابه المسمى روح الشرائع وكتابه المسمى بالمراسلات

الفارسية والكتاب الذى بين فيه ماسباب تقدم دولة الرومان واضمحلالها وقد ساح فى بلاد اوروبا ولاحظ فى سياحته ما يلايم كل مملكة من الممالك التى سافر اليها فقال ان بلاد المانيا تليق للسياحة و بلاد ايطاليا للاقامة و بلاد الانكليز تصلح لقدح الذهن واعمال الفكرة و بلاد فرنسا للمسرة وطيب العيش

مونرشيكى

بضم الميم وسكون الواو وفتح النون وسكون الراء وكسر الشين المعجمة والكاف بينهما مثناة تحتية يقال حكومة مونرشيكية اى ملوكية اى مملكة يحكمها ملك و يقال حكومة ديموقراطية اى جمهورية يحكمها اهلها من غير ان يكون لهم ملك و يقال ايضا حكومة ارستوقراطية وهى التى يكون الحكم فيها للاكابر والاعيان

دوقية ميلان و يقال ميلانيس او ميلانيز

اسم لقسم عظيم من بلاد ايطاليا تنازع عليه امراء عائلة سفورس والملك لويز الثانى عشر مدة مستطيلة فى اوائل القرن السادس عشر و بعد لويز المذكور حصل النزاع عليه بين الامراء المذكورين والملك فرنسيس الاول ولم ينجح فى ذلك لما ان الايمبراطور شرلكان اخذ هذه البلاد تحت حمايته لانها كانت من جملة التزامات ايمبراطوريته ثم آل امرها الى ان صارت من جملة اراضى شرلكان

حرف الهاء

هزيودوس و يقال هزيود

هو رجل شهير من شعراء اليونان ولد بمدينة كومة وهو اول من نظم فى علم الزراعة نظما لطيفا حتى ان فيقورون اشار على تلامذته بان يامر تلامذته بحفظ تلك المنظومة والف عدة تآليف نفيسة قيل انه مات قتيلا قتله اللوكريليون والقوه فى اليم

همبورغ

مدينة في بلاد المانيا ذات تجارة عظيمة وحاراتها ضيقة وبيوتها عالية جدا اسمها الامبراطور كرلوس مانوس

هنري الاول

هو ابن هوتون دوق سكس ولد سنة (٨٧٦) وخلف كونراد ملك جرمانيا سنة (٩١٩) وكان ذا مهارة ونشاط حتى انه رتب قوانين بديعة النظام وانشأ عدة مدن حصينة وهزم البوهيميين والاسكلاووليين والدانيمرقيين وكذلك المجار سنة (٩٣٤) بمدينة مرسبورغ وشن الغارة على مملكة لورين ومات سنة (٩٣٦)

هنري الثالث

هو ابن الامبراطور كونراد الثاني ولد سنة (١٠١٧) وخلف اباه في الامبراطورية سنة (١٠٣٩) ووقعت له حروب مع اهل بولونيا وبوهمية والمجار ومات سنة (١٠٥٦) بمدينة بوتغلدة في مملكة سكس

هنري الخامس

لبس تاج الملك سنة (١٤١٥) وتغلب على بلاد نورمنديا ومات وعمره ست وثلاثون سنة

هنري السادس

هو ابن هنري الخامس خلف اباه في ممالكه سنة (١٤٢٢) وهو ابن عشرة اشهر وكان وصيه على فرنسا الدوق بيدفورد ووصيه على بلاد انكلترة الدوق غلوستير لكن فيما بعد ضاعت منه هاتان المملكتان واخذ اسيرا وسجن في برج بمدينة لندرة حتى قتله غلوستير في السجن سنة (١٤٧١)

هوغس كابيت

هو اول ملوك الدولة الثالثة من دول فرنسا ولذا تنسب اليه فيقال الدولة الكابيتية وتملك على فرنسا لما حازه من وفور الشجاعة وحميد الخصال ومعنى كابيت الرأس الكبير قيل لقب به لكبر رأسه وقيل لعظم قريحته وحدة ذهنه ولد سنة (٩٤٢) وتولى ملكا على فرنسا سنة (٩٨٨) ومات سنة (٩٩٦)

هوم

بضم الهاء وسكون الواو رجل شهير يسمى داود هوم ولد سنة (١٧١١) فى مدينة ايدمبورغ بمملكة ايقوسيا وهو من عائلة فقيرة اشتغل اولا بالفقه والاحكام ثم تعلق بالآداب والفلسفة وصرف همته فى السياسة حتى انه استخدم فيما بعد بوظيفة كاتب سر الجيشة الامير سنت كاير وغيره ثم تخلى بالكلية عن المصالح العمومية ومات سنة (١٧٧٦) وله تآليف عظيمة فى الفلسفة والآداب والسياسة والتواريخ بل وفيما فوق الطبيعيات وترجمت جميع كتبه من لغته الانكليزية الى غيرها من اللغات الاجنبية لكونها كثيرة الفوائد نفيسة الفرائد

هيلانيكوس

بكسر الهاء اسم لمؤرخ شهير من اليونان ولد قبل الميلاد بار بعمائة واحدى عشرة سنة وله مؤلفات عظيمة تكلم عليها المؤلف هورنز

حرف الواو

ورجيل

بكسر الواو وسكون الرآء وكسر الجيم اسم لشاعر لاطينى شهير ولد قبل الميلاد بسبعين سنة ومارس العلوم والآداب وسافر لتحصيلها فى عدة مدن ثم ذهب الى مدينة رومة فتلقى فيها بالترحيب والاكرام من فضلائها واعيانها لاسيما القيصر اوغسطوس وكان من شيمته التواضع والخمول مع انه كان من عظماء اهل عصره وكان بمكانة جليلة عند الرومان مات بعد الميلاد بتسع عشرة سنة

ولتير

بضم الواو وسكون اللام وامالة المثناة الفوقية بين الفتحة والكسرة عالم فلسفى شهير ولد سنة (١٦٩٤) لكن الشئ اذا تجاوز الحد رجع الى الضد وكان الجهل مضر فكذلك مقابله اذا صاحبته اساءة الغير وذلك ان هذا العالم افضت به غزارة علمه الى القدح فى الاديان بل وفى كثير من ملوك عصره فعوقب بالطرد

عن وطنـه وعن كل موضع اراد النزول به ومع ذلك فلم يزل يسخر من النـاس ويعيب عوايدهم وادياتهم مات سنة (١٧٧٨) وله مؤلفات عديدة منها كتاب تاريخ كرلوس الثاني عشر الذى ترجم الى العربية وسمى بمطالع شموس السير في وقائع كرلوس الثاني عشر ولكن قل من كان يثق بتأليف هذا الرجل العجيب

الوندال

بفتح الواو وسكون النون اسم لامة من الجرمانيين كانت على شواطئ بحر بلطق ثم اغارت على بلاد الغلية وطردت الرومان من اسبانيا واسست فيها مملكة الاندلس ثم اجلاها عنها الغوطيون فنزلت كالجراد المنتشر على مملكة الرومان فخربتها ومحت منها الفنون عن آخرها

وقد يسر الله سبحانه وتعالى تميم ترجمة هذا الكتاب وتعريبه * وتحريره حسب الامكان وتهذيبه * على يد ناظر مدرسة الالسن ورئيس قلم الترجمة خيار بحمد الله تعالى من كتب التواريخ المهمة * وكان حريا بالظهور في دولة الداورى ولى النعمة

وقد طبع بمطبعة صاحب السعادة الابدية التي انشاها ببولاق مصر المحمية لثلاث خلت من صفر الخير سنة ١٢٥٨